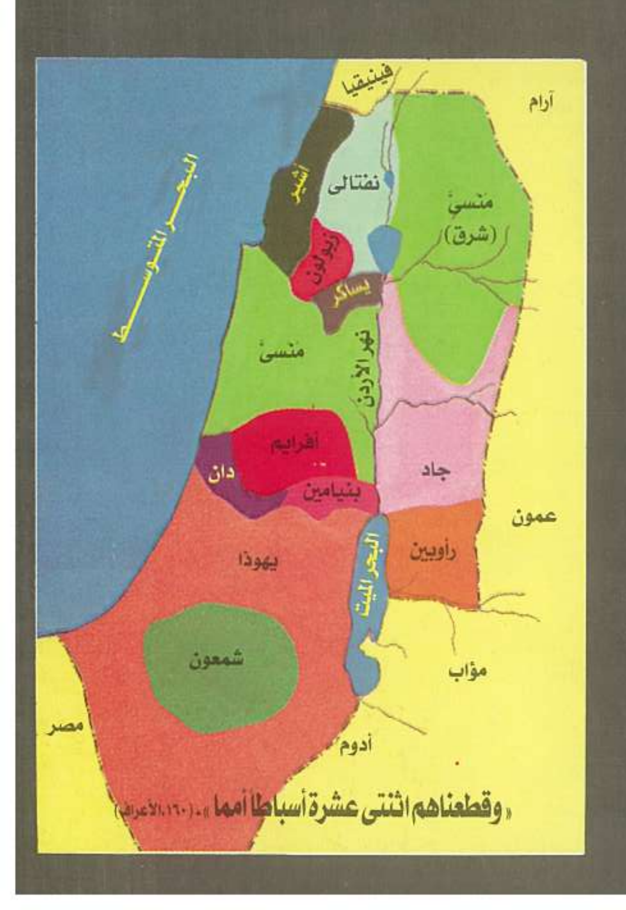
أنبياء بني إسرائيل

يشوع . صموئيل . داود . سليمان . يونس . إلياس
اليسع . شمعيا . إشعياء . إرميا . حزقيال . دانيال
وغيرهم عليهم السلام جميعا .





قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الخامس

تأليف دكتور
رشدي البدراوي
الاستاذ بجامعة القاهرة

أنبياء بني إسرائيل

يشوع . صموئيل . داود . سليمان . يونس . إلياس
اليسع . شمعيا . إشعياء . إرميا . حزقيال . دانيال
وغيرهم عليهم السلام جميعاً .

قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الخامس

تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الاستاذ بجامعة القاهرة

قصص الأنبياء والتاريخ. الجـزء الخامس

أنبياء بنى إسرائيل

د . رشدى البدراوى

يناير ٢٠٠١



رقم الإيداع ١٦٠٤ / ٢٠٠١

محتويات الجزء الخامس

الفصل الثالث والعشرون : الثورة المكابية

مقدمــة

هذا هو الجزء الخامس من سلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ». وهو يغطى فترة زمنية تمتد أحد عشر قرنا. تبدأ من عام ١١٦٥ ق.م. وهو العام الذى تُوفى فيه موسى عليه السلام وتولى يشوع قيادة بنى إسرائيل لدخول «الأرض الموعودة». وينتهى فى عام ٦٣ ق.م. عند استيلاء الرومان على فلسطين. وسيبدو واضحا فى هذا الجزء تداخل قصص الأنبياء مع التاريخ بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. وأنبياء بنى إسرائيل عديدون. وقد ذكرنا فى هذا الجزء سبعة وعشرين نبيا هم: يشوع. دبورة النبية. جدعون بن يوآش. صموئيل. داود. سليمان يونان (يونس). إلياس (إيليا). اليسع (أليشع). شمعيا. عزريا بن عوديد. يحزئيل بن زكريا. أليعازار. إشعياء. ميخا. صفنيا. ناحوم. إرميا. حبقوق. أوريا. حزقيال. حننيا. دانيال. نحميا. ملاخى. عزرا. حجّى. وتُصنّفهم التوراة إلى «أنبياء كبار» وهؤلاء كانت فترة نبوّتهم تمتد لعدة سنوات. وغالبا ما يقودون حركة إصلاح دينى ولهم رؤى أو نبوءات. و«أنبياء صغار» وهؤلاء كانت مهمتهم النبويّة محدودة كأن يلفتوا نظر الملك المعاصر إلى خطأ ارتكبه أو ينصحوه – أو ينهوه – عن دخول حرب ما. والكل كانوا يسيرون على الشريعة الموسوية ويحضّون على التمسك بها.

وكان عديد من «الأنبياء الكبار» يتنبأون بأحداث تقع فى المستقبل القريب وتتعلق بالحالة السياسية للدولة – أو للدول المجاورة – الأمر الذى جعل هؤلاء الأنبياء فى بؤرة الصراع ومشاركين – أو مُوجِّهين – للأحداث السياسية. وكان لزاما علينا أن نذكر بشيىء من التفصيل الأحداث التاريخة المعاصرة حتى يمكننا أن نفهم مغزى نبوءاتهم ومن هنا كان «الجزء التاريخى» يكاد يساوى «قصص الأنبياء» بل ويزيد عنه فى بعض الأحيان. وقد بُذل مجهود كبير لتبسيط المعلومة التاريخية واختصارها بقدر الإمكان لتكون فى حدود الهدف منها وهو فهم قصص الأنبياء.

ومما هو جدير بالذكر أن المراجع الإسلامية عندما تذكر قصتى داود وسليمان عليهما السلام تُركّز على جانب النبوّة وتهمل جانب المُلك مع أن كلا منهما كان ملِكاً ونبياً. والجانب السياسى فى حياتيهما لا يقل أهمية عن جانب النبوّة. وفى قصة يونس عليه السلام سنرى كيف أن المعلومة التاريخية قد ساعدت على فهم أعمق لتسلسل الأحداث مما أدى إلى رؤية جديدة فى تفسير الآيات القرآنية الواردة عنه. كذلك سنلمس فى هذا الجزء براعة اليهود فى التغلغل فى نظام الحكم فى فارس حتى صارت لهم كلمة عليا فى الشئون السياسية استغلوها لصالحهم. وهو دور يشبه سيطرتهم الحالية على الرأى العام ومراكز صنع القرار فى كثير من دول العالم الغربى.

وأخيرا فقد أضيفت ثلاث خرائط (شكل ١٠٤ – ١٠٥ – ١٠٦) تبين أهم المدن فى الشام وفلسطين القديمة. وقد وُضعت فى آخر الكتاب حتى يسهل على القارىء الرجوع إليها كلما أراد معرفة موقع مدينة جاء ذكرها فى المتن.

أرجو أن أكون – بهذا الجزء – قد ألقيت الضوء على جوانب كانت خافية من قصص أنبياء بنى إسرائيل. وفى الجزء السادس إن شاء الله سنذكر آخر أنبيائهم: زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام

والله ولى التوفيق،،

يناير ٢٠٠١ المؤلف

الفصل الأول

أرض كنعان = فلسطين

وقفنا فى آخر الجزء الرابع عند وفاة موسى عليه السلام بعد أن مكَّن بنى إسرائيل من تملُّك الأرض الواقعة شرق نهر الأردن. وقد ذكرنا سابقا (ص١١١٢) أن الله أمره أن لا يعبر نهر الأردن وإنما يشوع هو الذى يعبر. ودعا موسى يشوع وقال له أمام أعين جميع إسرائيل: تشدَّد وتشجَّع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب إلى الأرض وأنت تقسمها لهم (تثنية ٣١) وقبل أن نشرح كيفية تملُّك «الأرض» علينا أن نذكر نبذة مختصرة عن بعض النقاط الآتية :

- جغرافية أرض كنعان .
- التركيب السكانى لفلسطين فى ذلك الوقت .
- المعتقدات الدينية لسكان فلسطين القدامى .
- الوضع السياسى .

الاسم « أرض كنعان » :

كنعان هو ابن حام بن نوح عليه السلام (الجزء الأول. ص١٣٥، ١٣٦). وانتقل أبناء كنعان الأحد عشر وسكنوا على ساحل البحر المتوسط فى المنطقة الممتدة من صيدون إلى غزة أى الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى للبحر المتوسط وسُميت هذه المنطقة على اسمه «أرض كنعان» وسكانها «كنعانيون». إلا أن هناك من يرى (د. محمد بيومى مهران. مصر والشرق الأدنى القديم. جـ ٨ بلاد الشام. ص٧٩) أن كلمة كنعان مشتقة من خَنَعَ – قَنَعَ – إشارة إلى الأرض المنخفضة. على عكس مرتفعات لبنان. ولما كان سكانها يسكنون السهول الساحلية المنخفضة لذلك سُمُّوا «كنعانيين». وهناك من يرى اشتقاقا آخر. إذ أن كلمة «كناجى» فى اللغة الحورانية تعنى اللون الأحمر ومقابلها فى اللغة الأكدية كلمة «كناخِى». وفى الفينيقية «كينغ» ومنها «كنع» و «كنعان». ومن هنا يرى بعض علماء التاريخ أن أرض كنعان كانت فى الماضى تشمل أيضا الجزء الشمالى من ساحل البحر المتوسط والذى أطلق عليه اليونانيون اسم

«فينكس» Phoenix وهى كلمة تعنى اللون الأحمر لما تخصصت به هذه المنطقة منذ القدم فى صناعة نوع من الصبغة الأرجوانية التى كانوا يستخرجونها من حيوانات بحرية رخوة تكثر قرب شواطئها. ومن هنا جاء اسم «فينيقيا». وقد اشتهر نساء هذه المنطقة – وبالأخص مدينة صور – باستخدام الألوان الزاهية الجميلة – وخاصة الحمراء – فى صباغة ما برعن فى تطريزه من أقمشة. (مصر والشرق الأدنى القديم. د . نجيب ميخائيل إبراهيم. جـ٣.ص٤٤). ثم أصبح اسم «فينيقيا» يطلق على الجزء الشمالى وهو لبنان حاليا. واسم «أرض كنعان» يطلق على الجزء الجنوبى الممتد حتى حدود مصر.

وإلى الشرق من فينيقيا تقع الدويلات الأرامية (شكل ١ وانظر أيضا الجزء الثانى من هذه السلسلة. ص١٨٢ . ١٨٣). وكانت هذه المنطقة تسمى «شرين Shryn» وفى المصادر العبرية تسمى «سريون» وهى تعنى إقليم لبنان الداخلى. وكان البابليون يطلقون على جزء الفرات الموجود ناحية الساحل اسم «سر – رى» أو «سو – رى» ومنه جاء اسم سوريا. أما العرب فكانوا ينتقلون فى تجارتهم بين اليمن فى الجنوب وفينيقيا فى الشمال فقابلوا بينهما : اليد اليمنى ناحية اليمن واليد اليسرى أو «الشوَلى» أو «الشومَى» فى الناحية الأخرى ومن هنا جاء اسم «الشام» ليشمل سوريا ولبنان.

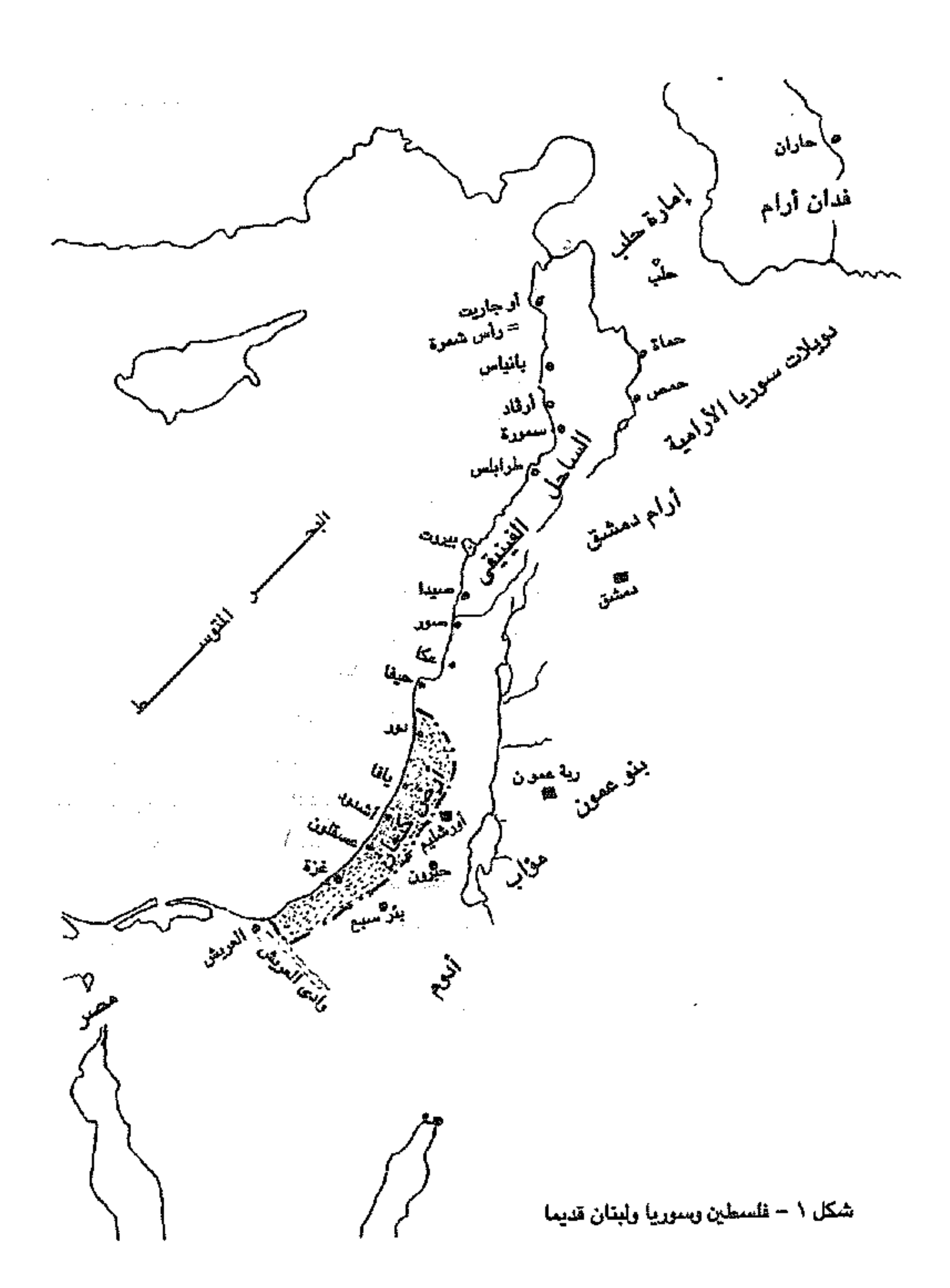
جغرافية أرض فلسطين

تنقسم فلسطين بدءا من ساحل البحر المتوسط فى اتجاه الشرق إلى ٥ مناطق جغرافية هى (شكل ٢) :

١ – السهل الساحلى .
٢ – سلسلة الجبال الوسطى .
٣ – غور الأردن .
٤ – جبال شرق الأردن .
٥ – الصحراء الشرقية .

١ – السهل الساحلى :

وهو يمتد من صور شمالا إلى ما بعد غزة بقليل أى لمسافة ١٩٣ كيلو مترا تقريبا. ويمكن تقسيم السهل الساحلى إلى أربع مناطق من الشمال إلى الجنوب:



شكل ١ – فلسطين وسوريا ولبنان قديما

أ - فى أقصى الشمال «**سهل عكا**» ممتدا من صور قرب مصب نهر الليطانى إلى جبل الكرمل وعلى البحر مدينة حيفا الحالية. وتقع مدينة عكا فى ثلثة الجنوبى.

ب - يلي ذلك جزء صغير يسمى «**سهل دور**» نسبة إلى ميناء «دور» وهو يمتد من جبل الكرمل إلى نهر الحاضرة، وهو سهل ضيق.

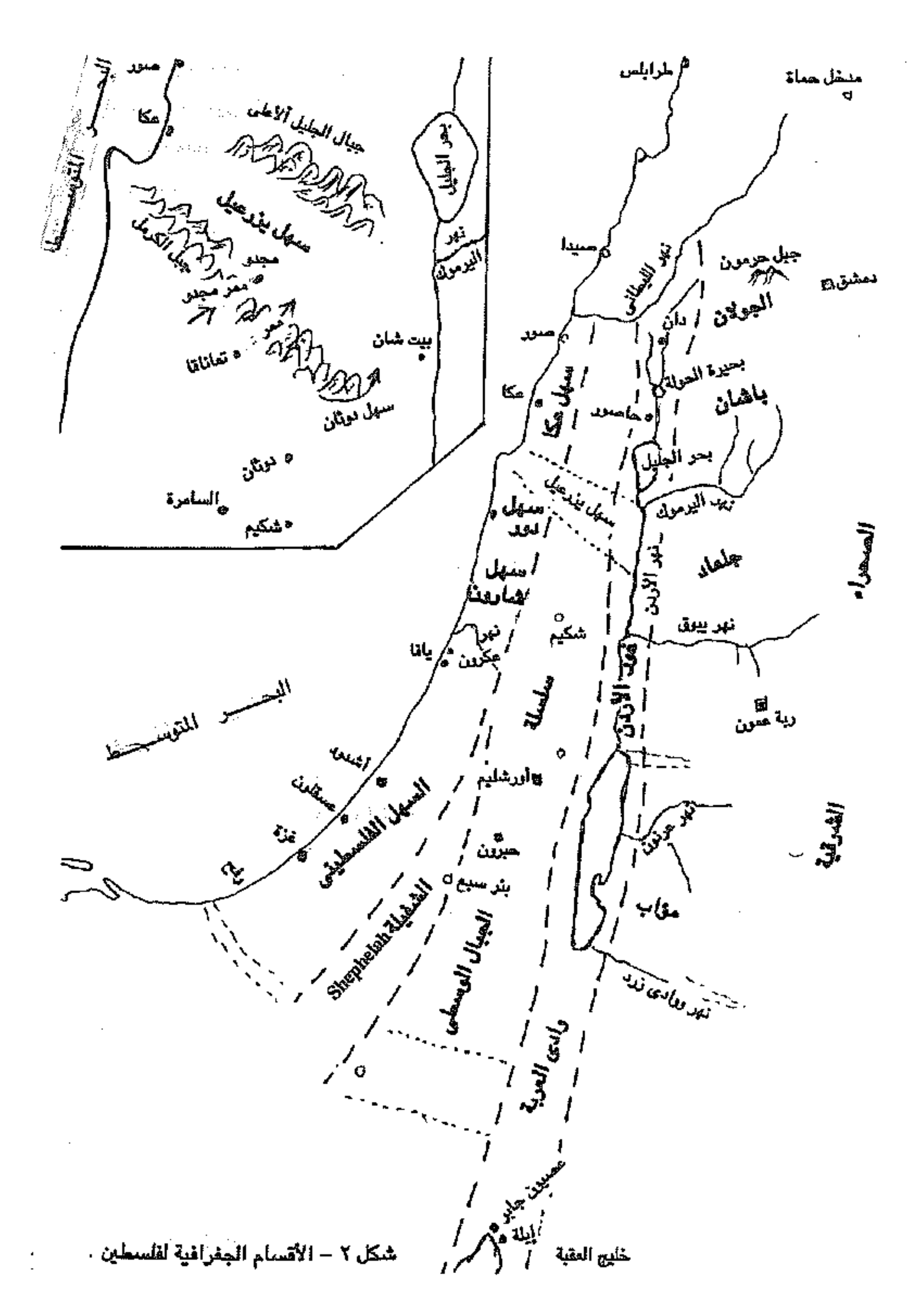
جـ - بعد ذلك يأتى «**سهل شارون**» وهو متسع ويمتد إلى نهر عكرون.

د - وأخيرا «**السهل الفلسطيني**» الأكثر اتساعا والذى يمتد حتى الحدود مع مصر.

ويتكون السهل الساحلى من تلال صغيرة تغطيها طبقة من الطمى. إلا أنه فى الشمال توجد بعض التلال من الحجر الجيرى. ويخلو السهل الساحلى من العوائق الجغرافية ولذلك أصبح هو الطريق الطبيعى المُوصِّل بين سوريا وأشور وبابل فى الشمال ومصر فى الجنوب وإن كان على المسافرين أن يتخطُّوا بعض العقبات المتمثلة فى بعض الكثبان الرملية وعبور نهر عكرون المتسع نوعا ما وبعض المنخفضات التى تتحول إلى مستنقعات فى أشهر الشتاء. كذلك يجب على المسافرين الدراية بآبار مياه الشرب والأنهار والجداول.

ولما كان ساحل البحر يخلو من أى خلجان أو تعرجات فإن المدن الساحلية لم تكن موانى بمعنى الكلمة فيما عدا عكا التى تقع فى خليج عكا. وهذا بعكس الساحل الفينيقى فى الشمال الذى يكثر به الرؤوس والخلجان فكانت موانيه كثيرة مما شجَّع على بناء السفن. وتوسَّعَ أهله فى التجارة البحرية وبرعوا فى تسيير الأساطيل إلى قبرص وكريت واليونان.

ويطلق اسم «الشفيلة Shephelah» على ذلك الجزء من جنوب فلسطين الممتد بين المنطقة الجبلية فى الشرق والسهل الساحلى فى الغرب ولو أن البعض يعتبر هذا الاسم يشمل السهل الساحلى أيضا. وعرض «الشفيلة» حوالى ١٢كم وطولها حوالى ٦٠كم وارتفاعها يتراوح بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ قدم. وتحتوى على مدن دفاعية مهمة وهى لخيش Lachish و دبير Debir و لبنة Libnah وبيت شميس Beth - Shemesh. وكان سكان مدن السهل الساحلى يستفيدون من تقديم الزاد والمؤن للقوافل المارة. ولكن أوقات الحروب كانت نقمة عليهم إذ تكتسح الجيوش المنطقة وتستولى على المحاصيل لإطعام الجنود وتقوم أحيانا بأسر بعض الأفراد لخدمة المحاربين. وقد ازدهرت المستعمرات الكنعانية على الساحل الفلسطينى فى صورة مدن أو شبه ثغور إذ تحميها الجبال من خلفها. وكانت كل مدينة عبارة عن إمارة مستقلة عن جاراتها وإن كان ينشأ بينها أحيانا اتحاد يجمعها لمواجهة خطر ما أو بدافع مصلحة مشتركة. وكانت إحدى المدن تتزعم الاتحاد فكانت صيدا زعيمة الاتحاد فى القرن الحادى عشر ثم صور فى عهد الملك حيرام الذى كان معاصرا لسليمان عليه السلام. ولكن لما استولت أشور على المنطقة انحلت عرى الرابطة بينها.



شكل ٢ – الأقسام الجغرافية لفلسطين .

بقى سهل يجب التحدث عنه وإن لم يكن سهلا ساحليا .. ذلك هو «**سهل يزرعيل**» ويُسمَّى أيضا «**السهل الكبير**» (شكل ٢) وهو يمتد من البحر المتوسط غربا إلى غور الأردن شرقا. وشكله يشبه مثلث متساوى الساقين تقريبا قاعدته عند غور الأردن طولها ٢٥ كيلوا مترا وعندها تقع مدينة بيسان (بيت شان القديمة) وهى تحرس الوادى ضد أى هجوم من ناحية نهر الأردن. أما ضلع المثلث الشمالى فهو جبال الجليل الأعلى. وضلعه الجنوبى يتكوَّن من سلسلة جبال الكرمل والمسافة من القاعدة إلى القمة حوالى ٤٠ كيلو مترا. والقمة تقع على الطريق الساحلى بين سهل دور وسهل شارون فى الجنوب والساحل الفينيقى فى الشمال. وسهل يزرعيل هو باب فلسطين ومفتاحها من ناحية الشمال إذ يتعين على الغزاة أن يمروا به ولذلك فإن مدينة مجدو لها موقع استراتيجى هام فى الدفاع عن السهل ومن ثَّم فى الدفاع عن فلسطين. ويمكن الوصول إلى سهل يزرعيل عن طريق ٣ ممرات رئيسية:

١ – ممر يلتف حول الطرف الجنوبى لسلسلة جبال الكرمل حيث يوجد سهل دوثان وهو أوسعها وأسهلها مرورا للقوافل إذ يوصِّل من سهل شارون على الساحل إلى سهل يزرعيل ومن ثم إلى شرق الأردن. أما بالنسبة للجيوش فهو أكثرها توقعا من العدو وبذلك ينعدم عنصر المفاجأة. وهو عنصر هام فى الحروب.

٢ – ممر فى الجبال قبالة بلدتى تعاناقا وجفتى.

٣ – ممر ضيق قبالة بلدتى عارونا ومجدو. وهو لا يتسع إلا لصف واحد من الجنود لعبوره ويسهل اصطياد الجنود بالسهام من قمم الجبال المجاورة وهو غير مطروق لوعورته ويكون عبوره مجازفه كبيرة إلا أنه إذا أمكن عبورهُ فى سرِّية تامة فإن حامية مجدُو تجد نفسها أمام جيش معاد وتسقط بسهولة. وهذا ما اتبعه تحوتمس الثالث (انظر الجزء الثالث. ص ٥٤٧).

٢ – سلسلة الجبال الوسطى :

وهى تمتد من بحر الجليل فى الشمال حتى هضبة النقب فى الجنوب وهى تتكون من الحجر الجيرى الصلب وترتفع لأكثر من ٣٠٠٠ قدم عن سطح البحر (٩١٥ مترا). ويقطعها أفقيا سهل يزرعيل فى الشمال وحوض النقب جنوبى بئر سبع. وبذلك يمكن المرور بسهولة نسبية فى اتجاه الشرق – غرب. كما يقطعها عدد من مجارى الأنهار الصغيرة التى تصب فى البحر المتوسط أو فى نهر الأردن والتى تجعل من السير عبر الجبال عملية شبه مستحيلة إذ يضطر المسافر إلى النزول إلى قاع الوادى فى انحدارات شديدة ثم الصعود فى الجهة المقابلة لأعلى الجبل ثانية. لذلك خلت سلسلة الجبال الوسطى من طرق مواصلات مطروقة إلا من طريق رئيسى يربط بين شكيم فى الشمال وحبرون فى الجنوب.

وسلسلة الجبال الوسطى هذه غزيرة الأمطار (٥٠٠ – ١٠٠٠مم فى السنة) وتربتها خصبة.

وعلى سفوح الجبال تجود زراعة أشجار الزيتون والكروم ويزرع القمح فى مصاطب. كما أن الأمطار الزائدة تتشرب فى الأرض وينتج عنها عيون مياه فى الوادى.

والإقليم الجبلى هذا ليس به مدن كثيرة. وأهم مدنه هى أورشليم وبيت لحم وحبرون. وأشهر الجبال هى التلال الواقعة حول أورشليم: جبل صهيون وجبل الزيتون. وشمال وجنوب شكيم يقع جبل عيبال وجبل جرزيم. وعلى هذا الأخير أقام سكان المملكة الشمالية (إسرائيل) معبدا لينافسوا به معبد أورشليم. والجبال غرب البحر الميت سكنها سبط يهوذا ولذلك تسمى جبال يهوذا.

٣ - غور الأردن :

وهو يمتد من دان فى أقصى الشمال إلى الطرف الجنوبى للبحر الميت وهى مسافة تبلغ ٢٤٠ كم ويستمر إلى إيلات وعصيون جابر على الطرف الشمالى لخليج العقبة فى مسافة تبلغ ١٧٥كم تقريبا. ويسمى الجزء الشمالى من الغور بحوض الحولة وهو غزير الأمطار وافر المياه إذ به بحيرة الحولة ويغذيها بالمياه فرعان من الشمال. ومن جنوبها ينبع نهر الأردن. ثم يسير النهر ليدخل فى بحر الجليل (بحيرة طبرية) والذى ينخفض ٦٩٠ قدما تحت سطح البحر. وأبعاد بحيرة طبرية تبلغ ١٢×٢١ كم وماؤها عذب وهو زاخر بالسمك وتجود المحاصيل على شواطئها. ثم يسير النهر ليصل إلى البحر الميت وهى مسافة تبلغ ١٥٠كم ولكن لكثرة تعرجات النهر فإن طوله الفعلى يكاد يصل إلى الضعف إذ يبلغ حوالى ٢١٥ كيلو مترا. وفى شاطئه الشرقى يستقبل نهر اليرموك الذى يضيف إلى النهر كمية مياه مساوية لتلك الآتية من بحر الجليل. وفى منتصفه - من الشرق أيضا - يستقبل نهر يبوق (نهر الزرقا حاليا) وفى مقابله يستقبل نهر الفارعة. ويختلف عرض وادى نهر الأردن: ففى الشمال يبلغ ٥,٥كم ويتسع مقابل أريحا إلى ٢٢كم تقريبا. وينتهى نهر الأردن إلى مصب فى البحر الميت والذى ينخفض ٤٠٠ مترا (١٣١٠ قدما) عن سطح البحر.

والبحر الميت بحر مقفل أبعاده ٧٦×١٨كم. وهو أعمق فى ثلثيه الشماليين. أما الثلث الجنوبى فهو ضحل. وبسبب البخر من سطحه وعلى مر آلاف السنين زادت نسبة الملوحة فى مائه حتى وصلت لدرجة قتلت جميع الأحياء فيه ولذلك سمى «البحر الميت Dead Sea» أو «البحر المالح Salt Sea». وهو يستقبل فضلا عن نهر الأردن. نهر «عرنون» فى منتصف شاطئه الشرقى ونهر «زرد» فى الطرف الجنوبى وإن كان جافا معظم أيام السنة ولذلك يسمى «وادى زرد».

والجزء من الغور غربى البحر الميت صخور جرداء تسمى **«برية يهوذا»** تليها غربا جبال يهوذا (وهى جزء من سلسلة الجبال الوسطى) وتليها غربا **«الشفيلة»** ثم السهل الساحلى.

بعد البحر الميت يمتد الغور فيما يسمى **«وادى العربة»**. والذى تحده من الشرق جبال أدوم (جبال سعير) ومن الغرب مرتفعات النقب. حتى الطرف الشمالى لخليج العقبة .

٤ – جبال شرق الأردن :

وهى تقع شرق غور الأردن وتمتد من جبل حرمون (جبل الشيخ) فى الشمال إلى الطرف الشمالى لخليج العقبة. والجزء الشمالي يسمى «باشان» وهو هضبة الجولان الحالية التى تقع بين جبل الشيخ ونهر اليرموك. يلى ذلك جنوبا «أرض جلعاد» التى تمتد إلى الطرف الشمالى للبحر الميت ويقسمها فى المنتصف «نهر يبوق» (نهر الزرقا). أما المنطقة شرق البحر الميت فكانت تسمى مؤاب وهى تمتد حتى «وادى زرد» ويقسمها فى المنتصف نهر «عرنون». أما جنوب البحر الميت فإن سلسلة الجبال تمتد حتى تصل إلى خليج العقبة وتصل إلى ارتفاعات ٤٥٠٠ قدما (١٣٧٠ مترا) وكانت تسمى فى ذلك الوقت جبال سعير. والجزء الشمالى كان به من الأمطار ما يسمح بزراعة القمح والشعير. وجبال سعير مع وادى العربة يشكلان معا ما كان يسمّى «أرض أدوم» التى سكنها بنو عيسو شقيق يعقوب عليه السلام. وأشهر مدن أدوم هى البتراء التى اتخذها العرب النبط عاصمة مملكتهم (من ٢٠٠ ق.م. إلى ٢٠٠ ميلادية). ولكن توجد مدن أخرى هامة مثل بُصرى وتامار وصوغر. وهذه الأخيرة هى الوحيدة التى بقيت من مدن قوم لوط الخمس (انظر جـ ٢ من هذه السلسلة شكل ٧٤ ص ٣١٠).

٥ – الصحراء الشرقية :

وهى آخر الأقسام وتمتد من جبال شرق الأردن حتى نهر الفرات فى العراق بعد مسافة ٧٢٥كم تقريبا. وكان يسكن هذه المنطقة المقفرة قبائل أمورية وأرامية وعرب النبط. وكانوا كثيرا ما يغيرون على سكان أراضى الهلال الخصيب. كما كانت الحروب فيما بينهم كثيرة.

الطرق الطبيعية

تنبع أهمية هذه الطرق من أنها وقت السلم تستخدم طرقا للقوافل التجارية لذلك كانت الدول تتسابق للسيطرة عليها إذ أنها تسهل تجارتها – صادرات أو واردات – مما يزيد من رخائها. بالإضافة إلى الدخل المتمثل فى الرسوم التى تدفعها قوافل الدول الأخرى عند مرورها فيها. كما أنها وقت الحرب تستعمل لمرور الجيوش والمعدات الحربية. وسكان المدن التى تمر بها هذه الطرق يتعرضون لأنواع مختلفة من الحضارات والثقافات والديانات مما يجعلهم يتأثرون بها. مثال ذلك أن السامرة – عاصمة المملكة الشمالية – كانت تقع على طرق القوافل مما كان له أثر فى انسياق أهلها وراء آلهة الدول التى كانت قوافلها تمر بهم. بعكس أورشليم التى تقع فى جبال يهوذا بعيدا عن طرق القوافل مما حماها إلى حد كبير من التأثر بعبادات الدول المجاورة

ويمكن تقسيم الطرق إلى: طرق دولية وطرق محلّيّة. وأهم هذه الطرق موضّح فى شكل ٣.

وهناك طرق فرعية بين القرى لم توضع على الشكل لكثرتها ولعدم أهميتها التجارية أو السياسية.

التركيب السكانى

يمكن تقسيم الأقوام التى كانت تسكن هذه المنطقة إلى قسمين :

أ – **شعوب** تكوّن دولا أو دويلات أو إمارات.

ب – **عشائر** أو تجمعات فى منطقة معينة تبسط عليها نفوذها ولكنها ليست من القوة أو الاستقلالية بحيث تصبح دويلة أو إمارة.

الشعوب :

١ – **الكنعانيون** و ٢ – **الفينيقيون** : وقد سبق الكلام عنهما عند ذكر أرض كنعان. ويجمع علماء الأجناس على أن الاثنين من الشعوب السامية ويمتُّون بصلات لغوية إلى الآراميين وعليه فالمرجح أن أحد أحفاد سام بن نوح تسمى باسم كنعان ونُسبوا إليه إذ لو كانوا من نسل كنعان بن حام بن نوح لوجب أن يكونوا حاميين وليسوا ساميين.

٣ – **الآراميون** : وكانوا يسكنون الفرات الأعلى وسوريا وشرق الأردن وقد ذكرنا بالتفصيل الدويلات الآرامية (الجزء الثانى، ص ١٨٣) وكان أهمها دويلة دمشق وخاصة بعد أن ضمت إليها بعض الدويلات الصغيرة المجاورة وكان حكامها يسمون ملوكا.

٤ – **الأموريون** : وكانوا يسكنون وسط العراق وشرق سوريا (الجزء الثانى ص١٩٦).

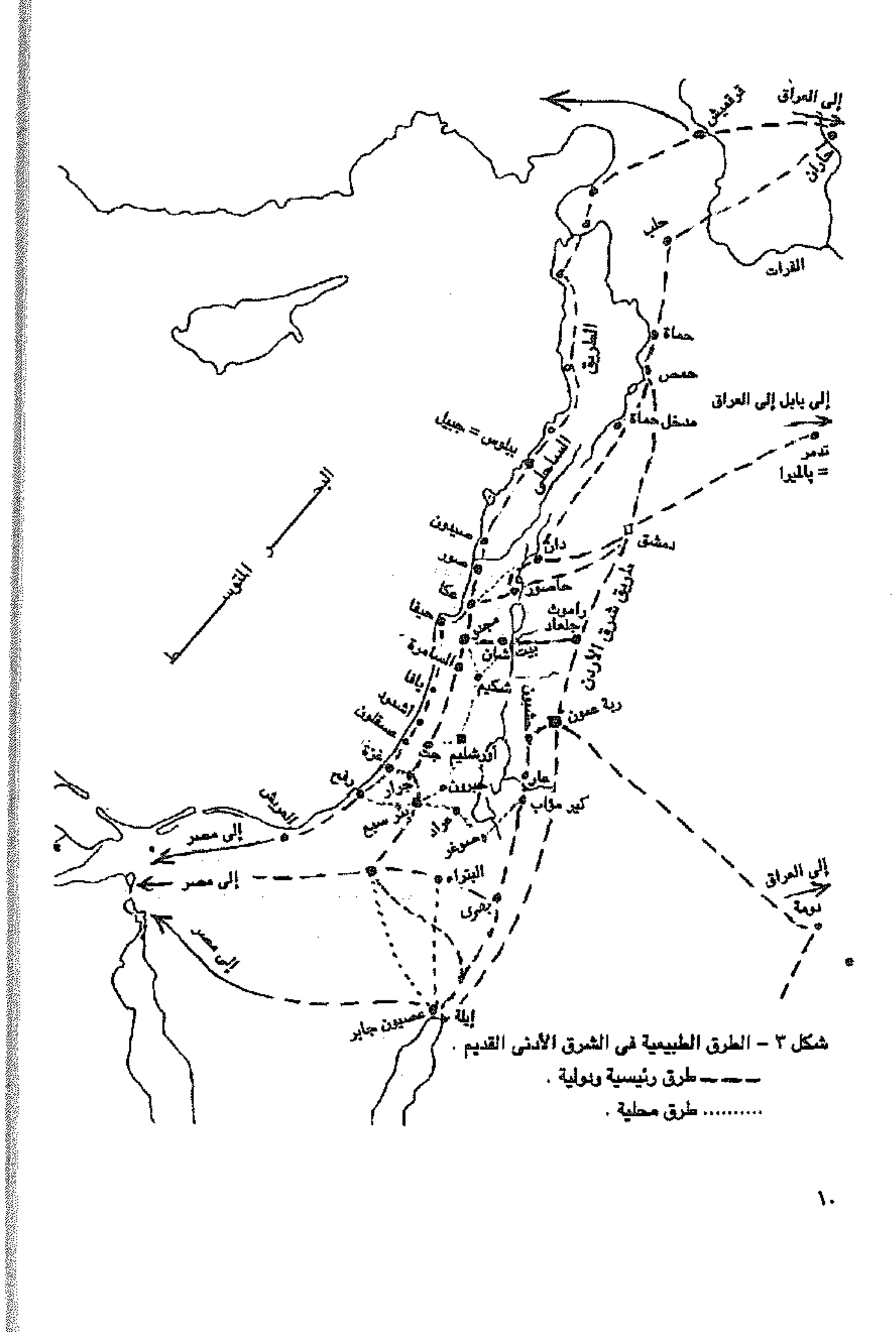
٥ – **المؤابيون** : أبناء مؤاب بن لوط. واستقروا شرق البحر الميت.

٦ – **العمونيون** : أبناء عمون بن لوط. واستقروا شرق مؤاب أى جنوب سوريا.

٧ – **الحيثيون** : وهم سكان مملكة «خيتا» أو «حاتى» فى آسيا الصغرى وكانوا أحيانا يحتلون الجزء الشمالى من ساحل البحر المتوسط حتى فينيقيا. وبعد أن أغارت شعوب البحر على بلادهم زادت هجراتهم إلى أرض كنعان.

٨ – **الفلسطينيون** :

يجمع علماء التاريخ والأجناس على أن «شعب الپالست Palest» قدم مع شعوب البحر من جنوب آسيا الصغرى وجزيرة كريت وجزر بحر إيجه (شكل ٤) وأغاروا على الجزء الجنوبى من ساحل البحر المتوسط واستوطنوا هذه المنطقة فسميت باسمهم پالستين Palestine أو فلسطين. وكان استقرارهم بصفة دائمة فى السهل الساحلى فى المنطقة بين يافا وغزة (شكل ٥). ولم يكن قدومهم مقصورا على طريق البحر. بل إن بعضهم قدم من جنوب غرب آسيا الصغرى



شكل ٣ – الطرق الطبيعية فى الشرق الأدنى القديم .

ـــ ـــ ـــ طرق رئيسية ودولية .

.... طرق محلية .

سائرين شرقا ثم جنوبا فى سوريا حتى التحقوا بإخوتهم القادمين عن طريق البحر. واندمجوا مع السكان المحليين – وهم الكنعانيون – وتكلموا لغتهم ومارسوا عاداتهم فأصبحوا جزءا من أهل البلاد. وكانت أهم مدن الفلسطينيين هى: أشقلون (عسقلون) وأشدود وعقرون وجت وغزة (شكل ٥).

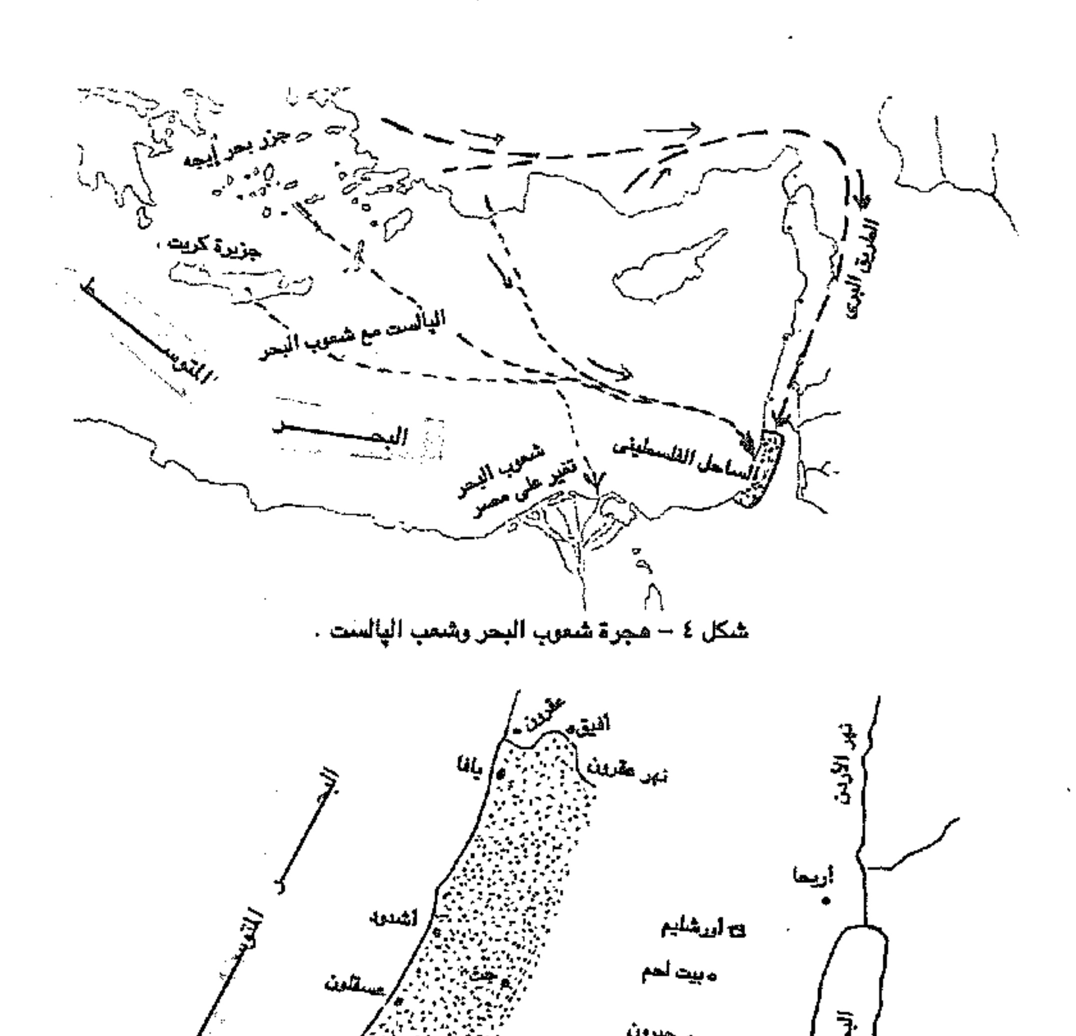
١ – **أشقلون** : وهى إحدى المدن الفلسطينية الخمس الرئيسية. وكان حاكمها يعتبر قطبا من أقطاب الفلسطينيين . وهى تقع ٢٠كم شمال غزة. وكان لعسقلون فى العهود الغابرة ميناء بحرى.

٢ – **غزة** : وهى آخر المدن الفلسطينية ناحية الجنوب. وبها يمر الطريق الساحلى الرئيسى الممتد من شمال فلسطين إلى جنوبها والذى يمتد فيصل إلى مصر جنوبا وإلى لبنان شمالا ولذلك كانت غزة مركزا استراتيجيا هاما جعل الفاتحين يهتمون بالاستيلاء عليها . فهى أول محطة لمن يريد فتح فلسطين من مصر. وآخر محطة لمن يريد فتح مصر من جهة الشمال. وقد سكنها الكنعانيون بادىء الأمر. وربما كانوا هم بُناتها . ولما دخل بنو إسرائيل الأرض كانت من نصيب يهوذا فاحتلها رجاله مع باقى مدن الجنوب. ولكن الفلسطينيين استرجعوها منهم ثم جاء شمشون واستردها لبنى إسرائيل. ولكن الفلسطينيين استردوها مرة ثانية وبقيت فى قبضتهم إلى أن ضم سليمان عليه السلام كل الساحل الفلسطينى إلى مملكته.

٣ – **أشدود** : ومعناها قوة أو حصن. وكانت من نصيب يهوذا ولكنه لم يتمكن من أخذها. وسنرى فيما بعد أنه فى حرب بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل. هُزِم فيها بنو إسرائيل واستولى الفلسطينيون على تابوت عهد الرب وحملوه معهم إلى أشدود ووضعوه فى هيكل «داجون» إلههم وأصيب أهل المدينة بالمرض فأرسلوا التابوت إلى «جت».

٤ – **جت** : وكانت فيما مضى أشهر مدن الفلسطينيين الخمس إذ كان حاكمها يسمى ملكا . وهى تقع ٤٠ كم جنوب شرق يافا وهى ليست على الساحل بل تقع بين بعض التلال فى الداخل. وظل الفلسطينيون وبنو إسرائيل يتنازعونها لأجيال طويلة ثم آلت إلى الفلسطينيين حتى أخذها منهم داود عليه السلام. ثم أخذها الفلسطينيون ثانية إلى أن استردها سليمان عليه السلام. ثم استردها الفلسطينيون وظلت فى أيديهم إلى أن استولى الأشوريون على المنطقة كلها . ومن كثرة هذا التداول تتضح أهميتها الاستراتيجية إذ هى مدخل لأورشليم من الجنوب الغربى.

٥ – **عقرون أو عكرون** Ekron : وهى إحدى مدن الفلسطينيين الخمس فى اتجاه الشمال على بعد ١٠كم من الشاطىء. وكانت بعد فتح الأرض من نصيب يهوذا على حدوده الشمالية. ثم أُعطيت لسبط دان وقد استرجعها الفلسطينيون سريعا . وقد سبق أن ذكرنا أن أهل أشدود لما



شكل ٤ – هجرة شعوب البحر وشعب الپالست .

شكل ٥ – استقرار الپالست (الفلسطينيين) فى أرض كنعان.

تفشى فيهم المرض أرجعوه إلى غضب الرب عليهم لاستيلائهم على تابوت عهد الرب فبعثوا بالتابوت إلى جت. وأصاب أهلها الطاعون فبعثوا به إلى عقرون ولم يرض به أهلها فقرر الفلسطينيون إعادة التابوت إلى بنى إسرائيل كما سيجيء فيما بعد (ص٦٧).

ويقع جبل الكرمل إلى الشمال من عقرون وهو الحد الفاصل بين منطقة الفلسطينيين وبين الفينيقيين في الشمال.

هذه هي الشعوب الكبيرة التي سكنت هذه المنطقة . بقى أن نذكر نبذة عن تجمعات العشائر التى سكنت مناطق معينة ولم تكن لهم القوة لتكوين دويلة أو إمارة . ومن هذه التجمعات (شكل ٦):

١ – **اليبوسيون** : وكانت تجمعاتهم حول مدينة «يبوس» وهو الاسم الذى كانت تحمله مدينة «القدس» قبل أن تحمل الاسم العبرى «أورشليم». وكانوا يسكنون الجبال المحيطة بالمدينة. وبعد أن استولى بنو إسرائيل على أرض كنعان ظل اليبوسيون فى منطقتهم ولم يخضعوا لنفوذ بنى إسرائيل وبقيت المدينة خالصة لهم وسط الكيان الإسرائيلى إلى أن استولى عليها داود عليه السلام. وأخضع سليمان اليبوسيين لنفوذه وفرض عليهم الجزية.

٢ – **القنزيون** : هم قبيلة سامية كانت تعيش فى أرض كنعان منذ أيام إبراهيم عليه السلام. وكانوا عمالا مهرة فى أعمال التعدين بمصانع النحاس في وادى الأردن.

٣ – **الكالبيون** : هم قبيلة من نسل «كالب بن يفنة» زميل يشوع فى بعثة التجسس على الأرض وكان هو ويشوع يحثان بنى إسرائيل على دخول الأرض (الجزء الرابع ص ١٠٤٢، ١٠٤٧). وكان الكالبيون يسكنون المنطقة المحيطة بمدينة «حبرون» (الخليل حاليا).

٤ – **الفرزيون** : قبيلة من الكنعانيين كانت تسكن فى قرى مسوَّرة في المنطقة الجبلية غرب البحر الميت مباشرة ولم يخضعوا لبنى إسرائيل إلا فى عهد سليمان عليه السلام.

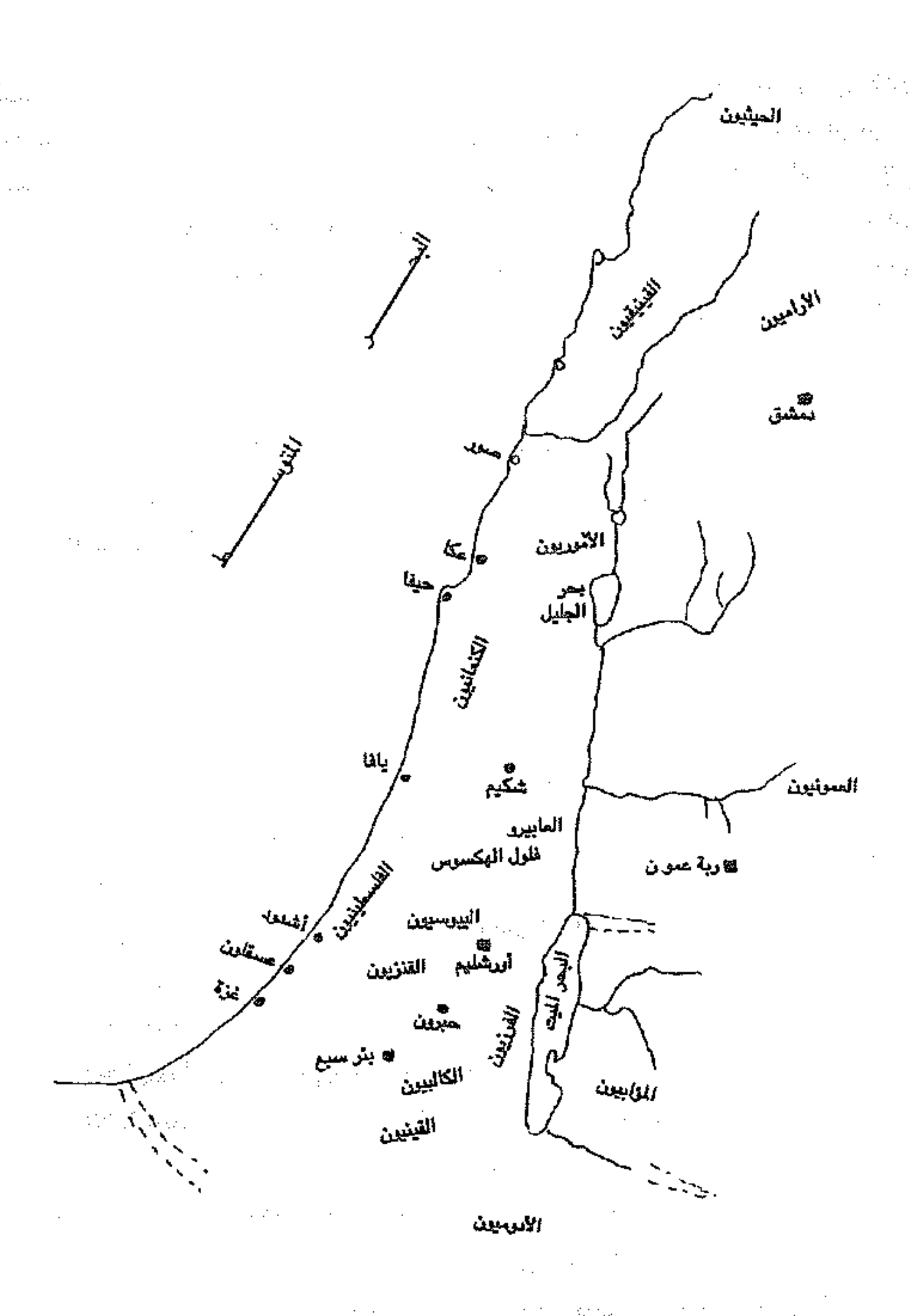
٥ – **العبرانيون** : يُنسبون إلى «عابر» من نسل سام بن نوح. فهم ساميون. وعابر هو الجد الخامس لإبراهيم عليه السلام ولذلك كان إبراهيم يُطلق عليه اسم «أبرام العبرانى» (قاموس الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين. ص٥٩٦). ولعل العبرانيين كان لهم طابع مميز فى الشكل بحيث لما أحضرت قافلة الإسماعيليين يوسف إلى مصر عُرِفَ أنه عبرانى ولما راودته امرأة العزيز واتهمته قالت (تكوين ١٤:٣٩) انظروا. قد جاء إلينا برجل عبراني... (جـ٣. ص٤٦٥) وأصبح يوسف نائبا للملك وأرسل فى طلب أبيه يعقوب (= إسرائيل) وإخوته أثناء المجاعة. وتكاثر العبرانيون فى مصر. ولكنهم أصبحوا يعرفون ببنى إسرائيل.

٦ – **فلول الهكسوس** : يعد طرد الهكسوس من مصر بواسطة أحمس عام ١٥٧٥ ق.م.

ومطاردة تجمعاتهم فى شيروكين (أو شاروحين) قرب غزة (الجزء الثالث ص ٥٤٠) فإنهم تفرقوا فى فلسطين وسوريا وعاشوا فيها كجماعات متفرقة لاتزال تحمل فى داخلها العداء لمصر والمصريين. وراحوا - بين الحين والآخر - يثيرون شعوب المنطقة ضد الولاة الموالين لمصر فكانوا مصدر إزعاج للفراعنة. وقد كانت لهم فى بعض الأوقات تجمعات كبيرة نسبيا فى بعض المناطق ولهم ثقافتهم الخاصة وهو ما يسميه بعض المؤرخين «عصر الهكسوس المتأخر».

٧ - العابيرو - Apiru or Abiru :

كانت فكرة «الأرض الموعودة» هى حلم بنى إسرائيل طوال مدة إقامتهم فى مصر وقد ذكرنا سابقا (الجزء الثالث ص ٥٢٣) قول يوسف عليه السلام لإخوته قبل وفاته: «أنا أموت ولكن الله سيُصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب». واستحلف إخوته أن يأخذوا رفاته معهم عند عودتهم إلى فلسطين. ولم يكن بنو إسرائيل فى مصر يعرفون متى يصعدون من أرض مصر إلى الأرض الموعودة. ولا ماذا سيكون مصيرهم هناك. وحتما سيرفضهم سكان الأرض ويقاتلونهم وهم بعدُ قلة وأسباط متفرقة. فلم يكن بدٌ من بقائهم فى مصر. وجاء أحمس وقام بطرد الهكسوس (جـ٣ ص٥٣٦) ولاشك أن بعضا من أفراد بنى إسرائيل كانت لهم مصالح مشتركة مع الهكسوس فآثروا الخروج معهم. وقد سبق أن رجَّحنا أن هؤلاء النفر هم «العابيرو» ولعل هدفهم أيضا كان دراسة أحوال سكان الأرض وليندسوا بينهم ويكونوا - كما نقول بلغة عصرنا - طابورا خامسا يسهل لبنى إسرائيل عند خروجهم من مصر مهمة امتلاك الأرض. وعلى ذلك فقد انتشروا فى فلسطين وسوريا وعُرِفوا - أو بعضهم على الأقل - باسم «الخابيرو». وراحوا يثيرون الفتن ضد مصر فى هذه المناطق. وقد جاء فى كتابات الآثار المصرية أن تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى - فى حروبهما فى فلسطين - أخذا أسرى من العابيرو. ولبيان الدور الذى لعبه العابيرو فى إضعاف نفوذ مصر فى فلسطين نشير إلى مجموعة خطابات وُجدت فى تل العمارنة عبارة عن رسائل بالخط المسمارى على ألواح من الطين مرسلة من أمراء فلسطين والساحل الفينيقى وجنوب سوريا لكل من تحتمس الثالث وأخناتون وهى فى جملتها تصل إلى ٣٧٧ وثيقة. وأحد هذه الخطابات مكتوب فيه: «إلى الملك سيدى وشمسى وإلهى. يقول سواردااتا الخادم. خادم الملك والتراب الذى تحت قدميه. والأرض التى يمشى عليها. وإنى عند قدمى الملك سيدى - إلهى شمس السماء قد سجدت له سبع مرات». ويقول وارنر كيللر (الكتاب المقدس والتاريخ. ص١٤٢) ولا يجب أن نستغرب هذه المقدمة لأنها كانت شيئا معتادا حسب البروتوكول فى أيامهم. ثم يستكمل الخطاب: «ويجب أن يعرف الملك إلهى أن العابيرو قد ثاروا فى الأرض التى أعطاها الإله الملك لى وأننى قد ضربتهم. كما يجب أن يعرف الملك - إلهى - أن جميع إخوتى قد تركونى وأننى - عبدو خيبا (مُرسِل الخطاب) - تُرِكتُ وحيداً فى مواجهة قائد العابيرو. وأن



شكل ٦ – تجمعات الشعوب فى فلسطين القديمة .

أمير عكا زوراتا - وإنداروتا أمير أكشاف - كانا الوحيدين اللذين أسرعا لنجدتي في مقابل ٥٠ عربة حربية حُرِمتُ منها. ولكنهم راحوا يحاربون ضدي. وآمل أنه قد يَسُر جلالته أن يرسل الملك - إلهي - عونا حتى يمكننا أن ندير حربا حقيقية لإعادة أرض الملك - إلهي - إلى حدودها القديمة». وهذا يوضح أن قبائل العابيرو والخابيرو باتت تهدد النفوذ المصري في فلسطين. وعندما خفَّت قبضة الإدارة المصرية في بلاد الشام أغار بعض أمرائها على جيرانهم. ولم يُقدِّر الفراعين خطورة هذه الأحوال وأغلبهم لم يرد على رسائل الاستغاثة التي كان يبعث بها الحكام الموالون لمصر. كما أن رسائل بعض الحكام كانت مملوءة بالنفاق والتضليل - يسرفون في إظهار الود والطاعة لمصر في حين أنهم يعملون ضدها. ويُصدِّق الفراعنة - وخاصة أخناتون - هذه الخطابات لعدم رغبتهم في الحرب.

وقد ذكرنا في الجزء الثالث (ص ٥٨٩ ، ٥٩٠) رسائل أخرى من هذا النوع كما ذكرنا في الجزء الرابع (ص٧٨٥ وما بعدها) وصف معركة قادش والدور الذي قام به بدويان من العابيرو بخداع رمسيس الثاني بغية الإيقاع بالجيش المصري وتقليص نفوذ مصر في فلسطين مما يدل على أن العابيرو كانوا يعملون بتنسيق مع بني إسرائيل في مصر. ويمهدون لدخولهم الأرض وتملُّكها.

المعتقدات الدينية

كان أقوام هذه المنطقة وثنيين - ماعدا بني إسرائيل الذين كانوا على التوحيد الذي جاء به موسى عليه السلام.

فالآراميون كانوا يعبدون «حدد» أو «هدد» وكان إلها للأمطار وما يصاحبها من زوابع ورعود وبرق. وهو نافع إن أرسل الماء الذي ينبت الزرع ومهلك إن أرسل سيولا جارفة. ومن هنا جاء لقبه «رمون» أو «رمان» أي الرعب مثير العواصف.

أما **الحيثيون** فكان معبودهم يسمى «تشوب».

أما **الآلهة الفينيقية** فهي «رشف» إله النار و «عليان بعل» إله الخضرة وخصمه «موت» وهو يشير إلى الذبول وإله القمر «سين». وأشهر الإلهات الإناث كانت عشتار وهي تمثل الأمومة وتصوَّر لابسة تاجا ويصحبتها أسد (انظر الجزء الثالث ص ٥٥٧).

أما **آلهة الكنعانيين** فكان أشهرهم إله السماء «إيل» وهو الإله الأب. وإلهة الأرض «أشيرة» أو «أشيرات» أو «عشتار» وهي أيضا «عناة» و «بعلة». ومن خصائصها الحب والحرب. وقد عرفها اليونانيون باسم «أفروديت» وكانت ترمز للخصب. ويشير اتصالها بعشيقها إلى العملية الانتاجية. وكانت تعتبر في بعض المناطق إلهة الفجور والحب الشهواني. وكانت عابداتها من

الفتيات الصغيرات اللائى كن يستسلمن للغرباء فى جوار الهيكل بهدف أن يكون هذا الفعل إيحاء قويا إلى الأرض بتكاثر النبات والحيوان. وقد أحبت عشتار «دموزى» أو «تموز» أو «أدنى» وهو «أدونيس» عند اليونان. وتقول الأسطورة إنه مات على ناب خنزير برى فى رحلة صيد وانتقل إلى العالم السفلى فحل الموت بالطبيعة. فنزلت عشتار إليه وأقامته من الموت فعادت الأرض إلى اخضرارها. ويحدث ذلك فى الشهر السابع من كل عام ولذلك سُمِّى شهر «دموزى» أو «تموز» (يوليو). وكان عيد «عشتروت» يُحتفل به فى الاعتدال الربيعى وكان يستمر ٧ أيام. وكانت تصحب الاحتفال نغمات الناى ودق الطبول ويرقص الكهنة رقصا عنيفا ويضربون أجسادهم بالمدى والسكاكين. ثم تقوم النساء بتقديم أنفسهن للرجال رمزا وإيحاء للخصب ومن هنا ظهرت طبقة «بغايا المعبد» أو «العاهرات المقدسات».

وفى سهول فلسطين كان هناك إله يُدعى «داجون Dagon» وكان يُمثَّل ملتحيا ذا خصلات طويلة من الشعر ويمسك فى كل يد بسمكة وينتهى نصف جسمه الأسفل على هيئة ذيل سمكة مغطى بالفلوس وبه زعانف وكان له هيكل كبير فى أشدود وهيكل آخر فى غزة. واسمه مشتق من «داج» أى سمكة أى الإله السمكة. وقد كشفت عمليات التنقيب فى «أوجريت» أو «رأس الشمرة» عن هيكل به تمثال لداجون نصفه الأعلى إنسان ونصفه الآخر سمكة. ويرى بعض الباحثين أن «داجون» هو نفسه «داجان» إله الحنطة. وكانت له مكانة عظيمة من عصور قديمة كإله الأرض والزراعة فى كل المنطقة من بابل إلى البحر المتوسط. وإن كان فى بابل يسمى «داكان Dakan» (مصر والشرق الأدنى القديم. د. نجيب ميخائيل إبراهيم جـ٥ ص ٦١. وانظر أيضا الجزء الثانى من هذه السلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ» ص ١٩٨. والجزء الثالث ص٥٥٥).

أما فى سوريا وصور فكان يعتبر «ملكروث» - وهو هرقل لدى اليونان - إلها للقوة والبطولة. وهو الإله الذى كان العبرانيون يُضحُّون له بالأطفال باسم «مولوخ» أو «مولك» أى الملك الإله الرهيب. وحين يحزبهم أمر شديد - كعدو يطيل حصارهم - كانوا يضحُّون له بأطفالهم فيذبحونهم تحت أقدام تمثاله تقربا له أو يحرقونهم أحياء أمام مذبحه. وقد مارس اليهود هذه العادة الشنيعة ولاسيما فى الموضع المسمَّى «وادى بنو هنوم» (أرميا ٣٢:٣٥ - انظر ص٣٨٠ فيما بعد) الذى يقع جنوب أورشليم وهو «وادى ربابة» الآن. ويُعرف الجزء الجنوب شرقى منه باسم «وادى توفة» أو «وادى القتل».

وكانت المعابد فى أول الأمر غاية فى البساطة لاتزيد عن حجرة واحدة بها تمثال الإله وتقدم له فيها القرابين ويدعو العُبَّاد بما يشاءون. ثم تطورت وظهر بها النُصب المقدس وهو يرمز إلى الخصب. وغرف سفلية الغرض منها التنبؤ والعرافة وإدراك رغبات الإله وتحديدها. وكان يستعاض عن المعابد فى القمم العالية من التلال والجبال بمذبح وعمود الحجر المقدس أو

سارية مرتفعة غناء عن المعبد الكامل ولذلك كانت تسمى «مرتفعات» أو «سوارى» وتعنى مكان العبادة الوثنية.

الوضع السياسى لفلسطين والأحداث فى مصر

منذ إنشاء الدولة الحديثة فى مصر بعد طرد الهكسوس فى عام ١٥٧٥ ق.م. كانت فلسطين خاضعة للنفوذ المصرى حتى لتُعتبر امتدادا طبيعيا لسيناء التى هى أرض مصرية. وكانت الدول المجاورة تعترف بسيادة مصر على فلسطين ولا تنازعها فيها. وظل الوضع كذلك لفترة تزيد عن خمسة قرون. ولم يكن بنو إسرائيل بقيادة يشوع يستطيعون دخول الأرض لو كانت مصر لاتزال تبسط سلطانها عليها. لذلك لابد من ذكر كيفية انحسار النفوذ المصرى عن فلسطين بما مكن لبنى إسرائيل من دخولها والاستيطان بها. ويتعين العودة لمتابعة الأحداث التى مرت بمصر بعد خروج بنى إسرائيل من مصر وغرق رمسيس الثانى.

ذكرنا فى الجزء الرابع (ص ٩٧١) أن مرنبتاح تولى الحكم وفى اعتقاده أن بنى إسرائيل – بعد نجاحهم فى الخروج من مصر – لابد قد توجَّهوا الى «الأرض الموعودة – فلسطين» وبدأ يُعِدُّ العُدَّة لتكوين جيش جديد للانتقام لموت والده إما بإعادة بنى إسرائيل لمصر صاغرين أذلاء كما كانوا أو إبادتهم كلية فى فلسطين واستئصال شأفتهم من الأرض. وبدأ العمال يصنعون مركبات حربية جديدة وأدوات حربية من سيوف ودروع وفؤوس. ثم بدأ فى إعداد الجند وتدريبهم. وكان يزمع أن يقود الجيش إلى فلسطين ولكنه انشغل فى حربة مع حجافل قادمة من الغرب مكونة من شعوب البحر (انظر شكل ٤ ص١٢) وعدة قبائل تزعمهم شيخ قبائل «ريبو» أو «ليبو» أو «ليبيا». وزحف هذان العدوَّان على غرب الدلتا ووصلوا إلى الفرع الكانوبى للنيل واحتلوا وادى النطرون. وجمع مرنبتاح الجيش وسار به لملاقاة العدو. وانتصر المصريون. وطارد مرنبتاح فلول الأعداء حتى معاقلهم فى ليبيا. وسجَّل انتصاره على اللوح المسمى لوح مرنبتاح والذى سبق ذكره بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ٦٧٠). ولم يدم حكم مرنبتاح سوى ١٠ سنوات ثم خلفه ابنه سيتى الثانى الذى حكم ٧ سنوات. وأشارت برديات إلى وقوع اضطراب داخلى شمل منطقة طيبة ويحتمل أن أصحابه كانوا من أنصار الإله آمون معبِّرين عن سخطهم على العاصمة المستحدثة «بررعمسيس» والإله «ست».

وبعد وفاة سيتى الثانى حدثت فترة قلق سياسى لوجود عدد كبير من الأمراء والأميرات وكلهم طامع فى العرش ويذكر المؤرخون منهم خمسة وإن لم يتفقوا على ترتيبهم. وانقسمت مصر إلى أقسام وولايات استقل بكل منها أمير. وشجَّع هذا الانقسام الأجانب على غزو مصر. فمدَّ أمير سورى نفوذه على الولايات المصرية واحدة بعد الأخرى حتى شمل جميع

البلاد تقريبا. ووجدت كتابة تصف هذه الفترة تقول (مصر القديمة. سليم حسن. جـ٧ ص٢٥٧): «لقد أُقْصِى كل رجل عن حقه وظل الناس يرون فمًا أعلى (أى رئيس) سنين عدة حتى أتى وقت كانت مصر فى أيدى أمراء وحكام مدن. وذبح الرجل جاره عظيما كان أم حقيرا (تعبيرا عن الفوضى وعدم استتباب الأمن) وقد توالى على ذلك وقت فيه سنون عجاف وكان معهم «أرسو» وهو سورى المنبت. الذى جعل نفسه رئيسا على البلاد وجعل كل البلاد تابعة له وجمع كل رفاقة ونهب ممتلكات المصريين. ولم يُقَرِّبوا قربانا للمعابد». ولاشك أن هذه الصورة القاتمة للحالة الداخلية تُوضِّح أيضا أنه لم يكن بالإمكان الاحتفاظ بأى نفوذ لمصر فى فلسطين.

ثم هبت روح الوطنية فى مصر من سباتها وخلعت عنها نير الحكم الأجنبى بزعامة أمير من نسل الرعامسة هو «ست نخت» أو «ست المنتصر» الذى كان آخر ملوك الأسرة ١٩. ثم خلفه إبنه رمسيس الثالث مؤسسا الأسرة ٢٠ والذى حكم مدة طويلة راجيا أن يعيد لمصر ما كان لها من نفوذ فى منطقة الشرق الأدنى. ولكنه انشغل – مثل مرنبتاح – بإنقاذ مصر من الخطرين العظيمين اللذين تجدَّد تهديدهما فى ذلك الوقت وهم الليبيون من الغرب وشعوب البحر من الشمال والشرق. كان الليبيون منذ هزيمتهم على يد مرنبتاح ينظمون أنفسهم ويتطلعون إلى إعادة الكَرَّة على مصر. فلما كانت السنة الخامسة من حكم رمسيس الثالث تقدموا نحو الدلتا وتجمعوا فى مكان قريب من الفرع الكانوبى للنيل – كما فعلوا أيام مرنبتاح – ولكن رمسيس الثالث هزمهم وقتل كثيرين منهم وأسر كثيرين أيضا. بعد ذلك بثلاث سنوات عاد نشاط شعوب البحر. فتقدموا إلى أسيا الصغرى واخترقوا ممرات جبال طوروس وأغاروا على الحيثيين وأنهوا دولتهم. وزحفوا على الشام وفلسطين. وفى الوقت نفسه سارت سفنهم حذاء ساحل الشام وتقدم الشرادنة (من جزيرة سردينيا) نحو مصر قاصدين فتحها واستيطانها. إلاَّ أن رمسيس الثالث صدَّ جموعهم عند رفح على الحدود المصرية الشرقية وانتصر الأسطول المصرى على سفنهم قرب مصب النيل الغربى وأسر الكثيرين منهم.

أمضى بعد ذلك رمسيس الثالث عشرين عاما مشغولا فى مجابهة خطر داخلى متمثِّل فى سلطة الكهنة التى ظلت تزداد يوما بعد يوم. ولم ير رمسيس الثالث بُدًّا من مهادنتهم فأغدق عليهم الخيرات . ويتضح ذلك من بردية هاريس المحفوظة فى المتحف البريطانى وفيها يذكر أن $\frac{1}{7}$ الأراضى الصالحة للزراعة كانت ملكا لهم وكانت أملاكهم كلها معفاة من الضرائب فى حين كان العمال المساكين هم الذين يدفعون الضرائب لسد حاجة الدولة إلى المال مما ألجأهم إلى الإضراب عن العمل فى كثير من الأحيان. وانتشرت جماعات اللصوص لسرقة المقابر الملكية وما بها من كنوز.

من هذا نرى أن عوامل الانحلال كانت قد بدأت تنخر فى أجهزة الحكومة المصرية وهو ما

منع أى تفكير فى محاولة استعادة نفوذ مصر فى فلسطين. كان موسى عليه السلام قد حارب الأموريين فى حشبون وباشان واستولى على الأرض شرق الأردن. وفى عام ١١٦٥ ق.م. توفى موسى عليه السلام وتولى يشوع قيادة بنى إسرائيل ويدأ يتأهب لعبور نهر الأردن ودخول أرض فلسطين. كان ذلك فى العام العشرين من حكم رمسيس الثالث. ثم توفى رمسيس الثالث عام ١١٦١ ق.م. وكان خلفاؤه أكثر ضعفا وازداد التفكك الداخلى. إذ فى عهد رمسيس الثانى عشر قام أمير من تانيس اسمه «سمندس» واستولى على الدلتا وجعل نفسه ملكا عليها. وبالطبع كان كل همه تأمين الدلتا ضد الملك الحاكم فى طيبة. كما أن قيام مملكة مستقلة فى الدلتا قطع مملكة الصعيد عن اتصالها بالشام وفلسطين تجاريا وسياسيا. بل إن رمسيس الثانى عشر كان حكمه فى طيبة اسمياً إذ كانت السلطة الفعلية فى يد «حرحور» رئيس كهنة آمون. وهذا أدى إلى إنكفاء مصر على همومها الداخلية وأصبح نفوذ مصر السياسى ينتهى إلى حدود سيناء بين خليج العقبة ومدينة رفح أما ما بعد ذلك فلا شأن لمصر به. وساعدت الظروف بنى إسرائيل من عدة نواحٍ أخرى. إذ أن هجمات شعوب البحر على خيتا قد أضعفتها وأدت إلى زوالها كدولة. كما أن الآشوريين فى العراق كانوا يمرُّون بفترة ضعف مثل تلك التى كانت فى مصر. وهكذا كان يوجد ما يمكن أن نسميه – بلغة عصرنا – فراغا سياسيا نتج عن غياب كل هذه الدول عن المنطقة وهو ما أعطى لبنى إسرائيل الفرصة لغزو فلسطين واستيطانها. زد على ذلك أن الحكم فى فلسطين كان فى يد طبقة أرستقراطية تدين بالولاء لمصر وتنفذ أوامرها. وكل همهم هو ما يجمعونه من أموال الشعب لأنفسهم بجانب الجزية التى كانوا يرسلونها لمصر. وكان الحكام أنفسهم طغاة مستبدين. أما الشعب فليس له أى حقوق قبلهم. فلما انحسر النفوذ المصرى زاد طغيان الولاة وانتشرت الرشوة وساد الظلم وانخفض مستوى المعيشة. وما تهدم من أسوار المدن كان يترك على حاله لعدم وجود مال لترميمه. كل ذلك جعل شعوب المنطقة غير متحمسة للدفاع عن حكامها.

من هذا نرى أن جميع الظروف كانت مهيأة لبنى إسرائيل لدخول الأرض بقيادة يشوع بن نون.

الفصل الثانى

النبى يشوع بن نون

هو «هوشع» أو «يهوشوع» بن نون من سبط أفرايم أصغر ولدى يوسف عليه السلام. وفى أول الأمر كان فتى يخدم موسى عليه السلام وهو المشار إليه فى قوله تعالى :

«وإذ قال موسى لفتاة أتنا غداءنا .....» . (٦٠ - الكهف)

ثم غير موسى اسمه . تقول التوراه (عدد ١٣:١٥): «ودعا موسى هوشع بن نون يشوع».

وهو الذى تولى - بأمر من موسى عليه السلام - قيادة الفرقة التى حاربت العماليق عند رفديم (وادى فيران) كما سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع ص ٩٨٣) وانتهت المعركة عند غروب الشمس بانتصار المحاربين من بنى إسرائيل. وكان أحد الاثنى عشر نقيبا الذين أرسلهم موسى ليتجسَّسوا الأرض وبعد عودتهم قام يشوع بن نون وكالب بن يُفنَّة يِحَثُّ بنى إسرائيل على دخول الأرض:

«قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين» (٢٣ - المائدة. وقد سبق ذكر ذلك فى الجزء الرابع ص١٠٤٩).

ثم استخلفه موسى حسب ما كلمه به ربه فأخذه وأوقفه أمام ألعازار الكاهن بن هارون وأمام كل الجماعة وأوصاه وشجعه على دخول الأرض. ثم إن موسى ويشوع وقفا معا فى خيمة الاجتماع وتراءى لهما مجد الرب وأصبح يشوع نبيا (الجزء الرابع ص ١١٠٣). وبعد موت موسى عليه السلام تولى يشوع قيادة بنى إسرائيل وكلَّمه الرب قائلا: (يشوع ١) «موسى عبدى قد مات فالآن قم اعبر هذا الأردن، أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض. لا يقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك. كما كنتُ مع موسى أكونُ معك. لا أهملُك ولا أتركك. تشدَّد وتشجَّع لأنك أنت تقسم الأرض لهذا الشعب. إنما كن متشدِّدًا وتشجَّع لكى تتحفَّظ للعمل حسب كل الشريعة التى أمرك بها موسى عبدى. لا تمل عنها يمينا ولا شمالا لكى تفلح حيثما تذهب. لا يبرح سفر هذه الشريعة من فمك. بل تلهج فيه نهارا وليلا لكى تتحفَّظ للعمل حسب كل ما هو مكتوب فيه لأنك حينئذ تُصلح وحينئذ تُفلح».

فأمر يشوع عرفاء الشعب قائلا «جوزوا فى وسط المحِلَّه (محل إقامتهم) وامروا الشعب

قائلين: هيئوا لأنفسكم زادا لأنكم بعد ثلاثة أيام تعبرون الأردن هذا لكى تدخلوا فتمتلكوا الأرض التى يعطيكم الرب إلهكم لتمتلكوها. ثم كلَّم يشوع الرأوبينيين والجاديين ونصف سبط منسى (وهؤلاء كانوا قد طلبوا من موسى قبل وفاته أن يعطيهم الأرض فى شرق الأردن كما ذكرنا فى الجزء الرابع ص ١١٠٢ فوافق موسى بشرط أن يعبروا مع باقى الأسباط ويحاربوا معهم حتى يتملَّكوا الأرض). قائلا: اذكروا الكلام الذى أمركم به موسى قائلا: الرب إلهكم قد أراحكم وأعطاكم هذه الأرض. نساؤكم وأطفالكم ومواشيكم تلبث فى الأرض التى أعطاكم موسى فى شرق الأردن وأنتم تعبرون متجهزين أمام إخوتكم كل الأبطال ذوى البأس وتعينونهم حتى يريح الرب إخوتكم مثلكم ويمتلكوا هم أيضا الأرض التى يعطيهم الرب ثم ترجعون إلى أرض ميراثكم التى أعطاكم موسى. فأجابوا يشوع قائلين: كل ما أمرتنا به نعمله وحيثما ترسلنا نذهب. حسب كل ما سمعنا لموسى نسمع لك. إنما الرب إلهك يكون معك كما كان موسى. كل إنسان يعصى قولك ولا يسمع كلامك فى كل ما تأمره به يُقتل. إنما كن متشدِّدا وتشجَّع». ويبدأ يشوع يمارس سلطاته ابتداء من عام ١١٦٥ ق.م. ويبدأ يخطِّط لغزو أرض كنعان.

التجسُّس على أريحا :

كان يشوع وبنو إسرائيل يقيمون فى شطِّيم Shittim . (شكل ٧) وهى تل الحمام حاليا ١٢كم شمال شرق الطرف الشمالى للبحر الميت. ويبدأ يخطِّط للاستيلاء على الضفة الغربية بدءا بأريحا. وأريحا معناها «مدينة القمر» أو «مكان الرؤية العطرية» وتقع على مسافة ٨كم غرب نهر الأردن شمال غرب الطرف الشمالى للبحر الميت إلا أن المدينة القديمة موضعها الآن. تل السلطان على بعد ٢كم من مدينة أريحا الحديثة. وكانت أهميتها تنبع من أنها تتحكم فى الوديان الذاهبة إلى أورشليم ومن هنا رأى يشوع أن يبدأ بها.

أرسل يشوع رجلين من شطيم ليتجَسَّسا على مدينة أريحا ويتعرفا على حصونها ودفاعاتها. فعبرا نهر الأردن واتجها إلى أريحا. وحتى لا يلفتا الأنظار وإخفاء لمهمتَّها الرئيسية فإنهما تظاهرا بأنهما إنما قدما المدينة قاصدين المتعة فاتجها إلى بيت غانية اسمها «راحاب» واستراحا فى بيتها بعض الوقت. وكان جواسيس الحاكم قد أخبروه بمقدم رجلين غريبين فأرسل ملك أريحا إلى راحاب طالبا منها تسليم الرجلين. ولكن راحاب خبَّأتهما بين عيدان كتان على سطح منزلها وأخبرت رسل الحاكم أن الرجلين بعد أن قضيا معها وقتا قد انصرفا ولا تعرف أين ذهبا. وبعد أن انصرف الجند أخبرت الرجلين أنَّها قد عرفت حقيقة أمرهما وحقيقة مهمتهما واستحلفتهما – عند فتحهم لأريحا – أن يردوا لها المعروف الذى عملته معهما بأن لا تُضارُ أو يضارُ أحد من عائلتها: أبوها وأمها وإخوتها وأخواتها. فأعطوها عهدا بذلك إن هى لم تُفشِ سرهما. فأنزلتهما بحبل من على السطح. وطلبا منها أن تربط حبلا

من خيوط القرمز فى شباك بيتها لتكون علامة وأن تجمع في البيت كل عائلتها فيكون أنه عند فتح المدينة يتعرّف الجنود على بيتها فلا يُحرق أو يُضارُ أحدٌ ممن فيه. وخرج الرجلان من المدينة بعد أن درسا استحكاماتها. وتخفّيا فى الجبل ثلاثة أيام حتى يئس جنود الحاكم من العثور عليهما فنزلا من الجبل وعادا إلى يشوع فى شطيم. وأخبروه بأن سكان الأرض مرعوبون من سماع الأخبار عن نية إسرائيل عبور الأردن وامتلاك الأرض. وأخبروه أيضا أن تحصينات المدينة ليست قوية بالدرجة التى تمنعهم من الاستيلاء عليها. وقالا ليشوع إن الرب قد دفع بيدنا الأرض كلها وقد ذاب كل سكان الأرض بسببنا (يشوع ٢:٢٤).

الاستيلاء على أريحا :

بكرَّ يشوع فى الغد وارتحلوا من شطيم وأتوا إلى شاطىء الأردن هو وكل بنى إسرائيل. وأمر يشوع الكهنة أن يحملوا تابوت عهد الرب ويسيروا أمام الشعب. ولكنه أمر الشعب بأن يجعل بينه وبين التابوت مسافة ٢٠٠٠ ذراعا. ويقال إن النهر كان ممتلئا بالمياه ولما انغمست أرجل الكهنة فى مياه الأردن وقفت المياه المنحدرة من فوق وعبر الشعب مقابل أريحا. وهذه المنطقة من نهر الأردن معروفة حاليا باسم «المغطس» (على مبعدة ميلين من كوبرى اللنبى) وهى منطقة معروفة بضحالة مياهها. وإن كانت الصيغة التى كُتِبت بها هذه الفقرة فى التوراة توحى بأن الأمر كان معجزة تشبه انفلاق البحر لموسى عليه السلام. (يشوع ٣:١٥): «فعند إتيان حاملى التابوت إلى الأردن وانغماس أرجل الكهنة حاملى التابوت فى ضفّة المياه والأردن ممتلىء إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد. وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت ندًا واحداً بعيدا جدا. والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح وانقطع تماما وعبر الشعب مقابل أريحا. فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الرب على اليابسة فى وسط الأردن وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن». ويرى وارنر كيللر (الكتاب المقدس والتاريخ. ص ١٥٩) أن احتجاز مياه نهر الأردن كثيرا ما يحدث نتيجةً للزلازل. ففى عام ١٩٢٧ حدث زلزال شديد بالمنطقة وانهارت أطنان من الحجارة والأتربة من أعلى التلال على جانبى النهر وأوقفت جريان المياه تماما لمدة ٢١ ساعة. وحدث نفس الشىء فى عام ١٩٢٤. وفى عام ١٩٠٦ حدث زلزال وانهارت جوانب المجرى المائى بحيث جف النهر تماما مقابل أريحا لمدة ٢٤ ساعة. ويرى وارنر كيللر أن زلزالا لابد قد حدث فى موضع ما فى الشمال نتج عنه توقف سريان المياه. فى حين يرى بعض المفسِّرين أن مياه النهر أحيانا كثيرة تقلُّ بحيث لا يزيد عمق المياه عن قدمين. وهذه تسمى مخاضة لأن المرء يمكن أن يخوضها ويعبر إلى الضفة الأخرى. وتكثر هذه المخاضات فى نهر الأردن وخاصة مقابل مدينة أريحا.

وعسكر بنو إسرائيل فى الجلجال شرقى أريحا وأقاموا هناك نُصُباً من ١٢ حجرا أُخذت من قاع النهر تخليدا لذكرى عبورهم. وعملوا الفصح فى سهول أريحا. ويمكننا أن نستنتج أن

عبور الأردن كان فى الربيع لأن الفصح يحتفل به فى أواخر شهر إبريل. «وأكلوا من غلة الأرض فى الغد بعد الفصح فطيرا وفريكا. وانقطع المن عند أكلهم من غلة الأرض». (يشوع ١٢:٥). ثم أمر يشوع بأن يختتن كل بنى إسرائيل الذين ولدوا فى الطريق فى القفر ولم يكونوا قد اختتنوا بعد وأقاموا مكانهم فى الجلجال حتى برئوا.

حصار أريحا وسقوطها :

تصف التوراة عملية سقوط مدينة أريحا فتقول: ووقف بنو إسرائيل أمام أريحا فلم يكن لهم عهد بمهاجمة المدن. كانت معاركهم مع الأموريين والمؤابيين فى أرض مكشوفة. أما أريحا فلها أسوار وحصون. ولم يكن معهم سلالم لتسلق الأسوار أو معاول لنقبها. وتقول التوراة (يشوع ١٣:٥): «وحدث لما كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه ونظر وإذا رجل واقف قبالته وسيفه مسلول بيده فسار يشوع إليه وقال له هل أنت لنا أو لأعدائنا. فقال كلا بل أنا رئيس جند الرب (أى جبريل عليه السلام)». وأمره بأن يصطف كل الجند كدائرة حول المدينة وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف أمام التابوت وأن يفعلوا ذلك ستة أيام. وفى اليوم السابع يدورون حول المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق وجميع الشعب يهتف هتافا عظيما. وقال لهم يشوع إن الرب قد أعطاهم المدينة لتكون المدينة وكل ما فيها مُحَرَّما للرب - أى تكون مثل قربان للرب فتحرق حرقا تاما - ماعدا بيت راحاب «هى فقط تحيا وكل من معها فى البيت لأنها خبأت الرجلين اللذين أرسلهما ليعرفوا أخبار المدينة. وقال لهم يشوع: وأما أنتم فاحترزوا من الحرام. ولا تأخذوا شيئا من المدينة فيحل سخط الرب على مَحِلَّة إسرائيل لأن كل الفضة والذهب وآنية النحاس تكون قدسا للرب وتدخل فى خزانة الرب» (يشوع ١٨:٦).

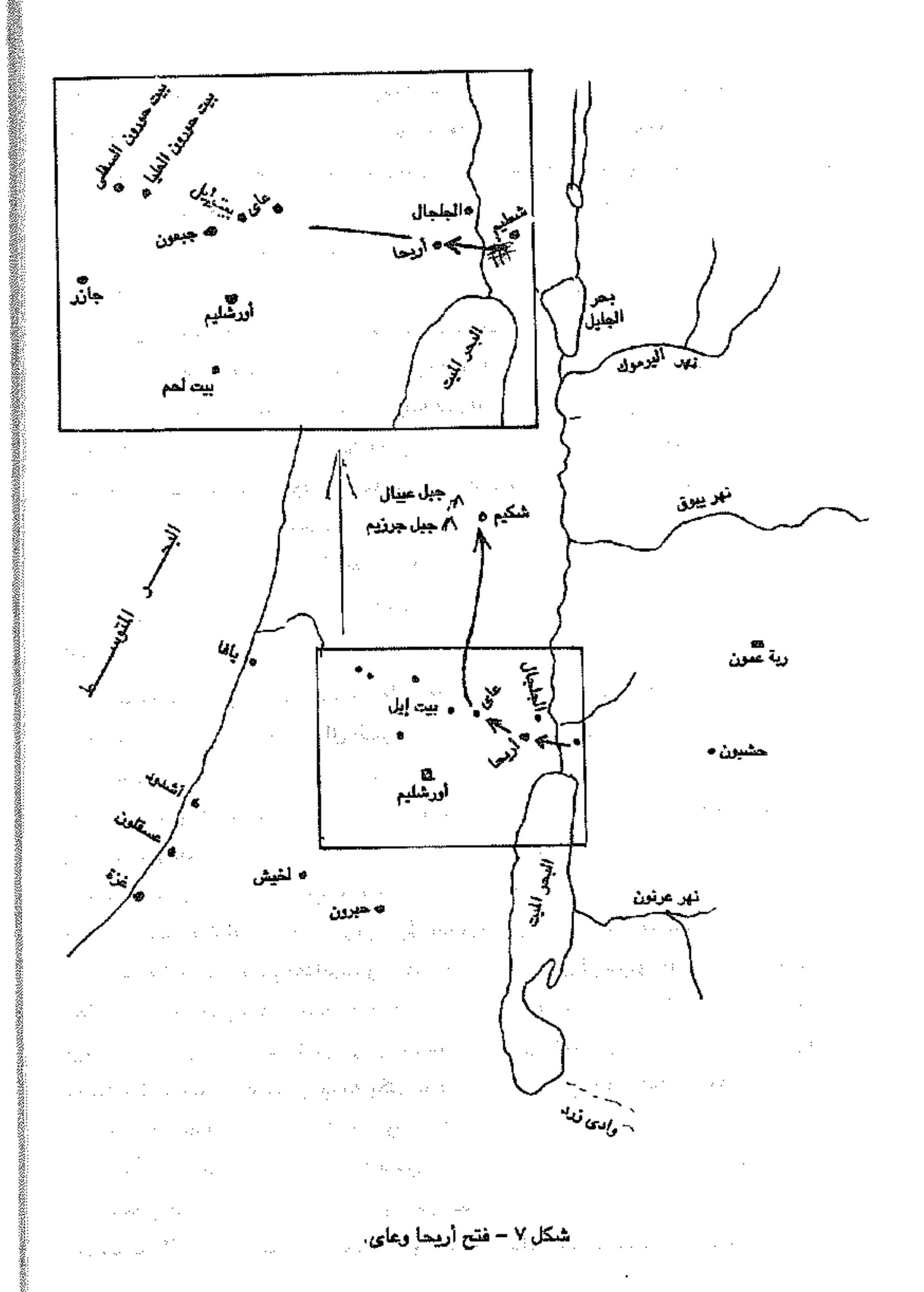
وفى اليوم السابع دار الشعب حول المدينة ٦ مرات وفى المرة السابعة ضرب الكهنة بالأبواق وهتف الشعب هتافا شديدا فسقطت أسوار المدينة فدخلوها وقتلوا كل من فيها ماعدا بيت راحاب وجميع من كانوا به من أقاربها. وغنموا الذهب والفضة التى كانت بالمدينة وجعلوها فى خزائن بيت الرب، ثم أخرجوا راحاب وأهلها من البيت وانضمت إلى بنى إسرائيل وعاشت فى وسطهم ثم أحرقوا المدينة بالكامل مع كل ما فيها من أحياء. وحلف يشوع فى ذلك الوقت قائلا (يشوع ٢٤:٦) «ملعون قدام الرب الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا. ببِكْرِه يؤسسها وبصغيره ينصب أبوابها». وأخذ رجل من سبط يهوذا مالا حراما من المدينة وخبأه ليكون له وحده مخالفا بذلك أمر يشوع..

وقد كانت منطقة أريحا مكانا لعديد من بعثات التنقيب عن الآثار طوال القرن الماضى (العشرين) بحثا عن أثر يدل على مصداقية ما جاء بالتوراة بخصوصها (الكتاب المقدس والتاريخ. وارنركيلر. ص١٦١) ففى الفترة ١٩٠٧-١٩٠٩م قامت بعثة ألمانية نمساوية برئاسة أرنست سلِن وكارل واتزنجر بالحفر فى تل السلطان ووُجِد سور مزدوج من الطوب اللبن:

الداخلى سمكه ١٢ قدما والخارجى يبعد عنه ١٠-١٢ قدما وسمكه ٦ أقدام وأثبتا أن هذه بقايا أسوار مدينة أريحا الواردة فى التوراة. وفى عام ١٩٣٠ جاءت بعثة أخرى برئاسة جون جارستانج ووجدت آثار تدمير شديد فى أجزاء من السور والمسافة بين السورين مملوءة بحطام أخشاب محترقة وطوب مُسودّ بفعل حريق. كما أنهم وجدوا داخل السور ما يدل على أن المنازل قد تم إحراقها فانهارت أسقفها. وفى الخمسينيات قامت الباحثة كاثلين كنيون بالتنقيب فى المنطقة ووجدت مايدل على أن أسوار المدينة قد تعرضت للدمار وإعادة البناء حوالى ١٧ مرة مما يدل على أن المنطقة فى ذلك الوقت كانت تتعرض لهزات أرضية كثيرة وأن التربة كانت غير مستقرة فتسبب انهيار السور بفعل التقادم. ويرى باحثون أنه لهذا السبب فإن سكان المدينة كثيرا ماكانوا يهجرونها وأنه فى الوقت الذى استولى عليها بنو إسرائيل كانت المدينة قليلة السكان. ولا بأس من افتراض زلزال خفيف تزامن مع نفخ الكهنة فى الأبواق وهتاف الشعب فسقطت أسوار المدينة. وأثبتت الحفريات أن المدينة ظلت مهدمة لمدة ٣٠٠ سنة تقريبا إذ كان قول الرب: «ملعون قدام الرب الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا». فتجنب كل ملوك إسرائيل ويهوذا بناءها. ولكن فى عهد أخاب بن عمرى ملك إسرائيل (٨٦٥ – ٨٤٩ ق.م.) بنيت كما سيجىء فيما بعد (ص٢٥٣).

التخطيط للاستيلاء على «عاى Ai»

أرسل يشوع رجالا ليتجسسوا على عاى – وهى قرية «التل» الحالية وتقع على مسافة ١٥كم غرب أريحا- ورجع الرجال الذين أرسلهم يشوع ونصحوا بأن لا يصعد كل الرجال. لأن رجال عاى قليلون ويكفى ألفين أو ثلاثة آلاف رجل لفتحها. فأرسل يشوع ٣٠٠٠ رجلا لفتحها ولكن أهل عاى هزموهم وقتلوا منهم ٣٦ رجلا وطاردوهم فى سفح التل. وخاف بنو إسرائيل وتزلزلت قلوبهم من هذه الهزيمة. وتضرع يشوع إلى الرب. فأوحى الله إليه أن هذه الهزيمة بسبب أن فى وسطهم حرام (يشوع ٧:١٠): «لقد أخطأ إسرائيل. بل تعدّوا عهدى الذى أمرتهم به. بل أخذوا من الحرام بل سرقوا. بل أنكروا. بل وضعوا فى أمتعتهم. فلم يتمكن بنو إسرائيل من الثبوت أمام أعدائهم. ولا أعود أكون معكم إن لم تبيدوا الحرام من وسطكم». هنا اعترف الرجل الذى خالف بأنه قد أخذ رداء شنعاريا نفيسا و ٢٠٠ شاقل فضة ولسان ذهب وزنه ٥٠ شاقل وأنه خبأها فى أرض خيمته. فأرسل يشوع رجالا استخرجوها. وجاءوا به وبنيه وبناته وبقره وغنمه وخيمته وكل ما له وأتوا بهم إلى أحد الوديان فقال له يشوع: لقد كدّرتنا. يكدّرك الرب فى هذا اليوم. وأمر به فرجمه جميع بنو إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار وأقاموا فوقه حجارة عظيمة لتكون تذكرة لمن تسوّل له نفسه مخالفة أوامر الرب. وقد أثار بعض المفسرين اعتراضا بما جاء فى تثنية ١٦:٢٤: «لا يُقتل الآباء عن الأولاد. ولا يقتل الأولاد عن الآباء. كل إنسان بخطيئه». والرد على ذلك بأنه يستحيل أن يحفر المرء حفرة فى



شكل ٧ – فتح أريحا وعاى.

خيمته لتخبئة ما اختلسه دون علم أفراد أسرته ورضاهم عن فعلته. وفى هذه الحالة يكونون مشتركين معه فى الجريمة ويستحقون مثل ماناله من عقاب.

بعد تطهير بنى إسرائيل من هذه الخطيئة أخذ يشوع جميع جيشه وصعد ثانية إلى عاى ووضع خطة ذكية للإيقاع بأهلها. إذ أمر ٣٠ ألفا من رجاله بالتخفى فى مكان خلف المدينة ثم تقدم يشوع ببعض الجنود إلى المدينة من الأمام وكانت الخطة هى أنه عندما يخرج أهل «عاى» للقائهم يفر بنو إسرائيل من أمامهم فيظن أهل «عاى» أنهم خافوا كما فى المرة السابقة ويتعقبونهم. وحدث كما توقَّع يشوع إذ خرج كل الرجال وكل الجند من «عاى» لمطاردة بنى إسرائيل وتركوا المدينة مفتوحة ليس بها من يدافع عنها فانقض عليها الـ ٣٠,٠٠٠ إسرائيلى المختبئين خلفها وقتلوا من كان بها: الشيوخ والنساء والأطفال. وأشعلوا النيران فى كل بيوتها. ولما رأى يشوع الدخان تصاعد من المدينة علم أن الخطة نجحت فارتد وهاجم جنودُه «عاى» وحصروهم فى الوسط وقتلوهم عن آخرهم فى البرية وبلغ عدد القتلى ١٢,٠٠٠. وأُخذت البهائم غنيمة وعُلِّقت جثة ملك «عاى» على خشبة طول اليوم.

وقد قامت بعثات متعددة بحفريات فى منطقة «عاى» ووجدت طبقة كثيفة من الرماد المحترق تتزامن مع وقت غزو بنى إسرائيل للمدينة.

كانت «عاى» هى مفتاح الجزء الشمالى فسقط كله حتى شكيم. وقام يشوع على جبل عيبال. وفى مقابله جبل جرزيم. قام عليه الكهنة وحاملو تابوت عهد الرب. وجمع يشوع جميع بنى إسرائيل وقرأ عليهم التوراة. ونفَّذ ما كان أوصى به موسى عليه السلام من مباركة الشعب من على جبل جرزيم ولعن مرتكبى الخطايا من فوق جبل عيبال (الجزء الرابع ص١١١٠ – ويشوع ٣٣:٨). كما بنى يشوع مذبحا للرب فى جبل عيبال كما أمر موسى وأصعدوا عليه محرقات وذبحوا ذبائح سلامة وكتب هناك على الحجارة فقرات كثيرة من التوراة. وقد اكتشف مؤخرا أحد المنقبين عن الآثار ما وصفه بأنه «مجمَّع دينى» على قمة جبل عيبال.

٤ قرى فى الوسط تصالح إسرائيل :

كان يشوع قد اتخذ من الجلجال مركزا له فعاد إليها. ولما سمع سكان قرية جبعون وما حولها من قرى وهى الكفيرة وبئيروت ويعاريم (شكل ٨) بما فعله بنو إسرائيل بالقرى التى تقع فى الأرض التى يريدون امتلاكها من قتل لجميع السكان وإحراق البيوت كلها. خافوا من هذا المصير المؤلم وفكروا فى حيلة ينجون فيها بحياتهم، فأخذوا جوالق بالية لحميرهم وزقاق خمر بالية مشققة ومربوطة ونعالاً بالية ومرقعة فى أرجلهم وثيابا رثة وحتى خبزهم جعلوه يابسا فتاتا. وساروا حتى وصلوا إلى يشوع فى الجلجال. وقالوا له ولإسرائيل: نحن أتينا من بلاد

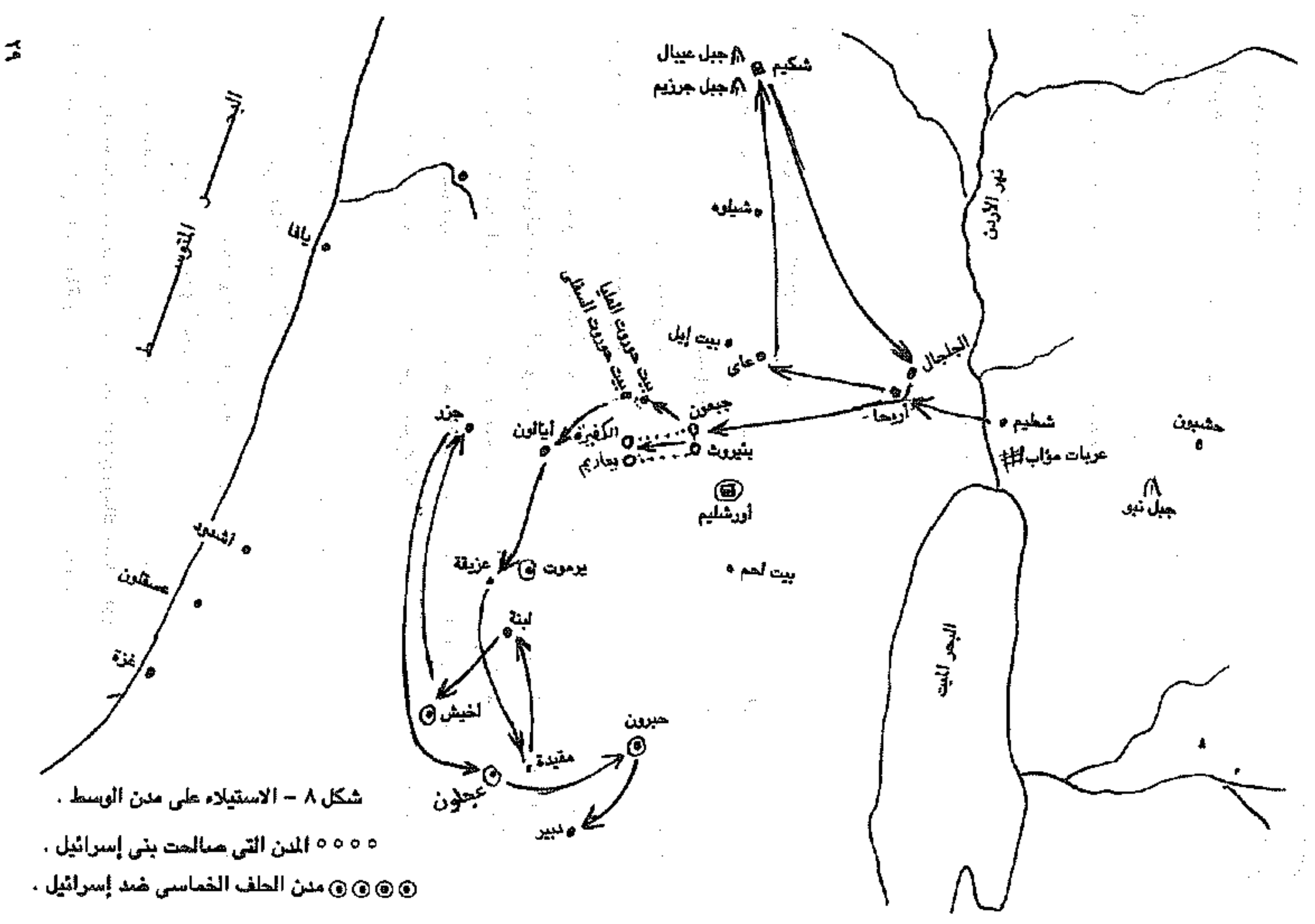
بعيدة جداً وسمعنا ما عملتموه بالأموريين ومؤاب. فجئنا لكي نكون لكم عبيدا والآن اقطعوا لنا عهداً ألا تقتلوننا. فعمل يشوع لهم صلحا وقطع لهم عهدا لاستحيائهم وحلف لهم رؤساء الجماعة (يشوع ٩:١٦). وانصرف أهل القرى عائدين إلى قراهم. ثم سار بنو إسرائيل ثلاثة أيام فالتقوا بالقوم الذين ادَّعوا أنهم جاءوا من بلاد بعيدة ووجدوا أن قراهم قريبة وتقع فى وسط الأرض التي يريد بنو إسرائيل امتلاكها. فلم يقدر بنو إسرائيل أن يقتلوهم أو يحرقوا قراهم لأنهم قطعوا لهم عهداً وأدرك يشوع أن القوم خدعوه فقال لهم ملعونون أنتم. وتركوهم يحيون ولكنهم جعلوهم عبيدا لهم يحتطبون لهم ويستقون الماء واستولوا على قراهم ولم يحرقوها. وعاد يشوع إلى الجلجال.

٥ ملوك يتحالفون ضد بنى إسرائيل :

حينما سمع ملك أورشليم بما فعله بنو إسرائيل من استيلاء وحرق لأريحا وعاى وسمع أيضا أن أهل جبعون وما حولها من القرى قد استسلموا بدون قتال نظير استحيائهم أزعجه ذلك لأن جبعون مدينة كبيرة ورجالها أشداء. فقرر عمل حلف خماسي من نفسه و٤ ملوك آخرين من ملوك الأموريين هم :

أدوني صادق	ملك	أورشليم .
الملك هوهام	ملك	حبرون .
الملك فرام	ملك	يرموث .
الملك يافيع	ملك	لخيش .
الملك دَبير	ملك	عجلون .

وقرر الملوك الخمسة مهاجمة جبعون لأنها صالحت بنى إسرائيل، فأرسل أهل جبعون يستنجدون بيشوع فى الجلجال. فخفَّ يشوع وبنو إسرائيل لنجدتهم. وسار يشوع ليلا وباغت قوات الحلف صباحا فى جبعون وطردهم منها وطاردهم حتى بلدة بيت حورون العليا إلى الغرب من جبعون. وبيت حورون تقع على مرتفع من الأرض. فطاردوهم حتى انحدروا إلى السفح المنحدر. وتقول التوراة (يشوع ١٠:١١) «ورماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء طول الطريق من بيت حورون حتى «عزيق» وقِطَع من البَرَد. فكان الذين ماتوا بالحجارة والبَرَد أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف». كما تقول التوراة إنه قد حدثت معجزة فى ذلك اليوم. إذ وقفت الشمس فى كبد السماء يوما كاملا ولم تغرب حتى تتيح فرصة لبنى إسرائيل للقتال حتى يهزموا الحلف الخماسي. فدامت الشمس حتى انتقم الشعب من أعدائه. وبعد هزيمتهم سارع الملوك الخمسة للاختباء فى مغارة فى «مقيدة» فلما علم يشوع بذلك أمر رجاله بدحرجة حجر عظيم ليسد باب المغارة وأقام عليها حراسا لئلا يهربوا واستمر بنو إسرائيل فى مطاردة



شكل ٨ - الاستيلاء على مدن الوسط .

○ ○ ○ ○ المدن التى صالحت بنى إسرائيل .

◉ ◉ ◉ ◉ مدن الحلف الخماسى ضد إسرائيل .

قواتهم حتى أفنوهم وأحرقوا مدنهم وعاد إلى المغارة وفتحها وأخرج الملوك الخمسة وأمر بقتلهم وتعليقهم على خمس خشبات ثم عند غروب الشمس أنزلوهم من على الخشب وطرحوهم فى المغارة ووضعوا حجارة كبيرة على فم المغارة فدفنوهم فيها (يشوع ١٠:٢٥). واستولى يشوع على قرية مقيدة وقتل أهلها وملكها وكل نفس بها لأنها ساندت الملوك الخمسة. ثم تحول إلى لبنة التى ساندت الحلف الخماسى. ثم استدار إلى لخيش إحدى مدن الحلف. وأحرقها وقتل أهلها. وكان ملك جازر قد خف لنجدة لخيش فاتجه يشوع إلى جازر واستولى عليها وقتل أهلها ثم عاد ثانية فى اتجاه الجنوب إلى عجلون إحدى مدن الحلف وقتل أهلها وأحرقها. ثم اتجه شرقا إلى حبرون وحاربها وأخذها وقتل أهلها. وقد قام العالم البريطانى «لسلى ستاركى» بحفريات فى المنطقة التى كانت بها مدينة لخيش (حاليا «تل الدوير» ٤٠كم جنوب غرب أورشليم) واكتشف حطام المدينة القديمة على مساحة ١٢ فدانا محاطة بسور سميك ورماد يدل على حريق هائل دمَّر كل شىء فى عصر يتزامن مع سقوط لخيش فى أيدى بنى إسرائيل (الكتاب المقدس والتاريخ. وارنر كيللر - ص ١٦٤).

الاستيلاء على مدن الجنوب (شكل ٩) :

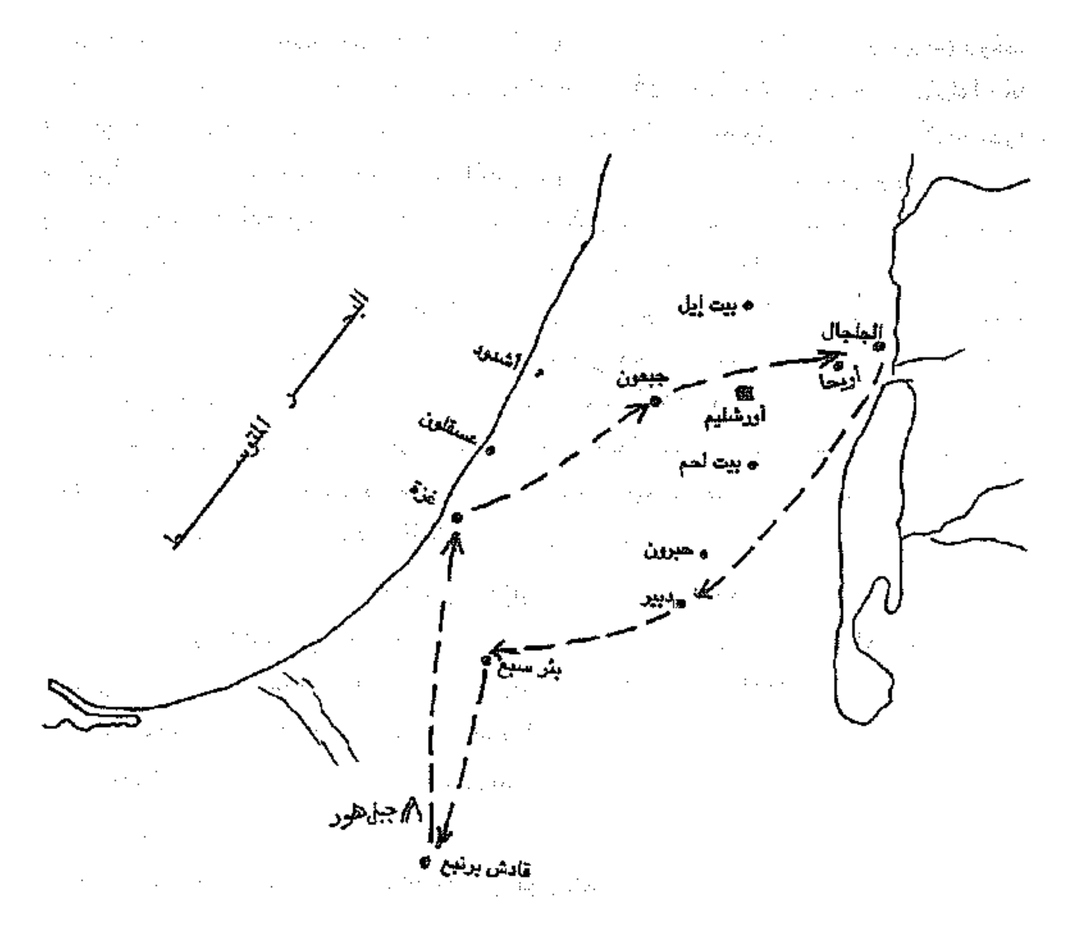
بعد ذلك اتجه يشوع إلى مدينة «دبير» التى تقع فى جبال يهوذا فى النقب (وكانت تدعى أيضا «مدينة سفر» أى «مدينة الكتب») وكان يسكنها العناقيون (فرع من العماليق) فاستولى عليها وقتل أهلها. ثم توغل جنوبا واستولى على بئر سبع. وقادش برنيع ثم ارتد شمالا إلى غزة على ساحل البحر المتوسط ثم إلى جبعون مرة ثانية وهو فى طريقه إلى الجلجال.

ونلاحظ أن خط سير الحملات لم يكن خطا مستقيما. بل كان يتجه إلى بلدة فى الجنوب ثم إلى بلدة فى الشمال ثم يرتد إلى الجنوب مرة ثانية. ولعل المقصود بذلك كان مفاجأة المدن غير المتوقعة للغزو. فمثلا إذا استولى على مدنية فى الجنوب تتوقع المدن المجاورة بأنها التالية فيستعد أهلها. فيتركهم ويهاجم مدينة فى الشمال غير مستعدة للقتال فيستولى عليها. وتكون المدن فى الجنوب قد تراخت لبعدها عن مسرح القتال فيفاجئها ويستولى عليها وهكذا كانت الضربات شمالا وجنوبا ثم شرقا وغربا حتى استولى على مدن الجنوب الحصينة.

بعد الاستيلاء على الجنوب رجع يشوع إلى الجلجال وبدأ يخطط لغزو مدن الشمال.

الاستيلاء على مدن الشمال (شكل ١٠) :

انزعج يابين ملك «حاصور» (١٥ كم شمال بحر الجليل) وكوَّن حلفا من ملوك مدن الشمال الهامة: يوباب ملك «مادون» وانضم إليه ملك «شمرون» (تقع ٢٠كم شمال مجدو) وملك «أكشاف» (ويُحتمل أنها هى خربة الحرباى الحالية ٢٠كم جنوب عكا) وملوك الشمال فى جبال لبنان وملوك السهول جنوب طبرية على بحر الجليل وملك ميناء «دور» على ساحل البحر المتوسط والساكنون فى وادى المصفاة (عند سفح جبل حرمون ويحتمل أنها هى مرج عيون فى جنوب



شكل ٩ – الاستيلاء على مدن الجنوب .

لبنان) وتحالف معهم الحويّون والكنعانيون والأموريون، وتجمّع كل هؤلاء الملوك وجيوشهم وكما تقول التوراة (يشوع ١١:٤) **مع شعب غفير كرمل البحر بخيل ومركبات كثيرة جداً. ونزلوا معا عند مياه «ميروم»**، وهو اسم عبرى معناه المرتفع وفيها عين تسيل منها المياه مكوّنة نهرا صغيرا اسمه «ميرون» يصب في بحر الجليل. ووقعت المعركة عند مياه ميروم وانتصر بنو إسرائيل وانهزمت الجيوش المتحالفة وأمر يشوع بقتل جميع سكان «حاصور» وإحراق المدينة لأنها هى التى ألّبت الجميع ضدهم. واستولى على المدن التى تحالفت معها واستولى على البهائم وأخذها غنيمة. وقد قام عالم الآثار البريطانى جون هارستانج بالكشف عن مدينة حاصور وسط تراب وحجارة «تل الكدة» الموجود على ضفة الأردن الغربية بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية (بحر الجليل). واستكمل الحفريات (عام ١٩٥٣) باحثون تحت إشراف الجامعة العبرية فى أورشليم يرأسهم إيجال يادين. وأسفرت الحفريات عن كشف مدينة بها قلاع قوية ويدل الرماد على حريق هائل يتزامن مع عصر يشوع. ولم تُبن قلاعها مرة ثانية إلا فى عصر سليمان عليه السلام (وارنر كيللر. الكتاب المقدس والتاريخ. ص ١٦٥).

بعد هذا الانتصار قسّم يشوع جيشه إلى قسمين: قسم اتجه إلى صور ثم شمالا إلى صيدون عبر نهر الليطانى. أما القسم الثانى فاتجه شمال شرق إلى وادى المصفاة. وهكذا استولى يشوع على الشمال كله (شكل ١٠). وتقول التوراة (يشوع ١٣:١) **وشاخ يشوع وتقدم فى الأيام فقال له الرب: أنت قد شخت. تقدمت فى الأيام، وقد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك.**

وكانت الأراضى الباقية كثيرة، وسيأتى تفصيلها فيما بعد (شكل ١٢ ص ٤١).

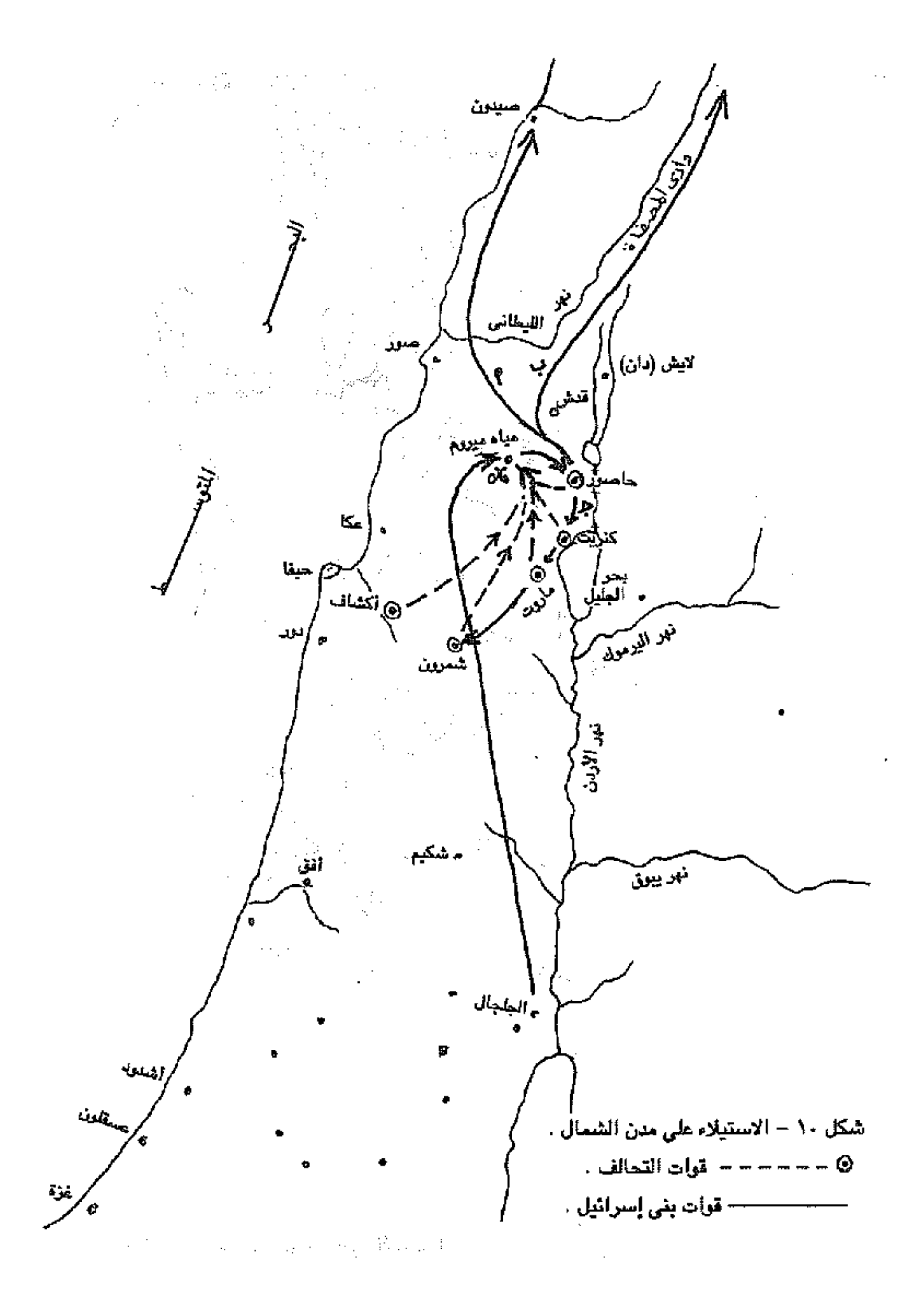
تقسيم الأرض :

بالرغم من هذا النقص فى امتلاك الأرض فإن يشوع بدأ فى تقسيمها بين الأسباط بالقرعة وحسب القواعد التى وضعها موسى عليه السلام قبل وفاته (الجزء الرابع ص١١٠١) وكان رأوبين وجاد وسبط منسّى قد أخذوا أرضهم فى شرق الأردن (الجزء الرابع ص ١١٠٢) وبذلك قسمت الأرض غرب نهر الأردن على ٩ $\frac{1}{2}$ سبط فيكون المجموع ١٢ سبطا وذلك بالرغم من أن اللاويّين لم يعطوا أرضا لأنهم يقومون بالكهانة وخدمة الرب فى جميع أرض إسرائيل وفى المقابل اعتُمدَ ولدى يوسف أفرايم ومنسى سبطين منفصلين. وشكل ١١ يبين تقسيم الأرض بين الأسباط .

وكان أنه لما امتدت الأرض المستولى عليها فى اتجاه الشمال، أن أصبحت الجلجال فى الجزء الجنوبى فاختار يشوع مدينة «شيلوه» محلّة له أى عاصمة. ويرجّح أن مكانها الآن مدينة «سيلون» ١٥كم جنوب شكيم (نابلس). وجعل منها مقرا للتابوت والخيمة وبقيت الخيمة فيها مدة ٣٠٠ سنة وكان الشعب يُعبد هناك.

مدن الملجأ :

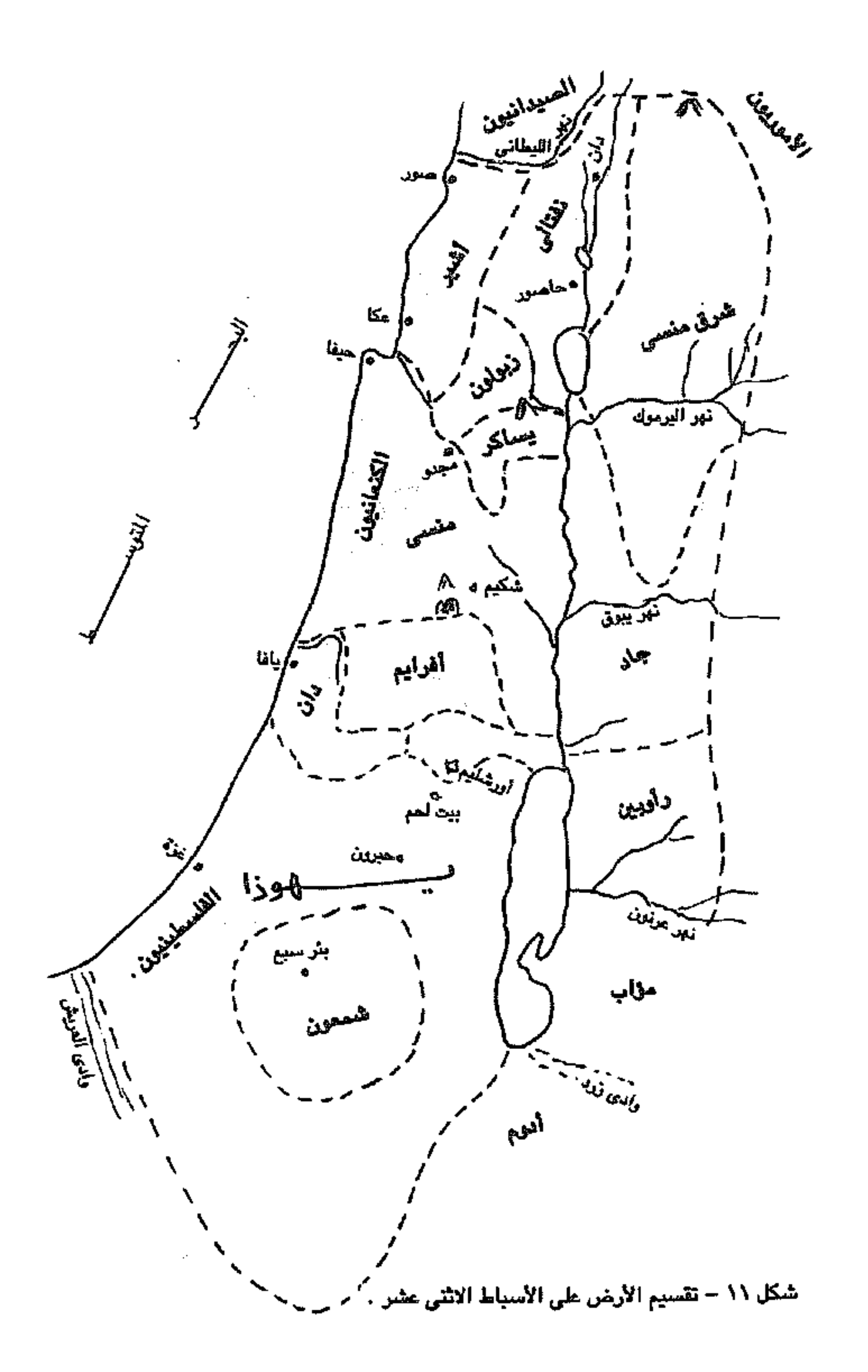
(يشوع ٢٠ : ١) وكلم الرب يشوع قائلا: كلّم بنى إسرائيل قائلا: اجعلوا لأنفسكم مدن



شكل ١٠ – الاستيلاء على مدن الشمال .

قوات التحالف .

قوات بني إسرائيل .



شكل ١١ – تقسيم الأرض على الأسباط الاثنى عشر .

الملجأ كما كلمتكم على يد موسى لكى يهرب إليها القاتل ضارب نفس سهوا بغير علم فتكون لكم ملجأ من ولى الدم حتى لا يقتله فى ثورة غضبه وحتى يمكن للقاتل أن يثبت أنه لم يكن قتلا متعمدا فيسقط عنه القصاص. وكانت هذه المدن الثلاث هى :

١ – قادش في جبل نفتالي في الجليل .

٢ – شكيم في جبل أفرايم .

٣ – حبرون في جبل يهوذا .

هذا بالإضافة إلى ثلاث مدن الملجأ شرق الأردن وهى جولان وراموث جلعاد وباصر السابق ذكرها (الجزء الرابع ص ١١١١)

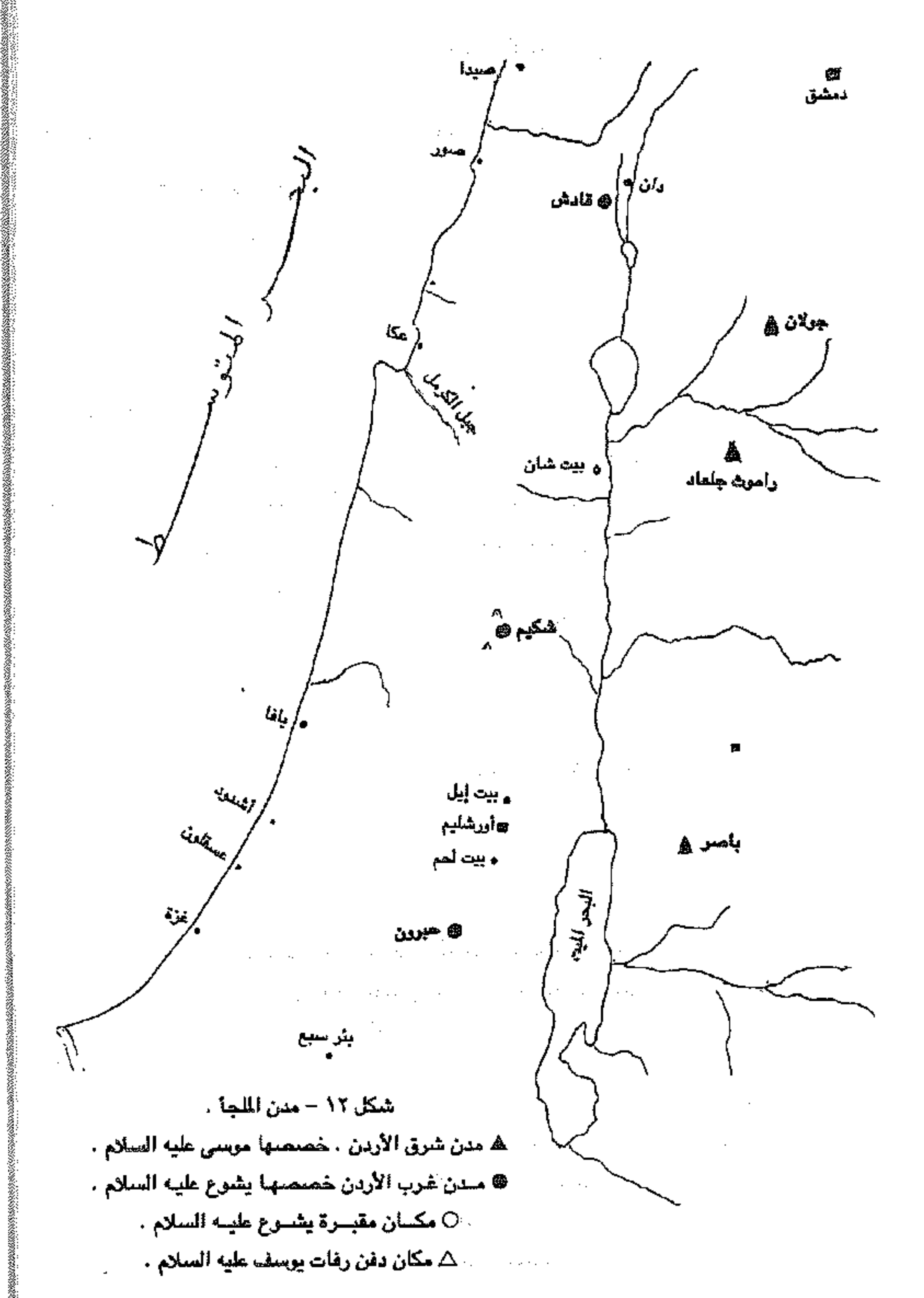
نصيب اللاويين :

سبق أن ذكرنا أن اللاويين – وهم عشيرة موسى وهارون عليهما السلام لم يعطوا أرضا باعتبار أن منهم الكهنة وحملة التابوت ويقومون بخدمة الرب فى جميع أسباط بنى إسرائيل فتقدموا بطلب إلى ألعازار الكاهن ويشوع بن نون وقالوا إن موسى عليه السلام قد وعدهم مدنا للسكنى مع مسارحها (مساحة حولها) للبهائم. فأعطى كل سبط من أرضه بعض المدن أو القرى وحولها أرض زراعية حسب ما حكم به يشوع وكان ذلك بالقُرعة فأعطوا :

بنى هارون	١٣ مدينة	(من أسباط يهوذا وشمعون وبنيامين) .
ولبنى قهات	١٠ مدن	(من أرض أفرايم ودان و ½ منسى غرب الأردن) .
ولبنى جرشون	١٣ مدينة	(من أرض يساكر وأشير ونفتالى و½ منسى شرق).
ولبنى مرارى	١٢ مدينة	(من أرض رأوبين وجاد وزبولون) .
فكانت كلها	٤٨ مدينة .	

الأسباط شرق الأردن :

(يشوع ٢٢ : ١) حينئذ دعا يشوع الرأبوتيين والجاديين ونصف سبط منسى وقال لهم: «إنكم قد حفظتم كل ما أمركم به موسى عبد الرب وسمعتم صوتى فى كل ما أمرتكم به ولم تتركوا إخوتكم هذه الأيام الكثيرة إلى هذا اليوم. وحفظتم وصية الرب إلهكم. والآن قد أراح الرب إلهكم إخوتكم كما قال لهم. فانصرفوا الآن واذهبوا إلى خيامكم فى أرض ملككم التى أعطاكم موسى عبد الرب فى عبر الأردن. وإنما احرصوا جداً أن تعملوا الوصية والشريعة التى أمركم بها موسى عبد الرب: أن تحبوا الرب إلهكم وتسيروا فى كل طرقه وتحفظوا وصاياه وتلصقوا به وتعبدوه بكل قلبكم وبكل نفسكم». ثم باركهم يشوع وصرفهم فذهبوا إلى خيامهم وكلّمهم قائلا: «بمال كثير ارجعوا إلى خيامكم وبمواش كثيرة جدا وبفضة وذهب ونحاس وحديد وملابس كثيرة جداً اقتسموا غنيمة أعدائكم مع إخوتكم».



شكل ١٢ – مدن الملجأ .

▲ مدن شرق الأردن . خصصها موسى عليه السلام .

● مدن غرب الأردن خصصها يشوع عليه السلام .

○ مكان مقبرة يشوع عليه السلام .

△ مكان دفن رفات يوسف عليه السلام .

وبدأ الأسباط الذين تملكوا الأرض شرق الأردن، فى بناء مذبح ضخم حتى لا ينسوا ولاءهم للرب. إلا أن الأسباط الغربية أوَّلت هذا العمل تأويلا سيئا واعتبروه محاولة لإقامة مذبح ثان خلافا للشريعة الموسوية التى تجعل لبنى إسرائيل كلهم مذبحا واحدا. واجتمع رؤساء الأسباط الغربية فى شيلوه لكى يصعدوا للحرب مع إخوتهم لمنع إقامة هذا المذبح وأرسلوا فينحاس بن ألعازار الكاهن ورئيسا من كل سبط إلى أرض جلعاد (شرق الأردن) لكى يتحرَّوا ما اعتبروه خيانة من جانب إخوتهم. فقد أعادوا إلى ذاكرتهم النكبات التى كانت تنزل بالجماعة كلها نتيجة خطيَّة بعض الأفراد وحذَّروهم من التمرد على الرب، فأوضح رؤساء الأسباط الشرقية أنهم يؤمنون بإله الآلهة الرب إله إسرائيل. وأن المذبح الذى بنوه لا يعدو كونه نصبا تذكاريا يربط فكرهم بالأسباط القاطنة غرب النهر. وأنهم بنوه لإصعاد محرقات للرب عليه وعمل ذبائح سلامة حسب أوامر الرب وخاصة أن نهر الأردن قد أصبح عائقا يفصل بينهم وبين إخوتهم فى غربه. واقتنع وفد الأسباط الغربية بهذا التبرير وأنهم لم يقيموا الذبح بغرض الانفصال عن إسرائيل أو التمرد على الرب. وسكت غضبهم وانصرفت نيتهم عن محاربتهم، وسُمِّى المكان «مذبح الشهادة» لأنه شاهد أن الرب هو الإله.

وصية يشوع الأخيرة

وكان لما تقدمت السن بيشوع وأدرك أن منيَّته قد قربت أنه جمع بنى إسرائيل ليوصيهم وكانت وصيته فى خطبتين :

أ – الخطبة الأولى :

أُلقيت هذه الخطبة من مدينة **شيلوه** حيث يوجد التابوت وخيمة الاجتماع. فاجتمع إلى يشوع جميع زعماء الشعب وقادته وقضاته. وبدأ يشوع كلامه بأن أشهدهم بأنه قد قسَّم الأرض على أسباطهم حسب ما أمر به موسى عليه السلام. ثم ذكَّرهم بكل ما عمله الرب بالشعوب الأخرى من أجلهم وأن الرب قد حارب عنهم وملَّكهم الأرض. ثم أوصاهم يشوع بأن يعملوا كل المكتوب فى سفر شريعة موسى وأن لا يحيدوا عنها يمينا أو شمالا. وأن لا يُدخلوا بينهم الشعوب الأخرى الباقين فى الأرض. وأمرهم باتباع أحكام شريعة موسى ووصاياه فلا يحلفوا باسم آلهة هذه الشعوب ولا يعبدوها ولا يسجدوا لها. وحذَّرهم أنهم إذا اندمجوا مع هؤلاء الشعوب وصاهروهم «ودخلتم إليهم وهم إليكم فاعلموا يقينا أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم فيكونوا لكم فخا وشركا وسوطا على جوانبكم وشوكا فى

أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التى أعطاكم إياها الرب إلهكم. وحينما تتعدُّون عهد الرب إلهكم الذى أمركم به وتسيرون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها يحمى غضب الرب عليكم فتبيدون سريعا عن الأرض الصالحة التى أعطاكم» (يشوع ١٣:١٢-١٦).

ب - الخطبة الثانية :

دعا يشوع جميع أسباط إسرائيل وشيوخهم ورؤساءهم إلى الاجتماع فى شكيم. وذكر لهم كيف أن الله منَّ عليهم بأن جعل جدهم الأكبر إبراهيم نبيا ومن ذريته إسحق ويعقوب وعيسو. وكيف تغرَّب يعقوب وبنى إسرائيل فى مصر وكيف عاملهم المصريون بقسوة. ثم كيف أنجى الله بنى إسرائيل وأغرق آل فرعون وخرجوا من مصر بقيادة موسى ثم أورثهم الأرض وطرد الشعوب الوثنية من أمامهم. ثم قال لهم (يشوع ١٤:٢٤): «فالآن اخشوا الرب واعبدوه بكمال وأمانة وإن ساء فى أعينكم أن تعبدوا الرب فاختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون. إن كان آلهة الأموريين الذين أنتم ساكنون فى أرضهم. وأما أنا وبيتى فنعبد الرب، فأجاب الشعب وقالوا: حاشا لنا أن نترك الرب لنعبد آلهة أخرى. فنحن أيضا نعبد الرب لأنه هو إلهنا فقال يشوع: الرب إله قدوس وإله غيور لا يغفر ذنوبكم وخطاياكم وإذا تركتم الرب وعبدتم آلهة غريبة يرجع فيسيء إليكم ويفنيكم بعد أن أحسن إليكم. فقال الشعب ليشوع: لا بل الربَّ نعبد. فقال يشوع للشعب: أنتم شهود على أنفسكم أنكم قد اخترتم لأنفسكم الربَّ لتعبدوه. فقالوا نحن شهود. وقطع يشوع عهدا للشعب فى ذلك اليوم وجعل لهم فريضة وحكما فى شكيم. وكتب يشوع هذا الكلام فى سفر شريعة الله. وأخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك تحت البلوطة التى عند مقدس الرب ثم قال لهم: إن هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه سمع كل الكلام الذى تكلمتم به فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوه».

وفاة يشوع :

بعد ذلك توفى يشوع بن نون عليه السلام وعمره ١١٠ سنة ودُفن فى «تمنة سارح» ٣٠كم شمال غرب أورشليم فى جبل أفرايم بعد أن أمضى ٧ سنوات قائدا ونبيا لبنى إسرائيل أى توفى عام ١١٥٨ ق.م. تقريبا.

وجدير بالذكر أن يشوع عليه السلام قام قبل وفاته بتنفيذ وصية يوسف عليه السلام فدفن التابوت الذى فيه رفاته فى شكيم. وكان بنو إسرائيل قد حملوه معهم عند خروجهم من مصر وبقى معهم طوال سنوات التيه فى سيناء إلى أن استقر الجثمان فى شكيم.

الفصل الثالث

عصر القضاة

بالرغم من أن يشوع قد قسَّم الأرض حسب الحدود وحسب القواعد التى وضعها موسى عليه السلام قبل وفاته إلا أنه بقيت أراضى كثيرة لم يتمكن يشوع من امتلاكها وقد أشرنا إلى هذا فى صفحة ٣٢. ذلك أن بنى إسرائيل - عند دخولهم الأرض - بدأوا بامتلاك المناطق الجبلية قليلة الكثافة السكانية بغرض جعلها نقاط ارتكاز ينطلقون منها بعد ذلك لتملُّك باقى الأرض وتجنبوا السهول والوديان ذات الكثافة السكانية العالية والتى يُتوقَّع أن تكون المقاومة فيها أشد. كما أنهم تجنبوا المدن الحصينة والمعروفة بقوة أسوارها وأبراجها الدفاعية إذ لم تكن لهم خبرة وليس عندهم السلالم الكبيرة التى تمكِّنهم من تسلق الأسوار أو أدوات الحفر التى تمكنهم من نقبها. لذلك عمدوا إلى المدن الصغيرة والقرى ضعيفة التحصينات فاستولوا عليها. وكان التمثيل بأهلها وقتلهم جميعا وإحراق المدن بالكامل رسالة إلى المدن المجاورة ودعوة للإستسلام لتجنب هذا المصير المؤلم. ومن المؤكد أن بنى إسرائيل حتى نهاية عصر يشوع لم يستولوا إلا على حوالى ثلثى الأرض. وكانت المناطق الباقية التى لم يتم الاستيلاء عليها هى كما فى شكل ١٣:

١ - **كل الساحل الفلسطيني** من حدود مصر حتى عقرون بما فيه مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية: غزة وأشدود وعسقلون وجت وعقرون. وكان يسكن هذه المنطقة الفلسطينيون والجشوريون والحويون والعقرونيون. إلا أن الفلسطينيين كانوا هم الأشد عداء لبنى إسرائيل. وهذه المنطقة كانت تدخل ضمن أرض يهوذا ولكنه لم يستطع امتلاكها إلا فى عصر سليمان عليه السلام.

٢ - **الساحل من دور إلى عقرون** والمفروض أنه ضمن أرض سبط دان. ولكن ظل الكنعانيون والفرزيون يسكنونه ولم يستطع سبط دان استخلاصه من أيديهم.

٣ - **الساحل من دور حتى حدود الأموريين** شمالا. وكان يسكنه جماعات من الأموريين والحيثيين بعد أن استولت شعوب البحر على بلادهم فى آسيا الصغرى.

٤ - **ظلت يبوس (أورشليم)** فى أيدى اليبوسيين. وتقول التوراة: (يشوع ١٥:١٢) «وأما اليبوسيون الساكنون فى أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم». ولم يستطع بنو إسرائيل الاستيلاء عليها بالكامل إلا على أيام داود عليه السلام.

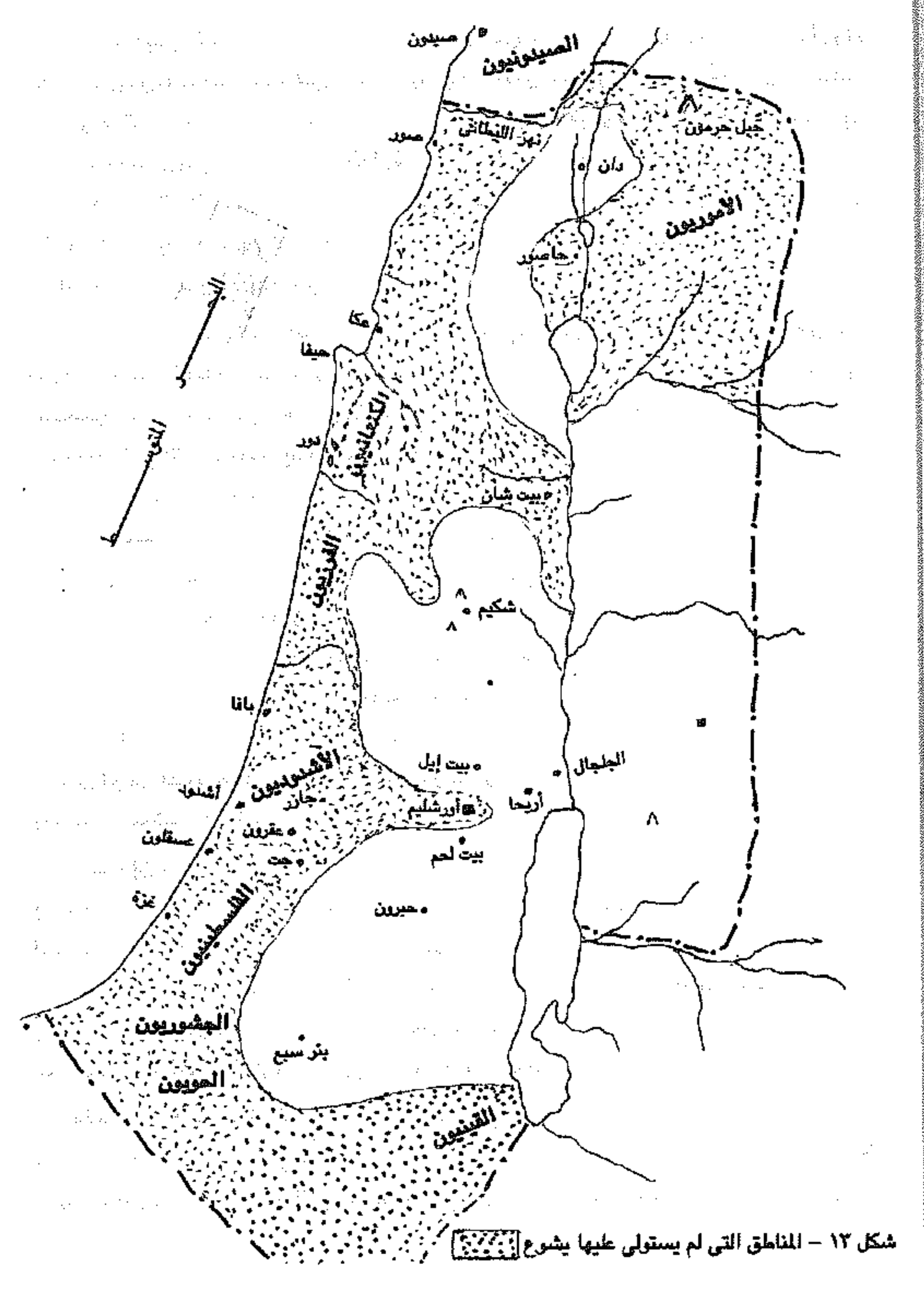
٥ – **منطقة جازر** ولم يستطع بنو أفرايم طرد الكنعانيين الساكنين فيها. ولم يتم الاستيلاء عليها إلا في عهد سليمان عليه السلام وبمساعدة جيوش مصر (ملوك أول ١٦:٩) «وصعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهرا لابنته امرأة سليمان».

٦ – كما أن **سهل يزرعيل** (شكل ٢ ص٥) وهو يقع في أراضي يساكر وزبولون وأشير ومنسى لم يستطيعوا امتلاكه إلا في عصر القضاة.

كما قلنا كان استيلاء بني إسرائيل – أول دخولهم الأرض – مُنصبًا على المناطق الجبلية في يهوذا وأفرايم ومنسي ومناطق الجليل الأعلى والأسفل وجلعاد وهضبة مؤاب. وبدأوا في إزالة الغابات وأنشأوا المستوطنات والمزارع وبنوا البيوت وبدأوا يزرعون العنب والزيتون والتين والقمح وبدأوا في نحت المجاري المائية في الصخر والبحث عن خزانات المياه الجوفية وتجميع المياه في أحواض كبيرة مبطنة بالجبس حتى لا يتسرب الماء منها. كل ذلك مكَّنهم من زراعة أراضي بعيدة عن الأنهار. وهكذا أمكن لبني إسرائيل أن يعيشوا في أماكن بعيدة نسبيا عن أعين السكان المحليين.

أما سبط دان فكان نصيبهم من الأرض ضعيفا لم يزد عن كونه قطعة من الساحل بين يافا و دور كان يسكنها الأموريون والفرزيون وحصروا سبط دان في منطقة جبلية ولم يفسحوا لهم المجال للنزول إلى الوادي. ومن ثم بحث الدانيُّون عن أرض جديدة في أقصى الشمال في الجليل الأعلى وانتقلوا بكاملهم إليها. وكان هذا تحقيقا لقول موسى عليه السلام عند مباركته للأسباط قبل وفاته (الجزء الرابع ص ١١١٢) «دان شبل أسد يثب من باشان». (انظر فيما بعد ص٦٠).

ويشير سفر القضاة إلى أن هذه الأرض التي لم يتم الاستيلاء عليها كانت امتحانا من الرب لبني إسرائيل. فقد كانت التعليمات (قضاة ٢:٣): «**لا تقطعوا عهدا مع سكان هذه الأرض. اهدموا مذابحهم**». ولاشك أن بني إسرائيل لو نفَّذوا هذا الأمر وحاربوا هذه الأقوام لكانت يد الله معهم ونصرهم على أعدائهم وخلصت لهم الأرض بكاملها. ولكنهم تقاعسوا وخافوا من المواجهة مع هذه الشعوب وهادنوهم وسكنوا معهم لذلك تنعى عليهم التوراة هذا المسلك (قضاة ٢:٣) «**ولم تسمعوا لصوتي. فماذا عملتم؟ فقلت أيضا لا أطردهم من أمامكم. بل يكونون لكم مضايقين وتكون آلهتهم لكم شركا**». لاختبار قوة إيمان بني إسرائيل ومدى تمسكهم بدينهم. ولكن بني إسرائيل انساقوا وراء الشعوب الأجنبية التي تعيش بينهم وتزاوجوا معهم وعبدوا آلهتهم. وتقول التوراة: (قضاة ١١:٢) «**وفعل بنو إسرائيل الشر في**



شكل ١٢ – المناطق التي لم يستولي عليها يشوع

عينى الرب وعبدوا البعليم. وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغضبوا الرب . تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروث فحمى غضب الرب على إسرائيل. فدفعهم لأيدى ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم حولهم ولم يقدروا بعدُ على الوقوف أمام أعدائهم. حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر كما تكلم الرب وكما أقسم الرب لهم. فضاق بهم الأمر جدا. وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد أعدائهم كل أيام القاضى. وعند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها وسجدوا لها».

هذه الفقرة تُلخِّص هذا الفصل «عصر القضاة» إذ يفعل بنو إسرائيل أو سبط من بنى إسرائيل الشر ويعبدون آلهة أخرى فيسلِّط الله عليهم الشعوب المجاورة أو الساكنة وسطهم فينقضوا عليهم ويتسلَّطوا عليهم ويفرضوا عليهم الجزية ويستعبدوهم. فيضج بنو إسرائيل بالشكوى إلى الله ويتوبون إليه. فيُقَيِّض الله لهم قاضيا - أو قدِّيسا أو نبيا - يهديهم إلى طريق الحق ويقودهم. وتكون يد الله معه ومعهم فينتصروا على أعدائهم وينفضوا الذل عنهم ويتمتعوا بالحرية لبعض الوقت ولكنهم سرعان ما يزيغون عن الحق ثانية وتتكرر القصة مرة أخرى فى سبط آخر ومكان آخر. وهكذا كان تاريخ بنى إسرائيل فى هذه الفترة سلسلة من الحروب يقودها القضاة. وكان منهم قضاة كبار ذُكرت حروبهم بشىء من التفصيل وقضاة صغار وردت نبذات صغيرة عنهم. وكانت المعارك فى فترة القضاة تدور فى أماكن مختلفة. فليس من الضرورى أنهم كانوا فى تتابع زمنى فقد يتفق أن يكون اثنان منهم فى وقت واحد فعلى سبيل المثال فإن الصراع مع العمونيين عبر نهر الأردن والصراع مع الفلسطينيين عند ساحل البحر المتوسط كانا تقريبا فى وقت واحد وكان القاضى يفتاح الجلعادى فى الشرق والقاضى شمشون فى الغرب فى وقت واحد.

كذلك فإن التنظيم الفيدرالى الذى اتبعه يشوع فى ربط أسباط بنى إسرائيل بعضها بالبعض الآخر كان يعتمد على شخصه وقوة النفوذ التى استمدها من ملازمته لموسى عليه السلام واستخلاف موسى له قبل وفاته ثم من نبوَّته هو نفسه. ولو أن كثيرا من أهل الكتاب يعتبرونه خليفة لموسى عليه السلام له من الكرامة والهيبة عند الناس ما ألزمهم بطاعته دون أن يكون نبيا. وعلى كلٍّ فقد تبع موت يشوع تفرق وحدة بنى إسرائيل ولم يعد سبط يساعد سبطا آخر لصد عدو لهم . وكان هذا التفرق مصداقا لقوله تعالى:

«**وقطَّعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما**» (من الآية ١٦٠ - الأعراف) وكان على كل سبط أن يُسَيِّر أموره فى المنطقة التى خُصِّصت له بمفرده. إلا أنه - فى بعض الأحيان - كان السبط المهدد بالحرب يرسل رسلا إلى الأسباط الأخرى يحيطهم بما يحيق به من أخطار. فكان البعض ينجده بعدد من الجنود والبعض الآخر يتراخى. ولم تكن هناك «حكومة مركزية» تجبر

على تعبئة الجنود لمجابهة العدو. هذا من الناحية السياسية. أما من الناحية الدينية فإن سبط لاوى توزعوا على الأسباط الآخرين كلهم، يقومون بالكهانة والخدمات الدينية فى دور العبادة وتقديم القرابين على المذبح. ويتجمع الكل حول هيكل رمزى فى «شيلوه» حيث توجد خيمة الاجتماع والتابوت. وصحيح أن الكاهن الأعظم كان له سلطة كبيرة. ولكن لم تكن له قوة سياسية فلم تكن حكومة ثيوقراطية تربط بين الأسباط المختلفة. كما أن سلطات القضاة كانت محلية وعارضة ومحدودة المدة. فالأسباط يتكونون من عشائر ولكل عشيرة شيخها. وفى الوقت الذى تتعرض له العشيرة للخطر أو يتعرض السبط لغزو خارجى فإن القاضى يُكَوِّن مجموعة من المحاربين أو جيشا فينقذ السبط من يد أعدائه. والقضاة لا يأتون بتشريع جديد بل يطبقون شريعة موسى عليه السلام. وقد يكون هناك نبى أو رجل صالح يُعين هذا القاضى فى مهمته. وغالبا ما يكون سبب الأزمة التى يمر بها السبط هو تخلى أفراده عن أحكام الشريعة كأن يكون قد انساق وعبد آلهة الوثنيين المجاورين له. أو ظهر فساد من نوع ما فى هذه العشيرة فيسلِّط عليهم إحدى الأمم المجاورة أو أحد الأقوام الذين يعيشون بينهم - فتستعبدهم وتأخذ منهم الجزية ثم يهيىء لهم الله قاضيا يهديهم إلى الطريق القويم وينقذهم من هذا الاستعباد.

وقد اختلف المؤرخون فى طول فترة القضاة. بعضهم يرى أنها استغرقت قرنين ونصف قرن من الزمان (محمد عزة دروزة - تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم. ص ١٢٢). وبعضهم يرى أنها قرن وثلاثة أرباع القرن (ج جراى. إسرائيل وأساطير الشرق الأدنى القديم. ص ١١٢) فى حين يرى آخرون أنها لم تزد عن قرن واحد (فيليب حتى. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ ١ ص ١٩٥) وهذا ما نرجِّحه وما يتفق مع التواريخ التى اعتمدناها. إذ أن يشوع توفى عام ١١٥٣ ق.م. وتولى شاول الملكية فى عام ١٠٦٠ ق.م. أى أن عصر القضاة استغرق ٩٣ عاما فقط. وسنكتفى بذكر ثمانية من القضاة.

١ - القاضى عثنييل Othniel

وعثنييل اسم عبرى معناه «الله قوة» وهو أخو كالب بن يفنة زميل يشوع النبى والمشار إليهما فى قولة تعالى: **«قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ...»** (من الآية ٢٣ - المائدة).

تقول التوراة (قضاة ٣:٧): «فعمل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين فاستعبد بنى إسرائيل ٨ سنوات».

ويرى كثير من المفسرين أن كوشان كان أحد الأمراء الحيثيين وكان قد استولى على دولة ميتانى على الفرات ولذلك وصفته التوراة بأنه «ملك أرام النهرين». وتوجد آثار لغزوه لفلسطين

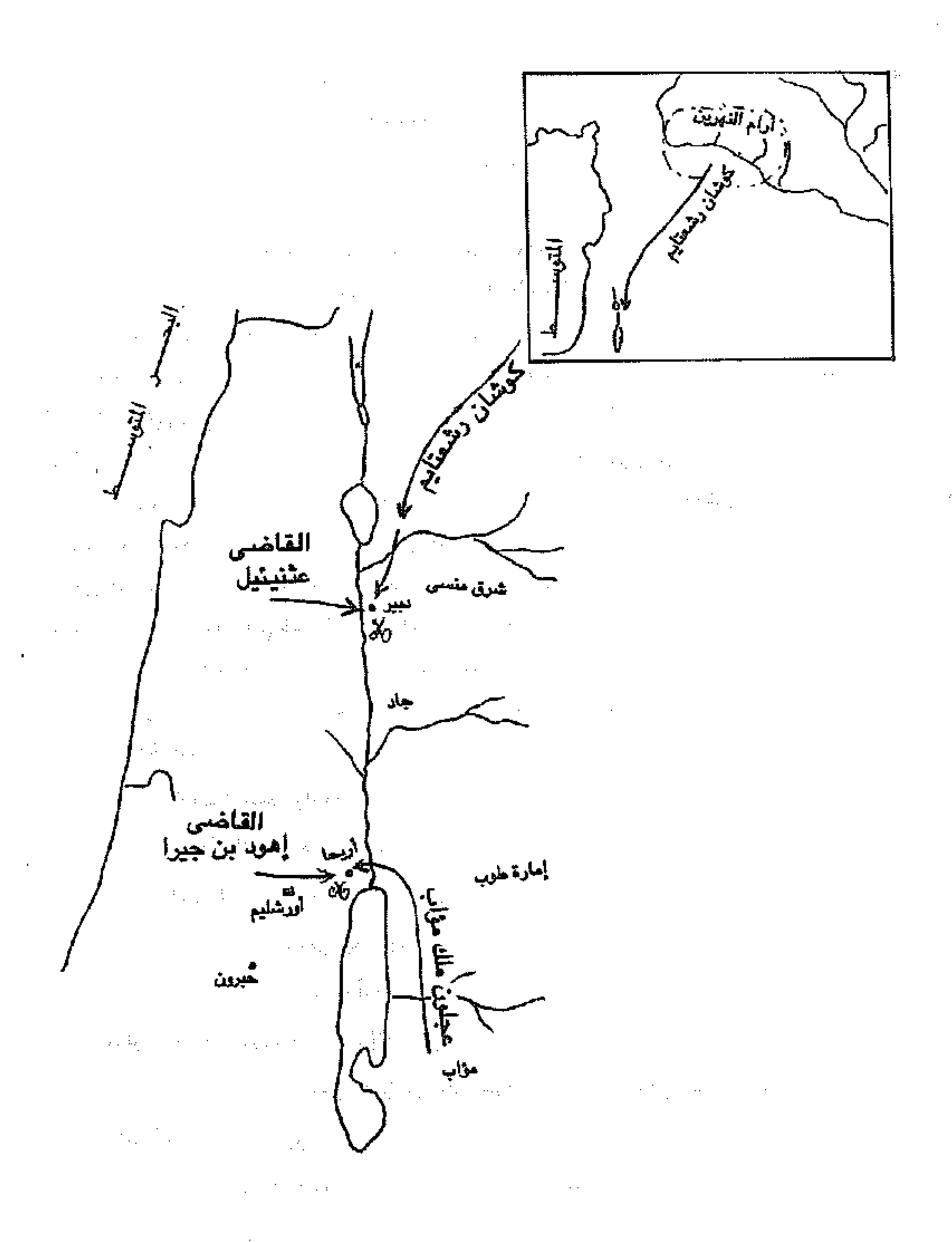
فى مدينة بيت شان (أونجر - قاموس الكتاب المقدس. ص٢٦٨) وعليه تكون الأسباط الشمالية - نفتالى وأشير ويساكر وزبولون ومنسى - هى التى تعرضت للغزو. «وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب فأقام الرب مُخلِّصا لهم هو عثنيئيل أخو كالب الأصغر. فكان عليه روح الرب وقضى لإسرائيل وخرج للحرب». و «كان عليه روح الرب» تعبير يستعمل لإعطاء معنى أن ذلك الشخص حلَّت عليه قوة خاصة سببها انسكاب النعمة الإلهية. وقد استعمل هذا التعبير مع قضاة آخرين (يفتاح وشمشون) ومع شاول وداود. كما أن وصف «اللابسين لروح الرب» ينطبق على أنبياء وقديسين ويشمل كذلك بعض الأشخاص الذين تُعلن لهم الرغبة الإلهية لتنفيذ مهمة معينة فى بعض الأوقات الحرجة من حياة الأمة تستدعى شجاعة فائقة وتفانيا فى خدمة الرب بحيث لا يأبه بأى أخطار جسيمة تقابله. المهم أن عثنيئيل جمع الرجال وقادهم واستخلص من العدو «قرية سفر» أو «كريات سفر» أو «دبير» التى يرى البعض أنها تقع فى أرض جلعاد على الضفة الشرقية لنهر الأردن ١٥كم جنوب بحر الجليل (شكل ١٤). وقاد عثنيئيل جيشا من بنى إسرائيل وطرد المعتدى من البلاد وخلَّص إسرائيل من الاستعباد وقضى لإسرائيل ٤٠ سنة نعمت فيها بالسلام والرخاء.

٢ - القاضى إهود بن جيرا

تقول التوراة (قضاة ٣:١٢) «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب فشدَّد الرب عجلون ملك مؤاب على إسرائيل فجمع إليه بنى عمون وعماليق وسار وضرب إسرائيل وامتلكوا مدينة النخل (أى أريحا) وبنى لنفسه قصرا فيها واستعبد بنى إسرائيل ١٨ سنة. وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب فأقام لهم الرب مُخلِّصا إهود بن جيرا البنياميني». فجنَّد جنودا من سبط بنيامين وممن انضموا إليه من باقى الأسباط. ولكنه أراد أن يفت فى عضد العدو قبل المعركة بقتل ملكهم. فأخذ هدية لعجلون ملك مؤاب وفى نفس الوقت كان قد أخفى سيفا ألصقه على فخذه اليمنى تحت ثيابه. وبعد أن قدم إهود الهدية إلى عجلون مال عليه قائلا إن لديه سرا يريد أن يطلعه عليه وحده فصرف الملك حُراسه وجميع من عنده. فمد إهود يده وأخرج السيف وضرب به عجلون فى بطنه فمات. وخرج إهود من قاعة الملك وأغلق بابها وانصرف. ومضى وقت ولم يخرج عجلون إلى بلاطه فظنوا أنه يستريح لبعض الوقت. فلما أبطأ عليهم فتحوا الباب فوجدوه ساقطا على الأرض ميتا. كان إهود فى هذه الأثناء قد أسرع إلى الجلجال ثم إلى جبل أفرايم وأمر بنفخ البوق وجمع الإسرائيليين وأمرهم أن يتبعوه. فنزلوا وراءه وعبروا مخاضه الأردن إلى مؤاب وقتلوا من المؤابيين نحو ١٠,٠٠٠ . واستراح بنو إسرائيل ٨٠ سنة.

٣ - القاضية دبورة النبية

ظهر الفساد هذه المرة فى سبط نفتالى فى الشمال وعملوا الشر فى عينى الرب فسلَّط الله

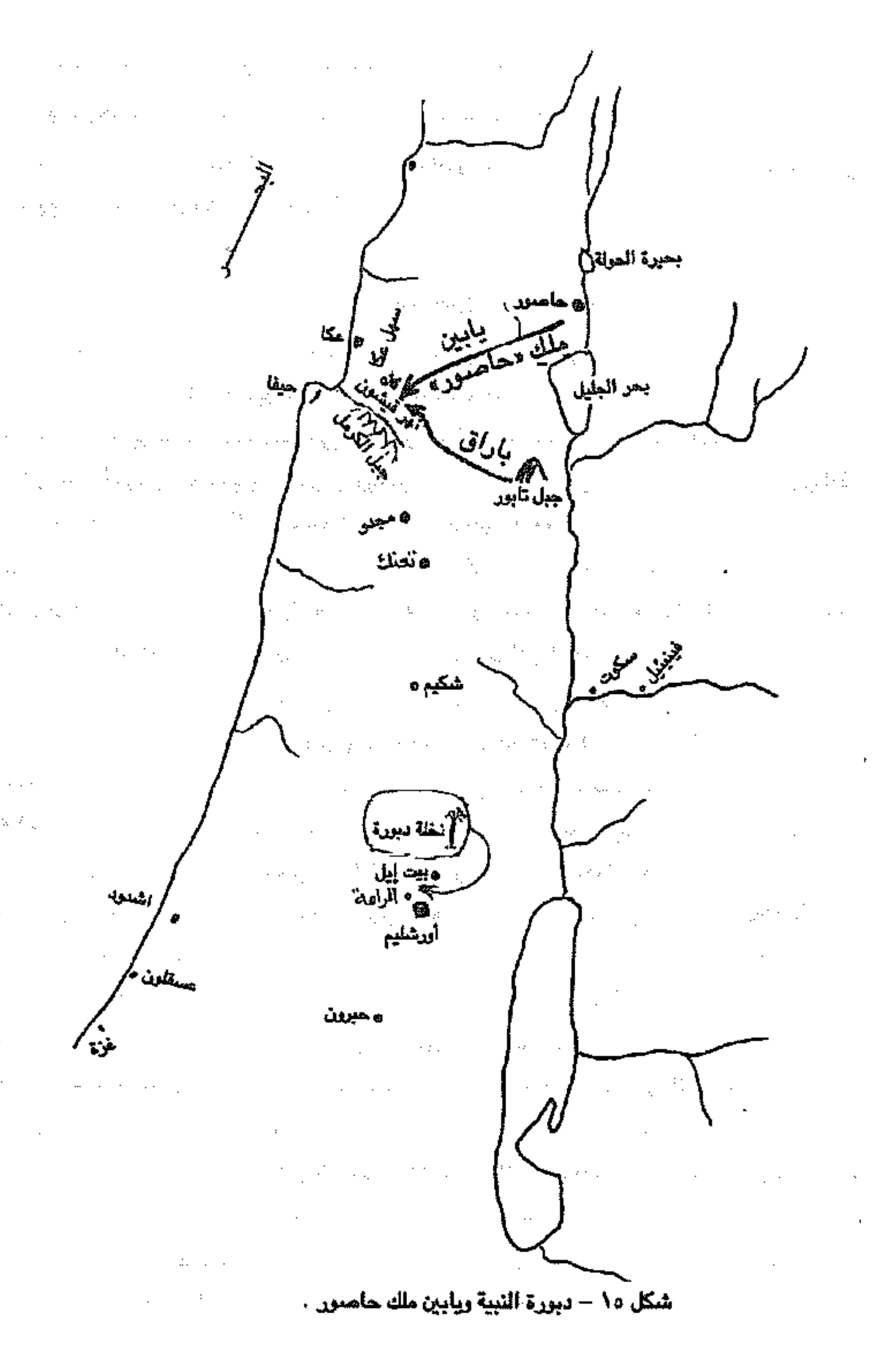


شكل ١٤ – القاضى عثنيئيل والقاضى إهود بن جيرا .

عليهم «يابين Jabin» ملك «حاصور» والذى كان له ٩٠٠ مركبة حربية. وكان قائد جيشه اسمه سيسرا، الذى ضايق سبط نفتالي واستبعدهم لمدة ٢٠ سنة .

وكانت دبورة قاضية لبنى إسرائيل فى ذلك الوقت وكانت تجلس تحت نخلة فى مكان بين بيت إيل والرامة فى جبل أفرايم. ولجأ إليها رجال سبط نفتالي يستشيرونها فقد كانت نبية أيضا. فأرسلت «باراق» أحد رؤساء سبط نفتالي وأمرته أن يجند جيشا من سبط نفتالى وسبط زبولون قوامه ١٠,٠٠٠ مقاتل ووضعت له الخطة وسارت معهم تساندهم بدعواتها. وصعد باراق يقود العشرة آلاف مقاتل إلى جبل تابور. وعلم سيسرا بذلك فقاد جيشه ومركباته الحربية الـ ٩٠٠ إلى نهر قيشون Kishon (ونهر قيشون ينبع من السفح الشمالى لجبل الكرمل ويسير متعرجا ليصب فى خليج عكا شمالى حيفا بقليل). وشجعت دبورة النبية باراق قائلة له: إن الله يخرج قدامك وقد دفع ليدك سيسرا. فنزل باراق من جبل «تابور» وهو يقع ٢٠كم جنوب غرب بحر الجليل (ويسمى الآن الطور) وهاجموا جيش سيسرا ومركباته الحربية وهزموهم وهرب سيسرا علي رجليه. ولجأ إلى خيمة ياعيل امرأة أحد أعوانه إلا أن باراق كان قد استمالها إلى صفه. وخرجت ياعيل لاستقبال سيسرا وطمأنته وأدخلته الخيمة ليستريح وبينما هو نائم ضربته بوتد الخيمة ضربة شديدة على صدغه فنفذ الوتد فى رأسه ومات لساعته. وانهزم يابين ملك حاصور واستولى سبط نفتالى على حاصور وخلصت لهم الأرض التى كان يابين ملكا عليها. وترنمت دبورة وباراق فى ذلك اليوم بأنشودة قائلين (قضاة ١:٥) مع اختصارها:

- لأجل انتداب الشعب باركوا الرب .
- اسمعوا أيها الملوك واصغوا أيها العظماء.
- أنا أنا للرب أترنمٌ. أزمر للرب إله إسرائيل.
- يارب بخروجك من سعير. بصعودك من صحراء أدوم.
- الأرض ارتعدت. السماوات أيضا قطرت .
- تزلزلت الجبال من وجه الرب إله إسرائيل.
- باركوا الرب أيها الراكبون الأُتُن فى الصحراء (جمع أتان وهى أنثى الحمار).
- والسالكون فى الطريق سبِّحوا .
- جاء ملوك . حاربوا. الكواكب من حبكها حاربت سيسرا.
- نهر قيشون جرفهم .
- البركة على ياعيل امرأة جابر القينى. طلب ماء فأعطته لبنا.



شكل ١٥ – دبورة النبية ويابين ملك حاصور .

– مدت يدها إلى الوتد وضربت سيسرا وسحقت رأسه .

– بين رجليها سقط. انطرح مقتولا. هكذا يبيد جميع أعدائك يارب.

وغنم بنو إسرائيل مغانم كثيرة: فتى وفتاتان لكل رجل غنيمة وثياب مصبوغة مطرّزة الوجهين. واستراحت الأرض ٤٠ سنة.

٤ – النبي جدعون بن يوآش

تقول التوراة (قضاة ٦:٢) : «وعمل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب. فدفعهم الرب ليد مديان ٧ سنوات». وكان المديانيون أول من استخدم الجمال على نطاق واسع فى غاراتهم مما مكنهم من السير مسافات طويلة فى الصحراء فكانوا يسيرون فى اتجاه الشمال فى الطريق شرقى نهر الأردن. ثم يعبرون الأردن ويغيرون على وسط إسرائيل وبه غرب منسى وبالذات سهل يزرعيل الخصيب. وكان ينضم إليهم فى غاراتهم العمالقة من سيناء الشمالية والعمالقة من صحراء سوريا. وكان إذا زرع الإسرائيليون يجيء هؤلاء ويغيرون عليهم وينهبون المحاصيل «ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة ولاغنما ولا بقرا ولا حميرا. لأنهم كانوا كالجراد من الكثرة. ويأتون بالجمال فينهبون ويعودون. وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب».

وكان جدعون بن يؤاش الأبيعزرى – وهو من سبط منسى – يجلس تحت البطمة (نوع من البلوط يعمّر لمدة طويلة وبعضه يُقدّس) فى بلدة عفرة Ophrah (شكل ١٦ أ) وهى قرية الطيبة الحالية التى تقع ٨كم جنوب مجدّو. كان جدعون يخبط حنطة بعصاه وظهر له ملاك الرب وقال له (قضاة ١٢:٦) «الرب معك ياجبار البأس. فقال له جدعون: إذا كان الرب معنا فلماذا أصابتنا كل هذه. وأين كل عجائبه؟. فالتفت إليه وقال: اذهب بقوّتك هذه وخلِّص إسرائيل من كف مديان وسأكون معك. فقال له جدعون اجعل لى علامة أنك معى. فقال له ملاك الرب خذ لحما وفطيرا وضعهما على تلك الصخرة. ففعل كذلك. فمد ملاك الرب طرف العكاز الذى بيده ومسّ اللحم والفطير فصعدت نار من الصخرة وأكلت اللحم والفطير وذهب ملاك الرب. فبنى جدعون هناك مذبحا للرب ودعاه «يهوه شلوم» ومعناه «الرب سلام» لأن ملاك الرب قال له «السلام لك». ولايزال المذبح موجودا فى عفرة إلى اليوم. وخروج نار من الصخرة تأكل القربان الذى يوضع عليها علامة يؤيد بها الله أحد رسله أو أنبيائه ليطمئن قلبه إلى أن ما يؤمر به هو حقا من عند الله كما يحكى لنا القرآن الكريم: **«الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألاّ نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار...»** (من الآية ١٨٣ – آل عمران)

وأمره الرب أن يهدم مذبح البعل الذى كان أبوه قد بناه وأن يبنى مكانه مذبحا للرب على رأس الحصن ويقطع السارية (رمز العبادة الوثنية). ففعل كما أمر الرب ولكنه لم يجرؤ أن

يهدم مذبح البعل نهاراً خوفا من أهل المدينة فأخذ عشرة من عبيده وهدمه ليلا وبنى مكانه مذبحا للرب وأصعد عليه ثورا وفى الصباح رأى أهل المدينة مذبح البعل وقد هُدِم، ولما عرفوا أن جدعون بن يؤاش هو الذى فعل ذلك طلبوا من والده أن يُسلمهُ إليهم ليقتلوه، فقال لهم: إن كان البعل إلها فليقاتل عن نفسه، فأسقط فى أيديهم وسكتوا (قضاة ٦:٣٢).

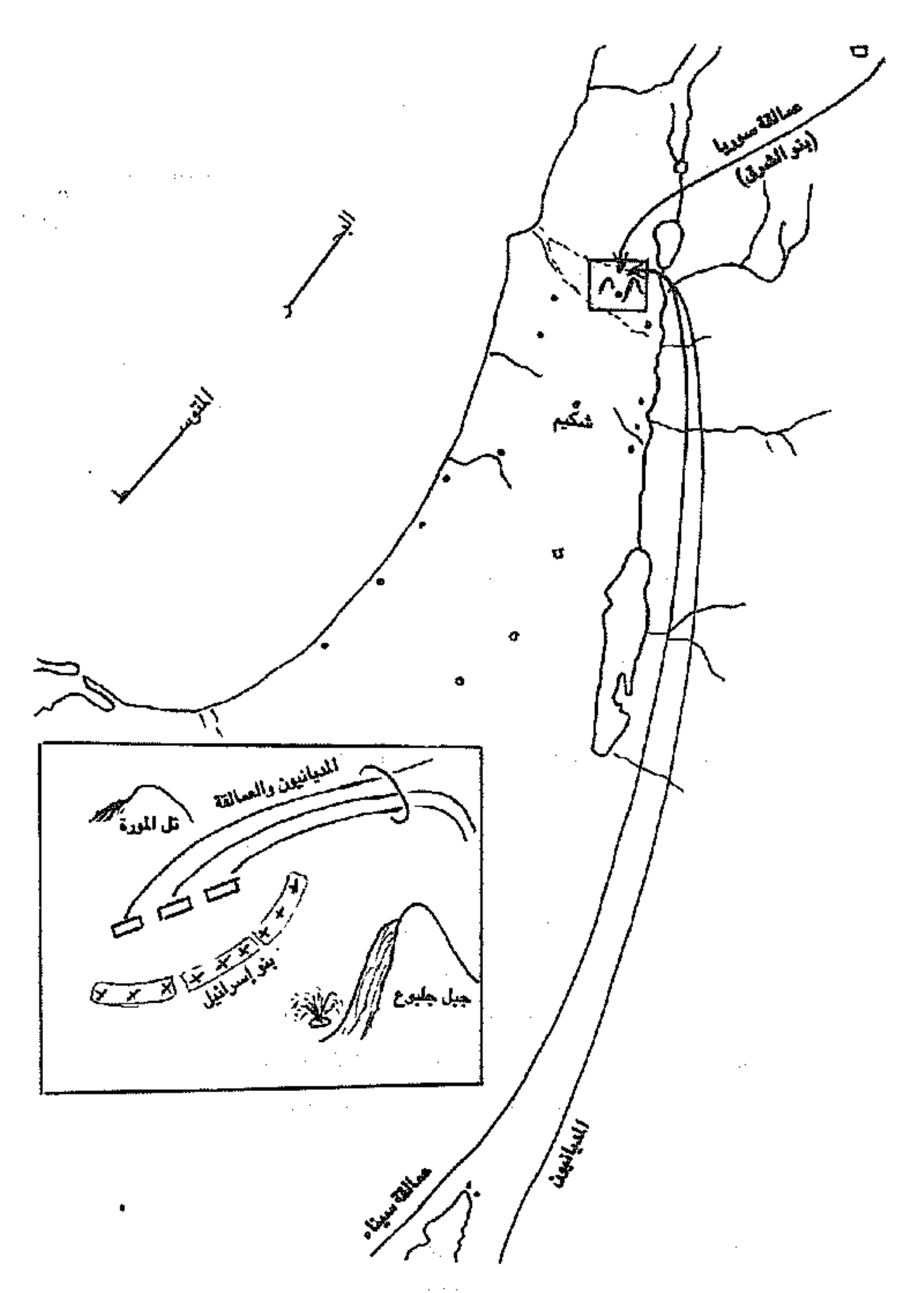
واجتمع المديانيون وعمالقة سيناء وعمالقة سوريا وتقدموا فى جيشين وعبروا نهر الأردن (شكل ١٦ أ) ونزلوا فى سهل يزرعيل للإطباق على جيش جدعون من الناحيتين.

وكان جدعون قد أرسل رسلا إلى أسباط منسى وأشير وزبولون ونفتالى (أسباط الشمال) فمدُّوه بالرجال واجتمع له جند كثير - حوالى ٣٢,٠٠٠، وقبل المعركة بيومين أراد جدعون أن يتأكد أن الله معه فطلب من الله أن يريه آية على تأييده متمثلة فى أنه سيضع جِزَّة صوف على الأرض وطلب من الله أن تصبح جزة الصوف مبللة من الندى والأرض جافة، وفى الصباح بكرٌ ورأى أن جزة الصوف مبلولة بل وعصر منها قصعة ماء، وأراد جدعون أن يتأكد مرة ثانية من تأييد الله له فطلب العكس أى تظل جزة الصوف جافة والبلل على الأرض، ففعل الله له ذلك فى الليلة التالية، فأيقن جدعون أن الله معه يسانده بعونه وتأييده فبكر هو والجند الذين معه ونزلوا عند «عين حرود» (حاليا عين جالود، ١٥كم شمال غرب بيت شان وعلى بعد ميل واحد شرقى جزريل - والعين اتساعها ٥ أمتار ويتدفق منها الماء عند أسفل سفح جبل جلبوع)، وتقدم جيش المديانيين إلى تل المورة فى وادى يزرعيل (١٥كم شمال غرب جبل جلبوع).

وأراد الله أن يثبت لبنى إسرائيل أن النصر هو من عند الله وليس بكثرة الجند فقال الرب لجدعون: الشعب الذى معك كثير وإذا انتصرتم يفتخر بنو إسرائيل ويقولوا أيدينا هى التى خلَّصتنا، وأمره أن ينادى فى الشعب قائلا: من كان خائفا فليرجع وينصرف، فرجع من الشعب ٢٢,٠٠٠ ويقى ١٠,٠٠٠ وقال الرب لجدعون: لايزال الشعب كثيرا، انزل بهم إلى الماء فأُنقِّهم لك هناك، وكل من يَلَغ بلسانه فى الماء كما يلغ الكلب فليرجع وكذلك كل من جثا على ركبتيه للشرب يرجع أما من يغترف بيده ليشرب فهو الذى يذهب معك، وهذا يشبه ما حدَث عنه القرآن الكريم فى قصة طالوت وسيأتى تفصيلها فيما بعد (ص ٩٥):

«فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلا منهم» (٢٤٩ - البقرة).

وكان الذين اغترفوا الماء بيدهم ليشربوا ٣٠٠ فقط استبقاهم وأمر الباقين بالعودة إلى ديارهم، وقسَّم الـ ٣٠٠ رجل إلى فرق وجعل فى أيديهم أبواقا وجرارا فارغة ومصابيح فى وسط الجرار، كانت خطة جدعون تعتمد على أن يكون الهجوم ليلا وهو تكتيك لم يكن مألوفا فى ذلك الوقت إذ المعتاد أن يكون الهجوم مع أول ضوء النهار، وكانت المصابيح موضوعة داخل الجرار حتى لاتنطفىء بفعل تيارات الهواء ولإخفاء ضوئها إلى أن تحين ساعة الصفر.



شكل ١٦ أ - غارات المديانيين والعمالقة على بني إسرائيل أيام جدعون .

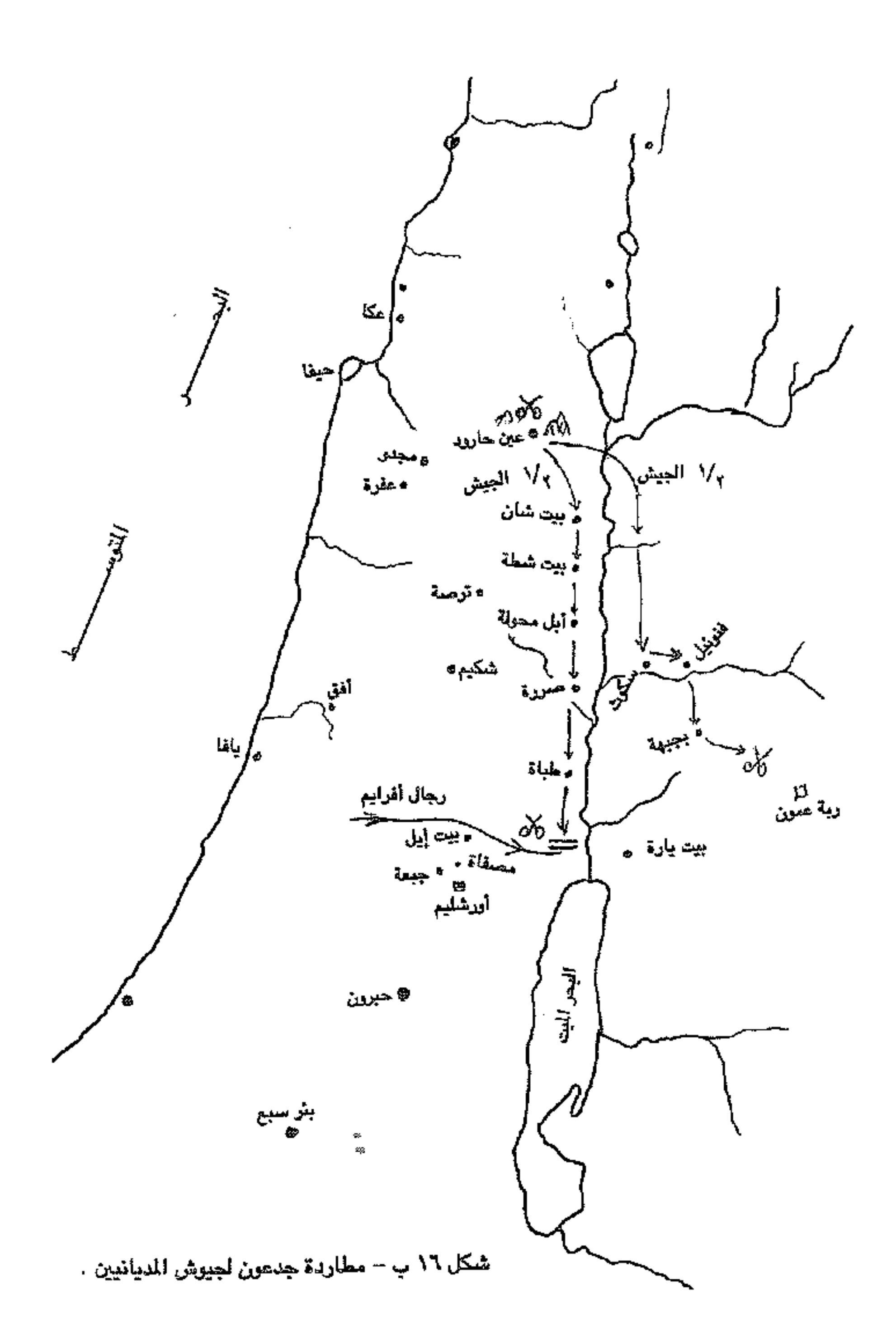
وجاء جدعون ومعه مائه رجل من ناحية، والفرقتين الأخريين من نواحي ثانية فكانت الفرق الثلاث حول جيش المديانيين. ثم ضربت الفرق الثلاث بالأبواق وكسروا الجرار فظهر ضوء المصابيح وصاحوا جميعا في وقت واحد: سيف للرب ولجدعون. وبالطبع كان منظرا مخيفا وصوتا رهيبا. الأبواق والصرخات وضوء المصابيح من كل ناحية ليلا. فخاف المديانيون وهربوا شرقا فلما اعترضهم نهر الأردن عبر نصف الجيش فقط واتجه النصف الآخر جنوبا إلى «بيت شطة» ثم إلى «أبل محولة» وتتبعهم جدعون إلى صردة ثم إلى طباة.(شكل ١٦ ب) فأرسل جدعون رسلا إلى سبط أفرايم ليخرجوا ويقطعوا عليهم الطريق قبل أن يعبروا نهر الأردن من آخر أجزائه عند البحر الميت وخاصة أنهم منهكون من طول المطاردة. وفعلا خرج رجال أفرايم واعترضوهم وقتلوهم جميعا وحملوا رؤوس أمرائهم وقادة الجيش إلى جدعون. وكان رجال أفرايم في شدة الغضب من جدعون لأنه لم يستعن بهم من أول الأمر ظنا منهم أنه قصد أن لا يكون لهم شرف المساهمة في حرب المديانيين وخاصموه بشدة ولكن جدعون هدأ خاطرهم بلطف وأوضح لهم أن مافعلوه من قتل أمراء المدانيين أكثر شرفا وأدعى للفخر من كل ما عمله هو ورجاله فزالت حدة غضبهم وعادوا إلى أرضهم راضين.

أما الجزء الآخر من جيش المديانيين الذى عبر نهر الأردن من الشمال فكان عددهم ١٥,٠٠٠ يرأسهم ملك المديانيين. فعبر جدعون ومعه رجاله الـ ٣٠٠ لمطاردتهم. وكان السير قد أعيا جدعون ورجاله فطلب من أهل «سكوث» زادا له ولجنوده فرفضوا فتوعدهم بأنه بعد أن ينتهي من المديانيين سيعود وينتقم منهم. وسار جدعون ورجاله حتى بلدة فنوئيل ورفض أهلها أيضا إمداده بالزاد فتوعدهم بالانتقام منهم عند عودته. واستمر في مطاردة جيش المديانيين حتى لحقوهم وقتلوا منهم عددا كبيرا من ضمنهم الملك وقائد جيشه وفر الباقون. ثم عاد جدعون إلى سكوث وقتل ٧٧ من رؤسائها. ثم سار إلى فنوئيل وكان لهم حصن يلجأون إليه للحماية من الأعداء فأضرم النار به فمات من به من سكان المدينة انتقاما منهم لعدم تقديم الزاد له ولرجاله.

بعد انتهاء الحرب مع المديانيين طلب بنو إسرائيل من جدعون أن يصبح ملكا عليهم ولكنه رفض وظل قاضيا إلى أن مات ودفن في قبر والده في بلدة عفرة.

٥ – يفتاح الجلعادى Jephthah

تقول التوراة (قضاة ١٠:٦) إن بنى إسرائيل عادوا يعملون الشر فى عينى الرب وعبدوا البلعيم والعشتاروث وآلهة أرام ومؤاب وعمون وهى الدول المجاورة من ناحية الشرق فغضب الله عليهم وسلط عليهم بني عمون فكانوا يعبرون نهر الأردن ويغيرون على أراضى بنيامين وأفرايم ويهوذا ينهبون البيوت والحقول ويعودون. وهكذا لمدة ١٨ سنة إلى أن أدرك بنو



شكل ١٦ ب – مطاردة جدعون لجيوش المديانيين .

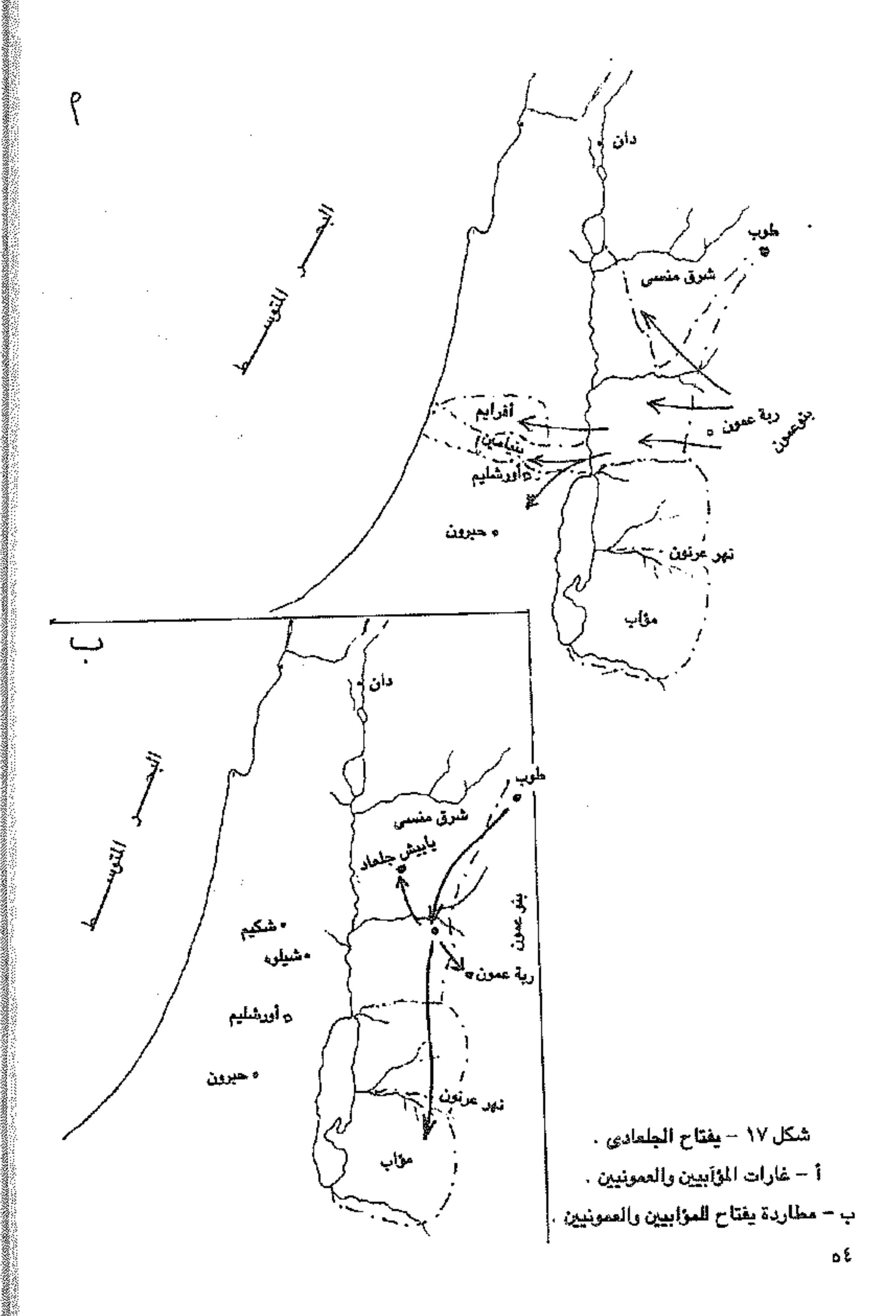
إسرائيل أن هذا من غضب الله عليهم فندموا على أفعالهم وتابوا فقيَّض الله لهم يفتاح الجلعادى ليخلِّصهم من غارات بنى عمون.

وكان إخوة يفتاح قد طردوه من بيتهم لأنه أخ غير شقيق. فخرج وأقام فى بلدة «طوب» فى الصحراء خارج أرض إسرائيل وهى حاليا بلدة الطيبة – وتقع ٧٠كم شمال شرق «ربة عمون» (عمان الحالية). وانضم إليه عدد من الرجال المغضوب عليهم من أهليهم أو عشائرهم أو الفارين من ذنب ارتكبوه ويخشون القصاص وتكونت منهم جماعة يرأسها يفتاح. وكانوا يغيرون على بعض القرى يسلبون المال والحبوب ليتَعيَّشوا.

وقد سبق أن ذكرنا أن المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن من نهر يبوق حتى وادى حسبان عند الطرف الشمالى للبحر الميت كانت تابعة لبنى عمون ولكن الأموريين غلبوهم وأخذوها منهم وأزاحوهم شرقا إلى الأرض الصحراوية. كذلك كانت الأرض الواقعة شرق البحر الميت كله تابعة لمؤاب واستولى الأموريون على النصف الشمالى حتى نهر عرنون. ومرت سنون طويلة ثم جاء موسى عليه السلام واستولى على الأراضى التى كانت فى حوزة الأموريين وخُصِّصت لرأوبين وجاد وشرق منسى ومضت مائة سنة واستقرت الأوضاع على هذه الحدود. ولكن بنى عمون والمؤابيين بدأوا يطالبون بهذه الأرض وادعوا ملكيتهم لها وخاصة لما رأوا من تفرق أسباط بنى إسرائيل. وبدأوا يغيرون على أجزاء من الأرض وينهبون ما فيها. بل أحيانا كانوا يتوغلون غربا ويعبرون الأردن ويغيرون على أرض بنيامين وأفرايم ويهوذا (شكل ١٧ أ) فلجأ بنو إسرائيل إلى يفتاح وجماعته ليخلِّصوهم من هذه الغارات ووعدوه إن هو خلَّصهم من هذا الخطر أن يجعلوه ملكا عليهم. واستجاب يفتاح وأخذ جماعته ومن استطاع تجنيدهم من سبطى جاد وشرق منسى واتخذ قاعدة له فى المصفاة (٢٥كم شمال غرب عمان). ونذر يفتاح نذرا للرب قائلا: **«إن دفعت بنى عمون ليدى فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة»** (قضاة ١١:٣١). وقاد يفتاح جنوده وحارب بنى عمون والمؤابيين وهزمهم (شكل ١٧ ب) وكف عن بنى إسرائيل شرهم. ثم لدى عودة يفتاح إلى بيته فى المصفاة إذ بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص ولم يكن له ابنة غيرها. ولما رآها مزَّق ثيابه لأنه يجب أن يوفى بنذره وفيه هلاكها. وهى أيضا حزنت وبكت واستمهلته شهرين قبل الوفاء بنذره تودع فيها الدنيا. وفى نهاية الشهرين أوفى بنذره وأصعدها محرقة. وبكاها أناس كثيرون. ومن هنا صارت عادة عند بنى إسرائيل أن يذهب بناتها كل سنة إلى المصفاة ليبكين على بنت يفتاح الجلعادى أربعة أيام فى السنة.

وغضب رجال أفرايم لأن يفتاح جنَّد الرجال من جاد ومنسى ولم يدعُهم إلى الاشتراك فى الحرب وبذلك لم يكن لهم نصيب من الغنائم وخاصموه. ولكنه رد بأنه دعاهم إلى الحرب فتقاعسوا. وقامت حرب بين الفريقين وتقول التوراة إنه سقط فيها ٤٢,٠٠٠ من أفرايم قتلى!

وكانت المدة التى قضاها يفتاح لإسرائيل ٦ سنوات.



شكل ١٧ – يفتاح الجلعادي .

أ – غارات المؤابيين والعمونيين .

ب – مطاردة يفتاح للمؤابيين والعمونيين .

٦ – شمشون Samson

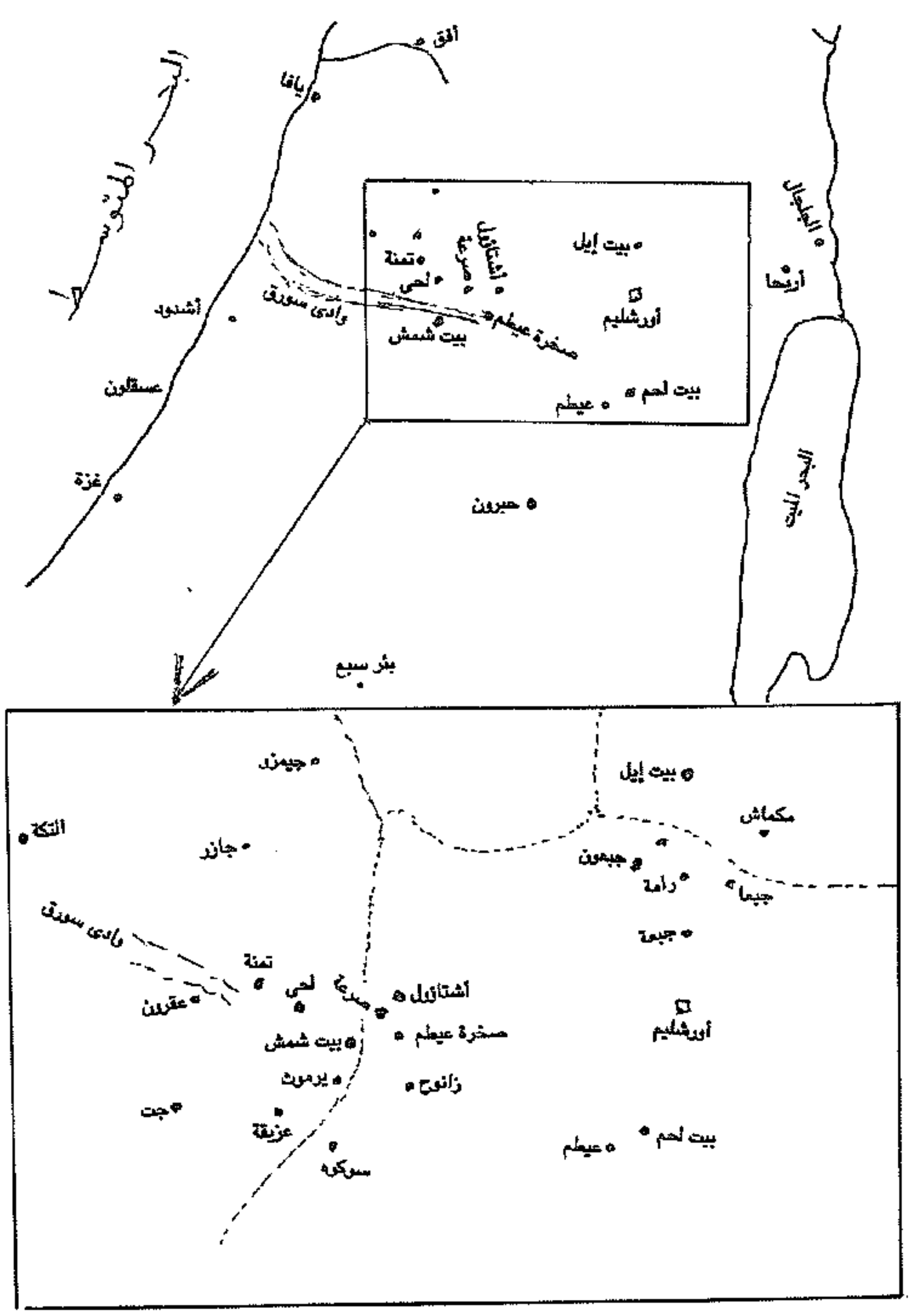
تقول التوراة (قضاه ١:١٣) «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب فغضب الرب عليهم وسلط عليهم الفلسطينيين فتسلُّطوا عليهم مدة ٤٠ سنة.

وكان منوح رجلا تقيا من سبط دان يعيش فى بلدة صرعة Zoreh (٢٢كم غربى أورشليم) وكانت امرأة منوح عاقرا. وظهر لها ملاك الرب وبشَّرها بأنها ستلد صبيا على شرط أن لا تشرب خمرا أو مُسكرا ولا تأكل شيئا محرَّما لأن الصبى نذر لله. وظهر لها ملاك الرب ثانية فى الحقل وكان معها زوجها وقال له نفس الكلام. فقدم منوح ذبيحة شكرٍ لله تعالى. وولدت زوجة منوح الولد وسمَّياه «شمشون» وهو اسم عبرى معناه «الشمس الصغيرة». وكبر الصبى وباركه الرب وكان يروح ويجىء بين «صرعة» و«أشتأول» التى تقع على مسافة ٢,٥كم شمال شرق صرعة (شكل ١٨).

ولما بلغ مبلغ الشباب نزل شمشون إلى السهل الفلسطينى وأعجبته فتاة من بلدة «تمنة» من بنات الفلسطينيين. ومدينة تمنة تقع قرب الحدود الشمالية الغربية لأرض يهوذا حوالى ٣٢كم جنوب شرق يافا. وكانت فى يد الفلسطينيين. وتضايق والدا شمشون لأنهما كانا يريدانه أن يتزوج واحدة من بنات العشيرة. ولم يدروا أن ذلك بتدبير من الله لتكون هذه الزيجة، وما ترتب عليها من خلافات – هى السبب الذى يوجب عليه حرب الفلسطينيين. وبينما هو نازل مع والديه لخطبة فتاته قابله أسد. وكما تقول التوراة (قضاة ١٤) «فحلَّ عليه روح الرب» وأُعطى قوة خارقة فشق الأسد نصفين بيديه. ونزلوا إلى تمنة وخطبوا الفتاة وفى طريق العودة مر على جثة الأسد ليرى ما حل بها. فوجد النحل قد اتخذ منه خلية ملأى بالعسل. فأخذ وأكل منه وأعطى والديه. ثم بعد عدة أشهر أكمل زواجه فى بيت حميه وعمل شمشون وليمة دعا إليها ٣٠ من رؤساء الفلسطينيين وقدم لهم أحجية. إذا عرفوا حلَّها فى نهاية سبعة أيام الوليمة أعطاهم ٣٠ قميصا و٣٠ حلة ثياب وإن لم يعرفوا الحل أعطوه هم ٣٠ قميصا و٣٠ حلة ثياب. وكانت الأحجية عن الأسد الذى قتله والنحل الذى عشش فيه فقال (قضاة ١٤:١٤):

«من الآكل خرج أكل. ومن الجافى خرجت حلاوة»

ولما لم يستطيعوا التوصل إلى الحل وقاربت أيام الوليمة السبعة على الانتهاء هددوا العروس وأهلها بالحرق لتعرف الحل من زوجها. فبكت لشمشون لتعرف الحل مؤكدة له أنها ستحتفظ به لنفسها. ورق قلبه لبكائها وأخبرها بالحل. وهى بدورها أخبرت قومها. وفى اليوم السابع جاءوا وقالوا له: «أى شيىء أحلى من العسل. وما أجفى من الأسد». فقال لهم: «لو لم تحرثوا على عِجلتى لما وجدتم أحجيتى» كناية عن أنهم عرفوا الحل عن طريق زوجته. ولما كان عليه أن يعطيهم ٣٠ قميصا و٣٠ حُلة ثياب. ولما لم يكونوا قد توصلوا إلى الحل بأنفسهم فقد


البحر المتوسط
أفق
يافا
أشدود
عسقلان
غزة
وادي سورق
تمنة
لحي
أشتاؤل
صرعة
صخرة عيطم
بيت شمش
بيت إيل
أورشليم
بيت لحم
عيطم
حبرون
بئر سبع
الجلجال
أريحا
البحر الميت
جيمزو
التكة
جازر
وادي سورق
تمنة
عقرون
لحي
صرعة
أشتاؤل
صخرة عيطم
بيت شمش
يرموث
زانوح
جت
عزيقة
سوكوه
بيت إيل
مكماش
جبعون
رامة
جبعا
جبعة
أورشليم
بيت لحم
عيطم

شكل ١٨ – شمشون .

رأى أن تكون الثياب من بني جلدتهم. فنزل إلى أشقلون (عسقلون) وجاءته قوته الخارقة. فقتل ٣٠ من رجالها وأخذ قمصانهم وثيابهم وأعطاها للأشخاص الذين تراهن معهم.

لم يتفق والد شمشون مع والد العروس على المهر الذى به يتم الزواج ويصبح - حسب تقاليد ذلك الزمان - زواجا من الدرجة الأولى. تنتقل فيه العروس إلى بيت العريس وإلى أهل الزوج. وإذا لم يتفقا على المهر ظل الزواج من الدرجة الثانية وفيه تبقى الزوجة فى بيت أبيها ومع أسرتها ويزورها زوجها من حين لآخر. وكان الأولاد الذين يولدون لهذا النوع الثانى من الزواج يُنسبون إلى أسرة الأم. وكان زواج شمشون زواجا من الدرجة الثانية. وكان أنه ترك العروس قبل مرور أسبوع كامل ونزل أشقلون ليأتى بالقمصان والحُلل. وكان ترك الزوج لزوجته قبل مرور أسبوع كامل من الزفاف يُعتبر إهانة بالغة للزوجة. فقام أبوها بتزويجها من رجل آخر مَحواً للعار. ولما عاد شمشون ومعه الثياب جاء أيضا بجدى معزى ترضية لزوجته وفوجىء بأنها قد أصبحت زوجة لرجل آخر. وعرض أبوها أن يزوجه من أختها الصغرى. ولكن شمشون كان قد بلغ به الغضب أقصاه فقال لهم: إنى برىء الآن من الفلسطينيين. وذهب شمشون وأمسك ٣٠٠ حيوان ابن آوى وربط ذيل كل اثنين مع بعضها ووضع مشعلا بين كل ذنبين. ثم أضرم المشاعل نارا وأطلق حيوانات ابن آوى فى حقول الفلسطينيين. وكانت الحنطة نامية وقد نضجت وجفت عيدانها. فاحترق المحصول كله وامتدت النار إلى الزيتون أيضا. وغضب الفلسطينيون على أهل الزوجة لأنهم كانوا السبب فيما حدث بتزويجهم زوجة شمشون لآخر. فصعدوا وأحرقوا بيت الزوجة وبيت أبيها بالنار. ولكن هذا لم يُهدِّىء من غضب شمشون وأخبر الفلسطينيين أن انتقامه منهم لم ينته بعد. ثم نزل وأقام فى كهف فى عيطم ويرجِّح البعض أن صخرة عيطم هى «عراق اسمعين» الحالية ٤كم شرقى صرعة.

كان الفلسطينيون متسلِّطين على يهوذا فى هذه المنطقة. وكان رجال يهوذا راضين بهذا الوضع ومستكينين له وخشوا من أن مسلك شمشون قد يدفع الفلسطينيين للانتقام منهم. وصعد الفلسطينيون إلى يهوذا وطلبوا منهم أن يسلِّموا إليهم شمشون ليقتصوا منه ليعود الوئام ويبقى السلام بينهما كما كان. فنزل ٣٠٠٠ من رجال يهوذا إلى كهف عيطم حيث يقيم شمشون ولاموه على أفعاله. وطلبوا منه أن يُسلِّم نفسه إليهم ليسلِّموه بدورهم إلى الفلسطينيين. فأخذ عليهم العهد أن لا يقتلوه هم. وطلب منهم أن يوثقوه بحبلين جديدين ونزلوا به إلى الفلسطينيين فى «لَحْى» وهو موضع بين صرعة وتمنه وحاليا يُسمَّى «رامات لحى» فى وادى سورق أو وادى السرار. واجتمع الفلسطينيون حول شمشون للانتقام منه فجاءته القوة الربانية الخارقة فمزَّق الحبل الذى قُيِّد به ووجد عظمة فك حمار فأخذها كسلاح فى يده وقاتل الفلسطينيين حتى قتل منهم - كما تقول التوراة - ١٠٠٠ رجل. ثم عطش جداً وأعيا وخشى السقوط فى يد الفلسطينيين من العطش فدعا الله فأنبع الله له عين ماء فى الصخر فشرب ورجعت روحه وانتعش (قضاة ١٥:١٩). واختاره بنو إسرائيل قاضيا لمدة ٢٠ سنة.

ثم ذهب شمشون إلى غزة ودخل إلى بيت امرأة غانية ليستريح وعلم الغزاويون بمجيئه. وكانوا قد علموا ما فعله بإخوتهم في عسقلون ولحى وغيرها من المدن الفلسطينية فأحاطوا بالمكان لينتقموا منه. وكمنوا له الليل كله ليقتلوه وهو خارج في الصباح عندما يُفتح باب المدينة. وعلم بما يدبِّرون فقام في منتصف الليل وأتى إلى باب المدينة المغلق فخلعه وصعد إلى رأس الجبل ونجا. وإمعانا منه في إغاظتهم حمل الباب على كتفه وأخذه معه.

دليلة ونهاية شمشون :

ثم أحب شمشون «دليلة» وهي امرأة فلسطينية من «وادي سورق» واسمه اليوم وادي الصرار ويبدأ من جنوب مدينة تمنة ويمتد أفقيا إلى البحر المتوسط وبه نبع يصب في البحر ١٥كم جنوبي يافا (شكل ١٨). وصعد أقطاب الفلسطينيين إلى دليلة وطلبوا منها أن تتحايل عليه وتتملَّقه حتى تعرف سر قوته العظيمة ومنُّوها بأن كل واحد من أقطاب الفلسطينيين الخمسة سيعطيها ١١٠٠ شاقل فضة فقبلت. ولما جاء إليها شمشون ليمضي وقتا معها تلطفت معه وسألته عن سر قوته. فأراد شمشون أن يهزأ من الفسطينيين ومنها. فقال لها إذا أوثقوني بسبعة أوطار طرية لم تجف أضعف وأصير كواحد من الناس. فأحضر لها الفلسطينيون ٧ أوطار طرية فأوثقته بها ولتجرب الأمر صاحت عليه: الفلسطينيون عليك ياشمشون. فقام وقطع الوثاق وعلمت أنه لم يصدقها القول.

وعادت دليلة - في ليلة أخرى - تتحايل عليه وأظهرت غضبها إذ لم يصدقها القول في المرة الأولى ولم يخبرها بسر قوته. وأراد أن يهزأ بها مرة ثانية فقال لها: إذا أوثقتيني بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصير كواحد من الناس. فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها ثم صاحت: الفلسطينيون عليك ياشمشون فقطع الحبال عن ذراعيه. فأظهرت غضبها وراحت تتدلَّل وتتمنَّع عليه ليطلعها على سر قوته فأخبرها أن سر قوته في خصلة شعره وأنها إن ضفرت سبع خصلات من شعره مع خيوط النول اليدوي الموجود في بيتها بحيث يصبح شعره كأنه جزء من النسيج فإنه يصبح كواحد من الناس. ففعلت هكذا بشعره وهو نائم ثم صاحت عليه بأن الفلسطينيين قادمون فهب من نومه وخلع النول وحطَّم النسيج وأطاح بعارضتي النول كله. فعلمت أنه - للمرة الثالثة - يهزأ بها.

وراحت تتحايل من جديد وأنكرت عليه أنه يحبها إذ أنه يبخل عليها ولا يطلعها على سر قوته. وأكثرت من إلحاحها عليه بهذا الأمر كل يوم وكل لحظة حتى ضاقت نفسه فأضطر إلى أن يكشف لها عن سر قوته. وأخبرها أن موسى لم يعلُ رأسَه قط لأنه نذر لله من بطن أمه فإن حُلِق شعر رأسه تفارقه قوَّته ويضعف ويصير كواحد من الناس. وعلمت أنه قد صدقها في هذه المرة. فأرسلت ودعت أقطاب الفلسطينيين وطمأنتهم أنه قد أطلعها على سر قوته فأحضروا الفضة التي وعدوها معهم. ولما نام على ركبتها حلقت سبع خصلات من شعره ففارقته قوَّته

ودعت الفلسطينيين وخرج ليقاتلهم ظانا أن قوّته معه. ولكنه وجد أنهم قد أمسكوا به وأوثقوه وقلعوا عينيه ونزلوا به إلى غزة وأوثقوه بسلاسل من نحاس وسجنوه وجعلوه يطحن فى السجن. وبدأ شعر رأسه ينبت من جديد. وكان الفلسطينيون قد اجتمعوا ليحتفلوا بإلههم «داجون» ويقدموا له ذبيحة عظيمة شكرا على أن تمكنوا من شمشون عدوِّهم. وكانت فتنة كبيرة للناس لأنهم ظنوا أن إلههم داجون هو الذى دفع إليهم شمشون. واستمروا فى الهزء بشمشون. وأحضروه من السجن ليلعب أمامهم ألعاب القوة ويسلِّيهم. وطلب من الغلام الذى يقوده أن يوقفه بجوار الأعمدة التى يقوم عليها أساس المعبد. وكان المعبد مملوءا بالرجال والنساء وجميع أقطاب الفلسطينيين مجتمعون به. وعلى السطح نحو من ٣٠٠٠ رجل ينظرون لعب شمشون. فدعا شمشون الرب وقال: ياسيدى الرب اذكرنى وشدِّدنى يا الله هذه المرة فقط فأنتقم نقمة واحدة من الفلسطينيين. وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان المعبد قائما عليهما. وقال «علَّى وعلى أعدائى لتمت نفسى مع الفلسطينيين». وضغط بقوة فسقط البناء على من فيه من الفسلطينيين وأقطابهم وكل الشعب الذى كان فيه. فكان الموتى الذين أماتهم فى موته أكثر من الذين أماتهم فى حياته. ونزل إخوة شمشون وكل بيت أبيه وحملوا جثته وصعدوا ودفنوه بين صرعة وأشتأول فى قبر منوح أبيه (قضاة ١٦:٣١). وكانت حياته مصداقا لنبوءة يعقوب عليه السلام التى ذكرها فى خطبه قبل وفاته (تكوين ٤٩:١٦ – انظر الجزء الثالث من هذه السلسلة. ص ٥٢٩). التى جاء فيها «يكون دان حية على الطريق أفعوانا على السبيل يلسع عقربى الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء». فشمشون كما ذكرنا من سبط دان. وقد شُبِّهت غاراته الفجائية على الفلسطينيين مثل الحية التى تلسع الفرس فيموت من السم ويسقط الراكب. فهو عمل فردى وليس حربا منظمة يكون لها تأثير فى التخلص من نير الفلسطينيين.

جاء فى القرآن الكرقم: **«واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها. ولكنه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون»** (١٧٥ – ١٧٦ – الأعراف).

هاتان الآيتان من سورة الأعراف تخبران عن شخص اختاره الله وآتاه آيات من عنده – لم تُبيِّن ماهيتها – ولكنه لم يرتفع إلى مستوى المسئولية التى ألقيت على عاتقه وراح يجرى وراء أهوائه الشخصية. ولم يذكر القرآن الكريم اسم ذلك الشخص لذلك راح المفسرون نواحى شتى: عن ابن أبى طلحة أنه من بنى إسرائيل. وروى عن ابن مردويه عن ابن عباس أنه بلعم بن باعوراء (تفسير الألوسى جـ ٩ ص ١١١). وقد سبق أن ذكرنا بلعام بن بعور فى قصة موسى عليه السلام (الجزء الرابع ص١٠٩٦) وذكرنا أنه لجأ إلى أهل مدين وقتله بنو إسرائيل

عند حربهم للمديانيين. وما نراه هو أن هذه الآية تنطبق أكثر ما تنطبق على شمشون. ذلك أن الله آتاه آية وهي القوة الخارقة التي كان يمتع بها. وكان المفروض أن يقوم بتخليص بني إسرائيل من تسلُّط الفلسطينيين عليهم ولكنه لم يستغل هذه القوة لصالح شعبه بل - كما يقول چيمس فريزر (الفولكلور في العهد القديم. ترجمة نبيلة إبراهيم جـ ٢ ص١٣) - نراه رجلا استغل موهبته في إحداث الشغب. وكان يقوم بمجرد هجوم مفاجيء على الفلسطينيين ويقتل منهم العدد الذي يستطيع ثم يفر. وحتى قتله للفلسطينيين كان دافعه الانتقام الشخصي وليس دفاعا عن بني إسرائيل أو غيرة على دين الله. وتردد على بيوت الدعارة لاهثا وراء أهوائه وشهواته. وفي النهاية أفضي بسرِّ قوته إلى معشوقته التي خانته ودلَّت بني جنسها على نقطه الضعف فيه فتمكَّنوا منه وفقأوا عينيه. فلم يجد في النهاية من خلاص إلا أن يقول «عليَّ وعلى أعدائي» وهدم المعبد على من كان فيه من الفلسطينيين فماتوا ومات معهم. فكانت حياته كلها لهثا. يحمل عليه الفلسطينيون فيهرب منهم لاهثا. وإن تركوه نجده يلهث وراء شهواته. ولم يدرك أن هذه القوة هي آية من الله ولكنه كذَّب بفضل الله عليه. وأُمِرَ رسولنا صلى الله عليه وسلم أن يقص قصته لعل الناس تتفكر فيها وتتعلَّم منها. وفي رأينا كذلك أنه لا يشترط أن تكون الآية قوة بدنية بل قد تكون موهبة أدبية - نثرا أو شعرا - أو تكون قوة حجة أو غير ذلك. وعلى المرء أن يستغلها في الخير وفي إعلاء الحق.

انتقال الدانيين إلى الشمال :

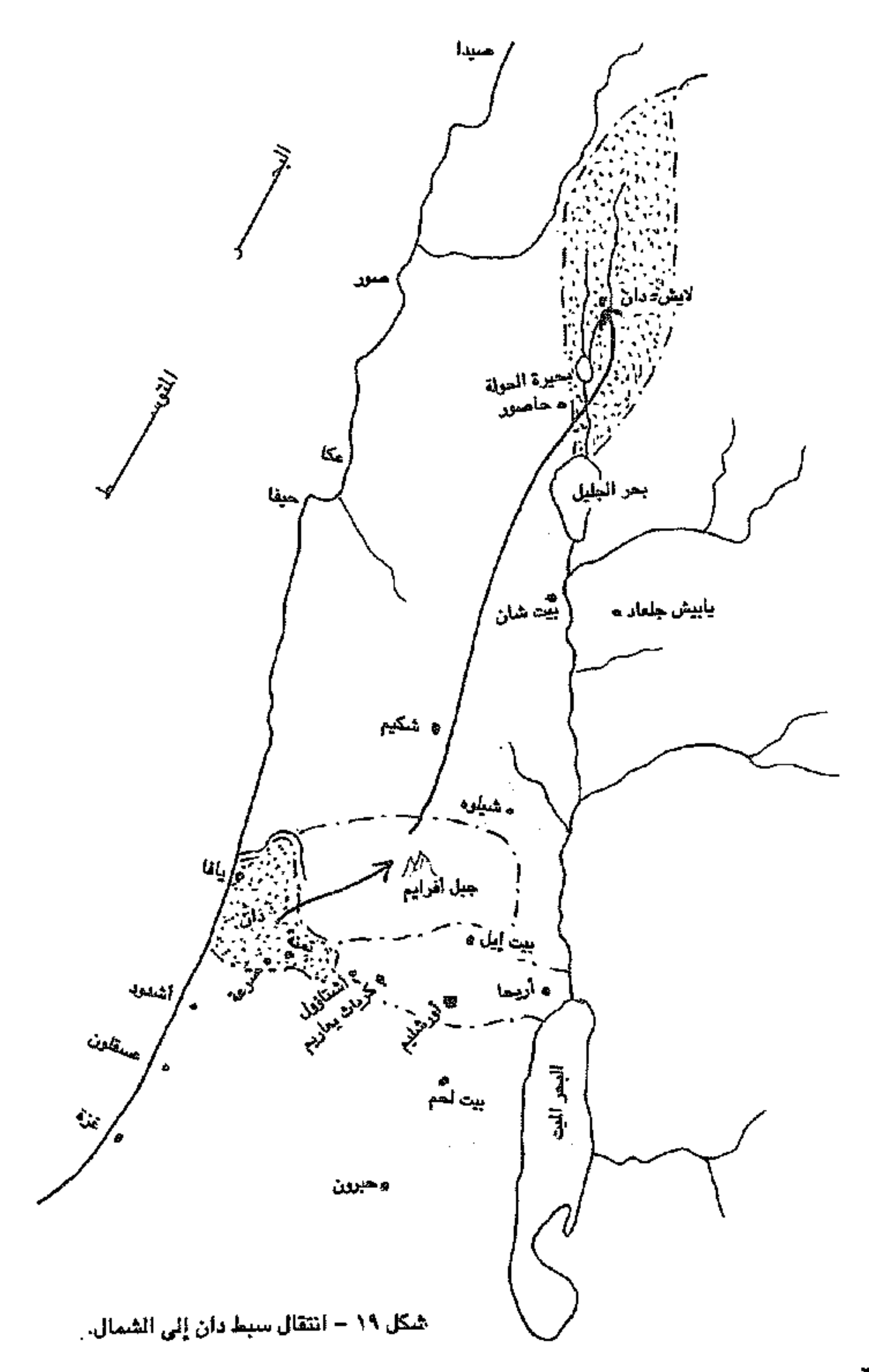
كان دان (وأخوه نفتالي) أبناء بلهة جارية راحيل (الجزء الثالث ص٤١٥) وهي تُعتبر زوجة ثانوية وبالتالي فأولادها أقل درجة من أولاد الزوجات الأصليات لذلك كانت الأرض التي أُعطيت لهما أقل مساحة وأقل خصبًا من أرض باقي الإخوة. وكان دان هو آخر من طلعت عليه القرعة عند توزيع الأرض فأعطى قطعة ضيقة من الأرض تقع شمال أرض يهوذا (شكل ١١ ص ٣٤) نصفها الشرقي جبلي وعر والنصف الغربي وهو السهل الساحلي الخصب كان في أيدي الفلسطينيين ولم يستطيعوا استخلاصه منهم. ولما ضاقت بهم الحال فكروا في استقطاع أرض أخرى لهم في أقصى الشمال . لا مطمع لأحد فيها وبعيدة عن المشاكل. وترينا القصة التالية عن الكاهن ميخا مقدار الفوضى التي كانت سائدة في إسرائيل في ذلك الوقت ومقدار الضلال الذي انتشر بحيث أن «ميخا» يجعل من نفسه كاهنا ويعين ابنه كاهنا كذلك مع أن الكهنة لابد أن يكونوا لاويين. كما ترينا كيف أن الوثنية كانت قد انتشرت بين بني إسرائيل انتشارا واسعًا. والقصة كما جاءت في التوراة (قضاة ١٧) تقول: «وفي تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل. وكان كل واحد يعمل ما يحسن في عينيه». فكان أن ميخا هذا - ولم يكن من اللاويين - جعل جزءا من بيته بيتا للآلهة ووضع فيه تماثيل وعمل أفود (ملابس تستعمل في طلب مشورة الآلهة) وصنع تراقيم (تماثيل صغيرة ليسهل حملها وكان الناس

يعتقدون أنها مجلبة للفأل الحسن). وواضح أن كل ما كان يهدف إليه ميخا هو المال إذ يتقاطر الناس على بيت الآلهة الخاص به ويقدمون القرابين والنذور ويدفعون مقابل لاستطلاع رغبات الآلهة وثمنا للتراقيم التى يحملونها معهم فى أسفارهم. وعيّن ميخا نفسه وابنه كاهنين لذلك البيت. ولكنه كان يشعر بأن الناس لن تقبل على بيت الآلهة الخاص به لأن كاهنه ليس من اللاويين. وتصادف أن كان لاوىٌ من بيت يهوذا - لم يوفق فى أن يصبح واحدا من رجال الكهنوت فى سبط أو جماعة من بنى إسرائيل - مارا بتلك الناحية ولما عرف ميخا ظروفه وجدها فرصة ليضفى على بيت آلهته القداسة اللازمة فعرض على اللاوى أن يقيم عنده ويصبح كاهنا نظير أجر سنوى مقداره ١٠ شاقل فضة وحلة ثياب بالإضافة إلى الإقامة والمأكل والمشرب فقبل اللاوى. وهذا أيضا يرينا الهوة التى تردَّى فيها بعض اللاويين إذ يتغاضى عن هذا الضلال للحصول على معايشه.

وكما سبق أن ذكرنا أن سبط دان - ضاقت بهم أرضهم - فأرسلوا خمسة رجال ليتجسسوا الأرض فى الشمال ليبحثوا عن أرض تصلح لهم لينتقلوا إليها. وعند مرورهم بجبل أفرايم قابلوا ميخا الذى استضافهم وقابلوا اللاوى وطلبوا منه أن يسأل الرب هل ينجحون فى مهمتهم ففعل وطمأنهم بأن الله معهم. فساروا إلى أقصى الشمال حتى وصلوا مدينة لايش Laish (التى تقع عند منابع الأردن فى السهل ٢٥كم شمال بحيرة الحولة عند سفح جبل حرمون). والسهل خصب وسكانه يعيشون فى سلام مع جيرانهم فلم يروا ما يستوجب إقامة حصون أو استحكامات أو حتى أسوار لمدنهم. وعاد الرجال الخمسة إلى سبط دان فى الجنوب وأخبروا إخوانهم أن الأرض خصبة وجيدة وبدون دفاعات فجنَّدوا ٦٠٠ رجلا مسلَّحين. ولما مروا بجبل أفرايم عرجوا على بيت ميخا واستمالوا الكاهن اللاوى ليرافقهم ويصير كاهنا لسبطهم ففرح بذلك ورافقهم. ثم ساروا إلى لايش وحاربوا أهلها وقتلوهم وأحرقوا المدينة واستولوا على أرضهم وحقولهم واستقروا فى الأرض وأرسلوا فى طلب باقى عشائرهم (شكل ١٩). وغيّروا اسم «لايش» إلى «دان».

الفساد فى سبط بنيامين :

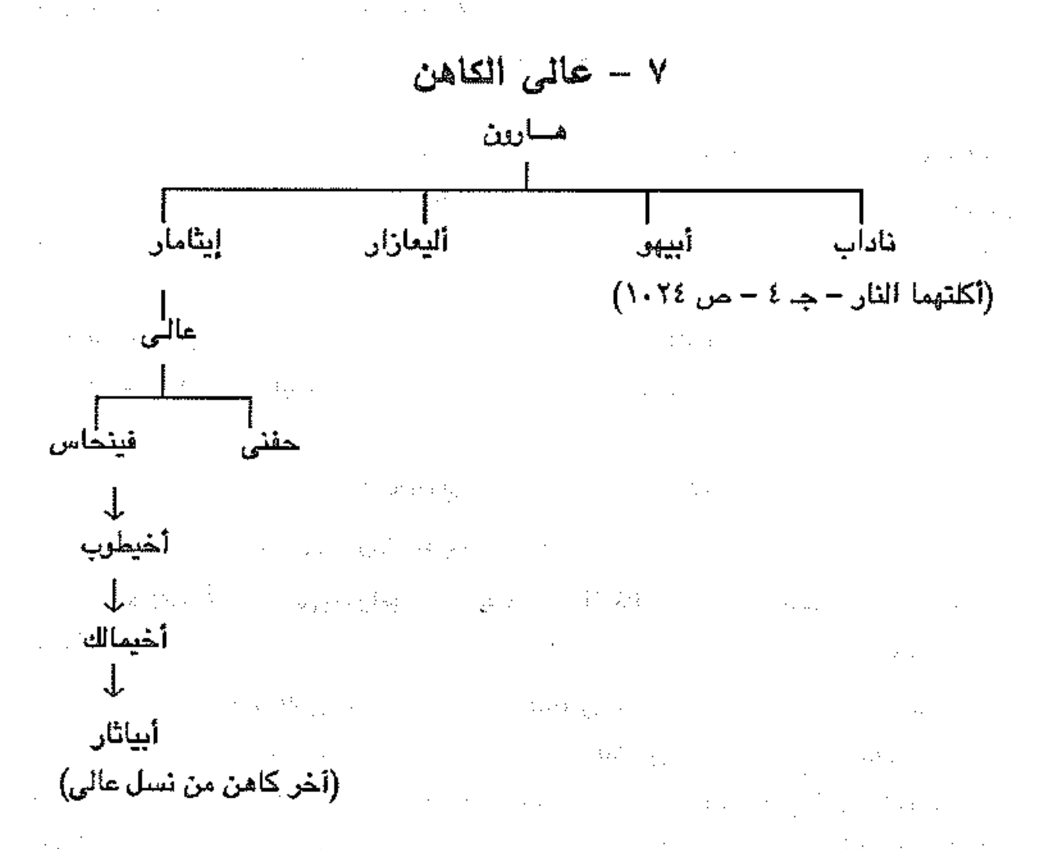
نذكر هذه القصة أيضا للدلالة على الفوضى التى كانت تسود فى إسرائيل. والفساد الذى استشرى حتى إن رجال الدين اللاويين لم يعودوا يحظون بالاحترام الواجب. والقصة تقول (قضاة ١:١٩) إن رجلا لاويا كان عائدا من مهمة دينية هو وجارية له وجاء الليل وهو قرب قرية جبعة بنيامين (شكل ٢١ ص ٦٩) (حاليا تل الغول - ٧كم شمال أورشليم) واستضافهم شيخ وقور فى بيته. وكان فى القرية رجال فاسدون يعملون عمل قوم لوط. فأحاطوا ببيت الشيخ وطلبوا منه إخراج ضيوفه ليفعلوا فيهم الفاحشة ولما رفض اقتحموا البيت واختطفوا الجارية وتناوبوا إغتصابها حتى لفظت أنفاسها. فأخذ الرجل سكينا وقطع جسدها إلى ١٢



شكل ١٩ – انتقال سبط دان إلى الشمال.

قطعة وأرسل قطعة إلى كل سبط من أسباط بنى إسرائيل ليشهدهم على مدى الفساد الذى وصل إليه البنياميين. وغضب بنو إسرائيل لما فعله سبط بنيامين وجمعوا جيشا قوامه ٤٠,٠٠٠ رجل. وجند البنياميون جيشا من ٢٦,٧٠٠ رجل وانتصر بنو إسرائيل وقتلوا جميع الرجال والنساء من سط بنيامين عدا ٦٠٠ رجل. ولما رأى بنو إسرائيل أن السبط سينقرض إذ رفض الأسباط الآخرون أن يصاهروهم أغاروا على بلدة «يابيش جلعاد» فى شرق الأردن وقتلوا معظم رجالها لأنهم كانوا يؤيدون البنيامينيين وأسروا ٤٠٠ فتاة عذراء. وأغاروا على «شيلوه» واختطفوا ٢٠٠ فتاة عذراء وأعطوهن زوجات لـ ٦٠٠ رجل الباقين أحياء من سبط بنيامين فعاد السبط إلى التكاثر ولم ينقرض. ويابيش جلعاد مدينة فى شرق الأردن ١٠كم شرقى النهر و٢٠كم جنوب بيت شان (شكل ١٩) ويظن أنها تل أبو خرز الحالية إلى الجهة الشمالية من «وادى اليابس» أو «وادى يبيش» (قاموس الكتاب المقدس ص ١٠٤٣).

٧ – عالى الكاهن



عالى الكاهن من نسل هارون عليه السلام. وكان هو الكاهن الأعظم فى «شيلوه».العاصمة الدينية لإسرائيل فى ذلك الوقت. وكانت شيلوه فى جبال أفرايم وعلى قمة منطقة جبلية مما

أعطاها حماية طبيعية ومن الصعب الوصول إليها ومن هنا كان اختيارها لوضع المقدسات بها: خيمة الاجتماع والمسكن وتابوت الشهادة.

وكان لعالى الكاهن ولدان حفنى وفينحاس. وكانا يقومان بوظيفة الكهنوت فى شيخوخة والدهما ولكنهما - كما تصفهما التوراة (صموئيل ٢:١٢) «كانا فجارًا أرذالا برغم وظيفتهما المقدسة». كان على العابد من الشعب أن يُقرِّب الذبيحة للرب فيقوم الكاهن بإيقاد الشحم على المذبح أولا باعتبار أنه للرب ثم يكون الصدر لهارون أو نسله والساق للكاهن حسب أحكام الشريعة (لاويين ٧:١١). أما حفنى وفينحاس فكانا يطلبان نصيبيهما أولا قبل رفع نصيب الرب على المذبح كما كانا يستوليان على ما يخص العابد من الذبيحة. ليس هذا فقط بل كانا يضاجعان النساء المجتمعات فى باب خيمة الاجتماع. وسمع عالى الكاهن بكل الشرور التى يعملها أبناؤه فنصحهم بالإقلاع عنها ولكنه لم يكن حازما فى نهيهم ولا شديدا فى زجرهم. بل قال لهم: «لماذا تعملون مثل هذه الأمور لأنى أسمع بأموركم الخبيثة من جميع هذا الشعب. لا يا بَنِىَّ لأنه ليس حسنا الخبر الذى أسمع. تجعلون شعب الرب يتعدُّون. إذا أخطأ إنسان إلى إنسان يدينه الله. فإذا أخطأ إنسان إلى الرب فمن يصلِّى من أجله؟» ونلمس هنا مدى ضعفه فى مواجهتهم ونهيهم عما يرتكبونه من شرور - مما استوجب عقابا من الله. فأرسل الله إليه أحد الأولياء يخبره بما حكم به الله عليه: أنَّ ابنيه يموتان كلاهما فى يوم واحد وأن يُنزع الكهنوت من نسله إلى الأبد. ثم أعلنت هذه النبوءة مرة ثانية بواسطة صموئيل النبى. وقد تحقق هذا فعلا إذ قُتِل حفنى وفينحاس فى المعركة ضد الفلسطينيين والتى انهزم فيها بنو إسرائيل واستولى فيها الفلسطينيون على تابوت عهد الرب (انظر ص ٦٦) ولما تولى سليمان عليه السلام الملك طرد أبياثار من الكهنوت ولم يتولَّ أحد من نسل عالى الكهنوت بعد ذلك.

٨ - صموئيل النبى - آخر القضاة

هو النبى المشار إليه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

«ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله......»

(٢٤٦-البقرة)

وقد ظهر صموئيل النبى فى عصر عالى الكاهن آخر قضاة بنى إسرائيل والذى قضى لإسرائيل ٤٠ عاما. وكان لصموئيل القيادة الفعلية للشئون الدينية فى النصف الثانى من قضاء عالى الكاهن وكذلك كانت له توجيهاته السياسية فقد كان يدعو إلى الحرب لتخليص بنى إسرائيل من اعتداءات الفلسطينيين. ثم طلب منه الشعب أن يعين عليهم ملكا. فاختار لهم طالوت (شاول) ملكا حسب أوامر الرب. ثم لما طغى شاول وتجبَّر مسح صموئيل داود ملكا. ثم أوتى داود النبوة فكان أول من جمع بين النبوَّة والمُلك.

«اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكا ...» (٢٠-المائدة).

مولد صموئيل :

صموئيل اسم عبرى معناه «اسم الله أو اسمه إيل أى الله» وأبوه ألقانة لاوى ومن عشيرة قهات، وكان أفرايميا لأن عشيرته قد أعطيت بالقرعة أن تسكن أرض أفرايم. وقد عاش ألقانة والده فى بلدة الرامة وكان له زوجتان: فننة التى كان لها أولاد – وحنة، الزوجة المُفضلة ولكنها لم ترزق أولادا. وكانت ضرتها تغظيها لعدم إنجابها. وكان ألقانة يذهب كل عام إلى شيلوه (المركز الدينى لإسرائيل والتى كان يُحفظ بها خيمة الاجتماع والمسكن وتابوت الشهادة) ليقدم ذبيحة لله وكانت حنة زوجته تذهب معه وتدعو الله ليهب لها الولد ونذرت لئن أعطاها الرب ولدا «فإنى أعطيه للرب كل أيام حياته ولا يعلو رأسه موسى». وسمع عالى الكاهن تضرعها لله ولمس مافيه من صدق وإخلاص فقال لها: اذهبى بسلام وإله إسرائيل يعطيك سؤلك الذى سألتِ من لدنه. وكان أن حملت حنّة وولدت ولدا دعت اسمه «صموئيل» قائلة لأنى من الرب سألته. الرب سامع» أى «شموئيل». وبعد أن فطمته صعدوا به إلى شيلوه ومعهم ٣ ثيران أحدها محرقة لتكريس صموئيل واثنان للذبيحة السنوية.

وصلّت حنة وترنّمت بهذا النشيد (١ صموئيل ١:٢ مع اختصاره):

– فرح قلبى بالرب. ارتفع قرنى بالرب. اتسع فمى على أعدائى .

– ليس قدوس مثل الرب لأنه ليس غيرك وليس صخرة مثل إلهنا .

– لا تكثروا الكلام العالى المستعلى ولتبرح وقاحة من أفواهكم .

– لأن الرب إله عليم وبه توزن الأعمال .

– إن العاقر ولدت وكثيرة البنين ذبلت .

– الرب يُميت ويُحيى. يُهبط إلى الهاوية ويُصعد .

– الرب يُفقِر ويُغنى. يضع ويرفع. ويُقيم المسكين من التراب .

ولما صار صموئيل صبيا تركه والده فى شيلوه مع الكاهن عالى ليخدم الرب. وكانت والدته حنة تصنع له كل سنة جُبّة صغيرة تعطيها له عند صعودها إلى شيلوه لتقديم الذبيحة السنوية.

بداية الوحى لصموئيل :

وحينما كان صموئيل يناهز ١٢ عاما، وفى إحدى الليالى قبيل الفجر وبينما هو نائم فى الهيكل الذى به التابوت سمع صوتا يناديه فظن أنه عالى الكاهن ينادى عليه فذهب إليه ولكنه أخبره أنه لم ينادِ عليه. وتكرر هذا الشيىء مرتين أخريين. وأدرك عالى الكاهن أن هذا الصوت

وحى من الله لإخباره بشيء ما. وفى المرة الرابعة أُوحِيَ لصموئيل ما الله فاعله من القضاء على بيت عالى الكاهن من أجل الشر الذى يعمله بنوه ولأنه لم يكن جاداً فى ردعهم وكان الواجب عليه عزلهم من الكهنوت وأن ذنبه هذا لا يُكفَّر عنه بذبيحة أو بتقدمة. وفى الصباح قام صموئيل وفتح أبواب بيت الرب كالمعتاد وخاف أن يخبر عالى الكاهن بالرؤيا ولكن الكاهن عالى استحلفه أن يخبره بما أُوحِيَ إليه. فأخبره صموئيل بجميع الكلام ولم يخف منه شيئا. فقال عالى: هو الرب، ما يَحْسُنُ فى عينيه يعمل.

من هذا الوقت بدأت نبوءة صموئيل، وكبر صموئيل وكان الرب معه. وكان يتبع شريعة الرب ولا يحيد عنها. وعرف جميع الشعب من دان فى أقصى الشمال إلى بئر سبع فى أقصى الجنوب أن صموئيل قد اعتُمِدَ نبيا من قِبَل الرب.

بنو إسرائيل يحاربون الفلسطينيين (شكل ٢٠) :

كان عمر صموئيل حوالى ٢٥ عاما حينما كان شمشون يشن غاراته على الفلسطينيين. وكان الفلسطينيون بعد قتال شمشون لهم فى وادى سورق (ص ٥٧) قد جمعوا قواتهم فى «**أفق**» عند منبع نهر عكرون استعدادا لغزو المنطقة الجبلية التابعة لأفرايم. ولمجابهة هذا التهديد فإن بنى إسرائيل أقاموا معسكرا وحامية فى «**حجر المعونة** Ebenezer » وهى الآن عزبة سارتا ٥كم شرقى أفق. وانهزم بنو إسرائيل وقُتِل منهم ٤٠٠٠ رجل. واجتمع شيوخ إسرائيل وتشاوروا فى أمر الهزيمة واستقر رأيهم على أن يُحْضِروا تابوت عهد الرب ليكون فى وسطهم وقت القتال ليجلب لهم النصر. ويرى المفسِّرون (تفسير الكتاب المقدس جـ ٢ ص ٩٧) أن بنى إسرائيل لم يفطنوا إلى أن هزيمتهم كانت بسبب ابتعادهم عن الله وأن مجرد إحضار التابوت لا يعنى أن الرب سيكون معهم. وجاء ابنا عالى الكاهن حفنى وفينحاس مع التابوت. وعند دخول التابوت هتف جميع بنى إسرائيل هتافا عظيما حتى ارتجَّت الأرض. وأعطى وجود التابوت بنى إسرائيل حماسا. وسمع الفلسطينيون صوت هتافهم وعلموا أن تابوت الرب جاء. فخاف الفلسطينيون ولكنهم مالبثوا أن تشجَّعوا ودارت المعركة وانهزم بنو إسرائيل وسقط منهم – كما تقول التوراة – ٣٠,٠٠٠ قتيلا ومات ابنا عالى الكاهن – حفنى وفينحاس – وأخَذَ الفلسطينيون تابوت عهد الرب. وأسرع رجل إلى شيلوه وأخبر عالى الكاهن بموت ابنيه وأخْذِ الفلسطينيين للتابوت . وكان عالى ابن ٩٨ سنة فلما سمع بما حدث سقط عن الكرسى ومات لساعته بعد أن قضى لإسرائيل ٤٠ سنة.

التابوت فى يد الفلسطينيين :

وتابع الفلسطينيون الحرب وتقدموا نحو شيلوه فدمَّروها تماما. وقتلوا الكهنة ولكن صموئيل أفلح فى إنقاذ أوانى الهيكل المقدسة وانسحب الفلسطينيون آخذين معهم التابوت إلى أشدود. وأشدود كما سبق أن ذكرنا (ص ١١) إحدى مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية وكان بها

هيكل به تمثال كبير للإله «داجون». ووضع الفلسطينيون التابوت في هيكل داجون أمام تمثال داجون مباشرة. وفي الصباح وجدوا تمثال داجون ساقطا على وجهه إلى الأرض أمام التابوت. فأخذوا داجون وأقاموه مكانه وفي صباح اليوم التالي وجدوا التمثال مرة ثانية وقد سقط على وجهه أمام التابوت ويداه مقطوعتان على عتبة الهيكل. ومن هنا نشأت العادة الوثنية والتي كانت منتشرة عند الشعوب التي كانت تجاور إسرائيل في ذلك الوقت من أن كهنة داجون أو أي من الداخلين إلى بيت داجون لا يدوسون على عتبة الهيكل لأنها قد تقدّست بوجود يدي تمثال داجون المقطوعتين عليها.

وتقول التوراة (١ صموئيل ٦:٥): «وثقلت يد الرب على الأشدوديين وضربهم بالبواسير في أشدود وتخومها. ولما رأى أهل أشدود الأمر كذلك قالوا لا يمكث تابوت إله إسرائيل عندنا لأن يده قد قست علينا وعلى داجون إلهنا. فأرسلوا وجمعوا جميع أقطاب الفلسطينيين إليهم وقالوا ماذا نصنع بتابوت إله إسرائيل. فقالوا لينقل التابوت إلى «جت» فنقلوا التابوت إلى «جت». بعض الأطباء يرون أن ما أصاب الفلسطينيين هو طاعون من النوع الذي يصيب الغدد الليمفاوية Bubonic plague وخاصة غدد الفخذ والحوض فيسبب انسداد الأوردة وينتج عن ذلك دوالي في الرجلين وبواسير في الشرج. ويرى جاميسون وفاوست (تفسير الكتاب المقدس، ص٣٤٢) أن الكلمة الأنسب هي دمامل Boils أو أورام Tumours ناتجة أيضا عن الطاعون الدرني.

بعد أن وصل التابوت إلى جت أصاب أهلها الطاعون كما حدث في أشدود فأرسلوا التابوت إلى «عكرون أو عقرون» Ekron . ولم يرضَ به العقرونيون خوفا من أن يصيبهم ما أصاب أهل المدينتين السابقتين. وأخيرا استقر رأى الفلسطينيين على أن يُعيدوا التابوت إلى إسرائيل بعد أن ظل في حوزتهم ٧ أشهر.

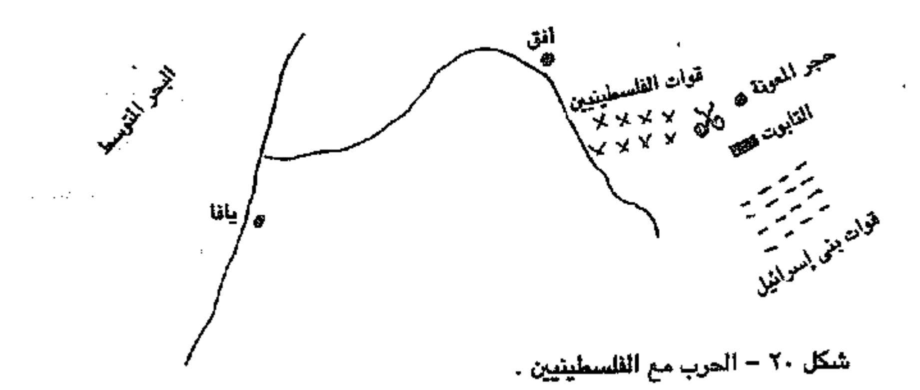
مما لاشك فيه أن الفلسطينيين بعد استلائهم على التابوت فتحوه ولعلهم كانوا يتوقعون – كوثنيين – أن يجدوا بداخله تمثالا من الذهب للإله الذي يعبده الإسرائيليون. ولكنهم وجدوا بداخله «عصا» هي عصا موسى عليه السلام. وعصا هارون التي أفرخت (الجزء الرابع ص ١٠٥٥) ولوحين من الحجارة مكتوب عليهما كتابة لم يفهموا معناها. والتوراة التي كتبها موسى بيده قبل وفاته. وجرةً صغيرة بها ٣ أرطال من المن. ولعلهم عجبوا أن يحتفظ بنو إسرائيل بهذه الأشياء «العادية» ويقدسوها هذا التقديس الشديد. ولكنهم أيقنوا أن إله إسرائيل إله قوى قادر بدليل الأوبئة التي أصابتهم.

الفلسطينيون يعيدون التابوت :

قلنا إن الفلسطينيين قرروا إعادة التابوت لبني إسرائيل. كما رأوا ضرورة تقديم قربان إثم كفارة عن الذنب الذي اقترفوه بأخذهم التابوت . وحسب الاعتقاد السائد في ذلك الوقت أن

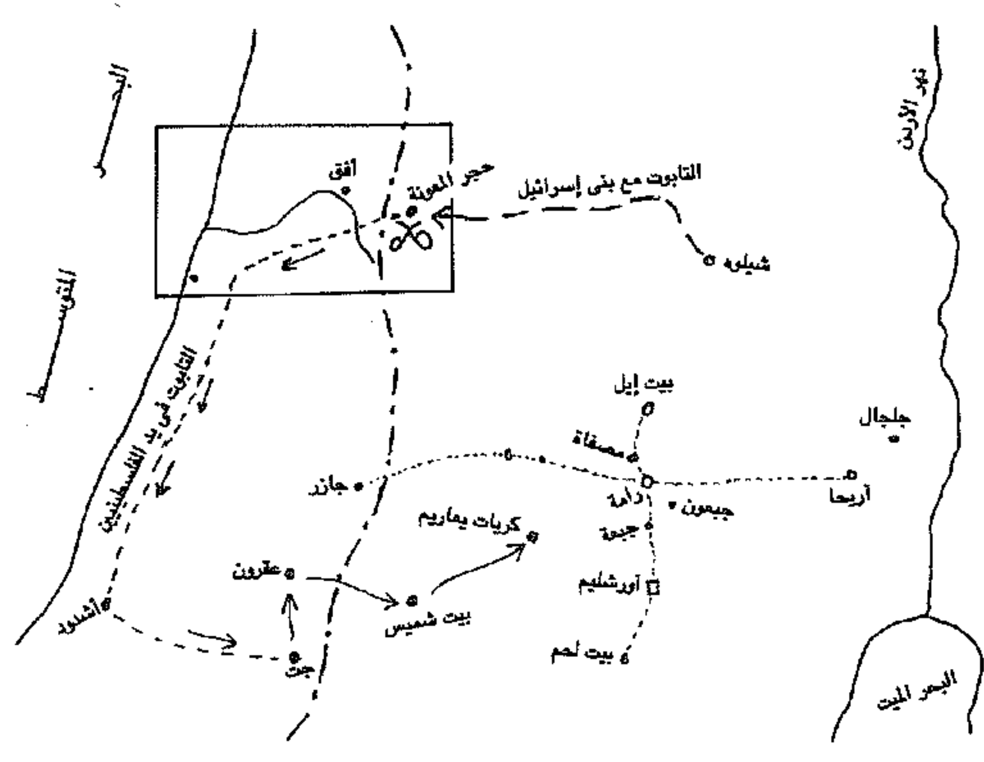
يصنعوا تقدمة المثل بالمثل. فمن المعروف أن الطاعون مرض تنقله الفئران للإنسان. فإذا صنعوا تماثيل من ذهب للفئران وأرسلوها خارج البلدة فإن الفئران ستترك البلدة ويرتفع عنهم الطاعون. لذلك فإنهم صنعوا خمسة تماثيل ذهب للأورام وخمسة تماثيل ذهب للفئران – حسب عدد مدن الفلسطينيين الرئيسية الخمس – وصنعوا عربه جديدة بعجلات لم تستعمل لأى غرض من الأغراض فى الحقل أو نقل أو خلافه. تقودها بقرتان مرضعتان لم يَعْلُهما نير ولم تعملا من قبل فى حراثة الأرض أو أى عمل من أعمال الحقل. وربطوا البقرتين إلى العربة ثم وضعوا التابوت على العربة ومعه قربان الإثم فى صندوق بجانبه. وقال كهنة الفلسطينيين: تضعون العربية على أول الطريق ولا توجهوها أنتم. فإن صعدت فى الطريق إلى بيت شمس دلَّ ذلك على أن هذه إرادة الرب لإرجاع التابوت. وإلا فإن الطاعون الذى أصابهم كان مصادفة ولا علاقة له باستيلائهم على التابوت. وفعل الرجال كما أمرهم الكهنة ووجدوا أن البقرتين سارتا فى طريق بيت شمس ولم تحيدا عنه يمينا أو شمالاً. وبيت شمس أو بيت شميس هى تل الرميلة الحالية وتقع ٢٥كم غربى أورشليم. وكان أهل القرية يعملون فى الحقل فرفعوا أعينهم ورأوا التابوت وفرحوا به وسارت العربية حتى أوقفها حجر كبير فى أحد الحقول. كان وقت الحصاد وهذا ما جعل الفرحة بالنسبة لهم فرحتين. فرحة بالحصاد وفرحة بعودة التابوت. وكان أنه لما توقفت العربية فكُّوا البقرتين واستعملوا خشب العربة محرقة وذبحوا البقرتين قربانا للرب ولو أن هذا مخالف لشروط القربان إذ تنص الشريعة (لاويين ١:٣ ، ١٩:٢٢) على أن يكون القربان ذكرا صحيحا من البقر أو الغنم أو المعز. ولكن كانت هاتان البقرتان استثناءً واعتُبرتا قربانا صحيحا حيث نذرهما مُقَدِّموهما كقربان للرب. وأخذوا أيضا القرابين الذهبية وهى نماذج الفئران الخمسة ونماذج الأورام الخمسة قربانا عن مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية.

ويبدو أن أهل بيت شمس فتحوا التابوت ليروا ما بداخله وكان هذا ممنوعا على الشعب لذلك فقد حكم الله على عدد منهم بالموت. تقول التوراة (١ صموئيل ١٩:٦): «وضرب أهل بيت شمس لأنهم نظروا إلى تابوت الرب وضرب من الشعب ٥٠,٠٧٠ رجلا» وقد أثار هذا الرقم مشكلة. إذ جاء فى تفسير الكتاب المقدس (جـ ٢ ص ٩٤) أن بيت شميس (بيت شمس) لم يكن فيها هذا العدد من السكان. وحتى أورشليم نفسها لم يكن بها أكثر من ٧٠,٠٠٠ نسمة. ويرى بعض المفسرين أن النسخ العبرية القديمة تجعل الرقم ٧٠ فقط بينما يرى أوزوالد أليس (المجلة الإنجيليه الربع سنوية أكتوبر ١٩٤٣) أنه ضُربَ ٥٠ رجلا من كل ألف وبذلك يكون السبعون من ١٤٠٠ نسمة وهو عدد معقول لسكان بيت شميس فى ذلك الوقت. المهم أن أهل بيت شميس قرروا عدم بقاء التابوت فى مدينتهم وأرسلوا رسلا إلى قرية «يعاريم» أو «كريات بعل» (حاليا تل كريات يعاريم ١٥كم غرب أورشليم) ليأخذوا التابوت. فجاء أهل يعاريم



شكل ٢٠ – الحرب مع الفلسطينيين .

أ – الحرب الأولى : قتل من بنى إسرائيل ٤٠٠٠ .
ب – الحرب الثانية : قتل من بنى إسرائيل ٣٠,٠٠٠ واستولى الفلسطينيون على التابوت .



شكل ٢١ – مسيرة التابوت .

وأصعدوا تابوت الرب وأدخلوه إلى بيت أبيناداب الذى قبل أن يستضيف التابوت. وتقدَّس ابنه أليعازار لأجل حراسة التابوت. أما لماذا لم يُرجع التابوت إلى شيلوه حيث كان قبل أن يقع فى أيدى الفلسطينيين فذلك لأن شيلوه نفسها كانت قد دُمِّرت وكان الفلسطينيون يحتلونها. لذلك بقى التابوت فى قرية يعاريم وظل هناك لمدة ٢٠ سنة.

صموئيل يدعو للإصلاح الديني :

كانت عبادة الأصنام قد انتشرت فى بنى إسرائيل متأثرين بما عليه الفلسطينيون والدول المجاورة وكان الظلم متفشيا وكان الفلسطينيون متسلطين عليهم ويأخذون منهم الجزية وبدأ صموئيل يدعو للإصلاح الدينى بالرجوع إلى عبادة الرب إله السموات والأرض وكان يتجوَّل مناديا بالتوبة. وكلَّم كل بنى إسرائيل قائلا (١ صموئيل ١٣:٧) **«إن كنتم بكل قلوبكم راجعين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروث من وسطكم وأعدُّوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من يد الفلسطينيين».**

كان صموئيل قد اتخذ من «الرامة» مقرا له (شكل ٢٢). وهى بلدة حصينة واستراتيجية إذ تقع على الطريق المستعرض من أريحا إلى جازر والطريق الرأسى من شيلوه الى بيت لحم. ولكن مقتضيات وظيفته كنبى كانت تستلزم أن يتجول من الرامة إلى بيت إيل والمصفاة وغيرها من المدن.

الحرب مع الفلسطينيين :

جمع صموئيل بنى إسرائيل فى المصفاة وصلَّى من أجلهم وصاموا ذلك اليوم واعترفوا بخطيئتهم فى حق الرب وعزموا على التوبة. وسمع الفلسطينيون بتجمع بنى إسرائيل فى المصفاة فظنوه تجمُّعًا استعدادا للحرب فصعدوا لمواجهتهم. وسمع بنو إسرائيل بصعود الفلسطينيين إليهم فخافوا وقال بنو إسرائيل لصموئيل أن لا يكف عن الصلاة والضراعة إلى الله حتى يخلِّصهم من أيدى الفلسطينيين. فأخذ صموئيل حَمَلا رضيعا وأصعده محرقة بتمامه إلى الرب وأخذ يدعو الله أن يكف بأس الفلسطينيين عنهم. ووقعت المعركة وتدخَّل الرب لنصرة بنى إسرائيل. فأرعدت السماء بصوت عظيم. وساد الذعر فى وسط الفلسطينيين وانتهز بنو إسرائيل فرصة اضطراب عدوهم فكَرُّوا عليهم وهزموهم وطاردوهم وأخذ صموئيل حجرا ونصبه وسماه حجر المعونة Ebenezer وقال إلى هنا أعاننا الرب وذَلَّ الفلسطينيون. واستعاد بنو إسرائيل مدن «عكرون» و «جت».

كان بنو إسرائيل قد تعبوا من كثرة هجوم شعوب الدول المجاورة عليهم: أدوم . مؤاب . ملك حاصور. المديانيون. العمونيون وأخيرا الفلسطينيون. وأرجعوا ذلك إلى تفرُّقهم. فكل سبط استأثر بقطعة من الأرض فصاروا أمما صغيرة متفرِّقة. وكل سبط يكتفى بالحفاظ على كيانه

شكل ٢٢ – الرامة مقر صموئيل النبى والحرب مع الفلسطينيين .

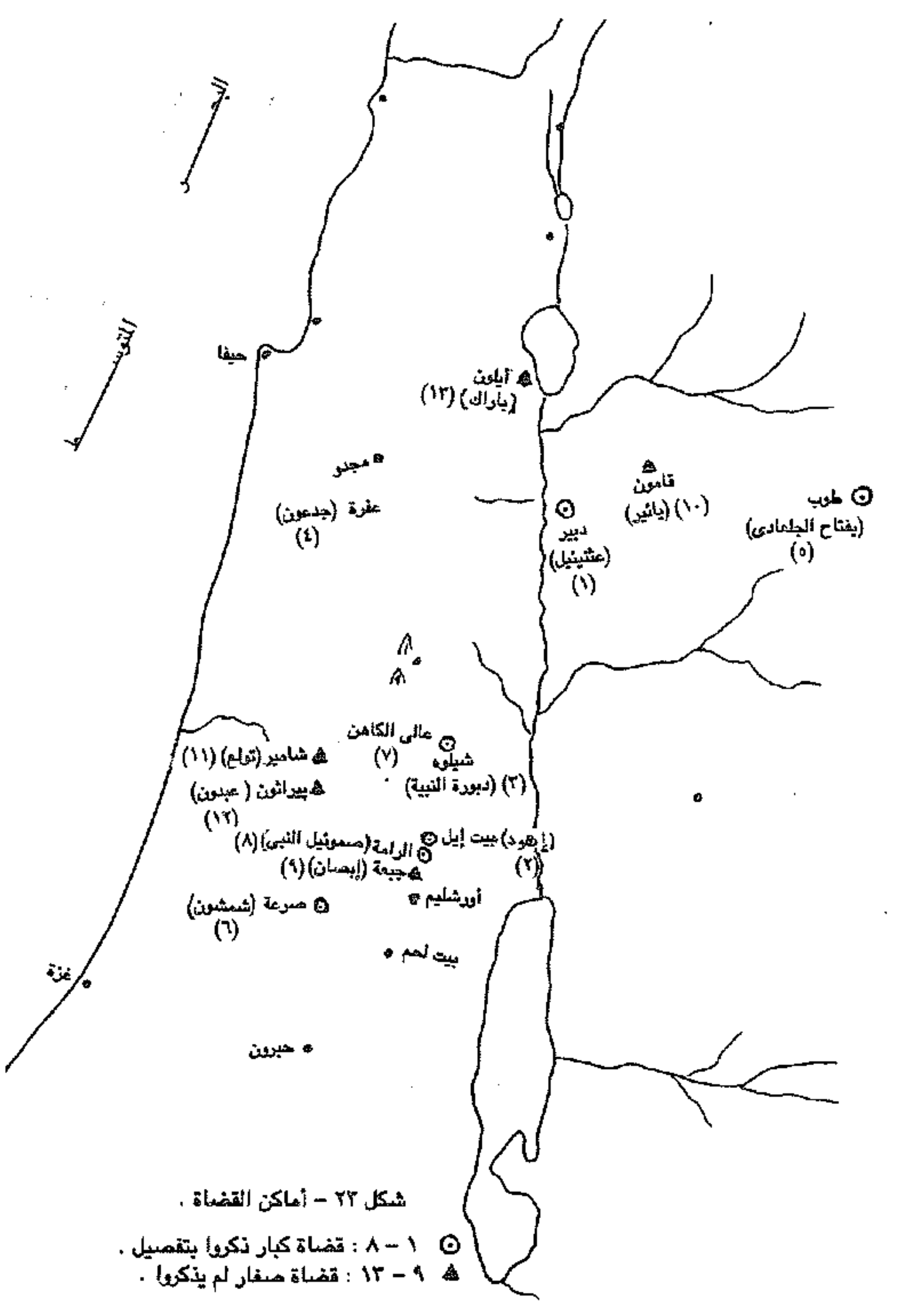
ويصدّ أعداءه دون أن يبالى بحالة الأسباط الأخرى. فنادراً ماكان سبط يهب للدفاع عن سبط مجاور تعرَّض لغزو. وفكَّروا فى أنهم لو اتحدوا جميعا فى دولة واحدة يحكمها حاكم واحد – مثل الدول المحيطة بهم – يُسَيِّر أمورها فيزيد هذا من قوَّتهم. فتخشاهم الدول المجاورة إذ يكون فى مقدور الملك أن يُجَنِّد جيشا من جميع الأسباط. فيكون جيشا كبيرا يحمى أى بقعة تتعرض لغزو خارجى.

واستقر رأى بنو إسرائيل على أن يطلبوا من نبيهم صموئيل أن يجعل لهم ملكا فاستجاب لهم. وهكذا توحَّدت دويلات الأسباط فى كيان واحد ووُلدت «مملكة اسرائيل».

ويمكننا أن نقسم عصر الملكية الى قسمين :

١ – **الملكية الأولى** : فيها يتولى المَلِك الشئون الإدارية والحربية. وكان دائما يوجد نبى، له الزعامة الدينية وله «وصاية على العرش» إذ أن الملك إنما يجلس على العرش ويبايعه الشعب بأمر من هذا النبى.

٢ – **الملكية المتأخرة** : فى هذه الفترة حكم داود وسليمان عليهما السلام واجتمع فى شخص كل منهما الملك والنبوَّة كما سيأتى فيما بعد.



شكل ٢٢ – أماكن القضاة .

⊙ ١ – ٨ : قضاة كبار ذكروا بتفصيل .
▲ ٩ – ١٣ : قضاة صغار لم يذكروا .

الفصل الرابع

الملكية الأولى

يشير القرآن الكريم إلى الانتقال من عصر «الأسباط الأمم» الواردة في قوله تعالى: «وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما» (١٦٠ - الاعراف) إلى نظام الملكية فى قوله تعالى :

«ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله. قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا. قالوا وما لنا ألاّ نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا» . (٢٤٦ - البقرة) .

وتقول التوراة: (١ صموئيل ٨:٣) «فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل فى الرامة وقالوا له هوذا أنت قد شخت وابناك لم يسيروا فى طريقك بل ساروا وراء المكسب وأخذا الرشوة وعوّجا القضاء. فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب. فساء الأمر فى عينى صموئيل إذ قالوا اعطنا ملكا يقضى لنا. وصلّى صموئيل إلى الرب فقال الرب لصموئيل: اسمع لقول الشعب فى كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى رفضوا».

وهذه الجملة الأخيرة تبين لنا السبب الذى من أجله «ساء الأمر فى عينى صموئيل» إذ أن بنى إسرائيل أرجعوا ضعفهم أمام الشعوب الأجنبية إلى نظام القضاة. مع أن القضاة أشخاص مختارون من قِبَل الرب أو يختارهم أنبياء بناء على إيحاء من الرب. ولم يفطن بنو إسرائيل إلى أن ضعفهم ناتج عن بعدهم عن الله وإهمالهم تطبيق شريعة الرب. وضلالهم بعبادة آلهة أخرى غير الله. وكانت إرادة الله أن يأمر صوئيل بأن يستجيب لمطلبهم ويعين لهم ملكا حتى يتأكد لهم أن نظام الحكم فى حد ذاته ليس هو السبيل لتحقيق النصر. بل إن المَلِكَ نفسه قد يطغى ويُفسِد ويكون وبالا على شعبه. فيريد الشعب التخلص منه بعد أن كانوا هم البادئين بطَلَبه. ولم تكن الشريعة الموسوية تعارض قيام الملكية إذ جاء فى وصية موسى الأخيرة (تثنية ١٤:١٧ – انظر أيضا الجزء الرابع ص ١١٠٩): «متى أتيت إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها. فإن قلتَ اجعل علىَّ ملكا كجميع الأمم الذين حولى فإنك تجعل عليك ملكا الذى يختاره الرب إلهك من وسط إخوتك تجعل عليك ملكا». فهذه الفقرة تسمح بقيام الملكية على أنها خيار مسموح وليس شرطا واجب الاتباع. إلا أن موسى عليه السلام أراد أن يحصِّن بنى إسرائيل ضد طغيان الملوك فاستمر قائلا: «ولكن لا يكثِّر له الخيل ولا يكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه. وفضة وذهبا لا يكثر له كثيرا. وعندما يجلس على كرسى

مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة فى كتاب من عند الكهنة اللاويين فتكون معه ويقرأ فيها كل أيام حياته لكى يتعلم أن يتّقى الرب إلهه ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض ليعمل بها. لئلا يرتفع قلبه على إخوته ولئلا يحيد عن الوصية يمينا أو شمالا. لكى يطيل الأيام على مملكته هو وبنوه فى وسط إسرائيل». كذلك فإن صموئيل النبى راح يوضح لهم مساوئ الحكم الملكى (١ صموئيل ٨: ١٠) «فكلّم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب وقال هذا يكون قضاء الملك الذى يُملَّك عليكم. يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه. ويجعل لنفسه أتباعا ويعملون عدة حربه ويأخذ بناتكم عطّارات وطباخات وخبّازات. ويأخذ من حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويُعشّر زروعكم (أى يأخذ العُشر) وكرومكم ويعطى لعبيده..». واستمر صموئيل يبين لهم أن طغيان الملوك قد يجلب عليهم مساوئ «فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم. فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك. فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا. فسأل صموئيل الرب عما يفعل فقال الرب لصموئيل. اسمع لصوتهم وملّك عليهم ملكا».

يقول القرآن الكريم :

«وقال لهم نبيهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا. قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه. ولم يؤت سعة من المال. قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة. إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» . (٢٤٧ – ٢٤٨ – البقرة).

أما التوراة فقد أسهبت فى وصف كيفية إبلاغ صموئيل لبنى إسرائيل بمن وقع عليه اختيار الرب ليكون ملكا. والحقيقة أن اختيار شخص بالذات ليكون ملكا على بنى إسرائيل لم يكن أمرا سهلا. ذلك لأن اختيار شخص من أحد الأسباط القوية قد يثير غيرة الأسباط الأخرى القوية. الأمر الذى قد يؤدى إلى حرب أهلية. ولا يخفى ماكان عليه الأسباط من تنافر وتنازع فيما بينهم. وكان سبط بنيامين من أضعف الأسباط. وكانت الأرض التى خصصت له من أصغر الأراضى مساحة لاتزيد عن شريط ضيق لا يزيد عرضه عن ٨كم وطوله ٢٥–٣٠كم محصور بين يهوذا جنوبا وأفرايم شمالا. وسبق أن ذكرنا (ص٦٢) أن الأسباط الأخرى تكاتفوا لتأديبهم وقتلوا منهم ٢٦,١٠٠ رجل ولم يبق من رجالهم إلا ٦٠٠ فقط. ولم يكن اختيار ملك من سبط ضعيف – مثل سبط بنيامين – ليثير حساسية لدى الأسباط الآخرين.

تقول التوراة (١ صموئيل ١:٩) «إن رجلا من سبط بنيامين – الحفيد الخامس لبنيامين – هو قيس وكان له ابن اسمه شاول».

بنيامين ← بكورة ← ضرور ← أبيئيل ← قيس ← شاول .

وكان شاول حسن المنظر طويل القامة وليس هناك من هو أكثر منه مهابة. وضلَّت أُتُن قيس (أُتُن جمع أتان وهي أنثى الحمار) فطلب من ابنه شاول أن يذهب للبحث عنها مع غلام له. فراحا يفتِّشان عنها في جبل أفرايم فلم يجداها. وذهبا للبحث في أرض بنيامين فلم يجداها أيضا هناك. ولما كانا قرب مدينة الرامة قيل لهما إن في المدينة رجل مُكرَّم وهو رائي ونُصحوا بأن يذهبا إليه علَّه يستطيع أن يخبرهما بمكان الأتن الضالة. والرائي هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على الشخص المعروف عنه أنه يستطيع الإخبار عن مشيئة الله فيما يسأل الناس عنه. وقد يكون نبيا أيضا. وكان الرب قد أوحى إلى صموئيل قائلا: غداً في مثل ذلك الوقت أرسل إليك رجلا من أرض بنيامين فامسحه رئيسا لشعب إسرائيل فيخلِّص الشعب من يد الفلسطينيين.

وكان اليوم الذي دخل فيه شاول وغلامه المدينة يوم ذبيحة للشعب والشعب لا يأكل حتى يأتي صموئيل ويبارك الذبيحة. فلما كان اليوم التالي. وفيما كان صموئيل خارجا بعد أن بارك الذبيحة قابله شاول وأخبره الوحي أن هذا الرجل هو المختار من الرب ليكون رئيسا لشعب إسرائيل. فطلب صموئيل من شاول وغلامة أن يصعدا معه ليأكلا. وطلب من شاول ألا يقلق على الأتن الضالة منذ ٣ أيام لأنها قد وجدت وأدخلهما إلى بيته وأعطاهما مكانا في رأس المدعوِّين وهم نحو ثلاثين رجلا من الرؤساء. ووضع أمامه أطيب الطعام وقال له إن كل شيء شهي هو له وكان يكلمه بكل توقير واحترام. فقال شاول لصموئيل: ما أنا إلا بنياميني من أصغر أسباط إسرائيل وعشيرتي من أصغر عشائر بنيامين فلماذا تكلمني بهذا الكلام؟

وفي اليوم التالي أخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأس شاول وقبَّله وقال: إن الرب قد مسحك على إسرائيل رئيسا. واستدعى صموئيل الشعب إلى المصفاة وقال لبني إسرائيل: هكذا يقول الرب إله إسرائيل وأنه اختار سبط بنيامين من أسباط بني إسرائيل ثم نادى على شاول بن قيس فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب لايكاد أحد أن يصل إلى كتفه. فقال صموئيل للشعب: أرأيتم الذي اختاره الرب. إنه ليس كمثله في جميع الشعب. وأنه هو الذي سيخلِّصهم من يد الفلسطينيين. ولكن فريقا من بني إسرائيل اعترضوا على هذا الاختيار ولعلهم كانوا من أحد الأسباط الأقوياء ورأوا أنهم أجدر بالملك منه.

«قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم».

(٢٤٧ – البقرة).

وتقول التوراة (١ صموئيل ١٠:٢٧) «فقالوا كيف يخلصنا هذا. فاحتقروه ولم يقدّموا له هدية ولكنه لم يأبه لهم». ولإسكات ألسنة المعارضين أراد الله أن يعطيهم آية على أن هذا هو المختار من قبل الرب.

«وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة. إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين». (٢٤٨-البقرة).

ويقول الألوسي (تفسيره . جـ ٢ ص ١٦٩) وحَمْلُ الملائكة له إما حقيقة أو مجازا. وروى عن ابن عباس قوله: جاءت الملائكة تحمل التابوت حتى وضعته بين يدى طالوت. وقال السدى: أصبح التابوت فى دار طالوت. وفى رأينا أن التابوت - بعد أن أعاده الفلسطينيون - كان قد استقر به المقام في بلدة «يعاريم». ولعل أهلها خافوا من أن أحدا منهم قد لا يقدّس التابوت التقديس الكافى فتحيق بهم النكبات. ففعلوا كما فعل الفلسطينيون من قبل. فوضعوا التابوت على عربة تجرها أبقار وتركوها تسير كيفما تشاء . فكان أن وجّهتها الملائكة إلى حيث كان شاول بالمصفاة . فرضى الناس بشاول ملكا وكما تقول التوراة: فهتف كل الشعب وقال ليحيى الملك.

وكان شاول حينئذ ابن ٣٢ سنة (تفسير الكتاب المقدس جـ ٢ ص ٩٩).

طالوت أم شاول ؟

زعم بعض المستشرقين المغالين فى إنكارهم للإسلام أنه عليه الصلاة والسلام أخطأ فى الاسم إذ قيلت له شاول فوقعت فى سمعه طالوت ولم يتثبّت. والافتراء فى هذا الزعم واضح إذ شتان بين طالوت وشاول. وأنصف آخرون بعض الإنصاف فقالوا إنه علم من وصف هيئة شاول فى التوراة إفراطه فى الطول فلقّبه بكنية يستفاد منها المبالغة فى الطول فقال «طالوت».

ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ٢ ص ١٣٤) أن اسم «طالوت» هو إعجاز من القرآن الكريم من عدة وجوه: منها أن شاول فى العبرية تعنى سُؤْل فهى اسم المفعول من شأل العبرى أى سأل العربى وتقول سألت الله أى طلبت من الله. وسُؤل من الله أى طلبة من الله. واسم «طُلبه» شائع فى ريف مصر. وتكون إجابة السؤل من الله أى إجابة الطلبة من الله هى مِنّة وفضل. وطال الله على عبده بإجابة سؤله. فكأن بنى إسرائيل لما سألوا نبيهم صموئيل أن يعيّن لهم ملكاً طال الله عليهم وأجاب سؤلهم. وكان الملك هو طالة من الله عليهم أى طالوت من الله. كما أن الاسم الذى ورد فى القرآن الكريم يتضمّن ما كانت عليه هيئة هذا الملك وصفته الجسدية البالغة الطول. فقد كان شاول رجلا طُوالا مفرطا فى الطول لا يجاوز أحد من قومه كتفيه. طال يطول طُولا وطَولاً فهو طالوت. أما لماذا لم يرد الإسم فى القرآن الكريم كما ورد فى التوراة «شاول» فلأن «شَاوَلَ» العربية تعنى «هايج» وتشاول القوم.

رفع كل فريق السلاح في وجه الفريق الآخر. والعقرب تشول بذنبها. وشولت الناقة أو شوّل لبنها نقص وجف. والشول بقية الماء في السقاء وشوّل القوم خفّت منازلهم أو تفرّقت كلمتهم أو ذهب عزّهم (القاموس المحيط جـ ٣ ص ٤٠٤) وهذا يُبعد الذهن عن المعنى الحقيقي لاسم شاول الملك. كذلك فإن اسم «شاول» تكتب أحيانا «شاؤول» وهي في العربية ساؤول أي كثير السؤال وهو عكس المعنى الحقيقي للإسم. من هذا يكون لفظ «طالوت» الذي أطلقه القرآن الكريم هو أنسب تعريب لاسم «شاول» حيث أنه يعني: سؤل من القوم . ومنة وطالة من الله إجابة لمطلبهم وفيه صفته الجسدية المفرطة في الطول.

«إن الله اصطفاه عليكم وزادهُ بسطة في العلم والجسم». (٢٤٧-البقرة).

وقدّمت البسطة في العلم على البسطة في الجسم إيماء إلى أن الفضائل العلمية أعلى وأشرف من الفضائل الجسمية. ولعل ما حباه الله من طول في الجسم كان مطلوبا لأن بعض القبائل التي قاتلها كانوا من العمالقة وكانوا ضخاما ذوي بسطة في الجسم. وكان ملكهم «جالوت» طويلا أيضا فكان المناسب أن يكون ملك إسرائيل موازيا له في الطول.

شاول يحكم من جبعة :

بعد انتخاب شاول ملكا على إسرائيل اتخذ من جبعة قاعدة له وعاصمة لملكه. ولو أن هذا المكان «جبعة بنيامين» كان قد دُمِّر تماما عند حرب بني إسرائيل مع البنياميين (ص ٦٣) إلا أن شاول بنى فيها حصنا وأعيد إعمارها وسُميت «جبعة شاول». وهي حاليا تل الفول» على بعد ٧كم شمال أورشليم شرق الطريق من أورشليم إلى شكيم (نابلس). وقد كشفت الحفريات التي أجريت بالمنطقة عن قلعة ذات حوائط سميكة ترجع إلى عهد شاول كما وجد بها بعض الأسلحة (قاموس الكتاب المقدس ص ٥٠٤).

شاول يحارب العمونيين :

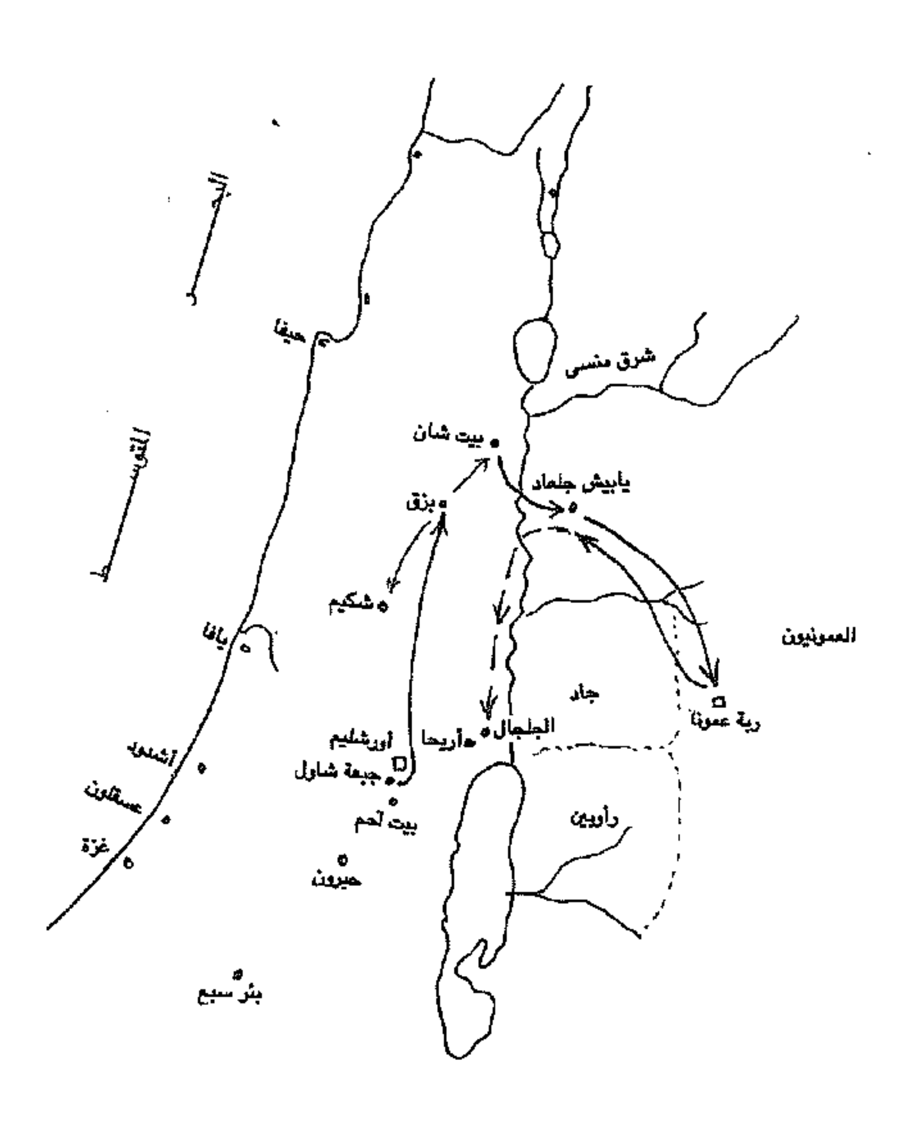
كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٣) كان العمونيون دائما يعلنون أنهم هم الملاّك الأصليون لأرض جلعاد – وهي الأرض شرق الأردن والتي استولى عليها موسى عليه السلام وخصصها لسبطي جاد وشرق منسىً وحاول العمونيون إجلاء هذين السبطين منها ولكنهم لم يفلحوا. ولكن لما بدأ بنو إسرائيل يعملون الشر ويعبدون الأصنام سلّط الله عليهم بني عمون «فحطّموا ورضّضوا بني إسرائيل الذين في أرض جلعاد». وعبروا الأردن وراحوا يغيرون على يهوذا وبنيامين وبيت أفرايم ولكن الله قيض لبني إسرائيل يفتاح الجلعادي فهزم العمونيين. ولكن بعد أن حارب بنو إسرائيل يابيش جلعاد وقتلوا كثيرا من رجالها (كما سبق أن ذكرنا ص٦٣) ظن العمونيون أنها قد أصبحت لقمة سائغة فحاصرها «ناحاش» ملك عمون واستبدّ بأهلها. واشترط – مقابل أن يتركهم أحياء – أن يُقَوِّر العين اليمنى من كل فرد من السكان (ولعل

الهدف هو ألا يتمكنوا من تسديد السهام أو الحرب ضده فى المستقبل) فاستمهلوه سبعة أيام للرد. وفي هذه الأثناء أرسلوا الرسل إلى باقى الأسباط يخبرونهم بمحنتهم وأرسلوا رسولا إلى جبعة شاول يخبرونه بهذا الأمر. ولما سمع شاول ذلك حمى غضبه فأخذ زوجين من البقر وقطَّعه وأرسل جزءا إلى كل سبط من أسباط بنى إسرائيل قائلا: من لا يخرج وراء شاول ووراء صموئيل فهكذا يُفعل ببقره. فأجاب كل أسباط إسرائيل واجتمع له ٣٠٠,٠٠٠ رجل ومن يهوذا ٣٠,٠٠٠ فكان كل جيشه ٣٣٠,٠٠٠ رجل! وسار شاول من جبعة إلى «بزق أو بزقة» Bezek وهى على الطريق الموصل من بيت شان إلى شكيم (شكل ٢٤). وفى الصباح الباكر قسَّم شاول الجيش إلى ٣ فرق وتسللت فرقة إلى وسط المدينة. وفى جنح الليل أحاطت الفرقتان الأخريان بجيش العمونيين . وفى الصباح الباكر ضربوهم وشتتوهم حتى لم يبق منهم اثنان معا» (١ صموئيل ١١:١١). وبعد هذا الانتصار على العمونيين طلب الرجال من شاول أن يدُلهم على من يعارضون تملُّكه عليهم حتى يقاتلوهم. فقال شاول: لا يُقتل أحد فى هذا اليوم لأنه فى هذا اليوم صنع الرب خلاصا فى إسرائيل. «وقال صموئيل للشعب هلموا نذهب إلى الجلجال ونجدِّد هناك المملكة فذهب كل الشعب إلى الجلجال وملَّكوا شاول أمام الرب وذبحوا ذبائح سلامه أمام الرب وفرح هناك شاول وجميع رجال إسرائيل » (١ صموئيل ١٥:١١).

خطبة جامعة لصموئيل النبي : (١ صموئيل ١٢)

وقال صموئيل لكل إسرائيل. هأنذا قد سمعت لصوتكم فى كل ما قلتم لى وملَّكت عليكم ملكا. والآن هوذا الملك يمشى أمامكم. وأما أنا فقد شختُ وشبتُ وهوذا أبنائى معكم. وأنا قد سرت أمامكم منذ صباى إلى هذا اليوم. هأنذا فاشهدوا علَّى قدام الرب وقدام مسيحه. ثور من أخذتُ وحمار من أخذتُ ومن ظلمتُ ومن سحقتُ ومن يد مَن أخذتُ فدية لأغضى عينَىَّ عنه فأرد لكم. فقالوا لم تظلمنا ولاسحقتنا ولا أخذت من أحد شيئا. فقال لهم: شاهدٌ الرب عليكم وشاهدٌ مسيحه اليوم هذا أنكم لم تجدوا بيدى شيئا فقالوا شاهد. وقال صموئيل للشعب: الرب الذى أقام موسى وهارون وأصعد آباءكم من أرض مصر فالآن امثلوا لأحاكمكم أمام الرب بجميع حقوق الرب التى صنعها معكم ومع آبائكم.

وذكَّرهم صموئيل النبى بنعمة الله عليهم حينما أرسل لهم موسى وهارون وخلَّصهم من الاستعباد فى أرض مصر وقادهم موسى فى سيناء واستولى لهم على الأرض شرق الأردن. ثم استكمل يشوع المسيرة وملَّكهم الأرض التى هم عليها الآن. وأنهم لما نسوا الرب وتعاليمه استعبدهم الفلسطينيون والمؤآبيون. فلما صرخوا إلى الرب أرسل لهم قضاة وأنبياء فخلَّصوهم من يد أعدائهم. ثم اختار الرب بنفسه رجلا ليصبح ملكا عليهم حسب ما طلبوا. واستمر قائلا: «إن اتقيتم الرب وعبدتموه وسمعتم صوته ولم تعصوا قول الرب. وكنتم أنتم والملك أيضا الذى



شكل ٢٤ – شاول يستعيد يابيش جلعاد .

– – – – – تجديد المملكة فى الجلجال .

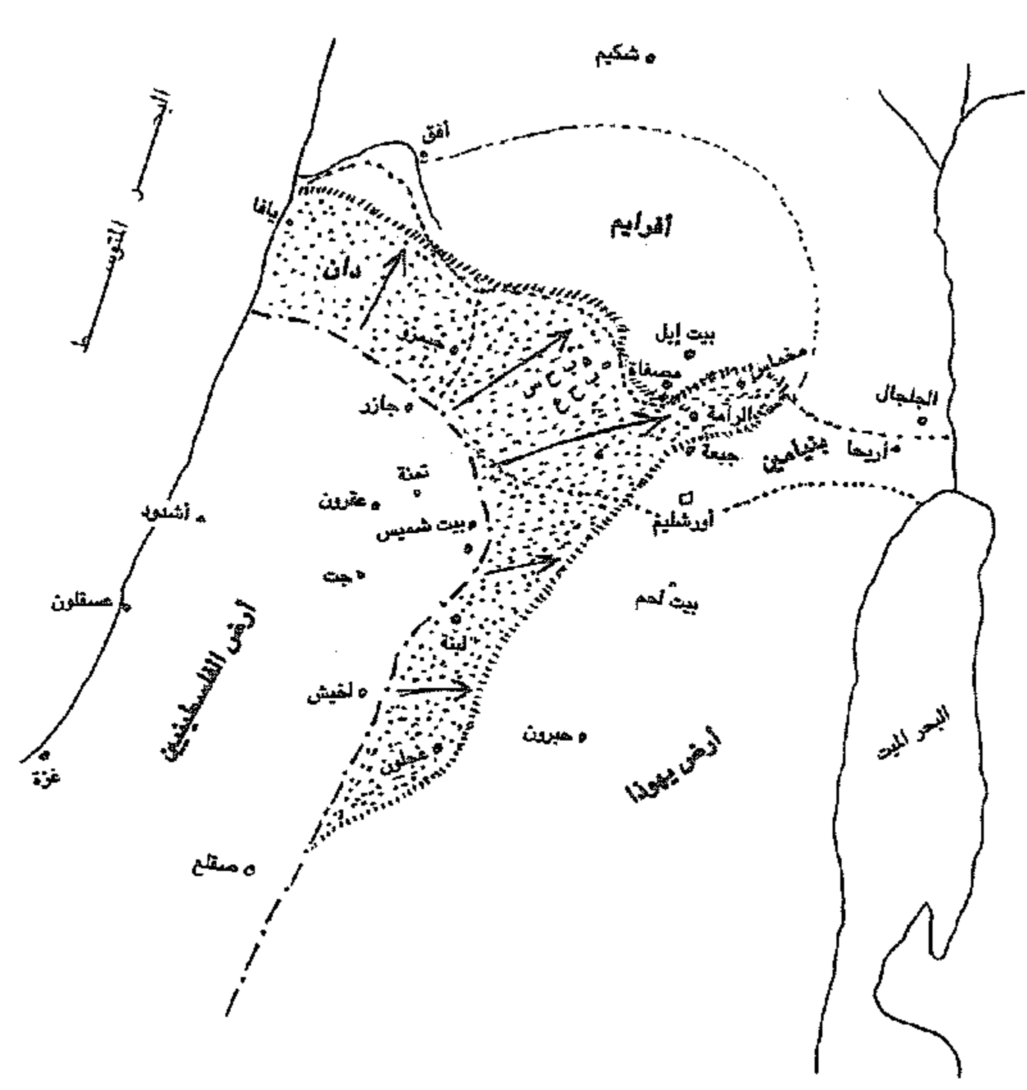
يَملِكُ عليكم وراء الرب إلهكم، ينصركم على أعدائكم. وإن لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم». وليدلل لهم على أن كلامه هذا ليس مجرد تهديد وليعطيهم آية على صدق كلامه ووعيده قال لهم إن الوقت وقتُ حصاد الحنطة (أى شهر مايو) وهو ليس وقت رعود ولكنه سيدعو الرب فتكون رعود وبرق. ودعا فأعطى الرب رعوداً ومطرا وبرقًا وخاف الشعب وتأكد من صدق كلام صموئيل. وطلبوا منه أن يصلى للرب حتى لا يهلكوا. فطمأنهم وطلب منهم أن يتّجهوا للرب بكل قلوبهم ويعبدوه بإخلاص وأن لا ينساقوا وراء أباطيل الشعوب الأخرى وآلهتها ووعدهم بأنه سيستمر فى الصلاة من أجلهم وأنهم إن عبدوا الله بإخلاص نجوا. وإن فعلوا الشر فإنهم يهلكون جميعا هم ومَلِكُهم.

طالوت يقود الحرب ضد الفلسطينيين :

كان شاول قد أمضى سنتين على مُلك إسرائيل. ثم بدأ يعد العدَّة لحرب مع الفلسطينيين الذين كانوا يسيطرون على الجزء الغربى من أرض بنيامين ويحتلون بلدة جيعون المجاورة لجبعة بنيامين ومن ثم يسيطرون على الطرق الموصلة إلى مدنهم الكبيرة فى السهل الساحلى وكانوا ينوون التوغل شرقا فى هضبة بنيامين بغرض فصل إسرائيل عن يهوذا (شكل ٢٥). وفى الحقيقة كان بنو إسرائيل فى موقف حربى ضعيف وخاصة أن الفلسطينيين كانوا يمنعونهم من جميع أنواع الحدادة حتى لا يصنعوا سيوفا أو دروعا للحرب.

ويدأ شاول يجس نبض الفلسطينيين. فاختار ٣٠٠٠ رجلا وقسمهم قسمين: ٢٠٠٠ معه فى محماس وفى جبل أفرايم، و ١٠٠٠ مع يوناثان ابنه البكر. وقد ظهرت بطولة يوناثان وبسالته فى الهجوم على الحامية الفلسطينية فى جبعون والانتصار عليهم. وبدأ الفلسطينيون التجمع للحرب. وضرب شاول بالبوق فى جميع الأسباط كنداء للحرب واجتمع الشعب وراء شاول فى الجلجال. كانت قوة الفلسطينيين ٣٠,٠٠٠ مركبة (!!) و ٦٠٠٠ فارس وشعب كالرمل ونزلوا فى مخماس شرقى بيت أون Beth Aven وبيت أون معناه بيت الأصنام أو بيت الشر وكانت فى أرض بنيامين. ولما خصصت لسبط أفرايم لم يقدروا على الاستيلاء عليها وكان بها كثير من الأصنام (قاموس الكتاب المقدس. ص ٢٢٩). أما قرية مخماس فهى تقع على بعد ٨ كم شمال أورشليم ولايزال هناك آثار عواميد وصهاريج ترجع إلى ذلك العهد.

وأحسَّ بنو إسرائيل أن قوة الفلسطينيين كبيرة وأصيبوا بالإحباط واختبأوا فى الكهوف والآبار وبعضهم عبر الأردن إلى الضفة الشرقية. وكان شاول فى الجلجال ومعه قواته ينتظر وصول صموئيل النبى. وكانت القاعدة أن لا تبدأ الحرب قبل مباركة النبى وتقديم الذبائح للرب حتى يكون النصر حليفهم. ولعلها كانت إرادة الله فى تأخير وصول صموئيل النبى لاختبار مدى تمسك شاول بشريعة الرب وتنفيذ الشعائر الدينية بحذافيرها ولمعرفة مدى اعتماده على الرب. ولما طال الانتظار سبعة أيام ولم يصل صموئيل قال شاول: قدِّموا إلىَّ المحرقة وذبائح



شكل ٢٥ – التوسع الفلسطيني في أرض يهوذا وبنيامين ودان .

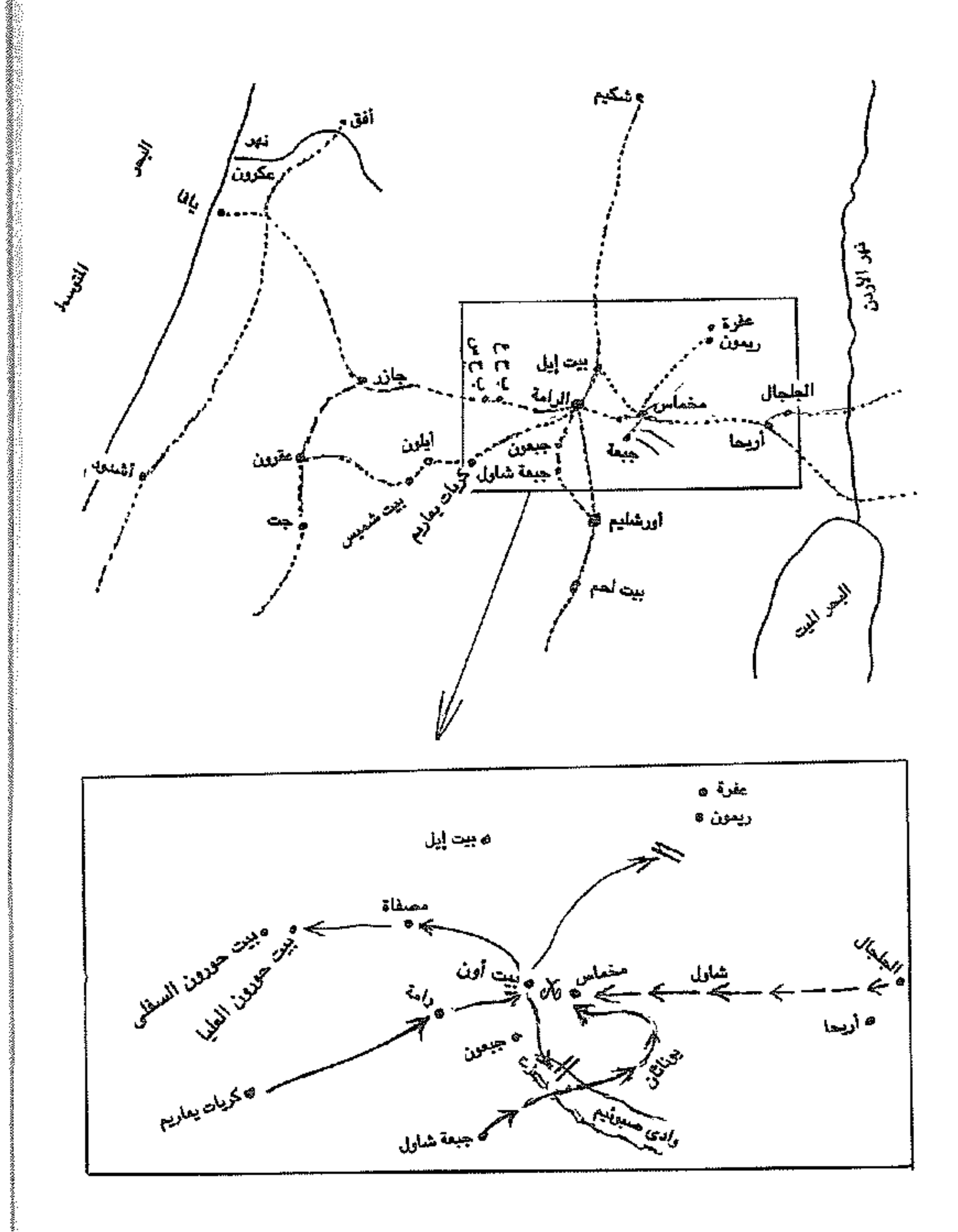
ب ح ع = بيت حورون العليا .
ب ح س = بيت حورون السفلى .

السلامة فأصعد بنفسه المحرقة. وكان لما انتهى من إصعاد المحرقة إذا صموئيل مقبل. فخرج شاول للقائه ليباركه فقال صموئيل ماذا فعلت؟ قال شاول: لأنى رأيت أن الشعب قد تفرّق عنى وأنت لم تأتِ فى أيام الميعاد والفلسطينيون متجمعون فى مخماس. فقلت الآن ينزل الفلسطينيون إلىَّ فى الجلجال ولم أتضرّع إلى وجه الرب فتجلّدت وأصعدت المحرقة. فقال صموئيل لشاول. قد انحمقت. لم تحفظ وصية الرب إلهك التى أمرك بها لأنه الآن كان الرب قد ثبّت مملكتك على إسرائيل إلى الأبد وأما الآن فمملكتك لا تقوم. قد انتخب الرب لنفسه رجلا حسب قلبه وأمره الرب أن يترأس على شعبه لأنك لم تحفظ ما أمرك به الرب. وقام صموئيل وصعد من الجلجال إلى جبعة بنيامين (١ صموئيل ١٣:١٥).

ومن الواضح أن شاول قد أخطأ لأن إصعاد المحرقة هو من اختصاص الكاهن أو نبيٍّ إن وجد. وكان تصرف شاول فيه رغبة فى تعجُّل الحرب اعتمادا على قوة جيشه وأن هذه الأمور هى شكليات لا ينبغى التقيد بحرفيتها وأنه لا بأس بأن يقوم هو بإصعاد المحرقة بنفسه.

معركة مخماس Micmash : صعد شاول بقواته من الجلجال. وصعد يوناثان ابنه بالقوات التى كانت فى جبعة شاول. واجتمع الجند كلهم تحت قيادة شاول. كانت الأسلحة بيد الإسرائيليين قليلة إذ كان الفلسطينيون متسلطين عليهم ويحظرون عليهم كل أنواع الحدادة حتى لا يصنعوا سيوفا أو دروعا. فكانت الأسلحة التى مع بنى إسرائيل لا تزيد عن بلطات الحرب وبعض السيوف والدروع التى أمكن تهريبها. وكانت قوات الفلسطينيين قد تجمعت فى مخماس. وأرسلوا ثلاث فرق: فرقة فى طريق عفرة (بلدة الطيبة الحالية ٢٠كم شمال شرق أورشليم) بهدف منع وصول إمدادات إلى بنى إسرائيل من الأسباط الشمالية. وفرقة ثانية فى اتجاه وادى صبوئيم جنوب شرق مخماس لمنع وصول إمدادات من يهوذا وفرقة ثالثة إلى بيت حورون العليا لتأمين طريق اتصالهم بالسهل الساحلى الفلسطينى ولطلب المدد عند الحاجة.

ثم إن يوناثان – دون أن يخبر والده شاول – تسلل هو والغلام الذى يحمل سلاحه ومعهما عدد قليل من الرجال – إلى خلف القوات الفلسطينية المتجمعة فى مخماس. وباغتوا عددا من الفلسطينيين متمركزين على صخرة عالية وقتلوهم وألقوا بهم من حافة الصخرة لتقع جثثهم وسط معسكر الفلسطينيين. وكان سقوط ٢٠ جثة هكذا معناه أنهم قد هوجموا بقوة كبيرة وأسرع الجنود الفلسطينيون بالهرب فى ذعر فى اتجاه المعسكر الرئيسى. وبث الله الرعب فى قلوب الفلسطينيين وخاصة أنه حدث فى ذلك الوقت زالزال أرعد المنطقة كلها. ونظر شاول والإسرائيليون وإذا بالفلسطينيين يفرون مذعورين. وسأل عن يوناثان فلم يجده فعلم أن هذه فعلته وعزم على الهجوم بقواته وطلب من الكاهن «أخيا» أن يقدم تابوت الرب. وتزايد الذعر والضجيج الذى فى معسكر الفلسطينيين. فقال شاول للكاهن: كُفَّ يدك . أى يكفى هذا. وهو يقصد أنه مادام الاضطراب قد دب فى معسكر الفلسطينيين فإن قوة جيشه كافية للقضاء



شكل ٢٦ – معركة مخماس بين شاول والفلسطينيين .

عليهم. أي أنه لم يعد بحاجة إلى دعاء الكاهن واستنصاره بالرب. وكان هذا خطأ ثانيا من شاول إذ أن عون الرب مطلوب فى كل وقت. وحتى حين يبدو لك أن قوتك أكبر من قوة خصمك **«وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»** (١٢٦ - آل عمران).

وهرب الفلسطينيون وتبعهم شاول وحث الشعب على تتبعهم وقتالهم قائلا: ملعون الرجل الذى يأكل خبزا إلى المساء حتى أنتقم من أعدائى. أى أنه أعلن الصيام. وسار الشعب إلى البرية. وتقول التوراة (١ صموئيل ١٤) «وكان عسل على وجه الحقل. وامتثل جميع الشعب لأمر شاول ماعدا يوناثان فإنه أخذ من العسل وأكل وشعر بقوة واستنارت عيناه» ولما أخبره أحد الجنود أن شاول والده قد أمر الشعب بصيام بقية النهار وحلَّفهم على ذلك استنكر يوناثان هذا الأمر من والده وقال انظروا كيف استنارت عيناى لأنى ذقت قليلا من هذا العسل. فكم بالحرى لو أكل كل الشعب. وهذا العسل غنيمة لنا من الفلسطينيين ولكانت لنا قوة أكبر على قتالهم. ولكن الشعب امتثل لأمر شاول ولم يأكل أحد إلا يوناثان وتم النصر وكان الشعب قد أجهد وأعيا وكان الغروب قد أتى وانتهى الصوم.

من تعاليم الشريعة الموسوية أن أول الغنائم من الغنم والثيران تُقَدَّم قربانا للرب وإصعاد محرقة مما يستدعي بناء مذبح. هذه هى تقاليد الحرب الدينية التى يشرف عليها نبى أو كاهن والتى يكون فيها تابوت الرب حاضرا. «فى المكان الذى يختاره الرب تصعد محرقاتك... وأما الدم فلا تأكله. على الأرض تسفكه كالماء» (تثنية ١٢:١٥). ولكن الشعب كان قد بلغ به الجوع مبلغه فلم ينفذ هذه التعاليم وأخذ غنما وبقرا وعجولا وذبحوا على الأرض وأكل الشعب. ولما علم شاول بذلك أنَّبهم وقال لهم قد غدرتم. وقال لهم. دحرجوا إلىَّ حجرا كبيرا وأقامه كمذبح وطلب منهم أن يذبحوا على الحجر كل واحد ثوره أو شاته. وكان هذا خطأ ثالثا من شاول إذ أقام المذبح بنفسه ولم يترك ذلك للكهنة المرافقين والمختصين بالأمور الدينية.

وقال شاول لننزل وراء الفلسطينيين وننهبهم. ولكن الكاهن اقترح استشارة الرب. فسأل شاول أنحدر وراء الفلسطينيين أم لا؟ ولم يتلق الكاهن إجابة من الرب. وعدم الإجابة يكون بسبب ذنب اقترفه أحدهم. ولما علم شاول بما فعله ابنه يوناثان من مخالفة لأمر الصوم وأكله من العسل. كان الواجب أن يطبقَّ عليه الحد وهو الرجم لأنه عصى أمر الرب. ولكن الشعب قال له إن الرب كان مع يوناثان فى كل ما فعل كما أنه لم يسمع بالأمر الذى أصدره شاول ولا بالحلف الذى عمله. فاقتنع شاول ولم يرجم ابنه. ولكن كان من الواجب أن يفديه بذبيحة حسب أحكام الشريعة «وكل بكر إنسان من أولادك تفديه» (خروج ١٣:١٣) ولكن شاول لم يُفْدِهِ وكان هذا أيضا خطأ رابعا.

طالوت يحارب مؤاب وأدوم :

بعد انتصاره على الفلسطينيين وطرد قواتهم التى كانت تتوغل فى جبال يهوذا وبنيامين حارب شاول مؤاب وأدوم وملك صوبة الأمورى وهزمهم كلهم.

طالوت يحارب عماليق :

ثم قال صموئيل لشاول إن الله يأمره بأن يحارب عماليق ويقتل كل رجل وامرأة منهم وكل طفل رضيع وكل البقر والغنم والحمير. فجمع شاول من الشعب ٢٠٠,٠٠٠ رجل و١٠,٠٠٠ من يهوذا وكمن فى الوادى. وطلب من القينيين أن يخرجوا من وسط العمالقة.

كان العمالقة يسكنون البرية التى تقع ١٣كم شرقى بئر سبع. والقينيّون قبيلة من قبائل مدين وكانوا يسكنون قرب خليج العقبة (يثرون كاهن مدين حمو موسى كان قينيا) وقد نزح بعض القينيين شمالا وسكنوا فى منطقة العمالقة شرقى بئر سبع وكانوا على علاقة طيبة ببنى إسرائيل وبيهوذا. وهكذا طلب شاول من القينيين الخروج من وسط العمالقة حتى لا يضاروا. وحارب شاول العماليق وانتصر عليهم وطاردهم حتى برية شور على حدود مصر وأمسك «أجاج» ملك عماليق واستبقاه حيا - ربما لأخذ فدية مالية كبيرة عنه - ولكنه قتل جميع الشعب كما أمر صموئيل كذلك لم يقتل خيار الغنم والبقر والخراف وقتل الهزيل منها. وكانت هذه كلها أخطاء من شاول إذ كانت تعاليم الرب المبلَّغة إليه عن طريق النبى صوئيل هو قتل الجميع. وأوحِىَ إلى صموئيل. بأن شاول لم يفعل كما أمر الرب. وغضب صموئيل وفى الصباح بكَّر للقاء شاول، وقال له شاول: قد أقمتُ كلاب الرب. فقال صموئيل: وما هو صوت الغنم وصوت البقر الذى أنا سامع؟ فقال شاول لأن الشعب قد عفا عن خيار الغنم والبقر لأجل الذبح للرب إلهك. ولكن صموئيل أوضح له أن تعاليم الرب كانت بقتل كل شىء ولكنه آثر أن يحتفظ بها كغنيمة. واحتج شاول بأنه استبقى هذه الأغنام لتكون محرقات وقرابين للرب. ولكن صموئيل أوضح له أن الذبائح للرب لاتكون بمخالفة أمره وأن التمرد على الرب خطية كبرى. ولأجل أنه قد رفض كلام الرب فقد رفضه الرب من المُلْك. وحاول شاول أن يسترضى صموئيل واعترف بخطئه وأنه تعدّى قول الرب واحتج بأنه خاف من الشعب وسمع صوتهم. وطلب منه أن يعود معه ليغفر خطيئته ولكن صموئيل رفض ودار ليمضى فأمسك شاول بذيل جُبّته فتمزق فى يده. فقال له صموئيل: يمزق الله المُلك عنك ويعطيها لصاحبك الذى هو خير منك. وقال صموئيل. قدِّموا إلىَّ أجاج ملك عماليق. فذهب إليه أجاج ظانا أن صموئيل قد أقرَّ عفو شاول عنه ولكن صموئيل قتل أجاج فى الجلجال. ثم ذهب صموئيل إلى الرامة وصعد إلى بيته فى «جبعة شاول» ولم يلتقيا بعد ذلك أبداً.

العماليــق :

ذكرنا آنفا قتل صموئيل النبي أجاج ملك عماليق الذين كانوا يسكنون البرية شرقي بئر سبع. كما ذكرنا سابقا (الجزء الرابع ص٩٨٣) أن موسى عليه السلام أمر يشوع بمحاربة العماليق في وادي فيران. وذكرنا أيضا (ص ١٠٩٣) أن موسى عليه السلام حارب عوج ملك العماليق الذين كانوا يسكنون باشان. وكان أجاج هو آخر العماليق وبقتله وقتل كل قومه انقرض من الأرض هذا الجنس البشري الذي كان الواحد منهم يصل إلى ما يقرب من ثلاثة أمتار طولا. أما العماليق الذين سكنوا بجوار جرهم في مكة عند تفجُّر الماء من زمزم فقد فقدوا صفة الطول البالغ على مر الأزمنة بتزاوجهم من أقوام ذوي طول عادي. وشكل ٢٧ يبين تصوراً لنشأة وتوزيع فئات العماليق .

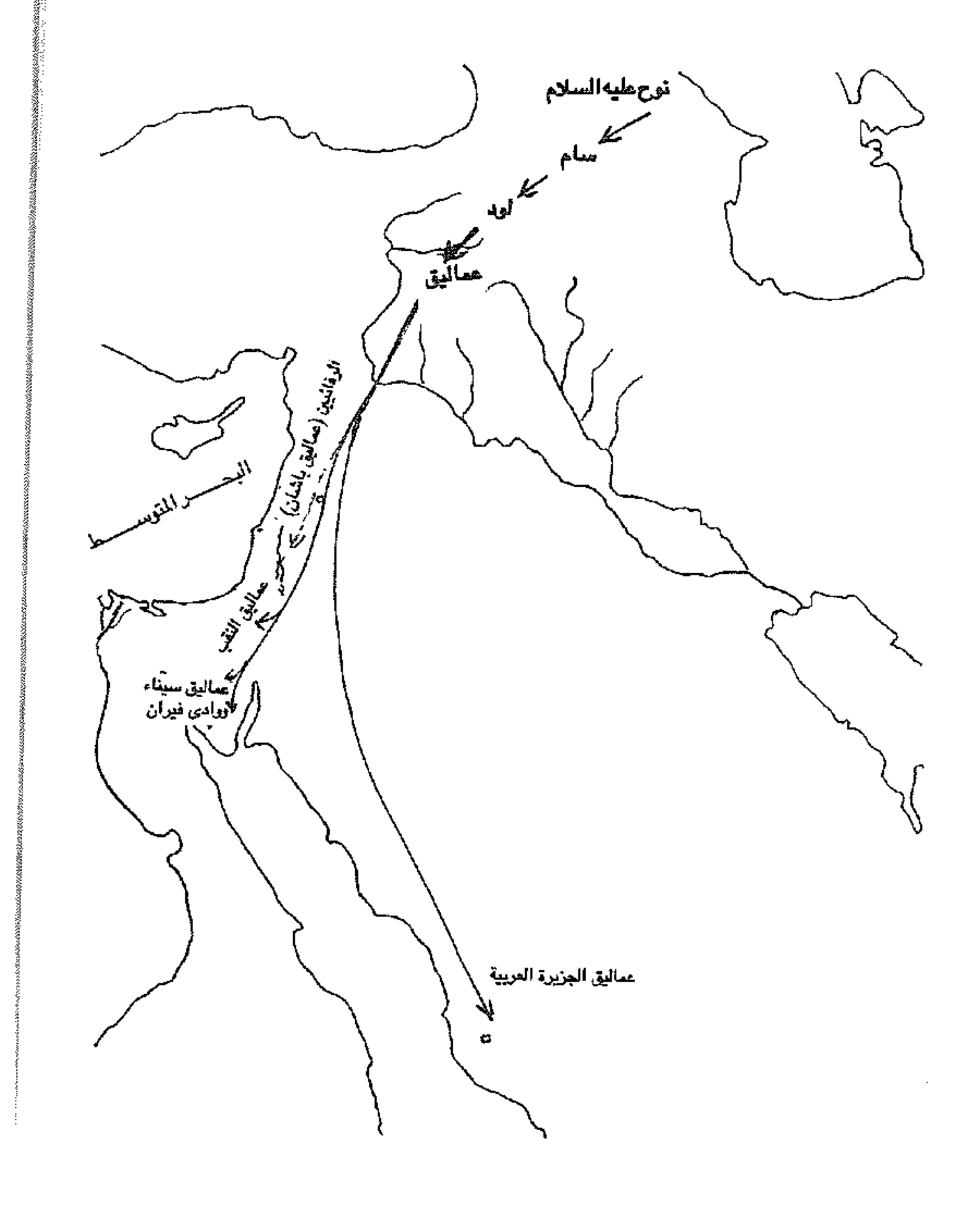
مملكة شاول :

تمكن شاول من جمع كلمة بني إسرائيل فأصبح لهم كيان واحد يهبُّون جميعا للدفاع عنه. وقد خلَّص شاول الأراضي التي كان الفلسطينيون قد استولوا عليها . وكذلك الأراضي شرق الأردن التي كان الأراميون والعمونيون والمؤابيون قد اقتطعوها من أرض الأسباط المجاورة. وشكل ٢٨ يبين مملكة إسرائيل أثناء حكم شاول .

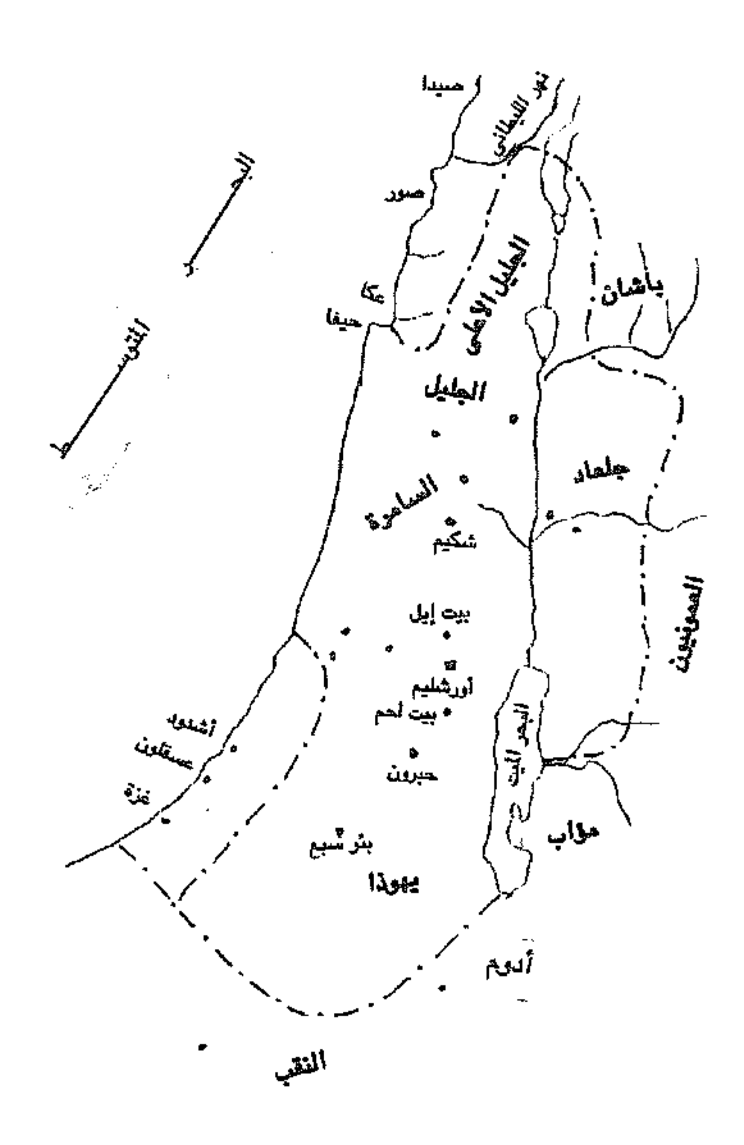
تدهور حالة شاول النفسية :

وضح مما سبق أن طالوت (شاول) قد خالف أحكام الشريعة أكثر من مرة واستهان بتعاليمها وتعدى على اختصاص الكهنة بأن مارس طقوسا دينية لا يجوز له القيام بها . وكان أن أخبره النبي صموئيل أن الرب قد نزع الملك منه ومن بيته ولكنه لم يُفضِ إليه باسم الشخص الذي اختاره الرب ليخلفه. فأصبح شاول دائم التشكك فيمن حوله ينظر إليهم بعين الريبة. ويسأل نفسه أيهم سيكون خليفته؟ وهل ستكون نهايته ميتة طبيعية أم أن المرشح لخلافته سيقوم باغتياله؟ فكان دائم التوجس من كل حركة يأتي بها أي من حاشيته أو رجال البلاط. وأدى ذلك إلى حالة توتر أعصاب دائم وأصبح في خوف مستمر وكل ذلك أثر على حالته النفسية وتنتابه نوبات اكتئاب. وقد وصفت التوراة حالته بأنه «كان يبغته روح رديء من أرواح الشر».

كان صموئيل النبي قد مسح داود ليخلف شاول في الملك. ولكنه فعل ذلك في سرِّية تامة وكان داود لايزال صبيا صغيرا لا يُخْشَى بأسه.



شكل ٢٧ – تصور لنشأة وتوزيع فئات العماليق .



شكل ٢٨ – مملكة شاول .

داود عليه السلام

نسبه :

إبراهيم عليه السلام ← إسحق ← يعقوب ← يهوذا ← فارص ← حصرون ← أرام ← عميناداب ← نحشون ← سلمون ← بوعز (تزوج راعوث المؤابية) ← عوبيد ← يَسَّى ← داود. ووالده يسَّى يطلق عليه الرجل الأفراتى من بيت لحم أو يسَّى البيتلحمى لأنه كان يقيم فى بيت لحم وكان له سبعة أبناء غير داود كما كان له ابنتان.

الاسم داود :

ورد اسمه فى القرآن الكريم ١٦ مرة.

ويقال إن اسم «داود» مشتق من جذر فى العبرية هو دَوَدَ مقابل الجذر العربى ودد – ودً يعنى حبً فداود معناه «محبوب». وفى التوراة الأصلية يُكتب «دَوُدْ» بغير ألف بعد الدال الأولى. وفى بعض الترجمات يكتب «داويد» على وزن فاعيل وتحورت داويد إلى «داڤيد David» حيث تُقلب الواد فاء فى بداية كلمة أو بداية مقطع دا ويد أصبحت داڤيد. ولبعض العلماء رأى آخر. إذ ورد فى نصوص منقوشة فى قصر مارى على الفرات كلمة داڤيدم Davidum بمعنى «والى أو قائد جيش» واستنتجوا أنها ليست اسم علم بل لقب مثل قيصر أو كسرى أو فرعون ولكنها بعد ذلك صارت علما لداود (فيليب حتى، ص ٢٠٥).

ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم جـ ٢ ص ١٥٠) أن اسم داود يحمل أيضا الاسم الذى وصف به داود فى القرآن الكريم: «واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوَّاب» (١٧ – ص). وذا الأيد تعنى القوة فى العبادة والقوة فى القتال أيضا. فوصف «ذو الأيد» يكتب بالعبرية «دى – أود» وعلى مر الأزمنة حُرِّفت إلى داويد . ويقال إن يهود يثرب كانوا ينطقون «داويد» ثم حُرِّفت إلى «داڤيد»..

داود فى صباه :

ليس لنا من مصدر عن الفترة الأولى من حياة داود سوى التوراة إذ تقول (١ صموئيل ١٦): أمر الله صموئيل النبى أن يذهب إلى بيت لحم ليمسح من يخلف شاول. وخشى صموئيل إن علم شاول بالغرض الحقيقى لسيره إلى بيت لحم أن يقتله أو يقتل من يمسحه. لذلك فقد

أعلن أنه ذاهب ليذبح للرب. وبعد أن قدَّم الذبيحة بارك يسَّى وطلب منه أن يقدم بنيه لكي يباركهم. وقدم يسَّى أكبر بنيه «أليآب» وظن صموئيل أن هذا هو الملك المنتظر لطول قامته وهيبة منظره ولكن الله أوحى إليه: «الإنسان ينظر إلى الجسم أما الرب فينظر إلى القلب». ثم جاء الابن الثانى «أمينا داب» ثم «شمة» حتى جاء أبناء يسى السبعة لم يختر الرب أحدا منهم. وسأل صموئيل هل كمل الغلمان؟ قالوا: لم يبق إلا الصغير وهو يرعى الغنم. فطلب منهم أن يبعثوا له ليحضر. فلما جاء قال الرب لصموئيل: قم امسحه لأن هذا هو. ومسحه صموئيل بالدهن فحلَّ عليه روح الرب ثم عاد صموئيل إلى الرامة. ويقول المؤرخ يوسيفوس إن داود فى ذلك الوقت كان فى العاشرة من عمره. إلا أن أغلب مفسِّرى أهل الكتاب يرجِّحون أنه كان فى سن الخامسة عشرة (چاميسون وفاوست. التفسير الحديث للكتاب المقدس . ص ٣٦١).

ويشير المزمور ٧٨ إلى اختيار داود فيقول: «واختار (الرب) داود عبده وأخذه من حظائر الغنم. من خلف المرضعات أتى به ليرعى شعب إسرائيل فرعاهم حسب كمال قلبه وبمهارة يديه هداهم».

كان داود يرعى غنم أبيه وكان أشقر مع حلاوة العينين وحَسَن المنظر. وأنعم الله على داود بالصوت الندى ووهبه نعمة التلحين باللحن الشجى. يسبح ويرنِّم حتى إن الطير يصدح ويشدو على نغماته وكذلك الجماد فتُسبِّح الجبال معه.

«ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوِّبى معه والطير». (١٠ - سبأ).

ولقد عرف داود فى صغره هذه النعمة فوضعها حيث يجب أن تكون تسبيحًا وتمجيداً للرب وتهليلا وتكبيراً واستغفاراً ودعاء. يشدو بقدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق السموات والأرض وكل ما فيها من دابة. ويشكره على نعمه ويهلِّل لنعمائه ويستصرخه فى الشدة. ويلجأ إليه فى المحن يطلب منه النصر والمعونة. ويتوجع فلا يشكو إلا إلى الله إذا ألَّت به المصائب ويطلب من الله التأييد والفرج. وإذا أخطأ يندم ويسترجع الذنب ويكرر الندم وطلب المغفرة. ويكثر من الاستغفار طالبا التوبة من الله. ويتفنَّن فى اختيار الألفاظ والألحان.

كان داود بحق إمام المغنيين. وفقه الله إلى أعذب الألحان منها ما فيه قوة فيتردد صداه بين الجبال فترجِّع مقاطعه وألحانه فى توافق تام. ومنها ما فيه رقة وعذوبة بحيث تتمثَّل به الطير فى شقشقتها. ويسير الكل معه فى معزوفة متناغمة جوهوها التسبيح لله فى كل الأوقات صباحاً ومساء.

«إنا سخَّرنا الجبال معه يسبِّحن بالعشىِّ والإشراق . والطير محشورة كل له أوَّاب» (١٧ - ١٨ - ص).

كان داود يرعى الغنم فى البرِّيَّة وكان وجوده فى البرِّيَّة مكان ملائما ليتفكر فى خلق

السموات والأرض والشمس والقمر. وكان فى مزاميره تسابيح لله فيها تفكُّر وشكر لله على نِعَمِه وتمجيد لذاته وتواضع لعظمته. وكان داود تقيا من صغره. يعرف الله ويحفظ وصاياه. ولوجوده غالب وقته فى البرِّيَّه لم يخالط غيره من الشباب وبذلك جنَّبه الله ما قد يكون فى فترة الشباب من نزق أو طيش وبُعدٍ عن طريق الله. ولاشك أن ما كان يتغنَّى به داود كان مزيجا من حكمةٍ وهبه الله إياها **«وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب»** (٢٠ - ص) مع وحى من الله سبحانه وتعالى. **«وآتينا داود زبورا»** (٥٥ - الإسراء). والزبور هو الكتاب الذى أنزل على داود. وسنأتى إلى شرحه باستفاضة فيما بعد (ص ١٣٥). وقد كانت مزامير داود معبِّره عن واقع حاله فى الوقت الذى يتغنى به بالمزمور. وهذه مقتطفات من بعض مزاميره:

من المزمور ٢٣ :

وقد ترنَّم بهذا المزمور بعد أن مسحه صموئيل باسم الرب: الرب راعىَّ فلا يعوزنى شيىء. فى مراعٍ خضر يربضنى. إلى مياه الراحة يوردنى. يرد نفسى. يهدينى إلى سُبُل البِرِّ من أجل اسمه. أيضا إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شرا لأنك أنت معى. مسحت بالدهن رأسى. كأسى ريًا. إنَّما خير ورحمة يتبعانى كل أيام حياتى. وأسكن فى بيت الرب إلى مدى الأيام.

من المزمور ٢٤ :

للرب الأرض وملؤها. المسكونة وكل الساكنين فيها لأنه على البحار أسَّسها وعلى الأنهار ثبَّتها. من يصعد إلى جبل الرب ومن يقوم فى موضع قُدسِه. الطاهر اليدين النقى القلب الذى لم يحمل نفسه إلى الباطل ولا حلف كذبا يحمل بركة من عند الرب وبِراً من إله خلاصه.

من المزمور ٢٥ :

إليك يارب أرفع نفسى. يا إلهى عليك توكَّلت فلا تدعنى أخزى. طرقك يارب عرِّفنى. سُبلك علِّمنى دربْنى فى حَقِّك وعلِّمنى لأنك أنت إله خلاص. إياك انتظرت اليوم كله. اذكر مراحمك يارب وإحساناتك لأنها منذ الأزل هى. لا تذكر خطايا صباى ولا معاصىَّ. كرحمتك اذكرنى من أجل جودك يارب. الرب صالح ومستقيم. كل سبل الرب رحمة وحق لحافظى عهده وشهاداته. التفت إلىَّ وارحمنى لأنى وحدى ومسكين أنا.

من المزمور ٢٦ :

اقضِ لى يارب لأنى بكمال سلكت وعلى الرب توكلت. جرِّبنى يارب. وامتحنِّى. صفِّ كليتىَّ وقلبى لأن رحمتك أمام عينىَّ. وقد سلكت بحقِّك. لم أجلس مع أناس السوء. ومع الماكرين لا أدخل. أبغضتُ جماعة الأثمة ومع الأشرار لا أجلس. أغسل يدىَّ فى النقاوة فأطوف بمذبحك يارب لأسمَّع بصوت الحمد وأُحدِّث بجميع عجائبك. يارب أحببت محل بيتك وموضع سكن

مجدك. لا تجمع مع الخطاة نفسى ولا مع رجال الدماء حياتى الذين فى أيديهم رذيلة ويمينهم ملآنة رشوة. أما أنا فبكمالى أسلك. افدنى وارحمنى. رجلى واقفة على سهل. فى الجماعات أبارك الرب.

من المزمور ١٤٨ :

هللوا . سبِّحوا الرب من السموات. سبِّحوه فى الأعالى. سبِّحوه يا جميع ملائكته. سبحوه يا كل جنوده. سبِّحيه يا أيتها الشمس والقمر. سبحيه ياجميع كواكب النور. سبحيه ياسماء السموات. وياأيتها المياه التى فوق السموات. لتسبِّح اسم الرب لأنه أمَرَ فَخُلِقَت وثبَّتها إلى الدهر والأبد. وضع لها حدا فلن تتعداه. سبِّحى الرب من الأرض يا أيتها التنانين وكل اللجج. النار والبَرَد الثلج والضباب الريح العاصفة الصانعة كلمته. الجبال وكل الآكام. الشجر المثمر وكل الأرز. الوحوش وكل البهائم الدبابات والطيور ذوات الأجنحة. ملوك الأرض وكل الشعوب الرؤساء وكل قضاة الأرض. الأحداث والعذارى. أيضا الشيوخ مع الفتيان. ليسبِّحوا اسم الرب لأنه قد تعالى اسمه وحده. مجده فوق الأرض والسموات.

ولطيب صوته كان إذا ترنم بهذه التسابيح تقف الطير فى الهواء تجاوبه وترد عليه الجبال تأويبا .

«إنا سخرنا الجبال معه يسبِّحن بالعشى والإشراق. والطير محشورة كل له أوَّاب» (١٧ - ١٨ - ص).

مر النبى صلى الله عليه وسلم على أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً فوقف واستمع لقراءته وقال: لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود. قال يارسول الله لو علمت أنك تستمع لحبَّرته لك تحبيراً (تفسير ابن كثير. جـ ٣. ص ١٨٧) وحبَّر الشعراء أو الكلام أو الخط زيَّنه ونمَّقه (المعجم الوسيط جـ١ ١ ص ١٥١).

داود يصبح من خاصة طالوت (شاول) :

قلنا إن شاول علم من صموئيل أن الرب قد رفضه وسينزع الملك من بيته. ولكنه لم يدرِ أن صموئيل قد مسح داود خليفة له لأن ذلك تم فى تكتم شديد عند زيارته لبيت لحم حفاظا على حياة الصبى من انتقام شاول وتقول التوراة (١ صموئيل ١٦:١٤): «وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردىء من قبل الرب». ويرى أخصائيو الأمراض النفسية أن ما كانت تنتابه هو نوبات اكتئاب Manic - depression. «فقال عبيد شاول له فليأمر سيدنا عبيده قدامه أن يفتشوا عن رجل يُحْسِنُ الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الردىء أنه يضرب بيده فتطيب. فقال شاول لعبيدة: انظروا إلىَّ رجلا يُحْسِنُ الضرب واتوا به إلىَّ. فأجاب واحد من الغلمان. هوذا قد رأيت ابنا لِيَسَّى البيتلحمى يُحسِنُ الضرب. وفصيح ورجل جميل والرب معه.

فأرسل شاول رسلا إلى يسَّى يقول: أرسل إليَّ داود ابنك الذى مع الغنم. فجاء داود إلى شاول ووقف أمامه فأحبَّه جداً. وكان عندما يجىء الروح الشرير على شاول أن داود يأخذ العود ويضرب بيده فكان شاول يرتاح ويطيب ويذهب عنه الروح الردىء».

وهكذا – كما كان تفسير الأحلام هو المدخل الذى أوصل يوسف عليه السلام ليصبح عزيز مصر ونائب الملك – كان الصوت الشجي والضرب على العود هو السبيل الذى هيَّأه الله لداود ليصبح من خاصة شاول والمرافقين له. وكان اتصاله بشاول وسيلة لمعرفة شيىء عن أمور السياسة التى كان بعيداً عنها تماما والتى كانت لازمة له إذ هو الملك المقبل لإسرائيل. إلاَّ أن داود لم ينغمس فى الترف الذى يعيش فيه رجال البلاط الملكى ولم يترك بيت والده كلية. بل كان إذا انتابت شاول إحدى نوبات الإكتئاب بعثوا فى طلبه فيأتى ويضرب على العود فتطيب نفسه وتزول النوبة عنه. وحتى فى الأوقات القليلة التى كان يضطر فيها إلى البقاء فى القصر لفترات طويلة – أياما أو أسابيع – كان يلوذ بركن قصى فى حديقة القصر يخلو فيها إلى نفسه ويسبِّح الله كما كان يفعل فى البرية أثناء رعيه الغنم. ونجتزىء هنا بعضا من تسابيحه :

من المزمور الأول :

طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار وفى طريق الخطاة لم يقف وفى مجلس المستهزئين لم يجلس لكن فى ناموس الرب مسرَّته. وفى ناموسه يلهج نهارا أو ليلاً فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه التى تعطى ثمرها فى أوانه وورقها لا يذبل وكل ما صنعه ينجح. ليس كذلك الأشرار. لأنهم كالعصافه التى تذريها الرياح. لذلك لا تقوم الأشرار فى الدين ولا الخطاة فى جماعة الأبرار. لأن الرب يعلم طريق الأبرار أمَّا طريق الأشرار فتهلك.

من المزمور الثانى :

أيها الرب سيدنا. ما أمجد اسمك فى كل الأرض حيث جعلت جلالك فوق السموات. سمواتك عمل أصابعك. القمر والنجوم التى خلقتها. فَمَنْ هو الإنسان حتى تذكُره وابن آدم حتى تفتقده وتنقصه قليلا عن الملائكة وبمجد بهاءٍ تُكلِّله؟ جعلت كل شيىء تحت قدميه: الغنم والبقر جميعا وبهائم البحر أيضا وطيور السماء وسمك البحر السالك فى سبيل المياه. أيها الرب سيدنا. ما أمجدَ اسمك فى كل الأرض.

من المزمور ١٩ :

السموات تحدِّث بمجد الله والفَلَكُ يخبر بعمل يديه. يوماً إلى يوم يُذيع كلاما. وليلاً إلى ليل يُبدِى علما. لا قول ولا كلام. لا يُسمع صوتهم. فى كل الأرض خرج منطقهم. وإلى أقصى المسكونة كلماتهم. جعل للشمس مسكنا فيها وهى مثل العروس الخارج من حجلته يبتهج مثل الجبَّار للسباق فى الطريق. من أقصى السموات خروجها ومدارها إلى أقاصيها ولا شيىء

يختفى من حَرِّها.. ناموس الرب كامل. يَرُدُّ النفس. شهادات الرب صادقة تُصَيِّر الجاهل حكيما. وصايا الرب مستقيمة تُفَرِّح القلب. أمر الرب طاهر ينير العينين. خوف الرب نقى ثابت إلى الأبد. أحكام الرب هى عادلة كلها. أشهى من الذهب والإبريز الكثير وأحلى من العسل وقطرات الشهد. وفى حفظها ثواب عظيم. من الخطايا المستترة أبرئنى. أيضا من المتكبرين احفظ عَبْدَك فلا يتسلَّطوا علىَّ حينئذ أكون كاملا وأتبرأً من ذنب عظيم. لتكن أقوال فمى وفكر قلبى مَرْضيَّةً أمامك يارب.

الحرب بين شاول والفلسطينيين :

بدأ الفلسطينيون يستعدون لجولة جديدة من الحرب مع بنى إسرائيل وجمعوا جيوشهم فى بلدة «سوكوه Socoh» وهى بلدة فى يهوذا ٢٥كم جنوب غرب أورشليم وهى حاليا «خربة عياد أو خربة الشويكة» وعندها ينحنى وادى الشور إلى الغرب ويصبح اسمه وادى السنط (شكل ٢٩). كان بنو إسرائيل قد عرفوا من قبل شدة بأس الفلسطينيين وحُسْنَ استعدادهم فى حين كانت الأسلحة فى أيدى بنى إسرائيل قليلة. ولما بدأت الجموع فى الزحف للملاقاة بدأ الخوف يتسرَّب إلى نفوس بنى إسرائيل. ومما يُذكر أن طالوت (شاول) تحرَّى أن يكون الخارج للقتال معه متفرِّغا تماما لا يشغله شيىء وراءه. فقال لبنى إسرائيل: «لا يخرج معى من بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها. فاجتمع إليه ٨٠,٠٠٠ رجل». ثم قال لهم إن الله سيختبرهم ليظهر الصادق المخلص فى إيمانه. وكان العطش قد اشتد عليهم فقال لهم ستقابلون نهراً فمن شرب منه كثيرا لن يقوى على القتال. وكان الجند يستلقون على بطونهم ويكرعون من النهر بأفواههم مباشرة وبذلك تمتلىء بطونهم بالماء فلا يقدرون على السير بعد ذلك. ونهاهم عن فعل ذلك. ومن يفعل ذلك فليرجع ولا يصحبه فهو ليس من جنوده. إلاّ من يريد أن يطفىء عطشه بأن يغترف قليلا من الماء بيده. ولما وصلوا إلى الماء شرب أغلبهم من النهر وكرعوا منه حتى امتلأت بطونهم. ولما تخطوا النهر قالوا لا قدرة لنا على محاربة الفلسطينيين وأظهروا الضعف. وقيل إن ٧٦,٠٠٠ هم الذين شربوا وتخاذلوا فلم يبق معه إلا ٤٠٠٠ فقط وقال بعضهم أقل من ذلك (تفسير الألوسى. جـ ٢ . ص ١٧١). وقالت الفئة المؤمنة التى امتثلت لأمر الله والتى تتيقَّن أنها ستقابل الله فى اليوم الآخر. وعبَّر عن التيقن بالظن. وقد يكون – وهو الأرجح – الذين يظنون أنهم إن قاتلوا قد يقتلون ويلاقوا ربهم فى يومهم هذا ولكنهم استهانوا بالموت فى سبيل الله. كما أنهم – لقوة إيمانهم ومع قلة عددهم – يعرفون أن النصر ليس بكثرة العدد فالنصر من عند الله وأن الفئة القليلة قد تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله.

« فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر. فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى. إلا من اغترف غرفة بيده. فشربوا منه إلا قليلا منهم. فلما جاوزه هو والذين

معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين». (٢٤٩-البقرة).

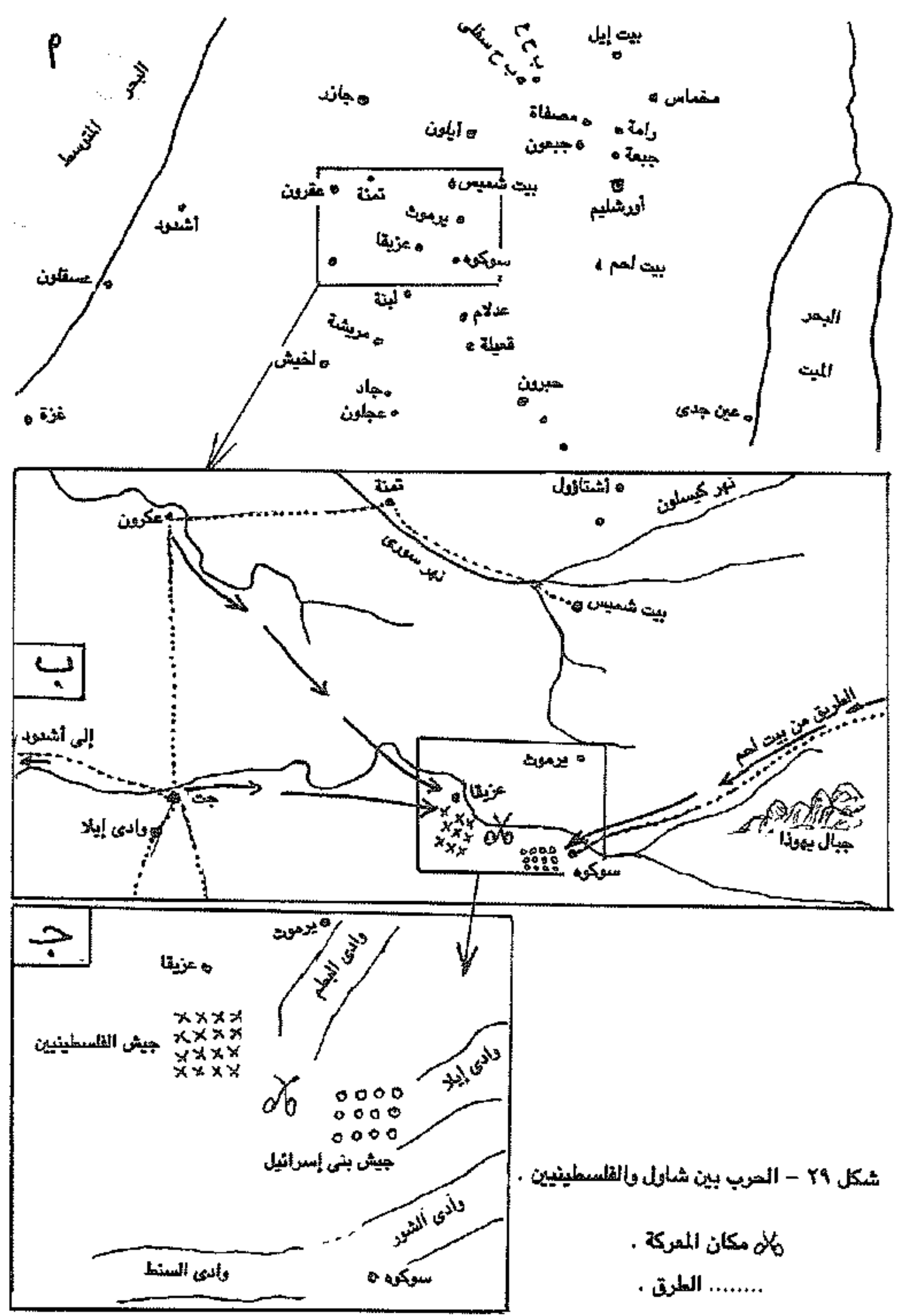
وتقدمت القوات الفلسطينية من عكرون ومن جت وتجمعت بين سوكوه وعزيقا على الجانب الغربى من وادى البطم. بينما تجمعت القوات الإسرائيلية القادمة من بيت لحم ومن جبال يهوذا فى وادى إيلاه وعلى رأسها شاول (شكل ٢٩ جـ).

جالوت = جليات = Goliath :

وخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات. وحسب وصف التوراة له «كان طوله ستة أذرع وشبر (حوالى ٢,٥ متر) وعلى رأسه خوذة من نحاس. وكان لابسا درعا حرشفيا ووزن الدرع ٥٠٠٠ شاقل نحاس (الشاقل ١١,٤جم أى ٥٧ كيلو جراما) وجرموقا نحاس على رجليه ومزراق نحاس بين كتفيه. وقناة رمحه كنول النساجين. وسنان رمحه ٦٠٠ شاقل حديد (٧ كيلو جرامات) وحامل الترس كان يمشى قدامه (١ صموئيل ١٧:٦). وكان يزهو بكبرياء وصلف ويقول: أنا الفلسطينى! هل من مبارز؟» وكانت القاعدة آنذاك أنهم ينتخبون ممثلين من الجيوش المتحاربة يتبارزون قبل بدء القتال الفعلى بين الجيوش والجانب الذى ينتصر أبطاله فى هذه المبارزات ترتفع معنويات جنوده كثيرا مما يكون له أثر كبير على سير المعركة بعد ذلك. وكان بروز جليات هكذا لابسا دروعه المخيفة هذه مدعاة لبث الرعب فى نفوس الإسرائيليين. وكان جليات يصيح فى الإسرائيليين: اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إلىَّ. فإن قدر أن يحاربنى ويقتلنى نصير لكم عبيدا. وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيدا وتخدموننا. ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينى هذا ارتاعوا وخافوا جدا. وكان أبناء يسىَّ الثلاثة الكبار - إخوة داود - وهم أليآب وأبيناداب وشمَّة - قد تبعوا شاول إلى الحرب. أما داود فقد بقى ليرعى الغنم. وأراد يسَّى أن يطمئن على سلامة أبنائه الثلاثة فأمر داود أن يذهب إلى مكان المعركة ليأتيه بخبرهم. وظل جليات يخرج كل يوم فى درعه يزهو بنفسه ويدعو من يجد فى نفسه الشجاعة من بنى إسرائيل على مبارزته أن يتقدم إليه فلا يتقدم أحد. ولتشجيع أحد الجند على مبارزته أعلن شاول أنه سيعطى الرجل الذى يقتل جليات أموالا طائلة ويزوِّجه ابنته.

جليات أم جالوت ؟

ذُكِرَ اسم ذلك الفلسطينى فى التوراة «جليات» وراح المستشرقون يطنطنون ويتقوَّلون إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد أخطأ عند سماعه اسم «جليات» وقال «جالوت». والحقيقة أن القرآن الكريم قد أورد اسم «جالوت» ليرد الاسم إلى معناه الحقيقى. فاسم «جليات» كما يقول مفسرِّو أهل الكتاب مشتق من الجذر العبرى «جلا» وهو جذر له مقابل فى العربية وبنفس



شكل ٢٩ – الحرب بين شاول والفلسطينيين .

مكان المعركة .

.... الطرق .

المعنى حين نقول «جلا عن وطنه» وجاء في قاموس الكتاب المقدس (ص ٢٦٥) جليات اسم كنعاني معناه «سبي أو نفي»، ولا يُتَصَوَّر أن الفلسطيني الذى كان يتحدى بنى إسرائيل فى ساحة القتال يُسمَّى «جليات» بمعنى الأسير أو المنفى أو السبى!. ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعده (من إعجاز القرآن. جـ٢ . ص ١٣٩) أن «جالوت» مشتق من فعل «جلا» وتقول جلا الصدأ عن سيفه. وجلا الأمر أى أوضحه. وقال الحجاج قولته الشهيرة: أنا ابن جلا وطلاَّع الثنايا. وكان جالوت فارسا شجاعا يتحدى المبارزين فى وضوح وجلاء وكان ظاهرا بين قومه وجاء القرآن الكريم بصيغة المبالغة من «جلا» بهذا المعنى فقال «جالوت» كما يقال على من بالغ الطغيان «طاغوت». وهكذا نرى أن الاسم الذى اختاره القرآن الكريم هو الأصح لصفة هذا الفلسطيني عما سمته به التوراة «جليات» بمعنى الأسير أو السبى.

«وقتل داود جالوت» :

نعود ثانية إلى أرض المعركة وجالوت يروح ويجيء متبختراً فى درعه الحديدى يدعو من يجد في نفسه الشجاعة لقتاله فلا يتقدم أحد. ورأى داود فعل جالوت وما يقول من تهكم على بنى إسرائيل – وساءه ذلك وقال: من هو هذا الفلسطيني الأغلف حتى يُعَيِّر صفوف الله الحيّ. وسأل عما يعطونه لرجل يقتله ويزيل العار عن إسرائيل. وسمع أليآب – أخو دواد الأكبر – كلام داود واستهزاءً به لامه على ترك الغنم في البرية والمجيء للتفرُّج على الحرب. ولكن داود راح يهدِّد جليات بالقتل. وسمع شاول بذلك فاستدعى داود. وقال داود إنه مستعد لمحاربة هذا الفلسطيني. وأشفق عليه شاول وقال له: لا تستطيع لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه. ورد عليه داود أنه بينما كان يرعى الغنم إذ هجم عليها أسد ودب فضربهم وقتلهم. فقال له شاول: اذهب وليكن الرب معك. وألبسوا داود درعا وخوذة من الحديد ولم يكن قد لبسها من قبل فلم يستطع السير بهما ونفضهما عن نفسه. كان داود يعلم أن النصر هو من عند الله أولا وآخرا. وأن الإيمان الحقيقى أقوى من أى درع. فتقدم ليقاتل جالوت وليس معه إلا عصاه التى يهش بها على الغنم والحجارة التى يرمى بها الذئاب خمسة حجارة فى جراب ومقلاعه فى يده. ولما رأى الفلسطينى داود استحقره لأنه كان غلاما وقال له: ألعلِّي أنا كلب حتى تأتى إلىَّ بعصا؟ وبدأ يسب داود وإلهه. وقال لداود تقدم إلىَّ فأعطى لحمك لطيور السماء ووحوش البرية. فقال داود لجالوت: أنت تأتى إلىَّ بسيف ورمح وترس وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيَّرتهم. هذا اليوم يحبسك الرب فى يدى فأقتلك وأقطع رأسك وأعطى جثث جيشك لطيور السماء وحيوانات الأرض. فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل. وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلِّص الرب. لأن الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا. وتقدم جالوت للقاء داود. ولكن داود أسرع وأخذ حجرا من جرابه ورماه بالمقلاع فأصابه فى جبهته.

وسقط جالوت على الأرض من شدة الضربة فأسرع داود إليه وأخذ سيفه منه وقتله به وقطع رأسه. ولما رأى الفلسطينيون ذلك خافوا وبدأوا فى الفرار ولحقهم جنود بنى إسرائيل وقتلوا منهم الكثير. وعاد داود إلى معسكر الملك شاول. وكان يوناثان ابن شاول شاهدا على ما فعل داود فأعجب به وأحبَّه وخلع عليه جُبَّته وأعطاه أيضا سيفه وقوسه ومنطقته. كما أن شاول عيَّنه رئيسا لفرقة من الجنود وحَسُنَ فى أعين الشعب.

«فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت» . (٢٥١ - البقرة).

وخرج النساء من جميع مدن إسرائيل بالغناء والرقص للقاء شاول بدفوف وكُنَّ يُحيين داود لشجاعته. وبدأت الغيرة تدب فى قلب شاول وخشى أن ينتزع داود الملك منه وخاصة أن صموئيل النبى قد سبق وأخبره أنه لم يعد مرغوبا فيه من قِبَل الرب. وخشى أن يكون داود هو ملك إسرائيل المقبل. ولم يكن يعلم أن صموئيل النبى قد مسح داود فعلا ملكا على إسرائيل لأن ذلك تم - كما سبق أن ذكرنا - فى سرية تامة (ص ٩١). وكان المفروض - حسب ما وعد شاول - أن يعطى ابنته مَيْرَب زوجة لداود. ولكنه أعطاها لعدرئيل. أحد ضباط جيشه ولم يكن داود قد قاتل طمعا فى الجائزة التى رصدها شاول ولا للزواج من ابنته. ولكن ابنة شاول الصغرى «ميشال» أو «ميكال» كانت قد أحبَّت داود وعلم أبوها بذلك فرحَّب بزواجها من داود ظانًّا أنه بذلك يطويه تحت جناحه فلا ينافسه على المُلك. وأرسل شاول رسولا يحث داود على التقدم لطلب يد ابنة الملك. فقال لهم داود أين أنا من الملك وأنا رجل مسكين. ولما أخبروا شاول بذلك طلب منهم أن يقولوا لداود إن الملك لا يهمه الجاه ولا الثروة. بل يكفيه أنه رجل شجاع وأمين وهذا كافٍ. وتمت المصاهرة وتزوج داود ميكال ابنة شاول.

شاول يحاول قتل داود :

عادت الغيرة تعمل عملها فى قلب شاول فحرَّض أبناءه وعبيده على قتل داود. وكما سبق أن قلنا إن يوناثان ابن شاول كان قد أحب داود فأفضى إليه بما ينتويه أبوه تجاهه ونصحه بأن يأخذ حذره . ثم راح يوناثان يدافع عن داود عند أبيه فصفت نفسه مؤقتا وتراجع عن قتل داود.

وانتصر داود فى معركة أخرى بينه وبين الفلسطينيين. وعاد الروح الردىء يتلبَّس شاول ويحرِّضه على التخلص من داود. وتقول التوراة (١ صموئيل ١٩:١٠) إن شاول انتهز فرصة انفراده بداود وهجم عليه برمحه وداود ليس معه سلاح فكان يدفع الرمح بيده ويتفاداه حتى استطاع أن ينجو منه وهرب وعاد إلى بيته. فأرسل شاول رجالا لبيت داود ليقتلوه عند خروجه فى الصباح ولما كان رجال شاول يحيطون بالبيت تضرَّع داود إلى الله فقال :

المزمور (٥٩) :

أنقذنى من أعدائى يا إلهى. من مُقَاوِمِيَّ احمنى. نجِّنى من فاعلى الإثم. ومن رجال الدماء

خلِّصني لأنهم يكمنون لنفسي. الأقوياء يجتمعون عليَّ. لا لإثمي ولا لخطيَّتي يارب. بلا إثم مني يجرون ويُعِدُّون أنفسهم. استيقظ إلي لقائي. انظر وأنت يارب إله الجنود. إله إسرائيل. كل غادر أثيم لا ترحم. إلهي رحمته تتقدَّمني. الله يريني أعدائي. خطيَّة أفواههم هي كلام شفاههم وليؤخذوا بكبريائهم ومن اللعنة ومن الكذب الذي يُحدِّثون به. أما أنا فأغنِّي بقُوَّتك. وأرنِّم بالغداة برحمتك لأنك كنت ملجأ لي ومناصا في يوم ضيقي. ياقُوَّتي. لك أُرنِّم لأن الله ملجئي إله رحمتي.

وساعدته ميكال زوجته على أن يهرب من كوة في البيت ووضعت في الفراش بعض التراقيم (تماثيل صغيرة) ولبدة معزى مكان الرأس وغطَّته بثوب حتى إذا نظروا من فرجة في الباب ظنوا أنه داود نائم في فراشه. وفي الصباح دخلوا عليها البيت وسألوا عن داود فأخبرتهم أنه مريض في الفراش. فلما هجموا على الفراش ليقتلوه لم يجدوا إلا التراقيم ولبدة المعزى. وغضب شاول على ابنته لأنها مكنت داود من الهرب. وطلَّقها من داود وزوَّجها إلى أحد جنوده واسمه «فلطي ابن لايش» (١ صموئيل ٢٥:٤٤). وبالطبع كان هذا زواجا باطلا لأن الرجل هو الذي يملك حق تطليق زوجته وداود لم يطلِّقها وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ١١٩).

بعد أن هرب داود من رجال شاول ذهب إلى صموئيل النبي في الرامة وأخبره بما فعل شاول معه. ثم انتقلا إلى البلدة المجاورة وهي نايوث وفي هذا المكان كان يجتمع القديسون حيث يرأسهم صموئيل النبي يتعبدون لله وبعضهم كان يطمع أن ينزل عليه الوحي فيتنبأ (يصبح نبيا) وعلم شاول بذلك فأرسل فرقة من الجنود لأخذ داود ولكنهم انضموا إلى رجال صموئيل وأرسل فرقة ثانية انضمَّت هي الأخرى لصموئيل. فلم ير شاول بدا من الحضور بنفسه واندس بين القديسين ليصل إلى داود. ورآه الناس وتعجبوا وقالوا: **أشاول أيضا بين الأنبياء!** فصارت مثلا عند أهل الكتاب. حين يرون رجلا فاسدا في وسط أهل التقوى والصلاح.

وعاد داود إلى الرامة وقابل يوناثان ابن شاول واشتكى إليه من أفعال والده. وكما سبق أن قلنا إن يوناثان كان يحب داود ويخلص له النصيحة فأخبره أن والده لا يفعل شيئا دون أن يستشيره. وكان من عادة شاول أنه في أول كل شهر يصنع وليمة تستمر ثلاثة أيام يدعو إليها رجال الحاشية وضباط الجيش. وهناك أمكنة على المائدة بجوار مكان شاول مخصَّصه لأبنائه ولزوج ابنته – داود – ونصح يوناثان داود بأن لا يحضر الوليمة ووعده بأنه سيكلم أباه في أثناء الوليمة لإصلاح الجفوة التي بينهما. وفي اليوم الأول للوليمة وجد شاول مكان داود خاليا. ولما لم يأت في اليوم التالي أيضا سأل ابنه يوناثان عنه فأخبره أنه ذهب إلى بيت لهم لأن عندهم ذبيحة للعشيرة وأنه سمح له بالذهاب. فغضب شاول على ابنه يوناثان ولامه على الصداقة بينه وبين داود. وبدأ يوغر صدره على داود بدعوى أنه يخطط لاغتصاب الملك منه

وبذلك لن يؤول إليه المُلك فى المستقبل. ولكن يوناثان لم يهمه هذا الأمر وكل ماكان يهمه هو سلامه صديقه داود. وأرسل يحذره وطلب إليه الهرب من بيت لحم.

هرب داود إلى نوب Nob وهى مدينة الكهنة فى أرض بنيامين ويحتمل أنها حاليا قرية العيساوية ٥,٢كم شمال شرق أورشليم. ولجأ إلى أخيمالك الكاهن وادَّعى أنه خرج فى مهمة عاجلة للملك فلم يأخذ معه خبزًا ولا سلاحا. وكان الخبز الوحيد الموجود آنئذ هو الخبز المقدَّس فأعطاه أخيمالك منه. ثم إن داود أخبره أنه لم يأخذ بيده سيفا أو رمحا لأن أمر الملك كان عاجلا فقال الكاهن: إن سيف جوليات الفلسطينى موجود وأعطاه له. فأخذ داود الخبز والسيف ومضى.

كان الخبز المقدس يوضع على المائدة فى القدس داخل المسكن ويأكل منه الكاهن وعائلته ولا يحق لأحد آخر أن يأكل منه. وإلى هذا أشار السيد المسيح عليه السلام فى قوله:

«أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه. كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة. الذى لم يحل أكله له ولا للذين معه. بل للكهنة فقط» (إنجيل متى ١٢:٣).

كان هناك رجل اسمه دواغ الأدومى جاسوس لشاول. فراح وأخبر شاول بما حدث. فجاء شاول على عجل إلى نوب للقبض على داود فوجده قد هرب منها.

داود يهرب إلى أرض الفلسطينيين :

إزاء هذه المطاردة فى كل مكان يذهب إليه لم يكن أمام داود من سبيل آخر إلا أن يهرب إلى «**جت** Gath» وهى إحدى مدن الفلسطينيين الخمس العظمى (ص ١١) وملكها أخيش Achish كان عدوًا لدودا لبنى إسرائيل. وظن داود أن أخيش سيرحِّب به لما هو معروف عن عداوة شاول لداود. ولكنه اشتم من أخيش الغدر إذ لم ينسى الفلسطينيون أن داود هو الذى قتل جالوت وتسبب فى هزيمتهم فألقوا القبض عليه. فاحتال لينجو. فتظاهر بالجنون وكان يخربش الباب ويسيل لعابه على لحيته وهذا يعتبر من علامات الجنون فتركوه لحاله. وهرب داود إلى الجبال. ولعل هذا كان من أصعب المواقف التى جابهها داود. فشاول يطارده فى كل مكان والفلسطينيون كادوا أن يتمكنوا منه لولا تظاهره بالجنون فراح يضرع إلى الله **بهذا المزمور** (٥٦) قائلا :

ارحمنى يا الله لأن الإنسان يتهمَّمُنى واليوم كله محاربا يضايقنى. تهمَّمنى أعدائى اليوم كله لأن كثيرين يقاوموننى بتجبرٍ وكبرياء. فى يوم خوفى أنا عليك أتَّكل. الله أفتخر بكلامه. على الله توكلت فلا أخاف ماذا يصنعه بى البشر. اليوم كله يُحرِّفون كلامى. علىَّ كل أفكارهم بالشر. يلاحظون خطواتى عندما ترصَّدوا نفسى. على إثمهم جازهم. بغضب أخضعِ الشعوب يا الله. اجعل أنت دموعى فى زِقِّك حينئذ يرتد أعدائى إلى الوراء فى يوم أدعوك فيه.على الله

توكلت فلا أخاف. اللهم عليَّ نذورك. أوفى ذبائح شكر لك لأنك نجَّيت نفسى من الموت. نعم ورجليَّ من الزلق، لكى أسير قدام الله فى نور الأحياء.

وكذلك تضرَّع إلى الله بالمزمور التالى (٣٤) :

أبارك الرب فى فى كل حين. دائما تسبيحه فى فمى بالرب تفتخر نفسى. عظِّموا الرب معى، ولنُعْلِ اسمه معا. طلبتُ إلى الرب فاستجاب لى، ومن كل مخاوفى أنقذنى. نظروا إليه واستناروا ووجوههم لم تخجل. هذا المسكين صرخ والرب استمعه. ومن كل ضيقاته خلَّصه. ملاك الرب حال حول خائفيه وينجِّيهم. ذوقوا وانظروا. ما أطيب الرب. طوبى للرجل المتوكِّل عليه. اتقوا الرب يا قدِّيسيه لأنه ليس عَوَزٌ لمتَّقيه. طالبو الرب لا يعوزهم شيىء من الخير.

ومن المزمور ١٤٠ :

أنقذنى يارب من أهل الشر. من رجل الظلم احفظنى. الذين يتفكَّرون بشرور فى قلوبهم. اليوم كله يجتمعون للقتال. سنُّوا ألسنتهم كحيَّة. حمة الأفعوان تحت شفاههم. احفظنى يارب من يد الشرير. من رجل الظلم أنقذنى. أخفى لى المستكبرون فخًّا وحبالاً. وضعوا لى أشراكا. قلت للرب أنت إلهى. اصغ يارب إلى صوت تضرُّعاتى.

ومن المزمور ١٤١ :

يارب إليك صرخت . أسرع إلىَّ. اصغ إلى صوتى عندما أصرخ إليك لتستقيم صلاتى قدامك. لا تُمِلْ قلبى إلى أمر ردىء.

هذه مجرد عينة من تضرعات داود إلى الله كي يحميه من أعدائه الذين كانوا يطاردونه فى كل مكان: شاول من ناحية والفلسطينيين من ناحية أخرى. ولجأ داود إلى مغارة تسمى مغارة عَدُلَّام Adullam وهى حاليا مغارة الشيخ مدكور حوالى ٢٧كم جنوب غرب أورشليم والمغارة طولها أكثر من ١٦٠ مترا وتتسع لمئات الرجال وتسمى أيضا مغارة وادى قريطون (قاموس الكتاب المقدس . ص٦١٣). وفيها اختبأ داود (شكل ٢٩ أ) .

ولما كان مختبئا فى المغارة تضرَّع بهذا المزمور (١٤٢) :

بصوتى إلى الرب أصرخ. بصوتى إلى الرب أتضرَّع. أسكب أمامه شكواى بضيقى قدامه أُخبر. عندما أعيت روحى فىَّ وأنت عرفت مسلكى. فى الطريق التى أسلك أخفوا لى فخًّا. صرخت إليك يارب. قلتُ أنت ملجئى. اصغ إلى صراخى لأنى قد تذلَّلت جدا. نجنى من مضطهدىَّ لأنهم أشد منى. أخرج من الحبس نفسى لتحميد اسمك.

وتضرع أيضا بهذا المزمور (١٤٣) :

يارب اسمع صلاتى. واصغ إلى تضرُّعاتى بأمانتك. استجب لى بعدلك لأن العدو قد اضطهد نفسى. سحق إلى الأرض حياتى. أجلسنى فى الظلمات مثل الموتى. أعيت فىَّ روحى.

تحيَّر في داخلي قلبي. لهجت بكل أعمالك. بصنائع يديك أتأمَّل. بسطت إليك يديَّ. أجبني يارب. فنيت روحي. لا تحجب وجهك عني. أسمعني رحمتك لأني عليك توكلت. عرِّفني الطريق التي أسلك فيها لأني إليك رفعت نفسي. أنقذني من أعدائي يارب. إليك التجأت أنت إلهي. من أجل اسمك يارب تحييني. بعدلك تخرج من الضيق نفسي. وبرحمتك تستأصل أعدائي وتُبيد كل مضايقي نفسي لأني أنا عبدك.

واستجاب الله لتضرعاته. فقد سمع إخوته أنه لجأ إلى مغرة عدُلَّام. فنزلوا إليه. هم وجميع بيت أبيه. واجتمع إليه كل رجل مضطهد ومظلوم فَتجمَّع له حوالى ٤٠٠ رجل. وجعل من المغارة مركز قيادة له. وأصبحت هذه المجموعة هي السند الحربي له ينطلق بها لعملياته ثم يعود إلى المغارة ثانية. وخاف داود على أبويه من بطش شاول لو بقيا في نطاق مملكة إسرائيل. وكانت راعوث - زوجة جد يسَّى والده - مؤابيةً من بيت شديد البأس في مؤاب. فذهب إلى «مصفاة مؤاب» شرقي البحر الميت قرب نهاية الأردن وطلب من ملك مؤاب أن يُبقى أباه وأمه عنده وتحت حمايته حتى يعلم ما ينتهى به المطاف. وظل والداه عند ملك مؤاب كل الأيام التى كان فيها داود مطاردا في الجبال. وبدأ أتباعه يتزايدون حتى وصلوا إلى ٦٠٠ رجل. وكان من بينهم كاهن اسمه جاد انضم إلى داود وأصبح الرائي الخاص به أى الكاهن الذي يستشيره قبل الإقدام على عمل ما. ويبدو أن النبوَّة لم تكن قد أعطيت بعدُ لداود. وكثر أعوان داود من الرجال الشجعان بالإضافة إلى المعونة الدينية بواسطة الكاهن جاد لإقامة الشعائر الدينية في هذا المجتمع الصغير. وظل شاول يطارد داود ويتبعه في صحراء يهوذا في الجنوب. وكان السكان المحليون يعطفون على داود ويساعدونه بالمؤن والزاد وبأخبار تحركات شاول حتى يستطيع الإفلات من رجاله. وكان داود في المقابل يحمي هؤلاء السكان من أعدائهم وخاصة أنه كان يُنظرُ إليه على أنه رئيس سبط يهوذا وملك إسرائيل المقبل. إلاَّ أنَّ هذا لم يمنع شاول من استمالة سكان قريتي زف Ziph وكارمل Carmel وهما قريتان في يهوذا جنوب حبرون (انظر شكل ٢٩ أ) فحاول سكان القريتين الإيقاع بداود لتسليمه لشاول ولكنه أفلت منهم. وكان من الصعب على داود إعاشه رجاله في صحراء يهوذا لقلة خيراتها فيضطر إلى اللجوء إلى القرى وفي هذا مخاطرة له ولرجاله فهو لا يضمن ولاء أهل هذه القرى. لذلك لجأ إلى عين جدى En Gedi على الشاطئ الغربي للبحر الميت حوالى ١٥كم شرقي حبرون وفيها نبع عين جدى من الماء العذب وهو نبع فياض وتنحدر مياهه من علو شاهق على جبل صخري وعند أسفله أرض خصبة. ولغزارة المياه تجود زراعة الكروم والنخيل فاتخذها داود قاعدة له ولرجاله إذ تتوافر فيها مقومات المعيشة ويسهل الدفاع عنها. وكان شاول ينزل في جبعة في منطقة بنيامين ولام البنياميين لأنهم لا يحيطونه بتحركات داود حتى يتمكن من القبض عليه .

«وألنا له الحديد» :

كانت إحدى العقبات التى يواجهها داود هى قلة السلاح بأيدى رجاله. فلم يكن أحد من رجاله يتقن صناعة الحدادة ذلك أن الفلسطينيين أثناء تسلطهم على أرض إسرائيل فرضوا عليهم ما يمكن تسميته «حظر التسلح» فمنعوهم من تعلم صنعة الحدادة أو إفتتاح دكاكين الحدادة أو أى «ورش» لطرق الحديد حتى إن الاسرائيلى إذا أراد أن يشحذ نصل منجله أو فأسه كان عليه أن يلجأ إلى أحد الفلسطينيين وقلة هى التى تعلمت هذه الصنعة فيما بعد وعملت فى خدمة شاول. وكانت مشكلة أن يحصل داود على السيوف وبلطات الحرب لرجاله. وفى يوم من الأيام استغرق فى حل لهذه المشكلة وتضرع بهذا المزمور (٩١): أقول للرب ملجئى وحصنى. إلهى فأتكل عليه لأنه ينجيك من فخ الصياد ومن الوباء الخطر. تحت أجنحته تحتمى. لا تخشى من خوف الليل ولا من سهم يطير فى النهار ولا من وباء يسلك فى الدجى ولا من هلاك يُفسدُ فى الظهيرة. يسقُطُ عن جانبك ألف وترى مجازاة الأشرار. لأنك قلت أنت يارب ملجئى. جعلت العلىَّ مسكنك. لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك. وعلى الأيدى يحملونك لئلا تصطدم بحجر رجلك. على الأسد والصل تطأ. الشبل والثعبان تدوس. لأنه تعلق بى أُنجِّيه. أرفعه لأنه عرف اسمى. يدعونى فأستجيب له. معه أنا فى الضيق. أنقذه وأريه خلاصى.

وهكذا لما دعا داود الله استجاب له وأنقذه وكان الخلاص أن ألان له الحديد. قيل فصار الحديد فى يده مثل العجين يُشكِّله كيف يشاء بدون حاجة إلى تسخين أو طرق. كما أن الله علَّمه طريقه صنع دروع سابغات تغطى الجسم كله ولا تعوق حركة المحارب فكانت هذه ميزة تفوَّق بها على أعدائه. فقد كانت الدروع تصنع على هيئة صفائح ثقيلة مكونة من قطع تغطى الصدر والأيدى والأرجل فكانت تعوق المحارب عن الحركة وتجعله فريسة سهلة لمن يهاجمه من الجنب أو الخلف. كما أن المفاصل لابد أن تكون مكشوفه ليتمكن المحارب من الحركة فيمكن إصابته فيها . فعلَّمه الله كيفية صنع دروع سابغات. والسبوغ هو التمام والكمال. ويقال أسبغ الله عليه نعمه أى أتمَّها:

«وألنَّا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدِّر فى السرد» . (١٠ – ١١ – سبأ).

والسرد النسج ودروع مسرودة أى مكوَّنة من حلقات يتداخل بعضها فى بعض كأنه النسيج. ويسرد الحديث إذا كان جيد السياق والمتابعة والنقاط مرتبط بعضها ببعض. وأُمِرَ داود أن يُحكِم وضع الحلقات ويقدِّر السرد.

«وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم» . (٨٠ – الأنبياء).

وبهذا تمكن داود أن يصنع لرجاله سلاحا يفوق مالدى أعدائه. وتمكن من صد هجمات مطارديه. وشجَّع هذا الكثيرين على الانضمام إليه وتزايد أعوانه وأصبح يسيطر على منطقة

كبيرة من أرض يهوذا في حين كان شاول يكتسب كل يوم كراهية بني إسرائيل وإن كان يُخضعهم بالخوف والتسلُّط عليهم.

مذبحة نوب وكهنتها :

قلنا (ص ١٠١) إن داود كان قد هرب إلى نوب وكان فيها دواغ الأدومي رجل – كما تصفه التوراة – مملوء شر وجاسوس لشاول. أسرع إلى شاول وأخبره أن أخيمالك الكاهن تستَّر على داود وأعطاه من الخبز المقدس وأعطاه سيف جليات. فأرسل شاول وأحضر أخيمالك كاهن نوب وجميع أهل بيته وجميع كهنة نوب. وسأل شاول أخيمالك لماذا ساعد داود. فأجابة ومَن من جميع عبيدك مثل داود. أمين وصهر الملك. وصاحب سرِّك ومُكرَّم في بيتك. ولكن شاول حكم عليه بالقتل وأمر السعاة بتنفيذ الحكم فلم يمتثلوا. فأمر دواغ الأدومي فقام بقتل أخيمالك وجميع أهل بيته وقتل من الكهنة ٨٥ رجلا. ثم تحوَّل إلى نوب نفسها وقتل جميع أهلها. الرجال والنساء والأطفال والرضَّع وحتى البهائم. كل ذلك حسب أمر شاول. ولم ينج أحد إلا ولد واحد لأخيمالك (اسمه أبياثار) هرب إلى حيث يقيم داود وأخبره بخبر مذبحة الكهنة وأهل نوب. فطمأنه داود على حياته وضمَّه إلى رجاله وصار رئيس كهنة له. وقال داود هذا المزمور (٥٢) ينعى فيه على دواغ الأدومي دوره في مذبحه الكهنة وأهل نوب: «لماذا تفتخر بالشر أيها الجبار. رحمة الله هي كل يوم. لسانك يخترع مفاسد كموسى مسنونة يعمل بالغش. أحببتَ الشر أكثر من الخير. والكذب أكثر من التكلُّم بالصدق. أحببتَ كل كلام مهلك ولسان غش». ثم يؤكد له أن كلامه الذي تسبَّب في هلاك أشخاص أبرياء فإن الله سيجازيه به فقال: «أيضا يهدمك الله إلى الأبد. يخطفك ويقلعك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء فيرى الصدِّيقون ويخافون وعليه يضحكون: هو ذا الإنسان الذي لم يجعل الله حصنه. بل اتكل على كثرة غناه واعتزَّ بفساده». وبالمقابلة بهذا المصير لدواغ الأدومي يرى داود نفسه كشجرة زيتونة مورقة ناضرة مثل تلك الأشجار التي لا تزال تنمو على منحدرات نوب فيقول: «أما أنا فمثل زيتونة خضراء في بيت الله. توكلت على رحمة الله إلى الدهر وإلى الأبد. أحمدك إلى الدهر يارب لأنك فعلتَ. وانتظِرُ اسمك فإنه صالح قدام أتقيائك».

داود يحرر قعيلة :

كان الفلسطينيون قد هاجموا بلدة قعيلة Keilah (وهي مدينة في يهوذا على بعد ٣٠كم جنوب غرب أورشليم) ونهبوها واحتلوا مساكنها. وأُوحي إلى داود أن يذهب ويحارب الفلسطينيين ليحرر المدينة. وخاف رجاله من مجابهة الفلسطينيين ولكن الله أوحى إليه أنه سيؤيدهم وينصرهم. فتشجَّع رجاله. فذهب إلى قعيلة وحارب الفلسطينيين وهزمهم واستولى على مواشيهم وحرَّر المدينة وسكَّانها. وأقام بالمدينة هو ورجاله فترة من الوقت.

شاول يطارد داود في برية يهوذا :

فرح شاول لما علم أن داود موجود بمدينة قعيلة فعزم على أن يحاصر المدينة ويقبض على داود ويقتله. واستشار داود الرب سائلا: هل يسلمه أهلها؟ فأتاه الوحى أنهم سيسلمونه إلى شاول لو جاء إلى المدينة لأخذه ولن يدافعوا عنه. فخرج منها ونجا بنفسه ولجأ إلى برية زيف وهى المنطقة الوعرة التى تقع جنوب شرق حبرون وعلم شاول أن داود ترك قعيلة فعدل عن القدوم إليها. ثم جاء الزيفيون إلى شاول فى جبعة وأخبروه أن داود يختفى فى تل حخيلة قريبا من زيف. فقام شاول ونزل ومعه ٣٠٠٠ رجل إلى بريَّة زيف لكى يفتش على داود فى التلال والكهوف الموجودة بها.

ولجأ داود إلى الله وتضرَّع إليه بهذا المزمور (٥٤).

اللهم باسمك خلِّصنى. وبقوَّتك احكم لى. اسمع يا الله صلاتى. اصغ إلى كلام فمى لأن غرباء قد قاموا علىَّ وعُتاة طلبوا نفسى. لم يجعلوا الله أمامهم. هوذا الله معين لى. (ثم يدعو على أعدائه) يرجع الشر على أعدائى. بحقِّك أفنهم. أحمدُ اسمك يارب لأنه صالح لأنه من كل ضيق نجانى. وبأعدائى رأت عينى.

وفى المزمور (٥٥) يقول :

اسمع يا الله صلاتى ولا تتغاضى عن تضرُّعى. اسمع لى. واستجب لى. أتحيَّر فى كربتى واضطرب من صوت العدو. أهلكهم يارب فرِّق ألسنتهم. لأنى قد رأيت ظلما وخصامًا فى المدينة. نهارا وليلا يحيطون بها على أسوارها. أما أنا فإلى الله أصرخ والرب يخلِّصنى. مساء وصباحا وظهرا أشكو وأنوح فيسمع صوتى. الق على الرب همك فهو يعولك. لا يَدَعُ الصدِّيق يتزعزع إلى الأبد. وأنت ياالله تُحدِّرُهُم إلى جب الهلاك. رجال الدماء والغش لا ينصفون أيامهم. أما أنا فأتكل عليك.

يوناثان بن شاول يبايع داود :

وبحث يوناثان عن داود صديقه وذهب إليه وأيَّده وقال له: لا تخف لأن يد شاول أبى لن تجدك وأنت تملك على إسرائيل وأنا أكون لك ثانيا. وشاول أبى أيضا يعلم بذلك. وتعاهدا على الإخلاص وقطعا عهدا أمام الرب وأقام داود فى البرية أما يوناثان فعاد إلى بيته.

داود يتعفَّف عن قتل شاول :

ظفر داود بشاول مرتين وكان فى إمكانه أن يقتله ولكنه لم يفعل ليُظهر له أنه لا يكن له حقدا أو ضغينة علَّه يكف عن مطاردته وقد حدثت المرة الأولى كما يلى :

قلنا إن داود لجأ إلى حصون الغاب فى تل حخيلة فى برية زيف وصعد الزيفيون إلى جبعة حيث يقيم شاول ليحرضوه على داود ويُسلِمُوه إليه. وأحسَّ داود بذلك فترك حخيلة ونزل إلى

«برية معون» ومعون بالعبرية معناها سكن. ويوجد حاليا جبل مخروطي الشكل ١٣كم جنوبي حبرون يسمى «معين» ويُرجّح أنه هو معون (قاموس الكتاب المقدس ص ٩٠٩). واستجاب شاول للزيفيين ونزل برجاله للإمساك بداود. ولكن الفلسطينيين انتهزوا فرصة انشغال شاول بمطاردة داود وبدأوا يغيرون على المدن الإسرائيلية فترك شاول داود مؤقتا ورجع لقتال الفلسطينيين وصد غاراتهم. وكان داود قد عاد إلى عين جدي. ولما فرغ شاول من حرب الفلسطينيين عاد لمطاردة داود. ولجأ شاول إلى كهف ليستريح فيه. وكان داود ورجاله جلوسا في مغارات متفرعة من الكهف نفسه. فقالوا له: لقد حان الوقت لتنتقم من عدوك الذي يطاردك في كل مكان. فقام داود وقطع قطعة من جبة شاول وهو نائم وقال لرجاله: حاشا لي من قبَل الرب أن أقتل سيدي مسيح الرب فأمد يدي إليه. ومنعهم من إلحاق أي أذى بشاول. وقام شاول وخرج من الكهف ذاهبا في طريقه. وهنا خرج داود من الكهف ونادى عليه وقال له: انظر هاهو طرف جُبّتك في يدي ولو شئت لقتلتك. ولكني لم أفعل لأن ليس في يدي شر ولا جرم. ولم أخطيء إليك وأنت تتصيّدني لتقتلني يقضي الرب بيني وبينك. وينتقم الرب لي منك. ولكن يدي لا تكون عليك. وأظهر شاول ندمه وعاهد داود ألاّ يضرهُ بعد الآن. وعاد شاول إلى بيته في جبعة وذهب داود ورجاله إلى قواعدهم في البرية.

وفاة صموئيل النبي :

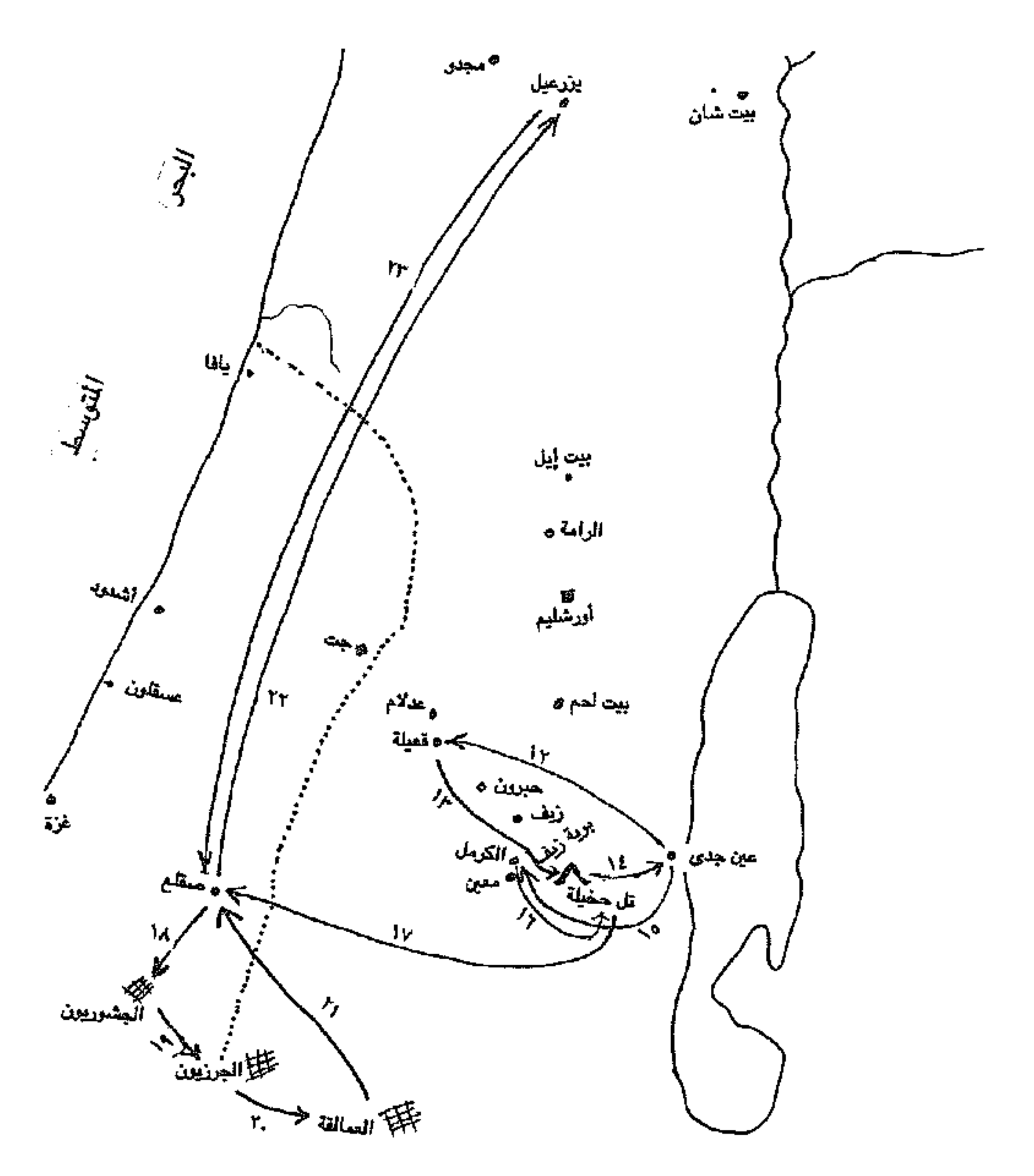
تقول التوراة (١ صموئيل ٢٥:١) ومات صموئيل فاجتمع إسرائيل وندبوه ودفنوه في بيته في الرامة. ونزل داود إلى قرية «معون» في برية معون جنوب حبرون.

داود وأبيجال :

كان نابال رجلا من بلدة «الكرمل» وهي بلدة في جبال يهوذا تقع ٢ كيلو متر شمال بلدة معون – المذكورة أعلاه – وكان لنابال ثروة عظيمة ٣٠٠٠ من الغنم و ١٠٠٠ من المعز. وكان داود ينزل في بلدة معون فأرسل رسلا إلى نابال يذكر له فيها أنه – أثناء مطاردات شاول له – لم يُغِرْ على ممتلكاته بل كان دائما يتوخى سلامتها والمحافظة عليها. وطلب منه عدة خراف لرجاله. فرفض نابال بوقاحة. فأزمع داود تأديبه وقاد ٤٠٠ من رجاله وذهب لمهاجمته. وعلمت «أبيجال» زوجة نابال بسلوك زوجها الشائن مع داود والخطر المحدق بزوجها فأخذت بنفسها حمولة كبيرة من الخبز والحبوب والنبيذ على حمير وقادتها مع عبيد لها إلى حيث داود ورجاله واعتذرت له عن مسلك زوجها ورجته أن يعفو عن وقاحته في الرد عليه. ورجته أيضا ألا يحمل في نفسه ضغينة على زوجها وعندما يصير الأمر إليه في المستقبل ويصبح ملكا على إسرائيل لا يقتله. وذكّرته بأنه – داود – كريم مع أعدائه لم يخضّب يده بدم شاول الذي يطارده فأحرى به ألا يسفك دما انتقاما لنفسه. فقال داود لأبيجال: مبارك الرب إله إسرائيل الذي أرسلك هذا اليوم لاستقبالي. ومبارك عقلك ومباركة أنت لأنكِ منعتني اليوم من إتيان الدماء وانتقام يدي

شكل ٣٠ – مطاردات شاول لداود (أ) .

١ – من جبعة إلى الرامة .
٢ – من الرامة إلى نايوث .
٣ – عودة إلى الرامة .
٤ – إلى بيت لحم .
٥ – إلى نوب .
٦ – إلى جت .
٧ – إلى عدلام .
٨ – إلى مصفاة مؤاب .
٩ – إلى صحراء يهوذا .
١٠ – إلى زيف .
١١ – إلى عين جدى .



شكل ٣١ – مطاردات شاول لداود (ب) .

١٢ – من عين جدى إلى قعلية .
١٣ – إلى برية زيف وتل حخيلة .
١٤ – إلى عين جدى .
١٥ – إلى الكرمل . نابال .
١٦ – إلى حخيلة .
١٧ – إلى صقلع .

١٨ محاربة الجشوريين .
١٩ – محاربة الجرزيين .
٢٠ – محاربه العمالقة .
٢١ – العودة إلى صقلع .
٢٢ – إلى يزرعيل .
٢٣ – العودة من يزرعيل إلى صقلع .

لنفسى. وأخذ داود ما أتت به من زاد له ولرجاله وقال لها: اصعدى بسلام إلى بيتك. قد سمعت لصوتك. وترك داود الرجل ليقتصَّ الرب منه. ولما عادت أبيجال إلى بيتها كان نابال قد أولم وليمة كبيرة احتفالا بجزِّ صوف غنمه. وشرب كثيرا من الخمر. وبعد عشرة أيام مات. ولما علم داود بموته قال: مبارك الرب الذى انتقم لى من نابال وأمسك يدى عن الشر وردَّ الرب شر نابال على رأسه. وكان داود قد أُعجب برجاحة عقل أبيجال وبجمالها. فلما انقضت عدَّتها أرسل يخطبها فوافقت فتزوَّجها وشاطرته حظه وتنقلاته. وكانت ضمن من أسرهم العماليق فى بلدة «زقلاج» Ziklag كما سيأتى فيما بعد وحررها داود ورافقته إلى حبرون حينما تُوِّج ملكا على إسرائيل وهى والدة ابنه «كيلاب» Chileab .

داود يظفر بشاول ولا يقتله :

المرة الثانية ظفر داود بشاول وكان فى مقدوره أن يقتله ولكنه تورَّع عن قتله. كان ذلك حين راح الزيفيون يحرِّضون شاول على داود المرة الثانية وأخبروه أنه نزل فى حخيلة فقام شاول من جبعة ونزل إلى برية زف ومعه ٣٠٠٠ من رجاله ونصب خيمته هناك. وعلم داود عن طريق جواسيسه المكان الذى نزل به شاول. فتسلل ليلا ومعه نفر قليل من رجاله إلى حيث خيمة شاول وبجوارها خيمة أبنير رئيس جيشه. وكان شاول نائما ورمحه مركوز فى الأرض عند رأسه. فهمس رجال داود مزَيِّنين له أن يضربوا شاول بالرمح ويقتلوه. فرفض داود قائلا: لا تُهلكه. فمَنْ الذى يمد يده إلى مسيح الرب ويتبرأ؟ حيٌّ هو الرب. سوف يضربه أو يأتى يومه فيموت أو ينزل إلى الحرب ويهلك. حاشا لى من قِبَل الرب أن أمد يدى إلى مسيح الرب. وأخذ الرمح الذى عند رأسه وكوز الماء وذهبوا. وفى الصباح وقف داود على رأس الجبل المقابل لخيمة شاول ورجاله ونادى على أبنير ووبَّخه لأنه لم يحرس سيده شاول الليلة الماضية وأراه رمحه الذى أخذه وكوز الماء وأنه كان فى إمكانه أن يقتل شاول ولكنه لم يفعل. ولما علم شاول بما حدث اعترف بخطئه فى حق داود وطلب منه أن يعود لخدمته متعهِّدا له ألا يسىء إليه فى المستقبل. ولكن داود رفض وطلب منه أن يرسل أحد غلمانه ليأخذ رمحه. ثم رجع شاول إلى جبعة. وفكَّر داود فى مكان يهرب إليه ولا تصل إليه يد شاول.

داود يتمركز فى أرض الفلسطينيين :

كان داود قد ضاق بمطاردات شاول المستمرة. كما أنه لم يشأ أن تكون نهاية شاول على يديه. فرأى أن خير وسيلة هى أن يلجأ إلى أرض الفلسطينيين. فذهب إلى «جت» وملكها أخيش واستأذن منه أن ينزل فى «صقلغ Ziklag » التى تقع فى جنوب أرض الفلسطينيين ٢٢كم جنوب شرقى غزة. وهى فى الأصل كانت إحدى مدن شمعون. ثم لما ذاب سبط شمعون فى سبط يهوذا أصبحت إحدى مدن يهوذا ولكن الفلسطينيين استولوا عليها منذ مدة طويلة. ولعل ذلك كان هو السبب فى أن أخيش سمح له بالإقامة فيها إذا لو حاول شاول استردادها

فسيكفيه داود عبء الحرب إذ سيدافع عنها حتى لا تقع فى يد شاول. فضلا عن كونها فى الجنوب بعيداً عن المدن ذات الأغلبية الفلسطينية حتى لا يحدث احتكاك بين الفريقين. أما من وجهة نظر داود فلعل السبب الذى جعله يختارها لإقامته فهو وجود جالية كبيرة من بنى إسرائيل بها فضلا عن وقوعها فى الجنوب بعيدة عن أعين الفلسطينيين مما يعطيه حرية فى اختيار الأماكن التى ستكون هدفا لهجماته.

قلنا إن داود ذهب إلى أخيش ملك جت وكان هو الذى يترأس اتحاد الفلسطينيين فى ذلك الوقت وطلب الإذن لنفسه ولزوجته ورجاله بالإقامة فى صقلغ فأذن له. ولعله كان من أقسى المواقف على داود أن يتظاهر بموالاته للفلسطينيين في حين أنه لم يكن كذلك. وكان كل ما يطمع فيه هو قطعة من الأرض يأمن فيها على نفسه وعلى رجاله يجعلها مركزا وينطلق منها إلى عملياته. وانضم إليه فى صقلغ عدد كبير من بنى إسرائيل من أسباط مختلفة. فمن سبط بنيامين – الذى منه شاول – انضم إليه أخيعزر ومعه عدد كبير من الرجال: ومن بنى جاد انضم إليه عدد كبير أيضا يرأسهم عازر ومن سبط يهوذا رجال كثيرون. فخرج داود لاستقبالهم وقال لهم: إن كنتم قد جئتم بسلام إلىّ كى تساعدونى يكون لى معكم قلب واحد. وإن كنتم جئتم لكى تدفعونى لعدوّى (شاول) ولا ظلم فى يدى فلينظر إله آبائنا وينصف. فرد رؤساء الجماعات قائلين: نحن ياداود معك. سلام لك وسلام لمساعديك لأن إلهك معينك. فضمهم داود إلى رجاله الذين زاد عددهم كثيرا وبلغوا أكثر من ٦٠٠٠ رجل (أيام أول ١٢).

داود يحارب أعداء إسرائيل :

الجشوريون قبيلة من القبائل الكنعانية كانت تقطن جنوب فلسطين فى السهل الساحلى. ويجاورهم شرقا قبيلة الجرزيون فى جنوب يهوذا ويليهم العمالقة (شكل ٣١). وكانت هذه القبائل كثيرا ما تهاجم سكان يهوذا وتستولى على مواشيهم ومحاصيلهم. وتظاهر داود بأنه خارج ليحارب الإسرائيليين فى جنوب يهوذا وحارب هذه القبائل وعاد بالغنائم وأرسل جزءا منها إلى أخيش ملك جت ولما سأله عن مصدرها أخبره بأنه أغار على جنوب يهوذا وسرّ أخيش إذ اعتقد أن داود أصبح مكروها لدى الإسرائيليين وأنه بذلك سيكون طوع يديه. وأرسل داود جزءا من الغنائم إلى رؤساء يهوذا فشكروا له صنيعه بأن منع عنهم غارات هذه القبائل وصار محبوبا لديهم.

الاستعداد لمعركة مع الفلسطينيين :

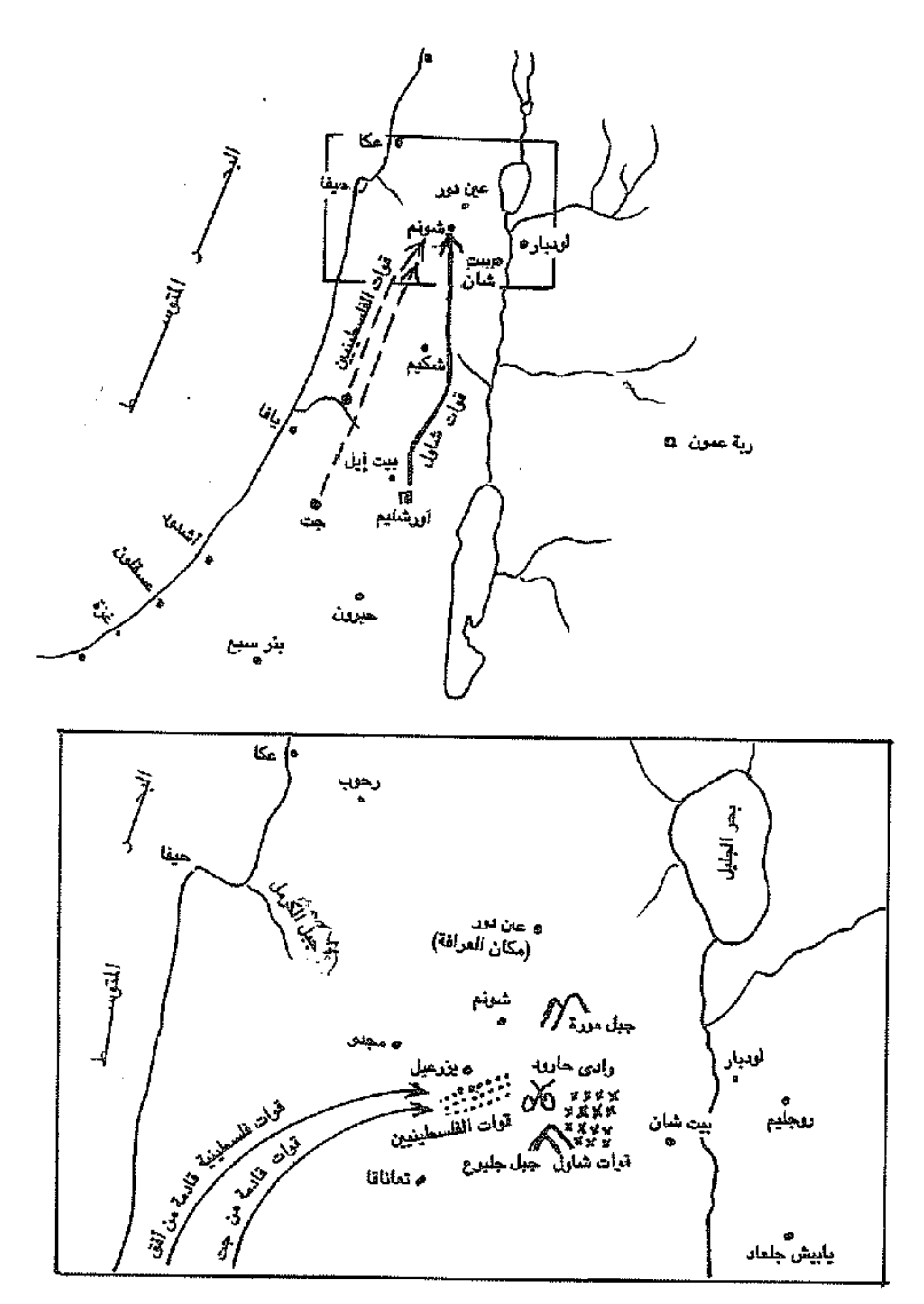
فرح الفلسطينيون لما هو حادث من انشقاق فى صفوف بنى إسرائيل وانشغال شاول بمطاردة داود فجمعوا جيوشهم بقيادة أخيش ملك جت لمحاربة إسرائيل. ولما يعلمه من عداوة بين داود وشاول فإن أخيش طمع فى أن ينضم إليه داود فى محاربة شاول فقال له: اعلم يقينا أنك ستخرج معى فى الجيش أنت ورجالك. كان داود فى موقف حرج. فهو لا يريد محاربة

قومه. كما لا يريد إغضاب الفلسطينيين وهو نازل في أرضهم. فردّ رداً دبلوماسيا فقال: لذلك أنت ستعلم ما يفعل عبدك.

كان الفلسطينيون قد قرروا مهاجمة إسرائل من أقصى الشمال. ولعلهم أرادوا أن يتجنبوا الاشتباك في منطقة الوسط الجبلية وذات الكثافة السكانية العالية مما يكبدهم خسائر فادحة وخاصة أن بني إسرائيل يسيطرون على أعالي الجبال. في حين أن الشمال سهل منبسط ويسكنه سبطا يساكر وزبولون وهما من أضعف الأسباط. لذلك سار الفلسطينيون من جت إلى شونم Shunem التي تقع ١٥كم شرقي مجدو عند سفح جبل مورة في حين نزل شاول وقواته عند جبل جلبوع Gilboa – ١٠كم إلى الجنوب من جبل مورة (شكل ٣٢).

بعد مذبحة كهنة نوب (ص ١٢٢) كان كل رجال الدين قد ابتعدوا عن شاول وكذلك كل العرافين والرائين. وكان صموئيل النبي قد مات. وأراد شاول أن يستطلع رغبة السماء في هل يحارب الفلسطينيين أم لا. فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالإلهام. وأُخبر عن امرأة تصاحب الجان ويمكنها تحضير الأرواح تسكن في عين دور Endor ٦ كم شمال جبل مورة. وخوفا من أن ترفض طلبه لو علمت أنه شاول الملك فإنه تنكَّر في ثياب بسيطة وذهب ومعه رجلان من أتباعه وجاءوا إلى المرأة ليلا وبالطبع لم تعرف أنه الملك شاول فقالت له خائفة: أنت تعلم أن شاول قتل جميع العرافين والمتنبئين وأخاف أن يعرف عني فيقتلني. فحلف لها بالرب أنه لن يلحقها أذى. فسألته عن الروح الذى يريد تحضيره. فطلب منها أن تُحضِّر روح صموئيل النبي. فلما فعلت وحضر الروح أخبرها أن ضيفها هو شاول نفسه. فصرخت المرأة خائفه وقالت لشاول: لماذا خدعتني. فقال لها لا تخافي. ثم قال الروح لشاول: لماذا أقلقتني بتحضير روحي؟ فقال شاول: قد ضاق بي الأمر جدا. الفلسطينيون يحاربونني والرب فارقني ولم يعد يجيبني فدعوتك لكي تخبرني ماذا أصنع. فقال صموئيل: ولماذا تسألني والرب قد فارقك وصار عدوك. وقد فعل الرب كما تكلَّم عن يدي وقد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داود لأنك لم تسمع لصوت الرب. وغدا أنت وبنوك تكونون معي (أي تكونون في عالم الأرواح أي ستُقتلون). وعاد شاول إلى معسكره.

وفي الصباح تقدم شاول بقواته إلى يزرعيل Jezreel وتقدمت قوات أخيش إلى يزرعيل أيضا وانضمت إليها باقي القوات الفلسطينية التي كانت متجمعة في أفيق. وأخبر أخيش باقي أقطاب الفلسطينيين أن داود منشق على شاول ولم ير منه طوال إقامته في صقلغ إلا خيرا وأنه قد طلب منه الخروج معه إلى الحرب. ولكن أقطاب الفلسطينيين وضعوا في الاعتبار أن داود قد ينقلب عليهم أثناء المعركة وينضم إلى قومه الإسرائيليين وطلبوا من أخيش أن يأمره بالعودة إلى الأرض التي عيَّنت لإقامته. وكلَّم أخيش داود وقال له إنه يثق فيه ولكن الأقطاب الفلسطينيين الآخرين لا يثقون فيه وأمره بالعودة. وفي الصباح عاد داود إلى صقلغ في الجنوب.



شكل ٣٢ – معركة شاول الأخيرة مع الفلسطينيين .

العماليق يهاجمون صقلع :

كان العماليق قد انتهزوا فرصة تحرك أخيش وجيشه إلى الشمال لمحاربة شاول. ورافقهم داود ورجاله كطلب أخيش (قبل أن يأمره بالعودة) وأرادوا الثأر لمهاجمة داود لمواقعهم. فتقدموا إلى صقلع وهاجموها وسبوا النساء والأولاد وكل من فيها واستولوا على البهائم وأخذوا الغنائم ثم أحرقوا المدينة. وكان من ضمن السبي زوجتا داود: أخينوعم اليزرعيلية وأبيجال. وأسرع بعض من نجوا ليخبروا داود الذى كان عائدا من الشمال فغضب ولجأ إلى الله يستطلع مشيئته. وكما سبق أن قلنا إن أبياثار ابن الكاهن أخيمالك كان قد نجا من مذبحة كهنة نوب (ص ١٠٥) ولحق بداود وأصبح كاهنا له. فطلب منه داود لبس الأفود الخاص لاستطلاع رغبة الإله فى ملاحقة العماليق أم لا. وكانت الإجابة أن يلحق بهم. فسارع داود فى ٤٠٠ من رجاله، وترك الباقين لحماية من بقى من النساء والأطفال والمتاع. وفى الطريق عثروا على رجل يكاد يموت جوعا وعطشا فسألوه عن حكايته فأخبرهم أنه عبد لأحد العماليق وأنهم كانوا قد أغاروا على جنوب يهوذا وحرقوا صقلع. وفى العودة مرض فتركه سيده فى العراء فأعطوه ماء وخبزا فاسترد عافيته. وطلبوا منه أن يدلهم على مكان العماليق نظير تأمينه على حياته فأرشدهم إلى الوجهة التى اتجه نحوها العماليق وقادهم إلى مكانهم فإذا هم منتشرون فى وادى يأكلون ويشربون ويرقصون فرحين بالغنائم الكثيرة التى غنموها. وانتظر داود إلى الليل حتى ناموا. ثم هجم عليهم هو ورجاله واستخلص منهم كل الأسرى وزوجتيه وكل الغنائم وقتل رجال العماليق كلهم ولم ينج منهم إلا بعض الغلمان الذين ركبوا جمالا وهربوا فى الصحراء. وعاد داود إلى صقلع. محمّلا بالغنائم التى غنمها من أسرى أحياء وإبل وأمتعة. وكان رأى المحاربين الذين رافقوا داود أن لا يعطوا من لم يشتركوا فى هذه الحرب نصيبا من الغنائم التى غنموها من العماليق ولكن داود حكم بأن المقيمين عند الأمتعه والنساء والأولاد لحراستهم قد أدوا واجبهم وجعلوا المحاربين يحاربون وهم مطمئنون إلى سلامة مؤخرتهم وقسّم الغنائم بالتساوى بين المحاربين والقاعدين عند الأمتعة فصارت تشريعا لبنى إسرائيل فى أجيالهم التالية. وكان من حكمته أيضا أنه أرسل جزءا من الغنائم إلى شيوخ يهوذا فى المدن الهامة: بيت إيل – راموث – عروعير وغيرها من المدن التى تردد عليها هو ورجاله أثناء مطاردات شاول له فسُرُّوا جميعا وشكروا صنيعه.

شاول والفلسطينيون :

أما فى شمال إسرائيل فقد دارت المعركة بين شاول ورجاله وبين الفلسطينيين قرب مدينة يزرعيل وانهزم الإسرائيليون وسقطوا قتلى فى جلبوع وقُتِل يوناثان وأبيناداب وملكيشوع أبناء شاول وجرح شاول جرحا عميقا وكان ألمه شديدا فطلب من حامل سلاحه أن يجهز عليه حتى لا يقع أسيرا فى يد الفلسطينيين فيذلونه فرفض. وتقول التوراة (١ صموئيل ٣١) إن شاول

انتحر بأن غرس سيفه في الأرض وسقط عليه فمات وكذلك فعل حامل سلاحه. وفى رواية أخرى (٢ صموئيل ١) إنه لما جرح فى المعركة ورأى مركبات وفرسان العدو تقترب منه رأى بجواره رجلا من العماليق الذين كانوا يحاربون فى صفوف الفلسطينيين. فطلب منه أن يقتله ففعل.

وفى اليوم التالى للمعركة جاء الفلسطينيون ليتعرَّفوا على القتلى. وأخذوا رأس شاول وسلاحه ووضعوها فى بيت عشتاروت وسمَّروا جسده على سور «بيت شان» وكذلك فعلوا بأجساد أبنائه الثلاثة. ولما سمع سكان يابيش جلعاد بما فعل الفلسطينيون قام جماعة شجاعة من رجالهم بالليل وأخذوا جسد شاول وأبنائه وعادوا بها إلى يابيش جلعاد وأحرقوها ثم دفنوا عظامهم تحت أثلة هناك وصاموا سبعة أيام.

داود بعد موت شاول :

عاد داود من حرب العماليق فى الجنوب وأقام فى صقلغ يومين. وفى اليوم الثالث أتى الرجل من العماليق الذى قتل شاول وأخبر داود أن شاول وأبناءه الثلاثة قد قتلوا فى المعركة وأن الإسرائيليين قد انهزموا شر هزيمة. وسأله داود كيف عرف أن شاول قد مات فأخبره أنه تصادف أن كان خلف شاول لما جرح وطلب منه أن يقتله ففعل وأخذ الإكليل الذى على رأسه والسوار الذى على ذراعه وأحضرهما لداود. ولعل الرجل ظن أن داود سيُسرُّ بهذه الأخبار وقد يكافئه على قتله لشاول لمعرفته بالعداوة التى كانت بينهما. ولكن داود لام الرجل على أنه قد مد يده وقتل شاول الذى كان الرب قد مسحه ملكا على إسرائيل وقال له: دمك على رأسك لأن فمك شهد عليك قائلا أنت قتلت مسيح الرب . وأمر أحد غلمانه فضربه بالسيف فمات . وصام داود ذلك اليوم وأمر رجاله بصومه . ورثاه داود كما رثا صديقه يوناثان بهذا النشيد (٢ صموئيل ١:١٩):

الظبى يا إسرائيل مقتول على شوامخك. كيف سقط الجبابرة.
لا تُخبروا فى جت . لا تُبشِّروا فى أسواق أشقلون.
لئلا تفرح بنات الفلسطينيين. لئلا تشمت بنات الغلف .
ياجبال جلبوع لا يكن طلٌ ولا مطر عليكن ولا حقول تقدمات.
لأنه هناك طُرِحَ مجنُّ الجبابرة. مجن شاول بلا مسح بالدهن.
من دم القتلى . من شحم الجبابرة لم ترجع قوس يوناثان إلى الوراء.
وسيف شاول لم يرجع خائبا .
شاول ويوناثان المحبوبان والحُلوان فى حياتهما لم يفترقا فى موتهما.
أخف من النسور وأشد من الأسود .
يابنات إسرائيل ابكين شاول الذى ألبسكن قرمزا بالتنعُّم.

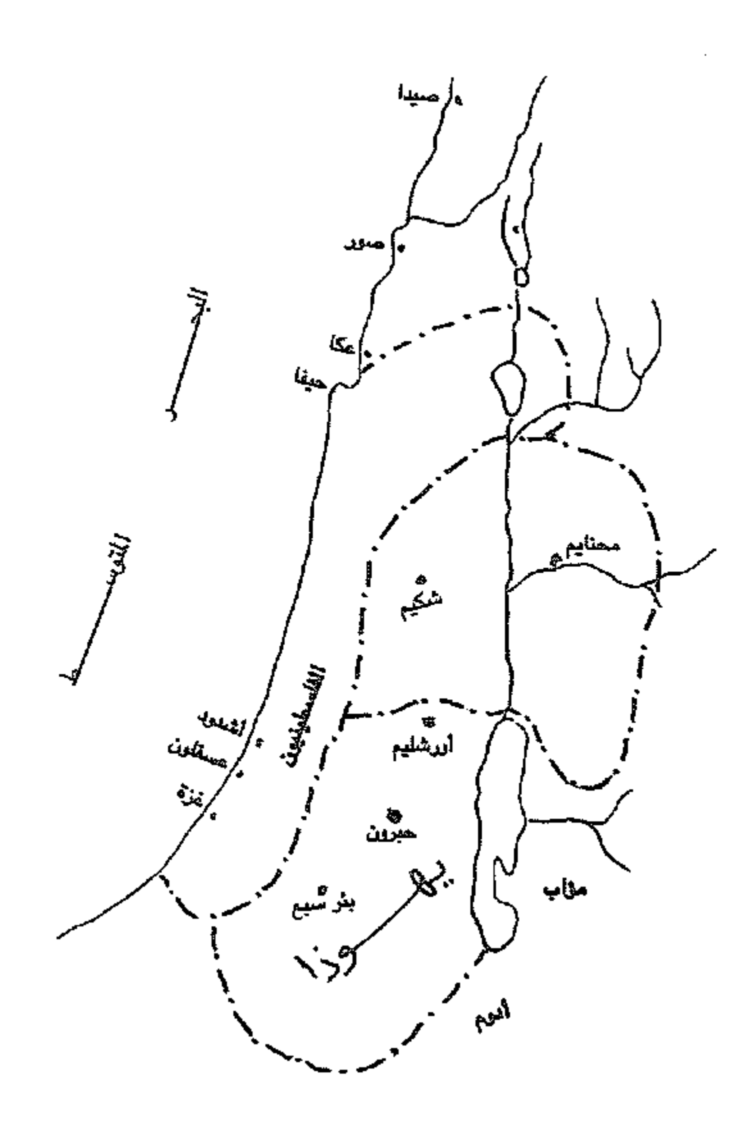
وجعل حلى الذهب على ملابسكن.
كيف سقط الجبابرة فى وسط الحرب ؟
يوناثان على شوامخك مقتول .
قد حزنت عليك يا أخى يوناثان .
كنت حلُوا لى جداً .
محبتك لى أعجب من محبة النساء .
كيف سقط الجبابرة . وبادت آلات الحرب ؟
وأمضى داود فى صقلع سنة وسبعة أشهر .

إسرائيل بعد مقتل شاول :

أُوحى إلى داود أن يصعد إلى حبرون فصعد هو وزوجتاه وأبناؤه ورجاله وأتى شيوخ يهوذا ومسحوا داود ملكا على بيت يهوذا .وكان عمر داود ٣٠ عاما. أما إبنير رئيس جيش شاول فإنه أخذ إيشبوشث ابن شاول إلى محنايم التى تقع فى شرق الأردن ٢٥كم على نهر يبوق وهى إحدى مدن اللاويين فى أرض جلعاد. ونصَّبه ملكا على جلعاد (شرق منسَّى وجاد) وعلى يزرعيل (منسَّى) وعلى أفرايم وسبط بنيامين الذى كان شاول ينتسب إليه. وكان الفلسطينيون بعد هزيمة شاول قد سيطروا على شمال إسرائيل الذى به مناطق دان ونفتالى وأشير وزبولون بالإضافة إلى السهل الساحلى الجنوبى. ولعل هذا ما جعل إيشبوشث يتخذ من محنايم عاصمة له إذ هى بعيدة عن الفلسطينيين. كما أنها بعيدة أيضا عن داود. وكان إيشبوشث فى الأربعين من عمره لما نودى به ملكا على الجزء الذى كان تحت سيطرته. ولكن مملكته لم يكن لها أساس دينى إذ كانت ترتكز على أساس وراثى وهو أن إيشبوشث هو ابن شاول ولا شيىء غير ذلك. ولم يكن هناك مرشح آخر مناسب إذ كان هو ابن شاول الوحيد الباقى على قيد الحياة بعد مقتل والده وإخوته الثلاثة فى المعركة مع الفلسطينيين. ولاشك أن الفلسطينيين أسعدهم انقسام بنى إسرائيل إلى مملكتين. فهم بالدرجة الأولى لم يكونوا مرتاحين حينما مُسِحَ شاول ملكا على كل إسرائيل بواسطة صموئيل النبى. وحتى لما انفصل عنه داود. فهو لم يزد عن كونه فردا واحدا جمع حوله بضع آلاف من الرجال ثم هو فى آخر الأمر لجأ إلى أرضهم وأقام فى صقلع وظنوه مواليا لهم ولم يهتموا كثيراً حينما تولى عرش يهوذا إذ ظنوا أنه سيظل على مهادنته لهم وسعدوا بانقسام بنى إسرائيل إلى مملكتين لعل التناحر بينهما يقضى على كل منهما فتخلو لهم الأرض.

داود وتوحيد إسرائيل :

اتبع داود – بعد توليه عرش يهوذا – سياسة حكيمة. وأول مابدأ به هو استمالة بيت شاول وبنى بنيامين – بأن أحضر عظام شاول ويوناثان من يابيش جلعاد ودفنهما فى قبر قيس –



شكل ٣٢ – فلسطين بعد موت شاول .

– داود ملكا على يهوذا وعاصمته حبرون .

– إيشبوشت فى جلعاد وعاصمته محنايم .

– الفلسطينيون وقد استولوا على شمال إسرائيل .

والد شاول – فى أرض بنيامين. ثم أحسن إلى بيت يوناثان صديقه فقدم مساعدات إلى كل الأحياء منهم ثم قال: هل يوجد أحد قد بقي من بيت شاول فأصنع معه معروفا من أجل يوناثان؟ وكان ليوناثان ابن أعرج الرجلين اسمه مفيبوشث. وبعد موت أبيه سكن فى بلدة لودبار وهى مدينة أم الديار الحالية ١٧كم جنوب شرق بحر الجليل (شكل ٣٣) فأرسل داود إليه وأنزله فى حبرون وردّ له كل الحقول والممتلكات التى كانت لشاول على اعتبار أنها كانت ستؤول إلى يوناثان ثم إلى مفيبوشث من بعده. وضمّه إلى حاشيته وجعله يأكل على مائدته وأسكنه فى أورشليم. ولعل هذا الفعل كان بُعدَ نظر من داود إذ أنه بهذا استمال قلوب عدد كبير من بيت شاول ومن البنياميين فلا يقفوا جميعا خلف إيشبوشث الذى نودى به ملكا فى محنايم. ثم أرسل داود رسلا إلى يابيش جلعاد الذين دفنوا عظام شاول وأبنائه وقال لهم: مباركون أنتم من الرب إذ فعلتم هذا المعروف بسيدكم شاول فدفنتموه. والآن ليصنع الرب معكم إحسانا وحقا. وأنا أيضا أفعل معكم هذا الخير لأنكم فعلتم هذا الأمر. والآن فلتتشدّد أيديكم وكونوا ذوى بأس لأنه قد مات سيدكم شاول وإياى مسح بيت يهوذا ملكا عليهم. ونلمح هنا الحكمة والدبلوماسية الفائقة فى رسالته فقد شكرهم وباركهم. ثم لم ينازعهم فيمن اختاروه ملكا عليهم بل طلب منهم أن يكونوا يدا واحدة «فلتتشددوا» وفى النهاية أخبرهم أن أهل يهوذا اختاروه ملكا عليهم وهى دعوة غير مباشرة لمبايعته.

لم يكن هناك مفر من أن تلتقى جيوش الطرفين فى معركة. رجال داود بقيادة يوآب ورجال إيشبوشث بقيادة أبنير. وكان اللقاء فى جبعون. وقبل المعركة الرئيسية اتفق القائدان على أن يتقابل ١٢ مقاتل من كل فريق وعلى نتيجة هذه المعركة الابتدائية يتقرر الفريق المنتصر وعلى المهزوم أن يخضع له. وانهزم جنود ابن شاول. ثم تقابل ألف من كل جيش فى معركة محدودة قتل فيها ٣٦٠ من رجال ابن شاول فى حين فقد جند داود ١٩ فقط. ثم دارت المعركة الرئيسية وكان النصر فيها حليف يوآب رئيس جيش داود. وبعد انتهاء المعركة بدأ كل فريق يلم شمل قواته تمهيدا للإنسحاب كل إلى قاعدته فى العاصمة. وكان عسائيل أخو يوآب رئيس جيش داود يطمع فى قتل أبنير رئيس جيش ابن شاول فتبعه وتبارزا ولكن أبنير تغلّب عليه وقتله وحزن يوآب على أخيه حزنا شديداً وحقد على أبنير ظانا منه أنه غدر بأخيه وخاصة أن المعركة كانت قد انتهت ولم يدرِ أن أخاه هو الذى بدأ المبارزة.

الظروف تخدم داود :

بدأت الظروف تخدم داود ليصبح ملكا على كل إسرائيل. ذلك أنه كانت هناك سُرِّية لشاول. فهى فى مرتبة أم إيشبوشث ابن شاول أو خالته. وكان أن ضاجعها أبنير رئيس الجيش. فغضب إيشبوشث جداً وأنّب أبنير على هذا الفعل. وردّ أبنير عليه بجفاء ومنّ عليه بأنه هو الذى أتى به ملكا على شمال إسرائيل وأنه هو الذى يحميه من يد داود. وسكت إيشبوشث

صاغرا إلا أن أبنير أصبح لا يأمن على نفسه خوفا من أن يقتله إيشبوشث جزاءً على فعلته. فقرر الانضمام إلى داود. وأرسل رسلا إلى داود يخبره أنه سينضم إليه ويؤيده في تنصيبه ملكا على إسرائيل كلِّها. ووافق داود ولكنه طلب منه أن يأتي معه بميكال ابنة شاول التي كان قد تزوجها بعد أن قتل جالوت. وقد سبق أن ذكرنا (ص ١٠٠) أن شاول كان قد طلَّقها منه وزوَّجها إلى فلطي بن لايش. فذهب أبنير إلى بيت فلطي وأخذ ميكال وسار بها في طريقه إلى حيث يقيم داود في حبرون. وتقول التوراة (٢ صموئيل ١٦:٣) إن فلطي كان يسير وراءها ويبكي حتى قرية بحوريم (٢,٥كم شمال شرق أورشليم) إلى أن أمره أبنير بالعودة وإلا تعرَّض للمتاعب فعاد. وقد استنكر بعض مفسِّري الكتاب المقدس هذا التصرف من داود. ولكن لو علمنا أن الشريعة اليهودية تجعل الطلاق حقا للرجل وحده ولا يجوز لولي أمر المرأة أن يطلِّقها من زوجها لأي سبب كان وما دام داود لم يطلق ميكال فزواجها منه قائم وزواجها من فلطي بن لايش زواج باطل. ولعل هذا أيضا كان من ذنوب شاول إذ تعدى شريعة الرب وزوَّج ابنته من آخر وهي لاتزال في عصمة زوجها داود. وكذلك كان فلطي متعدِّيا إذ قبل التزوج بامرأة رجل آخر. وكان ما فعله داود هو إصلاح الخطأ وردُّ الأمور إلى نصابها وصحَّح الخطأ الذي ارتكبه شاول. وكثيرا ما نقرأ في أخبار الحوادث حكما قضائيا بإعادة زوجة إلى زوجها الأول واعتبار زواجها الثاني باطلا شرعا وقد يكون مضى عليه عدة سنوات.

وجاء أبنير إلى حبرون ومعه ميكال فعادت إلى زوجها داود. وأولم داود وليمة حضرها شيوخ بيوت بنيامين وأفرايم ورؤساء جاد ومنسَّى. وراح أبنير يحثهم على مبايعة داود ملكا على كل إسرائيل. ثم طلب أبنير من داود أن يتركه يذهب ليحصل على مبايعة باقي الأسباط الذين كانوا مع إيشبوشث ابن شاول فتركه يذهب في سلام. وكان يوآب – رئيس جند داود – في هذه الأثناء في غزوة من الغزوات وعاد بغنائم كثيرة وعلم ما كان من مجيء أبنير وذهابه في سلام. فكلَّم يوآب داود وحذَّره من أبنير وأنه لا يُركن إلى وعوده. وأسرع يوآب – دون علم من داود – خلف أبنير فأدركه غير بعيد من حبرون وقتله بذنب أخيه الذي كان أبنير قد قتله كما ذكرنا في الصفحة السابقة. ولعل قتل أبنير كان قصاصا من الله لاضطجاعه مع سُرِّيَّة شاول والقتل هو حد الزنا في التوراة ولو أن هذا السبب لم يكن في ذهن يوآب حين قتله. بل قتله أخذا بثأر أخيه. ولما سمع داود بذلك قال: إني بريء أنا ومملكتي لدى الرب إلى الأبد من دم أبنير. فليحل على رأس يوآب وعلى كل بيت أبيه ولا ينقطع من بيت يوآب ذو سيل وأبرص وعاكز على العكازة وساقط بالسيف ومحتاج الخبز. وقال داود ليوآب ولجميع الشعب الذي معه مزِّقوا ثيابكم وتنطقُّوا بالمسوح والطموا أمام أبنير. وكان داود الملك يمشي وراء النعش. ودفنوا أبنير في حبرون. وأعلن داود الصيام ذلك اليوم وعلم الشعب كله أن داود لم تكن له يد في قتل أبنير.

علم إيشبوشت ابن شاول بأن أبنير انصرف في سلام من عند داود فظن أنه رفض انضمامه إليه وتجدد الأمل لديه أن يعود في خدمته فقد كان قائدا ماهرا. ولكن لما وصلته الأخبار بمقتله وهنت عزيمته وانتهز قائدان من قواد جيشه فرصة وتسللا إلى معسكره وكان نائما في سريره فقتلاه وقطعا رأسه وحملاها إلى داود في حبرون ظانين أنهما بذلك يتقربان إليه ولكنه قال لهما: إن الذي قتل شاول في ساحة القتال قد قتلتُه فكم بالحرى إذا كان رجلان باغيان يقتلان رجلا في بيته على سريره! وأمر غلمانه فقتلوهما. وأما رأس إيشبوشت ابن شاول فدفنوه في قبر أبنير في حبرون.

وهكذا خلص الأمر لداود دون أن يريق بنفسه قطرة دم واحدة من دماء أحد من بني إسرائيل. وجاء جميع أسباط شمال إسرائيل إلى داود في حبرون وبايعوه رئيسا عليهم. وبهذا أصبح داود ملكا على كل إسرائيل شمالها وجنوبها.

كان داود ابن ٣٠ سنة حين ملك في حبرون وبقي ملكا على يهوذا ٧,٥ سنة ثم ملك على جميع إسرائيل ويهوذا لمدة ٣٣ سنة.

أبناء داود :

ولد لداود وهو في حبرون ستة أبناء :

١ – ابنه البكر أمنون من أخينوعم اليزرعيلية .
٢ – ابنه كيلآب من أبيجال .
٣ – إبشالوم من معكة بنت تلماي ملك جشور .
٤ – أدونيا من حجِّيت .
٥ – شفطيا من أبيطال .
٦ – يثرعام من عَجلة .

أورشليم :

معنى أورشليم هو «مدينة السلام» أو «أساس الإله شاليم» (قاموس الكتاب المقدس، ص ١٢٩). وللمدينة عدة أسماء: يبوس – مدينة العدل – المدينة المقدسة – مدينة القدس. ويغلب في العربية اسم القدس. أما اسم يبوس فهو اسم رجل من عائلة كنعان بن حام بن نوح. واليبوسيون هم ذريته. وكوَّنوا قبيلة سكنت المدينة وسُمِّيت باسم جدهم «يبوس». وكانت المدينة صغيرة جدا في أول الأمر. وقاوم أهلها يشوع عند فتحه للأرض ولكنه هزمهم وقتل ملكهم وأعطى أرضهم لبنيامين. ولكن رجال يهوذا استولوا على المدينة لأنها كانت متاخمة لحدود سبطهم. ولكن اليبوسيين لم يسلِّموا قلعتهم بل سكنوا مع بني يهوذا والبنياميين وظلوا محتفظين بحصن المدينة. وليستطيعوا الصمود لأي حصار يفرض عليهم ولتوفير المياه لسكان

الحصن والمدينة فإنهم حفروا قناة بطول ٤٠ قدما ونفقا أفقيا بطول ٦٠ قدما ليأتوا بالمياه من عين كانت خارج أسوار المدينة. كما أن وجود المدينة فى أعلا الجبل أعطاها مركزا استراتيجيا حصينا يسهل الدفاع عنه. واشتهر عنها أنها لا تظهر عند الزحف عليها بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين. وقد رأى داود أن يبوس هى خير مدينة تصلح عاصمة لملكته. وتوصل يوآب رئيس جنده إلى خطة ذكية إذ أدخل أعوانا له عن طريق قناة المياه قاموا بفتح أبواب المدينة لباقى الجنود فباغت أهلها واستولى على المدينة وجعلها عاصمة لمملكة إسرائيل الموحدة. ولم يقم داود بطرد جميع اليبوسيين من المدينة بعد الاستيلاء عليها. بل أبقاهم بها ثم اشترى حقل أرومة اليبوسى وفيه بُنِيَ الهيكل فيما بعد. وتتكون المدينة وما حولها (شكل ٣٤) من خمسة تلال تحيط بها الوديان. وكانت مدينة يبوس الأصلية على التل الجنوبى الشرقى. أما التل الشرقى الأوسط فهو المكان الذى أقيم فيه الهيكل فيما بعد. أما التلال الأخرى فكانت خارج نطاق المدينة القديمة. وبدأ اسم صهيون يطلق على التل الذى به الهيكل ومن ثم أصبح يعرف بجبل صهيون. ويحيط بالمدينة عدة جبال: جبل الزيتون فى الشرق. وجبل دير أبو طور فى الجنوب ويسمى أيضا «تل المشورة الشريرة» وسلسلة جبال يهوذا الرئيسية فى الغرب. وعلى سفح التل الجنوبى الشرقى الذى كانت عليه مدينة يبوس القديمة كان يوجد الحصن الذى أطلق عليه مدينة داود وأصبح مقرا للحكم. وفى المستقبل بنى الهيكل على التل الشرقى مقابل الحصن.

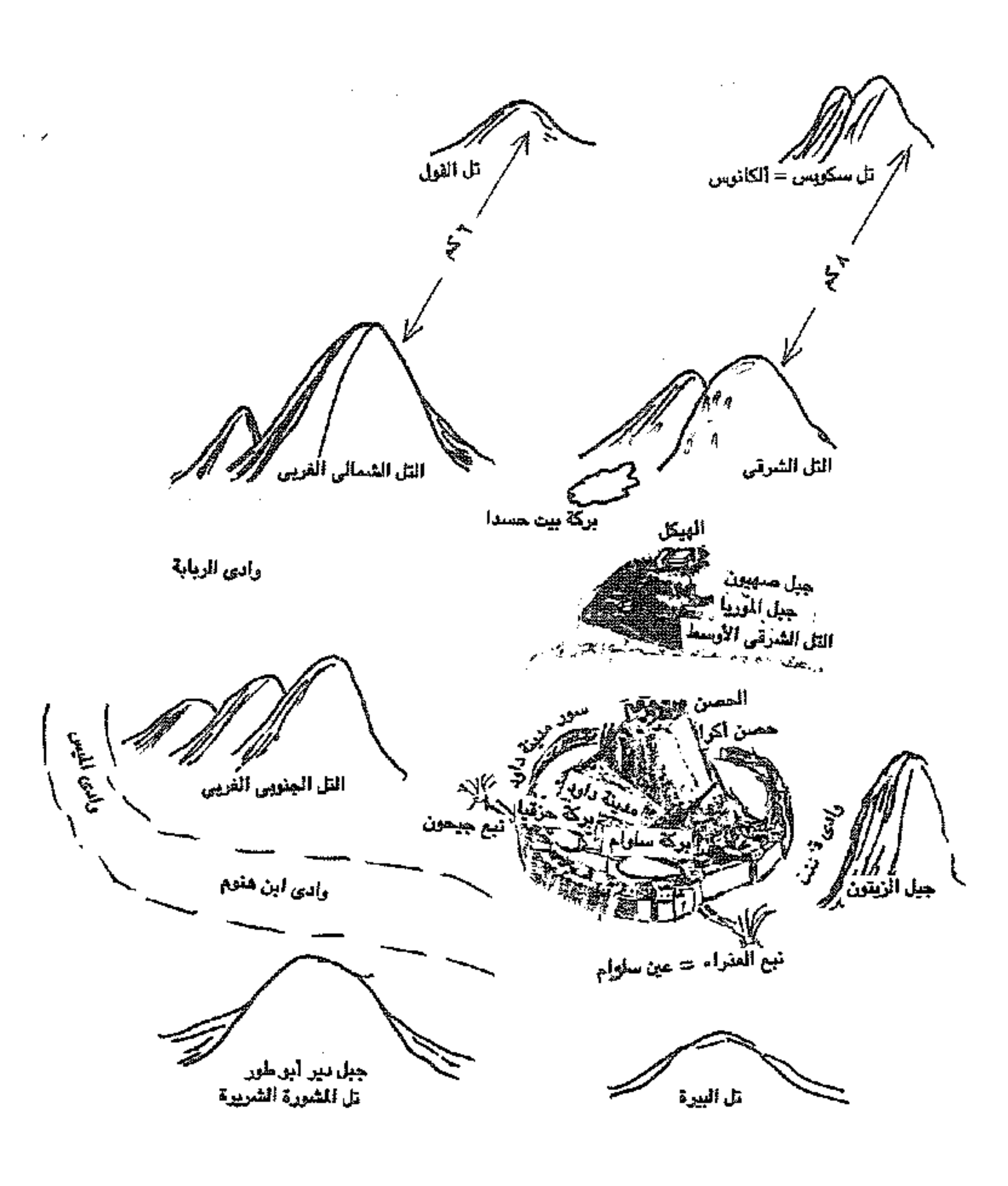
وأرسل حيرام ملك صور رسلا لتوثيق العلاقة مع داود وأرسل له خشب أرز ونجارين وبنائين فبنوا لداود بيتا وبيوتا لزوجاته وسراريه وأبنائه. وفى أسوار مدينة أورشليم الحالية باب يدعى «باب النبى داود» وفى السور برج بالقرب من «باب الخليل» يسمى «برج داود». وسنذكر تفاصيل أخرى عن المدينة عند الكلام عن بناء سليمان عليه السلام للهيكل (ص ١٧٣).

أبناء داود المولودون فى أورشليم :

ذكرنا فى الصفحة السابقة أبناء داود الستة الذين ولدوا فى حبرون. ثم ولد لداود فى أورشليم أحد عشر ابناً هم :

١ – شموع ويسمى أيضا شمعى من زوجته بثشوع بنت عميئيل .
٢ – شوباب أو شوبان " " " " " .
٣ – ناثان " " " " " .
٤ – سليمان من زوجته بثشبع التى كانت زوجة أوريا الحثى .

ثم سبعة أولاد لم تُذكر أسماء أمهاتهم : ٥ – يبحار ٦ – إليشوع ٧ – نافج ٨ – يافيع ٩ – أليشمع ١٠ – أليداع ١١ – أليفلط .



شكل ٣٤ – أورشليم القديمة عند أول إنشائها

(مدينة داود) .

إحضار التابوت إلى أورشليم :

وأعدَّ داود مكانا لتابوت الرب ونصب خيمة الاجتماع. ويقى إحضار التابوت. وكانت أحكام الشريعة أن التابوت غير مسموح لأحد إطلاقا أن يلمسه. بل كان يحمل على عصوين. وكان التابوت فى قرية يعاريم – ١٥كم غربى أورشليم (شكل ٢١ ص ٦٩) على الحدود بين يهوذا وبنيامين. وكان موجودا هناك منذ حوالى ٨٧ سنة وكما ذكرنا، ص ٧٠ ، كان التابوت موجودا أثناءها فى بيت أبيناداب وتقدَّس ابنه أليعازار لخدمة التابوت ومن بعده كان أبناؤه وأحفاده يُعنون به وكانوا على علم بقواعد معاملة التابوت إذ كانت أى مخالفة لهذه القواعد جزاؤها الموت.

وهكذا توجه داود فى ٣٠,٠٠٠ من رجاله وذهب إلى قرية يعاريم وحمل اللاويون التابوت من العصوين ووضعوه على عربة جديدة تجرها الثيران. وكان داود قد جمع كل بيوت إسرائيل إلى أورشليم لحضور إصعاد تابوت الرب إلى مكانه الذى أعده له. وكانوا يلعبون بالعيدان والرباب فرحين مهلِّلين. وأثناء المسير انحرفت الثيران وكاد التابوت أن يسقط فمدَّ عزَّة ابن أبيناداب يده ليمنع التابوت من السقوط. ولما كان غير مسموح لأحد إطلاقا أن يلمس التابوت فكان جزاء عزَّة أن أصيب بمرض فجائى ومات. وخاف الجميع بما فيهم داود نفسه وترك التابوت مكانه لمدة ٣ أشهر أمام بيت «عوبيد» وحلَّت البركة على بيت عوبيد بوجود التابوت. وعلم داود. فزال خوفه. فذهب وأصعد التابوت من أمام بيت عوبيد إلى مدينة داود. وتقدم الكهنة من بنى هارون وحملوا التابوت بالعصى على أكتافهم ليصعدوه إلى مكانه. وكانوا كلما خطوا بالتابوت ٦ خطوات يذبح ثورا وعجلا تقدمة للرب إلى أن أدخلوا التابوت فى مكانه فى وسط خيمة الاجتماع وسط إنشاد المغنيين وتهليل اللاويين. ثم ذبحوا سبعة عجول وسبعة كباش. وكان داود لابسا جُبة من كتان. ولما انتهى داود من إصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم الرب وقسَّم على كل آل إسرائيل من الرجال والنساء على كل إنسان رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب (أخبار أول ١٥: ٢٨). وعيَّن داود خداما من اللاويين لخدمة التابوت وجعل داود يحمد الرب بهذه الكلمات :

احمدوا الرب. ادعوا باسمه. أخبروا فى الشعوب بأعماله. غنوا له. ترنموا له. تحادثوا بكل عجائبه. افتخروا باسم قدسه تفرح قلوب الذين يلتمسون الرب. اطلبوا الربَّ وعزَّه. التمسوا وجهه دائما. اذكروا عجائبه التى صنع. آياته وأحكام فمه. ياذرية إسرائيل عبده وبنى يعقوب مختاريه. هو الرب إلهنا. فى كل الأرض أحكامه. اذكروا إلى الأبد عهده. غنوا للرب يا كلَّ الأرض. حدِّثوا فى الأمم بمجده وفى كل الشعوب بعجائبه لأن الرب عظيم ومفتخر جدا. وهو مرهوب فوق جميع الآلهة لأن آلهة الأمم أصنام وأما الرب فقد صنع السموات. الجلال والبهاء أمامه. العزة والبهجة فى مكانه. احمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته وقولوا خلِّصنا

يا إله خلاصنا واجمعنا وأنقذنا من الأمم لنحمد قدسك ونتفاخر بتسبيحك. مباركٌ الرب إله إسرائيل من الأزل وإلى الأبد. فقال كل الشعب آمين وسبَّحوا الرب (أخبار أول ٢٦:١٦).

رغبة داود فى بناء بيت للرب :

كان النبى المعاصر لداود – بعد وفاة صموئيل – هو ناثان. وأفضى إليه داود بما فى نفسه من أنه يسكن فى بيت من خشب الأرز فى حين أن تابوت الرب موضوع فى خيمة ولئن كان ذلك جائزا فى وقت موسى ويشوع عليهما السلام لأن بنى إسرائيل كانوا وقتئذ دائمى التنقل. ولكن الوضع تغيَّر الآن بعد أن استقروا فى الأرض مما يوجب بناء بيت للرب. وأوحى الله إلى ناثان النبى أن يخبر داود أنه سيكون هناك بيت للرب ولكنه لن يقوم هو ببنائه بل أحد أبنائه هو الذى يبنيه: «متى كَمُلت أيامك واضطجعت مع آبائك (أى تُوفِّى) أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبِّت مملكته. هو يبنى بيتا لاسمى. وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد» (صموئيل ثان ٧ : ١٢).

ورضى داود بما حكم الرب فقال: «عَظُمتَ أيها الرب الإله لأنه ليس مثلك وليس إله غيرك. ثبَّتَّ لنفسك شعبك إسرائيل شعبا لنفسك إلى الأبد وأنت يارب صرت لهم إلها. والآن ياسيدى الرب أنت هو الله وكلامك هو حق. وقد كلَّمت عبدك بهذا الخبر. فالآن ارتضِ وبارك بيت عبدك ليكون إلى الأبد أمامك». ورغبة من داود فى المشاركة فى بناء البيت فإنه جهَّز الحجارة اللازمة. واستورد أخشاب الأرز والسرو ودفع ثمنها لحيرام ملك صور.

فى حديث قدسى (الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية – محمد المدنى ص ٢٨) قال الله عز وجل لداود : ابن لى بيتا فى الأرض. فبنى داود لنفسه بيتا قبل البيت الذى أمر به الرب. فأوحى الله إليه: ياداود نصبت بيتك قبل بيتى. قال أى رب. هكذا قلتَ فيما قضيت. من ملك استأثر. ثم أمر فى بناء المعبد فلما تم السور سقط ثلثاه. فشكا ذلك إلى الله تعالى فأوحى الله إليه أنه لا يصلح أن تبنى لى بيتا. قال أى ربٍّ ولم؟ قال لما جرى على يديك من الدماء. قال أى رب. أو لم يكن ذلك فى هواك ومحبَّتك؟ قال بلى ولكنهم عبادى. أنا أرحمهم. فشقَّ ذلك عليه فأوحى الله إليه: لا تحزن فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان فى بنيانه. فلما تمَّ قرَّب القرابين وذبح الذبائح وجمع بنى إسرائيل فأوحى الله تعالى إليه: قد أرى سرورك ببنيان بيتى فسلنى أعطك. قال أسألك ثلاث خصال: حكما يصادف حكمك. وملكا لا ينبغى لأحد من بعدى. ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة أُخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. أما اثنتان فقد أعطيهما وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة. أخرجه الطبرانى فى الكبير عن رافع بن عمير.

حروب داود

١ – الحرب مع الفلسطينيين :

سمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكا على كل إسرائيل. وبالطبع ساءهم أن يتجمّع بنو إسرائيل من جديد تحت راية واحدة فتجمعوا لحربهم. وتوغّل الفلسطينيون شرقا وانتشروا فى وادى الرفائيين وهو وادى جنوب أورشليم بينها وبين بيت لحم. ولجأ داود إلى الحصن. ويرى ألبرايت أنه لجأ هو ورجاله إلى حصنه فى مغارة عدلاّم. ولكننا نرى أن عدلام بعيدة عن مكان المعركة إذ هى تقع حوالى ٣٠كم جنوب غرب أورشليم لذلك نرى أنه لابد لجأ إلى الحصن الذى بناه داخل أسوار أورشليم نفسها. ومن هناك هاجم الفلسطينيين وانتصر عليهم وقتل منهم الكثير. ثم أعاد الفلسطينيون تجميع فلولهم وانتشروا مرة ثانية فى وادى الرفائيين. واستخار داود الرب فأوحى إليه أن يكون هجومه من ورائهم على مؤخرة جيشهم مقابل أشجار البكا وهى عدة أشجار يتساقط منها عصير يشبه الدموع ولذلك سُمِّيت أشجار البكا وسُمِّى الوادى الموجودة به «وادى البكا».

وتقول التوارة إنه أوحى إليه أن يبدأ هجومه عندما يسمع صوت «خطوات فى رؤوس الأشجار» وهو إشعار بوجود التأييد الإلهى ويزيد من عزيمة الجنود الإسرائيليين وفى نفس الوقت يلقى فى قلوب الفلسطينيين الرعب إذ يظنون صوت الخطوات صادراً عن قوات أخرى قادمة للإشتراك فى المعركة ضدهم. وفعلا انتصر داود وطارد الإسرائيليون القوات الفلسطينية حتى جازر وجت واستولوا على المدينتين وهما من مدن الفلسطينيين الخمس الرئسية بالإضافة إلى احتفاظ داود بمنطقة صقلغ وما حولها وهكذا فإنه يكون قد استولى على $\frac{١}{٢}$ أرض الفلسطينيين تقريبا.

٢ – الحرب مع الأراميين (صوبة وأرام دمشق) :

كان هدد ملك دويلة صوبة (انظر الدويلات الأرامية الجزء الثانى ص ١٨٣ – شكل ٣٨) قد وسَّع سلطته ومدَّها حتى نهر الفرات وأصبح قوة تهدِّد مملكة إسرائيل فأخذ داود ١٧٠٠ فارسا و ٢٠,٠٠٠ راجلا وسار إلى دويلة صوبة وهاجمها. فخف ملك أرام دمشق لنجدتهم فضرب داود من الأراميين – كما تقول التوراة – ٢٢,٠٠٠ رجلا وهزمهم وغنم كثيرا من الذهب والفضة أتى به إلى أورشليم بعد أن عين واليا من قبله على أرام دمشق. وظل الأراميون طوال بقية حكم داود يدفعون له الجزية. وسمع ملك حماة بما فعله داود فأرسل ابنه يُهادِن داود وحاملا معه هدايا آنية فضة وآنية ذهب نحاس. وهذه أيضا قدَّسها داود للرب.

كان أحد رجال البلاط الدمشقى واسمه «رزون الأرامى» قد هرب وكوَّن فرقة صغيرة من الرجال ظلت تغير على دمشق بين الحين والآخر. وفى أيام سليمان قويت شوكة رزون الأرامى وكان مصدر متاعب لسليمان وهو ما سنذكره فيما بعد (ص ٢٤٠).

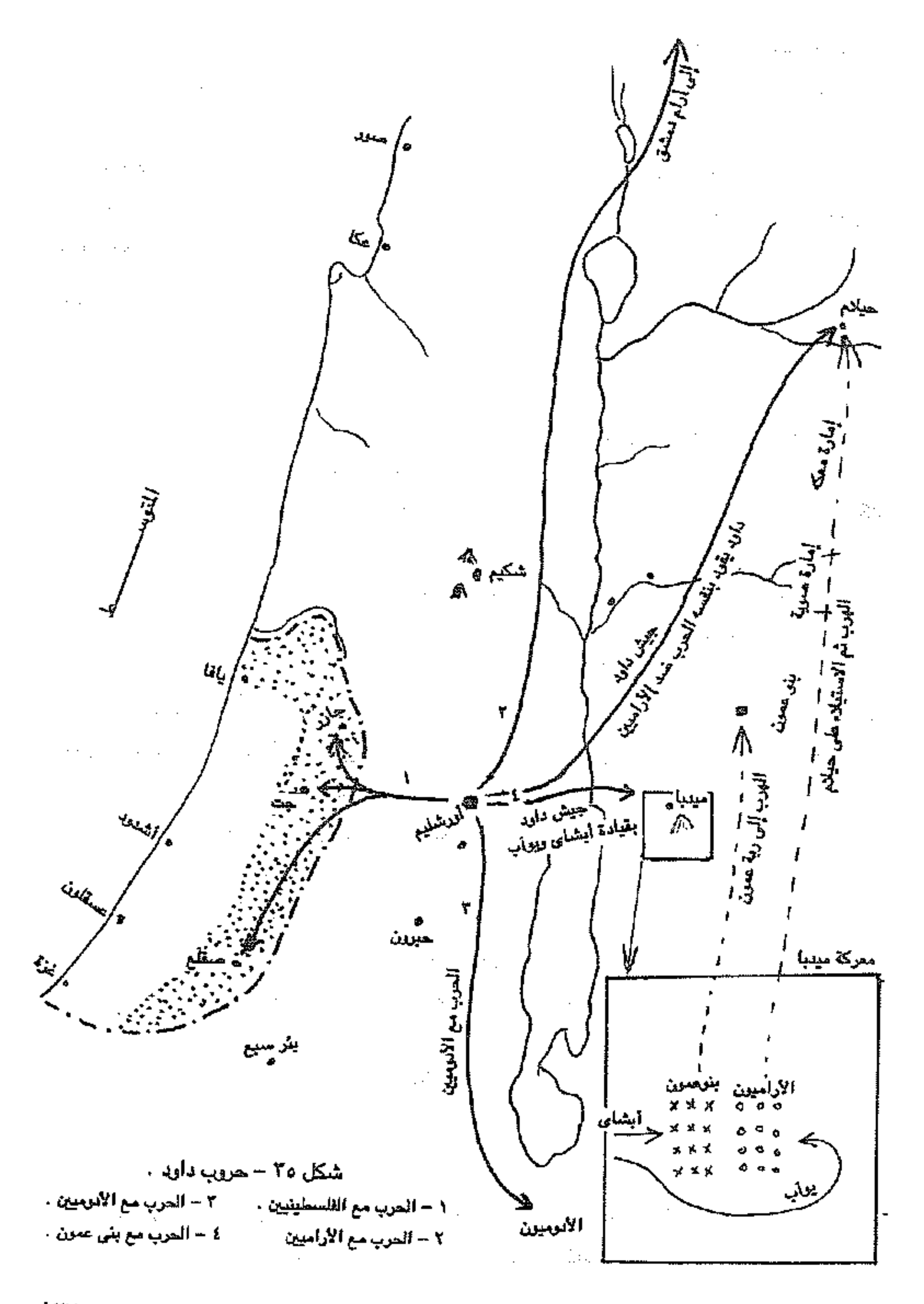
٣ – الحرب مع أدوم :

كان الأدوميون قد استولوا على أجزاء كثيرة من أرض إسرائيل غرب البحر الميت. وتضرع داود بهذا المزمور (٦٠) معترفا بأن العدو قد انتصر على بنى إسرائيل لبعدهم عن الله. وطلب من الله المغفرة والعفو والنصر: «يا الله رفضتنا. اقتحمتنا. سخطت. زلزلت الأرض. اجبر كسرها لأنها متزعزعة. أَرَيْتَ شعبك عُسراً. سقيتنا خمر الترنّح. خلِّص بيمينك واستجب لى». ثم يبشّر بالنصر فيقول: «الرب قد تكلم بقدسه. لى جلعاد ولى منسّى وأفرايم خوذة رأسى. يهوذا صولجانى. على أدوم أطرح نعلىٌ. من يقودنى إلى المدينة المحصّنة. من يهدينى إلى أدوم. أليس أنت يا الله. اعطنا عونا فى الضيق فباطل هو خلاص الإنسان. بالله نصنع ببأس وهو يدوس أعداءنا».

وأرسل داود حملة بقيادة يوآب قائد جيشه لحرب الأدوميين. وقام يوآب بمجزرة بشرية أفنى فيها الذكور كلهم. ولكن بعض أفراد الأسرة المالكة استطاعوا الهرب ومعهم طفل ملكى عمره ٧ سنوات هو «هدد» ولجأ إلى مصر فى عهد بسونس الثانى من الأسرة ٢١. واحتضنه ملك مصر ولما كبر زوّجه من أخته تحفنيس (١ ملوك ١١:١٤-٢٢). وسنرى أن هدد الأدومى هذا أصبح فى المسقبل عدوا لسليمان عليه السلام (انظر ص ٢٤٠).

٤ – الحرب مع بنى عمون :

كان «ناحاش» ملك العمونيين صديقا لدواد. وبعد وفاته مَلَكَ «حانون» ابنه عوضا عنه وأراد داود أن يبقى على علاقات حسنة مع الابن كما كانت مع الأب. فأرسل رسلا يعزّيه فى وفاة والده. ولكن مستشارى حانون حرّضوه قائلين إن هؤلاء ليسوا إلا جواسيس جاءوا ليروا نقاط الضعف فى البلاد تمهيداً لغزوها. فأخذ حانون رسل داود وحلق أنصاف لحاهم وقصّ ثيابهم من الوسط إلى الإست ثم أطلقهم ليعودوا. فلما علم داود بذلك طلب منهم البقاء فى أريحا حتى تنبت لحاهم. وشعر بنو عمون أنهم قد استثاروا عداوة داود وأنه لابد مهاجمهم إن عاجلا أو أجلا. فأرسلوا يستعينون بجنود مرتزقة من إمارتى رحوب وصوبة الأراميتين المجاورتين. فأمدوهم ب ٢٠,٠٠٠ مقاتل ومن إمارة معكة ١٠٠٠ رجل ومن إمارة طوب ١٢,٠٠٠ رجل. ولما سمع داود باستعدادهم لحربه سار بجيشه وعبر نهر الأردن ووقعت المعركة الرئيسية قرب ميدبا. وقسّم يوآب رئيس جيش إسرائيل الجند إلى قسمين نصف معه هاجم الأراميين من جهة الشرق والقسم الثانى بقيادة أخيه أبشاى هاجم العمونيين من جهة الغرب. وهرب الأراميون بعد أن هزمهم يوآب وفروا فى الصحراء فأسرع العمونيون وهربوا من أمام أبشاى ودخلوا مدينة «ربة عمون» وتحصنوا بها. ورأى يوآب أن من الصعب اقتحام مدينتهم فعاد إلى أورشليم. ولكن الأراميين ما لبثوا أن جمعوا فلولهم وهاجموا حيلام التى تقع ٥٠كم شرقى بحر الجليل. فخرج داود بنفسه للقائهم فى معركة كبرى انهزم فيها الأراميون وقُتل منهم –



شكل ٣٥ – حروب داود .

١ – الحرب مع الفلسطينيين . ٢ – الحرب مع الأراميين ٣ – الحرب مع الأدوميين . ٤ – الحرب مع بنى عمون .

كما تقول التوراة – ٤٠,٠٠٠ جندى واستولى داود على ٧٠٠ مركبة. وصالحت الدويلات الأرامية الباقية داود على دفع الجزية. وخافوا أن يُنجدوا بنى عمون مرة ثانية. ثم سار داود جنوبا نحو ربة عمون عاصمة العمونيين فاستولى عليها وأخذ تاج ملكها المصنوع من ذهب والمرصع بالأحجار الكريمة وغنم غنائم كثيرة من المدينة. وتقول التوراة (صموئيل ثانى ١٠ ، ١١): «وأخرج الشعب الذين فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس ووضعهم فى أفران الطوب وقتلهم. وهكذا فعل بجميع مدن بنى عمون. ثم عاد إلى أورشليم».

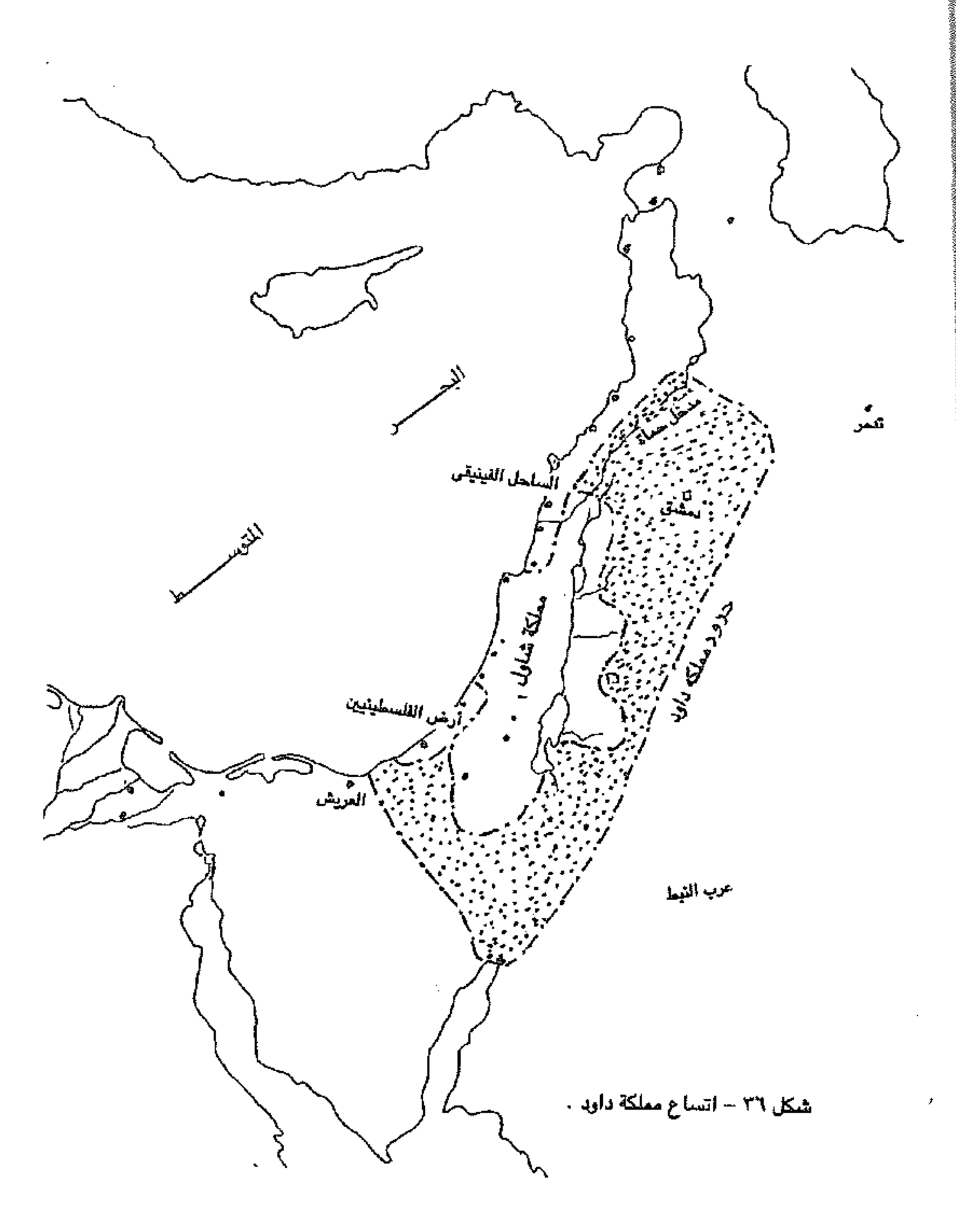
اتساع مملكة داود :

لا ريب فى أن داود قد كتب له النجاح فى أن يخلِّص قومه الإسرائيليين من التسلط الفلسطينى وفى أن يحقق لهم الاستقلال التام. واستطاع أن يفرض نفوذه فى المنطقة ويأخذ الجزية من مؤاب وأدوم وعمون وكثير من الإمارات الأرامية. ومع هذا فعلينا ألا ننساق وراء بعض المؤرخين الأوربيين الذين يجعلونها «امبراطورية» امتدت من الفرات إلى البحر المتوسط ومن دمشق إلى الخليج العربى. إذ أن التوراة نفسها حددت هذا الاتساع بأن مُلك داود كان من دان إلى بئر سبع . تلك هى حدود إسرائيل نفسها (شكل ٣٦). ولكن بإضافة الدول «الخاضعة» لها يمكن القول إنها كانت تمتد – كما حددها الحاخام الدكتور «إيشتين» – من نهر العاصى (الأورنت) فى الشمال إلى رأس خليج العقبة فى الجنوب ومن فينيقيا فى الغرب إلى حدود الصحراء العربية فى الشرق. والساحل الفينيقى بأكمله كان مستقلا استقلالا تاما وفقط كان صديقا ويقدم خشب الأرز والأخشاب الأخرى بالثمن. فضلا عن أن السيطرة العبرية لم تمتد لتشمل كل أرض الفلسطينيين ولئن كان داود قد استولى على جت وجازر وصقلغ. إلاَّ أنه لم يستطع الاستيلاء على بقية الأراضى الفلسطينية لاحتمائها فى النفوذ المصرى. حتى أن الفلسطينيين أعادوا الاستيلاء على منطقة جازر وظلت فى حوزتهم إلى أن قام فرعون مصر بتقديمها هدية عند زواج سليمان من ابنته إلا أن ذلك لا يمنع من القول بأن النصف الثانى من حكم داود كان فترة رخاء بالنسبة لمملكة إسرائيل . إذ كانت تسيطر على طرق التجارة بين العراق وسوريا ومصر وكذلك على التجارة بين بلاد العرب فى الجنوب وحلب والساحل الفينيقى فى الشمال. فكانت قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية.

فتنة داود

ذكرت هذه الفتنة فى القرآن الكريم فى سورة ص هكذا :

«وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم. قالوا لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزَّنى فى الخطاب. قال لقد



شكل ٣٦ – اتساع مملكة داود .

ظلمك بسؤالك نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم. وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب. فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب. ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض. فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب».
(٢١ - ٢٩ - ص).

ذلك ما ورد فى القرآن الكريم عن هذه الفتنة. ومما لاشك فيه أنها قصة رمزية تشير إلى حادثة معينة. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لداود الخطأ فيما فعل .

روى عن ابن عباس (تفسير الألوسى جـ ٢٣ ص ١٧٨) أن داود جزأ زمانه أربعة أجزاء: يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما لجميع بنى إسرائيل يعظهم ويعلمهم أمور دينهم. وكان اليوم يوم العبادة وفيه يحتجب عن الناس وينبه على الحرس ألا يُدخلوا عليه أحدا. وكان أن أرسل الله سبحانه وتعالى ملكين على هيئة بشرية. ولما رأوا أن الحراس قد يمنعوهم من الدخول تسوروا المحراب. وعلوا السور ونزلوا إلى المكان الذى خصصه داود فى بيته للعبادة أى محراب بيته وفوجىء داود بوجودهم ففزع منهم وخاف إذ هو يوم العبادة ولا يتوقع رؤية أحد من الشعب. ولعله ظن أنهم قد اقتحموا بيته ليقتلوه. وليزيلوا الفزع منه مما ذهب إليه ذهنه. قالوا: لا تخف. ثم شرعا فى بيان سبب مجيئهما «خصمان» أى نحن خصمان. اختلفا وبغى بعضهم على بعض وطلبا منه أن يحكم بينهما بالحق ولا يبعد عن الحق «لا تُشطط» وقرأ قتادة «ولا تَشطُّ». وطلبا منه أن يهديهم إلى الطريق المستقيم بزجر الباغى ونهيه عن طريق الجور والظلم. ثم عرضا عليه القضية. شرحها المظلوم فقال: **إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب»** فما كان من داود – دون أن يسمع دفاع المدعى عليه – إلا أن أصدر حكمه **«قال لقد ظلمك بسؤالك نعجته إلى نعاجه»**. وقالوا إن ذلك كان مخالفة من داود لأصول الحكم بالعدل بين الناس وهو ألا يصدر حكما دون أن يتحرى الحقيقة بسماع دفاع المدعى عليه فقد يكون له حق فيما فعل. وليؤيد حكمه الذى أصدره قال داود إن ذلك يحدث كثيرا بين الشركاء فيظلم بعضهم بعضا: **«وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»**. وبعد أن قال داود ذلك فوجىء باختفاء الرجلين فجأة من أمامه. وأدرك أن الرجلين فى الحقيقة كانا ملكين أرسلهما الله إليه ليعلماه درسا فى أصول الحكم. وقد قيل: «إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تحكم له فقد يكون خصمه قد فقئت عيناه».

وقد رأى فريق من المفسرين أن خطيئة داود كانت فى تسرعه بإصدار حكمه قبل أن يسمع دفاع المدَّعَى عليه. ولو كان الأمر كذلك لما كانت تلك خطيئة أو فتنة إذ هى هفوة لم يؤذَ أحدٌ منها ولا توجب الاستغفار الكثير والندم أربعين يوما كما جاء فى حديث قدسى. وفى المقابل

هناك آخرون انساقوا وراء الإسرائليات. وقبل أن تناقش هذه الإسرائيليات نذكر أولا ما جاء في التوراة عن هذا الموضوع (صموئيل ثان ١١) :

«وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من السطح امرأه تستحم. وكانت جميله المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة وأخبر أنها بتشبع امرأة أوريا الحثي. فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى». ونختصر ما جاء بالتوراة بعد ذلك من أن داود أراد أن يوهم بأن الحمل كان من زوجها فأرسل إلى قائد جنده يأمره بإعطاء أوريا أجازة من الميدان. وعاد أوريا ولكنه استنكر على نفسه أن يكون جنوده في حرب ويموتون في القتال وهو يتنعّم مع امرأته فأقام مع الحراس على باب الملك. ولما علم داود بذلك قال له: أما جئت من السفر فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر. وحاول داود أن يجعله ينزل إلى بيته في الليلة التالية فلم يفلح. فأعاده إلى ميدان القتال وأعطاه خطابا مغلقا إلى يوآب قائد الجيش يقول فيه (صموئيل ثان ١٤:١١) «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيُضرب ويموت . ولما تم ذلك وعلمت بتشبع بوفاة زوجها ندبته. ولما انتهت المناحة أرسل داود وضمَّها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت ابنا . وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب».

تلك هي القصة كما وردت في التوراة. وهي تنسب إلى داود الاعتداء على زوجه أحد ضباطه. ثم تدبير مقتل ذلك القائد حتى يخلو له الجو فيضم المرأة إلى حريمه. وهي أفعال شائنة توجب القصاص من فاعلها بالقتل مرتين مرة بحد الزنا ومرة قصاصا لتدبير مقتل الزوج. ولا يكفي أن يخر فاعلها راكعا وينيب ليُغْفر له ثم يكون له بعد ذلك قربة من الله وحسن ثواب! **«فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب»** إذ لا يستقيم ذلك مع عِظم الجرم كما تصوَّره هذه الراوية. لذلك فإنه من المستبعد جداً أو من المستحيل أن يكون الأمر هو كما جاء في السرد التوراتي. كماأنه من المستبعد أيضا أن تكون القصة برمتها محض اختلاق من ألفها إلى يائها وليس فيها ولو ظلٌ من الحقيقة وخاصة أن ما ورد في التوراة لتنبيه داود إلى فعلته لا يختلف كثيرا عما ورد في القرآن الكريم بهذا الخصوص. إذ تقول التوراة (صموئيل ثان ١:١٢): فأرسل الرب ناثان النبي إلى داود فجاء إليه وقال له: كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غني والآخر فقير. وكان للغني غنم وبقر كثير جداً وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها وربَّاها وكبرت معه ومع بنيه جميعا. فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيِّء للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ للضيف. فحَميَ غضب داود على الرجل جدا وقال لناثان: حيٌّ هو الرب. إنه يقتل

الرجل الفاعل ذلك ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر. فقال ناثان لداود أنت هذا الرجل. هكذا قال الرب إله إسرائيل. أنا مسحتك ملكا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك. ثم قتلت أوريا الحثي بسيف بنى عمون وأخذت امرأته امرأة لك.

ونلاحظ أن القصة الرمزية التى وردت فى التوراة لا تختلف كثيرا فى مضمونها عن مثليتها فى القرآن الكريم إلا فى أن التوراة جعلت النبى ناثان يُوضِّح لداود أنه هو المقصود بالقصة أما فى القرآن الكريم فإن اختفاء الملكين – كما قال المفسرون – هو الذى جعل داود يستنتج أنه هو المقصود بالقصة. كما أن سوْقَ قصة رمزية سواء فى القرآن الكريم أو التوراة – لتعبِّر عن واقعة حدثت بالفعل – يشير إلى أن ما وقع كان أمرا عظيما يستحى الناهى عنه من كشفه ويستشعر النبى ناثان حرجا من مواجهة داود به. كما أن الإخفاء قصد به أن يُصدر داود الحكم العادل فى هذا الموقف. لأنه لو علم من البداية أنها تخصُّه فقد يتحيَّز ويُصدِر حكما فيه تبرئة لنفسه. لذلك كان إيراد القصة الرمزية أولا لتوَخِّى صدور الحكم الصحيح والعادل ثم بعد ذلك تكون مواجهة داود بأنه هو المقصود بالقصة.

بعض المفسِّرين أنكر أن تكون القصة فيها رمزية وإشارة. فليس فى الآيات ولا فى كتب الحديث المعتمدة ما يصرف لفظ النعجة من حقيقته إلى مجاز (أى المرأة). وأن الأمر لا يعدو كونه درسا لداود حتى لا يتعجَّل فى الحكم لأحد الخصوم قبل سماع دفاع الخصم الآخر. ولكن داود استغفر ربه **«فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب»**. واجتهد فى الاستغفار وبالغ فى ذلك مما يدل على أن ما حدث كان أكثر من مجرد تسرُّع فى إصدار حكم – فقد روى عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن داود مكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه فأكلت الأرض جبهته وهو يقول فى سجوده: ربِّ ذَلَّ داود ذلَّة أبعد ما بين المشرق والمغرب. ربِّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنوبه جعلت ذنبه حديثا فى الخلائق من بعده. وجاءه جبريل عليه السلام من بعد أربعين ليلة فقال: يا داود إن الله قد غفر لك وقد عرفت أن الله حق لا يميل (الإسرائيليات والموضوعات – محمد بن محمد أبو شهبة. ص ٣٧١). فالأمر إذن أكبر من أن يكون تسرعا فى إصدار حكم. ولكن هل هو ما ادَّعاه كاتبو التوراة من ارتكاب الفاحشة وتدبير مقتل الزوج؟ كلا. وحاشا لله من أن تصدر هذه الأفعال عن رجل صالح مثل داود. قد يقول البعض إن ذلك حدث فى فترة كان فيها داود ملكا فقط ولم يكن نبيا بعد. ولكن حتى هذا لا يمكن حدوثه إذ أن الأنبياء معصومون من ارتكاب الفواحش حتى فى فترة ما قبل النبوة.

فى رأينا أن ما حدث من داود هو أن نظره وقع على امرأة أوريا الحثى مصادفة. وهذا فى حد ذاته ليس بذنب وكان ذنبه أنه أعاد النظر. والحديث الشريف يقول: لا تتبع النظرة فإن لك

الأولى وعليك الأخيرة. فلما أعاد النظر تمنَّى أن تكون له حلالاً. وكان أوريا الحثي فى حرب بنى عمون وحارب مع الجيش وقُتِلَ فيمن قُتِل. فلما بلغ داود مقتلُه لم يجزع بل سُرَّ فى قرارة نفسه لأن ذلك وافق مراده. وكان ذلك ذنبا آخر. وكانت الشريعة الموسوية تقضى أن من يموت أو يُقتل عنها زوجها فإن أولياءه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها. ولكن لما قُتِل أوريا أسرع داود وخطبها لنفسه. فلما سمع أولياء أوريا بذلك منعتهم هيبة المَلِك وجلاله أن يتقدَّموا لخطبتها كما هى العادة. فكان إسراعه. بإعلان خطبته لها قبل ولىِّ الأمر ذنبا آخر. وقال الألوسى (تفسيره جـ ٢٢ . ١٨٠) فى تفسير «فقال أكفلنيها وعزَّنى فى الخطاب» أى اجعلنى أكفلها أى اجعلها تحت يدى. وعزَّنى أى غلبنى «فى الخطاب» والكلام على لسان الولى – أى فى مخاطبته إياى أى جاء بحجاج لم أطق رده. وقال الضحاك أى إن تكلم كان أفصح منى. وقال ابن عطية كان أوجَهَ منى وأقوى.

فالأمر كان اتباع النظرة الأولى نظرة ثانية ثم اشتهاء زوجة جاره وهو أمر تنهى عنه شريعتهم فآخر الوصايا العشر تقول: «لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما هو لقريبك». ثم كان السرور الداخلى لمقتل الزوج دون تدبير منه لمقتله كما ادَّعوا. ولرب قائل: إنها كلها من وساوس الشيطان فى النفس. ولكن – كما هو معروف يختلف تقدير الذنب باختلاف مكان مرتكبه ومبلغ علمه ويكبر من العالم مالا يكبر من الجاهل. وبالرغم من أن ما حدث كان مجرد وسوسة من وساوس الشيطان إلا أن داود استعظم صدور ذلك منه «فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب». فى حديث قدسى: (الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى. ص ٣٢١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: ذكر النبى صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فعظَّم شأنه وشدته. قال: ويقول الرحمن لداود عليه السلام: مُرَّ بين يدىَّ. فيقول داود: يارب أخاف أن تُدحضنى خطيئتى. فيقول مُرَّ من خلفى. فيقول يارب أخاف أن تُدحِضنى خطيئتى. فيقول: خذ بقدمى. فيأخذ بقدمه فيمر. قال فتلك الزلفى التى قال الله تعالى: «وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب». أخرجه ابن مردويه.

وأخرج أحمد وغيره أن داود نقش خطيئته فى كفه لكى لا ينساها وكان إذا رآها اضطربت يداه. وقالوا كان قبلها يصوم يوما ويفطر يوما وبعدها صام الدهر كله.

وقد ذكرت التوراة استغفار داود وندمه فى عدة مزامير نختصر بعضها فيما يلى : مزمور ٣٢:

طوبى للذى غُفِرَ إثمه وسُترت خطيئته. طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطيَّة ولا فى روحه غش. لما سكتُّ بَليت عظامى من زفيرى اليوم كله. أعترف لك بخطيئتى ولا أكتم إثمى. قلت أعترف للرب بذنبى. وأنت رفعت آثام خطيتى. لهذا يصلى لك كل تقى فى وقت يجدك فيه. أنت ستر لى. من الضيق تحفظنى. بترنم النجاة تكتنفنى.

مزمور ٣٨ :

يارب ، لا توبخني بسخطك ، ولا تؤدبني بغيظك، لأن سهامك قد انتشبت فيَّ ونزلت عليَّ يدُك، ليس في جسدي صحة من جهة غضبك، ليست في عظامي سلامة من جهة خطيئتي لأن آثامي قد طمت فوق رأسي كحمل ثقيل أثقل مما أحتمل. يارب أمامك كل تأوُّهي وتنهُّدي ليس بمستور عنك، قلبي خافق، قوتي فارقتني ونور عيني أيضا ليس معي لأنني أخبر بإثمي وأغتم من خطيتي، لا تتركني يارب، يا إلهي لا تبعُد عني، أسرع إلى معونتي يارب ياخلاصي.

مزمور ٥١ :

ارحمني يا الله حسب رحمتك ، حسب كثرة رأفتك، أُمْحُ معاصيَّ، اغسلني كثيرا من إثمي ومن خطيئتي طهِّرني لأني عارف بمعاصيَّ وخطيتي أمامي دائما . إليك وحدك أخطأت، والشر قدام عينيك صنعت، قلبا نقيا أخلق فيَّ يا الله وروحا مستقيما جدِّد في داخلي، لا تطرحني من قدام وجهك، وروحك القدوس لا تنزعه مني، رد لي بهجة خلاصك.

مزمور ٦٩ :

يا الله، أنت عرفت حماقتي وذنوبي عنك لم تخف، غطَّى الخجل وجهي، لك صلاتي يارب. استجب لي بحق خلاصك، استجب لي يارب لأن رحمتك صالحة ككثرة مراحمك، إلتفت إليَّ ولا تحجب وجهك عن عبدك لأن لي ضِيقا، استجب لي.

مزمور ١٣٩ :

أين أذهب من روحك ومن وجهك، أين أهرب؟ إن صعدت إلى السموات فأنت هناك، وإن فرشت في الهاوية فها أنت، إن أخذتُ جناحَيْ الصبح وسكنت في أقاصي البحر فهناك أيضا تهديني يدك وتمسكني يمينك، فقلت إنما الظلمة تغشاني.

مزمور ١١٩ :

مبارك أنت يارب، علِّمني فرائضك، بوصاياك ألهج وألاحظ سُبُلك، لا أنسى كلامك، أحسِن إلى عبدك فأحيا وأحفظُ أمرك، لصقت بالتراب نفسي فأحيني حسب كلمتك، حوِّل عيني عن النظر إلى الباطل، في طريقك أحيني، أزِل عاري الذي حَذِرتُ منه لأن أحكامك طيبة، لتأتني رحمتك يارب، لا تنزع من فمي كلام الحق، ذكرت في الليل اسمك يارب وحفظت شريعتك، ترضَّيت وجهك بكل قلبي، ارحمني حسب قولك، في منتصف الليل أقوم لأحمدك على أحكام بِرِّك، رحمتك يارب قد ملأت الأرض، قبل أن أُذلَّلَ أنا ضللت أما الآن فحفظت قولك، صالح أنت ومحسن، علمني فرائضك، خير لي أني تذلَّلت لكي أتعلم فرائضك، شريعة فمك خير لي من ذهب وفضة، تاقت نفسي إلى خلاصك، كلامك انتظرت، كلَّت عيناي من النظر إلى قولك فأقول

متى تعزّينى؟ انظر إلى ذُلّى وأنقذنى لأنى لم أنسى شريعتك. حسب كلمتك أحيِنى. كثيرة هى مراحمك يارب. حسب أحكامك أحْيِنى.

بعد هذه التضرعات والاستغفار والتوبة والإنابة غفر الله لداود **«فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب»**. ثم أكمل الله نعمته عليه: **«وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب»** قالوا الحكمة النبوَّة. وهكذا أصبح داود نبيا. فكان أول من جمع بين المُلك والنبوَّة. أما فصل الخطاب فهو إصابة القضاء. كان داود صادقا فى ندمه على ما وسوست به نفسه. وكان صادقا فى توبته وصادقا فى خوفه من الله سبحانه وتعالى. والصدق من أعلى المقامات وكان الجزاء على ذلك :

«يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق» وهكذا تجمَّع لداود السلطة الدنيوية كملِك. والسلطة الدينية كنبى وأُمر بأن يحكم بين الناس بالحق والعدل. ثم أنزل عليه الكتاب المقدس وهو الزبور :

«وآتينا داود زبورا» . (١٦٣ – النساء) .

«ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا» . (٥٥ – الإسراء).

الزبـور :

الزبور هو الكتاب الذى أُنزل على داود عليه السلام. وقد أنزل عليه مُنَجَّما حسب مقتضيات الأحوال والأحداث. وفى الجلالين (جـ ١ ص ٤٤٨) أن به ١٥٠ سورة ليس فيها أحكام ولا حلال ولا حرام بل فيها تسبيح وتقديس وحمد وثناء على الله عز وجل وفيها أيضا مواعظ. وفى التوراة يسمى الكتاب الذى أنزل على داود «سفر المزامير» جمع «مزمور» وظن البعض أنها مشتقة من النفخ فى المزمار. ولكن الفعل العبرى «زَمَرَ» معناه قطع وقسَّم وشذَّب. والمراد تقطيع القصيد ونظمه. وكلمة «زمرا» العبرية معناها القصيدة التى يُتغنىَّ بها. والأصل العبرانى للإسم هو «سفر تهليم» أى سفر التهاليل أو سفر التسابيح. وفى العربية كلمة «زُبَر» تعنى «قطع» وجاء قوله تعالى على لسان ذى القرنين **«آتونى زُبَرَ الحديد»** (٩٦ – الكهف) أى قطع الحديد وقوله تعالى: **«وتقطَّعوا أمرهم بينهم زُبُراً . كل حزب بما لديهم فرحون»** (٥٣ – المؤمنون). ومن معانى زَبَرَ أيضا كتب والزُبُر هو الكتاب المكتوب. وجاء قوله تعالى: **«وكل شيىء فعلوه فى الزبر»** (٥٢ – القمر) وكذلك قوله تعالى: **وإنه لفى زبر الأولين»** (١٩٦ – الشعراء).

واختار القرآن الكريم لفظ «الزبور» بالمعنيين معا: الكتاب كمعنى أول. أما المعنى الثانى فهو أنه منظوم فى قطع وأناشيد بحيث يُتغنَّى به ويكون له وقع موسيقى على الأذن. وهذا من إعجاز القرآن الكريم (الأستاذ رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن. جـ ٢ ص ١٥٦).

ونجتزيء فيما يلي بعض التسبيحات التي وردت به :

مزمور ٦٥ :

لك ينبغي التسبيح يا الله. ولك يوفَى النذر. ياسامع الصلاة. إليك يأتي كل بشر. آثام قد قويت عليّ. معاصينا أنت تكفّر عنها. طوبى للذى تختاره وتُقرّبه ليسكن فى ديارك.

مزمور ٦٦ :

اهتفى لله يا كل الأرض. رنّموا بمجد اسمه. اجعلوا تسبيحه ممجّداً. قولوا لله ما أعظم أعمالك. كل الأرض تسجد لك وتُرنّم لاسمك. هلُمّ انظروا أعمال الله. حوّل البحر إلى يبس وفى النهر عبروا (إشارة إلى انشقاق البحر لموسى عليه السلام) هناك فرحنا به. باركوا إلهنا يا أيها الشعوب وسمّعوا صوت تسبيحه.

مزمور ٦٧ :

ليتحنّن الله علينا ويباركنا. لينرْ بوجهه علينا. لكى يُعرفَ فى الأرض طريقك. وفى كل الأمم خلاصك. يحمدك الشعوب يا الله. يحمدك الشعوب كلهم.

مزمور ٩٢ :

حسنٌ هو الحمد للرب والترنُّم لاسمك أيها العليّ. أن يُخبر برحمتك فى الغداة وأمانتك كل ليلة. على ذات عشرة أوتار وعلى الرباب وعلى عزف العود لأنك فرحتنى يارب بصنائعك. بأعمال يديك أبتهج. ما أعظم أعمالك يارب. وأعمق جداً أفكارك.

مزمور ٩٨ :

رنّموا للرب ترنيمة جديدة لأنه صنع عجائب. اهتفى للرب يا كُلُّ الأرض. اهتفوا ورنّموا وغنوا. رنّموا للرب بعود. بعود وصوت نشيد بالأبواق وصوت الصور. اهتفوا قُدام الرب. ليعجّ البحر وملؤه. المسكونة والساكنون فيها. الأنهار لتُصفّق بالأيادى. الجبال لتُرنّم معا أمام الرب.

مزمور ١٠٣ :

باركى يا نفسُ الرب وكل ما فى باطنى ليبارك اسمه القدُّوس. باركى يا نفس الرب ولا تنسى كل حسناته. الذى يغفر جميع ذنوبك. الذى يشفى كل أمراضك.. الذى يُكَلّلك بالرحمة والرأفة. الذى يُشبع بالخير عمرك. كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خَائفيه لأنه يعرف جبلّتنا. يذكر أننا تراب نحن. الإنسان مثل العشب أيامه. كزهر الحقل كذلك يزهر. لأن ريحا تعبر عليه فلا يكون ولا يُعرف موضعه بعد. أما رحمة الرب فإلى الدهر والأبد على خائفيه وحافظى عهده وذاكرى وصاياه ليعملوها. الرب فى السموات ثبّت كرسيه. ومملكته على الكل تسود. باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين. باركوا الرب يا جميع جنوده. باركوا الرب يا جميع أعماله فى كل مواضع سلطانه. باركى يا نفسُ الربَّ.

مزمور ١٠٤ :

باركى يا نفسُ الربَّ. يارب. إلهى. قد عَظُمتَ جداً. مجدا وجلالاً لبست. اللابس النور كثوب. الباسط السموات كشُقَّة. المسقف علاليه بالمياه. الجاعل السحاب. المؤسسُ الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر وإلى الأبد. كَسَوْتها الغَمر (المياه) كثوب. فوق الجبال تقف المياه. تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذى أسسته بها. وضعت لها تُخُما (حدودا) لا تتعداه. المفجِّر عيونا فى الأودية بين الجبال تجرى. تسقى كل حيوان البر. تكسر الفِراء (الحيوانات ذات الفراء) ظمأها. فوقها طيور السماء تسكن. من بين الأغصان تُسمِّع صوتا. المنبت عشبا للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان لإخراج خبز من الأرض. وخمر تفرح قلب الإنسان. وخبز يسند قلب الإنسان. صنع القمر للمواقيت. الشمس تعرف مغربها. تجعل ظلمة فيصير ليل فيه يدب كل حيوان الوعر. (هذا المزمور ادعى برستد أنه مشتق من تسابيح أخناتون وهو ما نفيناه فى الجزء الثالث ص ٥٧٨ – ٥٨٢).

مزمور ١٠٥ :

احمدوا الرب. ادعو باسمه. عرِّفوا بين الأمم بأعماله. غنوا له. رنِّموا له. انشدوا بكل عجائبه. افتخروا باسمه القدُّوس. لتفرح قلوب الذين يلتمسون الرب. اطلبوا الرب وقدرته. التمسوا وجهه دائما. اذكروا عجائبه التى صنع. هو الرب إلهنا. فى كل الأرض أحكامه.

مزمور ١٠٦ :

هلِّلوا. احمدوا الرب لأنه صالح. لأن إلى الأبد رحمته. طوبى للحافظين الحق. وللصانع البر فى كل حين. اذكرنى يارب برضا شعبك. تعهدنى بخلاصك.

مزمور ١٥٠ وهو آخر المزامير ونهاية الزبور :

هلِّلوا. سبحُّوا الله فى قدسه. سبحُوه فى فَلَك قُوَّته. سبِّحوه على قواته. سبِّحوه حسب كثرة عَظَمته. سبحوه بصوت الصور. سبِّحوه برباب وعود. سبِّحوه بدف ورقص. سبحوه بأوتار ومزمار. سبِّحوه بصنوج التصويت. سبحوه بصنوج الهتاف. كل نسمة فلتسبِّح للرب هلِّلوا الله.

متاعب عائلية وسياسية

تعرض داود عليه السلام فى أخريات أيامه لمتاعب عائلية وسياسية خطيرة – تصل إلى حد الكوارث – وهى :

١ – اغتصاب الأخ لأخته وقتل الأخ لأخيه .

٢ – ثورة ابنه أبشالوم عليه .

٣ – ثورة بنى بنيامين ضده .

١ – الكارثة الأولى :

كان لداود زوجات كثيرات ومن أخينوعم اليزرعيلية كان ابنه البكر أمنون. ومن معكة بنت ملك جشور كان له ابن هو أبشالوم وأخت شقيقة هى ثامار وكانت جميلة جدا. وأحب أمنون أخته غير الشقيقة ثامار وهام بها واحتال حتى انفرد بها واغتصبها. وغضب أبشالوم شقيق ثامار. وأولم وليمة دعا إليها أمنون وبعد أن أغرقه فى شرب الخمر هجم عليه وقتله. ثم هرب إلى أخواله فى دويلة جشور وظل متغربا بها ٣ سنوات.

وكانت صدمة كبيرة لداود إذ قُتِلَ ابنه البكر أمنون وهرب أبشالوم. وكان رئيس جيش داود يوآب يشعر أن داود لن يمانع فى عودة أبشالوم إذ هو الآن ابنه البكر بعد مقتل أمنون ووفاة أخ له كان يليه فى البكورية. وأراد أن يُمهِّد لعودة أبشالوم بطريقة غير مباشرة. فأرسل إلى امرأة حكيمة واتفق معها على أن تقوم بتمثيلية فادَّعت أنها أرملة وأن لها ولدين تخاصما وقتل أحدهما الآخر. وأن أهلها يطلبون منها أن تسلِّم القاتل ليقتلوه قصاصا. وأنها إن فعلت ذلك عَدِمت الولدين ولم يبق أحد ليخلِّد ذكرى زوجها. وأنَّ قتل الابن الثانى لن يعيد الحياة للأول. فقال لها داود: حىٌ هو الرب. إنه لا تسقط شعرة من شعر ابنك إلى الأرض. وهنا قالت له المرأة الحكيمة. إذا كان هذا هو حكمك لى فلماذا لاتعفو عن ابنك أبشالوم وتعيده من غربته؟ فأرسل داود يوآب رئيس جنده إلى جشور وأتى بأبشالوم إلى أورشليم وسمح له داود بالعودة إلى بيته على ألا يريه وجهه بعد الآن!

٢ – ثورة أبشالوم على أبيه داود :

كان القدر يخبِّىء كارثة أخرى لداود أشد من الأولى. كان أبشالوم قد سُمِح له بالعودة إلى بيته فى أرشليم. وكان محمود السيرة. بهى الطلعة. وكان يستدعى كل صاحب حاجة فيقضيها له ويحكم فى الخصومات بحِكمة. فبدأ يستميل الشعب واستقطب كثيرا من شيوخ بنى إسرائيل وضمنهم إلى جانبه. ثم إن أبشالوم استأذن والده داود فى الذهاب إلى حبرون بحجة الوفاء بنذر كان قد نذره أثناء تغربه فى جشور. ومن حبرون أرسل رسلا إلى شيوخ أسباط بنى إسرائيل يخبرهم أنه قد نصَّب نفسه ملكا فى حبرون ويطلب ولاءهم له. وشايعه نفر كبير من إسرائيل.

وجاء الرسل إلى داود فى أورشليم وأخبروه بانشقاق ابنه أبشالوم عليه وأن معظم بنى إسرائيل قد شايعوه وأنه بسبيل الهجوم على أورشليم نفسها. وأراد داود أن يتجنب المواجهة وأن لا يقتل ابنه بسيفه فقرر ترك أورشليم. فخرج برجاله وجنده وأهل بيته كلهم ماعدا عشر

سرارى تركهن لحفظ البيت. وخرج الجميع من أورشليم متجهين شرقا ليعبروا نهر الأردن. وكان داود يقصد محنائيم (على نهر يبوق) ليتخذها مقرا له. ورأى اللاويين حاملين تابوت عهد الرب يريدون أخذه مع داود. ولكن داود أمرهم بإعادة التابوت إلى المدينة قائلا: إن كان الله راض عنى فإنه سيرجعنى إلى المدينة لأرى التابوت ثانية أما إن كان به غضب علىّ فليفعل بى ما يشاء. وأثناء خروج داود من أورشليم كان شمعى رئيس البنياميين (عشيرة شاول) يمشى فى الطرقات ويسب داود ويرشقه بالحجارة ويقول (صموئيل ثان ١٦:٧) «اُخرج يا رجل الدماء. قد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول الذى ملكت عوضا عنه. قد دفع الرب المملكة ليد أبشالوم ابنك وها أنت واقع بِشرِّك لأنك رجل الدماء».

وحينما وصل داود إلى محنايم أرسل العمونيون والجلعاديون له زادا يكفيه هو ورجاله حنطة وشعيرا ودقيقا وفريكا وفولا وعدسا وطسوتا وآنية خزف وفُرُشًا وعسلا وزبدة وضأنا وجبن بقر لداود وللشعب الذى معه ليأكلوا لأنهم قالوا الشعب جوعان ومتعَب وعطشان فى البرية (٢ صموئيل ١٧:٢٨).

ودخل أبشالوم مدينة أورشليم بدون مقاومة. ولم يكتف بذلك بل أزمع مطاردة والده داود فى شرق الأردن. وكان فى القصر بعض الرجال الموالين لداود. فأرسلوا رسلا يخبرونه بما ينتويه أبشالوم. وبلغ الضيق ذروتة بداود فهو لا يريد أن يقاتل ابنه. ولكنه فى نفس الوقت لا يريد استمرار هذا التمرُّد الذى قد يغرى الأعداء بالهجوم على إسرائيل فتفقد استقلالها. لذلك لجأ إلى الله يدعوه ويتضرَّع إليه:

مزمور ٦١ :

إنما لله انتظَرت نفسى. من قِبله خلاصى. إنما هو صخرتى وخلاصى وملجئى. إلى متى تهجمون على الإنسان. تهدمونه كلكم كحائط منقضٍّ كجدار واقع. إنما يتآمرون عليه. يرضون بالكذب. بأفواههم يباركون وبقلوبهم يلعنون. إنما لله انتظرى يانفسى لأن من قِبَله رجائى. إن العزة لله. ولك يارب الرحمة لأنك أنت تجازى الإنسان كعمله.

مزمور ٦٤ :

استمع يا الله صوتى فى شكواى. من خوف العدوّ احفظ حياتى. استرنى من مؤامرة الأشرار من جمهور فاعلى الإثم الذين صقلوا ألسنتهم كالسيف فوّقوا سهمهم كلاما مُرًّا ليرموا بغته ولا يخشون. يُشدِّدون أنفسهم لأمر ردىء. يتحادثون بطمر فخاخ. يخترعون إثما محكما.

مزمور ١٤٠ :

أنقذنى يارب من أهل الشر. من رجل الظلم احفظنى الذين يتفكّرون بشرور فى قلوبهم

اليوم كله يجتمعون للقتال. سنُّوا ألسنتهم كحية حمة الأفعوان تحت شفاههم. احفظني يارب من يد الشرير. من رجل الظلم أنقذني. الذين تفكرُّوا في تعثير خطواتي. أخفى لي المستكبرون فخا وحبالا. مدُّوا شبكة بجانب الطريق. وضعوا لي أشراكا. قلت للرب أنت إلهي. اصغ يارب إلى صوت تضرعاتي. لا تعط يارب شهوات الشرير. لا تنجح مقاصده. أما رؤوس المحيطين بي ليسقط عليهم حجر. ليسقطوا في النار وفي غمرات (مياه عميقة) فلا يقوموا. قد علمتُ أن الله يُجرى حكما للمساكين وحقا للبائسين. الصدِّيقون يحمدون اسمك. المستقيمون يجلسون في حضرتك.

مزمور ١٤١ :

يارب إليك صرخت. أسرع إليَّ. أصغ إلى صوتي عندما أصرخ إليك. بك احتميت. لا تُفرغ نفسي. احفظني من الفخ الذي نصبوه لي ومن أشراك فاعلي الإثم. ليسقط الأشرار في شباكهم حتى أنجو أنا بالكلِّية.

نهاية أبشالوم :

كان مفيبوشث ابن يوناثان – الذي كان داود قد أكرمه وأعطاه كل حقول شاول – كما سبق أن ذكرنا (ص ١١٨) قد بقى في أورشليم وانضم إلى أبشالوم على أمل أن يُرجع له – إذا استتب له الأمر – جزءا من مملكة جده شاول أو على الأقل يجعله حاكما على أحد الأقاليم. وسار أبشالوم بجنوده وعبر الأردن قاصدا محنايم التي ينزل بها داود للاستيلاء عليها. وقسَّم داود رجاله إلى أربعة أقسام: قسم بقى في محنايم نفسها لحمايتها وظل هو في المدينة مع هذا القسم. ووضع يوآب رئيس الجيش خطة بحيث يستدرج أبشالوم وجيشه بحيث يدخل في منخفض من الأرض مقتفيا أثر جزء ثانٍ من الجيش يقوده هو ويتظاهر بالتراجع فيهجم القسمان الآخران من الجانبين فيثيرا الذعر في الجنود وتدب الفوضى في صفوفهم. ثم يتقدم هو ثانية للإجهاز على الجيش. وسارت المعركة حسب الخطة التي وضعها يوآب. إذ اغتر أبشالوم بتقهقر قوات يوآب ثم فوجيء بهجوم قوات على ميمنته وميسرته فتشتت جنوده للدفاع عن أنفسهم. فكرَّ عليهم يوآب بالجزء الأكبر من الجيش فأجهز على جيش أبشالوم وقَتَل أبشالوم بالرغم من أن تعليمات داود كانت بعدم قتله. وفتَّ مقتل أبشالوم في عضد الباقي من الجنود فتوقفوا عن القتال بعد أن قُتِل منهم ٢٠,٠٠٠ ورجع الأحياء كل إلى سبطه.

وحزن داود حزنا عظيما على ابنه. وجلس يتقبَّل التعازي من الشعب. ثم جاءه رجال إسرائيل وأبدوا ندمهم على مشايعتهم لأبشالوم وطلبوا منه العفو وأن يعود إلى أورشليم ملكا عليهم كما كان. وجاء مفيبوشث ابن يوناثان واعتذر لداود وأبدى ندمه على انضمامه لأبشالوم فعفا عنه . أما شمعي البنياميني فقد جاء ومعه ألف رجل من بنيامين وعبروا الأردن إلى

حيث كان يقيم داود وأعلنوا تأييدهم لداود واعتذر شمعى عن سبابه له وطلب السماح والعفو. وأشار رجال داود بقتله ولكن داود عفا عنه (٢ صموئيل ١٩:٢٣) وقال له: ابنِ لنفسك بيتا فى أورشليم وأقم هناك ولا تخرج من هناك إلى هنا أو هنالك فيوم تخرج اعلم أنك موتا تموت ويكون دمك على رأسك. فقال شمعى للملك. حسن الأمر. كما تكلم سيدى كذلك يصنع عبدك. وكان هذا بمثابة تحديد إقامة لشمعى فى بيت فى أورشليم تحت أنظار الملك حتى لا يدبِّر أو يشترك فى تمرُّد آخر.

وهكذا انتهت ثورة أبشالوم وعاد داود إلى أورشليم وترنَّم بهذا المزمور :

أحمدُ الربَّ بكل قلبى. أُحَدِّث بجميع عجائبه. أفرح وأبتهج بك. أرنِّم لاسمك أيها العلى عند رجوع أعدائى إلى خلف ويسقطون ويهلكون من قدام وجهك لأنك أقمت حقِّى ودعواى. جلستَ على الكرسى قاضيا عادلا. أهلكتَ الشرير. محوتَ اسمهم إلى الدهر والأبد. العدو تم خرابه إلى الأبد. الرب ملجأ فى أزمنة الضيق. ويتكل عليك العارفون اسمك. رنِّموا للرب.

والمزمور ١٣٨ :

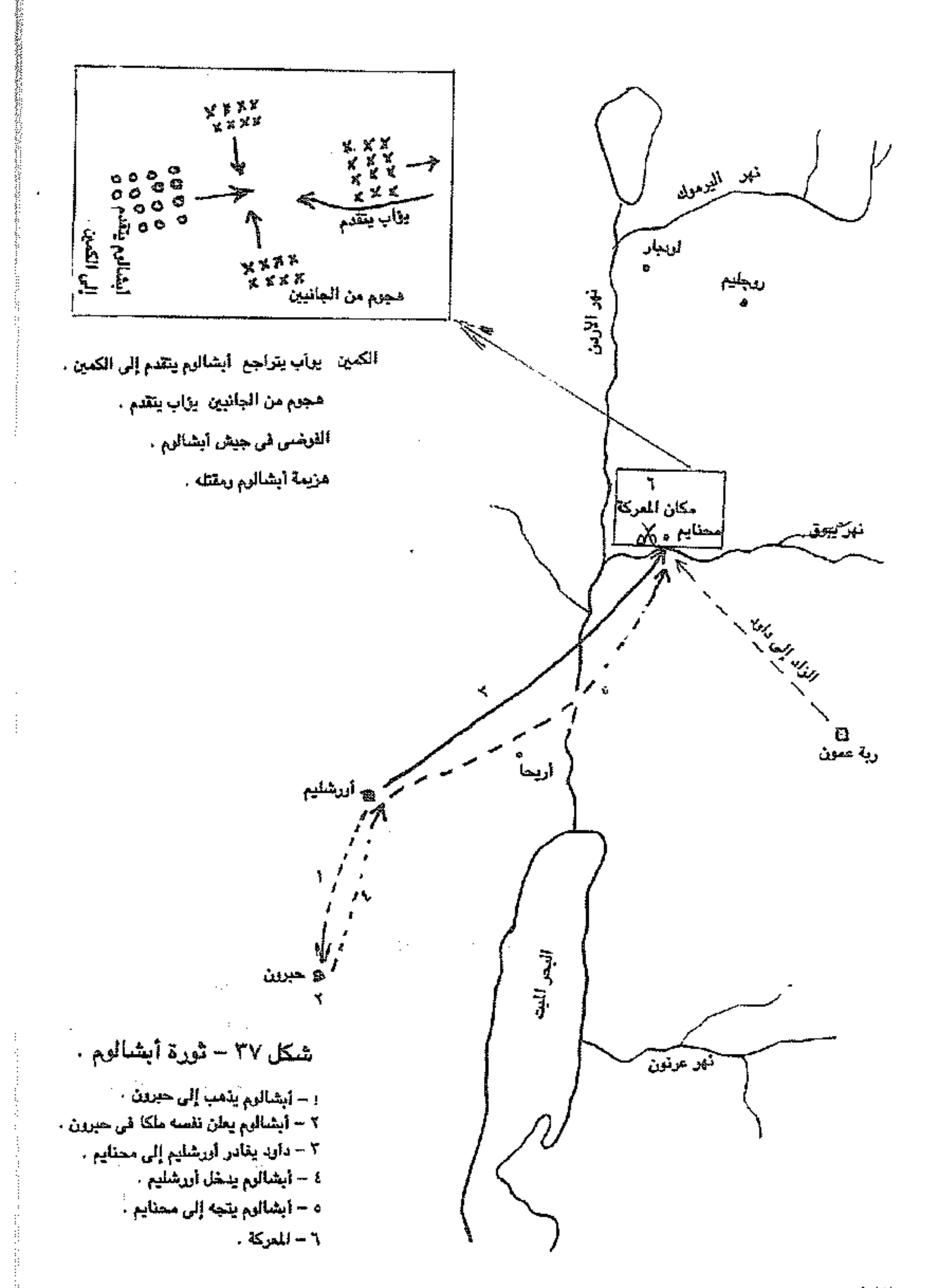
أحمدك من كل قلبى. أُرنِّم. أسجد فى هيكل قُدسك وأحمد اسمك على رحمتك وحقِّك لأنك قد عظَّمت كلمتك على كل اسمك. يوم دعوتُك أجبتنى. شجَّعتنى قوَّةً فى نفسى. يحمدك يارب كل ملوك الأرض إذا سمعوا كلمات فمك. ويُرنِّمون فى طرق الرب لأن مجد الرب عظيم. إن سلكتُ فى وسط الضيق تُحيينى. على غضب أعدائى تمتد يدك وتخلِّصنى يمينك. الرب يحامى عنى. يارب رحمتك إلى الأبد .

٣ – ثورة البنياميين :

إذا تذكرنا أن شاول كان من سبط بنيامين لأدركنا سبب عدم رضاء البنياميين عن داود لذلك فقد اجتمعوا وحرَّضهم «شبع البنيامينى» على التمرد وأعلنوا عدم الولاء. وقرر داود محاربتهم. ففر شبع ورجاله إلى شكيم. وسار يوآب قائد جيش داود خلفهم. ففروا إلى أقصى الشمال واحتموا فى مدينة «بيت معكة» (شمال بحيرة الحولة وحوالى ٦كم غربى دان – شكل ١٠٥) فحاصرها يوآب وطلب من أهلها تسليم شبع قائد التمرد حتى لا يضطر إلى تدمير مدينتهم. فاحتالوا على شبع وقتلوه وألقوا بجثته من على سور المدينة وانتهى التمرد.

انقراض بيت شاول :

كان شاول قاسيا أثناء فترة حكمه وعند إقامته فى جبعة شاول كان الجبعونيون يعيشون فى مدينتى جبعة وجبعون: الأولى تقع ١٠كم شرقى جبعة شاول والثانية تقع تقريبا نفس المسافة شمالها. وبالرغم من أنه كان قد أمَّن الجبعونيين على حياتهم إلا أنه غدر بهم وقتل منهم الكثير. وانتهز الجبعونيون فرصة انشغال داود بقحط ومجاعة أصابت البلاد وبإخماد



شكل ٣٧ – ثورة أبشالوم .

١ – أبشالوم يذهب إلى حبرون .
٢ – أبشالوم يعلن نفسه ملكا في حبرون .
٣ – داود يغادر أورشليم إلى محنايم .
٤ – أبشالوم يدخل أورشليم .
٥ – أبشالوم يتجه إلى محنايم .
٦ – المعركة .

الثورات التى قامت ضده . وقاموا وقتلوا كل الأحياء من ذرية شاول بما فيهم مفيبوشت ابن يوناثان.

الفلسطينيون :

انتهز الفلسطينيون أيضا فرصة انشغال داود بهذه المتاعب الداخلية وبدأوا يغيرون على حدود إسرائيل الغربية ويتوغلون فى جبال يهوذا . فجرّد داود عدة حملات لطردهم. وأعاد الاستيلاء على مدينة جت ولكنه لم يستطع أن يُخضع باقى المدن الفلسطينية. وظلّ معظم السهل الساحلى الفلسطينى مستقلا إلى أن ضمه سليمان إلى مملكته.

نشيد الشكر :

شعر داود أن الأمر قد استتب له ثانية. فها هم الأسباط كلهم قد ارتضوا حكمه والفلسطينيون لمسوا قوة بأسه فلم يعودوا يشكلون بالنسبة له تهديدا وكذلك باقى الدول المجاورة: أدوم ومؤاب والعمونيون والأراميون – عندئذ شكر الله بهذا النشيد (صموئيل ثان ١:٢٢):

الرب صخرتى وحصنى ومنقذى، به أحتمى، هو ترسى وملجئى ومناصى. أدعو الرب الحميد فأتخلّص من أعدائى لأن أمواج الموت اكتفتنى. سيول الهلاك أفزعتنى. جبال الهاوية أحاطت بى شُرُك الموت أصابتنى. فى ضيقى دعوت الرب وإلى إلهى صرخت. فسمع من هيكله صوتى. وصراخى دخل أذنيه. فارتجّت الأرض وارتعشت. أسس السموات ارتعدت وارتجّت لأنه غضب. ثم أرسل من العلا فأخذنى. نشلنى من مياه كثيرة. أنقذنى من عدوّى القوىّ وكان الرب سندى. أخرجنى إلى الرحب. خلّصنى لأنه سُرّ بى. يكافئنى الرب حسب برّى حسب طهارة يدىّ يرد علىّ لأنى حفظت طرق الرب ولم أعصِ إلهى لأن جميع أحكامه أمامى وفرائضه لا أحيد عنها. حىٌّ هو الرب ومبارك صخرتى. الإله المنتقم لى والمخضع شعوبا تحتى. والذى يخرجنى من بين أعدائى وينقذنى من رجل الظلم. لذلك أحمدك يارب فى الأمم ولاسمك أرنّم.

ثم أتبعه بمزمور حمد (١٠٠) :

اهتفوا للرب يا كل الأرض. اعبدوا الرب بفرح. ادخلوا إلى حضرته بترنم. اعلموا أن الرب هو الإله. ادخلوا أبوابه بحمد. باركوا اسمه لأن الرب صالح. إلى الأبد رحمته.

بناء مذبح للرب نواة للهيكل :

قلنا سابقا (ص ١٢٤) إن داود أبدى لصموئيل النبى رغبته فى بناء بيت للرب ولكن صموئيل أخبره أن الذى سيبنى البيت هو ابنه. وبعد أن توطّد ملك داود واصطفاه الله نبيا.

جاءه الوحى وقال له: اصعد وأقِم للرب مذبحا فى حقل أرونة اليبوسى. فصعد داود إلى أرونة وطلب منه الحقل ليبنى مذبحا للرب. وعرض أرونة أن يقدم الحقل مجانا بكل ما فيه من مواشى ويكون البقر محرقات. ولكن داود أصر على شرائه واشترى الحقل والبقر بـ ٥٠ شاقلا من الفضة (الشاقل = ٨,٤١٦ جم – أى أن الثمن الكلى كان حوالى ١/٢ كيلو جراما من الفضة) وبنى داود مذبحا للرب وأصعد محرقات وذبائح سلامة.

فى حديث قدسى (الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى ص ٥٨): قال داود عليه السلام. إلهى ماحق عبادك عليك إذا هم زاروك فإن لكل زائر على المزمور حقا؟ قال يا داود فإن لهم علىَّ أن أعافيهم فى دنياهم وأغفر لهم إذا لقيتهم. أخرجه الطبرانى وابن عساكر عن أبى ذر وقال سنده ضعيف.

بعد بناء المذبح قال داود (أخبار أول ٢٢:٤) «إن سليمان ابنى صغير وغض والبيت الذى يبنى للرب يكون عظيما جدا فى الاسم والمجد فى جميع الأراضى فأنا أهيىء له. فهيأ داود كثيرا قبل وفاته». وأمر داود جميع الأجانب الذين فى أرض إسرائيل من الصُنَّاع المهرة والنحاتين فنحتوا حجارة مُربَّعة. وجهّز داود حديدا كثيرا للمسامير للأبواب ونحاسا كثيرا بلا وزن. وخشب أرز بكميات كثيرة كل ذلك تسهيلا لمهمة سليمان فيما بعد حينما يشرع فى بناء البيت.

تفضيل داود لسليمان :

ذكرنا فى صفحة ١٢٠ أسماء أبناء داود الستة الذين ولدوا له فى حبرون وفى ص ١٢١ ذكرنا أسماء الأحد عشر ابنا الذين ولدوا فى أورشليم. وكان داود يفضل سليمان على باقى أبنائه لأنه من زوجته المحبوبة بثشبع (التى كانت زوجة لأوريا الحثى) وعند ولادة سليمان اختار له ناثان النبى اسم «يديديا» بمعنى محبوب يهوه. ولكن أوحى إليه فيما بعد أن يغيره إلى «شلومون» بالعبرية أى رجل السلام وينطق بالعربية سليمان.

ولما أُخبِر داود بأن الذى سيبنى البيت هو «الذى يخرج من أحشائك وأثبِّت مملكته وهو يبنى بيتا لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد». أخذ يفكرٍ أى أبنائه هو الذى سيخلفه على العرش ويكون له شرف بناء البيت؟ إنه يتمنى أن يكون سليمان هو الملك من بعده. ولكن أدونيا هو الابن البكر الآن بعد وفاة إخوته الأكبر منه. كان داود يعلم أن سليمان تقى من صغره. تلقى تعليما على يدى ناثان النبى ولاحظ أنه ذكى وعاقل فى تصرفاته وحكيم فى أفعاله فأشركه معه فى مجالس القضاء التى يعقدها للفصل بين المتنازعين.

وظهرت حكمة سليمان واضحة جلية. ففى إحدى جلسات القضاء جاء خصمان. أحدهما صاحب زرع قد قارب الحصاد وقيل صاحب كرم قد أنبتت عناقيده. ونزلت غنم الآخر ليلا إلى الحقل فأكلت ثمره وأفسدت الزرع. والنَفَش رعى الماشية بالليل بغير راع. والقاعدة أن ترك

الغنم ترعى ليلا بغير مراقبة تكون مسئوليته على صاحب الغنم أما بالنهار فإن صاحب الحقل مطالب بمراقبة حقله وحمايته من أى غنم تقترب منه. وطبقا لهذا العرف فإن مسئولية إتلاف الزرع فى القضية المعروضة كانت تقع على صاحب الغنم. وحكم داود عليه السلام بأن يدفع صاحب الغنم غنمه إلى صاحب الحقل عوضا عما أتلفه من زرعه. فقال سليمان أن لو كان الأمر له لقضى بغير هذا. فسأله داود كيف يقضى. فقال أدفع الغنم لصاحب الحرث فيكون له أولادها وألبانها ومنافعها. ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحقل مثل حرثهم فإذا بلغ الذى كان عليه ترادا. أى أخذ أصحاب الغنم غنمهم وعاد الحقل لصاحبه كما كان قبل أن تتلفه الغنم. وأقر داود الحكم الذى قضى به سليمان.

وقد أثار بعض المفسِّرين مسألة أن سليمان كان صبيا ولم يكن بعدُ نبيا فهو يحكم باجتهاده فى حين أن داود كان نبيا وهو يحكم بوحى من الله أو بنص من شريعتهم. فكيف يُنْقَضُ حكم النص بالاجتهاد (تفسير الألوسى جـ ١٧ ص ٧٤). البعض قال إن الحكمين كانا وحيا فلا بأس من أن ينسخ حكمُ سليمان ما قضى به داود. وآخرون قالوا إن حكم سليمان وحده هو الذى كان وحيا. وما نراه أن الوحى للأنبياء لا يكون فى كل الأوقات ولا فى كل الحالات وإنما يُترك الأمر لاجتهادهم فى بعض الحالات. وخير مثال على ذلك ماكان من رسولنا صلى الله عليه وسلَّم حينما أشار بعدم تأبير النخل. فلما لم يثمر قال قولته الشهيرة: أنتم أعلم بأمور دنياكم. ولاشك أن حكمى داود وسليمان عليهما السلام كانا عن اجتهاد. وكان الله شاهدا لحكمهما. وكان حكم سليمان عن فهم أوتيه من الله وليس عن وحى خاص بهذه القضية – وكما يحدث كثيرا فى عصرنا الحالى من إستئناف أو نقض للأحكام وقد يكون القائم بهذا الاستئناف أو النقض هو أحد أعضاء الهيئة القضائية ذاتها (ممثل النيابة) ثم قد تحكم المحكمة الأعلى بغير ما قضت به المحاكم السابقة ولا غبار على ذلك. وعليه فيمكن اعتبار الحكم الأول حكما ابتدائيا صدر عن محكمة بقاضٍ واحد هو داود أما الحكم الثانى فهو حكم نقض أو استئناف بمحكمة أخرى فيها قاضيان هما داود وسليمان عليهما السلام. وكان الفهم الذى أبداه سليمان أرفق بالمخطىء إذ ردَّ إليه غنمه بعدما أصلح ما أفسدت:

«وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان. وكُلاًّ آتينا حكما وعلما» .. (٧٨ – ٧٩ – الانبياء).

قضية أخرى. روى الإمام أحمد فى مسنده عن آخرين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين. فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا. فدعاهما سليمان وقال هاتوا السكين أشقه بينكما. فقالت الصغرى يرحمك الله. هو ابنها لا تشقَّه. فقضى به للصغرى (تفسير ابن كثير. جـ ٣ ص ١٨٧) وإن كان البعض يرى أن هذه القصة حدثت فى عهد سليمان لا فى عهد أبيه.

المهم أن داود أدرك أن ابنه سليمان هو الأصلح لخلافته على عرش إسرائيل، ولكن أدونيا أكبر منه وهو الأحق بالملك، فترك الأمور لله يصرفها كيف يشاء: **«والله يؤتى ملكه من يشاء»**.

(من الآية ٢٤٧ – البقرة).

الصراع على المُلْك :

أصبح أدونيا هو الابن البكر لداود بعد أن قُتِل أمنون لاعتدائه على أخته – ومات كيلاب – وقتل أبشالوم فى تمرده على والده، وأدونيا ابن داود من زوجته حجّيت وهو اسم عبرى مؤنث حجىٍ ومعناه عيدية أى مولودة يوم عيد. وأدونيا اسم عبرى معناه «يهوه هو السيد» أو «الرب هو السيد» وكان داود يحبه ويدلله إذ تقول التوراة (ملوك أول ١:٧) «ولم يغضبه أبوه قط قائلا لماذا فعلت هكذا». ولعل هذا التدليل هو ما جعله يعتقد أن العرش لا محالة صائر له بحكم أنه أكبر الأبناء، وكان داود إلى هذه اللحظة لم يعين من الذى سيخلفه، ونسى أدونيا أن والده نبى وأن إرادة الله هى التى جعلته ملكا على إسرائيل مع أنه لم يكن من نسل شاول فالأمر لله من قبلُ ومن بعد، وكان عليه أن ينتظر ما يوحَى إلى والده من إرادة الله سبحانه وتعالى، ولكن أدونيا لم ينتظر وأعلن نفسه وريثا للعرش وملكا، ولعله بذلك أراد أن يضع والده أمام الأمر الواقع ويقطع الطريق على أى تفكير آخر، واتخذ لنفسه كل مظاهر الملك: عجلات وفرسانا وخمسين رجلا يجرون أمامه، واستمال إلى جانبه يوآب رئيس الجند وأبياثار الكاهن، وقد سبق أن ذكرنا (ص ١٠٥) أن أبياثار هو الوحيد الذى نجا من مذبحة كهنة «نوب» وأنه لجأ إلى داود فطمأنه على حياته وجعله رئيس كهنة له، ونراه الآن قد انقلب على داود وانضم إلى أدونيا. وكان داود قد أوحى إليه من ربه أن سليمان هو الذى يخلفه: **«وورث سليمان داود»** (من الآية ١٦ – النمل) وكذلك أوحى إلى ناثان النبى بذات المعنى، وبذلك أصبح هناك فريقان كل منهما يسعى إلى تولية ابن من أبناء داود على عرش إسرائيل:

	حزب داود وسليمان	حزب أدونيا
رئيس الجند	بناياهو	يوآب
الكاهن	صادوق	أبياثار
	ناثان النبى	

وأمر داود صادوق الكاهن وناثان النبى وبناياهو رئيس الجند أن يأخذوا سليمان وينزلوا إلى نبع جيحون وهو نبع فى ضواحى أورشليم (شكل ٣٤ ص ١٢٢)، وأن يمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبى ملكا على إسرائيل وأن يضربوا بالبوق ويقولوا: ليحيى الملك سليمان، «ثم تصعدون وراءه فيأتى ويجلس على كرسيٍّ وهو يملك عوضا عنى وأنى قد أوصيت أن يكون رئيسا على إسرائيل ويهوذا، ففعلوا كما أمر داود وكان أفراد الشعب يضربون بالناى ويفرحون فرحا عظيما» .

وسمع أدونيا وجميع من التقوا حوله. وعلموا أن داود قد ملَّك سليمان وأن سليمان قد جلس على كرسي إسرائيل وأن جميع الحاشية قد باركوا لداود قائلين: يجعل الله اسم سليمان أحسن من اسمك وكرسيه أعظم من كرسيك. فخاف أدونيا ومن حوله وهرب كل واحد إلى بيته. وارتعد أدونيا ولجأ إلى المعبد وأمسك بقرون المذبح حتى لا يقتله أحد الجنود. وأرسل مَن يأخذ له الأمان من سليمان قائلا: ليحلف لي اليوم الملك سليمان أنه لا يقتل عبده بالسيف. فعفا عنه سليمان وأمره أن يذهب إلى بيته ويلزمه أي حدد إقامته في بيته.

وصية داود لسليمان :

١ – **وصية خاصة** : لما شعر داود بدنو أجله استدعى سليمان وقال له (ملوك أول ٢:١): أنا ذاهب في طريقي فتشدَّد وكن رجلا. احفظ شعائر الرب إلهك. إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى لكي تفلح في كل ما تفعل وحيثما توجَّهت لكي يقيم الرب كلامه الذي تكلَّم به قائلا: «إذا حفظ بنوك طريقهم وسلكوا أمامي بالأمانة من كل قلوبهم وكل أنفسهم قال لا يُعدَمَ لك رجل عن كرسيٍّ». كذلك أوصاه على بعض الرجال الذين ساعدوه أيام كان شاول يطارده وأيام أن ثار عليه أبشالوم ابنه.

٢ – **وصية ببناء بيت للرب** : (أخبار أول ٢٢ :٦) ودعا داود سليمان ابنه وأوصاه أن يبني بيتا للرب إله إسرائيل وقال داود لسليمان: يا ابني قد كان في قلبي أن أبني بيتا لاسم الرب إلهي. فكان كلام الرب أن لا أبنيه قائلا: هو ذا يولد لك ابن يكون صاحب راحة وأريحه من جميع أعدائه حواليه لأن اسمه يكون سليمان فأجعل سلامة وسكينة في إسرائيل في أيامه. هو يبني بيتا لاسمي وهو يكون لي ابنا وأنا له أبا وأثبِّت كرسي ملكه على إسرائيل إلى الأبد. الآن يا ابني ليكن الرب معك فتفلح وتبني بيت الرب إلهك كما تكلم عنك. إنما يعطيك الرب فطنة وفهما ويوصيك بإسرائيل لحفظ شريعة الرب إلهك. حينئذ تفلح إذا تحفَّظت لعمل الفرائض والأحكام التي أمر الرب بها موسى لأجل إسرائيل. تشدَّد وتشجَّع. لا تخف ولا ترتعب. هأنذا في شيخوختي هيأت لبيت الرب ذهبا مائه ألف وزنة. وفضة ألف ألف. ونحاسا وحديدا بلا وزن لأنه كثير. وقد هيأت خشبا وحجارة فتزيد عليها. وعندك كثيرون من عاملي الشغل نحاتين وبنائين ونجارين وكل حكيم في كل عمل. قم واعمل وليكن الرب معك.

٣ – **وصية لرؤساء إسرائيل** : وأمر داود جميع رؤساء إسرائيل أن يساعدوا سليمان ابنه فقال: اجعلوا قلوبكم وأنفسكم لطلب الرب إلهكم وقوموا ابنوا مقدس الرب الإله ليؤتى بتابوت عهد الرب وبآنية قدس الله إلى البيت الذي يُبنى لاسم الرب. وجمع داود كل رؤساء إسرائيل ورؤساء الأسباط وقال لهم: اسمعوني يا إخوتي وشعبي. كان في نيتي أن أبني بيت قرار لتابوت عهد الرب. ولكن الله قال لي: لا تبن بيتا لاسمي لأنك رجل حروب واختار الرب سليمان

ابنى ليجلس على كرسى إسرائيل وهو الذى سيبنى بيت الرب. ثم إن داود أحصى فرق اللاويين والكهنة وحدَّد لكل فرقة عملها الذى ستعمله بعد بناء البيت. ذلك أنه وقت أن كانت إسرائيل أسباطا متفرقة كان لكل سبط عدد من اللاويين والكهنة يقومون بتقديم الذبائح والمحرقات . ولكن إذ أوشكت أورشليم أن تصبح المقدس المركزى لكل إسرائيل فقد صار عدد اللاويين والكهنة أكثر من اللازم فقُسِّموا إلى ٢٤ فرقة وذلك معناه أنه فى المستقبل تقوم كل فرقة بالواجب الكهنوتى مدة أسبوعين فى العام. ثم قال داود لكل الجماعة. باركوا الرب إلهكم. فبارك كل الجماعة الربَّ وخروا سُجَّداً للرب وذبحوا للرب ذبائح وأصعدوا محرقات فى ذلك اليوم.

وبعد هذه الوصية توفى داود عليه السلام عن ٧٠ عاما ودُفن فى مدينة داود أى فى أورشليم.

أحاديث قدسية عن داود عليه السلام

١ – فى حديث قدسى (الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى. ص ١٦٣):
إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه فرأى فيهم رجلا يزهر (أى حسن الهيئة) فقال أى رب. أىُّ بنىٍّ هذا؟ قال هذا ابنك داود. قال فكم عمره؟ قال ستون. قال أى رب زده فى عمره. قال: لا إلا أن تزيده أنت من عمرك. وكان عمر آدم ألف سنة. قال أى رب. زده من عمرى. فزاده أربعين سنة وكتب عليه كتابا وأشهد عليه الملائكة. فلما احتُضِر آدم أتته الملائكة لتقبض روحه قال إنه بقى من عمرى أربعون سنة. فقالوا إنك جعلتها لابنك داود. قال أى رب ما فعلتُ فأنزل عليه الكتاب وأقام عليه البينة. ثم أكمل الله تعالى لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة.

أخرجه أبو داود الطيالسى وابن سعدون فى الكبير والبيهقى عن ابن عباس.

٢ – ويروى عن ابن عباس: قال داود عليه السلام فى مناجاته: إلهى من يسكن بيتك وممن تقبل الصلاة؟ فأوحى الله إليه. ياداود. إنما يسكن بيتى وأقبل الصلاة منه من تواضع لعَظَمتى. وقطع نهاره بذكرى. وكفَّ نفسه عن الشهوات من أجلى. يطعم الجائع. ويؤوى الغريب ويرحم المصاب. فذلك الذى يضىء نوره فى السموات كالشمس. إن دعانى لبَّيته. وإن سألنى أعطيته. أجعل له فى الجهل حلما. وفى الغفلة ذكرا. وفى الظلمة نورا. وإنما مثله فى الناس كالفردوس فى أعلى الجنان . لا تيبس أنهارها ولا تتغيَّر ثمارها.

(إحياء علوم الدين – الإمام أبو حامد الغزالى. جـ ١ ص ١٣٦).

٣ – قال داود عليه السلام فيما يخاطب ربه: يارب، أىُّ عبادك أحب إليك، أحبه بحبك؟ قال يا داود: أحَبُّ عبادى إلىَّ تقى القلب، نقى الكفين، لا يأتى إلى أحد سوءا، ولا يمشى بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبّنى وأحبَّ من يحبنى ويحبِّبنى إلى عبادى، قال يارب: إنك لتعلم أنى أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحبِّبك إلى عبادك؟ قال ذكِّرهم بآلائى وبلائى ونعمائى، ياداود إنه ليس من عبد يعين مظلوما أو يمشى معه فى مظلمته إلاَّ أثبَّت قدميه يوم تزول الأقدام.

أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، وابن عساكر، عن ابن عباس (الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية، محمد المدنى، ص٥٩).

٤ – أوحى الله إلى داود، ياداود، مثل الدنيا كجيفة اجتمعت عليها الكلاب يجرونها، أفتحب أن تكون كلبا مثلهم فتجرَّ معهم؟ ياداود طيب الطعام ولين اللباس والصيت فى الناس والآخرة لا يجتمع أبداً.

(المرجع السابق، ص ١٩٤) أخرجه الديلمى عن على.

٥ – أوحى الله إلى داود أن قُل للظّلَمة لا يذكرونى، فإنى أذكر من يذكرنى وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم.. أخرجه الحاكم فى تاريخه والديلمى وابن عساكر عن ابن عباس (المرجع السابق، ص ١٩٩).

٦ – قال داود عليه السلام: يارب هل بات أحد من خلقك أطول ذكرا منى؟ فأوحى الله تعالى إليه: الضفدع. وأنزل سبحانه عليه «اعملوا آل داود شكرا» فقال داود: كيف أطيق شكرك وأنت الذى تنعم علىَّ ثم ترزقنى على النعمة الشكر فالنعمة منك والشكر منك فكيف أطيق شكرك؟ فقال جل وعلا: ياداود الآن عرفتنى حق معرفتى. (تفسير الألوسى، جـ ٢٢، ص ١٢٠).

وقيل إنه لما نزل على داود قوله تعالى: «اعملوا آل داود شكرا» لم يأت ساعة على القوم إلا ومنهم قائم يصلى. وفى رواية كان مُصلَّى آل داود لا يخلو من قائم يصلى ليلا ونهارا وكانوا يتناوبونه.

وجاء فى رواية ابن أبى حاتم عن الفضل أنه عليه السلام قال: يارب كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال سبحانه: الآن شكرتنى حين علمت النِعم منى.

وبهذا تنتهى قصة داود عليه السلام

«نعم العبد إنه أوّاب» (٣٠–ص).

ناثان النبى

هو نبى من سبط يهوذا عاش فى أيام الملكين داود وسليمان وكان مستشارا لهما ورسولا يحمل إليهما نصائح الرب وتحذيراته. كما كان كاتبا يؤرخ حياتهما. واسم ناثان العبرى معناه «الله قد أعطى» (قاموس الكتاب المقدس، ص ٩٤٣).

ويمكننا أن نلخص أهم أعماله فى الآتى :

١ – استشاره داود فى بناء الهيكل إلا أن الرب أوحى إليه أن يُفَهِّم داود أن الذى سيبنيه هو ابنه سليمان (انظر ص ١٢٤).

٢ – أرسله الله ليبكِّت داود على افتتانه بامرأة جاره وأحد ضباطه وهو أوريا الحثى (ص١٣١).

٣ – عند ولادة سليمان اختار له ناثان اسم «يديديا» ثم غيَّر اسمه إلى سليمان كما سبق أن ذكرنا (ص ١٤٤).

٤ – هو الذى قام بوضع المغنيين والموسقيين من اللاويين فى الهيكل حسب أمر داود.

٥ – وقف مع داود لتأمين وصول سليمان للعرش (ص ١٤٦).

وكان لناثان ابنان: «زابود» خلف والده كمستشار للملك سليمان والثانى «عزريا» جعله سليمان رئيسا على الاثنى عشر وكيلا الذين عينهم على جميع إسرائيل وجعله مسئولا عن جباية المال.

الفصل السادس

سليمان عليه السلام

اسمه :

سبق أن ذكرنا (ص ١٤٤) أنه فور ولادة سليمان جاء النبى ناثان وسماه «يديديا» بمعنى «محبوب يهوه» ثم أُوحى إليه بعد ذلك أن يغيره إلى «شلومون» أى رجل السلام وفى العربية يسمى سليمان. وشلومون مشتق من الجذر العبرى شَلَمْ المقابل للجذر العربى سلم. وجاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سَلَمًا لرجل. هل يستويان مثلا» (٢٩ - الزمر). فهو رجل السلام. وقالوا إن كلمة شلومون يقابلها فى العربية سَلْمَان. ومن هنا كان انتقاد بعض المستشرقين لاسم «سليمان» حيث أنه تصغير لاسم سلمان. والحقيقة أنهم لم يفطنوا إلى أن شلومون أصلها شلومو. وفى العبرية يتم تصغير الاسم بوضع نون فى آخره. فكلمة صبع تصغيرها صبعون ويثر تصغيرها يثرون (كاهن مدين وحمو موسى). وشلومون يقالها فى العربية سليمان تصغير سلمان (من إعجاز القرآن الكريم. رؤوف أبو سعدة جـ ٢ ص ١٦٢).

توليه الحكم وتأمينه :

سبق أن ذكرنا (ص ١٤٦) محاولة أدونيا انتزاع الملك من سليمان وانتهى الصراع بأن نودى بسليمان ملكا وأجلسه داود على العرش فى أخريات أيامه. وفور توليه الحكم عفا سليمان عن أخيه أدونيا ولكنه حدد إقامته فى بيته فى أورشليم ويشرط أن لا يتدخل فى الأمور السياسية.

ثم جاء أدونيا إلى بثشبع - والدة سليمان - وطلب منها أن تتوسط له لدى سليمان حتى يسمح له بالزواج من « أبيشج » وكانت إحدى سرارى والدهما داود . وكانت العادة فى ذلك الوقت أن الملك الجديد يرث « حريم » الملك السابق أى جواريه وسراريه حتى لو كان والده . ومن هنا اعتبر سليمان هذا الطلب من أدونيا إصرارا منه على اعتبار نفسه الوريث الشرعى للمملكة باعتبار أنه هو الابن الاكبر لداود. ولعل سليمان رأى أن أدونيا - مادامت له هذه التطلعات - لن يُؤمَنَ جانبه ولن يُؤمَنَ مكره فى المستقبل. وخاصة أن أبياثار الكاهن ويوآب قائد جيش داود كانا يؤيدانه فى هذا الطلب. ومن ثَمَّ اشتمَّ سليمان مؤامرة تحاك ضده فى

الخفاء فرأى أن يجتثها من جذورها. فأمر بناياهو - قائد جنده - فضرب عنق أدونيا. وعزل أبياثار الكاهن من وظيفته وحدد إقامته فى قرية عناثوث مسقط رأسه وهى حاليا «عناتا» على بعد ٤كم شمال شرق أورشليم. (شكل ١٠٥). وقال له سليمان: لأنك مستوجب القتل ولست أقتلك لأنك حملت تابوت الرب أمام داود أبى.

ولما سمع يوآب ماحدث لأدونيا وأبياثار خاف وهرب إلى خيمة الاجتماع بجانب المذبح وتمسك بقرون المذبح فأرسل سليمان قائد جيشه بناياهو ليخرجه من الخيمة ويقتله فأبى يوآب أن يخرج وقال له إن كنت تقتلنى فاقتلنى ها هنا معتقدا أن وجوده بجانب المذبح يعصم دمه. فعاد بناياهو إلى سليمان وأخبره بما قاله يوآب. فقال له سليمان. افعل كما تكلَّم. وابطش به وادفنه. ففعل بناياهو كما أمره سليمان وقتل يوآب.

وهكذا تخلص سليمان من كل من نازعوه الملك: أدونيا ويوآب وأبياثار وعيَّن سليمان «صادوق» كاهنا أكبر بدلاً من أبياثار. كما عيَّن بنايهو قائدا للجيش مكان يوآب.

أما شمعى رئيس البنياميين. والذى كان قد انضم لأبشالوم فى ثورته ثم عفا عنده داود وحدد إقامته فى بيته. والتزم شمعى بتحديد الإقامة هذا طوال مابقى من عمر داود والمفروض أن يستمر ذلك فى حكم سليمان أيضا. ولكن فى السنة الأولى من حكم سليمان هرب عبدان لشمعى إلى أخيش ملك مدينة «جت» الفلسطينية. فذهب شمعى وراءهما إلى جت وعاد بهما. وأخبر سليمان بما حدث. ولعل سليمان قد اشتبه فى مؤامرة يدبِّرها شمعى مع أخيش ملك جت وأرسل العبدين مدعيا فرارهما.ثم ذهب بنفسه لمقابلة أخيش بحجة إعادة العبدين. فاستدعى سليمان شمعى وذكرَّه بالوعد الذى قطعه على نفسه بأن لا يخرج من بيته فى أورشليم وبأنه يوم يفعل ذلك سيكون عقابه الموت. ودعا سليمان رئيس الجند بناياهو وأمره بقتل شمعى. ومن المؤكد أن أخيش علم بما حدث لشمعى وأدرك مدى حزم سليمان فى معاقبة المخالفين لأوامره. ومدى عنفه فى الرد على ماقد يهدِّد ملكه. فآثر السلام وطوال مدة حكم سليمان لم يثر الفلسطينيون له أية متاعب.

وقد انتقد بعض الكتاب ماقام به سليمان ووصفوه بأنه «قسوة بالغة» فانتقدوا إقدامه على قتل أخيه أدونيا ويوآب وشمعى وأبياثار الكاهن. ولكن لو تمعنا فى أفعال هؤلاء لوجدنا أنها تنطبق عليها ما نصفه بلغة عصرنا بمؤامرات لقلب نظام الحكم أو التخابر مع دول معادية وعقوبتها كلها الإعدام. وخاصة أن كلا منهم قد سبق اشتراكه فى تآمر ضد الحاكم الشرعى للبلاد وتم العفو عنه فالعود لارتكاب نفس الجرم يوجب الإعدام.

سليمان مَلِكٌ ونبي :

ينظر أهلَ الكتاب إلى داود وسليمان على أنهما مَلِكين فقط وينفون عنهما صفة النبوة

الثابتة لهما بنص القرآن الكريم إذ ذكرهما الله سبحانه وتعالى ضمن أسماء الأنبياء فى الآية التالية: **«ووهبنا له (لإبراهيم) إسحق ويعقوب. كُلاً هدينا. ونوحا هدينا من قبل. ومن ذريته داود وسليمان وأيوب وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين»** (٨٤-الأنعام). وفى المقابل فإن المفسرين الإسلاميين لا يولون جانب الملك حقه من الدراسة مع أنه لا يقل فى أهميته عن جانب النبوّة. والحقيقة أن أحدهما مُكمِّلٌ للآخر ولا يكتمل فهمنا لقصة أى من هذين النبيين الكريمين دون دراسة جانب المُلك. وقد عمدنا فى قصة داود عليه السلام إلى استكمال هذا النقص فذكرنا مطاردات شاول له. وحروبه. والكوارث التى حلّت ببيته فى أخريات أيامه. وسنسير على هذا المنوال أيضا فى قصة سليمان عليه السلام لنلقى الضوء على جوانب جديدة من حياته وأعماله. وكملك يروم مصلحة شعبه اهتم سليمان بأمرين :

١ – **السياسة الداخلية** : وهى ما تتعلق برفع مستوى معيشة الناس وعدم تعريضهم لمصاعب وأزمات.

٢ – **السياسة الخارجية** : وهى علاقة الدولة – متمثلة فى حاكمها – بالدول المجاورة وحكامها لتقل الحروب وما يصاحبها من دماء وإتلاف للحرث والنسل. وكلما عم السلام عم الرخاء. إلا أن الحروب – فى العصور القديمة – كانت فى بعض الأحيان عملا رابحا بالنسبة لطرف قوى يستعبد جارا ضعيفا ويفرض عليه «جزية» يدفعها ذهبا أو فضة أو مقداراً من الحبوب يدفع كل عام. وقد يرى الطرف الضعيف أن دفع الجزية أهون من القتل والتدمير إذا هو قاوم فيستمر هذا الوضع إلى أن يقيِّض الله للضعيف من عناصر القوة ما يزيح به هذا الظلم الواقع عليه.

ولقد رأينا مثل هذا فى تاريخ بنى إسرائيل فى الفصل الثالث من هذا الكتاب وهو «عصر القضاة» (ص ٣٩). فقد كان الكنعانيون أو الفلسطينيون أو غيرهم من الشعوب المجاورة تستعبد سبطا من الأسباط لفترة يدفعون خلالها الجزية لذلك الطرف القوى حتى يُقيِّض الله لهم قاضيا يقودهم ويُمكنّهم من طرد المتسلِّط عليهم لينعموا بالحرية لفترة ما. وتتكرر القصة فى سبط آخر وهكذا. وهذا ما دفع بنى إسرائيل لأن يطلبوا من صموئيل النبى أن يجعل عليهم ملكا يوحِّد كلمتهم ويدافع عن حدودهم. وكان أن بعث الله لهم طالوت (شاول) ملكا كما رأينا فى الفصل الرابع. ولكن القَبَلية كانت لاتزال متغلغلة فى بنى إسرائيل. وكل سبط يكاد يكون مستقلا عن الأسباط الأخرى. وتمادى البنياميون فى تأييد شاول – بالرغم من مساوئه – لأنه بنيامينى. وتمادوا فى عداوتهم لداود لأنه غير بنيامينى. وحتى فى عهد داود كان رؤساء الأسباط لهم دور كبير فى تسيير الأمور الداخلية ولهم الكلمة العليا فى مناطقهم. واتهموا داود بمحاباة يهوذا على حساب الأسباط الأخرى. وعمل البنياميون على تأجيج الصراعات

الداخلية فى بيت داود فأيَّدوا ثورة أبشالوم على أبيه داود، وثورة أدونيا على أخيه سليمان. لذلك رأى سليمان أن استقرار مُلكه يسلتزم منه أن يولى النقاط التالية اهتماما خاصا:

١ – دمج الأسباط .

٢ – السيطرة على طرق التجارة .

٣ – النشاط البحرى .

٤ – التعدين .

٥ – السياسة الخارجية .

وهى أمور لم توف حقها من الدراسة فى المراجع الإسلامية، وحتى ما تناوله الباحثون فإنهم تطرقوا إليه من زاوية دينية ولم ينظروا إلى الجانب السياسى.

١ – دمج الأسباط

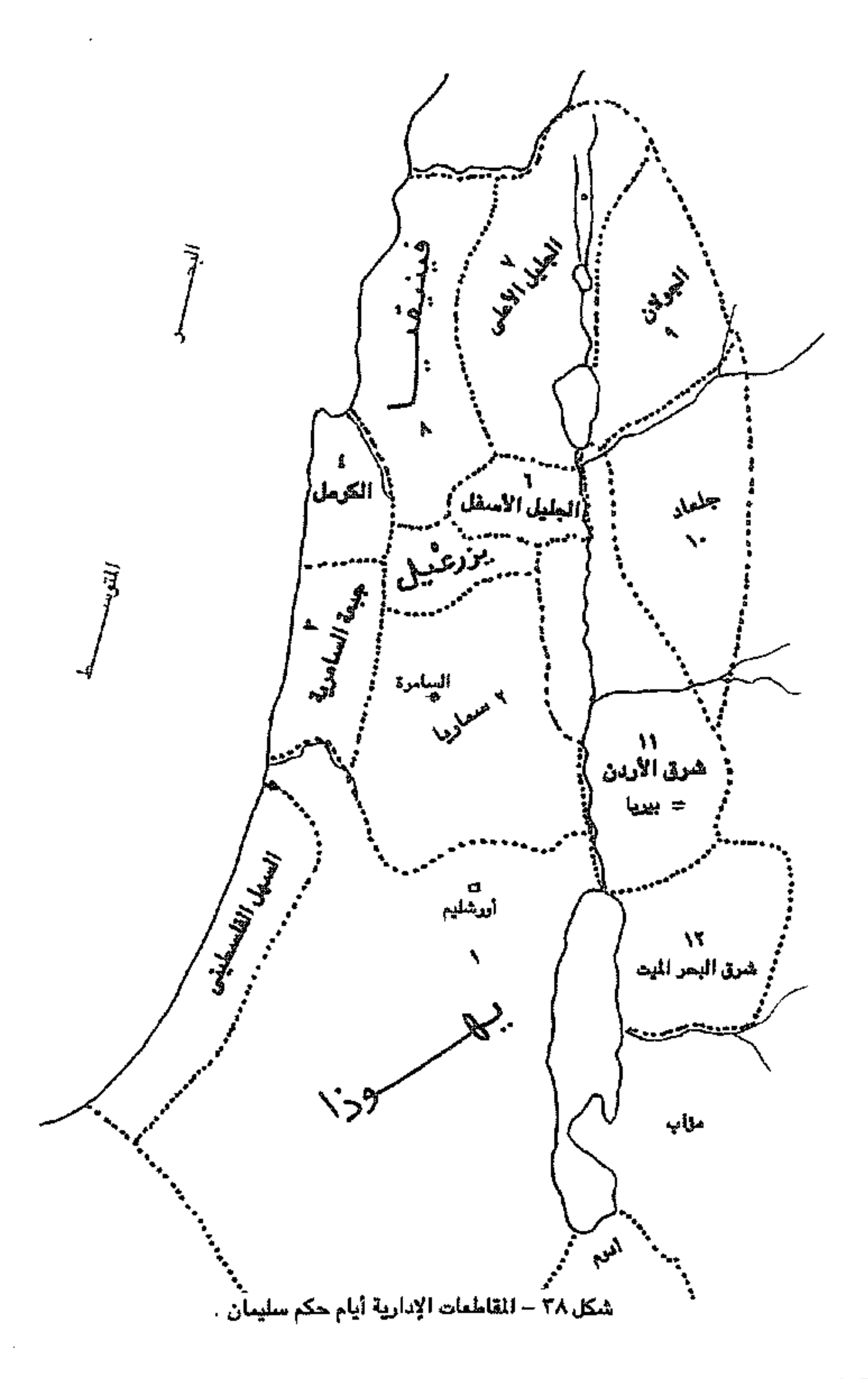
كان هذا أول ما اهتم به سليمان عليه السلام، فعمل على تذويب الكل فى كيان واحد متَّحد تهابه الأمم المجاورة. كانت المنطقة الواقعة جنوبى أورشليم هى منطقة سبط يهوذا وأصبح يُنظر إلى الجنوب كله على أنه «يهوذا». المشكلة كانت فى العشرة أسباط الباقية فهى التى كانت متنافرة، من هنا لجأ سليمان – بحكمته – إلى إعادة تقسيمها إلى وحدات إدراية عددها ١٢ وحدة غير متقيد بأن تكون الوحدة الإدارية قاصرة على سبط بعينه، بل توخَّى فى التقسيم الجديد أن تحتوى الوحدة الإدارية على أكثر من سبط لكى يتم تذويب الفوارق بين الأسباط. وبالطبع لم يكن ذلك أمرا سهلا، فاستقلال الأسباط بعضهم عن بعض قد ترسَّخ منذ كانوا أبناء يعقوب الاثنى عشر وعلى مدى تسعة قرون تقريبا (من ١٨٦٢ ق.م، حتى ٩٧٠ ق.م) فكان هدف سليمان هو إضعاف النزعة القبلية بين بنى إسرائيل، وكان لكل منطقة من المناطق الجديدة «مشرفٌ» أو «وكيل»، عليه أن يتولى جمع الضرائب بالإضافة إلى أن على كل وحدة إدارية أن تلتزم بإعاشه الحكومة والقصر لمدة شهر فى السنة. فكان المشرف أو الوكيل يتولى جمع المقدار المفروض عليه من الحبوب والأغنام ويضعها فى مخازن ثم يسلمها إلى العاصمة أورشليم فى الوقت المحدد له، وكان سبط يهوذا معفى من هذا الأمر، ولما كان سليمان ينتمى إلى سبط يهوذا فقد نظر البعض إلى أن هذا فيه محاباة لسبط يهوذا، وهذا ولَّد فى الوحدات الشمالية شعورا معاديا لسبط يهوذا. ولعل السبب فى إعفاء سبط يهوذا يرجع إلى أن الأرض المخصصة له كانت فى مجملها أرضا صحراوية: صحراء النقب وصحراء بئر سبع وصحراء يهوذا. كما أن انتاج المنطقة الجبلية كان من القلة بحيث يكفى بالكاد أهلها. أما الأراضى

الشمالية فهى غزيرة الأمطار وبها وديان كثيرة صالحة للزراعة فكان من الطبيعى أن تتحمل هذه الأراضى الشمالية الجزء الأكبر من النفقات الملكية والحكومية.

لا يمكننا فى الوقت الحالى تحديد الحدود بين الوحدات الإدارية بدقة كما كانت أيام سليمان ولكن شكل ٣٨ يبين حدودها كما أمكن لعلماء التاريخ تحديدها. ويمكن الرجوع إلى شكل ١١ وهو يبين حدود الأسباط للمقارنة. وكما نرى فإن بعض الوحدات الإدارية كان يشمل مدنا كنعانية ولكن فيها جاليات كبيرة من بنى إسرائيل. كذلك فإن السهل الساحلى لم يكن يتبع إسرائيل فالجزء الشمالى كان يتبع الفينيقيين - يليه منطقة تابعة لإسرائيل من حيفا حتى يافا. ثم منطقة الفلسطينيين من يافا حتى حدود مصر. ومما أُخِذ على سليمان أن وحدتين من هذه الوحدات. وهما الواقعتين شرقى نهر الأردن كان يرأسها اثنان من أزواج بناته. ولكن لعله رأى أن الأرض شرق الأردن بعيدة نوعا ما عن العاصمة ويفصلها عائق مائى هو نهر الأردن مما قد يغرى حاكمها بالتمرد على الإدارة المركزية فى أورشليم. وضمانا لعدم حدوث ذلك فقد ولّى على اثنتين منها زوجى ابنتيه. وعلى العموم يمكننا أن نقول إن سليمان قد نجح إلى حد كبير فى توحيد الأسباط فى مملكة واحدة. إلا أن الوحدات الشمالية كانت أقرب إلى الاندماج فى كيان واحد يحمل بعض الشعور المعادى ليهوذا فى الجنوب ولكنه لا يُظهر ذلك لأن الملك من سبط يهوذا. وسنرى أنه ما إن توفى سليمان عليه السلام حتى انفصلت الأسباط الشمالية مكوِّنة مملكة إسرائيل الشمالية مستقلة عن مملكة يهوذا فى الجنوب (ص ٢٤٢).

٢ - السيطرة على طرق التجارة

اهتم سليمان اهتماما خاصا ببناء القلاع والحصون ووضع بها الحاميات. وعن طريقها أصبح هو المتحكم فى جميع طرق التجارة فى المنطقة ويجبى الضرائب والمكوس على البضائع التى تمر بهذه الطرق مما عاد على المملكة بأموال جمة. فقام بتجديد الحصون التى كانت فى مدن جازر ومجدو وحاصور ودان وبذلك سيطر على تجارة المصريين والفلسطينيين المتجهة إلى دمشق والعراق. وجازر مدينة كنعانية قديمة تقع ٢٥كم جنوب شرق يافا. وقد عجز الأفرايميون عن طرد الكنعانيين منها وظل الكنعانيون يعيشون وسط أفرايم. وقد غزاها فرعون مصر وأحرقها وأعطاها دوطة لابنته عند زواجها من سليمان. فأعاد سليمان بناءها واسمها الحالى هو تل الجزر. وكان لـ جازر وضع خاص لأنها تقع على الطريق الذى يؤدى إلى أورشليم من جهة الغرب ومن ثم فقد قوّى حاميات مدينتى بيت حورون وهما مدينتان كانتا تقعان على حدود أفرايم وبنيامين ويفصلهما ٤كم وعلى بعد ٢٠كم شمال غرب أورشليم وكانتا تُسمّيان بيت حورون العليا وبيت حورون السفلى ويقابلهما حاليا بيت عور الفوقة وبيت عور التحته. والطريق



شكل ٣٨ – المقاطعات الإدارية أيام حكم سليمان .

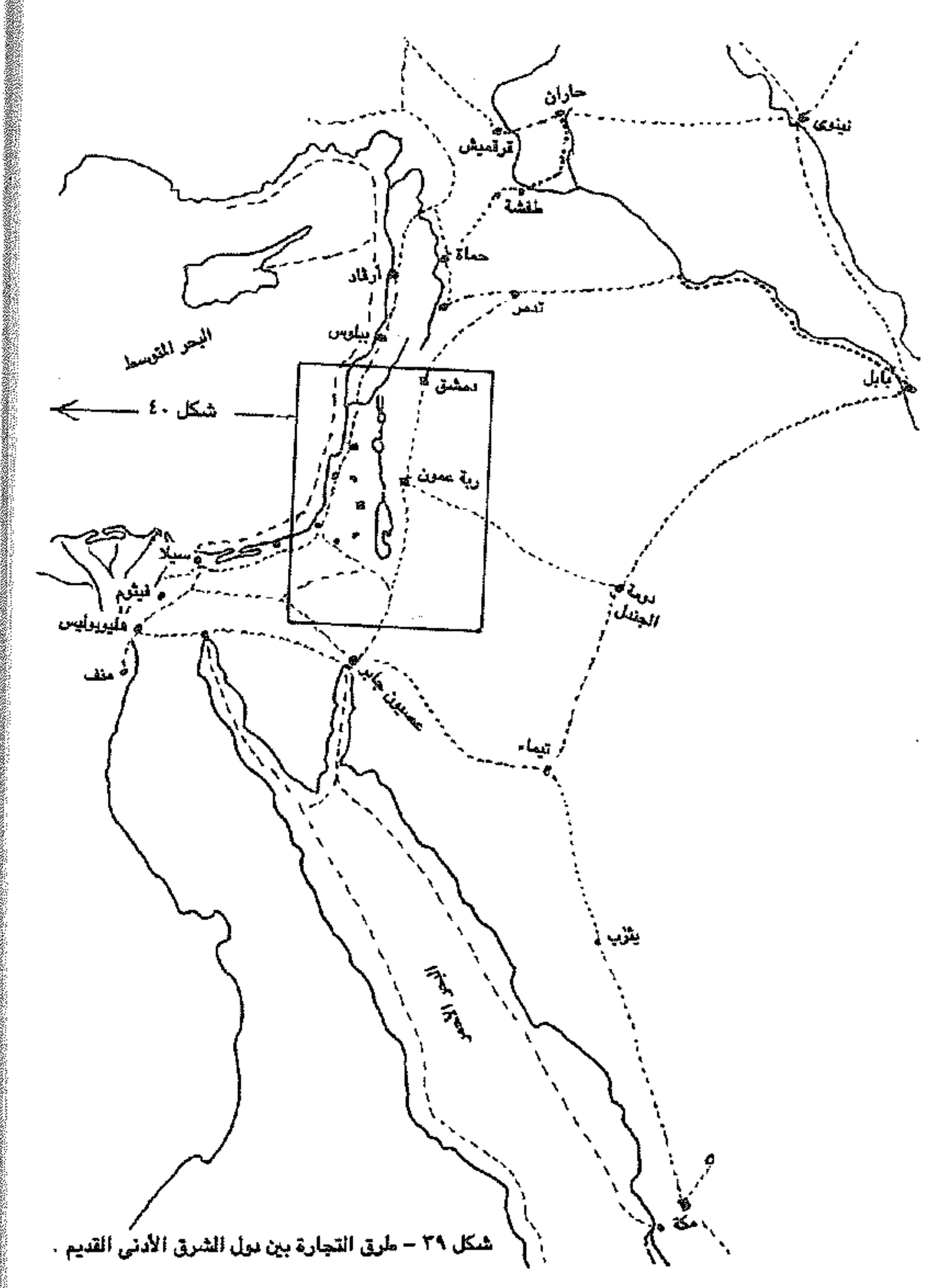
بينهما ينحدر من العليا بانحدار شديد نحو السفلي وهو أحد الطرق الموصلة من الساحل إلى وسط إسرائيل وعليه فإن مدينتى بيت حورون تعتبران خط متقدم للدفاع عن أورشليم ضد أى غزو من جهة الغرب. كما كان هذا الطريق مهما من ناحية أخرى. فقد كانت الأخشاب اللازمة للمنشآت فى أورشليم تنقل عبره. إذ تقطع الأخشاب من الغابات حول عكا ثم تنقل فى البحر إلى يافا. ثم بعد ذلك عن طريق جازر – بيت حورون إلى أورشليم.

وللسيطرة على الطرق التجارية فى الجنوب قوّى حصون «بعلة بئر» التى تقع ٣٠كم جنوب بئر سبع وبنى «قلعة النقب» على الطريق من بئر سبع إلى خليج العقبة. كما أنشأ مدينة جديدة فى صحراء أدوم هى «تمر» وهى «تامار» المذكورة فى التوراة. كما اهتم سليمان على وجه الخصوص بمدينة عصيون جابر على الطرف الشمالى لخليج العقبة. إذ هى فضلا عن كونها نقطة لمرور القوافل من الجزيرة العربية ومدين إلى فلسطين ومصر فهى مركز نشاطه البحرى ومقر أسطوله فى البحر الأحمر كما سيأتى فيما بعد. وأحكم السيطرة على الطريق السريع Highway شرق الأردن الممتد من عصيون جاء إلى عروعير – حشبون – ربة عمون – دمشق. وبنى مدينة فى الصحراء بين دمشق والعراق هى تدمر (پالميرا). وقد ثار نقاش كبير حول قول التوراة إن سليمان هو الذى بنى «تدمر» إذ يرى علماء التاريخ أنها مدينة قديمة جدا وهى تقع على بعد ٢٠٠كم شمال شرق دمشق. ولعلها كانت مجرد محطة للقوافل التى تقطع الصحراء الشاسعة بين سوريا والفرات فقام سليمان بمد نفوذه إليها ووضع بها حامية لتأمين طرق التجارة وجباية الرسوم على البضائع المارة بها فازدهرت المدينة وصارت واحدة من أجمل مدن العالم القديم. وهى الآن عبارة عن أطلال تمتد على مساحة ٢,٥×٢كم.

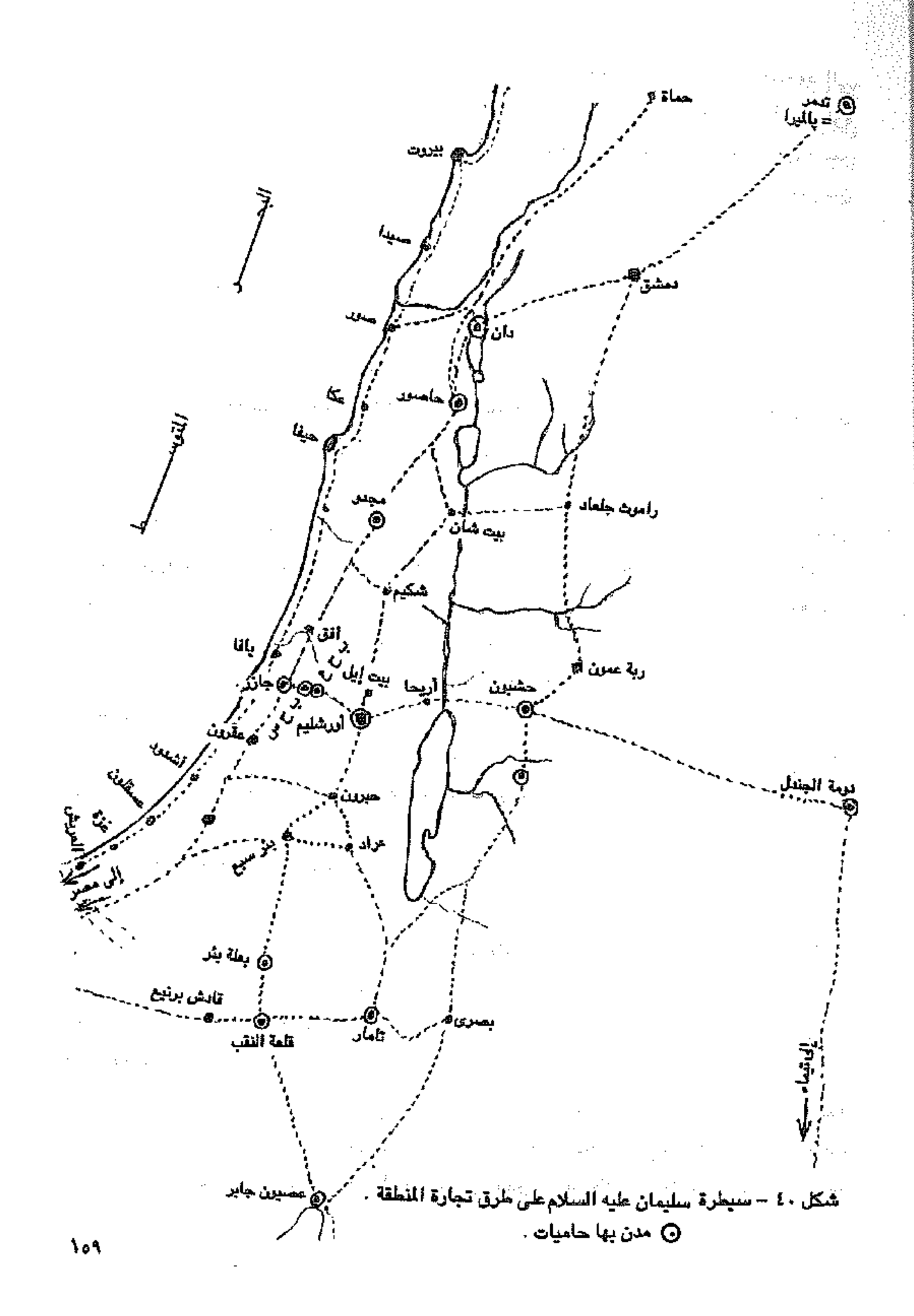
ووضع بكل هذه المحطات حاميات عسكرية ومخازن للحبوب وعربات وجيادًا كثيرة. وقد أثبتت الحفريات الحديثة أن عددا لا يقل عن ٥٠ قلعة قد بنيت فى عهد الملك سليمان. منها ما هو مربع أو على هيئة دائرة تبلغ أبعادها حوالى ٤٥×٤٥ مترا. وكانت تبنى بحوائط مزدوجة ولها بوابة يحرسها برجان. وبالقرب من القلعة بيوت كل منها مكون من ٤ غرف. وغرف خدمات تشمل مخازن للحبوب وخزانات مياه تحت الأرض واسطبل للخيل. ولاشك أن هذه البيوت كانت لإقامة عائلات الجنود الذين كانوا يقومون أيضا بزراعة منطقة حول الحصن تكفى لإعاشتهم.

لم تكن الحصون والحاميات هى وسيلة سليمان الوحيدة للسيطرة على الطرق التجارية بل إن علاقاته الحسنة مع الدول المجاورة من خلال مصاهراته مع ملوكها سهّلت له الأمر دون اللجوء إلى الحرب. وكمثال فإن علاقته المتميزة مع مصر من خلال زوجته المصرية مكّنته من السيطرة على طرق التجارة التى تربط مصر بالعراق وسوريا وبلاد العرب.

ولم تقتصر سيطرة سليمان على الطرق البرية بل بسط سلطانه على طرق التجارة فى



شكل ٣٩ – طرق التجارة بين دول الشرق الأدنى القديم .



شكل ٤٠ – سيطرة سليمان عليه السلام على طرق تجارة المنطقة .
⊙ مدن بها حاميات .

البحر الأحمر من عصيون جابر إلى الصومال واليمن وسبأ وبلاد شرق أفريقيا وسنعود إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد (ص ١٦٥). وبهذا أصبحت مملكة سليمان وسيطا فى كل تجارة المنطقة. وتمثل هذا بوضوح فى استيراد الخيول من الجزيرة العربية والأناضول ومن مصر أيضا. وتصنيع المركبات الحربية لحسابه في مصر. ثم يقوم هو ببيعها بخيولها إلى الحيثيين والأراميين وغيرهم. وكان يجنى من وراء ذلك أموالا طائلة.

ولع سليمان بالخيل

أشار القرآن الكريم إلى ولع سليمان بالخيل فى قوله تعالى :

«إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد. فقال إنى أحببت حُب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب. ردُّوها علىَّ. فطفق مسحًا بالسوق والأعناق» (٣١-٣٢-ص).

والصافن من الخيل الذى يرفع أحد رجليه - الأمامية أو الخلفية - ويقف على مقدم حافرها. والجياد جمع جواد للذكر والأنثى. وقالوا «**الصافنات الجياد**» وَصْفَيْنِ للخيل حال وقوفها وجريها. والخيل تُمدح بالسكون في الموقف كما تمدح بالسرعة فى الجرى (تفسير الألوسى. جـ ٢٣. ص ١٩٠). وقالوا إنه استعرض الخيل - وكانت كثيرة - فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن صلاة العصر. وروى عن الطبرسى عن على كرم الله وجهه وقتادة والسدى أن سليمان عليه السلام انشغل عن الصلاة وندم. والمشهور أنه تكفيرا عن ذنبه عقرها ووهب لحمها للفقراء صدقة منه. فقد أحب الخيل وهى من الخير - حتى غربت الشمس وشبُّه ذلك بتوارى المرأة بحجابها. فقال ردُّوا هذه الخيل ثانية وشرع يمسح السيف بسوقها أى كسف العراقيب حتى لا تجرى. وأعناقها كناية عن ذبحها. وعارض آخرون هذا التفسير إذ يجب حينئذ النص على المسح بالسيف وإلا كان قوله تعالى: «فامسحوا برؤوسكم» (فى الوضوء) يُفهم منها الضرب بالعنق!

ويرى ابن جرير (تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤) أن سليمان لم يكن يُعذِّب حيوانا بالعرقبة ويهلك مالاً بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. إلا أن ابن كثير يستدرك ويقول إن الذى ذهب إليه ابن جرير فيه نظر لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا ولاسيما إذا كان غضبا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة. وسنرى بعد قليل أنه لم يكن فى شرعهم صلاة عصر كما عندنا.

وفى تفسير قوله تعالى: «ردُّوها علىَّ...» قيل كلام كثير. قالوا إنه خطاب موجّه إلى الملائكة يطلب رد الشمس. وعارض آخرون ذلك لأن الله وحده هو القادر على رد الشمس فالخطاب موجه إلى الله سبحانه وتعالى بصيغة التعظيم. وردَّ آخرون بأن طلب رد الشمس بهذه الصيغة

لا يليق بنبى يطلب من ربه مثل هذا الطلب. ولو رجعت الشمس بعد غروبها لرآها الناس كلهم ولكان هذا الحدث قد سجلته الأخبار المتواردة عن السلف. كما أن رجوع ضمير «توارت» إلى الخيل هو الأصح لأن الخيل وهى الصافنات الجياد مذكورة بصريحها والشمس لم تُذكر. وعَوْد الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدَّر. أما الذين يقولون برد الشمس لسليمان فيرون أنه كردِّها ليشوع أثناء المعركة مع الملوك الخمسة الذين تحالفوا ضده (ص ٢٨) ومثل ردِّها لنبينا صلى الله عليه وسلم فى حديث العير ويوم الخندق. جاء فى الحديث الصحيح: لم تُحبس الشمس على أحد إلا ليوشع بن نون ومعنى الحديث لم تحبس لأحد من الأنبياء غيرى إلا ليوشع. وفى هذا نفى عن حبسها لسليمان. وحديث العير أنه لما أُسرِيَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العير. قالوا متى يجيء. قال يوم الأربعاء فلما كان ذلك اليوم أشرقت قريش ينظرون وقد ولَّى النهار ولم يجيء. فدعا رسول الله عليه وسلم فزيد له فى النهار ساعة وحُبِسَت عليه الشمس. وقيل كان بركة فى الزمان. وكما يقول الصوفية «نشر الزمان» ولكن هذا الحديث اختلفوا فى صحته وقالوا موضوع.

أما يوم الخندق فقد روى عن أسماء بنت عميس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ورأسه فى حجر على كرم الله وجهه. فلم يُصَلِّ العصر حتى غربت الشمس. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صلَّيت العصر ياعلى؟ قال لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس. قالت أسماء. فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت ووقَعَت على الأرض وذلك بالصهباء فى خيبر. وهذا الحديث أيضا فى صحته خلاف. وقد وصفه كثيرون بأنه من الموضوعات. وقالوا متروك وقالوا حديث باطل ولا أصل له وضعيف. كما أن ما حدث يوم الخندق قد روى بطريق آخر لم يرد فيه ردُّ الشمس. فقد روى ابن كثير (تفسيره . جـ٤ . ص ٣٣) أن النبى صلى الله عليه وسلم شُغِل عن صلاة العصر بحفر الخندق حتى صلاها بعد الغروب وذلك ثابت فى الصحيحين. وعن جابر رضى الله عنه قال: جاء عمر رضى الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ويقول يارسول الله والله ماكدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. والله ما صلَّيتُها. قال فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبى الله صلى الله عليه وسلم للصلاة وتوضأنا لها فصلَّى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب.

من هذا نرى أن رد الشمس للنبى صلى الله عليه وسلَّم لم يثبت. والحديث الذى يفيد أنها رُدَّت ليوشع مشكوك فى صحته وقد كانوا يستشهدون بهما لإثبات ردِّها لسليمان. كما أن القول بأن «حتى توارت بالحجاب» تعنى غروب الشمس فهذا مالا دليل عليه. فإن القرآن الكريم دائما يُعبِّر عن غروب الشمس بلفظ غربت أو تغرب أو الغروب أو غروبهما كما فى الآيات التالية.

«وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال» . (١٧ - الكهف) .

«حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمأة». (٨٦ - الكهف) .

«وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب». (٣٩ - ق) .

«وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» . (١٣٠ - طه) .

وبناء عليه فليست الشمس هى المقصودة بقوله تعالى «حتى توارت بالحجاب».

أما تفسير «عن ذكر ربى» بأنها صلاة العصر فهذا أيضا مالا دليل عليه إذ أنه ربط بين الذكر وتوارت بالحجاب التى فسروها بأنها تعنى غروب الشمس وقد نفينا ذلك. كما أن سليمان عليه السلام كان يدين بالموسوية، والصلاة فى الشريعة اليهودية لم تكن صلاة محدودة أى تقام فى مواقيت واجبة كل يوم كما هى الصلاة عندنا - نحن المسلمين - بل كانت الصلاة فى اليهودية تقام حسب الأحوال والاحتياجات الشخصية أو اليومية. والصلاة عندهم نوعان (الأديان والمذاهب، عبد الرازق محمد أسود، ص ١٧٩):

أ - صلاة فردية أى شخصية يقوم بها الأفراد حسب ظروفهم واحتياجاتهم ولا علاقة لها بالطقوس والمواعيد والمواسم، مثل صلاة إبراهيم من أجل أهل سدوم، وصلاة يعقوب لخلاصه من عيسو، وصلاة موسى من أجل بنى إسرائيل، وهذا النوع من الصلاة يقام فى أى وقت وفى أى مكان.

ب - صلاة مشتركة أو عمومية وهى التى تقام باشتراك جملة أشخاص علنا وتكون غالبا فى أماكن مخصصة وفى مواعيد معلومة وحسب طقوس وقواعد مقررة، ولم تفرض الصلاة الطقسية فى الشريعة اليهودية إلا بعد تدمير الهيكل والسبى، إذ أُبطلت الذبائح فتقررت الصلاة اليومية لتحل محل الذبائح وهذه الصلوات اليومية ثلاث:

١ - صلاة الفجر وتسمى صلاة السَحَر ووقتها من الفجر إلى ارتفاع النهار.

٢ - صلاة نصف النهار أو القيلولة، ووقتها من انحراف الشمس عند نقطة الزوال إلى مابعد الغروب.

٣ - صلاة المساء ووقتها من غروب الشمس إلى الظلمة.

من هذا نرى أنه فى وقت سليمان لم تكن الصلاة اليومية قد فُرضت بعد ولا كان لها وقت محدد. فلا محل لتفسير «ردوها علىّ» بأنه طلب لرد الشمس حتى يتمكن من صلاة العصر.

أما تفسير «عن ذكر ربى» بأنها الصلاة بالذات فهذا مالا دليل عليه أيضا. إذ أن ذكر الله قد يكون بالصلاة وقد يكون بغير الصلاة، وحتى الآية التى قد تُفيد بأن ذكر الله هو الصلاة فى قوله تعالى: «إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله» (٩ - الجمعة) فإن

ذكر الله لا يقتصر على صلاة الجمعة. بل إن قراءة أو الاستماع إلى قراءة القرآن الكريم هو نوع من ذكر الله. والخطبة نوع من ذكر الله. والتسبيح ذكر لله. والتفكر فى آيات الله فى الكون هو ذكر لله. وهناك آيات كثيرة تُفرِّق بين ذكر الله والصلاة مثل قوله تعالى:

«رجال لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله وإقام الصلاة». (٣٧ - النور).

«فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم». (١٠٣-النساء).

فهذه الآيات تفرِّق بين الصلاة وذكر الله وتبين أن ذكر الله أشمل وأعمُّ من الصلاة. فالصلاة هى الصلوات المفروضة بكيفيتها المعروفة تكبيرا وركوعا وسجودا. أما ذكر الله فيستحب في كل وقت فإذا أكلت أو ابتدأت أى عمل قلت: باسم الله. وإذا انتهيت من طعامك قلت: الحمد لله. وإذا نمت قلت: باسمك ربى أضع جنبى وبك أرفعه. وعند استيقاظك تقول: الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا. وهكذا. ويكون ذلك مصداقا لقوله تعالى: **«الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم»** . (٢٤ - الكهف).

وإذا استشعر المرء نعمة من نعم الله عليه ذكر الله: **«فلولا إذ دخلت جنتك قلتَ ماشاء الله. لا قوة إلا بالله»** (٣٩ - الكهف). فإذا رأيت ابنك يكبر ويترعرع قلت ماشاء الله. وإذا نجح فى امتحاناته قلت: الحمد لله. وحتى بافتراض أن المقصود بذكر الله هو الصلاة. فإن تأخير الصلاة عن وقتها - بنسيان أو انشغال عنها - يمكن للمرء قضاءها حال تذكُّرِه لها دون كفارة بذبح مئات أو آلاف الخيل التى يُنتفع بها فى وقت السلم والحرب.

وما نراه هو - وفى بساطة - أن سليمان عليه السلام - كان محبا للخيل وكان فى يوم يستعرض قطعانها - ولعلها كانت من سلالة متميزة ليست متوافرة عند أحد غيره. وأعجب بها أيما إعجاب فنسى أن يقول: ماشاء الله أو يقول الحمد لله. وهذا هو ذكر الله الذى نسيه **«إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى»**. وكانت الخيل قد بعدت فى سيرها **«حتى توارت بالحجاب»** توارت فى حجاب من مثار التراب من حوافرها. وتذكر سليمان أنه لم يحمد الله على هذه النعمة ولم يذكره. وخاف أن يكون هذا النسيان سببا لحرمانه من هذه النعمة فطلب من الحراس أن يردوا الخيل فردُّوها فطفق يمسح بيده على سيقانها وأعناقها وهو يذكر الله ولعله كان يقول: ماشاء الله. لا قوة إلا بالله. الحمد لله. ليبارك الله فيها.

يرى الأستاذ أحمد بهجت (أنبياء الله . ص ٢٧٦) أن سليمان استعرض الخيل عصرا حتى كادت صلاة العصر أن تفوت فسجد سليمان لله وصلَّى ثم أمر أن يردُّا إليه الخيل فراح يمسح على أعناقها وأرجلها بيده وهو يعتذر لله من أن الإعداد للجهاد والحرب والغزو كاد يُفوِّت عليه وقت الصلاة. ومن يومها استغنى سليمان عن الخيل فى جيشه. فعوَّضه الله عنها بالريح التى تحمل جنوده حيث يشاء! ولو كانت الريح تحمل الجنود إلى حيث يشاء لكانت

معجزة كبرى يراها الناس كلهم ويراها العدو. جنودا تحملهم الريح ويراهم يسقطون أمامه وينتظمون في صفوف للحرب ولجاء ذكر هذه المعجزة في أخبار الأولين. وأخيرا فإن القرآن الكريم قد أوضح مهمة الريح في قوله تعالى: «**فسخَّرنا له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب**» (٣٦ – ص). والرُخاء بضم الراء الريح اللينة. حيث أصاب أي حيث أراد وسنعود إلى تسخير الريح بتفصيل أكثر فيما بعد (ص ١٩٤).

ونعود إلى الخيل. تقول التوراة (ملوك أول ١٠:٢٦) وجمع سليمان مراكب وفرسانا فكان له ١٤٠٠ مركبة و ١٢,٠٠٠ فارس. فأقامهم في مدن المراكب (مدن خاصة بالمركبات والخيل وهي الحصون والحاميات التي سبق ذكرها) ومع الملك في أورشليم. وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر. وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بـ ٦٠٠ شاقل من الفضة والفرس بـ ١٥٠ ثم يبيعها هكذا لجميع ملوك الحيثيين وملوك أرام.

ذلك أن المصريين كانوا قد أدركوا أن سبب انتصار الهكسوس عليهم هو ماكان لديهم من عجلات حربيه تجرها الخيل. وبعد طرد الهكسوس أولوا الخيل عناية خاصة واستولدوا منها سلالات متميزة وبرعوا في صناعة المركبات الحديدية السريعة ذات العجلتين للصيد والحرب وكانوا يستوردون لها الأخشاب المتينة اللازمة لصنع بعض أجزائها – مثل المقاعد – من سوريا وفينيقيا. ولعل مما سهل لسليمان أن يكون وسيطا في تجارة الخيول والمركبات هو علاقته الوطيدة بمصر عن طريق زوجته المصرية. وكان المصدر الثاني للخيول هو دويلة سيلسيا في جنوب آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط وتشتهر أيضا بخيولها.

وأقام سليمان حظائر للخيل في جهات متعددة من مملكته: في بيت شان وحاصور ومجدُّو وتعنك وأورشليم وغيرها من المدن التي بها الحاميات المسيطرة على طرق التجارة. وقد كشفت بعثات التنقيب الأمريكية في مجدو عن حظائر ترجع إلى عهد سليمان. ووجدوا بقايا من إسطبلات الخيول والتي كانت تنتظم حول فناء دائري مبلَّط بملاط من الحجر الجيري وحوله ممر عرضه ١٠ أقدام وقد رصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل. وخارج الممر مرابط فسيحة عرض كل منها ١٠ أقدام. ووجدوا بعض معالف طعام الخيول ومعدات السقي. وخارج الحظائر توجد مساحات واسعة للمركبات. وقدِّر أن كل إسطبل كان يحوي ٤٥٠ حصانا ولكل حظيرة ١٥٠ عربة. فإذا افترضنا عرض المربط ١,٥ مترا لكي يتحرَّك فيه الحصان بحريَّة كان محيط الفناء الدائري ١١٥ مترا وبذلك تبلغ مساحة الإسطبل الواحد بفنائه الخارجي الذي توضع فيه المركبات – حوالي ١٣ فدانا وهذا يثير الدهشة من اتساع هذه الإسطبلات والعناية غير العادية التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات وهو ما يدل على أن الخيل في عهد سليمان كانت تلقى أحسن رعاية. الأمر الذي استحق أن يُسجَّل في القرآن الكريم.

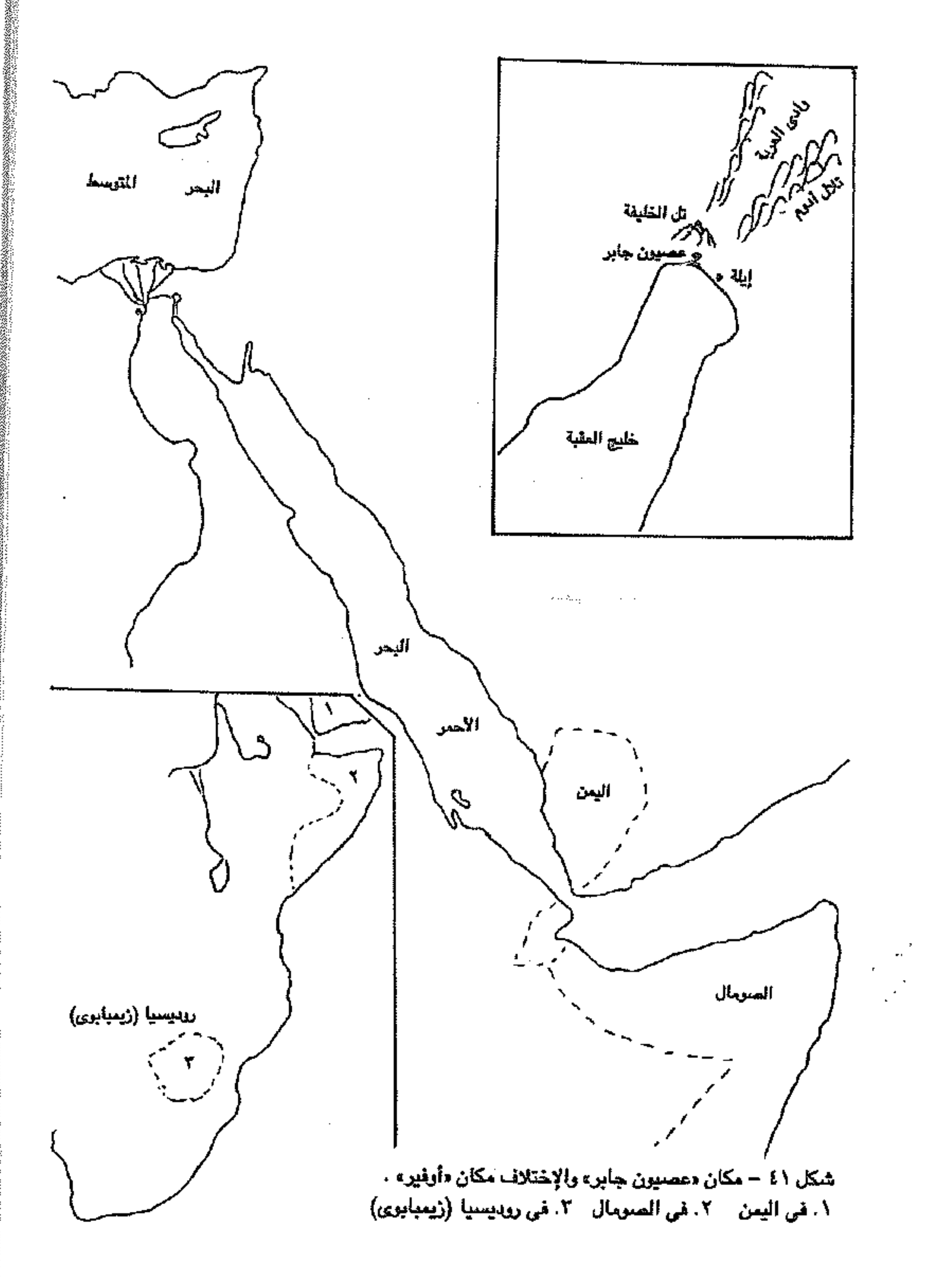
٤ - النشاط البحرى

بدأ سليمان عليه السلام بعد ذلك فى الاتجاه نحو البحر الأحمر كطريق للتجارة مع الدول الواقعة على شواطئه الجنوبية ودول أفريقيا (انظر شكل ٣٩). وعلى الرغم من أن مملكة إسرائيل كان لها جزء مطل على البحر المتوسط - من حيفا إلى شمال أشدود - بين فينيقيا وإمارة عكا فى الشمال والساحل الفلسطينى فى الجنوب - إلا أن سليمان عليه السلام لم يفكر فى أى نشاط بحرى فى البحر المتوسط. ولعله أراد أن يتجنّب حدوث منافسة بينه وبين حيرام ملك صور قد ينتج عنها إفساد العلاقات الطيبة بينهما. كما أن سواحل البحر المتوسط لم تكن بها مناطق «بكر» تنعم بالخيرات. ولاشك أن سليمان سمع من زوجته المصرية عن الرحلات التى كانت تقوم بها سفن الملكة حتشبسوت إلى بلاد پونت وتعود محملة بالخير الوفير. ولصنع الأسطول اللازم كانت الأخشاب تُقطع من الغابات فى صور ويرسلها بحرا صديقه حيرام إلى يافا. ثم تنقل من يافا برا إلى عصيون جابر بجوار - إيلة على الطرف الشمالى لخليج العقبة. وقد كشفت بعثات التنقيب فى تل الخليفة (مكان عصيون جابر) عن مسامير كبيرة من الحديد أو النحاس الممزوج بالحديد وقطع من الحبال الغليظة لضم الأخشاب وكتل من الصمغ والقار للصق الخشب وطلاء السفن. وقام رجال حيرام المتمرِّسين فى الملاحة بتدريب فريق من بنى إسرائيل على الأعمال الملاحية.

وتقول التوراة (ملوك أول ٩:٢٦) «وعمل الملك سليمان سفنا فى عصيون جابر التى بجانب إيلة على شاطىء بحرسوف فى أرض أدوم. فأرسل حيرام عبيده النواتى العارفين بالبحر مع عبيد سليمان وأتوا إلى «أوفير» وأخذوا من هناك ذهبا». ويفهم من هذا أن ربابنة السفن كانوا من الصوريين وهم الذين كانوا يقودون السفن بسبب خبرتهم بالبحار وتحت إمرتهم البحارة من بنى إسرائيل. وتعود السفن بالغنائم كلها لسليمان.

وقد اختلف العلماء فى تحديد مكان «أوفير» (شكل ٤١). ففى عام ١٨٧١ قام «كارل ماوخ» الألمانى بالتنقيب فى روديسيا (زيمبابوى) ووجد منطقة كبيرة بها بقايا مبان. وبعد ١٥ عاما عثر الباحث ستاينبرج من جنوب أفريقيا فى نفس المنطقة على منشآت تعدينية. ورجَّح أنها عملت لتقديم المعادن اللازمة لأورشليم والهيكل. وأثبت أن الذهب والفضة كانا يستخرجان من هذه المنطقة. وفى عام ١٩١٠ قام الألمانى كارل پيتر بتصوير نقوش ورسومات هناك يرى المتخصصون أن فيها ملامح فينيقية. ويرى دكتور أولبرايت أن «أوفير» هى حاليا الصومال (الكتاب المقدس كتاريخ. وارنر كيللر. ص ٢١٢).

وهناك آخرون يرون أن «أوفير» تقع على الجزء الجنوبى من الساحل الغربى لجزيرة العرب (جواد على. جـ ١ . ص ٦٣٩). وقد ذكر الهمذانى أن باليمامة موضعا اسمه «الحفير» وقال



شكل ٤١ – مكان «عصيون جابر» والإختلاف مكان «أوفير» .
١. فى اليمن ٢. فى الصومال ٣. فى روديسيا (زيمبابوى)

إن به معدن الذهب بغزارة وهو ما ينطبق على وصف «أوفير» إلى حد كبير. وهناك من يرى أن «أوفير» معناها «الأرض الحمراء» أى الحمراء بلون الذهب وأنها ليست علما على بلد معيَّن، وهو وصف ينطبق على بلاد عدة كاليمن وشرق أفريقيا (محمد بيومى مهران، دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، جـ ٨، ص ٧٨٦). ويرى السيد يعقوب بكر أن اليمن الحالية هى «أوفير» وكانت موطنا للذهب وكان يستخرج خالصا نقيا لا يُعالج بالنار لتنقيته من الشوائب الغريبة ولهذا سماه الاغريق Apyron التى أُخذ منها لفظ Ophir «أوفير» (مونتجمرى، بلاد العرب والكتاب المقدس، ص ٣٩).

وبالإضافة إلى الذهب كان أسطول سليمان يعود محملا بالفضة والعاج والقرود والطواويس من شرق أفريقيا.

٥ – التعدين

احتاج سليمان عليه السلام – للمنشآت الكثيرة التى قام بها فى أورشليم وغيرها من المدن ولأسطوله – كميات كبيرة من المعادن من نحاس وحديد لصنع المسامير ومصاريع الأبواب وتجليد أبواب المدن الكبيرة ولصنع المركبات سواء الحربية أو لنقل البضائع. لهذا كله نال التعدين عناية خاصة من سليمان عليه السلام. وكان اختيار «عصيون جابر» على الطرف الشمالى لخليج العقبة اختيارا موفَّقا، إذ هو يقع على مقربة من أرض أدوم التى وصفتها التوراة بقولها: «أرض حجارتها حديد وفى جبالها تحفر نحاسا» (تثنية ٨:٩) . ويعتقد أنها كانت مكان تل الخليفة الموجود على بعد ٥٠٠ قدم من ساحل البحر غرب ميناء إيلات الإسرائيلى (شكل ٤١).

وقد قامت بعثتان أمريكيتان باستكشاف المنطقة. الأولى فى عام ١٩٣٧ برئاسة نلسون جلوك ووجدت البعثة أن الصخور فى هذه المنطقة غنية بالحديد والنحاس. وفى كل مكان على طول وادى العربة وُجدت ممرات محفورة فى الصخر هى كل ما تبقى من مناجم مهجورة. كما عُثِر على قوالب طوب هى بقايا حوائط مبانى هذه المدينة القديمة. وفى كل مكان فى حدود المدينة أو بقربها وجدوا اللون الأخضر الذى يدل على أكاسيد النحاس والخبث الذى يطفو على سطح النحاس المنصهر. وقد ثبت أن هذه البقايا ترجع إلى عام ١٠٠٠ ق.م. أى حين كان سليمان يحكم إسرائيل. وفى عام ١٩٤٠ قامت البعثة الثانية باستكشافاتها وأكَّدت ما وجدته البعثة الأولى وزادت بأن وجدت قوالب لصب النحاس المنصهر. كما وُجد بناء ثبت أنه كان الفرن الرئيسى لصهر النحاس. إذ وُجِد به صفَّان من الفتحات هى بلا شك فتحات تهوية ومداخن. لا تقل فى إتقانها وتوزيع أماكنها عن أى تصميم حديث لأفران صهر المعادن . إذ أن

مداخل الهواء والفتحات المقابلة تقع على محور شمالى - جنوبى وهو اتجاه الريح السائدة فى وادى العربة وهو ما يؤدى عمل الكير المستعمل حاليا لنفخ الهواء فى أفران صهر المعادن. وهذا يدل على البراعة فى اختيار هذا المكان بالذات لإقامة أفران صهر المعادن إذ هو يقع فى أعالى الجبل وهو ما يهيىء الاستفادة القصوى من سرعة الرياح فى إذكاء النار اللازمة للصهر. ويرى بعض الباحثين أن الفينيقيين هم الذين علّموا أتباع سليمان كيفية تنقية النحاس إلى هذه الدرجة بالغة النقاوة وإن كنا نرى أن هذا النحاس النقى كان هبة من الله سبحانه وتعالى لسليمان عليه السلام كما جاء فى القرآن الكريم:

«وأسلنا له عين القِطر» . (١٢-سبا)

والقطر هو النحاس المذاب. وقال الألوسى (تفسيره . جـ ٢٣ . ص ١١٧): كما ألان الله الحديد لداود. كذلك أذاب النحاس لسليمان فكان النحاس النقى المذاب يخرج من العين كما يسيل الماء. إذ أنه لإسالة المعادن يلزم التسخين فكانت إسالة النحاس لسليمان معجزة. وقال آخرون إن الله أسالها له ثلاثة أيام (عكرمة والسدى) أو ثلاثة أيام بلياليهن (مجاهد). وقالوا كان النحاس يسيل ثلاثة أيام كل شهر (رواية أخرى عن مجاهد). وقال بعضهم إن نسبة الإسالة إلى العين مجازية كما فى قولنا «جرى النهر» أى أنهم يرون أنه كان يلزم تسخين النحاس ليصير سائلا. ولكن اللفظ القرآنى يفيد غير هذا إذ أن نسبه الإسالة إلى الله سبحانه وتعالى «وأسلنا» تجعل الإسالة حقيقة مؤكدة. كما أن إسالة المعادن يلزم لها أن تصل إلى درجة معينة من الحرارة فهذه أيضا سنة من سنن الكون «ولن تجد لسنة الله تحويلا». ومن هنا كانت كثرة التفاسير. وما نراه هو أن المنطقة الجنوبية من أرض سعير هى منطقة جبال بركانية. ومعروف أنه قبل ثورات البراكين تسيل الحمم المنصهرة من شقوق فى الأرض ويتصاعد الدخان والغازات وبخار الماء. وقد تطول هذه الفترة لعشرات السنين قبل أن ينفجر البركان. وقد لا ينفجر ويخمد. وهكذا قيّض الله لسليمان عليه السلام عينا يخرج منها النحاس المنصهر سائلا. وقد يرى البعض أن الله قادر على إسالة النحاس دون الحاجة إلى منطقة براكين وبدون الحاجة إلى سخونة الحِمَم. وهذا حق ولكنها سنة الله فى الأسباب والمسببات ولن تجد لسنة الله تبديلا. وبهذا تكون «عين القطر» عبارة عن فوهة بركان صغير يسيل منها النحاس السائل. وبالطبع كانت المنطقة كلها تتصاعد منها - من شقوق فى الأرض - الأبخرة الساخنة وغازات الكبريت والميثان الخانقة. وما كان للبشر أن يستطيعوا العمل فى مثل هذه البيئة. لذلك كان الجان - بطبيعتهم النارية - هم أصلح من يعمل فى هذا الجو. ولذلك كان تسخير الجن من تمام المعجزة. ولقد جاء ذكر هذا التسخير فى القرآن الكريم مباشرة بعد ذكر إسالة عين القطر.

«وأسلنا له عين القِطر. ومن الجن مَن يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير» (١٢-سبا).

تسخير الجـن

تشير الآية السابقة إلى أن الله سبحانه وتعالى سخَّر الجن لسليمان وقيل «من الجن» للتبعيض أى سخَّر الله بعضا من الجن يعمل له بإذن ربه. ومن يَحِدْ أو يتوانى عما أمره الله من إطاعة سليمان يذيقه الله من عذاب النار فى الآخرة كما قال أغلب المفسِّرين وقالوا تعذيب فى الدنيا أيضا. والرد المشهور على كيف تحرق النار الجن وهم مخلوقون من نار. هو أن الإنسان مخلوق من طين ومع ذلك يؤله أن يُضرب بقالب من طين!

«يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات» . (١٣ – سبأ).

وهكذا سخر الله الجن يعملون لسليمان ما يشاء من أثاث لازم لبيت الرب والهيكل الذى يبنيه. ومحاريب جمع محراب. وقيل كانت أماكن العبادة فى أيامهم تسمى محاريب.

«فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبِّحوا بكرة وعشيا» . (١١ – مريم).

«كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا» . (٣٧ – آل عمران).

«فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب» . (٣٩ - آ عمران).

«وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب» . (٢١ – ص).

وقيل سُمِّى محرابا لأنه محل محاربة الشيطان. أما المحراب بمفهومنا الحالى فهو مُقام الإمام من المسجد وهو ما أُحدِثَ فى المساجد ولم يكن موجوداً من قبل. وقد كره الفقهاء الوقوف في داخله لذلك نرى الأئمة دائما يتأخرون عن المحراب ذاته وأصبح المحراب الآن فى المساجد يُتَّخذ كبيان لاتجاه القبلة.

كذلك كان الجن يعملون لسليمان ما يشاء من تماثيل. ولم تكن محظورة فى شريعتهم وقد سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع. ص ١٠١٤) أن تابوت العهد كان فوق غطائه تمثالان لَملَكين. «وجفان» جمع جفنة وهى ما يوضع فيه الطعام. «والصحيفة» هى ما يوضع فيه طعام لشخص واحد. يليها فى الكبر «المئكلة» وهى ما تشبع الاثنين أو الثلاثة. يليها «الصحفة» وهى ما يشبع الخمسة ثم «القصعة» وهى ما يشبع العشرة ثم «الجفنة». وكانت سعة جفان سليمان عليه السلام تشبه الجابية «وجفان كالجواب» والجابية هى الحوض الذى يُجبى فيه الماء للإبل. قال البعض بأنه كان يجلس إلى الواحدة ألف رجل! ولا شك أن فى هذا مبالغة كبيرة. إذ لو افترضنا أن كل ثلاثة أشخاص يشغلون لمجلسهم مترا لكان محيط الجفنة ٣٣٣ مترا ولكان نصف قطر الجفنة الواحدة هو ٥٥ مترا. ويستحيل الوصول إلى الطعام الموجود بداخلها لأبعد من متر. كما يستحيل ملؤها بالطعام إلاَّ أن يغوص العمال بأرجلهم فى الجفنة ذاتها. لذلك نرى أن الجفنة الواحدة ماكان ليزيد نصف قطرها عن متر فيكون محيطها ٦,٣٠ مترا. وهو

يكفى عشرين شخصا ليجلسوا حولها. كذلك كان الجان يعملون قدورا أكبر لطبخ الطعام، وهذه كانت ثابتة على المواقد والتنانير ولذا وُصِفت بأنها «قدور راسيات».

هنا قد يثور السؤال: كيف كانت هذه الأشياء التى يعملها الجان تأتى إلى الناس؟ فالجان فى الحالة التى خلقهم الله عليها لا تراهم أعين البشر. فهل كان الناس يرون النحاس يتشكل أمامهم فى تماثيل وجفان وقدور بدون أن يروا من يقوم بتشكيله؟ أى أنهم يرون النحاس أو غيره من المعادن وكأنه يتشكَّل من نفسه! ما نظن أن أمرا كهذا كان يحدث إذ يكون أمرا عجيبا جديرا بالذكر فى كتب وروايات الأولين. وما نراه هو أن الجان لابد وأنهم قد تشكلوا فى صورة بشرية. وقد مرَّ بنا أن الملائكة – رسل الله – المكلَّفون بإهلاك قوم لوط – لما قدموا على إبراهيم عليه السلام تشكلوا فى صورة بشرية (الجزء الثانى ص ٣٢١).

وقياسا على ذلك فلابد أن الجان تشكلوا أيضا فى صورة بشرية ولكنها تتحمل الظروف القاسية حول عين القِطر من حرارة شديدة وأبخرة خانقة. ويصنعون الجفان الكبيرة التى لابد كانت من الثقل بحيث يعجز البشر عن حملها. وظن بنو إسرائيل أن هؤلاء العمال عبيد من الشعوب التى قهروها. تقول التوراة (ملوك أول ٩:٢٠): «جميع الشعوب الباقين من الأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. الذين ليسوا من بنى إسرائيل. أبناؤهم الذين بقوا من بعدهم فى الأرض. الذين لم يقدر بنو إسرائيل أن يُحرِّموهم جعل عليهم سليمان تسخير عبيد إلى هذا اليوم. وأما بنو إسرائيل فلم يجعل سليمان منهم عبيدا». وفى رأينا أن هذا هو السبب فى أن التوراة لم تذكر شيئا عن تسخير الجن لسليمان. ومما يُؤيد أن هؤلاء العبيد المسخرِين فى أعمال التعدين كانوا فى حقيقتهم من الجن أن هذه المنطقة لم يكن بها عيون ماء إطلاقا. ولو كانوا بشرا للزم لهم كميات هائلة من المياه للشرب. كما أن البعثات التى نقَّبت فى هذه المنطقة لم تعثر على أى هيكل عظمى بشرى مع أن المتوقع لعمال من البشر يعملون فى هذه الظروف القاسية أن يتساقط منهم المئات بل الآلاف أمواتا. مع أن بعثات التنقيب قد وجدت آثارا كثيرة مثل الجفان والقدور الفخارية التى كان يصهر فيها النحاس أو التى كان يجمع فيها النحاس الذى يسيل من «عين القِطر» وكثير منها تبلغ سعته ١٤ قدما مكعبا أى ٣٧٨ لترا وهذا يعنى أن الجفنة قطرها ١,٥ – ٢ مترا. وقد سمَّى الباحث نلسون منطقة عصيون جابر بأنها كانت «بتسبرج» إسرائيل القديمة!

ثراء الملك سليمان

يُضرب المثل بسليمان فى ثرائه وكنوزه. وتقول التوراة (ملوك أول ١٠–١٤): «وكان وزن الذهب الذى أتى سليمان فى سنة واحدة ٦٦٦ وزنة ذهب». ولما كانت وزنة الذهب تساوى ٣٠ منًا والمن من الذهب ١٠٠ شاقلا والشاقل ٢٠ جيرة أى ١١,٤٢٤ جراما (قاموس الكتاب

المقدس، ص ١٠٢٤). فتكون وزنة الذهب تساوى ٣٤,٢٧٢ كيلو جراما أى أن ال ٦٦٦ وزنة ذهب تساوى ٢٣ ألف كيلو جراما من الذهب!! وتستمر التوراة قائلة: ماعدا الذهب عند التجار وولاة الأرض. وعمل الملك سليمان ٢٠٠ ترس من ذهب مطرّق. خصٌ الترس الواحد ٦٠٠ شاقل من الذهب و ٣٠٠ مِجَنّ من ذهب مطرّق خصٌ المجن ٣ أمناء من الذهب (أى ٣٠٠ شاقل). والمجن هو الترس الكبير. والتُرس هو ما جرى الناس على تسميته بالدروع فى حين أن الدروع غطاء واقى تُلبَس على الجسم ويغطى الصدر والبطن والظهر ويتألف من جزءين موصولين عند الجنب. أما الترس فهو ما يحمله المحارب بيده اليسرى ليتقى بها الضربات وكان يصنع من الخشب وكثيرا ماكان يغطى بجلد مغموس فى الزيت حتى لا يتشقق. وكان المحارب يحمل الترس بحزام جلدى على ظهره فإذا جاءت المعركة نزعه ليمسكه بيده اليسرى بإدخال اليد تحت سيرين من الجلد على مؤخر الترس وقبض الأصابع على سير صغير عند حافته. أما المجن – وهو الترس الكبير – فكثيرا ماكان يحمله رجل خاص يرافق المحارب (قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٧٧) ووضع الملك التروس والدروع فى قصره المسمى «بيت وعر لبنان» وسُمِّى كذلك لأنه استخدم فى بنائه كميات هائلة من خشب الأز المجلوب من لبنان. وعمل الملك كرسيا عظيما من عاج وغشاه بذهب إبريز وللكرسى ٦ درجات. وتستمر التوراة فى وصف الكرسى فتقول: «للكرسى رأس مستدير من وراء. ويدان من هنا ومن هناك على مكان الجلوس. وأسدان واقفان بجانب اليدين و١٢ أسداً واقفة هناك على الدرجات الست من هنا ومن هناك لم يعمل مثله فى جميع الممالك. وجميع آنية شرب الملك من ذهب وجميع آنية بيت وعر لبنان من ذهب خالص لا فضة. هى لم تُحسب شيئا فى أيام الملك سليمان لأنه كان للملك فى البحر سفن مع سفن حيرام. فتعاظم الملك سليمان على كل ملوك الأرض فى الغنى والحكمة. وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه. وكانوا يأتون كل واحد بآنية فضية وآنية ذهب وحُلل وسلاح وأطياب وخيل وبغال سنة فسنة».

وكدليل على عِظَم ثرائه نذكر أيضا ما قالته التوراة (ملوك أول ٢٧:١٠): «وجعل الملك الفضة فى أورشليم مثل الحجارة. وجعل الأرز مثل الجميز الذى فى السهل فى الكثرة» (خشب الأرز هو أرقى أنواع الخشب لمتانته واستواء فروعه فى حين أن خشب الجميز هو أرخص أنواع الخشب). وهناك عشرات القصص التى نُسِجت حول ثراء الملك سليمان يؤيدها ما روى من بذخ شديد فى بناء وتأثيث الهيكل وتأثيث قصور الملك وقصور زوجاته وحريمه. وقد أدى هذا البذخ الشديد إلى استهلاك معظم هذه الثروة. الأمر الذى ألجأ سليمان لأخذ خشب من صور لم يدفع ثمنه كما استدان ١٢٠ وزنه ذهب من حيرام ملكها واضطر – لتسديد هذا الدين – أن يتنازل له عن ٢٠ مدينة فى الجليل. تقول التوراة (ملوك أول ١١:٩): «وكان حيرام ملك صور قد ساعد سليمان بخشب أرز وخشب سرو وذهب حسب كل مسرّته. أعطى حينئذ الملك سليمان حيرام ٢٠ مدينة فى أرض الجليل. فخرج حيرام من صور ليرى المدن التى

أعطاها إياه سليمان فلم تحسُن في عينيه. فقال ماهذه المدن التي أعطيتني يا أخي ودعاها أرض كابول إلى هذا اليوم وأرسل حيرام للملك ١٢٠ وزنة ذهب».

ولما أراد سليمان الحصول على كميات أكثر من الخشب اضطر إلى إرسال رجال من طرفه لقطع الأخشاب من غابات الأرز في لبنان فلجأ إلى تسخير رجال من بني إسرائيل (ملوك أول ٥ : ١٣) «وسخَّر الملك سليمان من جميع بني إسرائيل وكان السُّخر ٣٠,٠٠٠ رجل فأرسل إلى لبنان ١٠,٠٠٠ في الشهر بالنوبة. يكونون شهرا في لبنان وشهرين في بيوتهم. وكان أدونيرام على التسخير». وأحيانا تكتب أدورام (٢ صموئيل ٢٠:٢٤) أو هدورام (٢ أخبار ١٠:١٨) وقد أقامه سليمان على الجزية أيضا طوال مدة حكمه. واستمر إلى عصر رحبعام ابنه (قاموس الكتاب المقدس، ص ٤١). وكان لسليمان ٧٠,٠٠٠ يحملون أحمالاً و ٨٠,٠٠٠ يقطعون في الجبل. بالإضافة إلى رؤساء العمال ٣٣٠٠ متسلطين على الشعب العامل. وأمر الملك أن يقطعوا قطعا كبيرة من الحجارة مربعة الشكل لأساس البيت ونحتها بنَّاؤو سليمان بإشراف من بنائي حيرام. وهيَّأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت بالإضافة إلى الحجارة والأخشاب التي كان داود عليه السلام قد هيأها قبل وفاته.

هيكل سليمان

أورشليم :

قبل الدخول في تفاصيل بناء بيت الرب والهيكل في أورشليم نستكمل ما بدأناه في صفحة ١٢٠ عن هذه المدينة. فقد ذكرنا أن اسمها الأصلي كان يبوس نسبة إلى الجد الأكبر لقبيلة اليبوسيين الذين كانوا يسكنون المدينة. وهو من نسل كنعان بن حام بن نوح. إلا أن علماء اللغويات يرجعون الاسم إلى أصل سامي قديم ويرجِّحون أن الأموريين هم الذين بنوها وسموها على اسم إلههم «شالم» وسُمِّيت «يوروشالم» أي «أسسها الإله شالم». وكانت الكتابات المصرية القديمة في القرن التاسع عشر ق.م. تسمِّيها «يوروساليموم» أما خطابات تل العمارنة في القرن الرابع عشر ق.م. فتكتبها «يوروسالم» ولكن المقطع الثاني من الإسم ارتبط في الفكر اليهودي بكلمة «شالوم» وهي تعني السلام وعليه فمعنى «أورشليم» هو «مدينة السلام». وسماها العرب «بيت المقدس» أو اختصاراً «القدس».

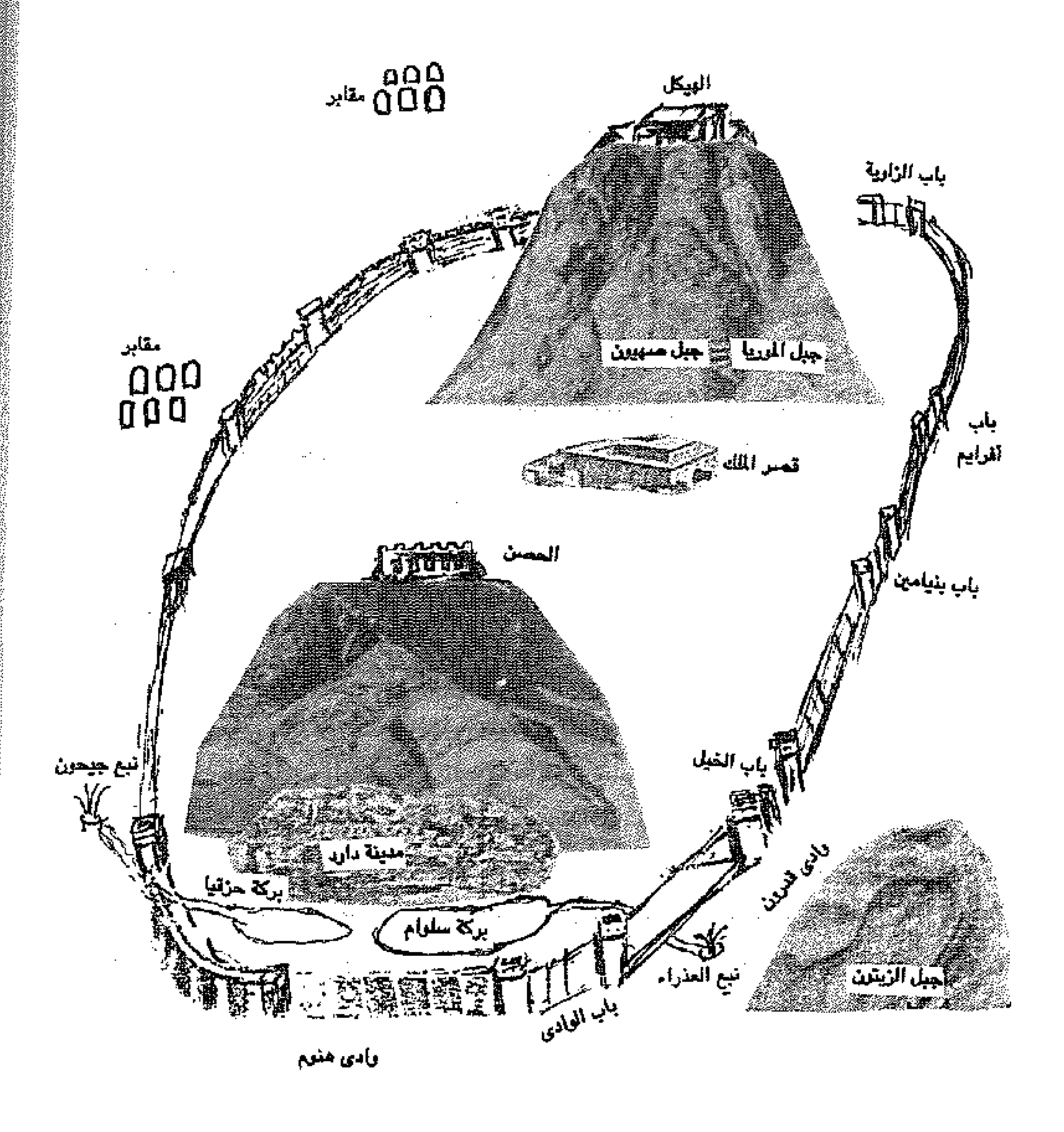
وتقع أورشليم ٢٥كم غربي الطرف الشمالي للبحر الميت وحوالي ٥٥كم شرقي ساحل البحر المتوسط. وهي تقع على هضبة غير مستوية يتراوح ارتفاعها بين ٧١٠ و ٨٢٥ مترا فوق سطح البحر وجوها قاري صحراوي إلى حد كبير فالحرارة في الصيف قد تتجاوز ٣٠ درجة مئوية وقد تنزل في الشتاء إلى - ٥ درجة ومطرها شتوي متوسط وليس بها أنهار إنما تحيط بها

عيون كثيرة تتفاوت فى غزارة مياهها وصلاحيتها للشرب. وتتدفع المياه من بعضها بغزارة عند نزول الأمطار فتكون جداول مؤقتة. وأشهر هذه العيون هو «نبع العذراء» الذى يسيل ماؤه فى قناة ملتوية منحوتة فى الصخر طولها ١٧٨٠ قدما عملها أهلها القدامى لتأمين مصدر للمياه للسكان فى حالة حصار الأعداء لها. ويفيض الماء عند نهايتها مكونا مياه هى «بركة سلوام» وهى التى تسمى اليوم بركة سلوان وطولها ١٩ مترا وعرضها ستة أمتار. وقد قام بنو إسرائيل بتحويل القناة المكشوفة إلى نفق فى الصخر. وفى عام ١٨٨٠ اكتشفت نقوش باللغة العبرية القديمة تفيد أن العمال بدأوا ينحتون الصخر من جانب العين ومن جانب البركة وظلا يعملان حتى التقيا أخيرا. وجرى الماء إلى البركة من خلال النفق بدلا من أن يجرى فى قناة مكشوفة يسهل للأعداء ردمها ومن ثم حرمان سكان المدينة من المياه. ونفس الشيء عمله الملك حزقيا فى عين جيحون فحول ماءها إلى قناة منحوته فى الصخر لتكون بركة صغيرة داخل أسوار المدينة هى «بركة حزقيا» وتسمى حاليا «بركة الحمام».

بناء بيت الرب والهيكل :

لقد رأينا مدى العلاقة الحميمة التى كانت بين سليمان عليه السلام وحيرام ملك صور. وتقول التوراة (١ ملوك ٥ : ٧): «وأرسل سليمان إلى حيرام يقول: أنت تعلم أن داود أبى لم يستطع أن يبنى بيتا للرب إلهه بسبب الحروب التى أحاطت به. والآن فقد أراحنى الرب إلهى من كل الجهات فلا يوجد خصم ولا حادثة شر. وهأنذا قائم على بناء بيت لاسم الرب إلهى كما كلم الرب داود قائلا: إن ابنك الذى أجعله مكانك على كرسيك هو يبنى البيت لاسمى. والآن فأْمُر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ويكون عبيدى مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب ما تقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين. فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح جدا. وقال: مبارك اليوم الرب الذى أعطى داود ابنا حكيما على هذا الشعب الكثير. أنا أفعل كل ما يسرُّك فى خشب الأرز وخشب السَّرو. عبيدى يُنزِلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله أرماثا فى البحر إلى الموضع الذى تعرفنى عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله. وأنت تعمل ما يرضينى بإعطائك طعاما لبيتى. فكان حيرام يعطى خشب أرز وخشب سرو. وأعطى سليمان حيرام ٢٠,٠٠٠ كُر حنطة و ٢٠ كُر زيت» . (الكُرّ من مكاييل الحبوب ولغويا يعنى كومه ويُسمَّى أيضا « حومر » وهو حمولة حمار – تفسير الكتاب المقدس – أونجر ص ٨٤٣).

وفى السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل بدأ سليمان فى بناء بيت الرب. وقد بنى المعبد على جبل مورية (الموريا) وهو أحد تلال أورشليم (شكل ٤٢ و شكل ٣٤) فى المكان



شكل ٤٢ – رسم تقريبي لمدينة القدس أيام سليمان عليه السلام .
(١٠٠٠ ق . م .) .

الذى بنى فيه داود مذبحا للرب بعد أن مُهدت الأرض وسُدّت الثغرات التى كانت فيها. وكان الهيكل بوجه عام على شكل خيمة الشهادة (خيمة الاجتماع) إلا أن الأبعاد كانت ضعف ماكانت عليه فى الخيمة. كما أن معالم الزينة كانت أكثر بذخا وفخامة. وكان مدخل الهيكل يتجه ناحية الشرق. ويبين شكل ٤٣ التخطيط العام للمعبد وشكل ٤٤ يبين المنظر الخارجى للهيكل كما أمكن للرسامين إعادة تصوُّرِه من الأوصاف التى وردت فى التوراة.

وكان البيت طوله ٦٠ ذراعا وعرضه ٢٠ ذراعا وارتفاعه ٣٠ ذراعا والرواق قدام الهيكل طوله ٢٠ ذراعا وعرضه ١٠ أذرع. وعمل للبيت نوافذ مسقوفه مُشبُكة. وبنى مع حائط البيت أجنحة جانبية حول الهيكل والمقدس. وكانت الحوائط سميكة من أسفل وكلما ارتفع الطابق قل سمكها. وكانت الحجارة قد تم قطعها وتسويتها وصقلها فى المحاجر ثم نقلت إلى مكان البيت وهذا يفسِّر ما ذكرته التوراة (١ ملوك ٦:٧) «ولم يسمع فى البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد».

أما قدس الأقداس وهو مكان التابوت فكانت أبعاده ٢٠×٢٠×٢٠ ذراعا. ومبنى من أضلاع (عروق) خشب الأرز وغُشّىَ من داخل بذهب خالص. وسُدَّ بسلاسل من ذهب مكان الحجاب فى الخيمة. وعمل فى المحراب كروبين من خشب الزيتون ارتفاع الواحد ١٠ أذرع ومن طرف الجناح إلى طرف الجناح الآخر ١٠ أذرع. فلما وُضع الاثنان كانت أجنحتهما فى وسط البيت يمسّ أحدهما الآخر وتحتها التابوت. وغشّى الكروبين بذهب خالص.

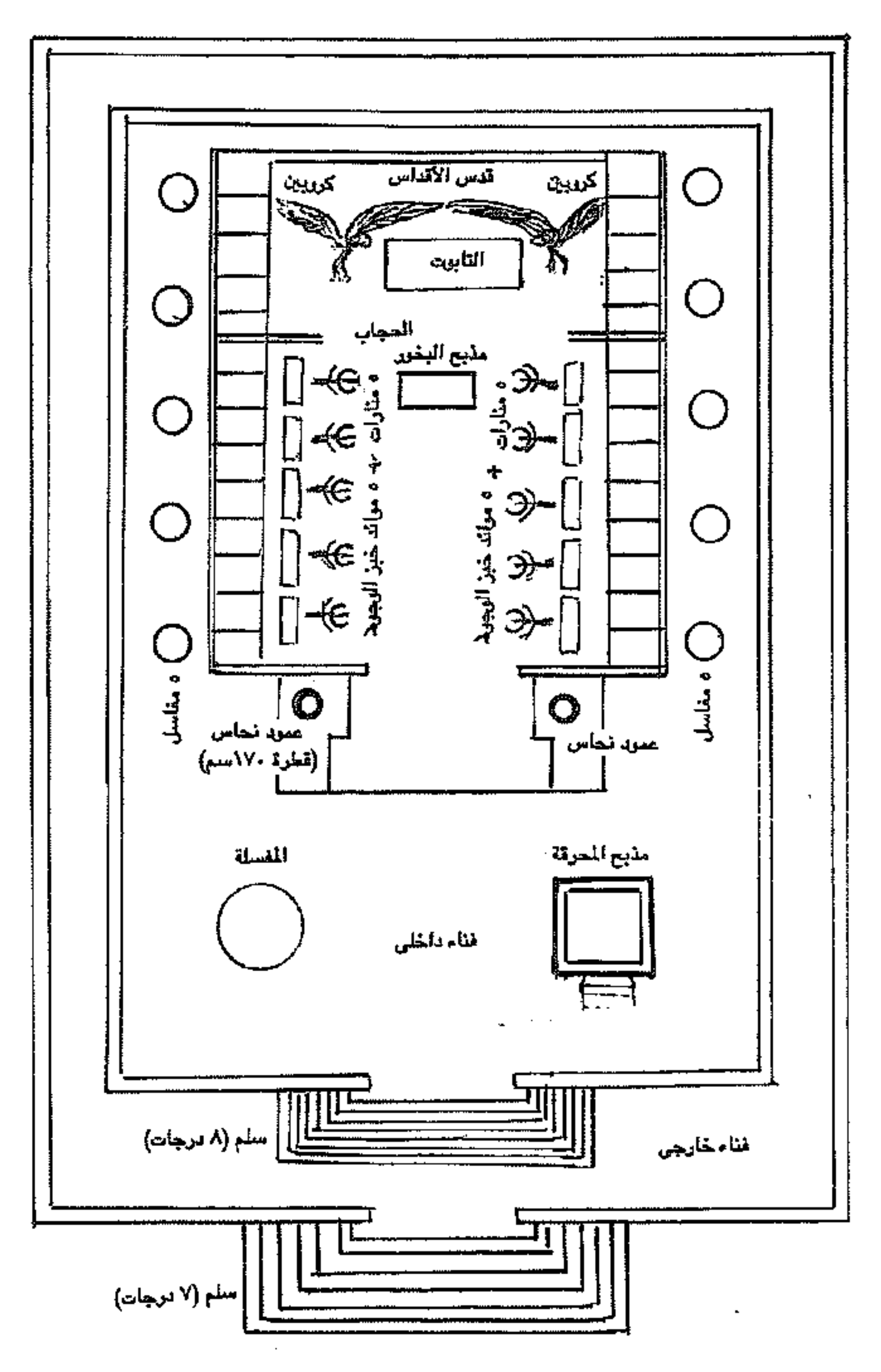
أما المسكن فكان به ٥ موائد خبز الوجوه على اليمين و ٥ على اليسار وكذلك ٥ منارات فى كل جانب. ومذبح البخور يقع فى نهاية المسكن قبل الحجاب. أما باب البيت فكان من خشب الزيتون وعلى مصراعية نقش كروبيم ونخيل وبراعم وزهور وكله مغشى بالذهب وعلى جانبى الباب عمودان من نحاس طول العمود ١٨ ذراعا والعمود مجوَّف ومحيطه ١٢ ذراعا أى أن قطره يبلغ ١٧٠سم. ولكل عمود تاج على شكل الكرة منقوش نقوشا جميلة. وقد أقيم العمودان أمام الرواق لمجرد الزينة دون أن يُقصد منهما تدعيم المبانى. وقد استعان سليمان فى عملهما برجل نحَّاس ماهر من صور أرسله حيرام ملكها.

أما الأدوات والآنية المقدسة فكانت :

– المنارات : ١٠ منائر ذهبية: ٥ على اليمين و ٥ على اليسار – كما سبق أن ذكرنا – والسُرُجْ والملاقط . كلها من ذهب خالص.

– موائد خبز الوجوه : ١٠ موائد ذهبية : ٥ عن اليمين و ٥ عن اليسار.

– أوانى المائدة وتشمل ١٠٠ منضحة والصحون والأكواب وكلها من الذهب كما أدخل سليمان أقداس أبيه داود الفضة والذهب والآنية وجعلها فى خزائن بيت الرب.



شكل ٤٣ – رسم توضيحي للمعبد والهيكل .

أما الفناء الخارجي فكان به :

١ - **مذبح المحرقة النحاس** : وهو موجود بين باب السور المحيط بالبيت وباب المسكن. وهو مربع الشكل وأبعاده ٢٠×٢٠ ذراعا وارتفاعه ١٠ أذرع.

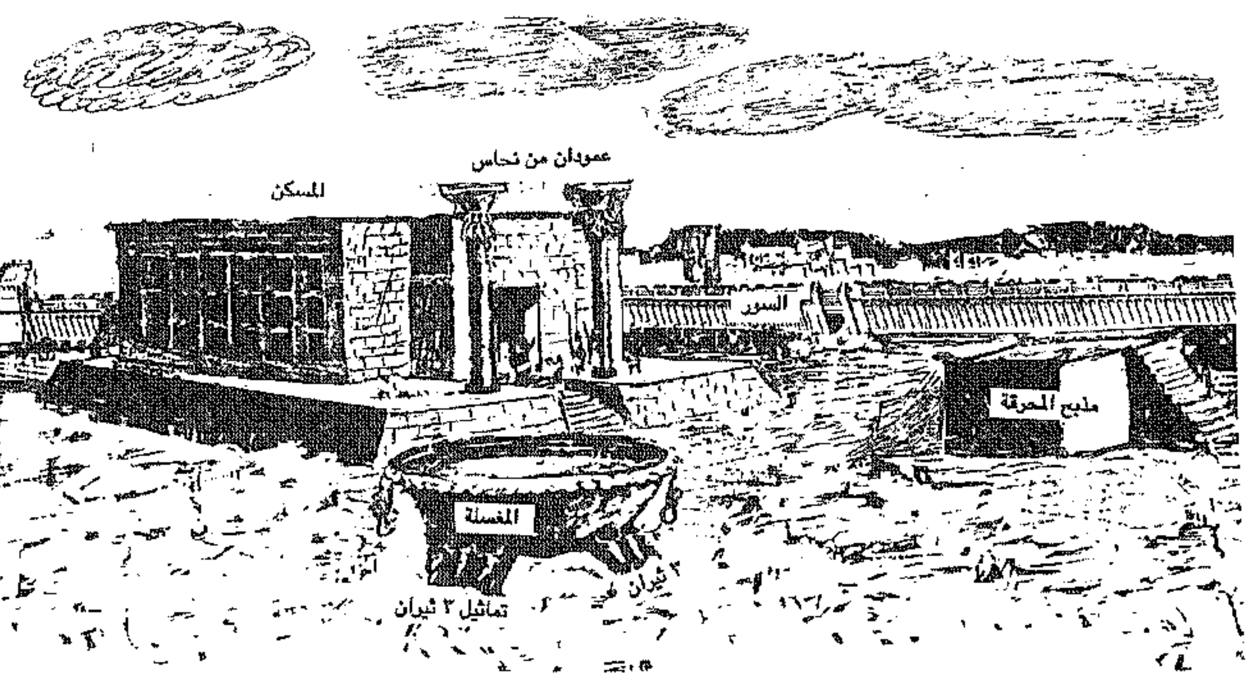
٢ - **خزان المياه البرونزى** : ويوضع به ماء لغسل أيدى الكهنة وأرجلهم وهو عبارة عن إناء كبير سمكه حوالى ٩سم وقطره حوالى ٤,٥ مترا وارتفاعه حوالى مترين. وبهذه الأبعاد فإن وزنه لا يقل عن ٢٥-٣٠ طنا. وهو مصبوب من البرونز. وكانت سعته حوالى ١٨,٠٠٠ جالون مياه أى حوالى ٧٢ مترا مكعبا. وكان الخزان يرتكز على ١٢ تمثالا لثيران - ٣ فى كل جهة من الجهات الأصلية الأربع ورؤوسها متجهة إلى الخارج وكانت من المتانة بحيث يمكنها تحمل وزن الخزان وهو مملوء بالماء والذى يبلغ حوالى ١٠٠ طن. وعمل له ٤٠٠ حلية على هيئة رمانات أو أجراس كلها من الذهب. ولم يكن الكهنة يغتسلون فيه مباشرة بل كانوا يأخذون الماء منه بواسطة أوانى على شكل «القُلَّة» أو «ثمار القرع» مربوطة فى محيطه.

٣ - كذلك كانت توجد ١٠ مغاسل أو مراحض من نحاس ٥ شمال البيت و ٥ جنوبه يغسلون فيها ما يقربونه من محرقة.

وفى السنة الحادية عشرة من حكم سليمان أكمل البيت . ولما كان ابتداء بنائه فى السنة الرابعة كان معنى ذلك أنه استغرق ٧ سنوات لبنائه. وبعد ذلك بنى قلعة لحماية الهيكل.

نقل التابوت إلى الهيكل :

كان بناء الهيكل قد أوشك على الإنتهاء. وكان عيد المظال قد اقترب موعده فقرر سليمان عليه السلام نقل التابوت إلى الهيكل فى ذلك العيد. تقول التوراة (ملوك أول ١:٨): حينئذ جمع سليمان شيوخ إسرائيل وكل رؤساء الأسباط ورؤساء الآباء (العشائر) من بنى إسرائيل إلى الملك سليمان فى أورشليم لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود إلى قدس الأقداس فى الهيكل. وجاء الجميع فى العيد وحمل الكهنة التابوت وأصعدوا التابوت وخيمة الاجتماع مع جميع آنية القدس التى فى الخيمة فأصعدها الكهنة واللاويُّون والملك سليمان وكل جماعة إسرائيل معه. أمام التابوت كانوا يذبحون من الغنم والبقر ما لايحصى ولا يعد من الكثرة. وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محراب البيت فى قدس الأقداس تحت جناحى الكروبين . ولم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك فى حوريب. وقد وضع التابوت فى اتجاه من الشمال إلى الجنوب فى موازاة الكروبين على مسافة من الحجاب. ولا يدرى المفسرون أين اختفى كتاب التوراة الذى كتبه موسى بيده قبل وفاته. وأغلب الظن أنه ضاع فى الفترة التى كان الفلسطينيون قد استولوا فيها على التابوت.



شكل ٤٤ – تصور لما كان عليه الهيكل الذى بناه سليمان .

التدشين والافتتاح :

تأخر التدشين حتى تم بناء المعبد تماما وكان ذلك بعد ١١ شهرا من نقل التابوت إليه. تقول التوراة (ملوك أول ١٢:٨): «حينئذ تكلم سليمان: قال رب إنى قد بنيت لك بيت سكنى مكانا لسكناك إلى الأبد. وحوَّل الملك وجهه وبارك كل جمهور إسرائيل الواقف أمامه. وقال مبارك الرب إله إسرائيل الذى تكلَّم بفمه إلى داود أبى. وكان فى قلب أبى أن يبنى بيتا لاسم إله إسرائيل فقال الرب لداود أبى إنك أنت لا تبنى البيت. بل ابنك الخارج من صلبك هو يبنى البيت لاسمى. وقد قمت أنا مكان داود أبى وجلست على كرسى إسرائيل كما تكلم الرب وبنيت البيت لاسم الرب إله إسرائيل وجعلت هناك مكانا للتابوت الذى فيه عهد الرب الذى قطعه مع آبائنا عند إخراجه إياهم من مصر».

نشيد التدشين :

ووقف سليمان عليه السلام أمام مذبح الرب تجاه كل جماعة إسرائيل ويبسط يديه إلى السماء وقال (١ ملوك ٢٢:٨): «أيها الرب إله إسرائيل. ليس إله مثلك فى السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل. حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم. هو ذا السماوات وسماء السماوات لا تسعك فكم بالأقل هذا البيت الذى بنيتُ. فالتفتْ إلى صلاة عبدك وإلى تضرُّعه أيها الرب إلهى واسمع الدعاء والصلاة التى يصلِّيها عبدك أمامك اليوم. لتكن عيناك مفتوحتين على هذا البيت ليلا ونهارا على الموضع الذى قلت إن اسمك يكون فيه لتسمع الصلاة التى يصليها عبدك فى هذا الموضع واسمع تضرُّع عبدك وشعبك إسرائيل الذين يُصلُّون فى هذا الموضع. واسمع أنت فى موضع سكناك فى السماء. وإذا سمعتَ فاغفر.

إذا أخطأ أحد إلى صاحبه ووضع عليه حلفا ليحلفه وجاء الحلف أمام مذبحك فى هذا البيت فاسمع أنت فى السماء واعمل واقض بين عبيدك إذ تحكم على المذنب فتجعل طريقه على رأسه وتبرِّر البار إذ تعطيه حسب برِّه.

إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتضرَّعوا إليك نحو هذا البيت فاسمع أنت من السماء واغفر خطية شعبك إسرائيل.

اذا أُغلقت السماء ولم يكن مطر لأنهم أخطأوا إليك ثم صلُّوا فى هذا الموضع واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيئتهم. فاسمع أنت من السماء واغفر خطية عبيدك وشعبك. فتعلمهم الطريق الصالح الذى يسلكون فيه.

إذا صار فى الأرض جوع. إذا صار وباء. إذا صار لفح أو يرقان أو جراد أو إذا حاصره عدو فى أرض مدنه. فكل صلاة وكل تضرُّع تكون من أى إنسان كان من شعبك إسرائيل يبسط يده نحو هذا البيت فاسمع أنت من السماء واغفر وأعط كل إنسان حسب كل طرقه كما

تعرف قلبه لأنك أنت وحدك قد عرفت قلوب كل البشر. وكذلك الأجنبى الذى ليس من شعبك إسرائيل وجاء من أرض بعيدة من أجل اسمك لأنهم يسمعون باسمك العظيم وبيدك القوية وذراعك الممدودة. فمتى جاء وصلّى فى هذا البيت فاسمع أنت من السماء وافعل حسب ما يدعو به إليك الأجنبى لكى يَعلَمَ كل شعوب الأرض اسمك فيخافوك ولكى يعلموا أنه قد دُعِيَ اسمك على هذا البيت الذى بنيت.

إذا خرج شعبك لمحاربة عدو فى الطريق الذى ترسلهم فيه. وصلُّوا إلى الرب نحو المدينة التى اخترتها (أورشليم) والبيت الذى بنيتُه لاسمك فاسمع من السماء صلاتهم وتضرُّعهم واقض قضاءهم. إذا أخطأوا إليك لأنه ليس إنسان لا يخطىء. وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو وسباهم إلى أرض بعيدة أو قريبة. فإذا ردُّوا إلى قلوبهم ورجعوا وتضرعوا إليك فى أرض سبيهم قائلين: قد أخطأنا وعوّجنا وأذنبنا. ورجعوا إليك من كل قلوبهم. وصلُّوا إليك نحو هذا البيت الذى بنيتُ لاسمك. فاسمع فى السماء صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم واغفر لشعبك ما أخطأوا به إليك وجميع ذنوبهم التى أذنبوا بها إليك. وأعطهم رحمة أمام الذين سبوهم فيرحموهم لأنهم شعبك الذى أخرجت من مصر. لتكن عيناك مفتوحتين نحو تضرع عبيدك وتضرع شعبك إسرائيل».

وكان لما انتهى سليمان من الصلاة إلى الرب بكل هذه الصلاة والتضرُّع أنه نهض من أمام مذبح الرب من الجثو على ركبتيه ووقف وبارك كل جماعة إسرائيل بصوت عالٍ قائلا: «مبارك الرب الذى أعطى راحة لشعبه إسرائيل حسب كل ما تكلم به ولم تسقط كلمة واحدة من كل كلامه الصالح الذى تكلم به عن يد موسى عبده. ليكن الرب إلهنا معنا كما كان مع آبائنا فلا يتركنا ولا يرفضنا لِنَملْ بقلوبنا إليه لكى نسير فى جميع طرقه ونحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه التى أوصى بها آباءنا. وليكن كلامى هذا الذى تضرَّعت به أمام الرب قريبا من الرب إلهنا نهارا وليلا ليقضى قضاء عبده وقضاء شعبه ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله وليس آخر. فليكن قلبكم كاملا لدى الرب إلهنا إذ تسيرون فى فرائضه وتحفظون وصاياه».

ثم إن الملك وجميع إسرائيل ذبحوا ذبائح أمام الرب. وذبح سليمان ذبائح السلامة التى قرَّبها للرب من البقر ٢٢,٠٠٠ ومن الغنم ١٢,٠٠٠. فدشَّن الملك وجميع بنى إسرائيل بيت الرب وقدَّس الفناء وقرَّب محرقات وذبائح سلامة. وعيَّد سليمان وجميع بنى إسرائيل ٧ أيام ثم صرفهم فباركوا الملك وذهبوا إلى خيامهم فرحين وطيِّبى القلب.

وحى السماء بعد بناء البيت :

(١ ملوك ٩ : ٢) «وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب أن الرب تراءى لسليمان وقال له:

قد سمعت صلاتك وتضرعك الذى تضرَّعت به أمامى. قدَّست هذا البيت الذى بنيته لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد. وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة وعملتَ حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى فإنى أقيم كرسى مُلكِكَ على إسرائيل إلى الأبد. أما إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى وفرائضى التى جعلتها أمامكم. بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض. والبيت الذى قَدَّستُه لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مَثَلاً وهزأة فى جميع الشعوب وهذا البيت يكون عبرة. كل من يمر عليه يتعجَّب ويقول لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت. فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلههم وتمسَّكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر».

قصر سليمان :

بعد أن بنى البيت – بنى سليمان عليه السلام قصرا له واستغرق فى بنائه ١٣ سنة. ويقول أهل الكتاب إنه استغرق كل هذا الوقت لأن سليمان لم يكن فى عجلة من أمره. كما أن الحجارة ومواد البناء لم تكن جاهزة كما كان الحال وقت بناء بيت الرب. والوصف الذى جاء فى التوراة عن قصر سليمان وملحقاته (١ ملوك ٧) لم يكن واضحا تماما. فصعُب وضع تصوُّر دقيق لما كان عليه البناء. ويسمى قصر سليمان «بيت وعر لبنان» لأن أكثر ما يميزه هو الأعمدة المصقولة من خشب الأرز المجلوب من لبنان والتى كانت تحمل الطابق الثانى (تفسير الكتاب المقدس. جاميسون وفاوست ص ٤٤٩) ويقول أهل الكتاب إن ذلك يماثل التسمية الحالية لأحد الأبنية فى لندن «البيت الهندى الشرقى». ويرى معظم المفسرين أن القصر فى مجمله كان يشبه القصور الأشورية فى نينوى وبابل بينما يرى آخرون أنه كان فى تخطيطه أقرب إلى المعابد الفرعونية فهو يتكون من (شكل ٤٥):

١ – **رواق صغير** بعد الباب الرئيسى – وهذا الرواق خال من الأعمدة وأبعاده ٢٠×٥٠ ذراعا يليه:

٢ – **رواق الأعمدة** ٥٠ × ٧٥ ذراعا فيه ١٠ أعمدة فى كل جانب من ممر الوسط.

٣ – **فناء مكشوف** ٥٠ × ١٠٠ ذراعا حوله غرف وله طابق ثان به غرف أيضا ويبلغ مجموع الغرف ٤٥ غرفة.

٤ – **صالة العرش** وهو رواق معمد له باب خارجى وفى نهايته كرسى العرش الذى كان سليمان يجلس عليه وهو يحكم بين الناس فى المنازعات. كما كان يقابل فى صالة العرش سفراء الدول الأجنبية.

٥ – **سكن الملك** سليمان نفسه .

٦ – قصر ابنة فرعون .

٧ – بيوت باقى الزوجات .

وكانت قصور الزوجات بعيدة بعض الشيىء عن القصر الملكى والهيكل إذ أن كثيرات منهن لم يكنَّ على ديانة بنى إسرائيل ولا يحق لهن الاقتراب من الهيكل، وكان أساس المبانى من قطع كبيرة من الحجارة. أما الحوائط فكانت من حجارة أصفر ومستوية الجوانب وغطيت بألواح من خشب الأرز.

٨ – قلعة ببرج أو برجين للدفاع عن القصر والاحتماء بها عند أى حصار للمدينة. وكانت هذه هى العادة المتَّبعة فى قصور الملوك فى العصور القديمة.

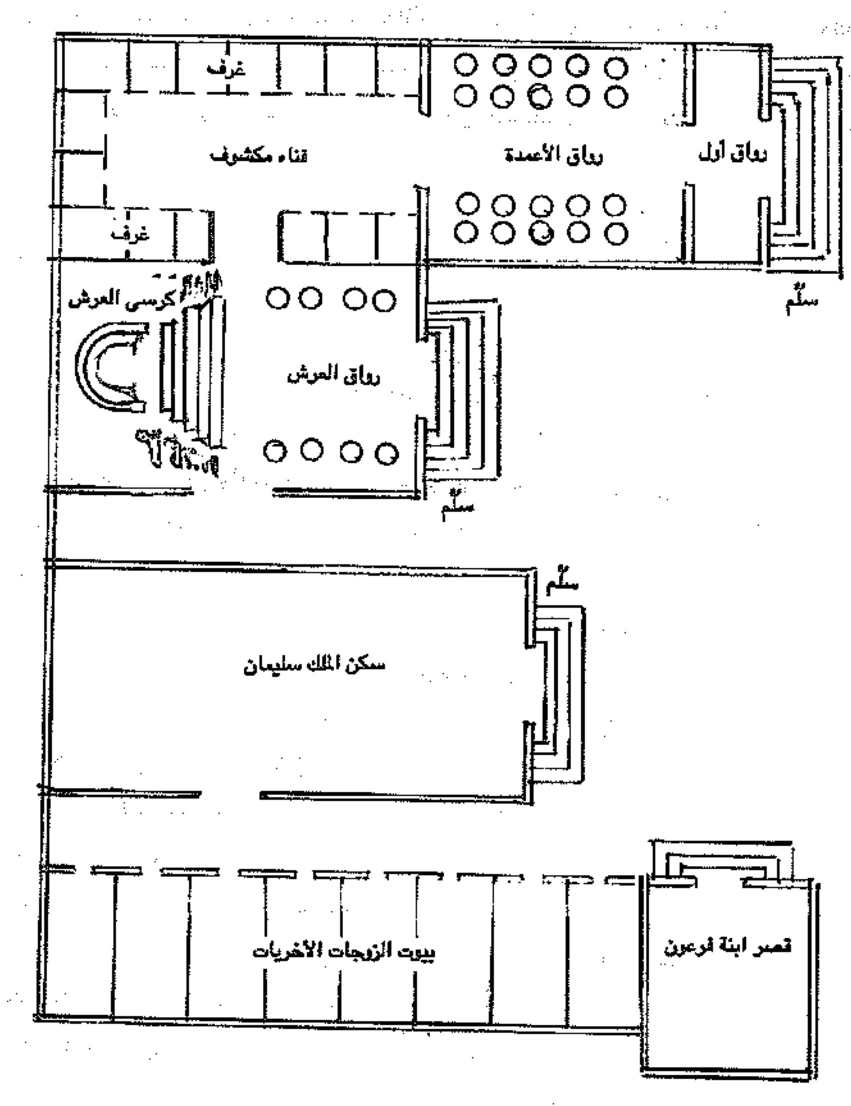
سياسة سليمان الخارجية

كان سليمان مختلفا عن أبيه داود. كان داود محاربا قضى كل حياته فى حروب بدأها بقتله جالوت. ثم طارده طالوت (شاول) فى كل مكان ثم حروبه مع الشعوب المجاورة: أدوم – مؤاب – بنى عمون – الفلسطينيين. ولكن عهد سليمان تميز بالسلام وإن كان قد أدرك أنه من الضرورى أن يكون له جيش قوى يحمى المملكة. فكان له جند كثير مشاة وفرسانا وعربات حربية. إلاَّ أنه اتَّبع سياسة التفاهم مع الدول المجاورة ومن وسائل ذلك كان الارتباط بالمصاهرة مع جيرانه من الملوك والرؤساء. فقد تزوج زوجات من مصر ومن بنى عمون وأرام وكان له أيضا زوجات كنعانيات وحيثيات.

١ – مصر :

كانت مصر – فى أواخر عصر شاول – يحكمها رمسيس الحادى عشر وتمر بفترة اضطرابات وعدم استقرار سياسى. ومع بداية الأسرة ٢١ فى عام ١٠٥٨ ق.م كانت مصر منقسمة إلى مملكتين واحدة فى مصر العليا ويحكمها من طيبة كبار كهنة آمون. يحكمون حكما ثيوقراطيا معتمدين على مكانتهم الدينية ومكانة طيبة كمقر لآمون رع رب الدولة. ومملكة الدلتا وعاصمتها تانيس فى شرق الدلتا أسسها سمندس ثم من بعده تولى عدة ملوك حتى تولى بسوسنس الثانى الحكم عام ٩٨٤ ق.م وهو الذى كان معاصرا لسليمان الذى تولى الملك عام ٩٧٣ ق.م.

ويرى «هربرت ويلز» أنه كان من الجائز أن يقبل فراعنة مصر فى حريمهم أميرة بابلية أو

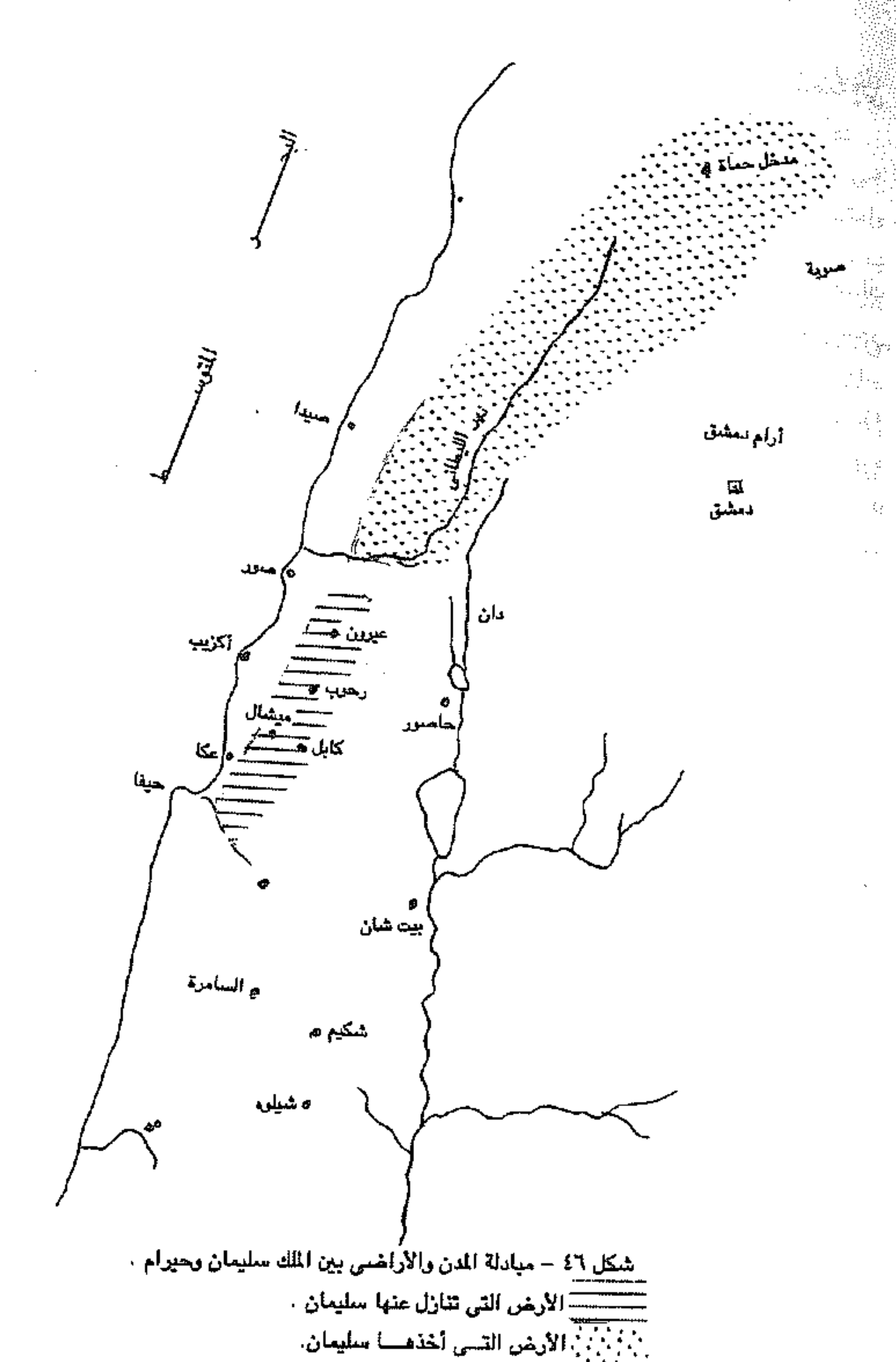


شكل ٤٥ – قصر الملك سليمان .

حيثية ولكن الفراعين كانوا يرفضون رفضا تاما أن يُسمح لأميرة مصرية أن تصبح زوجة لملك غير مصرى، ويُستنتج من قبول الفرعون مصاهرة ملك أجنبى - وهو سليمان - مدى الضعف الذى كان عليه فراعين مصر ومدى عِظَم مكانة سليمان الدولية. وكانت مدينة جازر Gezer مدينة كنعانية استعصى فتحها على بنى إسرائيل عند دخول فلسطين. ولم يستطع داود امتلاكها. فقام بسونس الثانى فرعون مصر بتجريد حملة إلى فلسطين واستولى عليها وقدَّمها هدية زواج سليمان من ابنته.

٢ - صور :

كانت علاقة داود بالملك حيرام ملك صور طيِّبة. ولما تولى سليمان الحكم أرسل حيرام رسله مهنئا سليمان وأرسل معهم هدايا تعبيرا عن رغبته فى استمرار العلاقات الطيبة بين البلدين. وتوطَّدت العلاقات أكثر بالمساعدات التى قدَّمها حيرام لبناء بيت الرب وبناء قصور سليمان متمثلة فى أخشاب الأرز والسرو. كما أن حيرام ساعد سليمان فى بناء أسطوله فى البحر الأحمر كما سبق أن ذكرنا (ص ١٦٥). ولم تكن هذه المساعدات مجانية بل كان سليمان يدفع ثمنها فضة أو ذهبا. ولكثرة الإنشاءات التى قام بها سليمان وما اتصفت به هذه الإنشاءات من بذخ فقد عجز عن دفع ثمنها نقدا واضطر إلى التنازل لحيرام عن ٢٠ مدينة فى أرض الجليل وكما سبق أن ذكرنا (ص ١٧٢) أنها لم ترق فى عينى حيرام. يرى جاميسون وفاوست (تفسير الكتاب المقدس ص ٤٥٣) أن ما صرفه سليمان ببذخ على بناء بيت الرب وقصره الملكى قد كلفه أموالا طائلة. وكان استبدال مدن بكميات من الذهب سائغا فى ذلك الوقت. ويرى آخرون أن إعطاء هذه المدن كان مجرد رهن فقط وليس تنازلا عن جزء من «الأرض الموعودة». وقال آخرون إنها كانت مبادلة (شكل ٤٦) وكانت صفقة رابحة لكلا الجانبين فإن المنطقة التى تنازل عنها سليمان كانت من نصيب أشير ولم يتمكن من طرد الكنعانيين منها وكان يسكنها أيضا أغلبية من الجشوريين فكان بنو إسرائيل أقلية. كما كانت الأرض، وخاصة قرب عكا إما كثبانا رملية بجوار البحر أو أرضا سبخة قرب الجبال. وكانت المدن الموجودة بها لا تزيد عن كونها قرى كبيرة وهى إن لم ترق فى عينى حيرام من الناحية الاقتصادية إلا أنها بلا شك كانت مكسبا عسكريا له إذ هى تعطى لصور عمقا إستراتيجيا. وكانت المنطقة التى أخذها سليمان فى الشمال حول منابع نهر الليطانى أراضى خصبة فضلا عن موقعها الاستراتيجى بالنسبة للتجارة مع الشام مما يمكِّن سليمان من إحكام قبضته على طريق القوافل من فلسطين إلى بابل وأشور وتقول التوراة (أخبار أيام ثان ٨:٣): «وبنى سليمان المدن التى أعطاها حيرام لسليمان وأسكن فيها بنى إسرائيل. وذهب سليمان إلى حماة صوبة وقوى عليها وبنى تدمر فى البرية. وجميع مدن المخازن التى بناها فى حماة». وعلى ذلك فإن سليمان



شكل ٤٦ – مبادلة المدن والأراضي بين الملك سليمان وحيرام .

الأرض التي تنازل عنها سليمان .

الأرض التـي أخذهـا سليمان.

قد سدَّد ديونه وأخذ أرضا أكبر مما تنازل عنه ولها موقع تجارى ممتاز. ولعله نظر أيضا إلى أن أحد أبنائه فى المستقبل قد يسترد هذه المدن المتنازل عنها.

٣ – أدوم :

سبق أن ذكرنا (ص ١٢٦) أن داود حارب الأدوميين وأن يوآب قائد جيشه ارتكب هناك مذبحة بشرية ولم ينج من البيت الملكى سوى طفل عمره ٧ سنوات هو «هدد» هرب إلى مصر فاحتضنه فرعون ولما كبر زوَّجه من أخته «تحفنيس». ولما علم هدهد بموت داود وموت يوآب كذلك قال لفرعون: أطلقنى إلى أرضى. ولعل بسوسنس الثانى – فرعون مصر – اشتم أنه سيعود إلى أدوم ليأخذ بثأر والده فيحارب سليمان. وليجنِّب سليمان – بعد أن أصبح صهره – متاعب سياسية من ناحية أدوم فإنه لم يسمح لهدد بترك البلاد . فلم يتركها إلا فى عهد شيشنق الأول مؤسس الأسرة ٢٢ الليبية وبدأ يناصب سليمان العداء كما سيجىء فيما بعد (ص٢٣٩).

فتنة سليمان

أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى :

«ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب. قال رب اغفر لى. وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهَّاب» (٢٤-٢٥-ص).

وقد ذكرت روايات كثيرة فى فتنة سليمان قال عنها ابن كثير (البداية والنهاية. جـ ٢ ص ٢٤): وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات. وفى كثير منها نكارة شديدة. واختار الألوسى وصاحب المواقف الحديث الصحيح الذى وَرَدَ مرفوعا أنه صلى الله عليه وسلم قال: إن سليمان عليه السلام قال: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل «إن شاء الله». فطاف عليهن فلم تحمل إلاَّ امرأة واحدة جاءت بشق طفل. والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون. وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين رواه البخارى مُسنداً ٦ مرات ومرة واحدة معلَّقا ورواه مسلم فى كتاب الإيمان بطرق متعددة ثم إن الروايات التى وردت عن الحديث تختلف فى بيان عدد النساء: ٦٠ – ٧٠ – ٩٠ – ٩٩ – ١٠٠: وقد خالف الأستاذ عبد الوهاب النجار (وهو من مشايخ الأزهر فى الثلاثينيات من هذا القرن) واعتبره حديث آحاد لا يصح الارتكان إليه فى إثبات أمر اعتقادى. كما رأى أن الطواف على مثل هذا العدد من النساء – أو نصفه – لا تتسع له ليلة واحدة مهما قصر الوقت الذى يقضيه مع كل واحدة منهن. وقال الأستاذ أحمد بهجت عن هذه الراوية

(أنبياء الله ص ٢٧٧) «والقصة مُختلَقة من بدايتها لنهايتها وهى من الإسرائيليات الخرافية».

رواية أخرى تقول إن سليمان عليه السلام كانت له زوجة صيدونية (من مدينة صيدون التى هى صيدا) وكانت تبكى على أبيها لمفارقتها له. فأمر سيلمان بعمل تمثال على هيئة أبيها. وانتهى الأمر بها إلى أن سجدت للتمثال هى وجواريها وكان مُلك سليمان فى خاتمة. وكان يعطيه لإحدى زوجاته إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة. وفى إحدى المرات جاءها الشيطان على صورة سليمان وأخذ منها الخاتم فتختَّم به وجلس على كرسى سليمان. فذلك تفسير «وألقينا على كرسيه جسداً». فكان الشيطان هو الجسد الذى ألقى على كرسيه. وكان سليمان - بعد فقدان الخاتم - قد تغيَّرت هيئته فلما أتى زوجته يطلب الخاتم أنكرته وطردته. فعرف أنه يُعَاقبُ لتركه زوجته تعبد صنما فندم. وصار يدور على البيوت يتكفَّف وصار يخدم السمَّاكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين. ومكث على هذه الحال ٤٠ يوما. قالوا عدد ما عُبِد الوثن فى بيته. وفى خلال هذه المدة كان الشيطان يحكم بما لا يتفق مع الشريعة. وشكَّ الوزراء فى أمره. وسألوا نساءه عنه فقلن: ما يدع امرأة فى دمها ولا يغتسل من جنابة. وأدرك الشيطان أن أمره على وشك أن يفتضح. فطار وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة. وأعطيت السمكة لسليمان أجرا على عمله. فلما بقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختَّم به ووقع ساجداً لله تعالى ورجع إليه مُلكُه.

ولهم رواية ثانية أنه لما ترك زوجته تعبد الصنم كان الخاتم لا يثبت فى يده فسقط الخاتم وأخذه الشيطان. وراوية ثالثة أن سلميان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس؟ فقال أرنى خاتمك أخبرك.فأعطاه له فلبسه وجلس على كرسى المُلك. وتتمةُ الروايتين هى كما فى الرواية الأولى. وهى كلها روايات تروى للتسلية وما كان المُلك يرتبط بخاتم يُلبس فى الإصبع!!

قول آخر روى عن أبى عبد الله أنه وُلِد لسليمان ابن. فقالت الجن والشياطين. إن عاش له ولد لنلقينَّ منه ما لقينا من أبيه من البلاء. فأشفق عليه السلام منهم عليه فجعله فى السحاب حفظا له. فلم يشعر إلا وقد ألقى به على كرسيه ميتا تنبيها على أن الحذر لا ينجى من القدر وعوقب على تركه التوكل على الله.

ويرى ابن كثير - ووافقه الأستاذ عبد الوهاب النجار أن إشراك داود لسليمان معه فى الحكم بين الناس جعل سليمان يعتقد أن الملك لا محالة صائر إليه. فكان ماكان من ثورة أبشالوم على أبيه داود (ص ١٣٨) وفرار داود ومعه سليمان إلى شرق الأردن وجلس أبشالوم على كرسى الحكم ورأى سليمان أن كرسى الحكم قد أفلت من يده فاستغفر ربه لما حدَّثته به نفسه من زهو بالعرش وأناب . فكان جلوس أبشالوم على كرسى داود - الذى هو كرسى سليمان - هو المقصود بـ «وألقينا على كرسيِّه جسداً». ومما يضعِفُ هذا التفسير أن هناك تجوُّز بنسبة الكرسى إلى سليمان وهو فى الحقيقة كرسى داود وقد كان سليمان لايزال

صغيرا لا يزيد عمره عن ١٣ سنة ولا يترتب على ما تجول به نفسه مثل هذا الأمر العظيم. كما أنه من المستبعد أن يُعَبَّر عن أخية بالجسد.

وقال الفخر الرازى فى تفسيره إن سليمان ابتُلى بمرض شديد ضنى منه حتى صار لشدة المرض كأنه جسد أو جسم بلا روح. ثم أناب أى رجع إلى حالة الصحة. ويعتنق الأستاذ أحمد بهجت هذا الرأى (أنبياء الله ص ٢٧٧) فيقول إن مرضه حار فيه أطباء الإنس والجن. وأحضرت له الطيور أعشابا طبية من أطراف الأرض فلم يُشفَ وكل يوم كان المرض يزيد عليه حتى أصبح سليمان إذا جلس على كرسيه جلس كأنه جسد بلا روح كأنه ميت من كثرة الإعياء والمرض واستمر هذا المرض فترة كان سليمان فيها لايتوقف عن ذكر الله وطلب الشفاء منه واستغفاره وعرف أن كل ملكه وعظمته لا تستطيع أن تحمل إليه الشفاء إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى. «ثم أناب» أى استجار برحمة الله فشفاه الله ورحمه. وما نراه هو أن هذا التفسير يجعل من سليمان صورة مصغُرة من أيوب عليه السلام الذى امتد به المرض ١٨ عاما (الجزء الثالث ص ٦٢٦). فى حين أن مرض سليمان - لو سلَّمنا بصحته - لم يزد عن ٤٠ يوما. كما أن المرض فى حد ذاته لا يعتبر ذنبا يوجب الإنابة والاستغفار «**ثم أناب. قال رب اغفرلى وهب لى ملكا**...» ثم إن طلب الملك بعد الإنابة والاستغفار فيه إشارة إلى ضياع الملك قبل ذلك. كمن يمرض فإذا شفى قال: **اللهم أدم علىَّ الصحة والعافية**. ومن كان غنيا ثم افتقر ثم رد الله عليه المال دعا الله طالبا دوام الغنى فلا يذوق الفقر ثانية.

وهكذا نرى أن التفاسير التى قُدِّمت كلها غير مقبوله. وما نراه هو أن تفسير هذه الآية مرتبط بآية أخرى فى القرآن الكريم هى قوله تعالى: «**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل، هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر**».

(من الآية ١٠٢ - البقرة).

فهذه الآية تنفى عن سليمان الكفر «**وما كفر سليمان**» مما يعنى أن سليمان فى فترة ما من حكمه قد اتهم بالكفر . ولا يُتَصَوَّر أن يتم اتهام نبى أو ملك بالكفر إلا أن يكون قومه قد شاهدوا عليه أفعالا لا تتفق مع الشريعة. وهذا يجرنا إلى فقرة فى التوراة تتعلق بالموضوع ذاته تقول (ملوك أول ١١:٥) : «وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروث إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر فى عينى الرب، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم وللوك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن».

كذلك تخالف التوراة القرآن الكريم فى سبب نزول الملَكين فى بابل إذ تقول (تكوين ١١:٦): «هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض فبدَّدهم الرب من هناك على وجه الأرض فكفُّوا عن بنيان المدينة لذلك دُعِيَ اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض». والحقيقة أن اختلاف اللغات والألسنة كان موجودا قبل أن توجد بابل فقدماء المصريين فى عصر ما قبل الأسرات كان لهم لغتهم. وسكان ما بين النهرين فى العصر الحجرى فى الألف الخامس قبل الميلاد كان لهم لغتهم التى تختلف عن لغة مصر أو سكان آسيا الصغرى. وعليه فإن نزول الملَكين ببابل لم يكن لبلبلة الألسنة – بل كان كما قرر القرآن الكريم – مرتبطا بتعليم الناس السحر. وكان بعض الناس يدوِّنون ما يتعلمون منهما فى كتب. وكان الملَكان ينبِّهان الناس أن السحر فتنة وقوة تغرى من يتعلمه باستعماله فى الشر. ويكون تعلم السحر نوعا من الكفر. وزاد بعض الأشخاص بأن استعانوا بالشياطين لقضاء أغراضهم.

فإذا وضعنا الآية من سورة ص الخاصة بفتنة سليمان مع الآية من سورة البقرة والتى تنفى عن سليمان الكفر وتوضِّح مهمة الملكين هاروت وماروت وتعلم الناس منهما السحر يمكننا أن نضع التصور التالى:

كان سليمان عليه السلام قد تزوج من زوجات أجنبيات كثيرات. ولم يجبرهن على اعتناق الديانة الموسوية. بل اتبع مبدأ «لكم دينكم ولى دين». فتركهن على ديانتهن. وهن أيضا لم يكتفين بذلك بل بَنَيْنَ مذابح ومرتفعات لآلهتهن وذبحن لها وقدَّمن القرابين. وتغاضى سليمان عن هذا الأمر. وظن بنو إسرائيل أن سليمان نفسه هو الذى أمر بذلك. وحقيقة الأمر أن سليمان كان غائبا عن أورشليم فى جوله فى جنوب أدوم حيث مناجم النحاس عند خليج العقبة. وفى هذه الفترة تمثل الشيطان فى هيئة سليمان وجلس على كرسيه يحكم بالسحر والاستعانة بالشياطين أقرانه. وبدأ يعبد الآلهة الأجنبية ويبنى لها المرتفعات وشاهد بنو إسرائيل ذلك وقالوا: «فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين..» والحقيقة أن سليمان عليه السلام لم يكفر «وما كفر سليمان» إذ أنَّ من قام بهذه الأفعال هو الشيطان الذى كان ملقًى على كرسيه ويحكم باسمه **«وألقينا على كرسيه جسداً»**. وقد وردت كلمة «جسدا» فى القرآن الكريم ٤ مرات: مرتان إشارة إلى العجل الذى عبده بنو إسرائيل عند ذهاب موسى لميقات ربه :

«واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا». (١٤٨ – الأعراف).

«فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار» . (٨٨ – طه) .

هنا المعنى خروج الذهب من طبيعته الجامدة إلى ما يشبه طبيعة أخرى «له خوار» سواء

بفعل دخول الهواء فيه أم دبت فيه بعض الحياة (الجزء الرابع من قصص الأنبياء والتاريخ، ص ٩٩٧).

والمرة الثالثة في معرض الحديث عن طبيعة الرسل وضرورة أن يكونوا من البشر:

«وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وماكانوا خالدين» (٧ - ٨ الأنبياء). وكان الكفار يقولون بأنه لو كان الله حقيقة مرسلا رسلا لكانوا من الملائكة وليسوا بشرا. ورد عليهم القرآن الكريم احتجاجهم هذا في موضع آخر بأن الملائكة لا تمكن رؤيتهم ولذلك لابد أن يتشكلوا في صورة ما حتى يمكن رؤيتهم **«ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون»** (٩ - الانعام). ثم جيء بنفس المعنى ولكن معكوسا أي أن الرسل ماهم إلا بشر ولو كانوا من الملائكة لكانت أجسامهم لها طبيعة مختلفة. مثل الرسل الذين أرسلوا إلى إبراهيم بالبشرى . فهم وإن تشكلوا في صورة آدمية إلا أنهم لا يأكلون : **«فلما رأى أيديهم لا تصل إليه (أي إلى الطعام)...»** (٧٠ - هود) والمرة الرابعة هي في الآية المتعلقة بفتنة سليمان.

مما سبق نرى أنه في المرات الثلاث الأولى جاءت كلمة «جسداً» لتفيد أن الشيء المعنيّ ليس جسما حقيقيا من دم ولحم. فالعجل الذي صنعه بنو إسرائيل من حليهم لم يكن عجلا حقيقيا وإن كان له خوار. ولو كان الرسل ملائكة تشكلوا في هيئة بشرية لكانوا جسداً لا يأكلون الطعام كما بينت الآية من سورة الأنبياء. وما دام ما ألقي على كرسي سليمان وُصف بأنه جسدٌ . فهو شيء آخر وإن تشكّل في صورة جسم إنسان وعلى هيئة سليمان عليه السلام. ولما كانت أفعاله تدل على الكفر فهو إذن شيطان تشكل جسدا آدميا. ونستكمل تصورنا للأمر بأن الشيطان كان قد كتب ما نزل على الملكين هاروت وماروت ببابل من فنون السحر ووضعها تحت كرسي سليمان. ولما اقترب موعد عودة سليمان اختفى الشيطان. ولكنه أعثر أحد الخدم على كتب السحر التي دسّها تحت كرسي سليمان. ونشرها الخادم على الناس وراح يذيع أن سليمان ليس نبيا وأنه يتسلط على الناس بالسحر. وجاء القرآن الكريم لينفي عن سليمان الكفر أو أنه يستخدم السحر. وأثبت أن الشياطين، وبالذات الشيطان الذي ألقي على كرسيه جسداً، هو الذي فعل ذلك مع أعوان له من الشياطين **«وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا . يعلّمون الناس السحر»** وعاد سليمان عليه السلام وعلم بما حدث في غيابه. وأدرك أن هذا كان فتنة له وتحذيرا من تركه لنسائه يعبدن آلهتهن لأن ذلك قد يغري نفرا من بني إسرائيل على اتباع دياناتهن. ومن المؤكد أن سليمان عليه السلام هدم هذه المرتفعات وأزال ما بها من أصنام وخيَّر نساءه بين أن يعتنقن دينه أو يُسرِّحهن. وأدرك سليمان أن نزع الملك منه هو أمر في غاية البساطة وأن كل ثرائه وجنده الملتفين حوله لا يستطيعون حمايته من

أمر الله. لذلك فإنه بالغ فى التوبة والاستغفار «وأناب». فغفر الله له ذلك. فشكر الله أن أعاد إليه الملك وطلب منه أن يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده كما جاء فى الآية الكريمة.

مُلْك سليمان

لو قارنا اتساع أرض إسرائيل فى عهد داود (شكل ٣٦) وفى عهد سليمان (شكل ٤٧) لوجدنا أن سليمان قد ضم أراضى كثيرة زادت من اتساع رقعة المملكة.

«قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بنَّاء وغوَّاص وآخرين مُقرَّنين فى الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب».

(٣٥ – ٤٠ – ص).

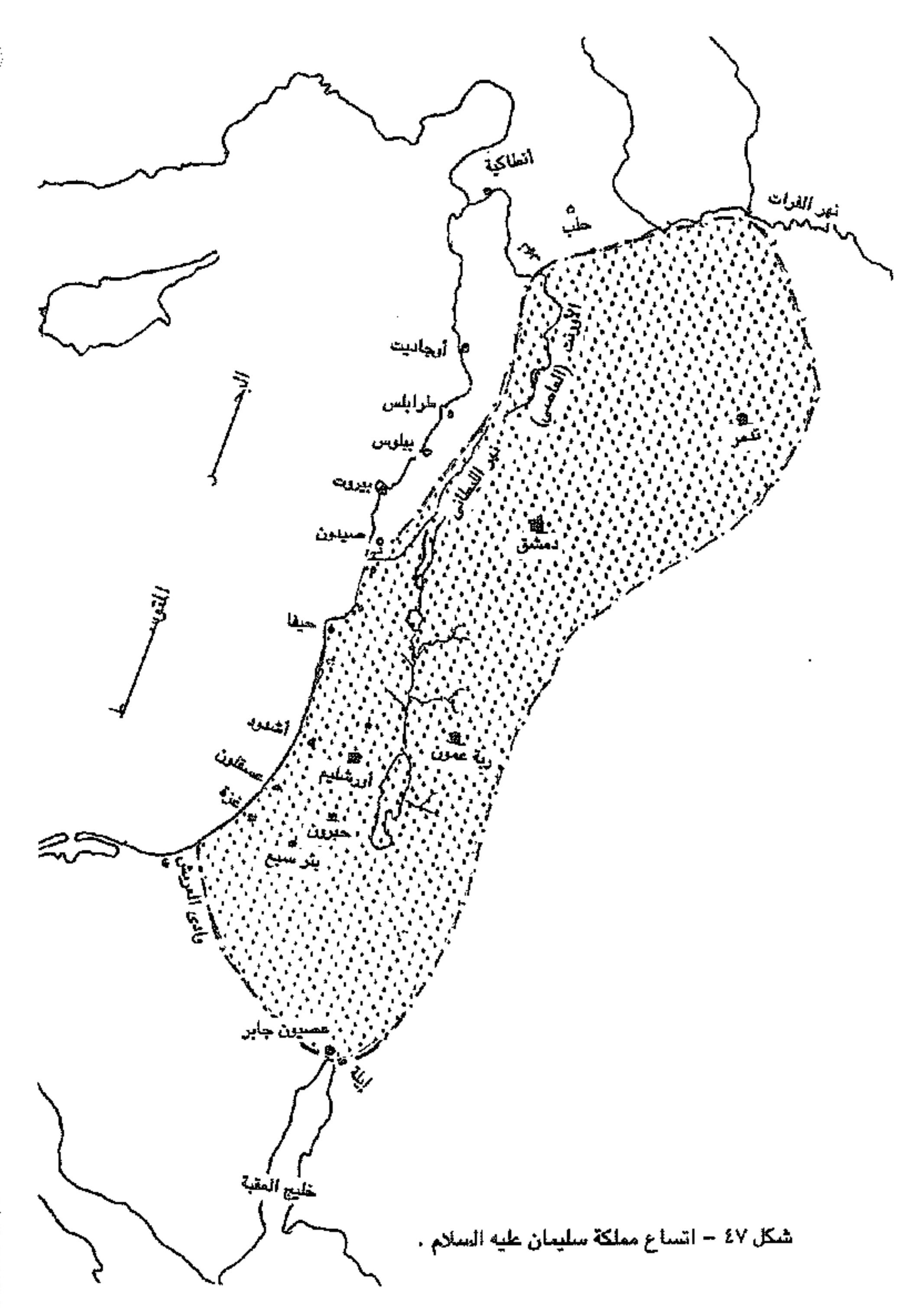
فى هذه الآية طلب سليمان عليه السلام من ربه عز وجل أن يعطيه ملكا واسعا كما طلب أن لا يعطى أحد بعده مثل ذلك. وقد تساءل بعض المفسِّرين: كيف أقدم سليمان – وهو نبى – على طلب الدنيا؟ ورد آخرون بأنه إنما طلب ذلك ليكون اتساع ملكه دليلا على نبوته وليس طلبا للدنيا ذاتها فالأنبياء أزهد خلق الله فى الدنيا. وصحيح أنه فى الفترة التى كان سليمان فيها ملكا كانت مملكة إسرائيل تعتبر كبيرة بالنسبة للدول المجاورة. (شكل ٤٨) فآشور كانت لاتزال دولة صغيرة على أعالى نهر دجلة. كما أن مصر كانت قد تمزقت وحدتها وصارت دويلات متنازعة. وكانت باقى الأرض عبارة عن دويلات مدن مثل دويلات الأراميين فى دمشق وصوبة وحلب وغيرها. ولم يكن متماسكا فى دولة واحدة إلا إسرائيل. إلاَّ أن دعوة سليمان **«لا ينبغى لأحد من بعدى»** تثير الحيرة. إذ لو كان المقصود هو اتساع رقعة الأرض لكان ذلك حجرا على المستقبل وما تجرى به الأقدار لا يجوز لنبى أن يطلبه. وسنرى مدى اتساع مملكة الفرس (شكل٨١ ص ٤٢٩) أو مملكة الاسكندر الأكبر التى شملت اليونان وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر والعراق وإيران وشمال غرب الهند (شكل ٨٨ ص٤٦٠). ومن بعدها الامبراطورية الرومانية. ناهيك عن اتساع الامبراطورية الإسلامية فى عهود الأمويين والعباسيين والعثمانيين.

إلا أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب لدعوة سليمان من وجهة نظر أخرى وأعطاه ثلاثة أشياء لم تعط لأحد من بعده وهى:

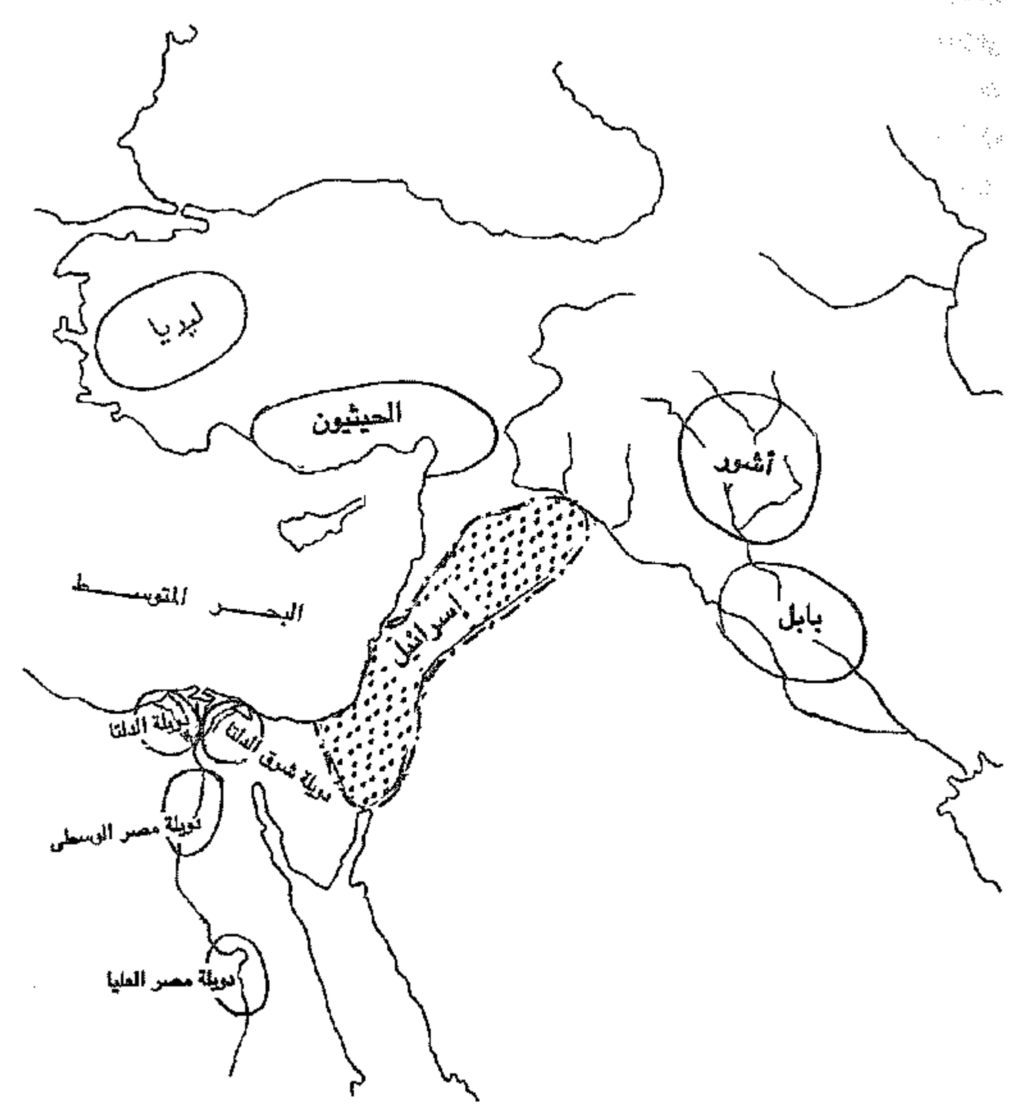
١ – تسخير الرياح .

٢ – تسخير الجن والشياطين .

٣ – الدراية بمنطق الطير .



شكل ٤٧ - اتساع مملكة سليمان عليه السلام .



شكل ٤٨ – إسرائيل أكبر دول المنطقة في عام ٩٧٠ ق.م.

يؤيد ذلك سياق اللفظ القرآنى. إذ لما طلب سليمان من ربه أن يهب له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده جاء الرد مسبوقا بفاء الترتيب مع التعقيب « فسخَّرنا له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب. والشياطين كل بنَّاء وغواص وآخرين مقرَّنين فى الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مئاب » (٣٥ - ٤٠ - ص). وفى سورة أخرى «وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيىء إن هذا لهو الفضل المبين» . (١٦ - النمل).

١ - تسخير الرياح

«ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر» . (١٢ - سبأ) .
«فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب» . (٣٦ - ص).
«ولسليمان الريح عاصفة تجرى إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شيىء عالمين». (٨١ - الأنبياء).

فذلل الله له الريح وسخَّرها بحيث تجرى بأمره. فإن أمرها تحرَّكت. وإن أمرها بالسكون سكنت. وقد تجرى رخاء لينة واستشكل البعض بأنها وصفت مرة بالرخاوة ومرة أخرى بصفة مضادة «عاصفة» أى الريح الشديدة. وقال ابن عباس والحسن والضحاك : رخاء مطيعة لا تخالف أمره فالمراد انقيادها له وهو لا يتنافى مع عصفها (تفسير الألوسى. جـ ٢٣ . ص ٢٠٣).

وما نراه أنه لمَّا كان من معانى الرُّخاء - بضم الراء - الأرض اللينة (القاموس المحيط . جـ ١ . ص ٣٣٧) فإن الريح اللينة تسوق السحاب إلى أرض جافة فتجعلها أرضا رُخاءً تنبت الزرع. والقرآن الكريم يقول:

«والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها. كذلك النشور» . (٩ - فاطر).

ولعل سليمان عليه السلام كان يعلم من الناس أو من الطير أن جهة ما فى مملكته أصابها الجدب فيأمر الريح أن تتوجه إليها. تسوق السحاب فينزل المطر وينبت الزرع ويعم الرخاء. ولاشك أن الدول المجاورة قد لمست الخير الذى عم أرض إسرائيل فى عهد سليمان. وأنه بينما كان القحط يصيب ما حولهم من دويلات فإن أرض إسرائيل كانت تنعم بالماء الوفير.

أما الريح العاصفة - أى شديدة الهبوب - فهى جند من جنود الله كما حدَّث القرآن الكريم عن غزوة الخندق:

«إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها» (٩ - الأحزاب). فقد أرسل الله

سبحانه وتعالى على الأحزاب ريحا شديدة الهبوب حتى لم يبق لهم خيمة ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار. وفى هذا يقول الحديث الشريف: «نُصِرتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور». ومما لاشك فيه أن الطير كانت تخبر سليمان عليه السلام بتجمعات الأعداء وهى لاتزال خارج حدود مملكته فيأمر الريح عاصفة فتقتلع خيام الجند وتشتت شملهم قبل وصولهم إلى حدود بلاده وهى الأرض التى باركها الله **«ولسليمان الريح عاصفة تجرى إلى الأرض التى باركنا فيها»** لتحميها من غزو الأعداء وهذا ما جعل عصر سليمان يتسم بالسلام ويخلو من الحروب إلا من بعض المعارك القليلة فى أخريات أيامه.

أما قولهم إن الريح كانت تحمل بساطه. وقال حسن البصرى. كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدى بها ويذهب رائحا من اصطخر فيبيت فى كابل. وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع أيضا (تفسير ابن كثير . جـ ٣ . ص ٥٢٨). وما روى عن الحسن من أن سليمان عليه السلام كان يغدو من بيت المقدس فيقيِّل فى اصطخر ثم يروح ويبيت بقلعة خراسان (تفسير الألوسى ج ٢٢. ص ١١٧) فهذه كلها تفسيرات من وحى الخيال. فأى فائدة أو عبرة للناس فى أن يغدو نبى الله من دمشق ليتغدى باصطخر ويبيت بكابل أو خراسان. كما أنه تصورٌ ساذج لكيفية استخدام القوى الخفية. كذلك من الموضوعات قولهم إن بساط سليمان الذى كانت الريح تحمله كان له ألف ركن وفى كل ركن ألف بيت. فهو مدينة كبيرة فيها مليون بيت وإذا افترضنا لكل بيت ١٠ أمتار مربعة لكانت مساحة البساط ١٠ كيلو مترات مربعة أى ٢٤٠٠ فدانا تقريبا!

٢ – تسخير الجن والشياطين :

«ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات». (١٢ – ١٣ – سبأ).

وقد سبق شرح ذلك (ص ١٦٩) عند الكلام عن التعدين. كما سبق أن ذكرنا النشاط البحرى لسليمان (ص ١٦٥) وأنه أنشأ أسطولا تجاريا فى البحر الأحمر ساعده فى بنائه حيرام ملك صور ودرَّب البحارة على قيادته وطرق السير فى أعالى البحار. ولكن بنى إسرائيل لم تكن لهم دراية بالغوص لاستخراج اللؤلؤ. لذلك سخَّر الله الشياطين للقيام بذلك بالإضافة إلى أعمال البناء ولابد أن ذلك كان بعد تشكلهم فى هيئة بشرية على شكل أقوام مجاورة غلبها سليمان وأخذ منهم أسرى وعبيدا:

«والشياطين كل بنَّاء وغوَّاص وآخرين مُقرَّنين فى الأصفاد». (٣٦ – ٣٧ – ص).

«ومن الشياطين من يغوصون له. ويعملون عملا دون ذلك. وكنا لهم حافظين». (٨٢ – الأنبياء).

٣ - لغة الطير :

«وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، إن هذا لهو الفضل المبين». (١٦ النمل).

ومنطق الطير هو لغته التي يتعارف بها أفراد جنسه. وجاء في تفسير الآلوسي (جـ ١٩ ص ١٧٠) يحكى أنه عليه السلام مرَّ على بلبل على شجرة يُحرِّك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه، أتدرون ما يقول؟ قالوا الله تعالى ونبيه أعلم. قال يقول: أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة (أى أنثاه) فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يُخلَقوا. وصاح طاووس فقال يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله تعالى يا مذنبون. وصاح طيطوى فقال يقول: كل حى ميت وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال يقول: قدِّموا خيرا خيرا تجدوه. وصاحت رخمة فقال تقول: سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وملء أرضه. وصاح قمرى فأخبر أنه يقول: سبحان ربى الأعلى وقال الحدأة تقول: كل شيء هالك إلا الله تعالى. والقطاة تقول من سكت سلم. والببغاء يقول ويل لمن الدنيا همه. والديك يقول: اذكروا الله تعالى ياغافلون. والنسر يقول: يابن آدم عش ماشئت فإن آخرك الموت. والعقاب يقول: فى البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربى القدوس. والقنبرة تقول: اللهم العن مبغض محمد وآل محمد. والزرزور يقول: اللهم إنى أسألك قوت يوم بيوم يارزاق. والدارج يقول: الرحمن على العرش استوى. ويقول الآلوسى ونظم الضفدع فى سلك المذكورات من الطيور ليس فى محلِّه. ومع هذا الله تعالى أعلم بصحة هذه الحكاية.

وفى رأينا أن هذا من وضع بعض السلف محاكاة لما يصدره الطير من أصوات. كما نقول فى أيامنا هذه إن الكروان يقول: المُلك لك لك لك يا صاحب المُلك. أو أن اليمامة تقول: وَحِّدوا ربكم وحِّدوا ربكم. وعلى كُلٍّ فمن المؤكد أن للطيور - كما لكل حيوانات البر والبحر - لغة يتفاهم بها أفراد الجنس الواحد يدل بها بعض أفراد القطيع البعض الآخر على مكان الغذاء أو تحذِّرها من عدوم قادم. كما تستعمل فى موسم التزاوج لاجتذاب الجنس الآخر. وقد أمكن لبعض العلماء المتخصِّصين من خلال متابعاتهم الدقيقة لبعض أنواع الحيوانات وعلى مدى عدة سنوات وتسجيل ما تصدره من أصوات فى الظروف المختلفة مثل ما تُصدره عند الفزع أو عند العثور على غذاء - أمكنهم أن يعرفوا مدلولات جزء من لغة بعض الحيوانات. ولكن الله سبحانه وتعالى وهب لسليمان هذا العلم بلغة الطير «عُلِّمْنا منطق الطير». فكان يعرف لغة الطيور كلها وقد سبق أن ذكرنا أنها ربَّما كانت تدله على مناطق الجفاف فيوجِّه إليها الريح الرخاء حاملة المطر وربما كانت تدل على تجمعات الأعداء فيوجِّه إليها الريح العاصفة تخرِّب معسكراتهم وتمنع تقدمهم.

الفصل السابع

حكمة سليمان عليه السلام

العلم هو معرفة الأمور وبواطنها – والحكمة هي حسن تقدير الأمور، وحسن التصرف في المواقف المختلفة. ولقد آتى الله داود وسليمان علما فحمدا الله على هذه النعمة:

«ولقد آتينا داود وسليمان علما، وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين» . (١٥ – النمل).

ثم يقرر القرآن الكريم أن الله آتاهما الحكمة إضافة إلى نعمة العلم: **«وكلا آتينا حكما وعلما»** . (٧٩ – الأنبياء).

وزاد الله سبحانه وتعالى سليمان في قدر الحكمة التي أوتيها وزادت مقدرته على فهم الأمور فتفوق في هذا على والده وهو ما ذكرناه سابقا (ص ١٤٥) **«ففهمناها سليمان»** (٧٩ – الأنبياء). فصارت حكمة سليمان مضرب الأمثال.

وقد أوردت التوراة حِكم سليمان عليه السلام في سفر أسمته «سفر الأمثال» والأولى تسميته «سفر الحكم» جمع حكمة إذ أن الحكمة هي عصارة خبرةٍ في الحياة وخلاصة فهم لأسرارها تنشأ من إعمال الفكر والتعمق في دراسة تصاريف الحياة والوقوف على فلسفة مفاهيمها. يقوم به ذهن ذكي فطِن فيتوصل إلى قاعدة عامة تحكم تصرفات الأشخاص أو تصاريف القدر وثابتة إلى حد ما فيقوم بصياغتها في جملة مرصوصة رصًا محكما فيه إيجاز. وكلما اتسعت ثقافة الحكيم جاءت حكمته أعمق وأسدّ وأشمل. وقد نجد تشابها في معنى حكم قيلت حول الموضوع الواحد ولكن يختلف اللفظ تبعا لثقافة وتجارب قائلها والبيئة التي عاش فيها.

أما المثل فهو وإن كان يشبه الحكمة في إيجازه ونظمه إلا أنه يشير إلى واقعة معينة أو قصة وقعت في الماضي ويريد ضارب المثل أن يشبه الموقف الحالي بالقصة السابقة فيستعمل نفس الألفاظ التي قيلت في الماضي – دون تغيير – للتعبير في الموقف الحالي عن تشابه الأطراف وتشابه النتائج. ومثال ذلك أن نقول «بيدي لا بيد عمرو» يقولها الرجل وتقولها المرأة وحتى لو كان الخصم المعنيُّ امرأة. يقوله من غُلِب على أمره فيقوم بنفسه بتنفيذ ما يتوقع أن يقوم به الخصم حتى يُفوِّت عليه لذّة تنفيذه. مثال آخر هو قولنا «رجع بخفيّ حنين» تُضرب لمن يروم شيئا عظيما ويبذل جهدا ولكنه لا يعود عليه إلا بالنزر اليسير وبالخيبة وحتى بضياع ما كان في يده. والأمثال كثيرة يضيق عنها المكان وإنما ضربنا هذين المثلين لإيضاح أن ما قاله

سليمان عليه السلام ليست أمثالا بل هى حِكم. وكما قلنا كان الأولى تسمية السفر «سفر الحِكَمْ» بدلاً من «سفر الأمثال» وخاصة أن التوراة نفسها تقول «وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه (ملوك أول ١٠:٢٤).

وتقول التوراة أيضا (ملوك أول ٣ :٥): وأصعد سليمان ألف محرقة على المذبح فى جبعون. وتراءى الرب لسليمان فى حلم ليلا وقال الله اسأل ماذا أعطيك. قال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أبى رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبرٍّ واستقامة قلب معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة. والآن أيها الرب إلهى أنت ملَّكت عبدك مكان داود أبى وأنا فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول. وعبدك فى وسط شعبك. فأعط عبدك قلبا فهيما لأحكم على شعبك وأميِّز بين الخير والشر. فحَسُنَ الكلام فى عينى الرب لأن سليمان سأل هذا الأمر فقال له الله: من أجل أنك قد سألت هذا الأمر ولم تسأل لنفسك أياما كثيرة. ولا سألت لنفسك غنى. ولا سألت أنفُس أعدائك. بل سألت لنفسك تمييزاً لتفهم الحكم. هو ذا قد فعلتُ حسب كلامكَ. هو ذا قد أعطيتك قلبا حكيما ومميِّزا حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك. قد أعطيتك أيضا مالم تسأله غنى وكرامة حتى أنه لا يكون مثلك فى الملوك كل أيامك. فإن سلكت فى طريقى وحفظت فرائضى ووصاياى كما سلك داود أبوك فإنى أطيل أيامك. فاستيقظ سليمان فإذا هو حلم. وجاء إلى أورشليم ووقف أمام تابوت عهد الرب وأصعد محرقات وقرَّب ذبائح سلامة وعمل وليمة لكل عبيده.

وسفر الأمثال فى التوراة مكون من ٣١ إصحاحا فى ٣٤ صفحة. وكل إصحاح يتناول موضوعات شتى هى الحكم التى كان يدلى بها لأصحابه فى أوقات مختلفة. وقد اخترنا بعض هذه الحكم ورتبناها حسب موضوعاتها ليسهُل استيعابها. وهو ما يشبه ما يقوم به البعض بالنسبة للقرآن الكريم من تجميع الآيات التى تتعلق بموضوع واحد مثل: المواريث أو معاملة الوالدين أو غير ذلك وهو ما يسمى «ترتيب موضوعى» لبعض الآيات. وها هى بعض من حِكَم سليمان عليه السلام مرتبة ترتيبا موضوعيا.

١ - فى الشريعة ومخافة الرب والتوكل عليه :

- لا تنس شريعتى وليحفظ قلبك وصاياى فإنها تزيدك طول أيام وسِنِى حياة سلامة.
- لا تدع الرحمة والحق يتركانك. تَقلَّدهما فى عنقك. اكتبها على لوح قلبك فتجد نعمة وفطنة صالحة فى أعين الله والناس.
- توكل على الرب بكل قلبك وعلى فهمك لا تعتمد. فى كل طرقك اعرفه. وهو يُقَوِّم سُبُلَك.
- لا تكن حكيما فى عينى نفسك. اتق الرب وابعد عن الشر فيكون شفاء لنفسك.

– للإنسان تدابير القلب ومن الرب جواب اللسان.

– كل طرق الانسان تقيه فى عينى نفسه. والرب وازن الأرواح.

– ألق على الرب أعمالك فتثبت أفكارك .

– البوطة للفضة . والكور للذهب. وممتحن القلوب الرب.

– اسم الرب برج حصين يركن إليه الصدِّيق ويجد فيه منَعة.

– في قلب الإنسان أفكار كثيرة. لكن مشورة الرب هى تثبيت .

– مخافة الرب أدب حكمة. وقبل الكرامة التواضع .

– فى سبيل البر حياة. وفى طريق مسلكه لا موت.

– فى مخافة الرب ثقة شديدة. ويكون لبنيه ملجأ .

– مخافة الرب ينبوع حياة لتجنب أشراك الموت .

– الفرس معد ليوم الحرب. أما النصرة فمن الرب .

– فى كل مكان عينا الرب مراقبتان للطالحين والصالحين.

– بَركة الرب هى تُغنى ولا يزيد معها تعبا.

– منهج المستقيمين تجنب الشر .

– حافظ نفسه حافظٌ طريقه .

– لا يحسدنَّ قلبك الخاطئين . بل كن فى مخافة الرب اليوم كله لأنه لابد من ثواب ورجاؤك لا يخيب.

٢ – فى الحكمة والفهم والمعرفة :

– الرب بالحكمة أسَّس الأرض. أثبت السموات بالفهم. بعلمه انشقَّت اللجج وتقطر السحاب ندى. احفظ الرأى والتدبير فيكون حياةً لنفسك ونعمة لعنقك. حينئذ تسلك فى طريقك آمنا. ولا تعثر رجلك. لا تخشى من خوف باغت. ولا من خراب الأشرار إذا جاء لأن الرب يكون معتمدك ويصون رجلك من أن تؤخذ.

– طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة. للرجل الذى ينال الفهم لأن تجارتهما خير من تجارة الفضة. وربحهما خير من الذهب. هى أثمن من اللآلىء وكل جواهرك لا تساويها.

– نبع الحكمة نهر متدفق .

– اقتناء الذهب خير من الفضة. واقتناء الحكمة خير من الذهب.

– إن كنت حكيما فأنت حكيم لنفسك. وإن استهزأت فأنت وحدك تتحملّ.

– أعطِ حكيما فيكون أوفر حكمة. علم صدِّيقا فيزداد علما.

– بدء الحكمة مخافة الرب. ومعرفة القدُّوس فهم.

– الفطِن من جهة أمر يجد خيرا. ومن يتكل على الرب فطوبى له.

– حكيم القلب يدعى فهيما. وحلاوة الشفتين تزيد علما.

– الفطنة ينبوع حياة لصاحبها.

– قلب الحكيم يرشد فمه. ويزيد شفتيه علما .

– ذو المعرفة يبقى كلامه. وذو الفهم وقور الروح .

– المقتنى الحكمة ينفع نفسه . الحافظ الفهم يجد خيرا .

– قلب الفهيم يقتنى معرفة . وأذن الحكيم تطلب علما.

– كون النفس بلا معرفة ليس حسنا.

– طريق الحياة للفطن إلى فوق لتجنب الهاوية من تحت .

– يوجد ذهب وكثرة لآلىء. أما شفاه المعرفة فكنز ثمين .

– وجِّه قلبك إلى الأدب وأذنيك إلى كلام المعرفة.

– كن حكيما وأرشد قلبك فى الطريق.

– اقتن الحق ولا تبعْه. والحكمة والأدب والفهم.

– قلب الفهيم يطلب المعرفة. وفهم الجُهَّال يرعى حماقة.

٣ – الحكمة تنادى (أمثال ٨:١) :

ألعل الحكمة لا تنادى والفهم ألا يعطى صوته عند رؤوس الشواهق عند الطريق بين المسالك تقف بجانب الأبواب عند ثغر المدينة. عند مدخل الأبواب تُصَرِّح: لكم أيها الناس أنادى وصوتى إلى بنى آدم. أيها الحمقى تعلَّموا ذكاء. ويا جُهَّال تعلَّموا فهما. اسمعوا فإنى أتكلم بأمور شريفة. وافتتاح شفتى استقامة لأن حنكى يلهج بالصدق. ومكرهة شفتى الكذب. كل كلمات فمى بالحق. ليس فيها عوج ولا إلتواء. كلها واضحة لدى الفهيم. ومستقيمة لدى الذين يجدون المعرفة. خذوا تأديبى لا الفضة. والمعرفة أثمن من الذهب المختار لأن الحكمة خير من اللآلىء وكل الجواهر لا تساويها.

أنا الحكمة أسكن الذكاء وأجد معرفة التدابير. مخافة الرب بغض الأشرار. الكبرياءَ والعظمة وطريق الشر وفمَ الأكاذيب أبغضتُ . لي المشورة والرأي. أنا الفهم . بي القدرة. بي تقضي الملوك وتقضي العظماء عدلا. بي تترأس الرؤساء والشرفاء وكل قضاة الأرض. أنا أحب الذين يحبونني. والذين يبكّرون إليَّ يجدونني. عندي الغنى والكرامة. قنية فاخرة وحظ. ثمري خير من الذهب ومن الإبريز. وغلّتي خير من الفضة المختارة. في طريق العدل أتمشّى في وسط سبل الحق فأورِّث محبّيَّ رزقا وأملأ خزائنهم.

فالآن أيها البنون اسمعوا لي. فطوبى للذين يحفظون طرقي. اسمعوا التعليم وكونوا حكماء ولا ترفضوه. طوبى للإنسان الذي يسمع لي ساهرا كل يوم عند مصاريعي حافظا قوائم أبوابي لأنه مَنْ يجدني يجد الحياة وينال رضى الرب. ومن يُخطيء عني يضرُّ نفسه.

الحكمة بنت بيتها. تحت أعمدتها السبعة أرسلت جوابها تنادي على ظهور أعالي المدينة. من هو جاهل فليمل إلى هنا. والناقص الفهم قالت له: هلمُّوا كلوا من طعامي واشربوا من الخمر التي مزجتها. اتركوا الجهالات فتحيوا. وسيروا في طريق الفهم.

في البدء كانت الكلمة منذ الأزل. الرب أوجدني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم. منذ الأزل منذ البدء منذ أوائل الأرض. إذ لم يكن غمر (مياه) من قبل أن تقررت الجبال والتلال. إذ لم يكن صنَعَ الأرضَ بعدُ ولا البراري. لما ثبّت السموات كنت هناك أنا. لما أثبت السحب من فوق لما وضع للبحر حده فلا تتعدّى المياه تخمه (حدوده) لما رسم أسس الأرض كنت قد وُجدتُ.

يا ابني. إن قبلت كلامي وخبأت وصاياي عندك حتى تميل أذنك إلى الحكمة وتُعطِّف قلبك على الفهم. إن دعوت المعرفة ورفعت صوتك إلى الفهم. إن طلبتها كالفضة وبحثت عنها كالكنوز. فحينئذ تفهم مخافة الرب وتجد معرفة الله لأن الرب يعطي حكمة من قمة المعرفة والفهم يدّخر معونة للمستقيمين والسالكين بالكمال لنصر مسالك الحق وحفظ طريق أتقيائه. حينئذ تفهم العدل والحق والاستقامة.

إذا دخلت الحكمة قلبك ولذّت المعرفة لنفسك. فالعقل يحفظك والفهم ينصرك لإنقاذك من طريق الشر ومن الإنسان المتكلم بالأكاذيب . التاركين سبل الاستقامة للسلوك في مسالك الظلمة. الفرحين بفعل السوء. المبتهجين بأكاذيب الشر. الذين طرقهم معوجة وهم ملتوون في سبيلهم.

اسمع يا ابني. أريتُك طريق الحكمة. هديتُك سبيل الاستقامة. تمسَّك بالأدب. لا تُرْخِه. احفظه فإنه حياتك. لا تدخل في سبيل الأشرار ولا تسر في طريق الأثمة. تنكَّب عنه. لا تمرَّ به. حِدْ عنه واعبر لأنهم لا ينامون إن لم يفعلوا سوءا. وينزع نومهم إن لم يُسقِطوا أحداً لأنهم يطعمون خبز الشر. ويشربون خمر الظلم. أما سبل الصدِّيقين فهي مثل نور مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل. أما طريق الأشرار فهي كالظلام.

يا أبني، اصغ إلى كلامي، أمل أذنك إلى أقوالي لا تبرح عن عينيك، احفظها في وسط قلبك لأنها حياة للذين يجدونها، ودواء لكل الجسد، احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة، انزع عنك التواء الفم، وأبْعِد عنك انحراف الشفتين، لِتنظر عيناك إلى قدامك وأجفانك إلى أمامك مستقيما، مَهِّد سبل رجلك فتثبُت كل طرقك، لا تمل يمنة ويسرة، باعد رجلك عن الشر.

الحكمة تنادي في الخارج قائلة: إلى متى أيها الجُهَّال تحبُّون الجهل؟ رفضتم كل مشورتي، فأنا أيضا أضحك عند بليَّتكم، أشمت عند مجيء خوفكم، أما المستمع لي فيسكن آمنا ويستريح من خوف الشر.

٤ – مقارنة بين الحكمة والجهل :

– الحكمة عند الفهيم وعينا الجاهل في أقصى الأرض.
– الجاهل لا يُسَرُّ بالفهم بل يكشف قلبه .
– فم الجاهل مهلكة له وشفتاه شرك لنفسه .
– شفتا الجاهل تداخلان في الخصومة، وفمه يدعو بضربات .
– الأغبياء يرثون الحماقة، والأذكياء يُتوَّجون بالمعرفة .
– الحماقة فرح لناقصي الفهم، أما ذو الفهم فيُقوِّم سلوكه.
– البغضة تهيج خصومات، والمحبة تستر كل الذنوب.
– في شفتي العاقل توجد حكمة، والعصا لظهر الناقص الفهم.
– من فم الجاهل قد يكون هلاكه، أما شفاه الحكيم فتحفظهم.
– من يحفظ فمه ولسانه يحفظ من الضيقات نفسه، وهذا يشبه الحكمة العامية التي تقول: لسانك حصانك إن صنته صانك.
– لسان الحكماء يُحَسِّن معرفة، وفم الجهال ينبع حماقة.
– الحكماء يذخرون معرفة، أما فم الغبي فهلاك قريب.
– شفتا الصدِّيق تهديان كثيرين، أما الأغبياء فيموتون من نقص الفهم.
– توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت.
– الحكيم يخشى ويتجنب الشر والجاهل يتصلَّف ويثق.
– الغبي يصدِّق كل كلمة، والذكي ينتبه إلى خطواته.

٥ - الحث على التروِّى والمشورة :

- مقاصدُ بغير مشورة تبطل، وبكثرة المشيرين تقوم .
- المشورة فى قلب الرجل مياه عميقة، وذو الفطنة يستقيها .
- المقاصد تثبت بالمشورة، وبالتدابير اعمل حربا .
- المستعجل برجليه يخطىء .

٦ - الحث على تجنب أصدقاء السوء :

كان السلب بالقوة منتشرا فى تلك الأيام وكان الأشرار (يسميهم هنا الخطاة) لا يتورعون عن اقتراف العنف لنوال مغنم. وهو فى هذه الفقرة يحث على رفض الدعوة للمشاركة فى مغنمهم الأثيم ورفض المشاركة فى أفعالهم الشريرة فيقول:

يا ابنى إن تملَّقك الخطاة فلا ترضَ. إن قالوا هلُمَّ معنا لنختف للبرىء لنقتله لنبتلعهم أحياء كالهاوية وصحاحا كالهابطين فى الجب فنجد كل قنية فاخرة ونملأ بيوتنا غنيمة. تُلقى قرعتك وسطنا (أى تشاركنا أفعالنا وتشترك فى الغنيمة) يكون لنا جميعا كيس واحد. يا ابنى لا تسلك فى الطريق معهم، امنع رجلك عن مسالكهم لأن أرجلهم تجرى إلى الشر وتسرع إلى سفك الدماء.

٧ - قبول تأديب الرب :

هذا اللفظ «تأديب الرب» تردد عدة مرات فى «سفر الأمثال» - كما تردد أيضا فى قصة أيوب عليه السلام (الجزء الثالث من هذه السلسلة، ص ٥٩٤) ومعناه أن الإنسان إذا ارتكب خطيئة فإن الله يجازيه بسوء يقع به فى ماله أو جسده جزاء لما فعل حتى يرتدع. وهذا نوع من التأديب الذى ينزله الله بالعبد. وواجب المرء حينئذ أن يَعِيَ ذلك فلا يضجر مما ينزل به، ومن أمثال سليمان عليه السلام التى قالها فى هذا المعنى:

- يا ابنى، لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه لأن الذى يحبه الرب يؤدبه وكأب بابن يُسَرُّ به. فلا تسخط على ما ينزل بك من بلاء لأن ذلك تأديب الرب.
- من يحب التأديب يحب المعرفة، ومن يبغض التأديب فهو بليد .
- هوان لمن يرفض التأديب ومن يلاحظ التوبيخ (ويقبله) يكرم.

٨ - مقابلة بين الخير والشر وبين الصدِّيقين والأشرار :

- كنوز الشر لا تنفع، أما البِر فينجى من الموت.

– بركات على رأس الصِّدِّيق. أما رأس الأشرار فيغشاه ظلم .

– فم الصِّدِّيق ينبوع حياة. وفم الأشرار يغشاه ظلم.

– عمل الصِّدِّيق للحياة . ربح الشرير للخطية .

– لسان الصِّدِّيق فضة مختارة. قلب الأشرار كشيء زهيد.

– مخافة الرب تطيل العمر. أما سنو الأشرار فتقصر .

– الصدِّيق لن يزحزَحَ أبداً . والأشرار لن يسكنوا الأرض .

– فم الصِّدِّيق ينبت الحكمة. ولسان الأشرار كذب ويُقطع .

– برّ المستقيمين ينجيهم. أما الغادرون فيؤخذون بفسادهم.

– الصِّدِّيق ينجو من الضيق والشرير يهلك.

– كما أن البر يؤدى إلى الحياة. كذلك من يتبع الشر فإلى موته.

– من يطلب الخير يلتمس الرضا . ومن يطلب الشر فالشر يأتيه.

– أفكار الصدِّيق عدل، تدابير الأشرار غش .

– لا يصيب الصدِّيق شر. أما الأشرار فيمتلئون مصائب.

– بيت الأشرار يخرب. وخيمة المستقيمين تُزهر.

– فى بيت الصدِّيق كنز عظيم. وفى داخل الأشرار كدر

– الرب بعيد عن الأشرار. ويسمع صلاة الصديقين .

– ذبيحة الأشرار مكرهة للرب . وصلاة المستقيمين مرضاته.

٩ – فى عدم الشماتة :

الفرحان ببليَّة غيره لا يتبرأ .

١٠ – فى الوشاية :

– الساعى بالوشاية يُفشى السر. والأمين الروح يكتم الأمر.

– الرسول الشرير يقع فى الشر . والسفير الأمين شفاء .

١١ - فى الجهل والحمق :

- طريق الجاهل مستقيم فى عينيه. أما سامع المشورة فحكيم .
- كل ذكى يعمل بالمعرفة. والجاهل ينشر حمقا .
- بحسب فطنته يُحمد الإنسان. أما الملتوى القلب فله الهوان .
- ليصادف الإنسان دبة ثكول ولا جاهل فى حماقته .
- من يلد جاهلا فلحزنه ولا يفرح أبو الأحمق .
- الأحمق إذا سكت يُحسب حكيما. فإذا تكلم ظهر حمقه .
- من يجيب عن أمر قبل أن يسمعه فله حماقة وعار .
- حماقة الرجل تعوِّج طريقه، وعلى الرب يحنق قلبه.
- كل أحمق ينازع . مجد الرجل أن يبتعد عن الخصام .
- الحكماء ينالون مجدا . والحمقى يحملون هوانا .

١٢ - فى الحث على عدم الاعتداء على حقوق الآخرين :

- لا تنقل التخم القديم الذى وضعه آباؤك (التخم هى العلامات التى تُدَق لتفصل بين الحقول المتجاورة. ونقل الحدّ مرض منتشر بين الفلاحين).

- لا تنقل التخم القديم. ولا تدخل حقول الأيتام لأن وليهم قوى (هو الله). هو يقيم دعواهم عليك(وينصرهم).

- لا تمنع الخير عن أهله حين يكون فى طاقة يدك أن تفعله. ولا تقل لصاحبك غداً أعطيك وغداً موجود عندك.

- لا تخترع شرا على صاحبك وهو ساكن لديك آمنا. لا تخاصم إنسانا بدون سبب إن لم يكن قد صنع معك شرا.

١٣ - فى الحث على الصدقات :

- يوجد من يُفَرِّق (صدقات) فيزداد أيضا. ومن يمسك أكثر من اللازم (أى البخيل) فإنما إلى الفقر .

وهذا يقابل : - ما نقصت صدقة من مال.

– حصنّوا أموالكم بالزكاة .

– اللهم أعط منفقا خلفا، وأعطِ ممسكا تلفا .

– النفس السخية تُسَمَّن .

– محتكر الحنطة يلعنه الشعب، والبركة على رأس البائع .

– من يرحم الفقير يقرض الرب وعن معروفه يجازيه .

– من يسد أذنيه عن صراخ المسكين فهو أيضا يصرخ ولا يستجاب له .

– لا تسلب الفقير لكونه فقيرا، ولا تسحق المسكين في الباب، لأن الرب يقيم دعواهم ويسلب سالبي أنفسهم.

١٤ – في الفقر والغنى :

– الغِنى يكثر الأصحاب، والفقير منفصل عن قريبه .

– أيضا من قريبه يُبغَض الفقير . ومحبُّو الغنى كثيرون .

– القليل مع مخافة الرب، خير من كنز عظيم مع هَمّ .

– المقترض عبد للمقرِض، وهو يقابل : الدين هَم بالليل وذل بالنهار

– يوجد من يتغانى ولا شيء عنده، ومن يتفاقر وعنده غنى جزيل .

– المستهزىء بالفقير يُعَيِّر خالقه .

– بتضرعات يتكلم الفقير . والغنى يجاوب بخشونة .

– الغنى والفقير يتلاقيان . صانعهما كليهما الرب .

١٥ – في الحث على العدل :

– تغريم البرىء ليس بحسن، وكذلك ضرب الشرفاء .

– فعل العدل والحق أفضل عند الرب من الذبيحة .

– التابع العدل والرحمة يجد حياة حظا وكرامة .

– إجراء الحق فرح للصدِّيق وهلاك لفاعلي الإثم .

– الرجل الظالم يُغوِي صاحبه ويسوقه إلى طريق غير صالحة .

– ظالم الفقير ليكثر ماله فقير، والمتقرب زلفى للغنى أيضا فقير.

١٦ - فى التواضع والتكبُّر :

- ثواب التواضع ومخافة الرب هو غني وكرامه وحياة.
- تأتى الكبرياء فيأتى الهوان . ومع المتواضعين حكمة .
- الرب يقلع بيت المتكبرين. ويُوطِّد تخم المتواضعين .
- تواضع الروح مع الودعاء خير من قَسْمِ الغنيمة مع المتكبرين .

١٧ - فى الخمر :

- الخمر مستهزئه. السكر عَجَاج (أى غبار) ومن يترنَّح بهما ليس بحكيم.
- لا تكن بين شاربى الخمر. بين المتلفين أجسادهم لأن السكير والمسرف يفتقران.
- محب الخمر لا يصبح غنيا .

- لمن الويل؟ لمن الشقاوة؟ لمن المخاصمات؟ لمن الكرب؟ لمن الجروح بلا سبب؟ لمن ازمهرار العين؟ للذين يدمنون الخمر. الذين يدخلون فى طلب الشراب المزوج.

- لا تنظر إلى الخمر إذا احمرَّت حين تظهر حبابها فى الكأس (الحباب الفقاقيع تظهر على سطح السائل) وساغت مرقرقة. فى الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالأفعوان. عيناك تنظر الأجنبيات (وتبحلق فيهن) وقلبك ينطق بأمور ملتوية ويكون كالمضطجع فى قلب البحر أو كمضطجع على رأس سارية.

١٨ - فى الغش والمال الحرام :

- موازين الغش مكرهة للرب. والوزن الصحيح رضاه .
- المولع بالكسب الحرام يُكدِّر بيته والكاره الرشوة يعيش .
- غِنى البُطل (المكتسب بالباطل) يقل . والجامع بيده يزداد .
- القليل مع العدل خير من دخل جزيل بغير حق.

١٩ - فى النهى عن الكسل والحث على العمل :

- العامل بيد رخوة (الكسول) يفتقر . أما يد المجتهد فتغنى.
- شهوة الكسلان تقتله لأن يديه تأبيان الشغل .

– يد المجتهد تسود. أما الرخوة فتكون تحت الجزية .
– الرخاوة لا تمسك صيدا . أما ثروة الإنسان الكريمة فهى الاجتهاد .
– نفس الكسلان تشتهى ولا شيىء لها . ونفس المجتهدين تسمن .
– فى كل تعب منفعة ومن يكتفى بكلام الشفتين إنما هو إلى فقر.
– المتراخى فى عمله أخو المسرف .
– من يشتغل بحقله يشبع خبزا . أما تابع البطالين فهو عديم الفهم.
– من ثمر يد الإنسان يشبع بطنه. والنفس المتراخية تجوع .
– الكسلان لا يحرث بسبب البرد. فيستعطى فى الحصاد ولا يُعطىَ.
– لا تحب النوم لئلا تفتقر. افتح عينيك (استيقظ واعمل) تشبع خبزا .
– الإنسان يشبع خيرا من ثمرة يده. ومكافأة يدى الإنسان تُرَدُّ له .

٢٠ – فى الغضب :

– البطىء الغضب خير من الجبار . والمتسامح خير ممن يأخذ مدينة .
– تعقل الإنسان يبطىء غضبه. وفخره الصفح عن إساءة .
– لا تستصحب غضوبا . ومع رجل ساخط لا تمشى لئلا تألف طرقه .
– بطىء الغضب كثير الفهم . وسريع الغضب أحمق .
– الجواب اللين يصرف الغضب. والكلام الموجع يهيج السخط .
– الرجل الغضوب يهيج الخصومة. وبطىء الغضب (الحليم) يسكِّن الخصام .

٢١ – فى العفو والتسامح :

– لا تقل إنى أجازى شرا . انتظر الرب فيخلِّصك .
– معيار فمعيار. مكيال فمكيال (أى رد الشر بمثله) كلاهما مكرهة للرب.

٢٢ – فى شهادة الزور :

– شاهد الزور لا يتبرَّأ. والمتكلم بالأكاذيب لا ينجو .

- الشاهد اللئيم يستهزئ بالحق. وفم الأشرار يبلع الإثم .
- شاهد الزور يهلك . والرجل السامع للحق يتكلم .
- الشاهد الأمين لا يكذب . والشاهد الزور يتكلم بالأكاذيب .
- الشاهد الأمين منجى للنفوس . ومن يتفوّه بالأكاذيب فغشٌ .
- من يتفوّه بالحق يُظهر العدل . والشاهد الكاذب يُظهر غشا .
- مُبرّئ المذنب ومذنّب البرئ كلاهما مكرهة للرب .

٢٣ - الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

- كراهة الرب شفتا كذب. أما العاملون بالصدق فرضاه.
- خبز الكذب لذيذ للإنسان ومن بعده يمتلئ فمه حصى .
- جمع الكنوز بلسان كاذب هو بخار مطرود لطالبي الموت .
- كثرة الكلام لا تخلو من معصية . أما الضابط شفتيه فعاقل .
- رجل الأكاذيب يطلق الخصومة. والنّمام يفرّق الأصدقاء .
- كلام النمّام مثل لقم حلوة وهو ينزل إلى مخادع البطن .
- الكلام الحسن شهد عسل . حلو للنفس وشفاء للعظام .
- المتقلّب اللسان يقع في السوء . والملتوى القلب لا يجد خيرا .
- يوجد من يهزر مثل طعن السيف . أما لسان الحكماء فشفاء .
- هدوء اللسان شجرة حياة . واعوجاجه سحق في الروح .
- شفة الصدّيق تثبت إلى الأبد. ولسان الكذب إنما هو لطرفة عين .
- للإنسان فرح بجواب فمه. والكلمة في وقتها ما أحسنها .

٢٤ - في الملوك :

- الملك الحكيم يشتت الأشرار ويرد عليم النورج .
- الرحمة والحق يحفظان الملك. وكرسيُّه يُسند بالرحمة .
- قلب الملك في يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يميله .
- يُكرَه من الملوك فعل الشر لأن الكرسي يثبت بالبر .

– فى نور وجه الملك حياة، ورضاه كسحاب المطر .

– حيث لا تدبير يسقط الشعب أما الخلاص فبكثرة المشيرين .

٢٥ – فى تأديب الأب لابنه :

– اسمع يا ابنى تأديب أبيك . ولا ترفض نصائح أمك . لأنها إكليل نعمة لرأسك وقلائد لعنقك .

– يا ابنى . احفظ وصايا أبيك، ولا تترك نصائح أمك، اربطها على قلبك قلِّد بها عنقك، إذا ذهبت تهديك، إذا نمت تحرسك، وإذا استيقظت فهى تحدِّثك لأن الوصية مصباح، والنصائح نور.

– من يمنع عصاه يمقت ابنه . ومن أحبَّه يطلب له التأديب بمعنى أن تأديب الابن بالضرب هو دليل محبة، وكما قيل «فليقس أحيانا على من يرحم».

– أدِّب ابنك لأن فيه رجاء ولكن على أمانته لا تحمل نفسك .

– لا تمنع التأديب عن الولد لأنك إن ضربته بعصا فلن يموت، تضربه أنت بعصا فتنقذ نفسه من الهاوية.

– رَبِّ الولد فى طريق مستقيم فمتى شاخ لا يحيد عنه (أى من شبَّ على شيىء شاب عليه).

٢٦ – فى الأبناء :

– الابن الحكيم يسر أباه، والابن الجاهل حُزْن لأمه .

– الابن الحكيم يسر أباه . والابن الجاهل يحتقر أمه .

– الابن الحكيم يقبل التأديب . والمستهزىء لا يسمع انتهارا .

– الابن الجاهل غم لأبيه . ومرارة للتى ولدته .

– الابن الجاهل مصيبة على أبيه .

– اسمع لأبيك الذى ولدك، ولا تحتقر أمك إذا شاخت .

– من وُلِد حكيما يُسَرُّ به، يفرح أبوك وأمك وتبتهج التى ولدتك.

– من سبّ أباه وأمه ينطفىء سراجه فى حدقة الظلام .

٢٧ - فى الزوجة :

- المرأة الفاضلة تاج لبعلها . أما المخزية فهى كنخر فى العظام .
- حكمة المرأة تبنى بيتها . والحماقة تهدمه بيدها .
- من يجد زوجة فاضلة يجد خيرا وينال رضا الرب .
- مخاصمات الزوجة كالبيت المتهاوى . أما الزوجة المتعقِّلة فمن عند الرب.
- السكنى فى أرض برية خير من امرأة مخاصمة حَرِدة .

٢٨ - فى المرأة الأجنبيه ونهى عن الزنا :

- فم الأجنبيات هوة عميقة ممقوت الرب يسقط فيها .
- لا تشته امرأة أجنبية بقلبك. ولا تأخذك بهدبها لأنه بسبب امرأة زانية يفتقر المرء إلى رغيف خبز .
- أيأخذ إنسان نارا فى حضنه ولا تحترق ثيابه؟ أو يمشى إنسان على الجمر ولا تكتوى رجلاه؟ هكذا من يدخل على امرأة صاحبه. كل من يمسَّها لا يكون بريئا .
- الزانى بامرأة هو عديم الفهم. المهلك نفسه هو يفعله. ضربًا وخزيا يجد وعاره لا يمّحى. لأن الغيرة هى حمِيَّة الرجل. فلا يشفق فى يوم الانتقام. لا ينظر إلى فدية ولا يرضى ولو أكثرت الرشوة.

ثم يحكى قصة شاب أغوته امرأة غاب عنها زوجها فى سفر فيقول: من كوة بيتى تطلعت فرأيت غلاما عديم الفهم عابرا فى الشارع صاعدا فى طريق بيتها فى حدقة الليل والظلام. واستقبلته المرأة خبيثة القلب فى بيتها فأمسكته وقبلته وقالت له: بالديباج فرشت سريرى بموشى كتان من مصر. عطَّرت فراشى بمُرٍّ وعودٍ وقرفة. هلم نرتَوِ وُدًّا إلى الصباح نتلذَّذ بالحب لأن الرجل ليس فى البيت. ذهب فى طريق بعيدة. يوم الهلال يأتى إلى بيته. أغوته بكثرة فنونها. ذهب وراءها لوقته كثور هائج إلى المذبح. كطير يسرع إلى الفخ. والآن أيها الأبناء اسمعوا لى واصغوا لكلمات فمى. لا يمل قلبك إلى طرقها ولا تشرد فى مسالكها لأنها طرحت كثيرين جرحى. وكل قتلاها أقوياء. طرق الهاوية إلى بيتها هابطة إلى حدود الموت. تقف عند باب بيتها فى أعالى المدينة لتنادى عابرى السبيل. من هو جاهل فليمل إلى هنا. والناقص الفهم تقول له: المياه المسروقة حلوة وخبز الخفية لذيذ. ولا يَعلم أن فى أعماق الهاوية ضيوفها.

٢٩ – أمثال عامة :

– المساير الحكماء يصير حكيما ورفيق الجهال يصير جاهلا .

– إذا أرضت الرب طرق الإنسان جعل أعداءه أيضا يسالمونه .

– قلب الإنسان يفكر فى طريقه والرب يهدى خطوته – (مثل المثل المعاصر : العبد فى تفكير والرب فى تدبير).

– كل طرق الإنسان نقية فى عينى نفسه . والرب وازن الأرواح .

– من يحتقر قريبه يخطىء، ومن يرحم المساكين فطوبى له .

– مخافة الرب فى تجنب الشر . وبالرحمة والحق يُستَر الإثم .

– من يجازى عن خير بشرٍ لن يبرح الشر من بنيه .

– الصيت أفضل من الغنى العظيم .

– الزارع إثما إنما يحصد بَلِيَّة .

– المحتقر صاحبه هو ناقص الفهم .

– الرجل الرحيم حسن إلى نفسه . والقاسى يُكدِّر لحمه .

٣٠ – ختام :

– اذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر أو تجىء السنون. قبل ما تُظلِم الشمس والنور والقمر والنجوم. فى يوم يتزعزع فيه حَفَظَةُ البيت. لأن الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدى والنادبون يطوفون فى السوق فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها .

حِكَم سليمان وتعاليم أمنمئوبى

أثار بعض كتاب الغرب مسألة وجود بعض تشابه بين حكم سليمان عليه السلام وتعاليم الحكيم المصرى القديم أمنمئوبى Amen-em-Opet ومن ثم قالوا إن الأولى مشتقة من الثانية.

وأمنمئوبى من أهل أخميم فى صعيد مصر وكان أحد موظفى الإدارة الخاصة بمخازن الحبوب، وقد عثر على هذه التعاليم فى بردية وجدت فى قبره فى الجبل الغربى فى أخميم. واشتراها أحد تجار الأقصر من تاجر أخميم. ثم اشتراها المتحف البريطانى وهى موجودة

هناك تحت رقم ١٠٤٧٤ ومكتوبة باللغة الهيراطيقية ويتاح للباحثين والدارسين الاطلاع عليها. وكان العالم البريطاني «السير أرنست ألفريد بدج Sir Ernest Alfred Budge» قد نشر في عام ١٩٢٤ ترجمة انجليزية لتعاليم أمنمئوبي. ثم قام العالم الألماني «أدولف إرمان» في نفس العام بنشر ما رآه من أن تعاليم أمنمئوبي هي الأساس الذي اشتُقَّت منه حكم سليمان التي جاءت في سفر الأمثال في العهد القديم. وفي عام ١٩٢٥ قام العالم «لانج» بنشر ترجمة للبردية وأيَّد هذا الرأي. وفي عام ١٩٢٦ قام العالمان «فرانسيس جريفث» و«سمپسون» بترجمة البردية من جديد وعملا مقارنة بين بعض نصوصها وبعض نصوص سفر الأمثال وخلصا إلى أن سفر الأمثال إنما اعتمد على تعاليم أمنمئوبي إلى حد كبير نظرا لما وجداه من تشابه قوي في الأفكار وفي الأسلوب. وفي عام ١٩٢٩ نشر العالم «كادبري» ترجمة أخرى للبردية وأبان تأثيراتها على سفر الأمثال. إلا أن البحث المستفيض هو الذي قام به « چيمس برستد » في عام ١٩٣٩ في كتابه «فجر الضمير». واكتفى «ج. پرتشارد» في كتابه «الشرق الأدنى القديم» عام ١٩٥٨ بنشر ترجمة انجليزية لتعاليم أمنمئوبي مع إشارة في الهامش إلى رقم الإصحاح والفقرة المشابهة من سفر الأمثال.

ومن الطبيعي أن لا يرحِّب المحافظون من اليهود بهذه الأقوال وراح بعضهم يؤكد أن بردية أمنمئوبي هي التي نقلت عن سفر الأمثال. أما المؤرخون المصريون فقد نقلوا عن الترجمة العربية لكتاب پرستد «فجر الضمير» والتي لم تحتو إلا على فقرات من تعاليم أمنمئوبي والفقرات من سفر الأمثال التي رأى أن فيها تطابقا في اللفظ – ومن ثَمَّ تبنوا وجهة النظر التي خَلُصَ إليها. ولكي نكون محايدين فقد رجعنا إلى الترجمة الانجليزية لتعاليم أمنمئوبي الكاملة التي نشرها «ج برتشار» عام ١٩٥٨ (كتاب الشرق الأدنى القديم. الصفحات ٢٣٧ – ٢٤٣). لنعرف نسبة الأجزاء المتشابهة إلى الأجزاء التي ليس فيها تشابه لتأثير ذلك على النتيجة التي يُتَوصَّلُ إليها. ويذكر پرتشارد أن هناك خلاف حول الوقت الذي كتبت فيه تعاليم أمنمئوبي ويرى أنها بالتأكيد كتبت بعد عصر الدولة الحديثة ويُرجِّح كتابتها في وقت ما بين القرنين العاشر والسادس ق.م. مع ترجيح أكثر للقرنين السابع أو السادس. ولما كان سليمان قد حَكَم في القرن العاشر ق.م. (٩٧٣ – ٩٣٣ ق.م.) أي في وقت سابق على وقت أمنمئوبي. فتكون تعاليم أمنمئوبي هي التي أخذت عن حِكَم سليمان. ولكن ليس من سند لهذا التوقيت الذي رجَّحه پرتشارد ولا يجب الاعتماد على الظن في مسألة مهمة كهذه. كما أنه من المهم أن نضع في الإعتبار أن تعاليم أمنمئوبي تكاد تساوي ١/٤ أو ١/٣ مادة سفر الأمثال. وعلى كُلٍّ فإن الاحتمالات القائمة هي:

١ – سفر الأمثال أخذ عن تعاليم أمنمئوبي.

٢ – أمنمئوبي هو الذي نقل عن سفر الأمثال.

٣ – مجرّد توارد خواطر. وقد سبق أن ذكرنا أن الحكم والأمثال فى كثير من البلدان المتباعدة قد تتشابه دون أن تكون إحداها قد نقلت عن الأخرى إذ الحكمة تنشأ من نبض الشعب معبّرة عن مشاعره وسلوكه أو تعبّر عن تصاريف القدر وأسراره ولا يخلو شعب من الشعوب من حكيم أو حكماء يصوغون له فلسفة الحياة ومفاهيمها فى ألفاظ موجزة.

٤ – هناك احتمال رابع لم يضعه الباحثون من قبل فى اعتبارهم. وهو أن يكون الاثنان قد استقيا من مصدر واحد. ولما كان الله سبحانه وتعالى هو أحكم الحاكمين لذلك كانت الحكمة الواردة فى الكتب المقدسة – التوراة والإنجيل والقرآن الكريم – هى من أغلى الحكم ومن جوامع الكَلِمْ . يلى ذلك أقوال الأنبياء والمرسلين فهم يتكلمون بوحى من الله أو بحكمة أودعها الله فى قلوبهم. فهو سبحانه وتعالى «يعلمهم الكتاب والحكمة». وهذا الاشتقاق من مصدر واحد يوجِدُ تشابها فى بعض أقوالهم دون أن يكون هناك نقل أو اقتباس.

ولا يفوتنا أن نُذكّر بأن چيمس برستد – فى كتابه عن تاريخ مصر – سبق أن ادعى أن المزمور ١٠٤ من مزامير داود عليه السلام مأخوذ من «الأنشودة الكبرى» لأخناتون. وقد ناقشنا هذا الادعاء باستفاضة فى الجزء الثالث من هذه السلسلة (ص ٥٧٧) وأثبتنا عدم صحته. والآن نورد المقارنة التى وضعها برستد لنرى إن كان سليمان عليه السلام قد أخذ عن أمتمئوبى أم أن هذا الادعاء أيضا غير صحيح.

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
الفصل الأول	أمثال ٢٢ : ١٧ – ١٨
أعرنى أذنيك. اسمع ما أقول. اعرف قلبك لتفهمها لأنها تستحق أن توضع فى قلبك ولكنها مدمّرة لمن يهملها . دعها تكن «ذخيرة وكنزا» فى جوفك. ولتكن «مفتاحا فى قلبك».	أمل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجِّه قلبك إلى معرفتى لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك. إن تثبّتت جميعا على شفتيك. ليكن اتكالك على الرب .

التعليق : هناك تشابه فى السطر الأول. ولكننا فى عصرنا الحالى كثيرا ما نسمع شخصا يقول لابنه أو لشخص آخر: أعطنى أذنك – أو خللى ودنك معايا– دون أن يكون هذا الشخص قد قرأ شيئا عن أمنمئوبى أو سليمان أو حتى سمع بهما – فهو تعبير عام لجذب الانتباه لأهمية ما سيأتى من كلام.

أمثال سليمان	تعاليم أمنموبى
أمثال ٢٢ : ١٩ – ٢٠ ألم أكتب لك أمورا شريفة من جهة مؤامرة ومعرفة.	فى وقت ما ستكون هناك عاصفة من الكلمات وستكون هذه (كلماتى) علامة حق ثابتة للسانك. إذا قضيت بعض الوقت وهى راسخة فى قلبك فستجد أنها ناجحة وستجد أن كلماتى ثراء لحياتك وجسدك حتى يثمر على الأرض

التعليق : ليس هناك تشابه لا فى المعنى ولا فى اللفظ.

أمثال سليمان	تعاليم أمنموبى
أمثال ٢٢ : ٢١ لأعلمك قسط كلام الحق لترد جواب الحق للذين أرسلوك.	لأجل أن ترد على تقرير لمن أرسله

التعليق : هذه الجملة من تعاليم أمنموبى أوردها پرستد فى ترجمته للنص فى حين أنها غير موجودة فى النص الانجليزى الذى نشره پرتشارد.

أمثال سليمان	تعاليم أمنموبى
أمثال ٢٢ : ٢٢ لا تسلب الفقير لكونه فقيرا ولا تسحق المسكين فى الباب لأن الرب يقيم دعواهم ويسلب سالبى أنفسهم. أمثال ٢٥ : ٢١ – ٢٢ إن جاع عدول فأطعمه خبزا. وإن عطش فاسقه ماء فإنك تجمع جمراً على رأسه والرب يجازيك.	**الفصل الثانى** حاذر أن تسلب المظلوم أو تقف ضد المسكين ولا تمد يدك ضد رجل هَرِم. ولا تسرق (تنسب لنفسك) كلمات كبار السن. لا تسمح لنفسك أن تكون ضمن غارة سلب ولا تحب من يقوم بها ولا تَصِحْ ضد من هاجمه ولا تتجاوب معه. إن من يفعل الشر فإن ضفاف النهر تلفظه. ومياه الفيضان تحمله بعيدا. إنه يلتقى بالعاصفة والرعد العالى والتماسيح الخبيثة. أنت أيها الرجل ذو الضمير كيف بك أنت الآن؟ إنه يصرخ وصوته يرتفع إلى السماء. والقمر شاهد على الجريمة. فأدر طريقك بعيدا عن الرجل الشرير لأننا لن نفعل مثل أفعاله. انتشله. وأعطه يدك واتركه فى أيدى الإله. املأ بطنه بخبزك كى يشبع للنهاية ويخجل وهذا منك فعل حسن فى قلب الإله. وتمهلْ قبل الكلام.

التعليق : قالوا إن السطر الأول فيه تشابه. ولكن الحقيقة هي تكرر لفظ المسكين فقط. أمنمئوبي نهي عن سلب المظلوم أو الوقوف ضد المسكين في حين أن سليمان نهى عن سلب الفقير أو سحق المسكين في الباب بمعنى إغلاق الباب في وجهه بحيث يسحقه. أما الفقرة الأخيرة فإنها في تعاليم أمنمئوبي تقصد الرجل الشرير عموما أما سفر الأمثال فيقصد «العدو في الحرب». ثم إن أمنمئوبي يقصد أن تشبعه حتى التخمة ليخجل ولا يكون له عذر في اعتدائه وسلبه للآخرين. أما سفر الأمثال فيحث على حسن معاملة الأعداء فإذا جاع عدوك تطعمه ولا تتركه يموت من الجوع ولا تتركه يموت من العطش وهو إذا رآك تحسن إليه فإنه يشعر بالندم فكأنك تضع نارا على رأسه. ثم يحث على أن تكل أمرك إلى الله والرب يجازيك على حسن صنيعك.

الفصل الثالث : لا يوجد به تشابه ولذلك تجاوزه برستد وبرتشارد .

الفصل الرابع :

أما بالنسبة لرجل المعبد الغضوب (الثائر) فهو يشبه شجرة تنمو في الخلاء (في البرية) فحين يكتمل وقتها وتسقط أوراقها . ينتهي بها المطاف إلى مصنع للسفن وتعوم بعيدا عن مكانها الأصلي أو يكون اللهب هو كفنها (أي نهايتها الحرق في موقد). أما رجل الدين المتواضع فهو يشبه شجرة تنمو في حديقة تزدهر وتعطي محصولها مضاعفا . وتقف أمام سيدها (مالكها) ثمرها حلو وظلها لذيذ ونهاية مطافها في الحديقة كذلك.

قالوا إن فيها تشابها مع المزمور الأول لداود :

طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة لم يقف. وفي مجلس المستهزئين لم يجلس. لكن في ناموس الرب مسرَّته وفي ناموسه يتفكر نهارا وليلا فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه تعطي ثمرها في أوانه وورقها لا يذبل وكل ما يصنعه ينجح. ليس كذلك الأشرار فإنهم كالعصافة التي تذريها الريح لذلك لا تقوم الأشرار في الدين ولا الخطاة في جماعة الأبرار لأن الرب يعلم طريق الأبرار أما طريق الأشرار فتهلك.

وآخرون قالوا هناك تشابه مع فقرة في سفر إرميا (١٧:٥ – ٨): هكذا قال الرب ملعون الرجل الذي يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه وعن الرب يحيد قلبه. ويكون مثل العرعر في البادية ولا يرى إذا جاء الخير بل يسكن الحرَّة في البرِّيَّة أرضا سبخة وغير مسكونة. مبارك الرجل الذي يتكل على الرب.

تعاليم أمنمؤوبى	أمثال سليمان
	وكان الرب متكله فإنه يكون كشجرة مغروسة على مياه وعلى نهر تمد أصولها ويكون ورقها أخضر وفى سنة القحط لا تجف ولا تكف عن الإثمار

التعليق : وللقارىء أن يحكم إن كان هناك تشابه يشى باقتباس . أم أنه مجرد انعكاس لأثر البيئة الزراعية.

الفصل الخامس : ليس هناك تشابه ولم نر داعيا لذكره .

الفصل السادس	(أمثال ٢٢ : ٢٨)
لا تنقل علامات حدود الأرض الزراعية ولا تُغيِّر موضع شريط القياس. ولا تكن شرِهًا من أجل ذراع أرض. ولا تتعدَّينَّ على حدود أرملة وحاذر من أن تتخطىَّ حدود الحقول وإلا يأتى رعب يحملك بعيدا .	لا تنقل التخم القديم الذى وضعه أباؤك. (أمثال ٢٣ : ١٠ – ١١) لا تنقل التخم القديم ولا تدخل حقول الأيتام لأن وليَّهم قوى (هو الله) وهو يقيم دعواهم عليك.

التعليق : يوجد تشابه فعلا. ولكنه راجع إلى أن زحزحة حدود الحقول مرض منتشر فى جميع المجتمعات الزراعية منذ القدم وحتى يومنا هذا .

المرء يرضى بمشيئة الرب الذى يحدد علامات الأرض المزروعة. احرث فى الحقول التى تجد فيها قوتك حتى تأخذ خبزا من الأرض المملوكة لك وغلتها التى درستها: فالأحسن هو المساحة التى يعطيها الإله لك خير من خمسة آلاف تؤخذ بطريقة غير قانونية. فغلتها لن تبقى ولو ليوم فى مخازنك أو مزرعتك. ولن تملأ قدر الجعة وإذا بقيت وقتا فى مخزنك فعند ظهور النهار فإنها تختفى عن الأنظار. الفقر وأنت فى جانب الله خير من ثروات فى المخزن (غير مستفاد منها) وخبز (تحصل عليه) بقلب فرح خير من ثروة مصحوبة بتعاسة.	(أمثال ١٥ : ١٦ – ١٧) القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع همٍّ. أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة.

التعليق : تشابه فى المعنى ولكنه ليس تاما . كما أن الإيجاز الشديد فى الأمثال ينفى الاقتباس

الفصل السابع :

لا تتعب قلبك فى تتبع (طلب المزيد) الثروات لأن الحظ والثروة لا تخطىء (صاحبها). لا تضع قلبك على (لا يكن همك) المزيد الخارجى لأن لكل إنسان ساعته (ورزقه) المحدَّدة. لا تجهد نفسك للبحث عن مزيد حينما تكون احتياجاتك مضمونة لك. وإذا جُلِب إليك المال بالسرقة فإنه لا يمكث معك سواد الليل. وعندما يأتى الصباح لا يكون بعدُ فى منزلك. قد ترى مكانه أين كان ولكن (المال نفسه) ليس موجودا . كأن الأرض قد فتحت فمها لتبتلعه. وقد يكون قد غطس إلى العالم السفلى أو أنها قد اختُزِلت فى حجمها (صَغُرت جدا) وغطست إلى أسفل المخزن أو كأنما صنعت لنفسها أجنحة كالأوز وطارت بعيدا فى السماء.

(أمثال ٢٣ : ٤ – ٥)

إذا جلست تأكل مع متسلِّط فتأمَّل ما هو أمامك. وضع سكينا على حنجرتك إن كنت شرها . لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب. لا تتعب لكى تصير غنيا (بطرق غير قانونية) كُفَّ عن فطنتك. هل تطيِّر عينيك نحوه (الرجل المتسلِّط) وليس هو لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء (ولن ينجح فى الارتفاع).

التعليق : ولو أن اللفظ فيه تشابه إلا أن المعنى مختلف. فأمنمئوبى يتكلم عن المال المجلوب بطريق غير مشروع. وكما نقول فى عصرنا يتبخَّر أو يطير . أما سفر الأمثال فيتكلَّم عن الوالى المتسلط أى الظالم والذى يستولى على ما لدى الآخرين. فلا تشته مالديه لأنه خبز حرام. ولا تتمنى أن تكون مثله فهو يريد أن يرتفع على حساب الآخرين. ويريد أن يصنع لنفسه أجنحة مثل النسور ليرتفع. والمفهوم أنه لن يُقدَّر له النجاح.

ويستكمل أمنمئوبى تعاليمه عن المال فيقول: لا تفرح نفسك بثراء يأتى عن طريق السرقة. ولا تحزن على أنك فقير. إذا رامى السهام فى العربة تقدم (كثيرا) فإن الفِرقة تتخلَّى عنه.

لا يوجد فى الأمثال ما يشبه هذه الفقرات

تعاليم أمنموبى	أمثال سليمان
إن سفينة المشتهى للثراء (بطرق غير أخلاقية) تُترك فى الطين (مغروسة) فى حين أن قارب الرجل المتدين يدفعه نسيم هادىء. يجب عليك أن تقدم صلاة إلى الإله حينما يشرق قائلا: اعطنى غنى وصحة. وهو سيعطيك احتياجاتك لهذه الحياة وستكون آمنا من الرعب.	

الفصل الثامن : لا يوجد تشابه فتجاوزنا عنه .

الفصل التاسع :	(أمثال ٢٢ : ٢٤ – ٢٥)
لا تربط نفسك إلى رجل حاد الطباع (أحمق) ولا تزُره لتتحدث معه. واحفظ لسانك (راقبه) عندما تجيب على من هم فوقك. واحفظ نفسك من أن تسيىء الكلام معه. واحذر أن يصنع لك من كلامك أنشوطة لاصطيادك ولا تتبسَّط معه فى الإجابة. بل تناقش الجواب مع من هم فى منزلتك. واحذر الاندفاع فى التكلم. فكلمات القلب المجروح أحدُّ من الريح عند منبع النهر (أو الزوبعة التى تسبق المطر) ولا تقفز لتمسك بشخص كهذا (أى تتمنى أن تكون مثله) وإلا يأخذك الرعب بعيدا فالإنسان يبنى ويهدم بلسانه. ومع ذلك فإنه يقول قولا مقذعا ويجيب بجواب تستحق عليه الضرب لأنه يتضمَّن الشر. ويستمر الفصل بعد ذلك فى سرد مساوىء الكلام الجارح.	لا تستصحب غضوبا. ومع رجل ساخط لا تجىء (لا تمشى) لئلا تألف طرقه وتأخذ شركا لنفسك

التعليق : إن كان يوجد تشابه فى كلمة أو كلمتين فى هذه الفقرة الطويلة إلا أن تعاليم أمنموبى تركزُ على طريقة محادثة الرؤساء الأعلى منزلة حادِّى الطباع. فى حين أن سفر الأمثال يتكلم عن الرجل الغضوب الأحمق وليس بالضرورة أن يكون أعلى منزلة.

تعاليم أمنمؤبى	أمثال سليمان
الفصل العاشر :	(أمثال ١٢ : ٢٢)
لا تحيِّى (أى لا تجِب على) عدوك الغضوب وأنت متقِّد الشعور لأنك بذلك تجرح قلبك. ولا تُحيِّهِ رياء فى الوقت الذى يكون فى باطنك حقد عليه. لا تخاطب رجلا نفاقا فإن ذلك مكروه عند الرب. لا تفصل قلبك عن لسانك (أى يتحدث لسانك بما هو ليس فى قلبك) لتكون كل أعمالك ناجحة وكن مخلصا فى حضور الناس العاديين لأن المرء آمن فى يد الرب. الرب يكره ذلك الذى يُزَيِّف الكلام. وأكثر ما يكره الخصام غير المعلن.	كراهة الرب شفتا كذب. أما العاملون بالصدق فرِضَاهُ .

التعليق : اختلاف المعنى واضح. فتعاليم أمنمؤبى تقصد أساسا النهى عن «النفاق». فى حين أن سفر الأمثال يتكلم عن «الكذب». وهناك فرق بين الاثنين.

تعاليم أمنمؤبى	أمثال سليمان
الفصل الحادى عشر :	(أمثال ٢٣ : ٦ – ٧ – ٨)
لا تطمعنَّ فى متاع رجل فقير. ولا تشته خبزه. لأن ممتلكات المسكين تقف فى الحلق وتسده وتتقيؤه الأمعاء إذا حصلت عليه بأيمان كاذبة والقلب تفسده المعدة. فإن ملء الفم لآخره بالخبز أكبر من أن تبتلعه وستتقيؤه. فأنت إذن قد جُرِّدت من زادك.	لا تأكل خبز ذى عين شريرة ولا تشته أطايبه لأنه كما شعر فى نفسه هكذا هو . يقول لك كل واشرب وقلبه ليس معك.اللقمة التى أكلتها تتقيؤها وتخسر كلماتك الحلوة.

التعليق : هناك تشابه فى أن المال أو الكسب الحرام لا يستفيد منه المرء كما تتقيأ المعدة الطعام الفاسد .

الفصل الثانى عشر : ليس فيه تشابه وتجاوزنا عنه .

تعاليم أمنمؤبى	أمثال سليمان
الفصل الثالث عشر :	(أمثال ١٤ : ١٥)
لا تضُرَّن رجلا بجرة قلم على بردية لأن ذلك مكروه عند الرب ولا تؤدِّين شهادة كذبا	الغبى يصدِّق كل كلمة والذكى ينتبه

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
وتؤيد شخصا آخر بكلماتك، ولا تفرضنَّ إتاوة على شخص لا يملك شيئا. وإذا وجدت فقيرا عليه دين كبير فقسِّمه ثلاثة أقسام وتنازل عن جزءين وأبقِ واحدا. فستجد فى ذلك سبيلا الحياة، وستضطجع بالليل وتنام نوما عميقا (هادئا) وفى الصباح ستجد أيضا أخبارا طيبة، وخير للإنسان مدح الناس وحبهم له عن أن يكدس ثروات، والأفضل لقمة خبز مع سعادة القلب عن غِنًى مصحوب بالحزن.	لخطواته. (لا يوجد أى تشابه إطلاقا). ((أمثال ٢٢ : ٢٦ – ٢٧) لا تكن مع صافقى الكف . ولا من ضامنى الديون إن لم يكن معك ما تفى، فلماذا يؤخذ فراشك من تحتك!

التعليق : الاختلاف فى المعنى واضح ولو أن الكلام عن الديون. فأمنمئوبى يحث على التخفيف عن المدين بالتنازل عن ثلثى الدين أما سفر الأمثال فينهى عن أن تضمن مدينا وليس عندك ما يفى بقيمة الدين وإلا يؤخذ منك فراش بيتك تسديدا للدين الذى ضمنته.

الفصل الرابع عشر والخامس عشر : ليس هناك تشابه مع الأمثال.

الفصل السادس عشر :	(أمثال ٢٠ : ٢٣)
لا تُخسر الميزان ولا تزيف الصنجات ولا تنقص من أجزاء مكاييل الغلال. لا تطمع فى مكاييل الحقول (أى الضريبة) وتهمل مكاييل الخزانة (أى لا تنقص منها) فإن القرد (إله العدالة) يجلس بجوار الميزان وقلبه لسان الميزان، وأى إله عظيم مثله ذلك الذى اكتشف هذه الأشياء وصنعها. فلا تصنع لنفسك موازين ناقصة فإنها مملوءة بالأحزان بإرادة الله.	معيار فمعيار مكرهة للرب، وموازين الغش غير صالحة. (أمثال ١٦ : ١١) قبان الحق وموازينه للرب، كل معايير الكيس عمله .

التعليق : محاولة الغش فى الميزان أو عند كيل الحبوب مرض منتشر فى كل

المجتمعات الزراعية. وأمنمئوبى ينهى عن ذلك مع تعداد أنواع الغش. أما سفر الأمثال ففيه إيجاز شديد ينفى الاشتقاق. وجاء نفس المعنى فى القرآن الكريم: «ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين» (١ - ٦ المطففين). وإن كان المعنى الذى جاء به القرآن يجعل التطفيف ينطبق على كل أنواع المعاملات وليس فقط فى وزن الحبوب.

الفصل السابع عشر :

التعليق : هو تقريبا تكلمه للفصل السابق فهو ينهى عن الغش فى كيل الغلال ولا يوجد فى سفر الأمثال ما يشابهه ونختصر منه بعض الفقرات:

لا تُسِء استعمال المكاييل ولا تجعل لها قعرا مغشوشا وأوفِ مكيالها بدقة. ولا تتخذ لنفسك مكيالا ذا حجمين (صغير عند البيع وكبير عند الشراء). لأن المكيال هو عين رع وما يمقته هو الرجل المدلِّس وكيَّال الغلال الذى يضاعف الغش. ولا تتآمر مع كيال الغلال (لإنقاص حق الحكومة) ولا تلعب لعبة «ترتيب الداخل» (أى عمل ألاعيب بينك وبينه. تعطيه رشوة فيتغاضى عن أجزاء من حق الحكومة).

الفصل الثامن عشر :	(أمثال ٢٧ : ١)
لا تقضِ الليل خائفا من الغد. فعند انبلاج الصبح لا تعرف ما شكل الصبح. والإنسان لا يعلم ما يحمله له الغد. الإله وحده هو الذى يعرف بدقة ولكن الإنسان يخطىء. والكلمات التى يقولها الناس شيىء والأفعال التى يفعلها الله شيىء آخر (تقابل: أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد).	لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ما ذا يلده اليوم. (أمثال ١٩ : ٢١) فى قلب الإنسان أفكار كثيرة . لكن مشورة الرب هى تثبيت .

التعليق : المعنى العام واحد لكن الأمثال فيها إيجاز ينفى الإشتقاق .

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
لا تقل ليس لى سيئات، ولا تفتعل مشاجرة. أما عن فعل السيئات فهذا من اختصاص الرب وقد سبقت بها إرادته وقد ختم عليها بإصبعه وليس هناك مفر من يد الإله التى لا تخطىء. إذا وجَّه المرء نفسه ليبحث عن النجاح فقد يُفسده فى اللحظة التى يظن فيها أنه قد أكمله. كن حازمًا فى قلبك وثابتا فى عقلك ولا تسر وراء اللسان فقط لأن لسان الإنسان دفة قلبه (أى يُوَجِّهه) والرب هو القائد.	(مثال ٢٠ : ٨ – ٩) الملك الجالس على كرسى القضاء يُذَرِّى بعينيه كل شر (أى يلحظ أو يكشف كل شر) من يقول إنى زكَّيت قلبى وتطهَّرت من خطيئتى!

التعليق : لا تشابه إطلاقا .

الفصل التاسع عشر :

وهو نصائح لكيفية الكلام فى المحكمة والشهادة أمام القاضى وليس فى الأمثال ما يشابهه. ولا بأس من إدراج بعضها لبيان مدى حكمة أمنمئوبى:

> لا تدخل قاعة المحكمة قبل نبيل، ثم تزيِّف كلماتك. ولا تتذبذب فى جوابك ولا تخترع فى أيمانك بربك. قل الصدق أمام الشريف فلا يكون له سلطان على جسمك. فإذا حضرت أمامه فى اليوم الثانى فإنه يقبل كل ما تقول (لأنه عرف أنك شاهد صدق)، وسيذكر قولك أمام مجلس الثلاثين (مجلس الآلهة).

الفصل العشرون :

وهو فى مجمله يحث على الأمانة فى تأدية الوظائف العامة. وليس فى الأمثال ما يشابهه. ولا بأس أيضا من إدراج بعض فقراته:

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
لا تقبل هدية رجل قوى ولا تظلم الضعيف من أجله لأن العدل هبة عظيمة من الله وسيعطيها من يشاء. وحقا فإن قوة الإله تنجى الفقير البائس من ضربة. لا تؤلف لنفسك وثائق مزيَّفة لأن ذلك خيانة عظمى تستحق الإعدام. لا تزيِّف فى الدخل فى دفاترك وبذلك تفسد تدبير الإله. لا تجلب على نفسك غضب الإله وسلم الأمتعة (الأمانة) لأربابها. وابغ الحياة لنفسك. ولا تبنى فى بيتهم (أى تغتصب حقوقهم) وإلا كانت عظامك لخشبة الإعدام.	

الفصل الحادى والعشرون :

لا تقل أبحثُ عن سند قوى لأن رجلا فى المدينة قد أضرَّ بى. لا تقل أبحثُ عن مُخلِّص لأن رجلا يكرهنى قد أضرَّ بى. لأنك قطعا لا تعرف تدابير الإله فقد تتصرف بما تخجل منه فى الغد. دع أمورك فى يد الإله وحلمك سيقهرهم. والواقع أن التمساح الصامت يكون الفزع منه شديدا.	(أمثال ٢٠ : ٢٢) لا تقل إنى أجازى شرا. انتظر الرب فيخلِّصك. (أمثال ٢٧ : ١) لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ماذا يلده اليوم.

التعليق : الاختلاف فى المعنى واضح إذ أن تعاليم أمنمئوبى تعالج رجلا مظلوما يبحث عن سند ينصره فينصحه بترك أمره إلى الله. أما الأمثال فهى تجارب شهوة الانتقام وتنصح أيضا بترك الأمر لله.

لا تُفضى بما فى نفسك لكل إنسان (أى لا تشكو لكل من تقابله) لأنك تسيء إلى هيبتك. لا تُذِع أقوالك (شاكيا) إلى عامة الناس فالأفضل الرجل الذى يكتم ما فى باطنه عن الرجل الذى يتكلم ويجرح. فالمرء لا يجرى ليصل إلى النجاح. وعلى المرء ألا يرمى فيصيب نفسه بالأذى.	(أمثال ٢٠ : ١٩) الساعى بالوشاية يفشى السر فلا تخالط المفتح شفتيه. (أمثال ٢٣ : ٩) فى أذنى جاهل لاتتكلم لأنه يحتقر كلامك. (أمثال ١٢ : ٢٣) الرجل الذكى يستر المعرفة. وقلب الجاهل ينادى بالحمق.

التعليق : الاختلاف فى المعنى واضح. فأمنمئوبى ينهى عن إذاعة الشكوى ويحث على كتمان ما ينزل بالمرء من أحداث أما الأمثال فتنهى عن الوشاية أو التكلم مع الجاهل بائتمانه على سر مثلا.

الفصل الثانى والعشرون :

وهو نصائح لمن يدخل فى مجادلة مع طرف آخر فينصحه بالهدوء. وأن تدع خصمك يُظهر ما فى باطنه وتَجرَّ رجله فى الكلام وتكون حليما. وتدع الأمور لله. وليس له ما يشابهه فى سفر الأمثال.

الفصل الثالث والعشرون :

لا تأكل خبزا فى حضرة نبيل. ولا تكن أول من يلوك بفمه. وإذا كنت ترضى بمضغ خبز كذب (أتى بطريق غير مشروع) فهو مجرد تسلية طريقك (أى لا يشبع). انظر إلى الكأس الذى أمامك واجعلها تفى حاجتك (أى لا تطلب غيرها) فكما أن النبيل عظيم فى مكتبه فهو أيضا كثير فى طلباته (أى يتطلب الكثير فيمن يقابلونه).

(أمثال ٢٣ : ١ - ٣)

إذا جلست تأكل مع متسلِّط فتأمل ماهو أمامك. وضع سكينا لحنجرتك إن كنت شرهًا. لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب.

التعليق : اختلاف فى المعنى. فالأول يوضح آداب المائدة فى حضرة نبيل أما الأمثال فهى توضح كيف تأكل على مائدة عظيم ظالم وينهى عن أن تتمنى أن تكون مثله.

الفصل الرابع والعشرون :

وهو يحث على كتمان الأسرار وليس فى الأمثال ما يشابهه.

الفصل الخامس والعشرون :

وهو يحث على عدم السخرية بذوى العاهات فى حين أن سفر الأمثال ينهى عن الاستهزاء بالفقير. وشتان بين المعنيين:

أمثال سليمان	تعاليم أمنمؤبى
(أمثال ١٧ : ٥) المستهزىء بالفقير يُعيِّر خالقه. الفرحان ببليَّة (غيره) لا يتبرأ. (مرموز ١٠٣ : ١٤) لأنه يعرف جبلَّتنا. يذكر أننا تراب.	لا تسخر من رجل أعمى ولا تهزأ من قزم. ولا تجرح مشاعر الأعرج . لا تؤذ رجلا فى معية الإله (المتصوِّف) ولا تكن عابس الوجه ضده إذا أخطأ لأن الإنسان مخلوق من طين وقش والرب هو خالقه وهو يميت ويخلق كل يوم ويصنع آلاف الرجال الفقراء حسب مشيئته. أو يجعل آلاف الرجال مشرفين (أى أغنياء) وفى أثناء حياته (الرجل الفقير) فإنه يفرح إذا وصل إلى جهة الغرب (أى إذا مات) حيث يكون آمنا فى يدى الإله.

التعليق : فى جميع الحضارات وفى جميع الأزمنة يعرف الانسان أنه مخلوق من تراب وهذا ما ذكره الجزء المذكور من الأمثال. ولكن تعاليم أمنمؤبى زادت بأن حثت على عدم السخرية بذوى العاهات أو بالفقراء، أو بالزهاد والمتصوفين لأن الله قادر على أن يجعلهم من الأغنياء.

الفصل السادس والعشرون :

فى كيفية معاملة من هم أكبر مقاما فى المجتمع. ولا يوجد فى الأمثال ما يشابهه.

الفصل السابع والعشرون :

فى احترام كبار السن. ولا يوجد فى الأمثال ما يشابهه .

لفصل الثامن والعشرون :

أمثال سليمان	تعاليم أمنمؤبى
(أمثال ٢٢ : ٢٢ – ٢٣) لا تسلب الفقير لكونه فقيرا ولا تسحق المسكين فى الباب لأن الرب يقيم دعواهم ويسلب سالبى أنفسهم	لا تغتصب أرملة أن أمسكت بها فى الحقول ولا تتأخر عن إجابتها (إذا طلبت المساعدة فى عمل ما) ولا تهمل غريبا يحتاج إلى قنينة زيت. بل اجعله يتضاعف (يكبر) أمام إخوانك فالرب يرغب احترام الفقير أكثر من تبجيلك للعظيم.

التعليق : اختلاف المعنى واضح فالأمثال تتكلم عن الفقير والمسكين فى حين أن تعاليم أمنمئوبى تقصد ضعيف الحيلة: الأرملة أو الغريب وأضافت إليهما الفقير.

الفصل التاسع والعشرون :

وهو حث صاحب المعدّية على مساعدة الآخرين على عبور الأنهار وألا يرفض من ليس معه أجر. وليس فى الأمثال ما يشابهه.

الفصل الثلاثون :

وهو ختام تعاليم أمنمئوبى: تأمل لنفسك هذه الفصول الثلاثين فهى مسرةٌ لك وتَعَلُّمٌ. وهى تفوق كل الكتب. فهى تُعلِّم الجاهل. وإذا قرئت أمام الجاهل فإنه يتطهرٌ بها. فاملأ نفسك بها وضعها فى قلبك وكن أنت الرجل الذى يستطيع تفسيرها (أى تعرفها تماما) ويفسرُها كمعلِّم. مثل الكاتب الخبير فى وظيفته وسيجد نفسه جديرا بأن يكون مديرا للبلاط (أى ينالك خير كثير) وهذه نهاية.

(أمثال ٢٢ : ٢٩)

أرأيت رجلا مجتهدا فى عمله يقف أمام الملوك ولا يقف أمام الرعاع!

التعليق : بعض الكتاب – رغبة منهم فى إيجاد تشابه فى هذا الفصل يقولون إن التوراة الأصلية فيها الفقرة (أمثال ٢٢:٢٠) مكتوبة: ألم أكتب لك ثلاثين فصلا أمورا شريفة. مع أن التوراة الحالية ليس فيها النص على أنهم ثلاثين فصلا. والحقيقة أن سفر الأمثال مكوّن من ٣١ إصحاحًا وليس ٣٠.

الخلاصة :

من هذه المقارنة يمكننا ملاحظة وجود بعض التشابه فى فقرات قليلة. لا تؤيِّد ما زُعِم عن «نقل» إذ أن النقل يستلزم تطابقا فى المعنى واللفظ فى فقرات كثيرة. لهذا فإننا نُرجع هذا التشابه البسيط إلى أن الاثنين قد استقيا من مصدر واحد. وهو الله العلى القدير. فسليمان عليه السلام قد أوتى الحكمة من الله عز وجل. فالحكمة من أشراط النبوة. ولكن الحكمة فضل من الله قد يهبها الله لغير الأنبياء وحتى قد يكونون من غير المؤمنين بالله. ولتقريب المسألة إلى الأذهان نشير إلى ما أسماه فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى «عطاء الربوبية». بمعنى أن الله هو خالق الخلق مؤمنهم وكافرهم وهو يعطيهم ما تقوم به حياتهم. وقد يجتهد غير المؤمن فى

أسباب الحياة فيصل إلى درجة لم يصل إليها المؤمن. والحكمة مما تقوم عليه حياة المجتمعات البشرية ولذلك فهى عطاء ربوبية تظهر فى المجتمعات المؤمنة وغير المؤمنة. لذلك فإن حضارة مصر القديمة، وهى فى مجملها وثنية وتؤمن بتعدد الآلهة إلا أنها حفلت بالعديد من الحكماء. وأهم ما وصل إلينا وحسب ترتيبهم التاريخى هم: حكم وأمثال «بتاح حتب» وتعاليم «كاجمنى» وهما من الدولة القديمة، وتعاليم «مرى كارع» من العهد الإقطاعى، ووصايا «الملك أمنمحات» وتعاليم «سحت. أب.رع» وتعاليم «حينتى» من الدولة الوسطى، وتعاليم «آنى» وتعاليم «أمنمئوبى «من الدولة الحديثة. إلا أن أمنمئوبى كان أشهرهم وسجّل له القرآن الكريم حكمته هذه إذ أننا نرى أنه هو «لقمان» الحكيم والذى سُمِّيت باسمه إحدى سور القرآن الكريم:

«ولقد آتينا لقمان الحكمة.....» . (١٢ - لقمان)

لقمان :

أنكر المستشرقون على القرآن الكريم ما ذكر فيه عن لقمان اعتماداً على أنه لم يأت أى ذكر له فى التوراة، وقالوا إن اسم «لقمان» يجيء فى العربية من لَقَمَ أى بَلَعَ، وقالوا تأسيسا على ذلك أن لقمان يعنى بلعام على وزن فعلام، وعليه قالوا إن لقمان هو بلعام بن بعور، نبى فتور، والذى استأجره ملك مؤاب ليلعن بنى إسرائيل (انظر الجزء الرابع ، ص ١٠٩٦). وقد نقل عنهم أصحاب التفاسير الإسلامية هذه الأقوال مثل ابن اسحق، وقال السهيلى: كان لقمان نوبيا من أهل أيلة، مع أن النوبة فى جنوب مصر وأيلة على الطرف الشمالى لخليج العقبة، وقال سعيد بن المسيِّب إن لقمان أسود من سودان مصر ذو مشافر يعنى عظيم الشفتين وذلك محاولة لتفسير معنى لقمان بأنه عظيم اللقمة مبالغة من لَقَم. ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم، جـ ٢، ص ٢٢٠) خطأ هذا الافتراض لأن اللقم هو الأخذ بجُمع الفم، واللقمة تسمى بذلك طوال ما بقيت فى الفم وإنما البلع يأتى بعد ذلك إذ تمر اللقمة إلى البلعوم فمساواة لَقَمَ بـ بَلَع والقول بأن لقمان هو بلعام خطأ بيِّن.

والحقيقة أن الجذر «لقم» له عدة معانى: فقد جاء فى المعجم الوسيط (جـ٢ص ٨٤٢) عن الجذر لَقِمَ: ألقمته أذنى فصبَّ فيها كلاما، ويقال التقم أذنه أى سارَّه، وقد كانت أول تعاليم أمنمئوبى: «أعرنى أذنيك، اسمع ما أقول» فهو ملتقم الأذن وهو لقمان، كما أن «اللقم» هو الطريق الواضح، واللقَم معظم الطريق أو وسطه (القاموس المحيط، جـ ٤ ، ص ١٧٦)، أما اللقْم بسكون القاف فهو سرعة الأكل، والقرآن الكريم وقد نزل بلسان عربى مبين لم يكن ليذكر اسم «أمنمئوبى» كما هو فاختار له اسما عربيا، وقد سبق أن ذكرنا أن الملابسات المصاحبة للحدث يشتق منها الاسم، فمن ضحك سارة عندما بشرتها الملائكة بالولد كان اشتقاق اسم اسحق من سحق أى ضحك (الجزء الثانى ، ص ٣٤٢).

«وامرأته قائمة فضحكت . فبشرناها بإسحق ...» (٧١ - هود). وعلى هذا النسق كان اشتقاق اسم عربي لأمنمئوبي. فمن اللقم أي الطريق الواضح والطريق الوسط الحكيم. ومن التقام الأذن لتسمع أقواله. صاغ القرآن الكريم من الجذر «لَقَمَ» بهذين المعنيين اسم «لقمان».

وزيادة على ذلك كان هذا الإسم مناسبا من وجهة أخرى إذ فيه إشارة إلى مهنة أمنمئوبي فقد كان أمنمئوبي من كبار موظفي الإدارة الخاصة بمخازن الحبوب. و«الحنطة اللقيميَّة» الكبار (القاموس المحيط. جـ ٤. ص ١٧٦). ففي الإسم إشارة إلى كبر وظيفته. وفي هذا يقول أمنمئوبي في مقدمة تعاليمة: «ألَّفه ملاحظ الأراضي الحاذق في عمله ملاحظ الغلال ومدير المكاييل وهو الذي يقيِّد الجزر والأراضي الجديدة (طرح النهر) ملاحظ الغلال والقابض على زمام الأطعمة والذي ينقل مخازن الغلال». فهو يعمل في الغلال وكبير في مركزه فهو يشبه الحنطة اللقيمية. وآخر معاني الجذر لقم هو ما يقال «رجل لَهِمٌ لَقِمٌ» يعلو الخصوم. ولَقَم الطريق سد فمه. وأمنمئوبي في حكمته كان يعلو على كل أقرانه فهو «لَقِمٌ». كما أن أحداً لم يكن ليجاريه في حكمته فكأنه لَقِم الطريق أي سدّه في هذا المجال على من بعده.

من كل هذه المعاني للجذر «لقم» سواء بفتح القاف أو كسرها أو سكونها صاغ القرآن الكريم لأمنمئوبي اسما عربيا هو «لقمان» بوزن فعلان.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن أمنمئوبي هو لقمان أن أمنمئوبي كان له ابن يُسمَّى «حور. إم. ماع. خرو» ويصفه بقوله «لابنه أصغر أولاده. وهو صغير إذا قيس بأقاربه» وقد كتب له أمنمئوبي هذه الوصايا والنصائح لتعليمه - كما يقول هو في المقدمة - «بداية درس الحياة والإرشاد إلى الخير وكل قواعد الاندماج بين كبار الموظفين ليعرف كيف يجيب عن سؤال يلقى عليه ويعرف كيف يرد كتابة على تقرير ورد إليه ليجعله يُفلح على الأرض وبذلك يُبعده عن الشر حتى يكون ممدوحا في أفواه القوم». (الأدب المصري القديم. سليم حسن. جـ ١ ص ٢٤٧ و ٢٤٩). وهذا يتفق مع ما ذكره القرآن الكريم.

«وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه. يا بُنَيَّ...» (١٢ - لقمان).

هنا تجابهنا مشكلة وهي أن القرآن الكريم ذكر أن أول تعاليم لقمان هي قوله: «يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» ويمراجعة تعاليم أمنمئوبي لا نجد فيها مثل هذه الدعوة الصريحة لعدم الشرك بالله. إلا أن القارىء المدقق لتعاليم أمنمئوبي يلاحظ تدينه الشديد. وبالرغم مما ذكره في بعض الفقرات من أسماء لآلهة قدماء المصريين إلا أننا نلمس إيمانه بقوة أخرى عظيمة خفية سماها الإله أو الله. فهو يؤمن بإله واحد فوق كل الآلهة. هو الذي يرزق في الدنيا ويحاسب في الآخرة. لذلك يجب على الإنسان ألا يخاف أحداً إلا الله. وإذا ما ظُلِمَ فيوكل أمره إلى الله. وإذا استبد به الغضب وعزم على الانتقام من خصمه عليه أن يكظم

غيظه ويترك الأمر لله وهو يتولى مجازاة الخصم. ولكن لأن ثقافة القوم فى ذلك الوقت – النظام الحاكم . الفرعون والكهنة – لم تكن تتيح له أن يصرِّح فى تعاليمه بهذا التوحيد الخالص مما قد يُعرِّضها للمصادرة وهو كان يريد لتعاليمه الانتشار والوصول إلى أكبر عدد من الناس. ويرى «أودلف إرمان» أن تعاليم أمنمئوبى كان لها شهرة عظيمة لدرجة أنها كانت تستعمل بمثابة «كتاب مطالعة وتمرين» في المدارس فى عهد الدولة الحديثة. فقد عثر على فصول من هذه التعاليم مكتوبة على برديات صغيرة أو ألواح من الخشب عليها طبقة من الجص وبها أخطاء إملائية مما يوحى بأن كاتبيها كانوا من التلاميذ الصغار. إلا أمنمئوبى كان من الحصافة بحيث ضمَّن تعاليمه فكرة الإله الواحد دون أن يسجل ذلك صراحة فيها ولكنه قالها شفاهة لابنه «**يا بنى، لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم**» وهو ما سجَّله له القرآن الكريم. كما أن القارىء المتمعِّن يستطيع أن يستخلص أن المثل الأعلى عند أمنمئوبى هو الرجل الرزين المتواضع «**ولا تصعِّر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا**». وكانت تعاليمه عبارة عن أمر بالمعروف فى جميع صوره ونهى عن المنكر فى جميع أشكاله. ولا شك أن أمنمئوبى نفسه كان على هذه الصفات الحميدة التى نصح بها ابنه. وهكذا كانت الحكمة التى أسبغها الله عليه هى التى قادته إلى معرفة الله وتوحيده.

الفصل الثامن

سليمان وملكة سبأ

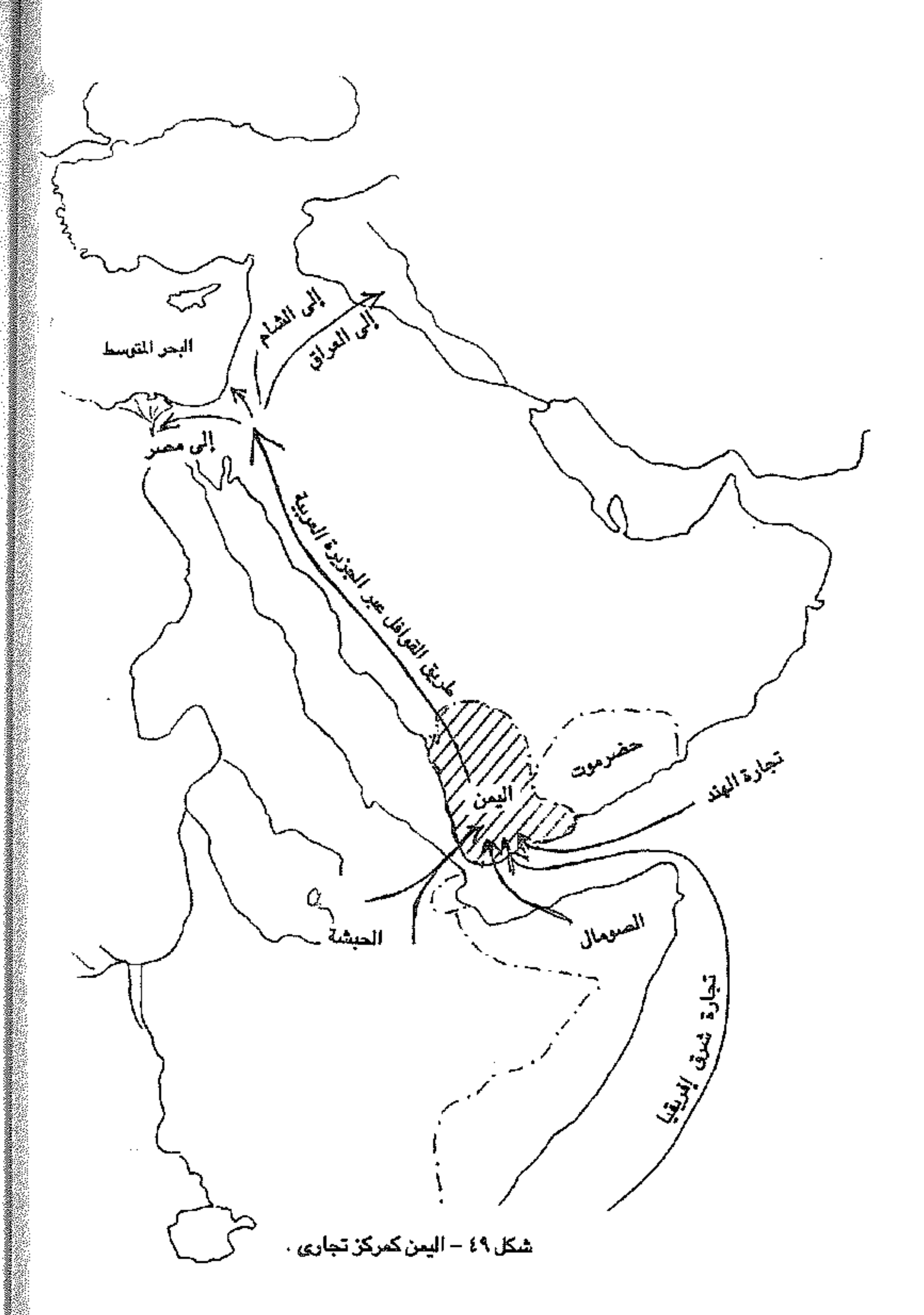
اليمن وسكانها :

كانت اليمن فى أقدم أزمانها تتكون من مقاطعات تشبه المقاطعات فى أوربا والتى كان يمتلكها اللوردات أو البارونات إلا أن هذه المقاطعات فى اليمن كانت تسمى «محافد» جمع محفد أو قصور. والمحفد أو القصر كالحصن أو القلعة يحيط بها سور ويقيم فيها شيخ أو أمير تحف به الحاشية والأعوان والخدم. ويقيم أيضا داخل الحصن المزارعون والعمال الذين يعملون فى الأرض المحيطة بالحصن. ويُعرف صاحب القصر بلفظ «ذو» أى صاحب فيقال. «ذو معين» أى «صاحب معين» «وذو غمدان» أى صاحب غمدان وهكذا. وقد تجتمع عدة محافد على واحد منهم يتولى توجيه شئونهم ويسمى «قَيْلْ» فإذا كانت المحافد كثيرة كانت المساحة التى يحكمها هذا القيْل كبيرة فيسمى ملكا.

وكانت اليمن وأمراؤها يشتغلون بالتجارة لوقوع اليمن فى مكان متوسط بين الهند والحبشة والصومال من ناحية ومصر والشام والعراق فى الناحية الأخرى فكانوا ينقلون التجارة بين هذه البلاد. إذ ترسو السفن بالبضاعة فى موانىء اليمن ثم تنقلها القوافل فى طرق خاصة إلى الشمال (شكل ٤٩). وقد ذكر اليونانيون عدة فترات من الحكم فى اليمن كان أقدمها الدولة المعينية ثم السبئيون وعاصمتهم مأرب.

ويقول چورچى زيدان (مؤلفاته الكاملة. ص ١٥٨) إن المعينيين من عمالقة العراق ويدو الأراميين الذين كانوا فى أعالى شبه الجزيرة العربية ولما ظهر حمورابى فى بابل اقتبسوا عنه شرائعه وتنظيماته الإدارية وكانت لغتهم هى اللغة الكلدانية. ثم نزح المعينيون جنوبا حتى وصلوا إلى اليمن واستوطنوها إذ ساعدهم تمدينهم على غلبة من كانوا فيها قبلهم. وما لبثوا أن امتدت سيادتهم على معظم أنحاء الجزيرة العربية ولذلك يعتبر علماء الأجناس أنهم عرب متعربة لأنهم اقتبسوا اللغة العربية من العرب البائدة (الذين كانوا فى الأرض قبل قدومهم إليها).

أما عن أصل السبئيين فيرى كثيرون أنهم من نسل قحطان. وأنهم نزلوا اليمن وأقاموا بجوار المعينيين حينا من الدهر واختلطوا بهم وبغيرهم من أهل الجزيرة العربية واقتبسوا اللغة العربية. واستمر السبئيون فى حكم اليمن حتى عام ١١٥ ق.م. ثم ضعفت تجارتهم وبدأت «ريدان» فى الظهور. وهم نوع من السبئيين يسكنون إلى الجنوب من سبأ. ثم تغلب الريدانيون



شكل ٤٩ – اليمن كمركز تجاري .

واتخذوا من ظفار عاصمة لهم. وكان ملكهم يسمى «ملك سبأ وريدان». ثم لما تداعى سد مأرب انتقل ثقل الحكم إلى الجنوب وسُمِّى «ملك سبأ وريدان وحضرموت».

وأقدم جيران اليمن هى الحبشة. وكانت العلاقات التجارية متينة بين البلدين اللذين لا يفصلهما إلا مضيق صغير يسهل عبوره هو «مضيق باب المندب» لذلك فقد كان فى اليمن عدد كبير من الأحباش حتى إن بعض الباحثين يرون أن سكان اليمن كلهم جاءوا من الحبشة. كما يعتقدون أن ملكة سبأ هى من الأحباش وأنها لما تزوجت سليمان عليه السلام ولدت له ابنا ومن ذريته جاءت سلسلة ملوك الحبشة. ولذلك يلقب ملك الحبشة نفسه بـ «الأسد الخارج من سبط يهوذا».

وتتضمن قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ قصتين فرعيتين هما: قصة النملة وقصة الهدهد.

قصة النملة :

ذكرت هذه القصة فى القرآن الكريم هكذا:

«وورث سليمان داود وقال يأيها الناس عُلّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيىء إن هذا لهو الفضل المبين. وحُشِر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسَّم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين».

(١٦ – ١٩ النمل).

قام سليمان – بعد موت أبيه داود – مقام والده فى النبوة والملك. وصار نبيا وملكا فوراثته مجاز. ولا تعارض بين ذلك وبين الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورِّث». ثم بعد ذلك راح سليمان يحدث بنعمة الله عليه عملا بقوله تعالى: «**وأما بنعمة ربك فحدث**». فذكر بالخصوص تعلم منطق الطير ثم أجمل باقى النعم فى «**وأوتينا من كل شيىء**» وهذا يشمل الحكمة والعلم والمُلك والغنى وغيره. «**وحُشِر**» أى جُمِعَ. وقيل قُدِّم الجن لما لهم من خواص وقدرات تجعل تسخيرها أشق. ومن هذا المنطلق أُخِّرت الطير لكونها أضعف الثلاثة. والوزع الكفُّ والمنع ونقول وازع من ضميره ينهاه عن المحرمات. ومعنى «فهم يوزعون» أى يُحبس أولُهم ليجتمع مع آخرهم فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ويكونون كثرة عظيمة.

حتى إذا اقتربوا من مساكن النمل بواد من الوديان – ولا يهم تحديد مكانه – رأت نملة – ولعلها كانت المسئولة عن حراسة قومها وتحذيرهم من الأخطار – جيوش سليمان تقترب من

أماكن سعيها فخشيت أن تحطمها فصاحت تحذّر أقرانها وتأمرهم أن يدخلوا مساكنهم تحت الأرض إلى أن يمر جيش سليمان. ويرى المفسرون أن القرآن الكريم استعمل لفظ «مساكنكم» وقد كان يمكن القول «ادخلو بيوتكم» لأن النمل كان قد أصابه الذعر وكان فى حاجة إلى ما يسكّن من روْعه فكان استعمال كلمة «مساكنكم» أنسب لما فى معناها من بث السكينة. وأقدام الجند وهى تدب على الأرض تبعث موجات من الذبذبات يمكن الشعور بها من مسافة بعيدة. ولكن هل كان سمع سليمان عليه السلام من الحدّة بحيث يسمع كلام النملة من هذه المسافة مع اختلاطها بصوت أقدام الجند وهى أعلى منها كثيرا؟ قيل إن الله عز وجل أوحى إلى سليمان: إنى قد زدتك فى مُلكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيىء إلا جاءت به الريح إليك وألقته فى سمعك (تفسير الألوسى . جـ ١٩ . ص ١٧٤). ولا نظن الأمر كذلك. فالآف الأشخاص يتكلمون وعشرات الآلاف من الخلائق تُصدر أصواتا فتكون النتيجة ضوضاء لا يتحملها أحد. والأغلب أن الله قد أوحي إليه بما قالت النملة. ومن المؤكد أن سليمان قد أبطأ من سيره. وبذلك أبطأ الجيش من تقدمه ليعطى فرصة للنمل حتى تدخل مساكنها. «**وتبسّم ضاحكا من قولها**». قيل تعجبا من حذرها واهتدائها إلى تدبير مصالح بنى نوعها واستحسانا لكلامها إذ نفت عنه وعن جنوده القسوة والغلظة وأن أى ضرر – لو حدث – فهو على سبيل السهو والخطأ «**وهم لا يشعرون**». وقد قيل لماذا لم يكتف سليمان عليه السلام بالابتسام. والتبسّم من شأن الأنبياء بينما الضحك هو دأب عامة الناس. قيل أراد أن تسمع النملة ضَحكَهُ فتعرف أنه قد سمع مقالتها وسيعمل حسب مضمونها ويكون عليها أن تبلِّغ ذلك باقى النملَ حتى تزيل ما أصابهم من ذعر. «**وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك**» أى اجعلنى أَزَعُ شكر نعمتك أى أرتبط به مجاز عن ملازمة الشكر والمداومة عليه. كما طلب من الله أن يوفقه إلى فعل الصالحات من الأمور فيكون برحمة الله من عباده الصالحين. وإلى هنا تنتهى قصة النملة وتبدأ قصة الهدهد.

قصة الهدهد :

جاءت هذه القصة بعد قصة النملة مباشرة إذ تستمر الآيات من سورة النمل:

«وتفقد الطير فقال ما لِيَ لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينِّى بسلطان مبين. فمكث غير بعيد. فقال أحطت بمالم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألاَّ يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم». (٢٠ – ٢٦ . النمل).

وتفقَّد سليمان عليه السلام الطير فوجد أن الهدهد غائب. ولما كان الجندى لا يجب أن يغيب عن مكانه دون إذن من قائده فإن ذلك يعتبر ذنبا يوجب العقاب. فكان تهديد سليمان بالذبح أو التعذيب الشديد إلا إذا جاء بعذر واضح مبين. ويرى المفسرون أن الهدهد كان جريئا فى مواجهته لسليمان عليه السلام إذ بدأ بقوله: «**أحطت بمالم تحط به**» وذلك لترغيبه فى الإصغاء إلى عذره. ثم شرح إبهامه السابق قائلا: «**وجئتك من سبأ بنبأ يقين**». ولا يخفى مافى سبأ ونبأ من جرس موسيقى إذ هو جناس ناقص. والمشهور أن اسم الملكة التى أشار إليها الهدهد هو «بلقيس». وقيل كلام كثير فى وصف عرشها الذى قال عنه الهدهد «**ولها عرش عظيم**». قالوا كان مصنوعا من الذهب الخالص ومرصَّعا بالياقوت وغير ذلك من المبالغات. وقد يتساءل البعض: لماذا لم يخبر الله نبيَّه سليمان بأمر ملكة سبأ بوحى منه أو بواسطة جبريل عليه السلام. قالوا: أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح له – ولنا – ألا نستصغر كائنا ماكان من خلقه. فهذا الهدهد علم مالم يعلمه نبى الله سليمان. ولقد بنى البعض – بناء على تسخير الهدهد لإبلاغ سليمان بهذا الأمر. كرامة للهدهد. ومن ثم كرهوا اصطياده أو أكله.

«**يخرج الخبء فى السموات والأرض**» أى يظهر المخبوء فيهما من مطر ينزل من السماء ونبات يخرج من الأرض. أما ما قيل من أن الهدهد قد أودع الله فيه القدرة على معرفة الماء تحت الأرض فلا دليل عليه وهو من قبيل المبالغات. كذلك لفت الهدهد النظر إلى أن الله يعلم ما يعلنه الإنسان وما يخفيه. ثم يختم بقوله «**لا إله إلا هو رب العرش العظيم**» وهو بهذا القول ينزع ما سبق أن وصف به عرش بلقيس «**ولها عرش عظيم**» فالله سبحانه وتعالى هو رب العرش العظيم على الإطلاق.

ملكة سبأ :

لم يكتف سليمان عليه السلام بجواب الهدهد وأراد أن يستوثق من صدق أقواله:

«قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابى هذا فالقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلىَّ كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا علىَّ وائتونى مسلمين» . (٢٧ – ٣١ – النمل).

قالوا إن «بسم الله الرحمن الرحيم» هنا تُعوِّض خلو سورة براءة من افتتاحها بالبسملة كباقى سور القرآن الكريم.

«قالت يأيها الملأ افتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون». (٣٢ – ٣٥ – النمل).

وروى أنها قالت (تفسير الألوسي، جـ ١٩ ، ص ١٩٨). إن كان ملَكًا دنيويا أرضاه المال وإن كان نبيا لم يرضه المال وينبغى أن نتبعه على دينه. أما فى ماهيةَ الهدية فقد كانت مجالا للمبالغات: قالوا ١٠٠ أو ٥٠٠ غلام و ١٠٠ جارية وقيل ما قيل فى ملبسهم والأساور الذهبية فى أيديهم وآذانهم وأعناقهم بالإضافة إلى ترصيعها بالجواهر الكريمة.

واستنكر سليمان عليه السلام الهدية وقال للرُسُل إن ما آتاه الله من الملك والنبوة خير من أى مال وردَّ عليهم هديتهم وأنذرهم بأنه سيسير إليهم بجيش عظيم لن يستطيعوا الوقوف فى وجهه:

«فلما جاء سليمان قال أتمدُّونن بمال. فما آتانىَ الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينَّهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون». (٣٦ - ٣٧ - النمل).

فلما رجع الرسل بالهدية تيقَّنت من أنه نبى وأنها لا قِبَلَ لها بمحاربته لأن الله لابد ناصره عليها فانتوت الاستسلام والمسير إليه، وأعلمه الله بذلك، وأراد سليمان أن يريها ما أفاء الله عليه من نعمة ومُلك وأن الله سخَّر له قوى غير متاحة لغيره من البشر مما يشهد له بالنبوَّة. فقرر إحضار عرشها وإحداث تغيير فيه لينظر أتعرف أنه عرشها أم غيره.

«قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين. قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر. ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم. قال نكرُوا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون. فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو. وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين» . (٣٨ - ٤٣ - النمل).

والعفريت هو القوى المارد. يقال عَفرْ أى يعفر أقرانه بالتراب والتاء زائدة للمبالغة. أما الذى عنده علم من الكتاب فقيل إنه أحد وزرائه وكان وليا من أولياء الله. وكانت هذه كرامة للولى يؤيد بها نبى الله. وقيل كان يعلم الاسم الأعظم الذى به تُقضى جميع الحاجات. وقيل إنه جبريل عليه السلام. ولم ينتظر الذى عنده علم من الكتاب أن يأمره سليمان بإحضاره بل فعل ذلك فى التو واللحظة. ورأى سليمان العرش مستقرا أمامه فشكر الله على هذه المعجزة. فلما جاءت الملكة تعرفت على عرشها واعترفت بأنها قد آمنت بأنه نبى ومرسل من عند الله حتى من قبل إظهار هذه المعجزة. وما منعها وصدَّها أن تُظهِر من قبل أنها كانت من قوم كافرين وخشيت أن يثور

عليها قومها إن هي أظهرت إيمانها وهي في أرضها فأرجأت ذلك إلى حين أن تكون في أرضه وفي حمايته وإلى أن يرى جنودها من كراماته ومعجزاته ما يجعلهم يؤمنون أيضا.

«قيل لها ادخلى الصرح. فلما رأته حسبته لجّة وكشفت عن ساقيها. قال إنه صرح ممرّد من قوارير. قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين». (٤٤ – النمل)

كان سليمان عليه السلام قد أمر الجان فبنوا قصرا من زجاج. وقيل زجاج من تحته ماء وبه سمك فظهر وكأنه كله ماء. والصرح هو صحن الدار. وصرحة الدار ساحتها. ومُمرّد أي طويل. فكانت الساحة طويلة وعرشه في نهايتها ولتصل إليه كان عليها أن تعبر ما حسبته لجة ماء وكشفت عن ساقيها لئلا تبتل أذيالها. أما قولهم إنه قد قصد بذلك أن يستوثق إن كانت شعراء الساقين. أو كما أخبره الجن من أن أمها من الجن ورجلها رجل حمار (تفسير القرطبي للآية ٤٤ من سورة النمل) فهذه كلها من الخرافات. وبعض كتب الفقه تستدل بذلك على جواز إباحة النظر قبل الخطبة. وسارع سليمان عليه السلام فأخبرها أنه لا ماء يُخشى منه وأنه صرح من زجاج. فلما رأت هذه المقدرة وهو ما يمكن أن نسميه بلغة عصرنا إعجازا تقنيا وتفوقا علميا يؤكد نبوّته – أعلنت إسلامها أمامه. والمشهور في كتب التفسير الإسلامية أنه تزوجها بعد ذلك وبهذا تنتهي قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ كما وردت في القرآن الكريم.

أما في التوراة فإن القصة قد ذُكرت هكذا: (ملوك أول ١:١٠ – ١٣): وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. لم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب لم يبق فيها روح بعدُ. فقالت للملك صحيحا كان الخبر الذي سمعتُه في أرضي عن أمورك وعن حكمتك ولم أصدّق الأخبار حتى جئتُ وأبصرت عيناي. فهو ذا النصف لم أُخبر به. زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذي سمعتُه. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك. ليكن مباركا الرب إلهك الذي سُرّ بك وجعلك على كرسي إسرائيل. لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكا لتجري حكما وبراً. وأعطت الملك ١٢٠ وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة لم يأت بعدُ مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان. وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان. فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها.

يرى بعض مفسري أهل الكتاب (جاميسون وفاوست. تفسير الكتاب المقدس. ص ٤٥٦) أن

زيارة ملكة سبأ كانت أساسا لأغراض اقتصادية. ذلك أن الأسطول الذى بناه سليمان فى البحر الأحمر أصبح منافسا لطريق نقل التجارة عبر اليمن وأثر سلبا على دخل مملكة سبأ الأمر الذى حدا بها للقيام بهذه الزيارة. إلا أن القرآن الكريم يعطى الزيارة طابعا إيمانيا وهو دخول ملكة سبأ وقومها فى الدين اليهودى وهو ما يتمشى مع وقائع التاريخ من وجود جاليات يهودية فى اليمن والحبشة وفي يثرب على طريق القوافل من اليمن إلى الشام.

وما كفر سليمان :

تتهم التوراة سليمان عليه السلام بأنه قد ضلّ فى أخريات أيامه. إذ تقول (ملوك أول ١١:١ – ١٢): «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون. مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنه الرب لبنى إسرائيل: لا تدخلون إليهم. وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له ٧٠٠ من النساء السيدات و ٣٠٠ من السرارى. فأمالت نساؤه قلبه. وكان من زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورث إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه. حينئذ بني سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم ولمولك رجس بنى عمون. هكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذى تراءى له مرتين وأوصاه فى هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب. فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها فإن أمزّق المملكة عنك تمزيقا. إلا أنى لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها. على أنى لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطا واحدا لابنك لأجل داود عندى ولأجل أورشليم التى اخترتها».

وتستمر التوراة (نفس الإصحاح: ١٤، ٢٣، ٢٦) فتذكر أن عقاب الله لسليمان كان أن أقام له خصوما يناوئونه ويثيرون له المتاعب. وقد سبق أن أوضحنا (ص ١٨٨) أن سليمان عليه السلام برىء من هذه الاتهامات وأن ما أُخذ عليه من أفعال لا تتفق مع الإيمان كانت فى فترة تسلط الشيطان على كرسيه، فكانت فى الحقيقة من فعل الشيطان وليست من أفعال سليمان نفسه.

الفصل التاسع

متاعب سياسية لسليمان عليه السلام

بدأت هذه المتاعب السياسية لسليمان عليه السلام فى أخريات أيامه وتمثلت فى:

١ – هدد الأدومى .

٢ – رزون الأرامى .

٣ – يربعام الإسرائيلى .

١ – هدد الأدومى :

سبق أن ذكرنا (ص ١٢٦) أن يوآب قائد جيش داود حينما اجتاح أدوم قام بمذبحة قتل فيها كل الذكور من أهلها ومن البيت المالك كذلك إلا أن طفلا من الأسرة المالكة عمره ٧ سنوات واسمه «هدد» تم تهريبه إلى مصر. واحتضنه بسونس الثانى فرعون مصر. وتقول التوراة (ملوك أول ١١ :١٤): «وحدث لما كان داود فى أدوم عند صعود يوآب رئيس الجند لدفن القتلى وضرب كل ذكر فى أدوم. لأن يوآب وكل إسرائيل أقاموا هناك ٦ أشهر حتى أفنوا كل ذكر فى أدوم. أن «هدد» هرب هو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا إلى مصر. وكان هدد غلاما صغيرا وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران وأخذوا معهم رجالا من فاران وأتوا إلى مصر إلى فرعون ملك مصر فأعطاه بيتا وعيّن له طعاما وأعطاه أرضا. فوجد هدد نعمة فى عينى فرعون جداً وزوّجه أخت امرأته تحفنيس الملكة. وسمع هدد فى مصر بأن داود قد اضطجع مع آبائه (أى مات) وبأن يؤاب رئيس الجيش قد مات. فقال هدد لفرعون أطلقنى إلى أرضى. فقال له فرعون: ماذا أعوزك عندى حتى إنك تطلب الذهاب إلى أرضك فقال لا شيىء وإنما تُطلقنى». ولعل بسونس اشتم من طلب هدد ترك مصر أنه ينوى الانتقام لمقتل والده من سليمان فلم يشأ أن يفسد العلاقات بينه وبين سليمان الذى كان قد أصبح صهره فلم يسمح لـ «هدد» بترك مصر. ولما مات بسونس وتولى بعده شيشنق الأول مؤسس الأسرة ٢٢ الليبية سمح له أن يترك مصر. فعاد إلى أدوم وأقام نفسه ملكا فيها. وظل يثير المتاعب لسليمان فى الفترة الأخيرة من حكمه (جاردنر – مصر الفرعنية – ص ٣٢٩) ويرجِّح الدكتور محمد بيومى مهران (إسرائيل طبعة ١٩٧٨ – ص ٧٩٩) أن شيشنق قد توسَّط لتحسين العلاقات بين هدد وسليمان وأن سليمان قد قَبِلَ أن تصبح

لأدوم وملكها هدد «حكما ذاتيا» ضمن مملكة إسرائيل وكان حلا مُرضيا الطرفين. أرضى تطلُّعات هدد وضمن لسليمان السلام مع جاره بدون حرب.

٢ - رزون الأرامى :

سبق أن ذكرنا (الجزء الثانى ص ١٨٢ ، ١٨٣) أن الأراميين ظلوا دويلات متفرقة منها دويلات على نهر الفرات الأعلى ودويلات فى شرق الأردن ودويلات فى سوريا وهى التى تهمنا منها دويلة حلب وحماة وحمص وصوبة وأرام دمشق. وكان رزون يعمل فى خدمة ملك صوبة. فلما قام داود بغزو بلاده هرب وكوَّن فرقة من الرجال وجمع حوله الأنصار. وكما سبق أن ذكرنا (ص ١٢٥) أنه كان يقوم بغارات نهب على أرام دمشق وعلى الجزء الشمالى من إسرائيل (قاموس الكتاب المقدس. أونجر. ص ١٠٨٠) وظل رزون خصما لسليمان أيضا - كما كان لداود أبيه - إلا أنه لمّا سمعه عن قوة سليمان وكثرة جنوده وخيله رضى أن يدفع له الجزية مع احتفاظه بمركزه كأمير على دمشق فيما يشبه استقلالا ذاتيا.

٣ - يربعام الإسرائيلى :

يربعام اسم عبرى مكون من مقطعين «يرب» من يربو أى يكثر و«عام» أى الشعب. فاسم يربعام معناه يكثر الشعب. وهو ابن ناباط من سبط أفرايم. ولد فى بلدة «صردة» (١٥ كم جنوب غرب شكيم) وأظهر منذ حداثته ذكاء وفطنة فعيَّنه سليمان ناظرا على العمال من سبط يوسف (الأفرايميين والبنياميين) عندما كان يرمِّم سور أورشليم الذى تصدَّع وتهدَّم عندما استولى داود على المدينة من اليبوسيين. وبهذا تهيأت الفرصة ليربعام ليصبح معروفا من رجال سبطى أفرايم وبنيامين كما تهيأت له الفرصة لدراسة مشكلاتهم ومعرفة ما يضايقهم وخفَّف العمل والضرائب عنهم فأصبحوا يعتبرونه زعيمهم. وكانت كل القبائل الشمالية تتطلَّع إليه حتى يتحدث باسمها إلى سليمان لتخفيف العمل والضرائب عنهم (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. الشرق الأدنى القديم. جـ ٣ ص ٣١٨). وفى ذات يوم قابله النبى أخيا الشيلونى (نسبة إلى بلدة شيلوه. وهى المسماة حاليا سيلون التى تبعد ٢٥كم شمالى أورشليم . وهى التى اختارها يشوع لتكون مقرا للتابوت والخيمة وبقيا فيها ٣٠٠ سنة. وكانت مسكن عالى الكاهن وصموئيل النبى) وتنبأ له أنه بعد موت سليمان ستنقسم المملكة قسمين وأنه سيصبح ملكا على العشرة أسباط الشمالية بينما يملك ابن الملك سليمان على سبط يهوذا فى الجنوب. وخاف يربعام من أن يحاول رحبعام ابن سليمان قتله حتى لا ينافسه على العرش فهرب إلى مصر أيام حكم الملك شيشنق وظل بها إلى أن توفى سليمان عليه السلام (ملوك أول ١١ : ٤٠).

وفاة سليمان عليه السلام :

ملك سليمان على إسرائيل ٤٠ عاما ثم توفى عام ٩٢٢ ق.م. ودفن فى مدينة داود فى أورشليم. وعن موت سليمان يقول القرآن الكريم:

«فلما قضينا عليه الموت مادلُّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته. فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين».
(١٤-سبأ).

والضمير فى «دلُّهم» عائد على الجن الذين كانوا يعملون له مايشاء. وكانوا مسخَّرين له لفترة حياته وكان سليمان عليه السلام قد قُبض وهو متكيءٌ على عصاه فلم تعرف الجن أنه مات إلا بعد مدة حين أكلت حشرة الأرض عصاه فاختل توازنه وسقط وعلمت الجن أنه قد مات من مدة وتأكد أنهم لا يعلمون الحاضر. وهم عن علم الغيب أعجز . إذ مات سليمان أما أعينهم ولم يعرفوا أنه مات وظلوا يعملون مع أن تسخيرهم كان ينتهى بموته.

وبهذا تنتهى قصة سليمان عليه السلام **«نعم العبد إنه أواب».** (٣٠ - ص).

الفصل العاشر

انقسام مملكة سليمان

رحبعام بن سليمان :

تولى الملك بعد سليمان ابنه رحبعام، و«رحبعام» اسم عبرى مكون من مقطعين: «رحب» أى متسع و«عام» أى الشعب وعليه يكون «رحبعام» معناه «اتسع الشعب». وهو ابن سليمان من زوجته نعمة العمونية. وكان ضيق التفكير. فبعد موت سليمان اجتمع فى شكيم ممثلون للإثنى عشر سبطا ليجعلوه ملكا إذ كان هو الوريث الشرعى. وشكيم كانت عاصمة لأكبر إقليم من الأقاليم الإدارية التى أقامها سليمان فى شمال إسرائيل فضلا عن أنها كانت إحدى مدن الملجأ فى الأرض غرب نهر الأردن (شكل ١٢ ص ٣٦) ولذلك كانت ملتقى الأسباط الشمالية يجتمع فيها رؤساؤهم إذا أرادوا التشاور فى أمر ما. وصعد إليها رحبعام ليحصل على مبايعتهم له ملكا مكان والده. فطلبوا منه أن يخفِّف من ثقل العمل الذى كان سليمان عليه السلام قد فرضه عليهم (فى أعمال البناء - ص ١٧٢) ومن الضرائب المفروضة عليهم وإعاشة الحكومة والقصر (ص ١٥٤). فطلب منهم مهلة ثلاثة أيام ليرد على مطالبهم. وفى هذه المدة استشار الشيوخ الذين كانوا يعملون كمستشارين لأبيه فأشاروا عليه بأن يجيب مطلب الشعب ويكلمهم كلاما حسنا. وبعد ذلك طلب مشورة الشباب من أهل القصر والأمراء الذين نشأوا معه فأشاروا عليه بأن يكون حازما معهم وأكثر قسوة حتى يطيعوه كما أطاعوا والده. فأهمل مشورة الشيوخ واتبع مشورة الشباب. وتقول التوراة (ملوك أول ١٢:١١): «فقال لبنى إسرائيل. إن خنصرى أغلظ من مِتْنَىْ أبى (المتنان صلب الظَّهر بما فيه من عصب ولحم عن يمين وشمال - والمعنى إنى أقسى من أبى) والآن أبى حمَّلكم نيرا ثقيلا وأنا أزيدكم على نيركم. أبى أدَّبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب (وهو يقصد الضرب بالسوط ذى الثلاثة أفرع والذى كان المذنبون يُضربون به ٣٣ مرة بدلا من ٩٩ جلدة مفردة)».

وهكذا أهمل رحبعام مشورة الشيوخ الحكماء واتبع مشورة الشبان الهوجاء. وشعر رؤساء الأسباط أن رحبعام سيكون طاغية وسيجعل من الشعب عبيدا فاكتسب كراهيتهم. إلاَّ أن بعض المفسرين يدافع عن رحبعام ويرون أنه كان ضحية مؤامرة دبِّرت بإحكام (تفسير الكتاب المقدس ، جـ ٢، ص ١٩٧) ذلك أن يربعام كان قد عاد من مصر وراح يُحرِّض بعض أفراد الشعب ليتقدموا بهذه المطالب - تخفيف العمل وتخفيض الضرائب - وأن مستشارى الملك سليمان قد

تفهموا الوضع فأشاروا بسياسة الملاينة. أما أصدقاءه الشبان فقد أزعجهم وجود يربعام واعتقدوا أن هذا المطلب ما هو إلا «جس نبض» وسيعقبه مطالب متزايدة إن هو رضخ لهذا المطلب فأشاروا عليه بأن يواجههم بالعنف ليردعهم. وتستمر التوراة (ملوك أول ١٢:١٦): «فلما رأى إسرائيل أن الملك لم يسمع لهم ردَّ الشعب جوابا على الملك قائلين: أى قسم لنا فى داود. لا نصيب لنا فى ابن يسَّى. إلى خيامك يا إسرائيل. الآن انظر إلى بيتك ياداود. وذهب إسرائيل إلى خيامهم».

ويسَّى هو أبو داود. والمعنى أن الشعب لما رد عليهم رحبعام بهذا الرد القاسي المعبِّر عن الاحتقار والمنبىء بسوء المعاملة فى المستقبل تأكد لهم أن ليس لهم مكان إن تولى رحبعام بن سليمان بن داود بن يسَّى المُلكَ. فرفضوا مبايعته. «والآن انظر إلى بيتك يا داود» أى أنه لن يبايعه إلا بيت آل داود وهم قلة والمعنى كما نقول فى العامية «خلِّى أهلك ينفعوك» يقصدون سبط يهوذا الذى منه بيت داود. وهذا ما حدث فعلا إذ أن سبط يهوذا فقط هم الذين بايعوا رحبعام وأعلنوه ملكا عليهم. أما باقى الأسباط فلم يبايعوه.

وأراد رحبعام أن يفرض سلطانه على الأسباط الشمالية. ونلاحظ أيضا سوء تصرفه السياسى إذ لم يعمل على استمالتهم باللين والحسنى. بل أرسل لهم «أدورام» الذى أقامه سليمان رئيسا لتسخير بنى إسرائيل لقطع الحجارة اللازمة لبناء الهيكل ولجمع الجزية التى فرضها عليهم (ص ١٧٢). وكان داود قد أقامه أيضا لجمع الضريبة المفروضة على الإسرائيليين حسب الشريعة (مقابل الزكاة) وهى عبارة عن نصف شاقل أى درهمين عن كل فرد بلغ عشرين سنة فصاعدا (خروج ٣٠ : ١٣). وظل أدورام قائما على جمع هذه الضرائب طوال مدة حكم سليمان. ويبدو أنه كان فظ المعاملة عند جمعها لذلك كان مكروها من الشعب. ولعل رحبعام قد اختاره هو بالذات ظانا أن ماهو معروف عنه من شدة وقسوة سيجعل الشعب يستسلم له إذا طلب مبايعتهم لرحبعام. ولكن الشعب رجم أدورام بالحجارة حتى مات. وخشى رحبعام على نفسه من عداء الأسباط الشمالية فعاد إلى أورشليم. وتقول التوراة: (ملوك أول ١٢:١٩) «فبادر رحبعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم. فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم. ولما سمع جميع إسرائيل أن يربعام قد رجع أرسلوا له فدعوه إلى الجماعة وملَّكوه على جميع إسرائيل. لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده».

رحبعام يحاول إخضاع الأسباط الشمالية بالقوة :

وتستمر التوراة قائلة: «ولما جاء رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين ١٨٠ ألف مختار محارب ليحاربوا بيت إسرائيل ويردُّوا المملكة لرحبعام بن سليمان. وكان كلام الله

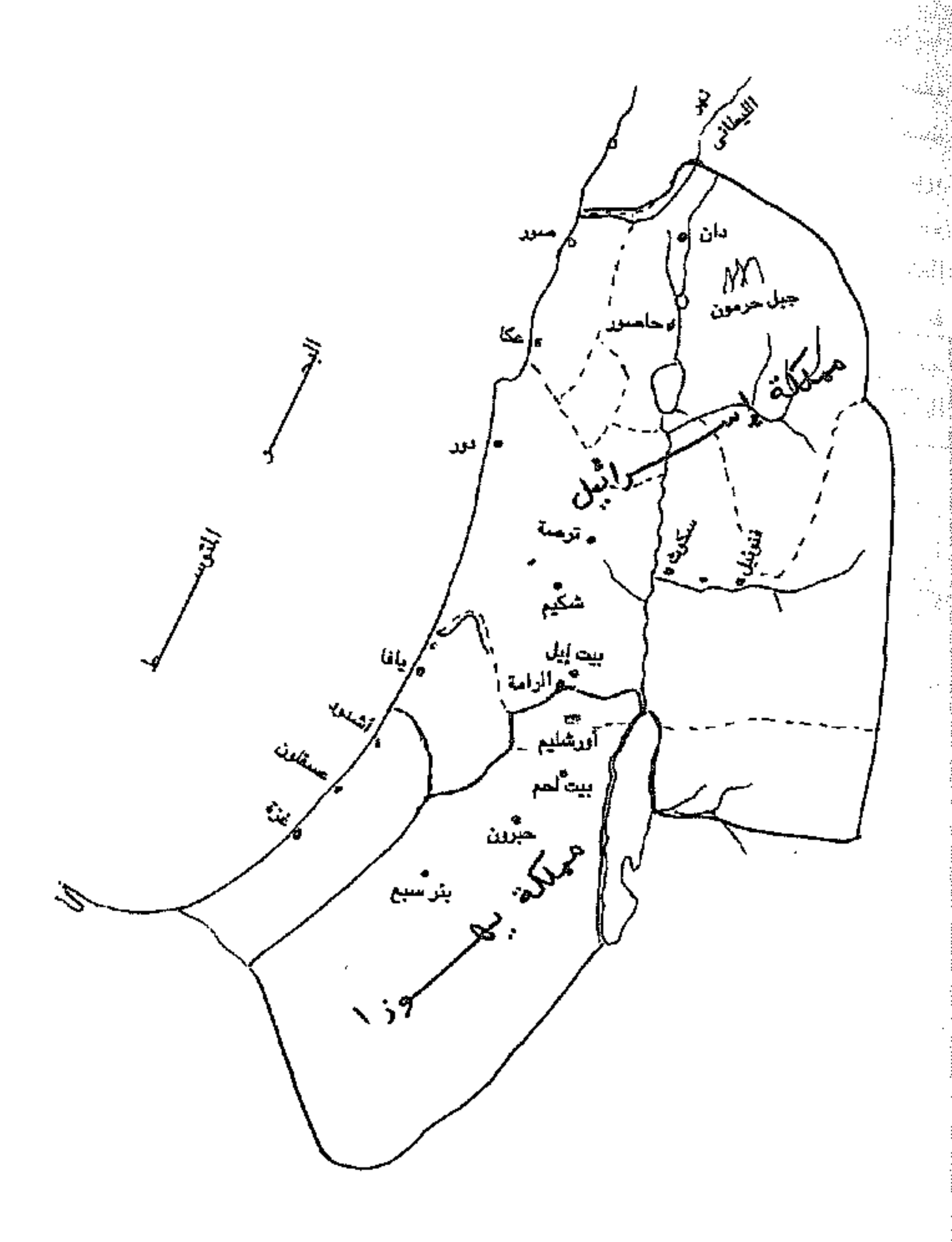
لشمعيا رجل الله قائلا: كَلِّم رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وكل بيت يهوذا وبنيامين وبقية الشعب قائلا: هكذا قال الرب. لا تصعدوا وتحاربوا إخوتكم بنى إسرائيل. ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندى هذا الأمر. فسمعوا لكلام الرب ورجعوا لينطلقوا حسب قول الرب».

وبهذا انقسمت المملكة إلى قسمين (شكل ٥٠).

١ – رحبعام بن سليمان ملكا على يهوذا وبنيامين فى الجنوب، وعاصمته أورشليم .

٢ – بقية الأسباط ملَّكوا عليهم يربعام، واتخذ من شكيم عاصمة لمملكة إسرائيل الشمالية.

وسنتكلم فيما يلى عما آل إليه مصير المملكتين: إسرائيل فى الشمال ويهوذا فى الجنوب. وسنرى أن تاريخ بنى إسرائيل فى هذه المرحلة كان عبارة عن فترات من الضلال والزيغ عن عبادة الرب إذ يعبدون آلهة أخرى مثل البعل وعشتروث فيعاقبهم الله بأن يُسلِّط عليهم أعداءهم ليذلوهم ويفرضوا عليهم الجزية. عندئذ يندمون على عصيانهم أوامر الرب فيرسل الله لهم نبيا يهديهم ويستغفر لهم. فيرحمهم الله ويرفع الذل عنهم ويخلِّصهم من أعدائهم. ولكن يعاودهم الضلال، وتعود الشعوب المجاورة لاستعبادهم. وتكرر هذا فى المملكة الشمالية بالذات التى كانت قد ضلَّت وعبدت الأوثان فى معظم فترات حكمها إلى أن انتهت بسقوط السامرة عام ٧٢٢ ق.م والسبى الأشورى عام ٧١٩ ق.م. أما المملكة الجنوبية فقد كان ملوكها مؤمنين إلى حد ما إلا أنهم فى النهاية زاغوا فعاقبهم الله هم أيضا – وكان السبى البابلى عام ٥٨٥ ق.م.



شكل ٥٠ – مملكتى إسرائيل (الشمالية) ويهوذا (فى الجنوب).

الفصل الحادى عشر

مملكة إسرائيل الشمالية

ترتيبه	اسم الملك	سنوات حكمه	مصيره		النبى المعاصر
		ق.م	وفاة	قتل	
١	يربعام	٩٢٢ – ٩٠١	وفاة		أخيا الشيلونى
٢	ناداب بن يربعام	٩٠١ – ٩٠٠		قتل	
٣	بعشا (أسرة جديدة)	٩٠٠ – ٨٧٧	وفاة		النبى ياهو بن حنانى
٤	أيلة بن بعشا	٨٧٧ – ٨٧٦		قتل	
٥	زمرى (انقلاب قصير الأجل)	٨٧٦–سبعة أيام		قتل	
٦	عمرى (أسرة جديدة)	٨٧٦ – ٨٦٩	وفاة		
٧	أخاب بن عمرى	٨٦٩ – ٨٥٠		قتل فى الحرب	ميخايا وإلياس
٨	أخزيا بن أخاب	٨٥٠ – ٨٤٩	توفى		أليشع النبى
٩	يورام بن أخاب	٨٤٩ – ٨٤٣		قتل	
١٠	ياهو بن نمشى (أسرة جديدة)	٨٤٣ – ٨١٥	توفى		
١١	يهو أحاز بن ياهو.	٨١٥ – ٨٠١	توفى		
١٢	يهو آش (يوآش) بن يهو أحاز	٨٠١ – ٧٨٦	توفى		يونان النبى (يونس)
١٣	يربعام الثانى بن يوآش	٧٨٦ – ٧٤٦		قتل	
١٤	زكريا بن يربعام	٧٤٦ – ٧٤٥		قتل	عاموس النبى
١٥	شلوم بن يابيش (أسرة جديدة)	٧٤٥		قتل	
١٦	منحيم بن جادى (أسرة جديدة)	٧٤٥ – ٧٣٨	توفى		هوشع النبى
١٧	فقحيا بن منحيم	٧٣٨ – ٧٣٧		قتل	
١٨	فقح بن رمليا (أسرة جديدة)	٧٣٧ – ٧٣٢		قتل	
١٩	هوشع (أسرة جديدة)	٧٣٢ – ٧٢٢			
	سقوط السامرة	٧٢٢ ق.م			

اتسمت المملكة الشمالية – إسرائيل – خلال عمرها الذى امتد ٢١٠ عاما (٩٣٢ – ٧٢٢) – بعدم الاستقرار، إذ أن الـ ١٩ ملكا الذين حكموها جاءوا من ٩ أسرات مختلفة . واغتيل منهم تسعة وواحد قتل فى حرب. كما انعكس عدم الاستقرار السياسى على مكان العاصمة إذ أن يربعام اختار «شكيم» لما لها من ثقل دينى. أما فنوئيل فقد لجأ إليها يربعام مؤقتا ليبعد عن مسرح القتال عند غزو شيشنق ليهوذا. أما ترصة التى تقع على مرتفع حصين فقد ظلت العاصمة لأربعين عاما. وفى منتصف مدة حكم عمرى نُقلت العاصمة إلى السامرة كما سيجىء فيما بعد (ص ٢٥٢). ولمَّا كانت السامرة مفتوحة على سهل شارون ويسهل الوصول إليها من جهة الغرب عبر «وادى شكيم» لذلك فقد كانت سهلة التأثر بثقافة الساحل الفينيقى وزاد هذا التأثير بالمصاهرة التى تمت بين البيتين المالكين كما سيجىء فيما بعد (ص ٢٥٢).

ومما زاد من عدم استقرار المملكة الشمالية كثرة الحروب بينها وبين الأراميين وبالذات أرام دمشق حتى بلغت حوالى ١٢ معركة. والحقيقة أن أسبابا اقتصادية كانت وراء هذه الحروب إذ أن وجود إسرائيل قوية وتسيطر جيدا على مدن الشمال: دان وعيون وآبل معكة معناه التحكم فى الطريق المتجه غربا من دمشق إلى ساحل البحر المتوسط وبالتالى التحكم فى تجارة العطور والبخور والتوابل القادمة من اليمن وشرق أفريقيا. وكانت القوافل البرية تنقلها عبر الجزيرة العربية ثم طريق شرق الأردن ثم عبر دمشق أو مباشرة إلى مدن شمال إسرائيل لتصل إلى موانى البحر المتوسط، عكا وصور وصيدون ومنها إلى الدول المطلة على البحر المتوسط وأصبح التنافس بين دمشق وإسرائيل حادا لما يُدره عبور هذه البضائع من أموال.

كانت هذه نظرة عامة على وضع المملكة الشمالية والآن نذكر ملوكها وأنبياءها.

١ – يربعام الأول

هو أول ملوك مملكة إسرائيل الشمالية. تولى الحكم بعد أن بايعه الأسباط العشرة الشمالية ملكا عليهم. وأعاد بناء «شكيم» وسكن بها وجعلها عاصمة له ثم راح إلى «فنوئيل» على نهر يبوق فى شرق الأردن فحصَّنها وجعلها مركزا ثانيا له (ملوك أول ١٢:٢٥). ثم فى السنة الثانية من حكمه اتخذ من «ترصة» عاصمة له. وظلت عاصمة له ولخلفائه لمدة ٤٠ عاما إلى أن بنى الملك عمرى مدينة «السامرة» عام ٨٧٠ ق.م. فصارت عاصمة لإسرائيل.

ولا بأس من إعادة تذكرة القارىء ببعض المعلومات عن هذه المدن «فشكيم» – وهى نابلس الحالية – بلدة قديمة خيَّم بالقرب منها إبراهيم عليه السلام وكان الكنعانيون يسكنون فيها (الجزء الثانى ص ٢٦٩). وفى وقت عودة يعقوب من حاران فى الفرات الأعلى كان الحويون

يقيمون فيها. وفيها ابتاع يعقوب قطعة أرض أقام فيها إلى أن اضطُر إلى الخروج من المدينة (الجزء الثالث ص ٤١٩) وفيها دفن التابوت الذى به جثمان يوسف عليه السلام بعد أن حمله بنو إسرائيل معهم عند خروجهم من مصر. وهناك سمع الشعب خطبة الوداع الثانية ليشوع (ص ٣٨). وهى إحدى مدن الملجأ غرب الأردن. أما «فنوئيل» فقد سبق ذكرها (الجزء الثالث. ص ٤١٧) وقد أعطاها يعقوب هذا الاسم لأنه هناك – كما تقول التوراة (تكوين ٣٢:٣٠) – نظر إلى الله وجها لوجه!! وفى عصر القضاة كانت عبارة عن برج وحوله بيوت المدينة وقد هدم جدعون البرج وقتل سكان المدينة (قضاة ٨:٨) ثم أعاد يربعام بناءها وتحصينها. وهى تقع شمال نهر حبوق ١٢كم شرق نهر الأردن. أما «ترصة» فتقع على بعد ١٠كم شمال شرق شكيم.

وخشى يربعام من ذهاب الشعب إلى أورشليم لتقديم الذبائح هناك فتميل قلوبهم إلى بيت داود فى يهوذا فينصرفوا عنه. فأراد أن يصرفهم عن الذهاب إلى أورشليم فقام بتدعيم هيكلين فى مملكته واحد فى دان والآخر فى بيت إيل . وتقع **دان** قرب الحدود الشمالية لمملكة إسرائيل وهى حاليا «تل دان» فى الطرف الشمالى لوادى الحولة قرب سفح جبل حرمون ٢٠كم شمال شرق حاصور. أما **بيت إيل** فهى مدينة قديمة أقام ابراهيم عليه السلام خيمته قربها (الجزء الثانى ص ٢٦٩) كما أنها هى المكان الذى نام فيه يعقوب عند ذهابه إلى حارات فرأى فى نومه معراجا منصوبا من الأرض إلى السماء والملائكة يصعدون فيه وينزلون فقال يعقوب هذا بيت الله وغيَّر اسم المكان من «لوز» إلى «بيت إيل» (الجزء الثالث ص ٤١٢). وهو يقع ١٩ كم شمال أورشليم.

ومما لاشك فيه أن إقامة هذين الهيكلين كان مخالفا الشريعة التى لا تعترف إلا بهيكل واحد لكل إسرائيل. ولكن على ما يبدو فإن إقامة يربعام فى مصر لعدة سنوات قد أثرت فى عقيدته فلم يعد يتمسك بحرفية الشريعة الموسوية. بل إنه تأثر بعبادة عجل أبيس وتيس منديس. فأقام مرتفعات (أماكن عبادة) للتيوس والعجول وجعل لها كهنة يقومون على خدمة معابدها ويتقبلون القرابين ويذبحونها على النصب. ومنع اللاويين من أن يكهنوا للرب حسب الشريعة فتركوا إسرائيل وذهبوا إلى مملكة يهوذا حيث يمكنهم عبادة الرب وتبعهم كل المؤمنين المتمسكين بدينهم (ملوك أول ١٢:١٦). وعمل يربعام عيدا فى الشهر الثامن (زيو = مايو) فى اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذى فى يهوذا وأصعد محرقات على المذبح فى بيت إيل. وهكذا ارتكب يربعام ثلاث خطايا جسيمة:

١ – إحياء عبادة العجل .

٢ – عيَّن كهنة من عامة الشعب وليسوا من بيت لاوى .

٣ – ابتدع عيدا جديدا فى ١٤ من الشهر الثامن ليضاهى به عيد المظال والمحدد له ١٤ من الشهر السابع (شهر أبيب) من السنة اليهودية.

ويرى بعض الباحثين أن يربعام كان مُشَجَّعًا من الفراعنة لإحداث انقسام المملكة بغرض إضعافها حتى تتمكن مصر من إعادة سيطرتها على فلسطين كما كانت فى عهد الأسرة ١٩. وما نراه هو أن يربعام كان يرغب فى علاقات حميمة مع فراعين مصر ليقفوا معه ضد أى محاولة من رحبعام لضم المملكة الشمالية بالقوة. فكان أن جاملهم على حساب العقيدة الموسوية. فضلا عن أن سابق إقامته فى مصر وزواجه من أخت الفرعون بسوسنس جعلته أكثر ميلا لعقيدة المصريين.

اتضح الآن أن يربعام قد ضل ضلالا بعيدا. ولم يكتف بهذا بل بدأ يتآمر على يهوذا التى كانت تسير على شريعة الرب. فكان لابد من أن ينال جزاءه.

نبي من يهوذا يحذّر يربعام :

وجاء نبى من يهوذا – لم تذكر التوراة اسمه – ليحذّر يربعام من غضب الله (ملوك أول ١:١٣) «وإذا برجل الله قد أتى من يهوذا بكلام الرب إلى بيت إيل ويربعام واقف لدى المذبح لكى يوقد. فنادى نحو المذبح بكلام الرب. وقال: يا مذبح يا مذبح هكذا قال الرب. هو ذا سيولد لبيت داود ابن اسمه يوشيا ويذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك. (وكان هذا تنبؤًا بشيء سيحدث بعد ٣٠٠ عام أيام يوشيا – ٦٤٠ – ٦١٠ ق.م – والذى قام بحركة إصلاح دينى كبيرة كما سيأتى فيما بعد ص ٣٦١). وأعطى رجل الدين علامة على صدق كلامه وهى أن المذبح سينشق ويصبح رمادا. ولما سمع يربعام ذلك الكلام مد يده ليمسك برجل الله فتيبّست يده. وانشق المذبح وأصبح رمادا فخاف يربعام وطلب من رجل الله أن يصلّى للرب حتى تعود يده كما كانت. ففعل. وطلب الملك منه أن يدخل إلى البيت ليأكل معه فقال رجل البيت إن الله أمره قائلا: «لا تأكل خبزا ولا تشرب ماء ولا ترجع فى الطريق الذى ذهبت فيه». وهكذا رفض رجل الله أى خبز أو شرب مع يربعام ولم يرجع فى نفس الطريق الذى جاء منه بل رجع من طريق آخر. وكان فى بيت إيل نبى شيخ لم تذكر التوارة اسمه هو أيضا. ولعله كان كاهنا فقط. فذهب وراء نبى يهوذا حتى أدركه وطلب منه العودة ليأكل ويشرب معه فاعتذر إليه بأن أمر الرب هو ألا يأكل أو يشرب شيئا من هذه البلدة. ولكن كاهن بيت إيل كذب عليه وأخبره أن ملاك الرب قد كلّمه قائلا: ارجع به معك إلى بيتك فيأكل خبزا ويشرب ماء. فرجع معه فى نفس الطريق وأكل وشرب وبهذا خالف أوامر الرب. وكان الواجب عليه الامتثال التام لأمر الرب وإن كان هناك تغيير فى أوامر الرب فيجب أن يُبلَّغ إليه شخصيا ولا يأخذه عن أى أحد آخر. وعقابا له على مخالفته أمر الرب قابله أسد وافترسه وهو عائد إلى بلده.

مرض ابن يربعام :

ومرض ابن يربعام مرضا شديدا ورأى الملك أن يستعين على شفاء ابنه بدعوات النبى **«أخيا الشيلونى»** وكان يقيم فى بلدة شيلوه. (ويرجّح أنها المسمّاة الآن «سيلون» ٢٥كم

شمالي أورشليم على طريق شكيم). وخشي يربعام - لأنه سار في طريق الشر وعبد الأوثان - أن يرفض النبي الدعاء لابنه بالشفاء، فرأى أن تتنكَّر امرأته وتأخذ معها هدية لأخيا. وكان أخيا قد كبر في السن وضعف بصره، ولكن الله أعلمه بقدوم امرأة يربعام. وتقول التوراة (١ ملوك ٦:١٤): «فلما سمع أخيا حس رجلها وهي داخلة في الباب قال: ادخلي يا امرأة يربعام. لماذا تتنكَّرين وأنا مُرسَلٌ إليك بقول قاس. اذهبي وقولي ليربعام هكذا قال الرب إله إسرائيل: من أجل أني رفعتك من وسط الشعب وجعلتك رئيسا على شعبي إسرائيل وشققت المملكة من بيت داود وأعطيتك إياها. ولم يكن كعبدي داود الذي حفظ وصاياي والذي سار ورائي بكل قلبه ليفعل ما هو مستقيم فقط في عينيَّ. وقد ساء عملك فسرتَ وعملتَ لنفسك آلهة أخرى ومسبوكات وقد طرحتني وراء ظهرك. لذلك هأنذا أجلب شرا على بيت يربعام. وأقطع ليربعام كل بائل بحائط محجوزا ومطلقا في إسرائيل وأنزع آخر بيت يربعام حتى يفنى. من مات ليربعام في المدينة تأكله الكلاب ومن مات في الحقل تأكله طيور السماء لأن الرب تكلم». ثم أمرها أن تعود إلى بيتها. وأنه عند لحظة دخولها المدينة يموت ابنها وهو الوحيد من بيت يربعام الذي سيتم دفنه. أما الآخرون فستحق عليهم كلمة الرب كما قال. وحدث ما تنبأ به النبي أخيا الشيلوني. ومات ابن يربعام. وكان الواجب على أبيه أن يعود إلى الله بعد مصيبته هذه ولكنه لم يعتبر واستمر في طريق الضلال حتى مات بعد أن ملك على إسرائيل ٢٢ سنة (٩٢٢ - ٩٠١ ق.م) وتولى ابنه «ناداب» الملك من بعده.

٢ - ناداب بن يربعام

حكم ناداب بعد موت أبيه مدة سنتين فقط (٩٠١ و ٩٠٠ ق.م.) وسار في طريق الضلال مثل والده إذ ترك عبادة الرب وعبد الأصنام. وكانت مدينة جِبَّثُون Gibbethon - (وهي تقع في الجزء الشمالي من أرض الفلسطنيين - حاليا «تل الميلاط» ٥كم غربي مدينة جازر) من أملاك دان ولكن الفلسطينيين استولوا عليها فهبَّ ناداب لتخليصها من أيديهم. وفيما هو يحاصر المدينة قام عليه «بعشا» رجل من سبط يساكر. فقتله وقضى على كل أهل بيته وبهذا تحققت نبوءة النبي أخيا الشيلوني. وملَكَ بعشا على إسرائيل.

٣ - بعشا . Baasha

كان بعشا هو أول ملوك الأسرة الجديدة التي حكمت إسرائيل بعد أسرة يربعام. وأول ما فعل هو أنه قام بضرب عنق كل فرد من بيت يربعام فأبادهم جميعا. وكان بعشا من أسرة

متواضعة وكان الواجب عليه أن يدرك أن الله هيأ له الانتصار على ناداب وأنه كان أداة الرب للتنكيل ببيت يربعام لسيرهم فى طريق الضلال ومن ثم كان الواجب عليه أن يعود إلى طريق الرب. ولكن بعشا سار على نفس طريق سابقيه فى الضلال وعبادة الأصنام.

وأعاد بعشا بناء مدينة «الرامة Ramah» وهو اسم عبرى معناه مرتفعة. أعاد بناءها على هضبة عالية فى أرض بنيامين على بعد ٨كم شمال أورشليم على طريق بيت إيل. وحصَّنها لكى تمنع حاميتها أى فرد من شعب إسرائيل من الذهاب إلى مملكة يهوذا. وكان كلام الرب إلى النبى «ياهو بن هنانى» على بعشا قائلا: «من أجل أنى قد رفعتك من التراب وجعلتك رئيسا على شعب إسرائيل فسرت فى طريق يربعام وجعلت شعب إسرائيل يخطئون. هأنذا أنزع نسل بعشا ونسل بيته وأجعل بيتك كبيت يربعام. فمن مات لبعشا فى المدينة تأكله الكلاب ومن مات له فى الحقل تأكله طيور السماء (١ ملوك ١٦ : ١ – ٤)».

وكانت العلاقات بين بعشا وبنهدد ملك دمشق جيدة إلا أنها ما لبثت أن ساءت وتحاربا وحصل بنهدد على نوع من الاستقلال الذاتى وتم عقد معاهدة تحالف وعدم اعتداء. ثم توفى بعشا بعد أن ملَك على إسرائيل ١٣ سنة.

٤ – أيلة بن بعشا .Elah

تولى الحكم بعد وفاة أبيه وحكم لمدة سنتين وكانت عاصمته «ترصة Tirzah ». وبينما كان يشرب الخمر ويسكر فى قصره دخل عليه «زمرى» رئيس فرقة المركبات وقتله وتولى الملك من بعده. وقتل كل أسرة بعشا. وكما تقول التوراة (١ ملوك ١٦:١٢) «فأفنى زمرى كل بيت بعشا حسب كلام الرب الذى تكلَّم به على بعشا عن يد ياهو النبى لأجل خطايا بعشا وخطايا ابنه أيلة».

٥ – زِمرى .Zimri

لم يحكم زمرى سوى سبعة أيام – فى ترصة – إذ لما سمع «عمرى» قائد الجيش بما فعله زمرى توجَّه إلى ترصة وحاصر القصر. ولما أدرك زمرى أنه لا أمل له فى مقاومة عمرى فإنه انسحب إلى داخل قلعة القصر وأغلقها على نفسه وأشعل النار فيها فمات محترقا. عندئذ قام أحد الضباط واسمه تبنى Tibni وأعلن نفسه ملكا على إسرائيل وتحصَّن داخل ترصة . وانقسم الشعب والجنود نصف مع تبنى ونصف مع عمرى وظل هذا الانقسام قائما لمدة ٥ سنوات إلى أن مات تبنى وأصبح عمرى هو الملك لمملكة إسرائيل الشمالية.

٦ - عمرى Omri.

تولى الحكم بعد انتحار زمرى، وبعد وفاة تبنى أصبح هو ملك إسرائيل لا ينازعه أحد. وبقى يحكم فى ترصة لمدة ٦ سنوات ثم انتقل إلى «تل سامريا» الذى اشتراه من «شمر» بمثقالين من الفضة وبنى به مدينة سماها «السامرة» Samaria وجعلها عاصمة لإسرائيل الشمالية وظلت كذلك لحوالى ١٥٠ عاما حتى سقوط إسرائيل بالسبى الأشورى عام ٧٢٢ ق.م.

واستطاع عمرى أن يهزم المؤآبيين ويستولى على الأرض الواقعة شرقى البحر الميت وأجبرهم على دفع الجزية. «وعمل عمرى الشر فى عينى الرب أكثر من جميع الذين قبله وسار فى طريق يربعام وفى خطيته وعبد الأصنام» (١ ملوك ١٦:٢٥) ومات عمرى ودفن فى السامرة وملك أخاب ابنه مكانه.

٧ - أخاب بن عمرى.

ملك بعد وفاة والده عمرى وكانت العاصمة هى السامرة. وتقول التوراة: «وعمل الشر فى عينى الرب واتخذ «إيزابل» ابنة «أثبعل» ملك الصيدونيين زوجة له. فأغوته فعبد البعل وسجد له وبنى مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة» (١ ملوك ١٦:٣٠). وكان زواج أخاب بن عمرى من ابنة ملك الصيدونيين زواجا سياسيا. إذ كان العداء مستحكما بين الدويلات الأرامية وخاصة أرام دمشق وبين إسرائيل بسبب الصراع على التجارة وجباية الرسوم على البضائع. وما إن بنيت السامرة حتى سارع «بنهدد» ملك أرام دمشق بإقامة أسواق له فيها لتصريف بضائع دمشق بدون دفع رسوم جمركية عليها. وقامت الحرب بين البلدين. واستعان أخاب بالنبى ميخا - الذى كان معاصرا له - ليدعو له بالنصر ودعا له ميخا فكان انتصاره ساحقا على بنهدد ملك دمشق. وكان الواجب يقضى بقتل الخصم تبعا لتقاليد الحرب الدينية. ولكن أخاب تصالح مع بنهدد واتفقا على أن يقوم أخاب فى المقابل بفتح أسواق فى دمشق لبضائع إسرائيل. ثم بعد فترة توترت العلاقات بين البلدين بسبب قيام بنهدد باحتلال أرض من أسباط إسرائيل فى شرق الأردن وقامت حرب بين البلدين. وحرب استرداد الأرض تعتبر حربا دينية. وبعد انتصار أخاب كان الواجب عليه وللمرة الثانية قتل بنهدد. ولكنه عفا عنه وأطلق سراحه بعد أن وقع معاهدة بعدم الاعتداء.

وبالرغم من هذه المهادنة فإن أخاب رغب فى تحالف مع ملوك إمارات الساحل الفينيقى. فتزوج - كما ذكرنا آنفا - من إيزابل ابنة أثبعل ملك صيدا. وأثبعل معناها «بعل معه» وكان أخاب من الضعف أمام زوجته فترك لها العنان. وما إن جاءت إيزابل إلى السامرة حتى أدخلت

إليها الآلهة الفينيقية وفرضت عبادتها على نطاق واسع وأحضرت معها إلى القصر ٤٥٠ من كهنة بعل و ٤٠٠ من كهنة عشتاروث وأمرت بذبح كهنة الديانة الموسوية. وبنت دور العبادة والمذابح لآلهتها. وخالف أخاب أوامر الرب إذ سمح لأحد رجاله بإعادة بناء مدينة أريحا التى قال يشوع عند استيلائه عليها (ص ٢٥) «ملعون قدام الرب الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا. ببكره يؤسسها وبصغيره ينصب أبوابها» (يشوع ٦:٢٦). وقد أصابت اللعنة أخاب فمات ابنه البكر وهو يضع أساس المدينة ومات أصغر أبنائه وهو ينصب أبوابها.

الحرب مع أشور ومعركة قرقار :

كان شلمناصر الثالث قد تولى مُلك أشور عام ٨٥٨ ق.م. وبدأت نظرته تتجه إلى التوسع غربا. وقد وُجدت أخبار حروبه مسجلُه على مسلة تعرف باسم «المسلة السوداء» محفوظة بالمتحف البريطاني وفيها يذكر أنه بسط سلطانه على بابل وأكد وكلديا في جنوب العراق. وتسلم العصا والصولجان من الإله «أشور» وأصبح كاهنَه الأكبر وحاكم الشعب. ثم اتجه نحو البحر الكبير (البحر المتوسط) واجتاح «حاتى» (بلاد الحيثيين) وهاجم الدويلات الأرامية في سوريا وهزمها واستولى عليها واحدة بعد الأخرى. واستولى على «حلب» وأخذ الجزية من أهلها فضة وذهبا. ثم هاجم «حماة». وقد تحالف ضدَّه «حدد عزر» ملك دمشق و ١٠,٠٠٠ من المشاة من قبَل أخاب ملك إسرائيل. وراح يُعدِّد ١٢ ملكاً تحالفوا ضده – ولأول مرة تظهر مملكة الأنباط العربية كقوة سياسية إذ يذكر أن «جندبو» ملكها قد ساهم فى هذا التحالف بـ ١٠٠٠ جمل. ودارت المعركة عند مدينة «قرقار» أو «كركار» Qarqar (شكل ٥١) واندحر الاثنا عشر ملكا. وفى نص أخر مدوَّن على أحد التماثيل كتب شلمناصر: لقد هزمت حدد عزر الدمشقي مع ١٢ أميرا هم حلفاؤه (وذكر عددا من الأسماء من بينهم أخاب ملك إسرائيل). وقد طرحتُ على الأرض (أى قتلت) ٢٠,٩٠٠ من محاربيهم الأقوياء. أما بقية الجيوش فقد قذفتُ بها إلى «نهر الأورنت» (نهر العاصى) فتفرّقوا لينجوا بأنفسهم واستولى على «قرقار» ودمَّرها. وسجل أن غنائمه كانت:

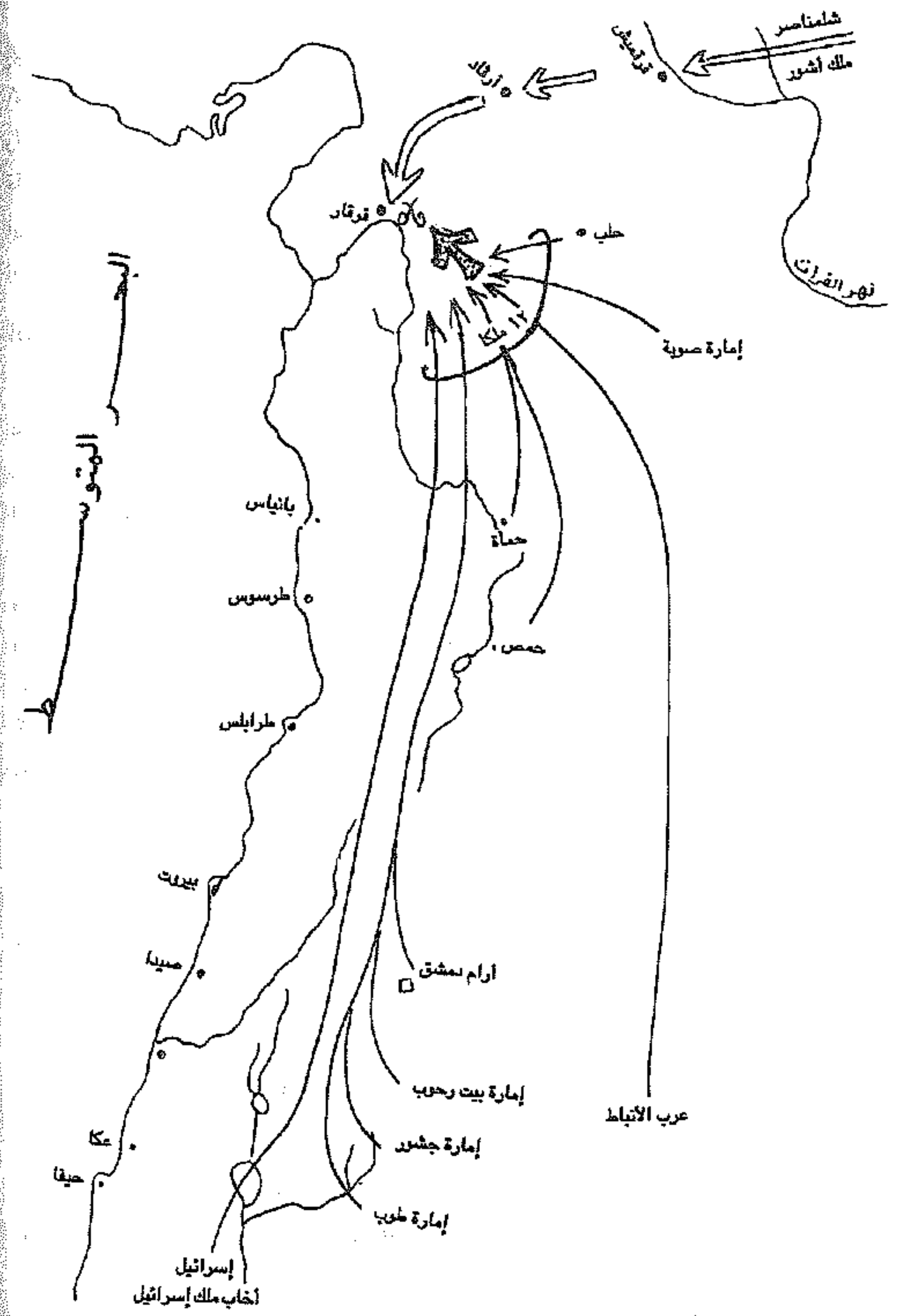
من ملك دمشق ١٢,٠٠٠ عربة حربية + ٢٠,٠٠٠ أسير + ١٢٠٠ حصانا.

من ملك حماة ٧٠٠ عربة حربية + ١٠,٠٠٠ أسير.

من ملك إسرائيل ٢٠٠٠ عربة حربية + ١٠,٠٠٠ أسير.

بالإضافة إلى غنائم كثيرة من الملوك الآخرين.

وفى نص آخر يقول: هذا التحالف كان ضدى وجاء للحرب معى ولكن بمعاونة قوة الرب «أشور» وبسواعد «نرجال» الذى كان يسير أمامى فقد حاربت من قرقر إلى جيلا (المقصود من قرقار إلى الجولان) وحققت انتصارا عليهم وقتلت ١٤,٠٠٠ من محاربيهم. وقد أمطرتُ عليهم طوفانا من الجنود وقد خطوتُ فوق جثثهم. ومات «حدد عزر» (ملك دمشق) وأخذ العرش واحد



شكل ٥١ – معركة قرقار بين شلمناصر ملك آشور و ١٢ ملكا تحالفوا ضده.

من العامة يدعى حزائيل – وفى هذا مصداق لنبوءة إيليا النبى التى سيأتى ذكرها فيما بعد (ص٢٦٢).

وعاصر أخابُ ثلاثة أنبياء هـم ميخايا أو اختصارا ميخا – وإيليا أو إلياس وأليشع (اليسع) نذكرهم لارتباط نبوءاتهم بأخاب.

النبى ميخا

هو ميخايا بن يملة Micaiah son of Imlah ويُختصر إلى ميخا. وميخا تعنى «من مثل يهوه» أو «من كيهوه» وهو نبى ظهر فى المملكة الشمالية – إسرائيل – فى السامرة وكان معاصرا لأخاب ملك إسرائيل (٨٦٥ – ٨٢٥ ق.م) مع النبيين إيليا (إلياس) وأليشع (اليسع).

ولعب النبـى ميخـا بن يملـة دورا مهما فى حياة أخاب ملك إسرائيل: فقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢) أن أخاب قد استعان به فى حربه مع بنهدد ملك دمشق فدعا له ميخا النبى وكان أن نصره الله على بنهدد نصرا ساحقا. وكان الواجب أن يقتل بنهدد ولكن أخاب عفا عنه فوبَّخه ميخا على ذلك وكان توبيخه مقنَّعا فى صورة رمزية (ملوك أول ٢٠ : ٣٥) إذ طلب النبى ميخا من أحد أتباعه أن يحدث به جرحا وتنكَّر ووقف فى طريق الملك أخاب. ولما مرَّ أخاب قال له إنه كان فى معركة وجاءه جندى بأسير وطلب منه أن يتحفَّظ عليه ولو هرب فستكون نفسه فداء له أو يدفع له وزنة من الفضة وأخبره أن الأسير غافله وهرب وطلب مساعدة الملك فى دفع الفضة حتى لا يدفع حياته فداء للأسير الهارب. ولكن الملك قال له: هذا حُكمك. أنت قضيت. أى أنك قد قبلت هذا الشرط فأنت الذى حكمت على نفسك بالموت! هنا رفع النبى العصابة عن رأسه وكان فى جبهته علامة يُعرف بها. فعرفه الملك. فقال له ميخا: هكذا قال الرب لأنك قد أفْلتَّ من يدك رجلا قد حرَّمتُه (أى تقضى الشريعة بقتله) تكون نفسك بدل نفسه – فمضى ملك إسرائيل مكتئبا مغموما وعاد إلى السامرة. ومعنى القصة واضح إذ أن بنهدد كان أسير أخاب وعفا عنه ولم يقتله وسيكون جزاؤه القتل. وقد تحقق حكم الله فى أخاب كما سنرى فيما بعد (ص ٢٦٤) إذ فى آخر سنة من حكمه قرر التحالف مع يهوشافاط ملك يهوذا لحرب بنهدد وحذَّره ميخا النبى من هذه الحرب إذ فيها نهايته ولكنه لم يستمع له ودخل الحرب بعد أن وضع ميخا فى السجن وضيَّق عليه فى المأكل والمشرب حتى مات فيه. وفى الحرب انهزم أخاب وجرح جرحا كبيرا كانت فيه نهايته.

إلياس عليه السلام : إيليا
Elihah = Elias

«إيليا» اسم عبرى معناه «إلهى يهوه». والصيغة اليونانية لهذا الاسم هى «إلياس» بصورة المرفوع إذ أن علامة الرفع فى اليونانية فى المذكر هى إضافة سين فى آخر الاسم (رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن الكريم. جـ ٢ - ص ١٦٧). وهو الاسم الذى اختاره القرآن الكريم. وقد جاء ذكره مرتين «إلياس» وفى الثالثة جاء الاسم مزيدا ياء ونون فى آخره ومقطَّعه «إلْ ياسين» وليست مجموعة «إلياسين». ولاشك أن هذا التقطيع فى الاسم كان بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم. ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة أن المقصود من ذلك هو لفت النظر إلى أن «إل» فى أول اسم «إلياس» ليست أداة التعريف وإنما هى اسم الله عز وجل فى العبرانية «إيل» وحتى لا يُتَوهَّم أن اسم «الياس» مشتق من كلمة اليأس بعد تسهيل الهمزة.

«وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس. كل من الصالحين» . (٨٥ - الأنعام).

«وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين. فكذَّبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلَصين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إل ياسين. إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين» . (١٢٣ - ١٣٢ الصافات).

وقد كان إلياس معاصرا لأخاب بن عمرى ملك إسرائيل. وقد سبق أنه ذكرنا أن أخاب قد ضل وعبد البعل وبنى مذبحا للبعل فى «بيت البعل» الذى بناه فى السامرة. وتزوج إيزابل ابنة أثبعل ملك صيدا. وتبعه قومه فى عبادة البعل. وقد نعى القرآن الكريم عليهم هذا الضلال **«أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين....»**

وإلياس من بلدة «تشبة» فى جلعاد شرق الأردن ولذلك يسمى فى التوراة «إيليا التشبى» وكان عادة يلبس ثوبا من الشعر (مسوحا) ومنطقة من الجلد وكان يقضى الكثير من وقته فى البرِّية.

وقد كان للنبى إلياس دور كبير فى تسيير الأحداث السياسية لا فى إسرائيل وحدها بل فى الدول المجاورة كذلك وخاصة دويلة أرام دمشق. وقد سبق أن ذكرنا أن زواج أخاب بن عمرى ملك إسرائيل من إيزابل الصيدونية كان زواجا سياسيا ليقوِّى إسرائيل ضد ضغط سوريا والخطر المتوقَّع من أشور. ولقد كان زواج سليمان عليه السلام من ابنة ملك صور - ملك الفينيقيين - زواجا سياسيا أيضا ولكن كانت إسرائيل هى الطرف الأقوى ولم يسمح سليمان لديانة الفينيقيين بالتغلغل فى إسرائيل فظلَّت محصورة فى الزوجة الفينيقية وجواريها وأتباعها. إلا أنه فى عهد أخاب كانت إسرائيل على درجة كبيرة من الضعف السياسى ومن البعد عن تعاليم

الدين الصحيح – بعد زيغ كل ملوكها عن الديانة الموسوية منذ عهد يربعام – لذلك فإن إيزابل احتلت مكانة ممتازة فى عهد أخاب، وأطلق أخاب يدها فى الدعاية لآلهتها. وتمادت هى فى مساندة آلهتها حتى أنها حكمت بالإعدام على أتباع «يهوه» الذين عارضوا آلهتها جهارا. وقامت بطرد اللاويين من مملكة إسرائيل. فكان من تبقى على الديانة الموسوية هم الأنبياء وبعض رجال الدين وحتى هؤلاء. قامت إيزابل بمطاردتهم فاحتمى بعضهم برجال من البلاط كانوا يكتمون إيمانهم بينما فر الباقون إلى البرية وإلى يهوذا المجاورة. ووصل الضعف بأخاب إلى حد أنه لم يستطع منع حيئيل البيتئيلى (من بلدة بيت إيل) من بناء مدينة أريحا مع أن الرب على لسان يشوع قد حَرَّم إعادة بنائها ولعن من يقوم بذلك كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٣).

الأخذ بالشدة :

كما كانت إرادة الله هى أخذ آل فرعون بالشدة لعلهم يرجعون: «**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذَّكرون**» (١٣٠ – الأعراف) . كذلك كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يأخذ أخاب وإسرائيل ببعض الشدة لعلهم يعودون إلى طريق الحق. فجاء إلياس إلى أخاب وأخبره أن الله سيمنع المطر عن إسرائيل. فإذا تأكد له أنهم قد عادوا إلى الحق وإلى عبادة الله فإنه سيدعو الله لينزل المطر ثانية: «وقال إيليا التشبى من مستوطنى جلعاد لأخاب: حى هو إله إسرائيل الذى وقفتُ أمامه. إنه لا يكون طَلٌّ ولا مطرٌ فى هذه السنين إلا عند قولى» (ملوك أول ١٧ : ١) ورحمة من الله بنبيه إلياس أمره الله أن يعتزل إلى مكان فى شرق الأردن عند نهر كريث – وهو رافد صغير لنهر الأردن من الجهة الشرقية (ويحتمل أنه – بعد جفافه – هو وادى كلت الحالى) فكان يشرب منه. وأمر الله الطيور بأن تعوله فكانت تأتى له بالطعام . وبعد مدة جف النهر فأمره الله أن ينتقل إلى «صرفة Zarephath» وهى ميناء فينيقى صغير بين صور وصيدا . وكان مُقَدراً له أن ينزل هناك ضيفا على أرملة تعيش هى وابنها . وكانا على وشك الهلاك جوعا . فحلَّت بركته عليهما لأنها وثقت بكلامه الذى نطق به باسم الرب. تقول التوراة (ملوك أول ٨:١٧) «وكان له كلام الرب قائلا. قم اذهب لصرفة وأقم هناك. هوذا قد أمرت أرملة أن تعولك. فقام وذهب إلى صرفة وجاء إلى باب المدينة. وإذا بامرأة أرملة هناك تقشُّ عيدانا فناداها وقال هاتى لى قليل ماء فى إناء فأشرب. وفيما هى ذاهبة لتأتى به ناداها وقال هاتى لى كسرة خبز فى يدك. فقالت حىٌّ هو الرب إلهك. إنه ليس عندى كعكة ولكن ملء كف من الدقيق فى الكوَّار وقليل من الزيت فى الكوز وهأنذا أقشُّ عودين لآتى وأعمله لى ولابنى لنأكله ثم نموت. فقال لها إيليا لاتخافى. ادخلى واعملى كقولك ولكن اعملى لى منها كعكة صغيرة أوَّلاً واخرجى بها إلىَّ ثم اعملى لك ولابنك أخيرا لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل: إن كوَّار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى يعطى فيه الرب مطرا على وجه الأرض. فذهبت

وفعلت حسب قول إيليا وأكلت هى وهو وبيتها أياما. كوَّار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب». ثم مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتد مرضه حتى مات وحزنت عليه والدته جدا. فأخذ إيليا الولد وصعد به إلى العلّيَّة التى كان مقيما بها (الحجرة العلوية بالدار) وأضجعه على سريره وصرخ إلى الرب ودعا الله وقال: يارب إلهى. لتَرجِع نفس هذا الولد إلى جوفه. فسمع الرب لصوت إيليا ورجعت نفس الولد إلى جوفه وعاش. فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلية ودفعه لأمه (ملوك أول ١٧).

إلياس يطلب لقاء الملك أخاب :

استمرت المجاعة ٣ سنوات و٦ أشهر لم يكن بها مطر. ولحق ضرر بالغ بالسامرة من جراء عدم نزول المطر. وعاد إيليا إلى السامرة فوجد أخاب لايزال حيا لم يصبه ضرر من المجاعة ولاتزال زوجته إيزابل قائمة على عبادة آلهتها وكهنة البعل يقودون الناس إلى الضلال. وكان أوَّل من قابل إيليا ضابط كبير اسمه «عوبديا» وهو اسم عبرى معناه «عبد يهوه» وكان مسؤولا عن حماية بيت أخاب وكان تقيا لم يعبد البعل. وعندما اضطهدت الملكة إيزابل أنبياء الرب يهوه قام بإخفاء ١٠٠ منهم وحماهم من بطش إيزابل وأعوانها. وكان لما اشتد الجدب حدث خلاف بين أخاب وعوبديا حول المرعى لمواشيهما. واتفقا على قسمة الأرض بينهما. وكل واحد يبحث فى جهة من الأرض عن عيون الماء والعشب اللازم لإعاشة الخيل والبغال والبهائم. واتخذ أخاب من البحث عن المرعى والماء ستارا لكى يخفى غرضه الحقيقى وهو البحث عن النبى إيليا (إلياس) ليقتصَّ منه ظنا أنه هو بدعواته قد تسبب فى المجاعة. وفيما كان عوبديا فى الطريق إذا بإيليا قد لقيه فعرفه وسجد له وقال له أأنت سيدى إيليا؟ فقال له أنا هو. اذهب إلى سيدك أخاب وأخبره أنى أود لقاءً معه. وخاف عوبديا من بطش أخاب لو حمل له رسالة من إيليا ولكن إيليا طمأنه بأن ضررا لن يلحق به وأمره بأن يذهب إلى أخاب ويخبره بأن يكون مكان اللقاء فى جبل الكرمل.

إلياس يقتل كهنة البعل :

تقول التوراة (١ ملوك ١٨:١٧): ولما رأى أخاب إيليا قال له: أأنت هو مُكدِّر إسرائيل؟ فقال له: لم أكدِّر إسرائيل. بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البلعيم. فالآن أرسل واجمع إلىَّ كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل الـ ٤٥٠ (أى كهنة البعل) وأنبياء السوارى الـ ٤٠٠ الذين يأكلون على مائدة إيزابل. فأرسل أخاب إلى جميع بنى إسرائيل وجمع الكهنة إلى جبل الكرمل. فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال: حتى متى تعرجون بين الفرقتين. إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه. وكان التحدى أن يُقدِّم كهنة البعل ثورا قربانا للبعل ويقدم هو ثورا قربانا للرب ولا يوقدون نارا. والإله الحق هو الذى ينزل نارا من

السماء تأكل قربانه. ويؤيد هذا ما ورد في القرآن الكريم «**الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار. قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين**» . (١٨٣ - آل عمران).

وقدَّم كهنة البعل قربانهم ثورا وظلوا يدعون من الصباح إلى الظهر قائلين: يا بعل أجبنا - فلم يجبهم وكانوا يرقصون حول المذبح الذي عملوه. وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال: ادعوا بصوت عالٍ، لعله مستغرق أو في خلوة أو في سفر أو لعله نائم فيتنبَّه. وتقطَّعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم (كما يفعل الشيعة الآن في احتفالاتهم بذكرى استشهاد الحسين). ولما جاء الظهر ولم يكن صوت ولا مجيب تقدم إيليا وأخذ اثني عشر حجراً بعدد الأسباط وبنى مذبحا للرب ثم رتب الحطب وقطع الثور وصب ماء كثيرا جداً في قناة حول المذبح وعند وضع القربان على المحرقة تقدم إيليا وقال: أيها الرب إله إبراهيم وإسحق وإسرائيل. ليُعلَمَ اليوم أنك أنت الله في إسرائيل وأنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور. استجبني يارب. استجبني ليعلَمَ هذا الشعب أنك أنت الرب الإله. فسقطت نار من السماء وأكلت المحرقة والحطب والحجارة وجفَّفت المياه التي في القناة. فلما رأى جميع الشعب ذلك سجدوا وقالوا: الرب هو الله. الرب هو الله. فقال لهم إيليا: أمسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك.

وأخبر إيليا أخاب أن الفتنة قد انتهت واللعنة قد زالت وأن المطر سينزل. وتوجه إيليا إلى الله بالدعاء من قمة جبل الكرمل وسجد إلى الأرض وطلب من غلامه أن يتطلَّع إلى البحر ليرى إن كان هناك سحاب قادم. ولم ير الغلام سحابا. وطلب منه إيليا ذلك ٦ مرات وفي المرة السابعة قال: هو ذا غيمة صغيرة صاعدة من البحر. فقال اصعد وقل لأخاب: انزل لئلا يمنعك المطر. وكان أن اسودَّت السماء من الغيم والريح وكان المطر عظيما. فركب أخاب ومضى إلى يزرعيل Jezreel إذ كان له قصر هناك. وسار إلياس أيضا حتى وصل إلى يزرعيل. وأخبر أخاب زوجته إيزابل بكل ما عمله إيليا. وكيف أنه قتل جميع كهنة وأنبياء البعل بالسيف. فأرسلت إيزابل رسولا إلى إيليا تتوعَّده بالقتل. فهرب إيليا إلى بئر سبع في يهوذا وترك غلامه هناك ثم سار هو وحده في البرية مسيرة يوم حتى أتى وجلس في ظل شجرة وطلب من الله أن يأخذ نفسه. وقال «قد كفى الآن. يارب خذ نفسي لأني لست خيرا من آبائي. واضطجع ونام تحت الشجرة. وإذا بملاك قد مَسَّه وقال قم وكل. فتطلَّع فإذا كعكة وكوز ماء عند رأسه فأكل وشرب ثم رجع واضطجع. فعاد ملاك الرب ثانية فمسَّه وقال قم وكُلْ لأن المسافة كثيرة عليك. فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة ٤٠ نهارا و ٤٠ ليلة إلى جبل الله حوريب (جبل موسى بجنوب سيناء) ودخل هناك مغارة وبات فيها. وكان كلام الرب إليه قائلا: مالك ها هنا يا إيليا؟ فقال قد غرت غَيْرةً للرب إله الجنود لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدي وهم يطاردون نفسي ليأخذوها» (ملوك أول ٩: ٥ - ١٠).

التجلى الإلهى لإلياس :

تقول التوراة (ملوك أول ١٩ : ١١): «فقال اخرج وقف على الجبل أمام الرب، وإذا بريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسَّرت الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب في الريح، وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب فى الزلزلة، وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب فى النار، وبعد النار صوت منخفض خفيف، فلما سمعه إيليا لف وجهه بردائه وخرج ووقف فى باب المغارة وإذا بصوت إليه يقول: مالك ها هنا يا إيليا؟ فقال غِرتُ غيرة للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها. فقال له الرب: اذهب راجعا فى الطريق إلى برية دمشق وادخل وامسح حزائيل ملكا على أرام، وامسح ياهو بن نمشى ملكا على إسرائيل وامسح إليشع بن شافاط من آبل محولة نبيا عوضا عنك».

وهكذا رأى إيليا ثلاث ظواهر طبيعية وهو على جبل حوريب: الريح القوية والزلزلة والنار، ولم يكن الرب الإله فى أى واحدة منها، وإنما كانت إشعارا بالحضور الإلهى ومقدمة لما سيلقى على إيليا من أوامر ليقوم بتنفيذها وللتأكيد على أن هذه الأوامر هى حقا من عند الله العلى القدير. فالريح التى تفتت الصخر كانت كفيلة بتفتيت جسده لولا أن الله حماه منها، والزلزلة كانت كفيلة بأن تنهار الصخور عليه من كل جانب وتسد الكهف أو تهده لولا أن الله حفظه، كما أن النار الضخمة التى اندلعت كان فى إمكانها أن تطوله هو أيضا لولا أن الله وقاه من شرها، ومن هنا تأكد لإيليا أن من يكلِّمه هو الله حقا وأنه كما حفظه هنا فإن حفظه له سيستمر معه حتى يؤدى المهام الموكلة إليه وهى:

١ – أن يمسح حزائيل ملكا على أرام دمشق .

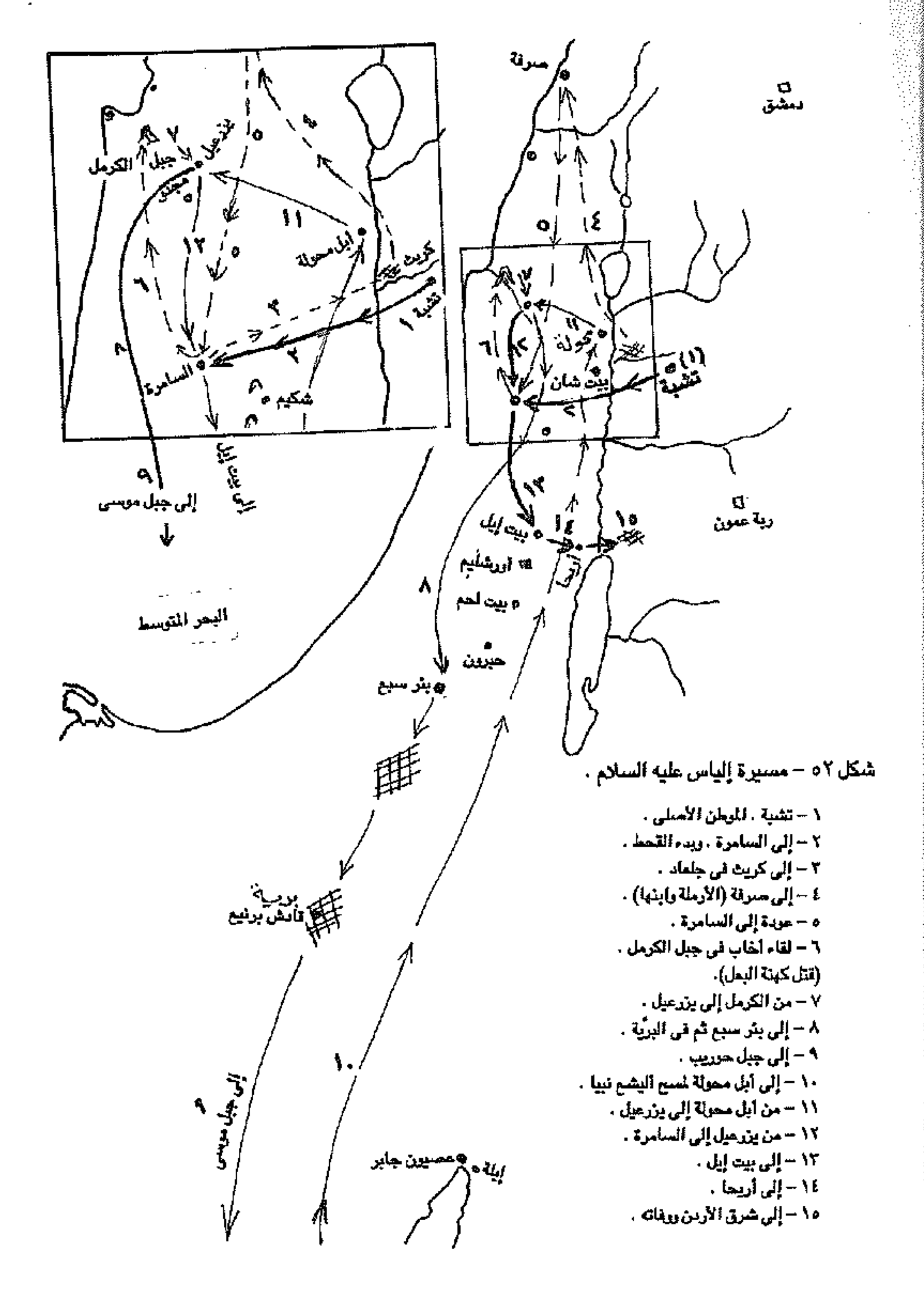
٢ – أن يمسح ياهو بن نمشى ملكا على إسرائيل بدلا من أخاب .

٣ – أن يمسح أليشع بن شافاط نبيا عوضا عنه، أى أن مهمته تنتهى بانتهائه من تنفيذ هذه الأوامر وبعدها يفارق الحياة.

وغادر إيليا جبل حوريب عائدا إلى إسرائيل عبر يهوذا لتنفيذ ما أُمِر به.

١ – مسح أليشع نبيا Elisha :

وأليشع هو اليسع فى القرآن الكريم وسيأتى ذكره بتفصيل أكثر فيما بعد (ص ٢٧٥)، وكان يقطن مدينة «أبل محولة» وهى تقع فى غور الأردن على الضفة الغربية للنهر ١٥كم جنوبى مدينة بيت شان، وأليشع من سبط يساكر، وهو من عائلة ثرية إذ أن حقل أبيه كان يستلزم اثنى عشر زوجا من الثيران لحرثه، ووجد إيليا أليشع يحرث الأرض فمرَّ به وطرح رداءه عليه وكان هذا تقليدا يفيد اصطفاءه للعمل النبوى، وهنا طلب منه أليشع أن يعطيه مهلة ذبح فيها بقرتان



شكل ٥٢ – مسيرة إلياس عليه السلام .

١ – تشبة . الوطن الأصلي .
٢ – إلى السامرة . وبدء القحط .
٣ – إلى كريث في جلعاد .
٤ – إلى صرفة (الأرملة وابنها) .
٥ – عودة إلى السامرة .
٦ – لقاء أخاب في جبل الكرمل .
(قتل كهنة البعل).
٧ – من الكرمل إلى يزرعيل .
٨ – إلى بئر سبع ثم في البرية .
٩ – إلى جبل حوريب .
١٠ – إلى أبل محولة لمسح اليشع نبيا .
١١ – من أبل محولة إلى يزرعيل .
١٢ – من يزرعيل إلى السامرة .
١٣ – إلى بيت إيل .
١٤ – إلى أريحا .
١٥ – إلى شرق الأردن ووفاته .

وتصدَّق بلحمها على الشعب ثم قبَّل أباه وأمه ومضى وراء إيليا وكان يخدمه (١ ملوك ١٩: ١٩ – ٢١).

٢ – مسح حزائيل ملكا علي أرام دمشق :

كانت هذه هي المهمة الثانية التى كلِّف بها إيليا. وقد سبق أن ذكرنا أن الدويلات الأرامية كانت موزَّعة فى سوريا وأن ملوك أرام دمشق قد رفعوها إلى شبه مملكة ذات قوة وبأس بحيث أصبحت تهدد جيرانها. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢) أنه تم عقد معاهدة تحالف وعدم اعتداء بين بعشا ملك إسرائيل وبنهدد ملك أرام دمشق، ثم ساءت العلاقات بين البلدين فى عهد الملك أخاب وكانت العلاقات بين إسرائيل ويهوذا سيئة فانتهز بنهدد هذه الفرصة وجمع معه ٣٢ أميرا من أمراء الدويلات والمدن الأرامية وأرسل رسلا إلى أخاب ملك إسرائيل يطلب منه تسليم ما يملك من ذهب وفضة وتسليم نسائه وبناته الحسان. وخاف أخاب ووعد بنهدد بإجابة طلباته. فأخبره بنهدد بأنه سيرسل رجالا من عنده ليفتشوا بيوته ويأخذوا ما بها من ذهب وفضة وكل ما هو ثمين. وهنا شعر أخاب بالمهانة وجمع شيوخ إسرائيل طالبا المشورة فأشاروا برفض طلبات بنهدد. فتقدم بنهدد وحاصر السامرة عاصمة إسرائيل. وجاء النبى إيليا إلى أخاب وشجَّعه. وكان عدة جيش إسرائيل ٧٠٠٠ مقاتل و ٢٣٢ من رؤساء المقاطعات (١ ملوك ٢٠). فقاتلوا بنهدد وهزموه هزيمة عظيمة وأسر بنهدد. ولكن أخاب أطلق سراحه مما حدا بالنبى ميخايا أن يأتى له ويوبخه على ذلك كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢).

وجاء إيليا النبى إلى أخاب وأخبره أن بنهدد سيحاربه فى السنة التالية بجيش أكبر وعليه ألا يتراخى. وعند تمام السنة كان بنهدد قد أعد جيشا أكبر من الأول وهاجم إسرائيل ولكن الله أيَّد بنصره جنود إسرائيل فانهزم الأراميون وقتل منهم كما تقول التوراة (ملوك أول ٢٠:٢٨) ١٢٧,٠٠٠ وهرب الباقون. وهرب بنهدد واختبأ فى مدينة أفيق Aphek وأرسل يطلب الرأفة من أخاب الذى قبل استعطافه ولم يقتله وتعهَّد بنهدد برد المدن والأراضى التى استولى عليها أيام الملك عمرى كما وعد بأن يصرِّح لإسرائيل بفتح إسواق فى دمشق مقابل الأسواق الأرامية التى فتحها والده فى السامرة. وأطلق أخاب سراح بنهدد الذى عاد إلى دمشق.

ثم إن بنهدد مرض مرضا خطيرا وتصادف أن كان النبى أليشع موجودا فى دمشق فأرسل بنهدد «حزائيل» رئيس البلاط إلى أليشع يسأله إن كان سيشفى من مرضه الخطير. فأخبر أليشع حزائيل أن سيده لن يشفى وأنه هو نفسه سيكون ملك دمشق من بعده. فرجع حزائيل إلى بنهدد وطمأنه بأنه سيشفى. وفى اليوم التالى قام عليه وقتله وملك عوضا عنه وكان فى ذلك تحقيق لمهمة إيليا وإن كان قد قام بها أليشع.

وهنا قد يثور التساؤل: أليس فى هذا التصرف ما يمكن أن نسميه تدخلا فى شئون دولة

أخرى وهو ما تنهى عنه الأعراف الدبلوماسية؟. كما أنه تحريض صريح على قلب نظام حكم دولة أخرى! وعلى كل فهو قد أتى بحزائيل حاكما على دمشق. ولا ندرى هل كان معروفا من قبل بسياسة مسالمة تجاه إسرائيل أم أن هذه المُسَالَمَة جاءت منه كعرفان جميل «بالنبوءة» التى كانت بمثابة دعم معنوى لحزائيل وللحزب الموالى لإسرائيل فى دمشق. وعلى العموم فإن هذا الفعل هو مثال لما سنراه فى المستقبل من ارتباط وثيق بين العمل النبوى والأمور السياسية بحيث يُصبح أنبياء بنى إسرائيل وكأنهم «بنبوءاتهم» هم الذين يصنعون التاريخ ويحرِّكون أحداثه.

٣ - مسح ملك إسرائيل المقبل :

كانت المهمة الثالثة التى كُلِّف بها إيليا عند جبل موسى هى مسح «ياهو بن نمشى» ملكا على إسرائيل بدلا من أخاب. وكانت الأحداث التى وقعت بعد ذلك. وما ارتكبه أخاب من ظلم ومخالفة للشريعة هى التى استوجبت عقابه بنزع الملك من أسرته. ولكن لما وبَّخه النبى إيليا على أفعاله ندم وتواضع لله فكان وعد الله أن لا ينزع الملك منه هو شخصياً بل يُنزع من ابنه ويتولى ياهو بن نمشى الحكم فى إسرائيل. وقد حدث ذلك فعلاً ولكن بعد وفاة إيليا. إذا آلت النبوة إلى أليشع الذى أرسل أحد الأنبياء الصغار الذين يعاونونه لكى يخبر ياهو بن نمشى - وهو أحد قواد جيش إسرائيل - بأن الرب قد اختاره ليكون ملكا لإسرائيل.

نعود الآن إلى أخاب لنرى كيف أنه - بتصرفاته - كان كمن يحفر قبره بيديه. ذلك أنه كان لرجل يدعى «نابوت» حقل كرم فى يزرعيل بجوار قصر أخاب وأراد الملك أن يستولى على الحقل ليضمه إلى قصره. وعرض على نابوت أن يعطيه حقلا بدله فى مكان آخر أو يعطيه ثمنه فضة. ولكن نابوت رفض بيع ميراث أجداده. وهنا تفتق ذهن إيزابل الملكة - زوجة أخاب - عن حيلة تأخذ بها حقل نابوت. فأوعزت لرجلين من أعوانها أن يشهدا زورا أن نابوت قد جدَّف على الله وعلى الملك. وذهب الشاهدان إلى شيوخ مدينة يزرعيل وشهدا ضد نابوت فأخرجوه خارج المدينة ورجموه بالحجارة حتى مات فأخبرت إيزابل أخاب بموت نابوت وطلبت منه أن يرث حقل نابوت. وهنا أمر الله إيليا أن يذهب للقاء أخاب ويوبخه وينذره بعقاب الرب هو وزوجته انتقاما لما اقترفاه فى حق نابوت (ملوك أول ٢١ : ١٧ - ٢٨). فقال إيليا لأخاب: «هكذا قال الرب: هل قتلتَ وورثتَ أيضا؟ فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضا». وعن إيزابل تكلم الرب وقال «إن الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل». ولما سمع أخاب هذا الكلام شق ثيابه ولبس مسحاً (ثوب خشن يلبسه الزاهد أو الراهب). فكان كلام الرب إلى إيليا قائلا: هل رأيت كيف اتضع أخاب أمامى. فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر (نزع الملك) فى أيامه. بل فى أيام ابنه أجلب الشر على بيته.

تحالف أخاب (ملك إسرائيل) مع يهو شافاط (ملك يهوذا) ضد أرام :

مرت ثلاث سنوات، وكانت العلاقات بين إسرائيل ويهوذا طيبة. وكانت هناك مصاهرة بين البيتين المالكين إذ زوّج «يهوشافاط» ملك يهوذا ابنه «يهورام» من «عثاليا» ابنة أخاب من زوجته إيزابل، وكان يهوشافاط فى زيارة لصهره ملك إسرائيل. وكانت المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن شمالى نهر يبوق وهى المنطقة المسماة «راموث جلعاد» من أرض إسرائيل ولكن الأراميين كانوا قد استولوا عليها وأراد أخاب أن يستردّها فقال ليهوشافاط (ملوك أول ٢٢:٤): «أتذهب معى للحرب إلى راموث جلعاد؟» فوعده يهوشافاط بالمساندة التامة وقال له «مثلى مثلك. شعبى كشعبك وخيلى كخيلك». ولكن يهوشافاط طلب من أخاب أن يتلمّس إرادة الإله فى هذا الشأن. فجمع أخاب ٤٠٠ من رجال الدين من أنحاء مملكته من كهنة البعل. وكانوا من مدّعى النبوة الذين يتلمّسون رضا الحاكم ويشيرون بما يوافق هواه. ولعل يهوشافاط ملك يهوذا – بما حباه الله من صدق فراسة – أدرك هذا فسأل أخاب عما إذا كان هناك «نبى للرب» ليسأله. فأخبره أنه يوجد نبى اسمه «ميخا» ولكنه لا يحبه لأن تنبؤاته دائما لا تتفق مع ما يهواه. فطلب يهوشافاط أن يُرسل إليه. فحضر ورأى أن الكهنة مدّعى النبوة كلهم قد أشاروا بالحرب حتى إن كبير الكهنة وهو المتكلم الرسمى عن الـ ٤٠٠ متنبىء صنع لنفسه قرنين من حديد وادّعى أن الرب قال له بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا. ولكن النبى ميخا أوضح له أن الحرب لن تكون فى صالحه بل ستكون فيها نهايته. فتقدم رئيس الجند وضرب ميخا على الفك وأمر أخاب أن يوضع النبى ميخا فى السجن وأن يُضيَّق عليه فى الطعام والشراب حتى يرجع بسلام من الحرب فقال له ميخا إن رجعت بسلام!

وسار أخاب ويهوشافاط بجيشيهما إلى راموث جلعاد لاستعادتها من أيدى الأراميين. وكانت تعليمات بنهدد إلى جنوده ألا يقاتلوا يهوشافاط ملك يهوذا. بل يحرصوا على قتل أخَاب ملك إسرائيل. وكان أخاب قد تنكّر فى زى جندى عادى حتى لا يكون هدفا للخصم. ولكنه مع هذا أصيب بجرح نافذ فطلب من قائد مركبته أن يخرج من المعركة حتى يضمّد جرحه. ولكن دمه سال غزيرا حتى لوّث المركبة ومات عند المساء. وانتهت المعركة بانهزام جيش أخاب وقُتل معظم رجاله فلم يجد يهوشافاط بُدًّا من العودة بجيشه إلى مملكته. وعاد من تبقى من جيش أخاب كلٌ إلى مدينته. وحُمل جثمان أخاب ودخلوا به إلى السامرة حيث دفن هناك. ولحست الكلاب دمه الذى كان على المركبة فكان هذا تصديقا لنبوءة إيليا النبى التى أنذره بها حين وبّخه على قتل نابوت واغتصاب حقله.

وتولى أخزيا بن أخاب الملك على إسرائيل فى السامرة. ولم يرد فى التوراة شيىء عن ميخا النبى بعد أن وضعه أخاب فى السجن وإن كان يوسيفيوس المؤرخ يرى أنه تم التخلص منه بوسيلة ما. ولعله أحد الأنبياء الذين قتلهم بنو إسرائيل وأشار إليهم القرآن الكريم فى قولة :

«أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم. ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون» . (٨٧ – البقرة).

إلياس عليه السلام وأخزيا بن أخاب :

بعد وفاة أخاب تولى ابنه أخزيا الحكم. وحدث أن سقط أخزيا مريضا فى بيته بالسامرة. فأرسل رسلا إلى مدينة عقرون الفلسطينية يطلب الشفاء من إلهها «بعل زبوب». فأوحى الله إلى إلياس أن يذهب لمقابلة رسل أخزيا ويوبِّخهم على أنهم لم يستنجدوا بالرب إله إسرائيل واستنجدوا بالبعل وأمرهم أن يعودوا إلى الملك ويخبروه «أن السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت» (٢ ملوك ١:٤). فأرسل أخزيا قائدا و ٥٠ جنديا القبض على إلياس ليعاقبه على نبوءته ضدَّه. فدعا عليهم إلياس فنزلت نار من السماء وقتلتهم. فأرسل أخزيا قائدا آخر ومعه ٥٠ جنديا آخرين فدعا عليهم إيليا فأكلتهم نار من عند الرب. فأرسل قائدا ثالثا و٥٠ جنديا ولما قابلوا إيليا استعطفه ورجاه ألا يدعو عليه فيهلك. فأمَّنه إيليا وطلب منه أن يعود إلى أخزيا ويعيد عليه ما حكم الله به عليه من موت جزاء أنه استعان بإله غير الله. ومات أخزيا بن أخاب وملك بعده يهورام أخوه عوضا عنه.

وفاة إلياس (إيليا) عليه السلام :

علم إيليا (إلياس) بعد أن مسح أليشع (اليسع) نبيا أن مهمته فى الأرض قد قاربت على الانتهاء ولم يرد أن يحضر أليشع وفاته فقال له: امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى بيت إيل. فقال أليشع: «حيٌ هو الرب وحيَّةٌ هى نفسك أنى لا أتركك». ونزلا إلى بيت إيل (٢ ملوك ٢:٢). ثم قال إيليا: «يا أليشع امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى لأريحا. فقال: حيٌ هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك». وذهبا إلى أريحا. ثم قال له إيليا: «امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى الأردن (أى شرق النهر). فقال حيٌ هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك وانطلقا كلاهما». فذهب ٥٠ رجلا من الكهنة ورجال الدين ووقفوا قبالتهما من بعيد. ووقف كلاهما بجانب الأردن. وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وإلى هناك فعبرا كلاهما فى اليبس (وهى معجزة تشبه معجزة شق البحر لموسى عليه السلام وليشوع بن نون عند أول دخول الأرض – ص ٢٣). فلما عبرا وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار فصلت بينهما فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء (٢ ملوك ٢ : ١٢). وعبر أليشع الأردن وعاد إلى أريحا. أما الخمسون رجلا فلم يصدِّقوا أن إيليا قد أُخِذ منهم لذلك راحوا يفتشون عنه فى الجبال والأودية فلم يجدوه فتيقنوا أنه قد رُفع إلى السماء. وإن كان القرآن الكريم قد ذكر أن من رفعوا من الأنبياء هم إدريس وعيسى عليهما السلام. ولكن هذا لا ينفى أن إلياس قد رفع أيضا وإن لم يرد ذكر ذلك فى القرآن الكريم.

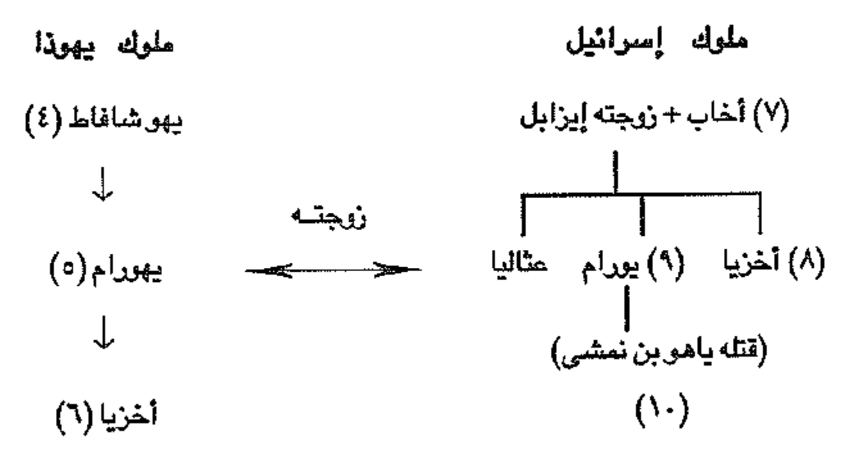
نتابع الآن ذكر ملوك المملكة الشمالية (إسرائيل) وكان آخر ملك ذكرناه هو أخاب بن عمرى (ص٢٥٢).

٨ – أخزيا بن أخاب .

وقد جاء ذكره فى الصفحة السابقة وحكم سنة واحدة. وبعد وفاته تولى أخوه يورام الحكم .

٩ – يورام بن أخاب .

ويورام اسم عبرى مكون من مقطعين «يو أو يهوه» وهو اسم الرب و«رام» بمعنى يعلو فيكون يورام أو يهورام معناه «الله يُعلِّى» أى «الذى يعليه الله» أو «عليُّ الله» كما نسمى «فضل الله». وكانت العلاقات بين البيتين المالكين فى إسرائيل ويهوذا طيبة حتى إن يهوشافاط ملك يهوذا سمَّى ابنه يهورام على اسم ملك إسرائيل وزوَّجه من «عثاليا» ابنة إيزابل. وسنرى أنه عن طريق هذه المصاهرة تسللت عبادة البعل إلى يهوذا. وعند الكلام على ملك إسرائيل سنذكره باسم «يورام» حتى لا يختلط الأمر مع «يهورام» زوج أخته ملك يهوذا.



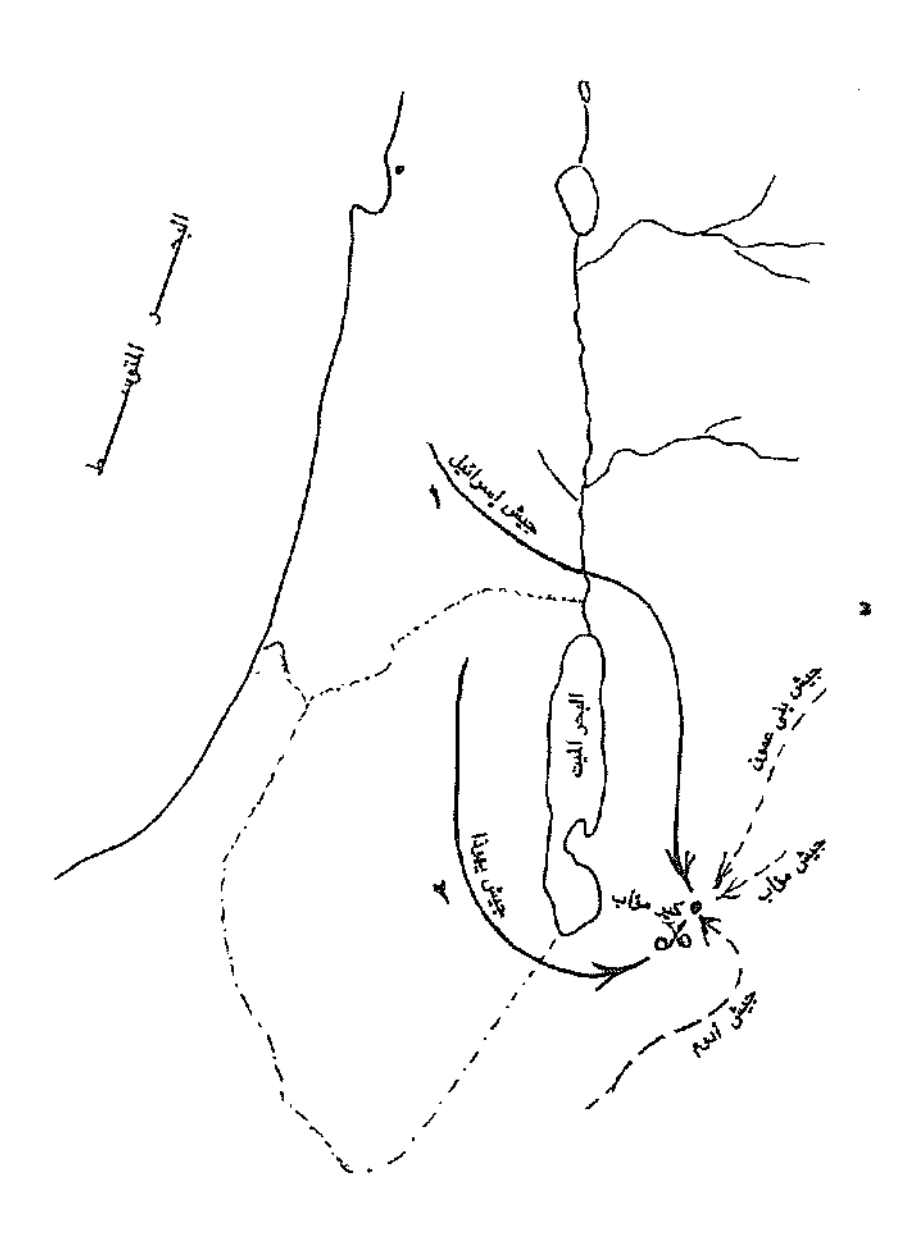
تولى يورام الملك فى إسرائيل بعد وفاة أخيه أخزيا وملك ٦ سنوات. وكان يورام أقل معصية من أبيه فأزال تمثال البعل الذى عمله أبوه. إلا أنه لم يستطع القضاء على كل مظاهر عبادة البعل فقد كانت والدته إيزابل لاتزال على قيد الحياة ولها من النفوذ ما مكَّنها من إبقاء معابد البعل منتشرة فى البلاد وكهنة البعل يسيطرون على عقول الشعب. واضطرَّ يورام إلى الإبقاء على تمثالى العجل فى السامرة.

تحالف يورام مع يهوشافاط ملك يهوذا ضد مؤاب :

سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢) أن عمرى - ملك إسرائيل - حارب المؤابيين وضم إليه الجزء الشمالى من بلادهم وفرض عليهم الجزية «١٠٠,٠٠٠ خروف و ١٠٠,٠٠٠ كبش بصوفها» ثم تذكر كتب التاريخ (الشرق الأدنى القديم. د. نجيب ميخائيل إبراهيم. جـ ٥ ص ٢٤٩) أنه بعد موت أخاب ملك إسرائيل تلقى «ميشع» ملك مؤاب أمرا من إلهه «كيموش» باسترداد أرضه التى فقدها. فاستولى على المدن التى كانت فى قبضة إسرائيل واحدة بعد الأخرى وذبح الآلاف من أهلها الإسرائيليين وحوَّل معابد يهوه إلى معابد لكيموش. واستمال إلى جانبه ملِكَىْ أدوم وبنى عمون وكوَّن الثلاثة حلفا ضد إسرائيل. ونوى يورام ملك إسرائيل حربهم وأرسل يستعين بحميه - يهوشافاط - ملك يهوذا - وسار يورام بجيشه ٧ أيام فى البرية ولم تكن هناك آبار ولا مطر. فأرسل يورام يستدعى أليشع عليه السلام ليدعو الله ويستسقى لهم. فقال له أليشع (٢ ملوك ٣:١٣): «مالى ولك. اذهب إلى أنبياء أبيك وأنبياء أمك (يقصد أنبياء البعل الذى تعبده أمه إيزابل) فقال له ملك إسرائيل كلا. فقال أليشع: حيٌّ هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه. إنه لولا أنى رافع وجه يهوشافاط ملك يهوذا لما كنت أنظر إليك ولا أراك» أى أنه لولا خاطر يهوشافاط (وكان ملوك يهوذا لايزالون مؤمنين لم يتسلل الضلال إليهم بعد) لما أعاره أى اهتمام. وتبرأ يورام من عبادة البعل فأخبره أليشع أن النصر سيكون حليفه. وسينزل مطر فيمتلىء الوادى فيشربون هم وبهائمهم فى حين يبقى المؤابيون بدون ماء. وكان يهوشافاط ملك يهوذا - لما استنجد به يورام ملك إسرائيل - قد قام بفتح جبهة ثانية للقتال (شكل ٥٢) إذ التف حول الطرف الجنوبى البحر الميت وهاجم مؤاب من الجنوب وكان جيش إسرائيل يهاجم من الشمال. ووقعت المعركة عند العاصمة «كير مؤاب». ولما اشتد الخناق على ملك مؤاب قدَّم ابنه ذبيحة على سور المدينة للصنم «كيموش» لكى ينصره. وألقى الله الخلاف بين الحلفاء الثلاثة فبدأوا يقتتلون فيما بينهم. إذ تحالف المؤابيون والعمونيون ضد الأدوميين وقتلوهم. ثم بدأ القتال بين المؤابيين والعمونيين. وتقدم بنو إسرائيل فأجهزوا على من تبقى من الفريقين وجمعوا الغنائم (تفسير الكتاب المقدس. أو نجر ص ٨٨٠) وأعادوا فرض الجزية على مؤاب وعادوا إلى بلادهم وعاد يهوشافاط إلى أرض يهوذا. وكان الواجب على يورام ملك إسرائيل أن يدرك أن هذا النصر المؤزر كان بتوفيق من الله سبحانه وتعالى ولاشتراك يهوشافاط المؤمن معه ودعوات النبى أليشع وكان الواجب عليه أن يستمر فى الطريق الذى بدأه فى أول سنى حكمه من تقليص عبادة البعل. ولكن يبدو أنه لم يستطع مجابهة نفوذ والدته إيزابل.

تحالف يورام مع أخزيا ملك يهوذا ضد أرام دمشق :

كانت الحرب سجالاً بين إسرائيل وأرام دمشق التى كان يحكمها فى ذلك الوقت «بنهدد»



شكل ٥٣ – حرب إسرائيل ويهوذا ضد مؤاب وأدوم وبنى عمون .

١ – جيش يورام (إسرائيل) يهاجم من الشمال.

٢ – جيش يهوشافاط (يهوذا) يهاجم من الجنوب .

وكان كلما تهيأ بنهدد بجيش للحرب أوحى الله إلى أليشع بخطة الحرب التى يُعِدُّها بنهدد فيبلغها إلى يورام الذى كان يتخذ خطة مضادة فينتصر. وفى إحدى المعارك كان انتصار يورام ساحقا. ولكن أليشع نهاه عن سفك دماء أعدائه (٢ ملوك ٦:٨ – ٢٣). وفى جولة أخرى من الحرب بين الدولتين نجح بنهدد فى الدخول إلى أرض إسرائيل وحاصر السامرة. فاستدعى يورام أليشع ولامه على نصيحته السابقة بعدم قتل الأراميين وكان غضبه على أليشع شديدا حتى أنه أراد قتله غير أنه عدل عن ذلك لأن أليشع أخبره أن المدينة ستنجو (٢ ملوك ٦:٢٤). ذلك أن الأراميين تعرضوا لهجوم من الأشوريين عليهم من جهة الشرق فاضطروا لفك حصار السامرة والعودة بجيوشهم لمجابهة هذا الخطر الجديد. وطلب يورام المدد من أخزيا – ملك يهوذا – وهو ابن أخته عثاليا زوجة يهورام. وحارب الاثنان معا الأراميين وتم استرجاع راموث جلعاد لإسرائيل من بنهدد إلاَّ أن يورام جرح فى المعركة فعاد إلى يزرعيل (٢ ملوك ٨:٢٨). وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٦٠) أن المهمة الثانية التى كُلِّف بها إيليا النبى – عند جبل موسى – كانت مسح «ياهو بن نمشى» ليملك على إسرائيل فى المستقبل. وتوفى إيليا قبل إتمام هذه المهمة كما أن الله سبحانه وتعالى لما رأى تواضع أخاب وعده بعدم نزع الملك منه شخصيا بل من أحد أبنائه. وتولى أخزيا العرش ثم توفى فتولى الملك أخوه يورام. وحارب أرام كما ذكرنا آنفا وجرح فى المعركة لاستعادة راموث جلعاد. وأرسل أليشع أحد رجال الدين من أعوانه وطلب منه أن يذهب إلى راموث جلعاد ويقابل «ياهو بن نمشى» وهو أحد قواد الجيش «ويصب الدهن على رأسه ويقول له: هكذا قال الرب. قد مسحتك ملكا على إسرائيل فتضرب بيت أخاب سيدك وانتقم لدماء عبيدى الأنبياء ودماء جميع عباد الرب من يد إيزابل فيبيد كل بيت أخاب وتأكل الكلاب إيزابل فى حقل يزرعيل وليس من يدفنها». وفعل رجل الدين كما أمره أليشع.

وكان يورام قد رجع من راموث جلعاد إلى يزرعيل يستشفى فيها من الجروح التى أصابته فى المعركة مع الأراميين وعلم بقدوم ياهو بن نمشى مع جند كثير فتوجَّس شرا. فركب مركبته وقاد الجند الذين معه وكان اللقاء مع ياهو عند حقل نابوت اليزرعيلى. وتقول التوراة (٢ ملوك ١٦:١) إن يورام لما رأى ياهو سأله إن كان قادما فى سلام. فرد عليه ياهو ما معناه أى سلام وأمُّك تعيث فى الأرض فسادا وتنشر عبادة البعل؟ فاستدار يورام ليهرب وحذَّر أخزيا (ملك يهوذا – ابن أخته – وحليفه فى حرب الأراميين) ليهرب هو الآخر. ولكن ياهو سدد قوسه إلى يورام وضربه بسهم نفذ من ضلوعه إلى قلبه فسقط فى مركبته. فقال لعبيده ألقوه فى حقل نابوت اليزرعيلى. أما أخزيا ملك يهوذا فقد هرب، وطارده جنود ياهو فلحقوه عند مجدُّو وقتلوه فحمله أعوانه إلى أورشليم. ثم دخل ياهو بن نمشى يزرعيل. ولما سمعت بذلك إيزابل – والدة يورام – تزينت فى محاولة للفت نظر ياهو إلى جمالها وإغوائه حتى لا يقتلها. ولكنه أمر غلمانه بأن يطرحوها من شباك القصر فسقطت فى حقل نابوت الذى كانت قد ضمته إلى القصر. بعد

ذلك دخل ياهو القصر منتصرا وأكل وشرب. ثم تذكر وقال: ادفنوا هذه الملعونة لأنها بنت ملك. ولما مضوا ليدفنوها لم يجدوا إلا الجمجمة والرجلين وكفَّيْ اليدين. فرجعوا إلى ياهو وأخبروه فقال: «إنه كلام الرب الذى تكلم به عن عبده إيليا قائلا: فى حقل يزرعيل تأكل الكلاب لحم إيزابل وتكون جثة إيزابل كَدِمْنَة على وجه الحقل فى يزرعيل» (٢ ملوك ٩: ٢٥ – الدِّمنة هى المزبلة المعجم الوسيط ، جـ ١ ، ص ٢٩٧).

١٠ – يا هو بن نمشى

تولى ياهو بن نمشى مُلك إسرائيل بعد أن قتل يورام بن أخاب وإيزابل وأرسل جندا إلى السامرة وقتل كل الذين بقوا من أسرة أخاب. وكانوا ٧٠ رجلا وقتل كل عظمائه وكل من عرف بالولاء له. ثم قتل كهنة البعل (٨٠ رجلا) واستأصل عبادة البعل من إسرائيل وقتل جنودُه أيضا أفراد عائلة أخزيا ملك يهوذا الذين كانوا قد حضروا معه إلى السامرة وبلغوا ٤٢ رجلا. ولكى يتمكن من قتل جميع عَبَدة البعل فى المدن الأخرى لجأ ياهو إلى الحيلة. إذ تظاهر أنه يُعظِّم البعل مثل آخاب بل وأكثر منه وأعلن أنه قدَّم ذبائح عظيمة للبعل. ودعا إليها كل كهنة البعل وعَبَدته من جميع أنحاء إسرائيل. فأتوا جميعا حتى امتلأ بهم معبد البعل ودخلوا ليقربوا ذبائح هم أيضا فأمر جنوده بقتلهم جميعا. وأخرجوا تماثيل البعل وأحرقوها وكسروا التمثال الكبير وهدموا بيت البعل وحرقوه بالنار. وتقول التوراة: (٢ ملوك ١٠ : ٣٠): وقال الرب لياهو: من أجل أنك قد أحسنت بعمل ما هو مستقيم فى عينىَّ، وحسب كل ما بقلبى فعلت ببيت أخاب فأبناؤك إلى الجيل الرابع يجلسون على كرسى إسرائيل.ثم إن ياهو شجَّع نشاط جماعة من الزهَّاد كانوا يدعون إلى الأخلاق الكريمة وتجنب الخمر ويدعون إلى السكنى فى الخيام والبعد عن ترف الحياة. واستعان ياهو بهم فى مطاردة وقتل كل من بقى من عُبَّاد البعل. ولكن ياهو لم يستكمل إصلاحاته الدينية بحيث تشمل كل مظاهر الوثنية التى تسللت إلى إسرائيل. لذلك أبقى على عجول الذهب التى أدخلها يربعام فى المعبد فى بيت إيل وفى دان. ولعله رأى إرجاء ذلك إلى وقت لاحق حتى لا يعادى الجميع فى وقت واحد فيتَّحدوا ضده.

سياسة ياهو الخارجية : لم يستوعب ياهو أن سوريا ممكن أن تقوم بدور «دولة حاجزة» بين إسرائيل ودولة أشور الصاعدة وكان الواجب عليه مساندة الدويلات السورية ضد التوسع الأشورى. ففى العام الأول من حكم ياهو قاد شلمناصر الثالث ملك أشور حملة موفقة ضد الدويلات السورية ومن بينها دمشق ووصل إلى شاطىء البحر المتوسط وتسلم الجزية من مدن الساحل الفينيقى مثل صور وصيدا. ولم يساعد ياهو أيا من هذه الدويلات بل أظهر الخضوع للملك الأشورى كما هو ثابت فى رسم على «المسلة السوداء» المحفوظة بالمتحف البريطانى التى

تُصوِّر ياهو راكعا أمام شلمناصر فى ذلة وخضوع ويدفع الجزية على هيئة أوانى من الفضة والذهب.

وقد ساءت العلاقات بين ياهو و«صور» بعد أن قتل إيزابل ابنة ملكها وبالتالى ساءت العلاقات مع كل المدن الفينيقية. كذلك فقد عادته مملكة يهوذ لقتله أخزيا ملكها. هكذا وجد ياهو نفسه وحيدا فى الميدان فاتجه إلى أشور يطلب عونها أو حمايتها. ولكن أشور كانت فى ذلك الوقت تؤجل تطلعاتها فى الجبهة الغربية نظرا لقلاقل على حدودها الشرقية فبدأت دمشق تستعيد أنفاسها واستولت على أرض إسرائيل الواقعة شرقى نهر الأردن (شكل ٥٤) ودمَّروا جلعاد وبقروا بطون الحوامل هناك (عاموس ١:١٣).

وتوفى ياهو ودفن فى السامرة بعد أن خسرت إسرائيل حوالى ثلث مساحتها.

١١ - يهو أحاز بن ياهو بن نمشى.

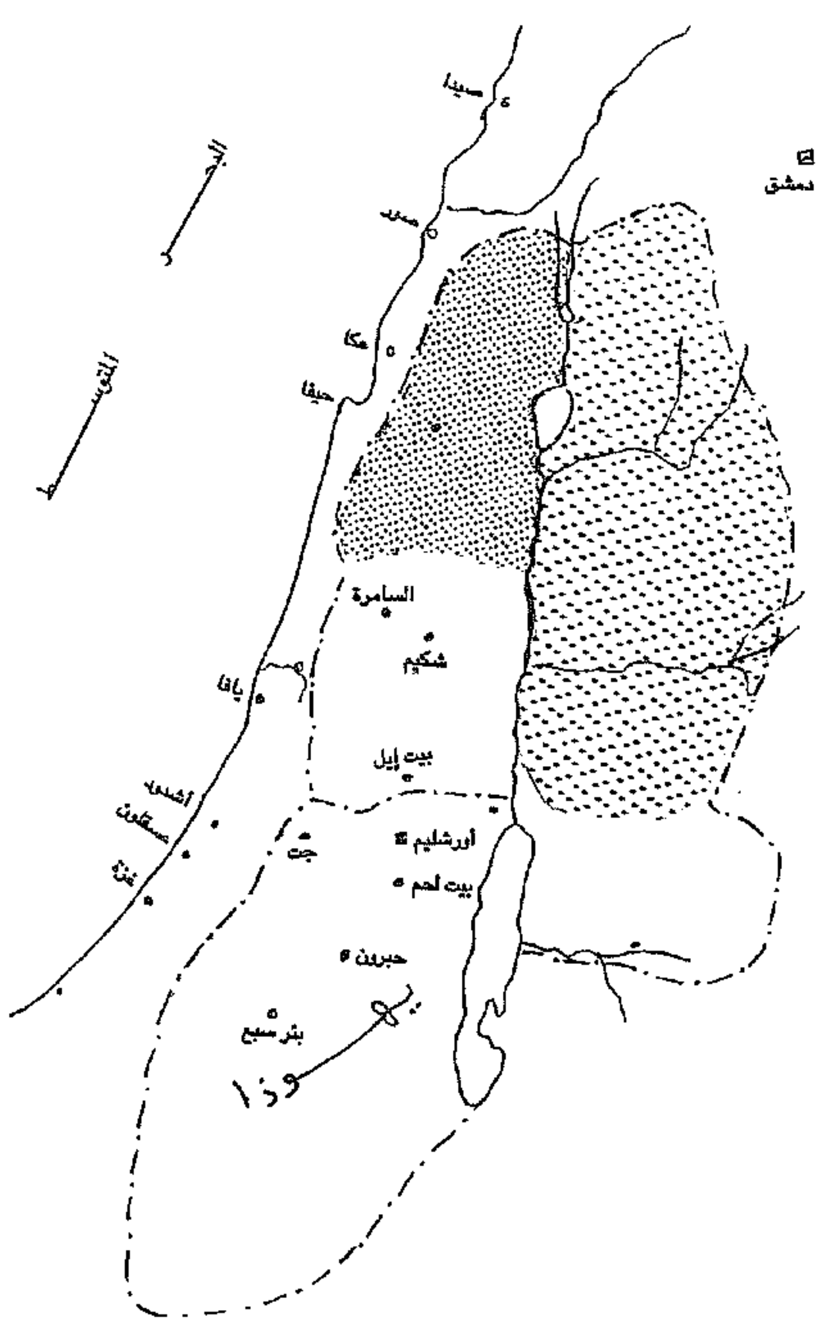
ملك «يهو أحاز» على إسرائيل بعد وفاة والده «ياهو بن نمشى» وأقام فى السامرة وسار فى طريق الشر فسلَّط الله عليه حزائيل ملك دمشق فاستولى على أجزاء كبيرة من أرض إسرائيل غرب نهر الأردن بعد أن قتل الجزء الأكبر من جيش يهوآحاز ولم يبق من جنده إلا ١٠,٠٠٠ مقابل و ٥٠ فارسا و ١٠ مركبات. فتضرع إلى الله وتاب وأقلع عن عبادة الأوثان قبل أن يتوفى.

١٢ - يهوآش (يوآش) بن يهو أحاز.

ملك «يهوآش» على إسرائيل بعد موت أبيه واتخذ من السامرة عاصمة له. وكان يكِنُّ تقديرا عظيما للنبى أليشع ولكنه لم يتمكن من القضاء على عبادة العجل التى أدخلها يربعام.

العداء بين إسرائيل ويهوذا :

قلنا إن ياهو بن نمشى قتل يورام بن أخاب ملك إسرائيل (ص ٢٦٩). ثم تعقب أخزيا ملك يهوذا فلحقه عند مجدو وقتله ثم بعد ذلك قتل أفراد عائلته الذين كانوا معه ومن هنا ولد العداء بين إسرائيل ويهوذا وتنامى هذا العداء حتى وصل إلى حد الحرب بين المملكتين الشقيقتين. ولتأمين ظهره فإن يوآش وضع حدا للنزاع الطويل والعداء المستحكم مع آرام دمشق. وكان الأراميون أنفسهم راغبين فى مثل هذا السلام إذ كان الضغط الأشورى يزداد عليهم من جهة الشرق. لذلك فإن السلام مع إسرائيل تضمَّن استرداد يهوآش للأراضى التى فقدها والده



شكل ٥٤ – الأراضى التى فقدتها مملكة إسرائيل .
أراضى شرق الأردن استولى عليها حزائيل من ياهو بن نمشى .
أراضى غرب الأردن استولى عليها حزائيل من يهو أحاز .

يهوأحاز فى غرب الأردن والأراضى التى فقدها جده (ياهو بن نمشى) فى شرق الأردن وهى أرض باشان وجلعاد وبذلك أمَّن ظهره إذ استتب السلام بينه وبين أرام دمشق. بعد ذلك بدأ يوآش يجهز للحرب مع يهوذا وكان يحكمها الملك أمصيا. فتوغل فى أرضه ودارت معركة عند بيت شميس - وهى المعروفة حاليا بـ «تل الرميلة أو عين شمس» على بعد ٣٠كم جنوب غرب أورشليم - وتقول التوراة (٢ ملوك ١٤:٨) «وانتصر يوآش وأخذ الذهب والفضة الموجودة فى بيت الرب فى أورشليم وفى خزائن بيت الملك». وأخذ رهائن من البيت المالك والأمراء إلى السامرة ضمانا لعدم إثارة المتاعب فى المستقبل. وهدم جزءا كبيرا من أسوار أورشليم.

واتقاء للحرب مع أشور ولمعرفته بإنه لا قِبَلَ له بمقاومتها. فإن يوآش ارتضى طواعية دفع الجزية لملكها. ثم مات بعد أن حكم ١٦ سنة ودفن فى السامرة.

١٣ - يربعام الثانى بن يوآش .

تولى يربعام الثانى الملك فى إسرائيل بعد وفاة والده يوآش وظل يحكم لمدة ٤٠ عاما كانت فى مجملها سنوات هدوء إذ كانت أشور فى شغل بأمورها الداخلية. والسلام مع أرام دمشق مستتب بعد أن استعاد والده الأراضى التى كان الأراميون قد استولوا عليها. أما من الناحية الدينية فإن عبادة البعل كان قد قضى عليها تماما إلا أن عبادة العجول الذهبية التى أدخلها يربعام الأول بدأت تمتزج بعبادة الرب «يهوه» فلم تكن ما سماه البعض «صحوة دينية» توحيدا خالصا بل كانت مزجا بين العبادتين. وظهر فى ذلك الوقت نبى اسمه «عاموس» راح يندِّد بأفعالهم وقال لهم على لسان الرب (عاموس ٥ : ٢٢): «بغضت وكرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافاتكم. إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى..». وهو ما سنذكره بتفصيل أكثر عند ذكر سيرة هذا النبى (ص ٢٨١). وقد صاحب هذا الضلال الدينى انحطاط خلقى. وراح عاموس النبى يُندِّد بالملك والأمراء الذين يملكون قصورا شتوية وأخرى صيفية مزينة بالعاج والأبنوس فى حين تجاورها بيوت خشنة للفقراء (عاموس ٣ : ١٥) كما راح يقارن بين الأغنياء الذين يأكلون الخراف والعجول ويشربون الخمر على أصوات الرباب ويتطيبون بأفضل أنواع الطيب ولكن هذه الرفاهية وصلوا إليها بالظلم والاغتصاب لتعب الفقراء والمساكين وبالغش فى التجارة والموازين وأخذ الرشوة فيقول: «رؤساء متمردون وشركاء اللصوص كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا. لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم» وهو هنا يندد بالقضاة الذين يظلمون اليتيم والأرملة لأنهم لا يقدِّمون رشاوى ولا هدايا. ومن كل هذه المظالم تحول الفلاحون إلى أُجَراء وعبيد فى أراضيهم التى استولى عليها الكبار. وهكذا عمَّ الفساد كل شيء مما ينذر بانهيار الدولة ذاتها.

١٤ - زكريا بن يربعام .

ملك بعد موت أبيه ولكن مدة حكمه لم تزد عن ٦ شهور إذ قام عليه شلُّوم بن يابيش وقتله وملك عوضا عنه فى السامرة (٢ ملوك ١٥ : ٩). وهكذا انتهت أسرة ياهو بن نمشى بعد أن حكم منها أربعة أجيال حسب ما قال الرب (ص ٢٧٠).

بدأت المرحلة الأخيرة من حياة مملكة إسرائيل الشمالية. تولى فيها الملك ٤ ملوك حكموا مدة عشرين عاما انتهت باجتياح أشور للسامرة. ولكن نرجىء الكلام عن هذه المرحلة إلى ما بعد الكلام عن النبى أليشع (اليسع) بتفصيل أكثر وكذلك ذكر أربعة أنبياء آخرين: يونان (يونس) الذى كان مرسلا إلى أهل نينوى عاصمة أشور يحذِّرهم من غضب الله عليهم للشرور والظلم والفساد المنغمسين فيه. وثلاثة هم: عاموس وناحوم وهوشع. وهؤلاء كانت نبوتهم تتلخَّص فى التحذير من خراب وشيك الوقوع بإسرائيل بسبب البعد عن الرب والظلم السائد فى المجتمع ودعوة إلى العودة إلى تعاليم الشريعة عسى الله أن يخفف منْ وقع البلاء القادم.

الفصل الثانى عشر

خمسة أنبياء

١ – أليشع = اليسع .
٢ – عاموس .
٣ – يونان = يونس .
٤ – ناحوم .
٥ – هوشع .

١ – اليسع عليه السلام = أليشع Elisha

جاء ذكره فى القرآن الكريم مرتين :

« **واسماعيل واليسع ويونس ولوطا، وكلاً فضلنا على العالمين»** . (٨٦ – الانعام).

«**واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكلٌ من الأخيار**» (٤٨ – ص) .

وأليشع اسم عبرى معناه «الله خلاص» وهو خليفة إيليا (إلياس) فى العمل النبوى. وقد ذكرنا سابقا (ص ٢٦٠) أنه كان يقيم فى «أبل محولة» ووجده إيليا (إلياس) يحرث فى حقل أبيه فطرح عليه رداءه تعبيرا عن اختياره للعمل النبوى. وعندما ذهب إلياس إلى ما وراء الأردن (شرق الأردن) ليرفع إلى السماء (ص ٢٦٥) ذهب معه اليشع وأخذ رداءه الذى سقط منه عند رفعه. ثم عبر أليشع النهر عائدا إلى الضفة الغربية (٢ ملوك ٢:١) وكان أليشع يرتدى ملابس عادية ويحمل معه عكازا. وكان له بيت خاص فى السامرة. وكان له فتى اسمه «جيحزى» يرافقه فى روحاته وسفرياته يخدمه وينفّذ ما يطلبه منه. وقد أتى أليشع بمعجزات كثيرة ليثبت للشعب أن الرب هو الإله الواحد وهو قادر على كل شيىء وهو الوحيد الجدير بالعبادة.

مسيرة اليسع ومعجزاته :

١ – **مياه أريحا** : بعد عودته من شرق الأردن أقام أليشع فترة فى أريحا. واشتكى سكان المدينة من عفونة المياه التى يشربون منها. فاستفتح أليشع باسم الرب وألقى فى العين بعضا من الملح فصار ماؤها عذبا.

٢ - جزاء السخرية بنبي الله :

ترك أليشع أريحا وذهب إلى بيت إيل، وهناك أغرى بعض الوثنيين أبناءهم الصغار على السخرية من أليشع. فكانوا يتبعونه صائحين: «اذهب اذهب يا أصلع الرأس». وكان الاستهزاء بنبي الرب كأنه استهزاء بالرب نفسه. فخرجت من الغابة المجاورة دبتان هاجمتا الأولاد وجرحتهم ومات بعضهم متأثرا بجراحه. فأيقن أهل البلدة أن أليشع مؤيد من السماء. بعد ذلك عاد أليشع إلى بيته في السامرة.

٣ - معجزة الاستسقاء :

سبق أن ذكرنا (ص٢٦٧) تحالف يورام ملك إسرائيل مع حميه يهوشافاط ملك يهوذا لمجابهة التحالف الثلاثي المكون من مؤاب وبني عمون والأدوميين. وكان نقص الماء شديدا حتى أوشك الجميع على الهلاك عطشا فلجأوا إلى أليشع وطلبوا منه أن يدعو الله أن ينزل المطر. ففعل ونزل المطر وامتلأت الآبار فشرب بنو إسرائيل وطمروا الآبار التي يستقي منها الأعداء. وكان لهم النصر كما سبق ذكره.

٤ - معجزة جرة الزيت :

وفي طريق سيره مر ببلدة يزرعيل وهناك لقي أرملة أحد رجال الدين وكان لها ولدان. وكان عليها دَيْن لم تستطع الوفاء به وكان القانون يقضي بأخذ أولادها منها وبيعهم لتسديد دينها. ولما كانت في أقصى درجات اليأس فإنها لجأت إلى اليسع عليه السلام. ولما حكت له مشكلتها سألها عما تمتلكه من متاع فلم يجد في بيتها إلا جرة زيت فطلب منها أن تستعير أقصى ما تستطيع من جرار الزيت الفارغة من جاراتها. وأمسك بجرتها وسكب منها زيتا حتى ملأ الجرار التي استعارتها وتقاضت من أصحابها ثمن الزيت وسددت دينها.

٥ - المرأة الشونمية :

لما وصل إلى بلدة شونم (١٥ كم شرقي مجدو) أكرمته امرأة شونمية غنية. وكانت مؤمنة بالله. ولما كانت ترغب في استضافته كلما مر بالبلدة فإنها خصصت له الحجرة العلوية من دارها. ودائما تكون علِّية الدار هي أفضل الحجرات. وكان أليشع ممتنا لهذا الكرم فطلب منها إن كان لها حاجة عند الملك أو رئيس جنده ليقضيها لها. ولكنها أخبرته أنها لا ينقصها شيء. ولكن أحد جيرانها لفت نظر أليشع إلى أن المرأة وزوجها لم يرزقا بالولد فبشرها بأنها بعد فترة وجيزة ستحمل وتضع ولدا. ومرت الأيام وتحققت البشرى وكبر الغلام وبينما هو ذاهب إلى أبيه في الحقل أصيب بضربة شمس ومات ووضعت الأم جثمان ابنها على سرير أليشع وأسرعت تبحث عنه حتى وجدته في الكرمل وأخبرته بمصابها فأسرع عائدا معها. وأغلق على نفسه الحجرة مع جثمان ابنها وراح يدعو الله ويصلي واستجاب الله لدعائه وتضرعاته فعادت الحياة للولد.

٦ – معجزة العشب السام :

كان أليشع فى الجلجال وكان الناس فى مجاعة لا يجدون ما يأكلونه سوى الأعشاب البرِّية بعد سلقها . وكان بعض الرجال قد وضعوا قدرا كبيرا به ماء على النار. وألقوا فيه بملء شوال من الأعشاب البرية لسلقها وأكلها . ولما بدأوا يأكلون شعروا بطعم غريب ينبىء بوجود عشب سام بينها . فألقى أليشع بعض الأعشاب فى القدر وتلى اسم الرب فزال الطعم الغريب. وأكل الناس ولم يضاروا بشيىء.

٧ – إطعام مائة شخص :

وفى الجلجال أيضا أحضروا إلى أليشع هدية عبارة عن باكورة انتاج فواكه وعشرين رغيفا من الشعير. فاستفتح أليشع باسم الرب فأشبعت هذه الكمية ما يزيد عن مائة شخص.

٨ – شفاء الأبرص :

كان قائد الجيش السورى (واسمه نعمان) قد أصيب بالبرص. فأرسل ملك دمشق (بنهدد) رسلا إلى يهوآش ملك إسرائيل طالبا منه شفاء قائد جيشه وأرسل معه هدايا كثيرة من الذهب والفضة و ١٠ ثياب. وكان هدف بنهدد هو إحراج ملك إسرائيل حيث أن البرص مرض ليس له علاج معروف. ولما سمع أليشع بهذا الأمر طلب أن يُرسَلَ له قائد الجيش. وأمره أليشع أن يغتسل ٧ مرات فى نهر الأردن فشفِي. ورفض أليشع قبول الهدايا التى أحضرها معه فعاد إلى بلاده معترفا بفضل إله إسرائيل وقدرته.

٩ – جزاء الكذب على نبى الله ومخالفة أمره :

لما رأى جيحزى – غلام أليشع – أن سيده لم يأخذ الهدايا طمع هو فى أخذ جزء منها فجرى وراء قائد الجيش السورى ولحق به وادعى كذبا أن أليشع هو الذى أرسله طالبا وزنتى فضة وحلتى ثياب لاثنين من أتباعه فأعطاه قائد الجيش ما طلب. فأخذهما جيحزى وخبَّأهما بداره ورجع إلى أليشع. وكان الله قد أعلمه بما فعله غلامه (٢ ملك ٥:٢٥) فقال له أليشع: «من أين يا جيحزى؟ فقال: لم يذهب عبدك إلى هنا أو هناك. فقال له: ألم يذهب قلبى حين رجع الرجل من مركبته للقائك؟ أهو وقت لأخذ الفضة ولأخذ الثياب؟ فبَرَصُ نعمان يلصق بك وبنسلك إلى الأبد. فخرج من أمامه أبرص كالثلج».

١٠ – معجزة طفو الحديد :

وكان بعض رجال الدين يقيمون فى موضع وضاق بهم المكان فقرروا الذهاب إلى مكان أوسع على شاطىء الأردن. وطلبوا من أليشع الذهاب معهم ليبارك لهم المكان الجديد. وبينما أحدهم يقطع شجرة إذ طار حديد البلطة ووقع فى الماء فصرخ الرجل لأن البلطة لم تكن ملكا له

بل استعارها من جار له واستنجد بأليشع الذى قطع عودا من النبات وألقاه فى الماء. فغاص فى الماء ثم طفا وقد علق به حديد البلطة فأمر أليشع الرجل أن يأخذه بيده (٢ ملوك ٦:٧).

١١ – الإيقاع بالجنود الآراميين :

ذكرنا فى أكثر من موضوع سابق العداء بين الآراميين – وأرام دمشق بالذات – وإسرائيل، والحروب الكثيرة التى كانت بينهما. وفى أيام أليشع كانت خطط الآراميين الحربية، مهما كانت تحاط بالسرِّية – كان الله يُطلع أليشع عليها وهو بدوره يخبر ملك إسرائيل ليأخذ حذره ويضع خطة مضادة فتضيع على أرام فرصة النصر. وتكرر هذا الأمر عدة مرات. وشك ملك أرام أن هناك خائنا من رجاله يطلع إسرائيل على خططه فنفى رجاله ذلك وقالوا له «ولكن أليشع النبى الذى فى إسرائيل يخبر ملك إسرائيل بالأمور التى تتكلم بها فى مخدع مضجعك. فقال اذهبوا وانظروا أين هو فأُرسِل وآخذُه. فقيل له هو ذا فى دوثان. فأرسَلَ إلى هناك خيلا ومركبات وجيشا كبيرا وجاءوا ليلا وأحاطوا بالمدينة. وكان خادمه هو أول من لاحظ هذه الحشود حول المدينة وحول الدار. وأدرك الخطر المحيق بسيده ولفت نظره إليه فطمأنه أليشع وقال (٢ ملوك ٦:١٣): لا تخف لأن الذى معنا أكثر من الذى معهم. وصلَّى أليشع وقال يارب افتح عينيه فيبصر فرأى الغلام الجبل وقد امتلأ بحراس من الملائكة. ولما نزل جنود أرام وأحاطوا بالبيت صلَّى أليشع وطلب من الله أن يُغشِيَ أبصارهم. فصاروا كالمنوَّمين مغناطيسيا. فخرج إليهم أليشع وقال لهم: ليست هذه هى الطريق وليست هذه هى المدينة. اتبعونى فأسير بكم إلى الرجل الذى تفتشون عليه. فسار بهم إلى السامرة ولما زالت الغشاوة عنهم وجدوا أنفسهم وسط جنود الملك فى السامرة. وكان الملك راغبا فى قتلهم وسأل أليشع: هل أضرب. هل أضرب يا أبى؟ فقال: لا تضرب. تضرب الذين سبيتهم بسيفك وبقوسك. ضع خبزا وماء أمامهم فيأكلوا ويشربوا ثم ينطلقوا إلى سيدهم. فأولم لهم الملك وليمة عظيمة فأكلوا وشربوا ثم أطلقهم فانطلقوا إلى بلادهم. وقد أثار بعض مفسرى التوراة نقاشا حول مصداقية تصرف أليشع وخديعته للجنود الآراميين وقال بعضهم إن قوله لم يتعد الحقيقة لأن بيت أليشع الأساسى كان فى السامرة. ومانراه هو أن هذا التصرف كان لإظهار مقدرة ربه وتمكُّنه من الإيقاع بهم ولكنه رب رحيم فلم يسمح للملك بضرب أعناقهم. ولعل هذا العفو عند المقدرة جعلهم يلهجون بالثناء على أليشع وعلى ربه. ونقلوا هذه الصورة إلى ملكهم. ولكن بنهدد خشى من تزايد الشعور الموالى لإسرائيل بين جنوده وأفراد شعبه فقرر حصار السامرة.

١٢ – حصار السامرة والمجاعة :

وكان أن بنهدد ملك أرام جمع كل جيشه وحاصر السامرة (٢ ملوك ٦ : ٢٤) حتى بلغ الجوع أقصاه فى المدينة. وصب ملك إسرائيل غضبه على أليشع لأنه أشار باطلاق سراح الجنود

الأراميين الذين كانوا في متناول يده ولم يسمح بقتلهم فكانوا قوة لبنهدد في حصارهم. كما أنهم بعودتهم سالمين أخبروا بنهدد بمعلومات عن تحصين المدينة أفادته في الحصار. وعزم يهورام ملك إسرائيل على قتل أليشع. وأرسل رجلا لتنفيذ أمر القتل. وأخبر الرب أليشع بذلك وكان أليشع جالسا وسط بعض من شيوخ إسرائيل فأخبرهم بأن الملك أرسل رجلا ليقتله وطلب منهم ألا يُدخلوه لأن الملك بنفسه قادم ليستوثق من تنفيذ أمره بقطع رأس أليشع. فلما جاء الملك قال أليشع: اسمعوا كلام الرب. هكذا قال الرب. في مثل هذا الوقت غداً تكون كيلة الدقيق بشاقل وكيلتا الشعير بشاقل في باب السامرة. أي أن الحصار سيرفع ويأتي الزاد بحيث ترخص الأسعار. وكان أحد جنود الملك يرتكن إلى باب الحجرة فقال هازئا: أيفتح بوابات من السماء؟ فقال له أليشع. إنك ترى بعينيك ولكن لا تأكل منه.

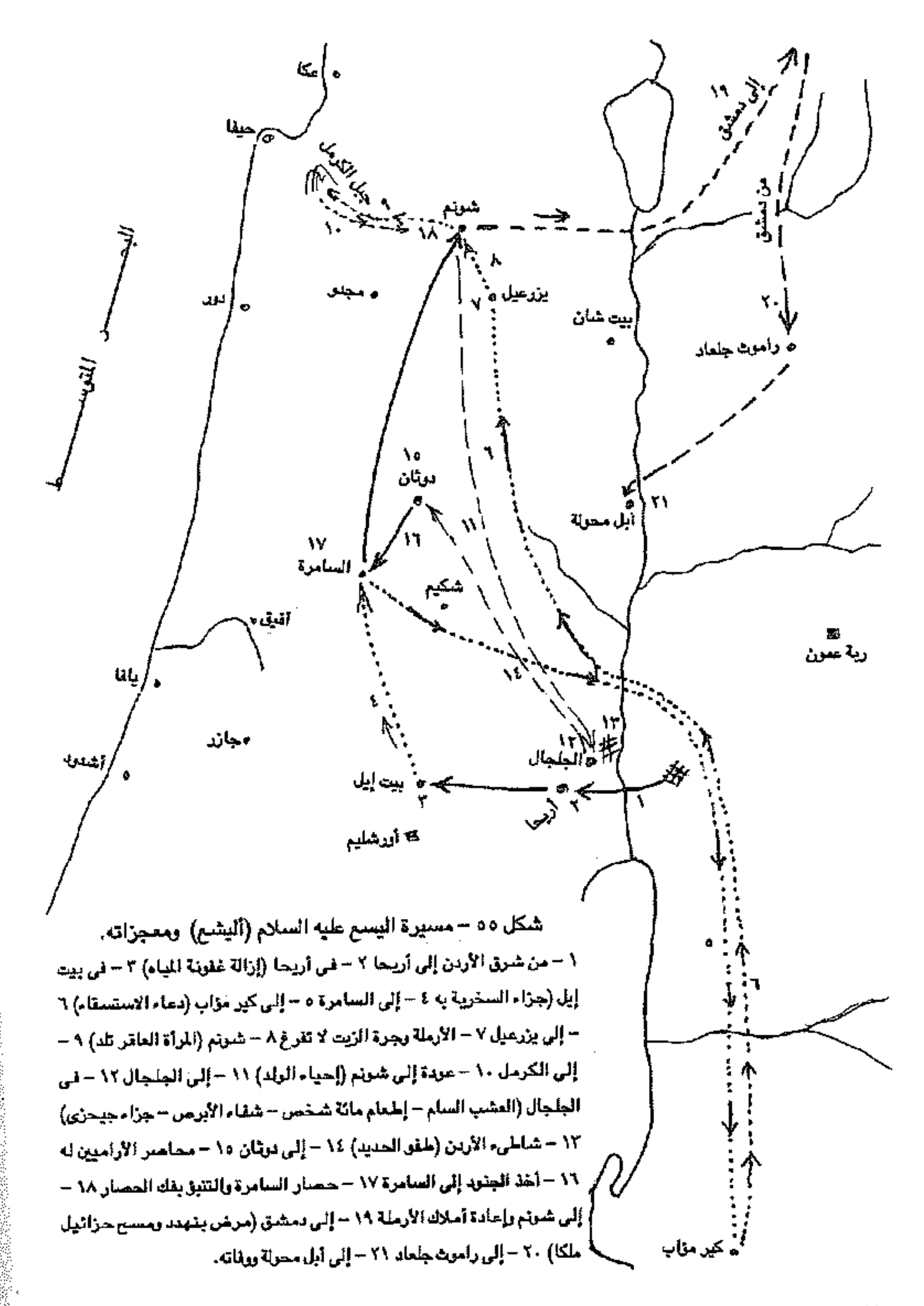
وفي الصباح وجدوا معسكر الأراميين مهجورا إذ تركه الجنود وهربوا. ذلك أن الله أسمع بنهدد وجنوده صوت خيل ومركبات كثيرة من كل ناحية. وكما تقول التوراة (٢ ملوك ٧:٧) «فقال الواحد لأخيه. هوذا ملك إسرائيل قد استأجر ضدنا ملوك الحيثيين وملوك المصريين ليأتوا علينا. فقاموا وهربوا في العشاء وتركوا خيامهم وخيلهم وحميرهم في المحلة كما هي». وهكذا خلَّص الله السامرة من الحصار. أما الجندي الذي لم يُصدِّق كلام الرب وهزأ بكلام أليشع فقد داسته جموع الجياع المحاصرين والذين اندفعوا عبر بوابة المدينة قاصدين خيام الأراميين المهجورة ليأخذوا مابها من زاد كثير وكان واقفا مستندا على البوابة فداسوه حتى مات وبهذا تحقق وعيد أليشع «ولكن لا تأكل منه». ومن كثرة الزاد انخفضت أسعار الدقيق والشعير كما تكلم أليشع.

١٣ - أملاك المرأة الشونمية تعود لها :

في وقت لاحق أخبر الرب أليشع بمجاعة تعم المنطقة. وحفظا لجميل المرأة الشونمية التي أكرمته وهيَّأت له علِّية بمسكنها رأى أن يخبرها بما سيحدث حتى تتدبَّر أمرها. فتركت دارها ولجأت إلى أقارب لها بساحل البحر حيث الأمطار متوافرة وبقيت هناك ٧ سنوات حتى انتهت المجاعة ولما عادت إلى شونم وجدت أن دارها قد احتلها شخص غريب. فلجأت إلى الملك ليعينها على استرداد دارها. وفي نفس الوقت كان عند الملك جيحزي غلام أليشع فقصَّ على الملك المعجزات التي تتحقق على يدي أليشع. وتعرف جيحزي على المرأة الشونمية وأخبر الملك أنها هي التي أكرمت سيده وأن أليشع قد أعاد الحياة لابنها بعد أن مات. وفي الحال أمر الملك بأن تعاد لها دارها وأرضها وريع الأرض طوال مدة غيابها.

١٤ - مسح حزائيل ملكا على أرام دمشق :

سار أليشع بعد ذلك إلى دمشق. وكان ملكها بنهدد مريضا. فأرسل رئيس جنده - حزائيل -



شكل ٥٥ - مسيرة اليسع عليه السلام (أليشع) ومعجزاته.

١ - من شرق الأردن إلى أريحا ٢ - فى أريحا (إزالة عفونة المياه) ٣ - فى بيت إيل (جزاء السخرية به ٤ - إلى السامرة ٥ - إلى كير مؤاب (دعاء الاستسقاء) ٦ - إلى يزرعيل ٧ - الأرملة وجرة الزيت لا تفرغ ٨ - شونم (المرأة العاقر تلد) ٩ - إلى الكرمل ١٠ - عودة إلى شونم (إحياء الولد) ١١ - إلى الجلجال ١٢ - فى الجلجال (العشب السام - إطعام مائة شخص - شفاء الأبرص - جزاء جيحزى) ١٣ - شاطىء الأردن (طفو الحديد) ١٤ - إلى دوثان ١٥ - محاصر الأراميين له ١٦ - أخذ الجنود إلى السامرة ١٧ - حصار السامرة والتنبؤ بفك الحصار ١٨ - إلى شونم وإعادة أملاك الأرملة ١٩ - إلى دمشق (مرض بنهدد ومسح حزائيل ملكا) ٢٠ - إلى راموث جلعاد ٢١ - إلى أبل محولة ووفاته.

إلى أليشع يسأله هل يشفى من مرضه أم لا. فأخبره أليشع أن بنهدد سيموت وأنه – حزائيل – سيصبح ملكا على دمشق بدلا منه. وقد سبق ذكر ذلك (ص ٢٦٢).

وفاة أليشع عليه السلام :

ومرض أليشع مرضه الذى مات به فنزل إليه يهوآش (يوآش) ملك إسرائيل وتقول التوراة (٢ ملوك ١٣:١٤) وبكى على وجهه. وهنا أراد أليشع أن يمتحن صلابته فأعطاه قوسا وسهاما وطلب منه أن يرمى. فرمى ثلاث رميات وتوقف. فغضب أليشع وقال له لو رميت ٥ أو ٦ رميات لضربت أرام إلى الفَنَاء. وأما الآن فإنك تضرب أرام ثلاث مرات ولكن لا تفنيهم. ثم مات أليشع ودفنوه.

لم تنته معجزات أليشع بموته إذ تقول التوراة (٢ ملوك ١٣ : ٢٠) إن جنازة كانت مارة بالقرب من قبره ورأى المشيعون جماعة من المؤابيين متجهين نحوهم لمهاجمتهم. فوضعوا جثمان الميت بسرعة فى قبر أليشع استعدادا لدفع الهجوم. وبمجرد أن مسَّت الجثة رفات أليشع حتى دبت فيها الحياة وخرج الميت من القبر واقفا على رجليه.

٢ – عاموس النبى Amos

هو أحد الأنبياء الاثنى عشر «الصغار» (كما يسميهم مفسرو أهل الكتاب). وهو من بلدة تقوع Tekoa التى تقع فى يهوذا ١٦كم جنوب أورشليم و١٠كم جنوب بيت لحم (انظر شكل ١٠٤ فى آخر الكتاب). وكان من طبقة فقيرة وعمل فى مطلع حياته راعيا للغنم يرعى قطيعه غرب البحر الميت وكان أيضا جانى جميز. وعاصر يربعام الثانى ملك إسرائيل وعزِّيا ملك يهوذا وكان متزامنا مع النبى هوشع. وكانت نبوته سنتين قبل زلزال مدمِّر ضرب المنطقة ولنستطيع فهم معنى تنبؤاته علينا أن نلم إلمامة سريعة بالظروف التى كانت تمر بها منطقة الشرق الأدنى القديم.

سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٣) أن ملك أشور أنزل هزيمة ساحقة بالدويلات الأرامية فى شمال سوريا مما جعلها فى موقف الضعف بالنسبة لجارتها إسرائيل. ثم انشغلت أشور بمتاعب داخلية واضطرابات على حدودها الشرقية وتمكن يربعام الثانى (ص ٢٧٣) من استعادة الأقاليم الواقعة شرق الأردن التى كانت دمشق قد استولت عليها بل ومد نفوذه شمالا إلى مدخل حماة وأصبحت إسرائيل – كما كانت أيام سليمان عليه السلام – تتحكَّم فى طرق التجارة الرئيسية بالمنطقة وأصبحت السامرة – عاصمة إسرائيل – مركزا هاما للتجارة المارة من بلاد مابين النهرين ودمشق إلى مصر وجنت إسرائيل من وراء ذلك أموالا طائلة وازدهرت الحياة وبُنيت القصور الفاخرة فى السامرة للتجار والأغنياء الذين ازدادوا نهما لجمع المال ونسوا تعاليم الرب

وأهملوا السبوت وانتشر الظلم والفساد. وازداد الفقراء فقرا ورهنوا ممتلكاتهم للحصول على القوت اللازم لحياتهم. واعوجَّ القضاء بسبب الرشوة. وكان عاموس – كما قلنا – من الطبقة الكادحة وكان مطَّلعًا على مصاعبها ويلمس ما تعانيه.

ولم يكن الضلال الدينى قاصرا على إسرائيل (الشمالية) بل كان قد بدأ فى التسلل إلى يهوذا فى صورة عبادة العجل حين تزوج يهورام ملك يهوذا من عثاليا ابنة إيزابل ابنة ملك صور وزوجة أخاب ملك إسرائيل ورائدة عبادة البعل. وبالرغم من الصحوة الدينية التى تلت ذلك على يد ياهو بن نمشى فى إسرائيل (ص ٢٧٠) إلا أن معابد البعل لم تُدمَّر كلها. كما بقيت عبادة العجول الذهبية التى كان يربعام الأول قد أدخلها إلى إسرائيل. وكان الشعب يتردد عليها ويذبحون لها. وأدرك عاموس بحكمته أن هذه الحال لابد ستقود البلاد إلى كارثة. لذلك نزلت النبوَّة على عاموس فى تقوع فى أرض يهوذا ولكنه أُمِرَ بالذهاب إلى المملكة الشمالية وخاصة بيت إيل. وهذه من الحالات النادرة التى يؤمر فيها نبى من يهوذا بالذهاب إلى إسرائيل لتحذير الناس هناك. إلا أن نبوءاته كانت مُوجَّهة إلى إسرائيل ويهوذا معا. وقد اتُّهِم بالتآمر على يربعام الثانى وتحريض الشعب ليثور عليه. وتوعَّده أمصيا الكاهن الأكبر فى بيت إيل. ويكتنف الغموض باقى حياته. لكن مما لاشك فيه أنه بعد أن أدى مهمته فى إسرائيل عاد إلى يهوذا. ولا يُعرف متى وكيف وأين كانت وفاته.

رسالة عاموس :

ليس لنا من مصدر معلومات عن هذا النبى سوى ماجاء فى سفر عاموس فى التوراة. وقد كانت رسالة عاموس فى مجملها تحذيرا من غضب الرب بسبب الفساد الذى انتشر وبسبب بعد الناس عن عبادة الرب سواء فى إسرائيل أو فى يهوذا. ويبدأ السفر (عاموس ١:٢) بالتحذير من زلزال مُدمِّر سيحدث بعد سنتين ويعقبه قحط تجف منه المراعى فقال: «إن الرب يزمجر من صهيون ويعطى صوته من أورشليم فتنوح مراعى الرعاة وييبس رأس الكرمل». والكرمل منطقة تمتد رأسها داخل البحر وتعلو ١٢٠٠ قدم عن سطح البحر وهى غزيرة المطر ومن أخصب المناطق. وضُرِبَ به المثل فى أنه عندما ييبس الكرمل فلاشك أن المراعى الأخرى ستكون الكارثة فيها أشد وأقسى. ثم بعد ذلك يذكر عاموس كل دولة على حدة ويذكر خطيئتها التى استوجبت نزول العقاب بها ونوع العقاب فيقول:

١ – **دمشق** (عاموس ١ : ٣) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب دمشق الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد. فأرسل نارا على بيت حزائيل فتأكل بنهدد وأكسر مغلاق دمشق. وأقطع الساكن من بقعة أون. وماسك القضيب من بيت عدن».

وبقعة أون هى وادى الوثنية فى غوطة دمشق الفسيحة. وماسك القضيب كناية عن الإله «مردوك» الذى كان يمثّل ممسكا بيده اليسرى المضمومة إلى صدره دائرة وقضيبا من حديد رمزا للقوة وهو «بعل» سيد الآلهة فى هذه المنطقة (انظر الجزء الثانى ص ٢٠٤). وبيت عدن هى منطقة بعلبك. وفى هذه النبوءة يشير عاموس إلى أن أرام دمشق وباقى الدويلات الآرامية أثناء تسلطهم على إسرائيل واستيلائهم على المناطق الواقعة شرق الأردن - باشان وجلعاد - عاملوا أهلها بقسوة بالغة فكأنهم داسوهم بالنوارج الحديدية فكان التنبؤ بهلاك ملوكها وذريتهم وهدم أسوار دمشق وسقوط آلهتها.

٢ - غزة أي الفلسطينيون (عاموس ١ : ٦) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب غزة الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم سبوا سبيا كثيرا لكى يسلموه إلى أدوم فأرسلُ نارا على سور غزة فتأكل قصورها وأقطع الساكن من أشدود وماسك القضيب من أسقلون وأرد يدى على عقرون فتهلك بقية الفلسطينيين. هكذا قال السيد الرب».

وقد ذكرت غزة أولا لأنها أكبر مدن الفلسطينيين وكانت ملتقى طرق قوافل التجارة. وكان أهلها يقومون بغارات ويأخذون السبى من بنى إسرائيل ويبيعونهم إلى أدوم. هذا فضلا عن وثنيه الفلسطينيين ولشدة خصومتهم لبنى إسرائيل منذ أيام شاول وداود وحتى مملكة إسرائيل ويهوذا ولهذا كان الوعيد لكل مدن الفلسطينيين.

٣ - صور (عاموس ١ : ٩) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب صور الكثيرة. لا أرجع عنهم لأنهم سلَّموا سبيا كثيرا إلى أدوم ولم يذكروا عهد الأخوة فأرسل نارا على صور فتأكل قصورها».

وتمثلت ذنوب صور - وهى تعبير عن الساحل الفينيقى بأكمله - فى أخذ السبى وبيعه إلى أدوم قاصدين تقوية أدوم والتقرب منها - كما كان يفعل الفلسطينيون - حتى يتكون حلف ضد بنى إسرائيل. وهذا نقض للأخوه التى كانت بين سليمان عليه السلام وحيرام ملك صور. وقد لقيت صور الخراب على أيدى الأشوريين. ومرة أخرى على يد نبوخذ نصر الملك البابلى ومرة ثالثة حين استولى عليها الاسكندر الاكبر وباع من سكانها ٣٠,٠٠٠ عبيداً.

٤ - أدوم (عاموس ١ : ١١) :

هكذا قال الرب : «من أجل ذنوب أدوم الكثيرة لا أرجع عنهم لأنه تبع بالسيف أخاه وأفسد مراحمه وغضبه إلى الدهر يفترس وسخطه يحفظه إلى الأبد. فأرسل نارا على تيمان فتأكل قصور بُصرة».

وفى هذا إشارة إلى أخوة عيسو (أدوم) ويعقوب (بنى إسرائيل) ولكن الأدوميين لم يرعوا هذه الأخوّة وحملوا عداء مستحكما فتوعدهم عاموس بنار وحرب تأكل مدنهم وأهمها تيمان وبُصرى.

وبقعة أون هى وادى الوثنية فى غوطة دمشق الفسيحة. وماسك القضيب كناية عن الإله «مردوك» الذى كان يمثَّل ممسكا بيده اليسرى المضمومة إلى صدره دائرة وقضيبا من حديد رمزا للقوة وهو «بعل» سيد الآلهة فى هذه المنطقة (انظر الجزء الثانى ص ٢٠٤). وبيت عدن هى منطقة بعلبك. وفى هذه النبوءة يشير عاموس إلى أن أرام دمشق وباقى الدويلات الأرامية أثناء تسلطهم على إسرائيل واستيلائهم على المناطق الواقعة شرق الأردن - باشان وجلعاد - عاملوا أهلها بقسوة بالغة فكأنهم داسوهم بالنوارج الحديدية فكان التنبؤ بهلاك ملوكها وذريتهم وهدم أسوار دمشق وسقوط آلهتها.

٢ - غزة أي الفلسطينيون (عاموس ١ : ٦) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب غزة الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم سبوا سبيا كثيرا لكى يسلموه إلى أدوم فأرسلُ نارا على سور غزة فتأكل قصورها وأقطع الساكن من أشدود وماسك القضيب من أسقلون وأرد يدى على عقرون فتهلك بقية الفلسطينيين. هكذا قال السيد الرب».

وقد ذكرت غزة أولا لأنها أكبر مدن الفلسطينيين وكانت ملتقى طرق قوافل التجارة. وكان أهلها يقومون بغارات ويأخذون السبى من بنى إسرائيل ويبيعونهم إلى أدوم. هذا فضلا عن وثنيه الفلسطينيين ولشدة خصومتهم لبنى إسرائيل منذ أيام شاول وداود وحتى مملكة إسرائيل ويهوذا ولهذا كان الوعيد لكل مدن الفلسطينيين.

٣ - صور (عاموس ١ : ٩) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب صور الكثيرة. لا أرجع عنهم لأنهم سلَّموا سبيا كثيرا إلى أدوم ولم يذكروا عهد الأخوة فأرسل نارا على صور فتأكل قصورها».

وتمثلت ذنوب صور - وهى تعبير عن الساحل الفينيقى بأكمله - فى أخذ السبى وبيعه إلى أدوم قاصدين تقوية أدوم والتقرب منها - كما كان يفعل الفلسطينيون - حتى يتكون حلف ضد بنى إسرائيل. وهذا نقض للأخوه التى كانت بين سليمان عليه السلام وحيرام ملك صور. وقد لقيت صور الخراب على أيدى الأشوريين. ومرة أخرى على يد نبوخذ نصر الملك البابلى ومرة ثالثة حين استولى عليها الاسكندر الأكبر وباع من سكانها ٣٠,٠٠٠ عبيداً.

٤ - أدوم (عاموس ١ : ١١) :

هكذا قال الرب : «من أجل ذنوب أدوم الكثيرة لا أرجع عنهم لأنه تبع بالسيف أخاه وأفسد مراحمه وغضبه إلى الدهر يفترس وسخطه يحفظه إلى الأبد. فأرسل نارا على تيمان فتأكل قصور بُصرة».

وفى هذا إشارة إلى أخوة عيسو (أدوم) ويعقوب (بنى إسرائيل) ولكن الأدوميين لم يرعوا هذه الأخوُة وحملوا عداء مستحكما فتوعَّدهم عاموس بنار وحرب تأكل مدنهم وأهمها تيمان وبُصرى.

٥ – **بنو عمون** (عاموس ١ : ١٣) :

وكانت جريمة بنى عمون فى غاية الوحشية إذ كانوا يبقرون بطون الحوامل وتنبأ لهم عاموس بعقاب يتمثل فى حرب تدمر عاصمتهم «ربة عمون» وتبيدها وأما رؤساؤها فسيتم سبيهم.

٦ – **مؤاب** (عاموس ٢ : ١) :

وكانت جريمة مؤاب أنهم مثَّلوا بجثة ملك أدوم فأحرقوها. وكان المعتقد السائد وقتها أن حرق الجسد يؤدى إلى فناء النفس. ولم يكن عاموس النبى متصديًا لصحة هذا المعتقد أو عدم صحته ولكنه كان يرمى إلى التأكيد على عدم التمثيل بالجسد بعد موت صاحبه.

٧ – **يهوذا** (عاموس ٢ : ٤) :

هكذا قال الرب : «من أجل ذنوب يهوذا الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم رفضوا ناموس الله ولم يحفظوا فرائضه وأضلَّتهم أكاذيبهم التى سار آباؤهم وراءها. فأُرسلُ نارا على يهوذا فتأكل قصور أورشليم».

كان جُرم يهوذا أفظع من جرم الأمم السابق ذكرها إذ لم يكن جرمهم مُوَجَّها ضد البشر وإنما كان موجَّها إلى الله باتباعهم آلهة كاذبة وباطلة فإذا قيل إن الأمم الأخرى كانت هى أيضا تعبد الأصنام وأن يهوذا إنما قلَّدتها. كان الردّ بأن الأمم الأخرى لم تعرف الله كما عرفه بنو إسرائيل ويهوذا بالذات ولهذا توعَّد الله يهوذا بحرب تدمِّرها وبالأخص أورشليم عاصمتها ومابها من قصور.

٨ – **إسرائيل** (عاموس ٢ : ٦) :

«من أجل ذنوب إسرائيل الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم باعوا البارَّ بالفضة والبائس لأجل نعلين. الذين يتهمَّمُون تراب الأرض على رؤوس المساكين ويصدُّون سبيل البائسين. ويذهب رجل وأبوه إلى صبيَّة واحدة حتى يُدنِّسوا اسم قدسى. ويتمددون على ثياب مرهونة بجانب كل مذبح. ويشربون خمر المُغرَّمين فى بيت آلهتهم. وأنا قد أبدت من أمامهم الأمورى الذى قامته مثل قامة الأرز وهو قوى كالبلوط. أبدتُ ثمره من فوق وأصوله من تحت. وأنا أصعدتكم من أرض مصر وسرتُ بكم فى البرية ٤٠ سنة لترثوا أرض الأمورى وأقمتُ من بينكم أنبياء. ومن فتيانكم نذيرين. ولكنكم سقيتم النذيرين خمرا وأوصيتم الأنبياء قائلين لا تتنبأوا. هأنذا أضغط ما تحتكم كما تضغط العجلة الملآنة حزما. ويبيد المناصّ (جمع منصَّة – أى الذين وُضعوا على المنصة أى الرؤساء) والقوى لا يُشدِّد قوَّته. والبطل لا يُنجىِّ نفسه. وماسك القوس لا يثبت وسريع الرجلين لا ينجو وراكب الخيل لا يُنجِّى نفسه والقوى القلب بين الأبطال يهرب عريانا فى ذلك اليوم».

فى هذه الفقرة ندد النبى عاموس ببعض الذنوب التى ارتكبها بنو إسرائيل مثل :

١ - الاسترقاق :

حثت الشريعة اليهودية الغنى على مساعدة الفقير ونهت عن إقراضه بالربا وأباحت للفقير أن يبيع نفسه عبدا تسديدا لدين عليه لم يستطع الوفاء به ولكنها حرصت على أن يعامل العبد معاملة حسنة إذ تقول (لاويين ٢٥ : ٣٩): «وإذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فاعضده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك. لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة. بل اخش إلهك فيعيش أخوك معك. فضتك لا تعطه بالربا. وطعامك لا تعطه بالمرابحة. أنا الرب إلهكم الذى أخرجكم من أرض مصر ليعطيكم أرض كنعان فيكون لكم إلها. وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير كنزيل عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته وإلى مُلك آبائه يرجع لأنه عبيدى الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد. لا تتسلط عليه بعنف بل اخش إلهك. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيداً وإماء. وأيضا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين يلدونهم فى أرضكم فيكونون ملكا لكم وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث مُلك تستعبدونهم إلى الدهر. وأما إخوتكم من بنى إسرائيل فلا يتسلَّط إنسان على أخيه بعنف».
ثم تستمر الشريعة فى بيان الموقف من الفرد من بنى إسرائيل الذى يفتقر ويباع إلى غير إسرائيل فتوجب على أى فرد قادر أو مجموعة أفراد من أقاربه أن يدفعوا مالا لسيده ليفكُّوا أسره وحتى إذا لم يفعلوا فإنه يصبح حرًّا «تلقائيا» فى عيد المظال فى سنة اليوبيل. هذا هى أحكام الشريعة ولكنهم لم يُطبقوها فاسترقوا إخوانهم وباعوا البار بالفضة. وبيع البائس الفقير بأبخس الأسعار «لقاء نعلين».

٢ - الجشع :

كان هذا من أمراض المجتمع التى انتشرت وندَّد بها عاموس. فالأغنياء طماعون والفقير المسكين يحسو التراب على رأسه من البؤس. والغنى لا يزيل بؤسه بل إنه لشدة جشعه يطمع حتى فى حفنة التراب التى فوق رأس المسكين. ويمنعون عن المساكين الإنصاف إذا لجأوا إلى القضاء «ويصدُّون سبيل البائسين».

٣ - بغاء المقدس :

كانت هذه هى الخطيئة الثالثة التى ندد بها النبى عاموس. فقد كانت «العاهرات المقدسات» من مقوِّمات الديانة الكنعانية وتسللت إلى المعابد الإسرائيلية مع أن ذلك منهى عنه بحكم الشريعة (تثنية ٢٣ : ٢٧) «لا تكن زانية من بنات إسرائيل. لا تدخل أجرة زانية إلى بيت الرب إلهك». بل وصل الأمر أن يذهب الرجل وابنه إلى نفس المرأة لممارسة الخطيئة.

٤ - القمر وإدمانه .

كانت هذه هي الخطايا الأربع التي ركّز عليها عاموس ثم راح يهددهم بأهوال ستحدث لهم في المستقبل القريب جزاء على خطاياهم بحيث أنهم سيُسحقون كما تسحق العربة حزم القش التي تمر عليها وسيسلّط الله عليهم أعداء يذيقونهم من أهوال الحرب ألوانا بحيث لن تكون هناك نجاة للبطل أو للهارب سريع الجرى ولا لراكب الخيل. وحتى الشجاع سيهرب عريانا كناية عن شدة الهول الذى سينزل بهم. وقد صدقت هذه النبوءة عند السبى الأشورى (ص٣٠٦).

ثم يستمر عاموس فى كلامه مُوضّحا بتفصيل أكثر مدى العقوبات التى ستنزل بإسرائيل وقد سردها فى ثلاث خطب. نذكر فيما يلى أهم النقاط التى جاءت فيها:

١ - الخطبة الأولى (عاموس ٣) :

اسمعوا هذا القول الذى تكلم به الرب عليكم يا بنى إسرائيل. ثم يذكر عاموس عدة صور مجازية من واقع البيئة التى كانوا يعيشونها فى ذلك الوقت يدلل بها على أن كلامه ليس من عنده بل موحى إليه من ربه. وليس مصادفةً ما سيحدث لهم فى المستقبل بل جزاءً على أفعالهم فيقول: «هل يسير اثنان معا إن لم يتواعدا؟ هل يزمجر الأسد فى الوعر وليس له فريسة؟» لأن الأسد يظل صامتا حتى تلوح له فريسة فإذا أمسك بها زمجر. والمعنى أن كلامه نذير بأن عقاب الله قد أقبل. «هل يسقط عصفور في فخ الأرض وليس له شرك؟» ومعنى هذا أن ثبات العصفورعلى الأرض يدل على وجود فخٍ أمسك به. «أم يُضرب بالبوق فى مدينة والشعب لا يرتعد؟». إذ كان النفخ فى البوق ينذر الناس بأمر خطير. كذلك فإن صوت النبى ينذر بأمر خطير وشيك الوقوع. «السيد الرب قد تكلم». ثم يوضح ما تكلم به الرب: «نادوا على القصور فى أشدود وعلى القصور فى أرض مصر وقولوا اجتمعوا على جبال السامرة وانظروا شعبا عظيما فى وسطها ومظالم فى داخلها. فإنهم لا يعرفون أن يصنعوا الاستقامة. يقول الرب. أولئك الذين يخزنون الظلم والاغتصاب فى قصورهم. لذلك هكذا قال السيد الرب: ضيق حتى فى كل ناحية من الأرض فينزل عنك عزّك وتُنهب قصورك». أى عدو يحيط بالمدن ويحاصرها من كل جانب. وهذا ماحدث فعلا. ففى عام ٧٣٤ ق.م. اجتاح تجلات بلاسر الثالث مناطق جلعاد وباشان والجليل وحوالى عام ٧٢٤ ق.م. اجتاح شلمنصر الخامس إسرائيل الشمالية وبدأ حصار السامرة فى عام ٧٢٢ ق.م. ثم أكمل الحصار ابنه سرجون الثانى إلى أن سقطت السامرة فى عام ٧١٩ ق.م. وبسقوطها انتهت مملكة إسرائيل الشمالية ونُهبت قصورها وسُبِىَ الأغنياء المترفون وتم نفى الشعب إلى شمال الفرات. ويُصوِّر عاموس النبى ذلك الموقف بقوله: «هكذا قال الرب. كما ينزع الراعى من فم الأسد كراعين (مستدق الساق الخالى من اللحم وبالعامية

كوارع) أو قطعة أذن. هكذا يُنتزع بنو إسرائيل الجالسون فى السامرة فى زاوية السرير وعلى دمقس الفراش. اسمعوا واشهدوا على بيت يعقوب. إنى يوم معاقبتى إسرائيل على ذنوبه أعاقب مذابح بيت إيل فتُقطع قرون المذبح وتسقط إلى الأرض. وأضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة».

٢ - الخطبة الثانية (عاموس ٤) :

«اسمعي هذا القول يابقرات باشان التى فى جبل السامرة» وهذا تنديد بنساء السامرة الثريات اللاتى كن لا يعنيهن إلا العيشة المرفهة حتى أصبحن مكتظات باللحم مثل بقرات باشان السمان «الظالمة المساكين الساحقة البائسين القائلين لسادتها هات لنشرب» أى أنهن يطلبن من أزواجهن الحصول على المال ليتمتعن فيجعلنهم يظلمون المساكين ويسحقون البائسين. «قد أقسم السيد الرب بقدسه: هوذا أيام تأتى عليكن يأخذونكن بخزائم وذريتكن بشصوص السمك» أى ستكون العقوبة هى الأسر وتساق النسوة والأبناء مربوطين. وفى النقوش الأشورية نرى الأسرى وهم يُجَرُّون بكلاليب فى أفواههم. ثم يوبخهم عاموس على أنهم يكثرون من العبادات وتقديم القرابين. ولكنها مجرد أفعال خالية من كل مضمون إيمانى لذلك فهى مردودة عليهم وغير مقبوله. ثم يأتى توبيخ مباشر من الرب بأنه قد أنزل بهم القحط فلم يرجعوا إليه وأمسك عنهم المطر فلم يرتدعوا. وسلَّط عليهم الجراد فأكل زرعهم وكرومهم وزيتونهم فلم يتوبوا إلى الرب. ثم أنزل بهم وباء مثل الأوبئة التى أصابت المصريين أيام موسى عليه السلام فلم يرجعوا. «يقول الرب (عاموس ٤ : ٩): «ضربتكم باللفح واليرقان. كثيرا ما أكل القَمَصُ (بعوض صغير يطير فوق الماء) جناتكم وكرومكم وتينكم وزيتونكم فلم ترجعوا إلىَّ. يقول الرب. أرسلت بينكم وباء على طريقة مصر. قتلت بالسيف فتيانكم مع سبى خيلكم وقلبت بعضكم كما قلب الله سدوم وعمورة فصرتم كشعلة منتشلة من الحريق فلم ترجعوا إلىَّ يقول الرب. لذلك هكذا أصنع بك يا إسرائيل: فمن أجل أنى أصنع بك هذا فاستعد للقاء إلهك يا إسرائيل. فإنه هو ذا الذى صنع الجبال وخلق الريح وأخبر الإنسان ما هو فكره الذى يجعل الفجر ظلاما ويمشى على مشارف الأرض. يهوه إله الجنود اسمه». والمعنى أنه مادامت كل هذه الأشياء السابق ذكرها لم تردعهم فليتوقعوا شيئا أشد «استعد للقاء إلهك» أى هولا أفظع وعذابا أقسى. فهو إله قادر صنع الجبال وأجرى الريح ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان من شرور تقلب الفجر ظلاماً. فإله هذه صفاته لا يجب الاستخفاف بوعيده.

٣ - الخطبة الثالثة (عاموس ٥) :

«اسمعوا هذا القول الذى أنا أنادى به عليكم مرثاة يا بيت إسرائيل. سقطت عذراء إسرائيل. لا تعود تقوم. انطرحت على أرضها. ليس من يقيمها لأنه هكذا قال السيد الرب».

بهذا الاستهلال يبدأ عاموس خطبته برثاء شعرى يبكى فيه سقوط إسرائيل، وعذراء إسرائيل هى أورشليم. وسيكون السقوط فاجعا لا يستطيع بشرٌ دفعه ولا إعانة الشعب إلا أن هناك رجاء فى الله إذا هم طلبوه وتوجهوا بقلوبهم نحوه «لأنه هكذا قال الرب لبيت إسرائيل. اطلبوا فتحيوا. ولا تطلبوا بيت إيل وإلى الجلجال لا تذهبوا وإلى بئر سبع لا تعبروا (لأن هذه الأماكن لن تستطيع مساعدتهم) لأن الجلجال تسبى سبيا. وبيت إيل تصير عدما. اطلبوا الرب فتحيوا» ثم يذكر تمجيدا للرب «الذى صنع الثريا والجبار (وهما كوكبتان فى السماء كانت بعض الشعوب تُعظِّمها وتعبدها). ويحوِّل ظل الموت صبحا. ويظلم النهار كالليل. الذى يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض يهوه اسمه». ثم يوضِّح أنواع الظلم التى يمارسها الأغنياء ضد الفقراء وكان جزاؤهم أن الله جعلهم لا يتمتعون بما جمعوه من مال. فيقول: «لذلك من أجل أنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح، بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها. وغرستم كروما شهية ولا تشربون خمرها. لأن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة. أيها المضايقون البارَّ. الآخذون الرشوة. الصادُّون البائسين فى الباب. اطلبوا الخير لا الشر لتحيوا. فعلى هذا يكون الرب معكم. أبغضوا الشر وأحبُّوا الخير وثبتوا الحق فى الباب لعل الرب يتراءف عليكم». وكلمة «الباب» تعنى ساحة الاجتماع الكبيرة. وهو المكان الذى كان من عادة المشايخ الجلوس فيه للقضاء بين الناس. ويدعو عاموس إلى أن يكون الحكم فى القضايا المطروحة بالحق وليس بتأثير الرشوة والهدايا فينسحق المسكين. «لذلك هكذا قال السيد الرب: فى جميع الأسواق نحيب. وفى جميع الأزقة يولولون ويدعون جميع عارفى الرثاء للندب. وفى جميع الكروم ندب لأنى أعبر وسطك قال الرب». ثم بعد ذلك يندد بالعبادات الشكلية الباطلة ويبين أن الله لا يرضى عنها ولا يقبلها ويخبرهم عما يقوله الرب بشأنها: «بغضت وكرهت أعيادكم. ولست أُسَرُّ باعتكافاكم. إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى. وذبائح السلامة من مُسمَّناتكم لا ألتفت إليها. أبعد عنى ضجة أغانيك. ونغمة ربابك لا أسمع. حملتم خيمة ملكوم (إله المؤابيين) وتمثال أصنامكم الذى صنعتم لأنفسكم. فأسبيكم إلى وراء دمشق. هكذا قال الرب».

ثم يمضى عاموس النبى يحذِّر ويتوعَّد المترفين الظالمين فيقول (عاموس ٦:١): «ويل للمترفين فى صهيون والمطمئنين فى جبل السامرة. المضطجعين على أسرَّة من العاج والمتمدِّدين على فرشهم والآكلين خرافا من الغنم الشاربين فى كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان. لذلك الآن يُسبَوْن فى أول المسبيين. أنتم الفرحون بالباطل. لأنى هكذا أقيم عليكم يا بيت إسرائيل أمة فيضايقونكم. فيقول السيد هأنذا واضع زيجا فى وسط شعبى إسرائيل. لا أعود أصفح له بعد. فتُقفِر مرتفعات إسحق وتخرب مقادس إسرائيل وأقوم على بيت يربعام بالسيف». والزيج سبيكة شديدة الصلابة يدخل الزنك والرصاص والحديد فى تركيبها ويصنع منها قضبان لهدم المبانى. والمعنى أن دمار إسرائيل قادم ولن يصفح الله عنهم بسبب كثرة شرورهم. أما النبوءة التى تختص بيربعام فقد تحققت إذ أن شللوم بن يابيش قام على زكريا بن يربعام الثانى وقتله واغتصب الملك منه.

ولما كانت النبوءة الأخيرة تمسُّ البيت المالك وتتنبأ بقتل أحد أفراده. هنا ثار أمصيا كاهن بيت إيل وكان يفضِّل جانب المَلِك. ولا يعتبر عاموس نبيا بل يعتبره مجرد رائى يحلم بأشياء أو يدَّعي حدوثها. تقول التوراة (عاموس ٧ : ١٠) «فأرسل أمصيا كاهن بيت إيل إلى يربعام ملك إسرائيل قائلا: قد فتن (انشق) عليك عاموس فى وسط بيت إسرائيل لأنه هكذا قال عاموس يموت يربعام بالسيف ويسبى إسرائيل عن أرضه». ولكن الملك لم يأخذ هذا التهديد مأخذ الجد لشعوره بالأمان أو لاحتقاره لرسالة هذا النبى الراعى القادم من يهوذا واستصغارا لشأنه. فما كان من أمصيا - ليخلو له الجو فى إسرائيل - إلا أن نصح عاموس بالعودة إلى يهوذا بلده «قال أمصيا لعاموس: أيها الرائى. اذهب . اذهب. اهرب إلى أرض يهوذا وكلْ هناك خبزا وهناك تنبأ وأما بيت إيل فلا تعد تتنبأ فيها بعدُ لأنها مقدس الملك وبيت الملك. فأجاب عاموس وقال لأمصيا أنا راعى وجانى جميز فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى أذهب تنبأ لشعبى إسرائيل». ثم يوضح لأمصيا جزاء إنكاره لنبوَّته ومنعه من إعلان نبوءات الرب وما سيصيبه هو نفسه وأهل بيته: «ولذلك هكذا قال الرب: بنوك بناتك يسقطون بالسيف وأرضك تُقسَّم بالحبل (بين ناهبيها) وأنت تموت فى أرض غريبة. وإسرائيل يُسبى سبيا عن أرضه».

ثم يُنهى عاموس نبوءاته بالتبشير بعفو الرب عن إسرائيل وردِّهم من السبى وعودة الأيام الهنية ثانية (عاموس ٩ : ١١): «فى ذلك اليوم أقيم مظلة داود الساقطة وأُحصِّن شقوقها وأقيم ردمها وأبنيها كأيام الدهر. ها أيام تأتى يقول الرب: يدرك الحارث الحاصد (أى من كثرة الخير فبمجرد أن يحرث الأرض ينمو الزرع ويأتى حصاده فكأن الحارث والحاصد يلتقيان) ودائس العنب باذر الزرع (نفس المعنى فبمجرد زرع العنب ينمو وينضج ويجمع ويداس لعمل النبيذ). وتقطر الجبال عصيرا وتسيل جميع التلال. وأرد سبى شعبى إسرائيل فيبنون مدنا خربة ويسكنون. ويغرسون كروما ويشربون خمرها . ويصنعون جنات ويأكلون أثمارها . وأغرسهم فى أرضهم ولن يُقلَعُوا بعدُ من أرضهم التى أعطيتهم. قال الرب إلهك».

٣ - يونس عليه السلام

هو يونس بن متى Jonah son of Amittai . قال صلى الله عليه وسلم: لا تفضلونى على يونس بن متى. وعند أهل الكتاب هو يونان. وبالعبرية هو يونه Jonah ومعناه حمامة. وفى اليونانية تضاف سين الرفع فتكتب Jonas. وعنهم أخذ العرب الاسم مع كسر النون فأصبح «يونِس» وعرَّب القرآن الكريم الاسم على ما اشتهر به عند العرب ولكن بضم النون «يونُس» منعا لشبهة فهمه من الأنس والإيناس فيما لو كانت النون مكسورة. مثلما ضُمت السين فى اسم «يوسُف» (من إعجاز القرآن - الأستاذ رؤوف أبو سعده. الجزء الثانى . ص ١٨٥).

وقد ذكر اسمه فى القرآن الكريم ٤ مرات باسم «يونس» ومرة باسم «ذا النون» والنون اسم من أسماء الحوت (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٩٧٤)، ومرة «صاحب الحوت».

ويونس بن متى أو يونان بن أميتاى من سبط زبولون. ولد فى بلدة «جت حافر» فى شمال إسرائيل قرب الحدود الشرقية لأرض زبولون وعلى بعد ٥ كم شمال شرق مدينة الناصرة (شكل٥٦).

وجاء ذكره فى القرآن الكريم فى الآيات :

«وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داود زبورا» . (١٦٣ - النساء).

«وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين». (٨٦ - الأنعام).

«وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون...». (١٣٩ - الصافات).

«فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين» . (٩٨ - يونس).

«وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه...» . (٨٧ - الأنبياء).

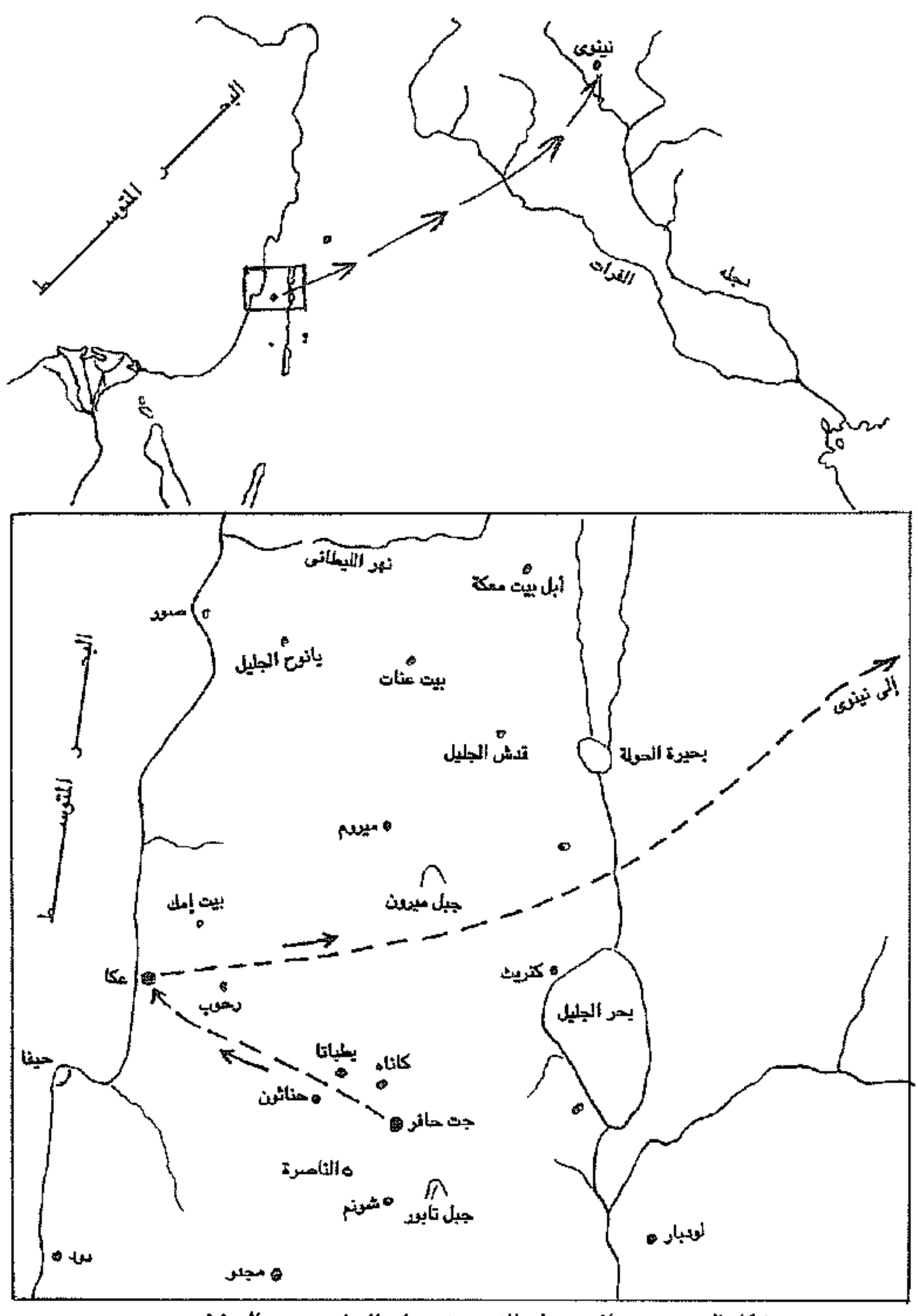
«فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين» . (٤٨ - ٥٠ القلم).

وكانت رسالة يونس موجّهة إلى أهل نينوى عاصمة أشور، أقوى امبراطورية فى ذلك الوقت وكانت بالغة فى ظلمها وقسوتها على الشعوب التى تستعمرها . وكانت نينوى العاصمة رمزا على هذا الظلم، كما أن الترف والرفاهية أدت إلى انغماس أهلها فى الشهوات والموبقات، وكلما زاد ثراؤها زاد فجور أهلها . فكان أن اختار الله يونس عليه السلام ليردعهم عما هم فيه ويحذّرهم من غضب الله وعما قد ينزله بهم من عذاب جزاء على فسادهم.

ولقد اختلفت آراء المفسرين حول قوله تعالى: **«وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين»** (٨٧ - ٨٨ - الانبياء) والاختلاف دار حول كلمة «مغاضبا»، فوزن فَاعَلَ ومنه مُفَاعِلاً يعنى تبادل الفعل أى تبادل الغضب، وجُلُّ المفسرين رأوا أنه لا يجوز لنبى أن يفعل ما يغضب ربه، ولا يجوز له هو نفسه أن يغضب من ربه. ولتفسير كلمة «مغاضبا» ذكروا أقوالا كثيرة، جاء فى تفسير القرطبى (جـ ٦ ص ٣٢٩) قال الحسن والشعبى وسعيد بن جبير مغاضبا لربه عز وجل، واختاره الطبرى واستحسنه المهدوى، وقال النحاس خرج مغاضبا من أجل ربه أى غضب على قومه من أجل كفرهم به.

ويقول الأستاذ أحمد بهجت (أنبياء الله ص ١٧٥): وظل ذو النون ينصح قومه فلم يؤمن منهم أحد وجاء يوم على يونس فأحسَّ باليأس من قومه وامتلأ قلبه بالغضب عليهم لأنهم لا يؤمنون وخرج مغاضبا وقرر هجرهم. ويفهم من هذا أن «مغاضبا» أى تبادل الغضب كان بين يونس وقومه. هو غضب على قومه لأنهم لا يؤمنون. ولكن ما هو غير مفهوم هو لماذا غضب قومه عليه. ألأنه خرج من بلدتهم؟ وما داموا لم يؤمنوا فلاشك أنهم فرحوا إذ ذهب وكف عن وعظه لهم. والوعظ ثقيل على نفس لا تقبله. وفرحوا أيضا لأنهم استراحوا من وعيده وتهديده بعذاب مقبل. فكلمة المغاضبة فى مثل هذه الحالة لا تتفق مع واقع الحال. إضافة إلى ذلك فمماً لاشك فيه أن جميع الأنبياء والمرسلين قد كذبتهم أقوامهم فى أول الأمر ولاشك أيضا أنهم قد غضبوا على أقوامهم. وحسبنا ما قاله نوح عليه السلام وهو فى قمة غضبه: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً» (٢٦ – نوح) . ومع ذلك لم يوصف نوح بأنه «ذهب مغاضبا» مع أنه لا يدعو بمثل هذا الدعاء إلا أن يكون غضبه على قومه قد بلغ الذروة. ثم يمضى الأستاذ أحمد بهجت فيقول: لم يكن الأمر الإلهى قد صدر ليونس بأن يترك قومه أو ييأس منهم. وظن يونس أن الله لن يقدر عليه عقوبة لأنه ترك قومه. ويفهم من هذا أن الله قد غضب على يونس لأنه ترك قومه. وحاصل هذا أن يونس غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا . والله سبحانه وتعالى غضب على يونس لأنه ترك قومه دون إذن من ربه. والمغاضبة تكون بين طرفين اثنين لا ثلاثة.

ولكى لا يُنسب إلى يونس أنه غضب من ربه – لأنه لا يجوز لنبىٍّ أن يفعل ذلك – قال الأخفش وآخرون (تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٣٣٠): إنما خرج مغاضبا للملك الذى كان على قومه إذ أراد شعيا النبى والملك الذى كان فى وقته اسمه حزقيا – أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى – وكان غزا بنى إسرائيل وسبى منهم الكثير – ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل. وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه فيعمل على وحى ذلك النبى. ويستمر القرطبى قائلا: فكان أن أوحى الله لشعيا . أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا أمينا من بنى إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بنى إسرائيل فإنى ملق فى قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخلية عنهم. فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله بإخراجى؟ قال لا. قال فهل سمَّانى لك؟ قال لا. قال فها هنا أنبياء أمناء أقوياء. فألحُّوا عليه فخرج مغاضبا للنبى والملك وقومه وأتى بحر الروم. وكان من قصته ماكان فابتُلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا . وهذا التفسير يخالف وقائع التاريخ. إذ أن أحداث قصة يونس عليه السلام وقعت أثناء حكم يربعام الثانى ملك إسرائيل (٧٨٥ – ٧٤٦ ق.م.) أى قبل السبى بما يزيد عن ثلاثين عاماما فليس صحيحا أن مهمة يونس كانت طلب التخلية عن بنى إسرائيل. كما أن حزقيا كان ملكا على يهوذا (المملكة الجنوبية) فى حين أن يونس كان يعيش فى بلدة «جت حافر» وهى بلدة – كما سبق أن ذكرنا – تقع فى إسرائيل الشمالية. وثالثا فإن السبى الأشورى لبنى



شكل ٥٦ – «جت حافر» موطن النبى يونس عليه السلام وسيره إلى نينوى .

إسرائيل كان بنقلهم إلى منطقة فى الفرات الأعلى كما سيأتى فيما بعد (ص ٣٠٦) فى حين أن نينوى تقع على أعالى نهر دجلة وبينهما مسافة تبلغ ٢٠٠ كيلو مترا. وأخيرا فإن رسالة يونس - كما ذكرت في القرآن الكريم - كانت دعوة للإيمان بدليل تكرر كلمة الإيمان ومشتقاتها ثلاث مرات متتابعات: «**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**» (٩٨ - يونس). وهذا لا يدع مجالا للشك فى أن مهمة يونس لم تكن لتخليص بنى إسرائيل. بل كانت دعوة للإيمان بالله. كما أن فى هذه الرواية أمر غير منطقى. إذ الملك هو الذى يأمر يونس بالذهاب إلى نينوى - بناء عن أمر من النبى شعيا بناء عن وحى من ربه. ثم يترك أمر تحديد النبى المرسل إلى نينوى لشعيا. فى حين أن النص القرآنى يفيد وحيا مباشرا من الله سبحانه وتعالى إلى يونس: «**وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس**».

(١٦٣ - النساء).

وقال القشيرى: والأظهر أن المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلّهم فإنه كره رفع العذاب عنهم ويصف القرطبى (جـ ١١ ص ٣٣١) هذا التفسير فيقول: إن هذا من أحسن الأقوال ويذكر تفصيلا أكثر (جـ ١٥ ص ١٢٢) بأنه دعا القوم وبلّغهم رسالة ربه ولكنه وعدهم نزول ما كان حذّرهم من بأس الله فى وقت وقّته لهم ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يرجعوا إلى طاعة الله. فلما أظل القوم العذاب وغشيهم تابوا إلى الله فرفع الله العذاب عنهم. وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذى كان قد توعّدهم به فغضب من ذلك. وقال وعدتهم وعدا فكذب وعدى. فذهب مغاضبا ربه وكره الرجوع إليهم وقد جرّبوا عليه الكذب. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. ورواية أخرى بنفس المعنى عن أبى اسحق عن ابن مسعود قال: إن يونس وعد قومه بالعذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام. ففرقوا بين كل والدة وولدها. وخرجوا وجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا فكف الله عنهم العذاب. وغدا يونس ينتظر العذاب فلم ير شيئا. وكان من كذب ولم تكن له بينة قُتل فخرج يونس مغاضبا. فأتى قوما فى سفينة وكان ما كان من التقام الحوت له. ولا يُعقل أنّ يونس عليه السلام قد غضب لأن قومه آمنوا فكشف الله عنهم العذاب «**لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى**» إذ أن الإخبار بالعذاب هو بمثابة إنذار أخير من الله سبحانه وتعالى وليس من شخص النبى ذاته والأمر متروك لله أولا وأخيرا. إن استمر القوم فى تكذيبهم نزل بهم العذاب. وهنا يمضى النبى عنهم ولسان حاله يقول كما قال صالح عليه السلام: «**ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين**» (٧٩ - الاعراف) أو كما قال شعيب عليه السلام: «**يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين**» (٩٣ - الاعراف). أما إذا وعى القوم هذا الإنذار الأخير وآموا وتابوا إلى الله وكشف الله عنهم العذاب فلاشك أن

النبى يُسَرُّ بذلك لأن الله قد هداهم به وله أجر - لا أن يغضب وكأنما كان يتمنى أن يظل القوم على عصيانهم حتى ينزل بهم العذاب! ولو كان هذا ما فى قرارة نفسه لما كان يصلح للرسالة إذ يفضلُ نزول العذاب بقومه على هدايتهم ومهمة الرسل محددة فى قوله تعالى «**فهل على الرسل إلا البلاغ المبين**» (٣٥ - النحل). ويعرف الرسل حقيقة مهمتهم فهم دائما يقولون لأقوامهم «**وما علينا إلا البلاغ المبين**» (١٧ - يونس).

ومن الأقوال الواهية ما ذكره الطبرى عن شهر بن حوشب (تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١٢١) من أن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم. قال ألتمس دابة. قال الأمر أعجل من ذلك. قال ألتمس حذاء قال الأمر أعجل من ذلك قال فغضب فانطلق إلى السفينة. ومثله ما روى عن الحسن البصرى (عرائس المجالس للثعلبى، ص ٥٠٢) إذ قال: إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن يُنظِره للتأهب للشخوص إليهم فقال له الأمر أسرع من ذلك ولم ينظره حتى سأل أن يُنظره إلى أن يأخذ نعله ليلبسه فقيل له نحو القول الأول وكان رجلا فى خلقه ضيق فقال: أعجلنى ربى أن آخذ نعلى فذهب مغاضبا! وردٌ هذه الأقوال أن بلدة «جت حافر» - موطن يونس - تقع قريبا من ساحل البحر المتوسط فى حين أن نينوى - المرسل إليها - تقع على أعالى نهر دجلة أى أن المسافة بين البلدتين أكثر من ٩٠٠ كيلو مترا لا يمكن قطعها فى أقل من شهر. فلا يمكن أن تكون هذه العجلة التى تصوَّروها لأمر لن يُبَلَّغ قبل شهر من الزمان.

كذلك فإن أغلب المفسرينِ يقولون إن الإرسال إلى نينوى كان قبل التقام الحوت ليونس. ويعتنق هذا الرأى الأستاذ أحمد بهجت (أنبياء الله ص ١٧٥ - ١٧٧) فيذكر أن السفينة كانت ترسو فى ميناء صغير والمفهوم أنه قرب مدينة نينوى أى على أعالى نهر دجلة. ثم يذكر فى بلاغة أدبية وشاعرية تخيُّلا لما دار بين يونس والقبطان حول الأجرة! ولا يُتصور أن يكون فى نهر من الأنهار حوت من الكبر بحيث يبتلع إنسانا. إذ أن مثل هذا الحوت لا يوجد إلا فى البحار. والبحر المتوسط كما ذكرنا يبعد مسافة تزيد عن ٩٠٠ كم. والخليج العربى يبعد حوالى ١١٠٠كم. وما نظن أنه قطع أيا من هاتين المسافتين ليركب السفينة!

ولو كان الارسال إلى القوم قبل التقام الحوت له لجابهتنا مشكلة أخرى وهى أنه فى سورة الصافات جاء قوله تعالى: «**وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الحوت وهو مليم. فلولا أنه كان من المسبِّحين. للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين. وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. فمتعناهم إلى حين**» (١٣٩ - ١٤٨ - الصافات). يقول الألوسى (تفسيره. جـ ٢٣. ص ١٤٧) هو إرسال ثان

إليهم بعد أن أصابه ما أصابه. وقيل هو إرسال لغيرهم. وقيل إن الأولين بعد أن آمنوا سألوه أن يرجع إليهم فأبى. وروى القرطبي (تفسيره جـ ١٥ ص ١٢٨) أن يونس لما انتوى العودة إلى قومه لقي راعيا أخبره أن قومه ينتظرون عودته إليهم فأمره أن يخبرهم أنه لقي يونس. فطلب منه الراعي شاهدا حتى لا يكذبه الناس إذا أخبرهم بذلك فأخبره أن العنزة والمرعى وشجرة فيها ستشهد له. فلما لقي الراعي الناس أخبرهم أنه لقي يونس وأخذهم إلى بقعة الأرض فشهدت له كما شهدت له العنزة والشجرة فصدقوه. ثم أتاهم يونس بعد ذلك فبقى بينهم وكان هذا هو الإرسال الثاني إلى مائة، ألف أو يزيدون. ولكن لو كان الأمر كذلك لما كان ذهابه إليهم مرة ثانية يسمى إرسالا إذ كان القوم قد آمنوا ورفع عنهم العذاب وسياق الآية يدل على أن الإرسال إلى مائة ألف أو يزيدون نتج عنه «فمتعناهم إلى حين» وذلك يعني رفع العذاب وتأجيله لفترة «إلى حين».

من هذا نرى أن كل التفسيرات التي ذكرت - مع كثرتها - لم تؤدِّ بنا إلى تفسير مقبول. ذلك أنها تجاهلت حقائق ثابتة: أين كان يعيش يونس؟ وأين نينوى؟ ومن أي دولة كان يونس؟ وأي امبراطورية كانت نينوى عاصمة لها؟ وكلها أمور لو وضعت في الاعتبار لقادت إلى غير ما قالوا. وفي رأينا أن قصة يونس عليه السلام هي كالتالي:

كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٩٠) كان يونس يعيش راعيا للغنم وجانيا لشجر الجميز في جت حافر (شكل ٥٦) التي تقع حوالي ٢٥كم شرقي ساحل البحر المتوسط. وكانت أشور - على أعالي نهر دجلة - امبراطورية صاعدة فرضت الجزية على الدويلات الأرامية مثل دمشق وحلب وحماة وغيرها. وكذلك على مدن الساحل الفينيقي مثل صور وصيدا. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٧٣) أن يوآش ملك إسرائيل آثر السلامة وارتضى - بدون حرب - دفع الجزية لأشور فقد كانت أشور أقوى دولة في المنطقة في حين كانت إسرائيل دولة صغيرة تقف وحيدة لا ناصر لها. فالعداء بينها وبين شقيقتها - يهوذا - قائم (ص ٢٧١). ومصر كانت من الضعف والتمزق بحيث قفز الليبيون على عرشها مكونين الأسرة ٢٢. وتلاهم النوبيون مكونين الأسرة ٢٤ وهي حينئذ أضعف من أن تكون سندا لغيرها. وأوحى إلى يونس أن يذهب إلى نينوى وينصح أهلها بتقويم سلوكهم وتحذيرهم من عذاب يقع بهم. حتى هذه اللحظة لم يكن يونس نبيا. إذ كان قد بلّغ بالتكليف بالمهمة. وتمام النبوّة يأتي بعد أن يقبل التكليف ولكن يونس خاف وتردد في قبول المهمة الموكلة إليه إذ رأى أن في ذهابه مخاطرة عظيمة أو كما يقال «كمن يضع رأسه في فم الأسد». فشعر بغضب في قرارة نفسه لاختياره هو بالذات لهذه المهمة الخطرة. فما هو إلا راعي غنم وجاني جميز. ليس له عزوة تسانده. ولعله ارتأى - من وجهة نظره - أن لو كان من كلف بالمهمة شيخا من شيوخ إسرائيل أو شخصا من العائلة المالكة أو قائداً من قواد الجيش مثلا ليكون مرهوب الجانب فلا يصيبه من العدو أذى. ولكن أن يكون هو بالذات الذي يُختار لهذه

المهمة – وليس له نصيب من هذه الوجاهات تحميه – ومن هنا كان غضبه، وعدم امتثاله لأمر ربه، ولم يصبر حتى يرى أن تأييد الله له هو أقوى حماية، ولهذا كان قوله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: «**واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت**» مما يعني أن صاحب الحوت – يونس – لم يصبر لحكم ربه ولم يمتثل لأمره، وغضب، ولعدم رغبته فى تنفيذ ما أمر به فإنه اتجه غربا إلى شاطىء البحر المتوسط ليركب سفينة تذهب به بعيداً إلى «ترشيش» وهى أسبانيا وهى آخر الأرض المأهولة فى ذلك الوقت يليها مباشرة بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى)، فكان أن غضب الله عليه لأنه حاول التنصل من المهمة الموكلة إليه.

ومن هنا كانت دقة اللفظ القرآنى وإيجازه «فذهب مغاضبا» واختيار صيغة المفاعلة لصدور الفعل من الجانبين. «**وظن أن لن نقدر عليه**» وظن يونس أن الله لن يُقدِّر عليه عقوبة من أجل محاولة التنصل من المهمة من التقدير وليس من القدرة، وقرأها بعضهم «وظن أن لن نُقدِّر عليه» وآخرون قرأوا «أن لن يُقدِّر عليه»، وحتى لو فُهِم المعنى على أنه من القدرة فلا بأس، فالمخالف لأمر ربه قد يظن أن يد الله لن تطوله، وهذا الظن فى حد ذاته أمر مذموم، وكان يونس يظنه هذا جديرا بأن يُطرح بعيدا وينبذ نبذ النواة لأنه أتى فعلا مذمومًا لولا أن رحمة الله واسعة وعفوه أقرب من غضبه فجعل يونس يدرك خطأه وهو فى بطن الحوت ويجتهد فى التسبيح «**فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت إنى كنت من الظالمين**» (٨٧ – الأنبياء)، ظلم يونس نفسه حين حاول التنصل من المهمة التي أوكلت إليه، وظلم نفسه بمغاضبته لربه وأخيرا لظنه أن الله لن يقدر عليه سواء من التقدير أو القدرة «**لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم**» (٤٩ – القلم)، ونلاحظ هنا استعمال لفظ «نُبِذَ» و كلمة «مذموم» إذ تفيدان أنه قد أتى ما يستحق أن يطرح بعيدا أو يذم لولا نعمة الله ورحمته.

وركب يونس السفينة وهاج البحر بطريقة غير معهودة، وأَرْجَعَ رُبَّان السفينة ذلك إلى وجود راكب ارتكب ذنبا جسيما فى حق الإله، أو أن أصحاب السفينة – وهم وثنيون – كانوا يعتقدون فى «إله البحر» ولتهدئة غضبه يجب التضحية له بأحد الركاب، فأجروا القرعة لاختيار من يلقونه «**فساهم فكان من المدحضين**» أى أجريت القرعة وكانت نتيجتها أن يونس هو الشخص المذنب ويجب إلقاؤه فى البحر، وكان الله سبحانه وتعالى قد هيأ حوتا كبيرا كى يلتقطه وأمره ألا يؤذيه، فما إن سقط يونس فى البحر حتى التقطه الحوت وغاص به فى أعماق البحر، فكانت ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت وظلمة قاع البحر «**فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين**» وظل يُسَبِّح، ويناجى ربه ويستغفره، أما عن المدة التى قضاها يونس فى بطن الحوت فقد قيلت أقوال كثيرة أشهرها أنها ثلاثة أيام لم يكف خلالها عن التسبيح.

ومن التسابيح التى تذكرها التوراة (يونان ٢): «فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت

وقال: دعوت من ضيقى الرب فاستجابنى. صرخت من جوف الهاوية فسمعتَ صوتى لأنك طرحتنى فى العمق فى قلب البحار فأحاط بى نهر. جازت فوقى جميع تياراتك ولجك. فقلتُ قد طردتُ من أمام عينيك. ولكن أعود أنظر إلى هيكل قدسك. قد اكتنفتنى مياه إلى النفس. أحاط بى غمر. التف عشب البحر برأسى نزلت إلى أسافل الجبال. مغاليق الأرض علىَّ إلى الأبد. ثم أصعدتَ من الوهدة حياتى أيها الرب إلهى. حين أعيت فىَّ نفسى ذكرتُ الرب فجاءت إليك صلاتى إلى هيكل قدسك. الذين يراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم. أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك وأوفى بما نذرته. للرب الخلاص».

واستجاب الله لدعاء يونس.

«فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين». (٨٨ - الأنبياء).

«فلولا أنه كان من المسبِّحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون». (١٤٣ - الصافات).

وأمر الله الحوت أن يلفظه على البر. وكان جلد يونس قد تسلَّخ. من الحامض فى معدة الحوت. وكانت أشعة الشمس كفيلة بأن تزيده إلتهابا. فانبت الله عليه شجرة من يقطين - وهو نبات القرع - تظلله بأوراقها العريضة لتحمية من أشعه الشمس حتى برىء.

«فنبذناه بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين» . (١٤٥ - الصافات)

بعد أن بَرِىء يونس من جراحه كان قد أيقن أن الأمر كله بيد الله وأن عليه أن لا يخاف أحداً إلا الله. كان قد اكتسب الحكمة وصار مستعدا لتنفيذ أمر ربه فاكتملت له أركان النبوة:

«فاجتباه ربه فجعله من الصالحين». (٥٠ - القلم).

«وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» . (١٤٧ - الصافات).

وهو نفس العدد الذى ذكر فى التوراة إذ جاء فيها (يونان ٤ : ١١) أن نينوى كان يوجد بها أكثر من ١٢ ربوة من الناس والربوة عند اليهود هى عشرة آلاف شخص. أى أن سكان المدينة كانوا ١٢٠,٠٠٠ نسمة. أخرج الترمذى عن أبى كعب: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» قال يزيدون عشرون ألفا (تفسير الألوسى . جـ ٢٣ . ص ١٤٨).

لما وصل يونس إلى نينوى بدأ ينهى أهلها عن المظالم التى يرتكبونها فى حق الضعفاء والمساكين وحق الشعوب المغلوبة على أمرها التى يفتحونها. واستهانوا به فى أول الأمر لعلمهم أنه من دولة إسرائيل الصغيرة ولكن بعض العقلاء منهم ذكّروهم بما كان لسليمان عليه السلام من هيبة وسطوة فى المنطقة وأن إله إسرائيل إله قادر وأنه لا يجب الاستخفاف بكلام أنبيائهم. وظل يونس مدة ٤٠ يوما يدعوهم ثم أخبرهم أنه خلال ثلاثة أيام سيأتيهم العذاب إن لم يؤمنوا

بأنه مرسل من رب العالمين ويُقلعوا عن مظالمهم ومفاسدهم. وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يخرج من المدينة حتى لا يصيبه العذاب معهم. وبعد أن خرج ثاب أهل المدينة إلى رشدهم واستغفروا لذنوبهم. فرفع الله العذاب عنهم.

«فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين» . (٩٨ - يونس).

«وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. فآمنوا. فمتعناهم إلى حين».

(١٤٧ - الصافات).

وإلى هنا تنتهى قصة يونس كما وردت فى القرآن الكريم.

تزيد التوراة فصلا آخر فى القصة إذ تقول إن يونان اغتم غما ثقيلا لما رأى أن العذاب لم ينزل بهم وخرج من المدينة وجلس شرقيها وصنع لنفسه مظلة وجلس تحتها. وتقول (يونان ٤ : ٦) «فأعد الرب الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان لتكون ظلا على رأسه لكى يُخلصه من غمه. ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحا عظيما. ثم أعد الله دودة عند طلوع الفجر فى الغد فضربت اليقطينة فيبست وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعد ريحا شرقية حارة فضربت الشمس على رأس يونان فذبل. فقال الله ليونان: هل اغتظت من أجل اليقطينة التى لم تتعب فيها ولا ربيّتها التى بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت. أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة».

من هذا نرى أن كاتبى التوراة نقلوا اليقطينة إلى آخر القصة بدلا من أن تكون فى موضعها الصحيح وهو أن يستظل بها حتى يبرأ جلده من التسلخات التى أصابته من وجوده فى بطن الحوت. وخاصة أن التوراة تذكر أن يونس قد صنع لنفسه مظلة وجلس تحتها. فلا حاجة إذا لظل اليقطينة.

كان إيمان أهل نينوى سببا فى عدم وقوع العذاب بهم **«فمتعناهم إلى حين»** ولا ندرى كم من الزمن كان ذلك الحين. إلا أنه من المؤكد أن الأجيال التالية عادت ترتكب نفس المظالم التى ارتكبها الأجداد ويعملون نفس الشرور. وأصبحت نينوى رمزا للظلم والفساد وقهر الشعوب واستعبادها. فكان لابد أن ينالها عقاب من الله. وأن تدمَّر المدينة لتكون شاهدا على مصير المفسدين. وتنبأ النبى «ناحوم» الذى ظهر فى أرض يهوذا بهذا السقوط.

٤ - النبى ناحوم Nahum

ويسمى ناحوم الألقوشي نسبة إلى مدينة «ألقوش» واختُلف في تحديد مكانها. والرأى الغالب أنها تقع في يهوذا جنوب غرب أورشليم (شكل ١٠٥). وزمن نبوته يقع عدة سنوات قبل سقوط أشور ودمار نينوى في عام ٦٠٩ ق.م. ولم يُركِّز ناحوم طويلا على خطايا شعبه وإنما كان تركيزه الأساسي على ما سيلحق نينوى عاصمة أشور من دمار. الأمر الذى يبشر بانهيار الامبراطورية الأشورية وأن ذلك قصاص عادل من الرب لهذه الامبراطورية التى كانت شديدة القسوة في معاملتها للشعوب المغلوبة. وأهم النقاط التى ذكرها هى :

١ - تقرير بقوة الرب (ناحوم ١ : ١) :

«وحى على نينوى. الرب إله غيور منتقم. الرب منتقم من مبغضيه. الرب بطيء الغضب وعظيم القدرة ولكنه لا يبرِّيء البتة». ثم يفصِّل مظاهر قدرة الرب الانتقامية: «الرب في الزوبعة. وفي العاصفة طريقه. ينتهر البحر فينشِّفه ويجفف جميع الأنهار. يزيل باشان والكرمل (هي من أخصب الأرض في شمال إسرائيل) وزهر لبنان يذبل. الجبال ترتجف منه والتلال تذوب. والأرض ترفع من وجهه. من يقف أمام سخطه. ومن يقوم في حموِّ غضبه. غيظه ينسكب كالنار والصخور تنهدم منه. ومع ذلك فالله رحيم بعباده المتقين صالح هو الرب. حصن في يوم الضيق وهو يعرف المتوكلين عليه».

٢ - نبوءة بخراب نينوى (ناحوم ٣) :

يتوعد النبى ناحوم مدينة نينوى بالويل وينعى على أهلها الغش في التجارة والسطوة الشريرة فيقول: «ويل لمدينة الدماء. كلها ملآنة كذبا وخطفا. لا يزول الافتراس». ثم يقدم وصفاً رائعا لهجوم جيش على المدينة فيقول: «صوت السوط وصوت رعشة البكر. وخيل تخبُّ. ومركبات تقفز. وفرسان تنهض. ولهيب السيف. وبريق الرمح. وكثرة جرحى. ووفرة قتلى. ولا نهاية للجثث. يعثرون بجثثهم».

ثم يضرب المثل بما حدث لمدينة طيبة. المدينة الحصينة في صعيد مصر وما عرف عن معابدها الكبيرة والتى كانت تخرج منها الجيوش والمقاتلين الأشداء ومع ذلك استولى عليها الأشوريون. وبالمثل فإن نينوى ستسقط كما سقطت طيبة. فيقول: «هل أنتِ أفضل من نُوَ آمون (طيبة) الجالسة بين الأنهار حولها المياه التى هي حصن وسور لها. كوش (النوبة) قوَّتها مع مصر هي أيضا قد مضت إلى المنفى وأطفالها حُطِّمت في رأس جميع الأزقة. وجميع عظمائها تقيَّدوا بالقيود. أنتِ أيضا تطلبين حصنا بسبب العدو». ويصف ضعف حصونها بقوله: «جميع قلاعك أشجار تين بالبواكير إذا انهزَّت تسقط في فم الآكل هو ذا شعبك نساء في وسطك.

تنفتح لأعدائك أبواب أرضك. تأكل النار مغاليقك». ثم هو يطلب من أهل نينوى أن يحصّنوها للحرب ويخزنوا ماء لا ينفذ بطول الحصار، وأن يبنوا القلاع ويسدوا ثغرات الأسوار. كل ذلك على سبيل التهكم بمعنى أن جميع هذه الاحتياطات لن تمنع سقوط المدينة. فيقول. «استقى لنفسك ماء للحصار. أصلحي قلاعك. ادخلى فى الطين ودوسى فى الملاط. هنالك تأكلك نار. يقطعك سيف. تكاثرى كالغوغاء. تعاظمى كالجراد. أكثرت تُجّارك أكثر من نجوم السماء. رؤساؤك كالجراد، وولاتك كحرجلة الجراد الواقفة على الجدران فى يوم البرد. تشرق الشمس فتطير. ولا يعرف مكانها أين هو. نعست رعاتُك ياملك أشور. اضطجعت عظماوك. تشتّت شعبك على الجبال ولا من يجمع. ليس جبر لكسرك. جرحك عديم الشفاء».

٥ – هوشع النبى Hosea

هو النبى «هوشع بن بئيرى Hosea, son of Beeri» . وكان يعيش فى إسرائيل الشمالية، ودامت فترة نبوته حوالى ٤٠ عاما . وعاصر يربعام الثانى ملك إسرائيل، وأربعة ملوك من يهوذا هم عزريا ويوثام وأحاز وحزقيا . وعاصر النبيين يونس وعاموس فى المملكة الشمالية وإشعياء وميخا النبيين فى يهوذا .

وفى النصف الأول من حياته ركّز هوشع على التنديد بعدم وفاء بنى إسرائيل وخيانتهم للرب على مدى تاريخهم الطويل. فبالرغم من أن الله قد أنجاهم من العبودية فى مصر ورزقهم رزقا حسنا إلا أنهم تركوه وساروا وراء البعل. جاء فى سفر هوشع ٢:٨ على لسان الرب: «وهى (إسرائيل) لم تعرف أنى أنا أعطيتها القمح والزيت، وكثّرت لها فضة وذهبا جعلوه لبعل. لذلك أرجع آخذ قمحى فى حينه وأنزع صوفى وكتّانى. ولا ينقذها أحد من يدى. وأبطّل كل أفراحها وأعيادها ورؤوس شهورها وسبوتها وجميع مواسمها . وأخرّب كرمها وتينها . وأجعلها وعراً فيأكلها حيوان البرية. وأعاقبها على أيام بلعيم التى كانت تبخّرُ له وتنسانى أنا يقول الرب. شعبى يسأل خشبة وعصاه تخبره (وهى إشارة إلى عادة وثنية من عادات العرافة بواسطة عصى ترمى أرضا وعلى حسب موضع سقوطها واتجاهها كان العراف يتنبأ بالمستقبل). يذبحون على رؤوس الجبال (حيث توجد آلهة الوثنيين). ويل لهم لأنهم هربوا عنى. تبًا لهم لأنهم أذنبوا إلىّ. صنعوا لأنفسهم من فضتهم وذهبهم أصناما . حمى غضبى عليهم. إنهم يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة. زرع ليس له غلة لا يصنع دقيقا . وإن صنع فالغرباء تبتلعه. الآن صاروا بين الأمم كإناء لا مسرة فيه. لأنهم صعدوا إلى أشور (أى لجأوا إليها لتحميهم) وصعدوا إلى مصر (أيضا لتحميهم) وقد نسى إسرائيل صانعه وبنى قصورا . وكثّر يهوذا مدنا حصينة. لكن أرسل على مدنه نارا فتأكل قصوره. لا تفرح يا إسرائيل طربا . لأنك قد بعدت عن إلهك

جاءت أيام العقاب. جاءت أيام الجزاء. سيعرف إسرائيل من أجل سوء أفعالهم أطردهم من بيتي. لا أعود أحبهم. جميع رؤسائهم متمردون. أصلهم قد جف لا يصنع ثمرا. يرفضهم الإله لأنهم لم يسمعوا له فيكونون تائهين بين الأمم».

أما في النصف الثاني من حياته فهو يدعو الناس إلى التوبة لأنها سبيل الخلاص عسى الله أن يرفع عنهم غضبه وعذابه. فيقول (هوشع ١٤ : ١): «ازرعوا لأنفسكم بالبر. احصدوا بحسب الصلاح. ارجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك لأنك قد تعثرت بإثمك. خذوا معكم كلاما وارجعوا إلى الرب. قولوا له ارفع كل إثم واقبل حسنا. أنا أشفي ارتدادهم. أحبهم لأن غضبي قد ارتد عنهم. إن طرق الرب مستقيمة والأبرار يسلكون فيها. وأما المنافقون فيعثرون فيها».

الفصل الثالث عشر

سقوط مملكة إسرائيل الشمالية

(السبى الأشورى)

نعود الآن لنستكمل ملوك إسرائيل الشمالية وقد تبقى منهم خمسة ملوك استغرقت مدة حكمهم ٢٥ عاما ثم بعدها سقطت السامرة فى أيدى الأشوريين وانتهت مملكة إسرائيل الشمالية وتم سبى أهلها إلى مدن فى أعالى الفرات كما سيجىء تفصيله فيما بعد.وكان آخر ملك توقفنا عنده هو زكريا بن يربعام (ص ٢٧٤) والذى لم يحكم سوى ستة شهور.

١٥ - شلُّوم بن يابيش

قام شلوم بن يابيش على زكريا بن يربعام الثانى وقتله وملك عوضا عنه فى السامرة. ولكن شلوم لم يمكث فى الحكم إلا شهرا واحدا إذ قام عليه منحيم بن جادى فقتله وملك بدله.

١٦ - منحيم بن جادى

والمشهور عن منحيم بن جادى أنه أحد كبار ضباط الجيش فى أيام زكريا بن يربعام. ولما سمع بالمؤامرة التى قام بها شلوم وقتل فيها زكريا فإنه تحرك بجنوده من ترصة إلى السامرة وقتل شلوم واغتصب الملك لنفسه. واشتهر عنه الظلم والقسوة فى معاملة أعدائه. واستمر على عبادة العجل وهو ما ندد به الأنبياء عاموس وهوشع. وسلَّط الله عليه ملك أشور تجلات بلاسر الثالث الذى هاجم إسرائيل عند الحدود الشمالية الشرقية فقدم له منحيم هدية عبارة عن ١٠٠ وزنة من الفضة. فاكتفى ملك أشور بذلك وبالجزية التى فرضها على إسرائيل ورجع. أما منحيم فقد وضع ضريبة على كل رجل من بنى إسرائيل عبارة عن ٥٠ شاقل من الفضة ليتمكن من دفع الجزية لملك أشور.

وحكم منحيم حوالى ٧ سنوات ثم خلفه ابنه فقحيا.

١٧ - فقحيا بن منحيم

ملك على السامرة – بعد والده – لمدة سنتين . وسار على عبادة العجل. ثم قام عليه أحد قواد جيشه هو فقح بن رمليا فقتله وملك عوضا عنه.

١٨ - فقح بن رمليا

تولى العرش وكانت إسرائيل قد أنهكتها الاغتيالات والإنقلابات والجزية التى كانت تدفعها إلى أشور. ولما كانت خزانة المملكة خاوية فقد عمد إلى التحالف مع «رصين» ملك دمشق ضد «يوثام» ملك يهوذا لمهاجمته واقتسام الغنائم. ولكن الله أخَّر هذه الخطة إذ كان يوثام مستقيما مع الرب (مثل عُزِّيا والده. ص ٣٣٠ و ٣٣١) إلا أنه بعد وفاة يوثام تولى ابنه آحاز عرش يهوذا وعمل الشر فى عينى الرب فسلط الله عليه الأعداء. وأغرى الله به رصين ملك دمشق وفقح بن رمليا ملك إسرائيل فهاجموا مملكته وأخذوا منه سبيا عظيما . وعن هذه الحرب تقول التوراة (٢ أخبار ٢٨ : ٥): «ودُفِعَ أيضا (أحاز ملك يهوذا) ليد ملك إسرائيل فقح بن رمليا فضربه ضربة عظيمة. وقتل إسرائيل من يهوذا ١٢٠,٠٠٠ فى يوم واحد! وسبى بنو إسرائيل من إخوانهم ٢٠٠,٠٠٠ من النساء والبنين والبنات. ونهبوا أيضا منهم غنيمة وافرة وأتوا بالغنيمة إلى السامرة. وكان هناك نبى للرب اسمه «عوديد Oded » فخرج للقاء الجيش العائد إلى السامرة وقال لهم: هوذا من أجل غضب الرب على يهوذا قد دفعهم ليدكم. وقد قتلتموهم بغضب بلغ السماء. واستمر النبى فى توبيخهم ونهاهم عن أن يتخذوا من إخوانهم (من يهوذا) عبيدا وإماء وأمرهم ألا يدخلوا بالسبى إلى السامرة. فاستجاب الشعب وأخذوا المسبيين وكسوهم وأعطوهم طعاما وشرابا وطيبا ليتطيبوا ثم حملوهم إلى أريحا وأطلقوهم ليعودا إلى يهوذا. وعادوا هم إلى السامرة».

وقام رصين بالاستيلاء على ميناء إيلة على خليج العقبة وطرد اليهود منها . وكانت هذه ضربة قوية لموارد يهوذا من التجارة. ثم حاصر أورشليم. ولم يكن أمام ملك يهوذا وسيلة لحفظ ملكة إلا بالتحالف مع ملك أشور. وتقول التوراة (٢ ملوك ١٦ : ٧): «وأرسل أحاز رسلا إلى تجلات بلاسر ملك أشور قائلا: أنا عبدك وابنك. اصعد وخلصنى من يد ملك أرام ومن يد ملك إسرائيل (فقح بن رمليا) القائمين عليَّ. فأخذ آحاز الذهب والفضة الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك أشور هدية. فسمع له ملك أشور وصعد ملك أشور إلى دمشق وأخذها وسباها وقتل رصين وسار الملك أحاز (ملك يهوذا) للقاء تجلات بلاسر ملك أشور فى دمشق (ليشكره على استجابته لندائه) ورأى أحاز المذبح الذى فى دمشق فأرسل إلى أوريا

كاهن أورشليم ليأتي ويراه ويأمر بصنع واحد مثله. ولما عاد الملك إلى أورشليم وجد المذبح مصنوعا فقدّسه وأصعد عليه القرابين وجعله بجوار مذبح النحاس الذى كان موجودا من قبل والذى خصصه لنفسه ليقدم عليه قربانا كلما أراد استخارة الرب فى أمر ما».

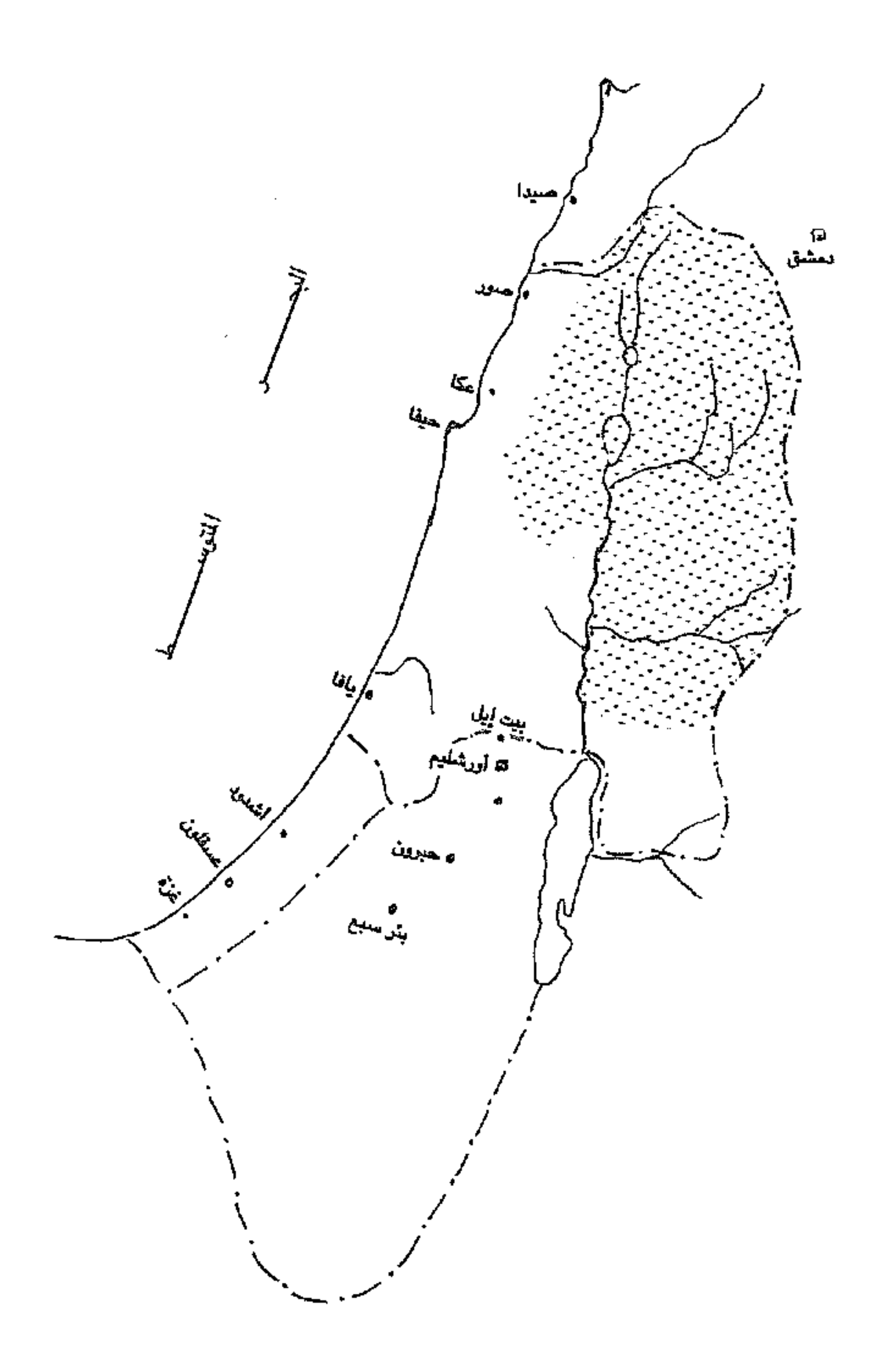
أشور يستولي على شمال إسرائيل :

لم يتوقف جيش أشور عند دمشق ولم يكتف بفك الحصار عن أورشليم إذ وجد تجلات بلاسر أن إسرائيل قد أصبحت لقمة سائغة ولا ناصر لها. وتقول التوراة (٢ ملوك ١٥:٢٩): «وفى أيام فقح بن رمليا ملك إسرائيل جاء تغلات بلاسر ملك أشور وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى وسباهم إلى أشور». وتؤيد كتب التاريخ ذلك إذ تذكر أن تجلات بلاسر هاجم شمال إسرائيل بجيش ضخم وعجلات حربية وخيول وفرسان واستولى على أبل معكة وكانت مدينة حصينة فى أرض نفتالى ٧كم غرب دان، ويانوح ٩كم شرقى صور، وحاصور ١٥كم شمال بحر الجليل. وجلعاد هى الأرض شرق الأردن، أى أن ملك أشور استولى على ما يزيد عن نصف أراضى المملكة الشمالية إسرائيل (شكل ٥٧) ودمجها فى الولايات الأشورية التابعة له ولم يترك لملكها فقح بن رمليا سوى جبل أفرايم والعاصمة السامرة. واستمر تجلات بلاسر فى سيره فأخضع جميع الدويلات الآرامية فى سوريا وبهذا انتهت قوة الآراميين السياسية ولم يعد التاريخ يذكر شيئًا عنهم بعد ذلك.

١٩ - هوشع بن أيلة

هو آخر ملوك المملكة الشمالية. ويرى بعض المؤرخين أن هوشع - بتحريض من تجلات بلاسر ملك أشور - قام بقتل فقح بن رمليا وجلس على العرش مكانه. بينما يرى فريق آخر أن هوشع قام بالانقلاب لحسابه الخاص. وعلى أى حال فإن هوشع - لكى يضمن بقاءه على العرش - أظهر الخضوع التام لأشور واستمر فى دفع الجزية. فكان فى أول سنى حكمه حاكما إسميا على السامرة. وظل يجاهد للحصول على نفوذ له حتى تمكن بعد ٨ سنوات من إقامة نفسه ملكا على عرش إسرائيل.

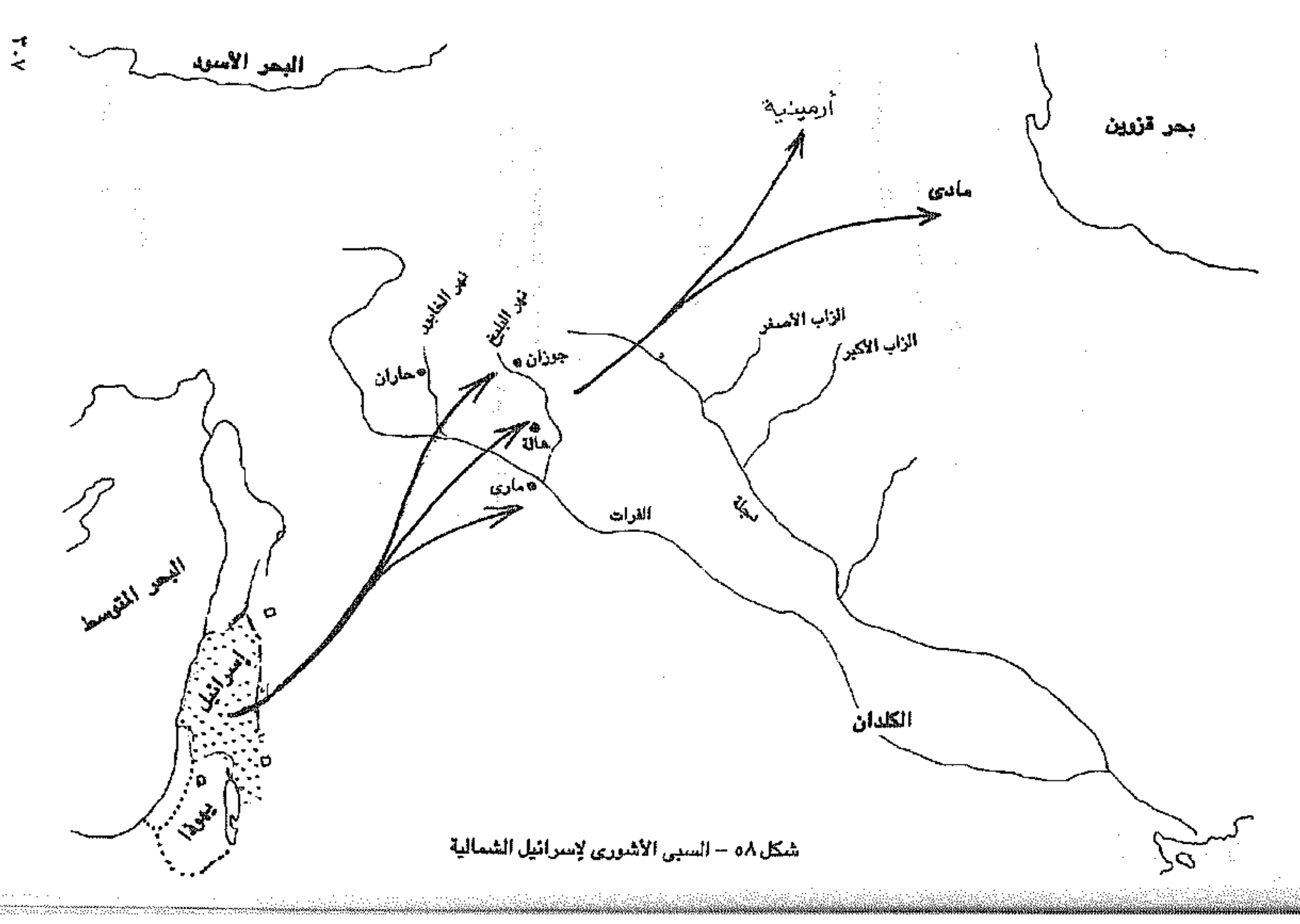
ولما مات تجلات بلاسر تولى بعده شلمناصر الخامس عرش آشور وبدأ الأمل يراود هوشع فى استعادة النصف الشمالى من مملكته وبدأ يراسل ملك مصر - بعنخى - أحد ملوك الأسرة الرابعة والعشرين الذى وعده بالمساعدة فتشجع وامتنع عن دفع الجزية لأشور. وهنا ثار شلمناصر ورأى أن يؤدب هوشع فتوجه وحاصر السامرة ثلاث سنوات ولكنه لم يفلح فى الاستيلاء عليها إذ اضطر للعودة إلى بلاده لإخماد قلاقل بها ووافته المنية فور عودته إلى بلاده وتولى سرجون الثانى العرش بعده.



شكل ٥٧ – الجزء الذى استولى عليه تجلات بلاسر ملك أشور
من أراضى مملكة إسرائيل الشمالية .

سقوط السامرة :

يرى بعض المؤرخين أن سرجون الثاني كان قائد جيش شلمناصر ولما توفى هذا الأخير ولم يكن له ابن يرث العرش تولى هو الحكم بينما يرى آخرون أنه قام بانقلاب ضد الوريث الشرعي وقتله. ولعله كان الرجل المناسب لتولي عرش أشور في هذا الوقت إذ كان الكلدان من الجنوب قد احتلوا بابل وكانت حدوده الشمالية وشمال سوريا يتعرضان لهجرات قبائل من أرمينيا. وراود الأمل مصر في استعادة نفوذها الضائع في فلسطين. واستطاعت أن تكسب إلى صفها ملوك حماة ودمشق وحمص. وبالرغم من كل هذه القلاقل فإن سرجون الثاني أثبت أنه رجل المهمات الصعبة إذ استطاع أن يحافظ على تماسك بلاده. بل ويفرض نفوذه ويهيمن على المنطقة بأسرها. ففي عام ٧٢٠ ق.م حدثت معركة «قرقار» على نهر العاصي انتصر فيها سرجون واستسلم ملك حماة وضُمَّت الولاية إلى الإمبراطورية الأشورية أما جيش مصر فكرَّ راجعا إلى مصر ولكن الجيش الأشوري لحقه عند رفح وهزمه. وأمَّا أهل رفح وغزة الذين ساعدوا الجيش المصري فقد تم سبيهم (الشرق الأدنى القديم. د. نجيب ميخائيل إبراهيم. جـ ٣ . ص ٢٧١). وكان جزءً من الجيش الأشوري لايزال يحاصر السامرة حتى سقطت في عام ٧١٩ ق.م. ودمَّرها ونفى أهلها إلى وادي نهر الخابور. ونقل جزءا من السبي إلى ميديا أو مادي (شكل ٥٨). وفي ذلك الوقت كانت مادي يحدها شمالا بحر قزوين ونهر أراكس وأرمينيا غربا أي أنها كانت تشمل شمال إيران وشمال العراق وأرمينيا وجزءا من شرق تركيا. إلا أن معظم السبي كان إلى وادي نهر الخابور: إلى جوزان وهي حاليا تل خلف على نهر الخابور وجزءا أُسكِنَ في مدينة هابور على نهر الخابور أيضا. ولا ندري هل كان اختيار سرجون الثاني لهذه المناطق عشوائيا أم أنه اختارها لقربها من «حاران» بلدة أجداد إبراهيم عليه السلام ولعلمه أن بني إسرائيل ينتسبون إلى إبراهيم فأراد أن يخفف عنهم وقع السبي بأن وضعهم في مكان قريب من جدودهم الأوائل. ولمَّا وجد أن من تبقَّى من الإسرائيليين لايزال عندهم نزعة التمرد دبَّر خطة يقتل بها وطنيتهم الثائرة. فنقل شعبا من بابل وحماة ومن القبائل العربية في بادية الشام إلى السامرة ومن امتزاج هذا المجاميع نشأت جماعة السامريين Samaritans وكان الوافدون قد أحضروا معهم آلهتهم وأصنامهم. وبسبب الحروب والأوبئة قل عدد السكان فكثرت الوحوش البرية في الأرض. وقد قتلت تلك الوحوش كثيرا من سكان الأرض الجدد فاعتقدوا أن «إله الأرض» غاضب عليهم. فأرسلوا يستغيثون بملك أشور فأرسل إلى أحد الكهنة من السبي الإسرائيلي وأمره بالتوجه إلى السامرة ليعلم السكان الجدد فرائض «إله الأرض. إله إسرائيل». وجاء الكاهن وسكن في بيت إيل. على أن الكاهن لم يقدر أن يجعلهم يتخلوا عن عبادة أصنامهم فظلوا يمارسون عبادة الله كما في شريعة موسى مع عبادة آلهتهم. (قاموس الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين ص ٤٠). وهم لا يعترفون إلا بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة ويعتبرونها



شكل ٥٨ – السبى الأشورى لإسرائيل الشمالية

كتابهم المقدس. وظل هذا المزج قائما فى عبادة السامريين حتى عاد عزرا ونحميا من السبى البابلى ودعيا إلى تنقية الإسرائيليين من الدماء الأجنبية. وتنقية الديانة مما أدخل إليها من ممارسات وثنية. ولكن السامريين ظلوا يعتبرون أنفسهم يهوداً وبنوا لهم هيكلا على جبل جرزيم للإله «زفس» حامى الغرباء (قاموس الكتاب المقدس . ص ٤٥٠) وظلُّوا طائفة مستقلة ومع الزمن ازداد العداء بينهم وبين الإسرائيليين.

وفى منطقة «فرسباد» وهى العاصمة الجديدة التى كان سرجون الثانى قد بناها عُثر على بقايا قصره وعلى حوليات له منقوشة على ألواح حجرية وفيها يقول: فى بداية حكمى الملكى حاصرت «سامى رى نا» (السامرة). وفتحتها وأسرت من سكانها ٢٧,٢٩٠ كغنيمة. أما باقى السكان فتركتهم يمارسون وظائفهم الاجتماعية وعينت عليهم ضابطا من ضباطى وفرضت عليهم جزية مماثلة لجزية الملك السابق. وقد خرج ضدى ملك غزة وملك مصر ولكنى هزمتهم وأخذت الجزية من «سمس» ملكة بلاد العرب ذهبا وخيلا وحميراً.

مصير السبي الأشوري :

كان سبى إسرائيل الشمالية والسامرة وشرق الأردن يشمل عشرة أسباط من بنى إسرائيل. ولم يقدَّر لهذه الأسباط العشرة أن تعود إلى موطنها ثانية (بعكس سبى يهوذا كما سيجىء فيما بعد) ولكنهم ظلوا يتكاثرون فى المناطق التى هُجروا إليها. ويرى هيرودوت أن كثيرين منهم نزحوا فى هجرات متتالية من آسيا إلى أوربا وسكنوا فى المنطقة شمالى البحر الأسود. وقد عُثر فى القرم على مئات من المقابر عليها نصوص تشير إلى استيطان الإسرائيليين هناك وتتحدث عن تجلات بلاسر وسرجون وتذكر قبائل جاد ورأوبين. ولا تدع مجالا للشك فى أن أصحابها هم من نسل القبائل العشر المشرَّدة. كما يرى هيرودوت أنهم بعد أن تكاثروا انتشروا فى مربع يَحُده جنوبا البحر الأسود من مصب نهر الدن إلى مصب نهر الدانوب. وحده الشرقى مجرى نهر الدن. وركنه الشمالى الشرقى بالقرب من موسكو الحالية. أما جانبه الشمالى فتحده سلسلة من التلال تمتد من جنوب موسكو حتى البلطيق أما الحد الغربى فهو نهر الفستيولا وجبال الكربات (شكل ٥٩). ويرى بعض المؤرخين أن سبط دان هاجر شمالا إلى جوار بحر البلطيق وسميت المنطقة بلاد دان أو Dan mares والتى تحورت إلى الدنمارك. ولو كان هذا القول قد قيل فى الوقت الحالى لوجب أخذه بشيىء من الحذر لما نعرفه عن رغبة اليهود فى إرجاع كل حضارة إلى أجدادهم. أما وقائله هو هيرودوت فإننا لا نستبعد حدوثه. ولعل بنى إسرائيل المسبيين إلى شمال العراق أو إلى مادى قد ضاقوا بالعبودية فهاجروا إلى هذه المناطق التى ذكرها هيرودوت. وحسبنا دليلا على إمكانية حدوث ذلك ما حدث من هجرتهم إلى أمريكا فور اكتشافها هربا من الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه فى أوربا وخاصة فى أسبانيا.

شكل ٥٩ — رأى هيرودوت فى انتشار يهود السبى الأشورى .

بهذا نسدل الستار على مملكة إسرائيل الشمالية التى بدأت بعد موت سليمان عليه السلام بمناداة الأسباط العشرة الشمالية بيربعام ملكا عليهم عام ٩٢٢ ق.م. ودامت حتى ٧٢٠ ق.م. أى ٢١٣ سنة تولى خلالها الحكم ١٩ ملكا . اغتيل منهم عشرة وقتل واحد فى حرب وتوفى عشرة ميتة طبيعية. وكان كل ملوكهم يسيرون فى الضلال ويعبدون الأصنام. وأرسل إليهم ثمانية أنبياء لم يفلحوا فى إعادتهم إلى طريق الرب فكان لابد من سقوط مملكتهم.

ونعود الآن لنتابع ما حدث فى المملكة الجنوبية - يهوذا. التى تولى ملكها رحبعام بن سليمان عام ٩٢٢ ق.م واستمرت قائمة حتى عام ٥٨٧ ق . م حين سقطت أورشليم هى الأخرى ولكن بالسبى البابلى.

مملكة يهوذا

ترتيبه	اسم الملك	سنوات حكمه ق.م	مدة الحكم	مصيره	النبى المعاصر
١	رحبعام بن سليمان	٩٣٣ – ٩١٥	١٨ سنة		شمعيا
٢	أبيا بن رحبعام	٩١٥ – ٩١٣	٢ سنة		
٣	أسا بن أبيا	٩١٣ – ٨٧٣	٣٠ سنة		عزريا بن عوديد
٤	يهوشافاط بن أسا	٨٧٣ – ٨٤٩	٢٤ سنة		يحزئيل بن زكريا
٥	يهورام بن يهو شافاط	٨٤٩ – ٨٤٣	٧ سنة		أليعازار
٦	أخزيا بن يهو رام	٨٤٣	١ سنة	قتل فى الحرب	
٧	عثاليا زوجة يهورام	٨٤٢ – ٨٣٦	٦ سنة	قتلت	
٨	يوآش بن أخزيا	٨٣٦ – ٧٩٧	٤٠ سنة	قتل	
٩	أمصيا بن يوآش	٧٩٧ – ٧٦٣	٣٤ سنة	قتل	
١٠	عزيا بن أمصيا	٧٦٣ – ٧٤٢	٢١ سنة		
١١	يوثام بن عزيا	٧٤٢ – ٧٣٦	٦ سنة		أشعياء
١٢	أحاز بن يوثام	٧٣٦ – ٧٢٥	١١ سنة		ميخا
١٣	حزقيا بن أحاز	٧٢٥ – ٦٩٧	٢٨ سنة		
١٤	منسى بن حزقيا	٦٩٧ – ٦٤٢	٥٥ سنة		
١٥	أمون بن منسى	٦٤٢ – ٦٤٠	٢ سنة	قتل	صفنيا – ناحوم
١٦	يوشيا بن أمون	٦٤٠ – ٦٠٩	٣١ سنة		إرميا
١٧	يهو أحاز بن يوشيا	٦٠٩	٣ شهور	عُزِل	حبقوق
١٨	يهو ياقيم بن يوشيا	٦٠٩ – ٥٩٨	١١ سنة		أوريا – حزقيال
١٩	يهو ياكين بن يهو ياقيم	٥٩٨	٣ شهور		حننيا
٢٠	صدقيا	٥٩٨ – ٥٨٧	١٠ سنة		
	سقوط أورشليم	٥٨٧ ق.م.			

قلنا إن سليمان عليه السلام توفى عام ٩٣٣ ق.م. (ص ٢٤١) ونودى برحبعام ابنه ملكا على كل إسرائيل إلا أنه لم يحسن التصرف مع الأسباط الشمالية وعاملهم بفلظة فالتفوا حول يربعام الذى كان قد عاد من مصر ونادوا به ملكا على الجزء الشمالى والذى أصبح يسمى المملكة الشمالية أو إسرائيل ويقى رحبعام ملكا على الجزء الجنوبى وهو ما أصبح يسمى مملكة يهوذا وتشمل سبطى يهوذا وبنيامين (شكل ٥٠ ص ٢٤٥). وقد وعد الرب أن بيت داود سيظل أبناؤه يحكمون من بعده. وفعلا استمر الحكم فى يهوذا يتوارثه الأبناء عن الآباء لحوالى ثلاثة قرون ونصف (٣٤٦ عاما) إلا من فترة قصيرة نجحت فيها الأميرة «عثاليا» بنت أخاب من الاستيلاء على الحكم لمدة ٥ سنوات وحاولت أن تقضى على بيت داود. ولكن يوشيا نجح فى إعادة عرش يهوذا لبيت داود إلى أن سقطت أورشليم عام ٥٨٧ ق.م. فى يد البابليين. وقد حكم مملكة يهوذا ١٩ ملكا اغتيل منهم أربعة فقط وعُزِل واحد فى الحرب والباقون ماتوا ميتة طبيعية. وظهر فى يهوذا عديد من الأنبياء تقسمهم التوراة إلى «أنبياء كبار» وهم الذين كانت فترة نبوّتهم تمتد لعدة سنوات ولهم معجزات لتقنع الناس بصدق إنبائهم عن الله عز وجل. وكانوا يدعون الناس إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأصنام وغالبا ماكانوا يتنبأون بأحداث تقع فى المستقبل لبنى إسرائيل أو للدول المجاورة مما يعتبر تدخلا فى السياسة وهو ما جعلهم فى كثير من الأحيان هدفا للأحزاب السياسية التى لا ترضيها هذه التنبؤات. أما من تسميهم التوراة «أنبياء صغار» فغالبا ما كانت فترة نبوتهم قصيرة وكان الوحى ينزل عليهم لتبليغ الملك أو الحاكم بأمر معين كأن لا يدخل أو - يدخل - حربا معينة. أو لتنبيهه إلى خطيئة ارتكبها. كذلك يمكن تقسيم أنبياء يهوذا إلى أنبياء ما قبل السبى وأنبياء السبى وأنبياء ما بعد العودة وكل ذلك سيأتى تفصيله فى حينه. ولنبدأ الآن فى ذكر ملوك يهوذا.

١ - رحبعام بن سليمان

هو ابن سليمان عليه السلام من زوجته نعمة العمونية. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٤٢) كيف أنه كان السبب - برعونته - فى انقسام إسرائيل إلى مملكتين وملّك هو على المملكة الجنوبية المكونة من سبط يهوذا وسبط بنيامين إلا أنه لصغر سبط بنيامين فقد سميت مملكة يهوذا. كما ذكرنا أيضا كيف أنه حاول أن يسترد سيطرته على الأسباط الشمالية بالقوة (ص ٢٤٣) ولكن شمعيا النبى - بوحى من الله - نهاه عن ذلك. واستجاب رحبعام. وقنع بالمملكة الجنوبية وتكرّس انفصال المملكتين.

تحصين البلاد :

توقع رحبعام أن الصداقة التى تكونت بين يربعام وبين شيشنق - أثناء أن كان يربعام لاجئا

فى مصر – لابد ستجعل شيشنق يفكر فى غزو يهوذا تأييدا لصديقه يربعام. فبدأ رحبعام يحتاط للأمر بإقامة حصون فى المدن الهامة أو تقوية ماهو موجود فيها (شكل ٦٠). وتقول التوراة (٢ أخبار ١١:٥) «وأقام رحبعام فى أورشليم وبنى مدنا للحصار فى يهوذا فبنى حصونا فى بيت لحم وعيطام تقوع وسوكووعدلام ومريشة وزيف وأدورايم ولخيش وعزيقة وصرعة وأيلون وحبرون. وشدد الحصون وجعل فيها قوادا وخزائن ومأكل وزيت وخمر وأتراسا فى كل مدينة ورماحا وشددها كثيرا جدا».

زوجاتـه :

واتخذ رحبعام لنفسه زوجات كثيرة أهمهن :

– محلة حفيدة داود عليه السلام .
– أبيجايل بنت آلياب .
– معكة بنت أبشالوم .
– بالإضافة إلى ١٨ زوجة أخرى و ٦٠ سرية .

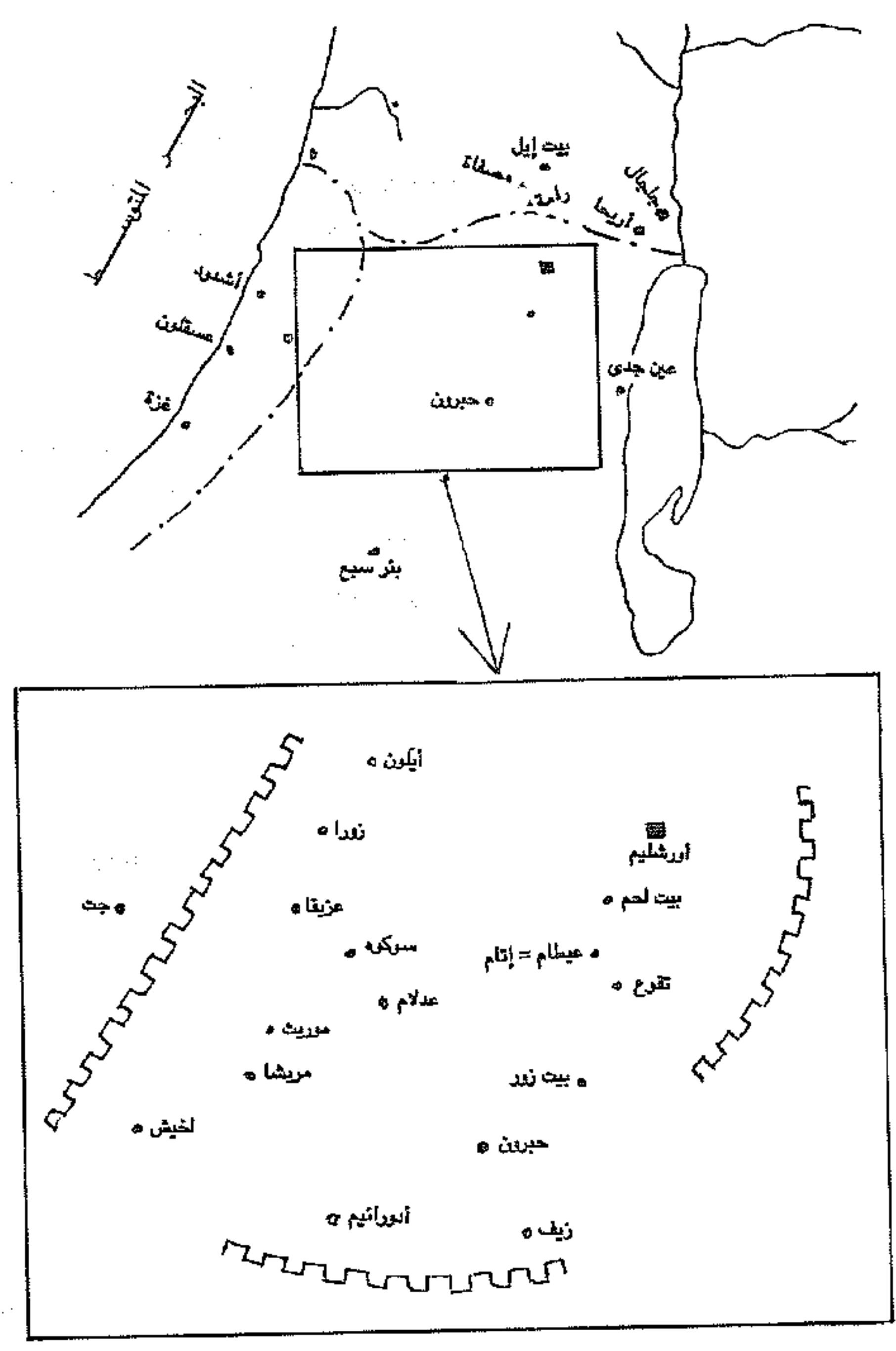
وولد له ٢٨ ابنا و٦٠ بنتا. ووزع أبناءه فى جميع أرض يهوذا وبنيامين وكل المدن الحصينة. وكانت هذه عادة الملوك فى ذلك الوقت، الاكثار من الزوجات لينجبن الكثير من الأبناء للاستعانة بهم فى إدارة شئون البلاد مطمئنين إلى ولائهم.

السياسة الدينية :

سبق أن ذكرنا (ص ٢٤٨) أن يربعام ملك إسرائيل الشمالية أقام معابد لعبادة التيوس والعجول وعين لها كهنة وطرد اللاويين من مملكته فلجأوا إلى يهوذا. تقول التوراة: (٢ أخبار ١١:١٤) «والكهنة واللاويون الذين فى كل إسرائيل مثلوا بين يديه (رحبعام) من جميع تخومهم لأن اللاويين تركوا مسارحهم وأملاكهم وانطلقوا إلى يهوذا وأورشليم لأن يربعام وبنيه رفضوهم من أن يكهنوا للرب وأقام لنفسه كهنة للمرتفعات وللتيوس والعجول التى عمل. وبعدهم جاء إلى أورشليم من جميع أسباط إسرائيل الذين وجهوا قلوبهم إلى طلب الرب إله إسرائيل ليذبحوا للرب إله آبائهم وشددوا مملكة يهوذا. وقووا رحبعام بن سليمان ثلاث سنين لأنهم ساروا فى طريق داود وسليمان». وكان هذا التأييد المتزايد الذى بدأ رحبعام يناله من رجال الدين فى جميع الأسباط دافعا لميل قلوب كثير من شعب إسرائيل إلى رحبعام ولعل هذا هو ما جعل يربعام يطلب من صديقه شيشنق دعم مركزه بغزو يهوذا.

شيشنق يغزو يهوذا (١ ملوك ١٤ : ٢٥) :

وفى السنة الخامسة لحكم رحبعام تحرك شيشنق بجيش عظيم مكون من ٦٠,٠٠٠ فارس

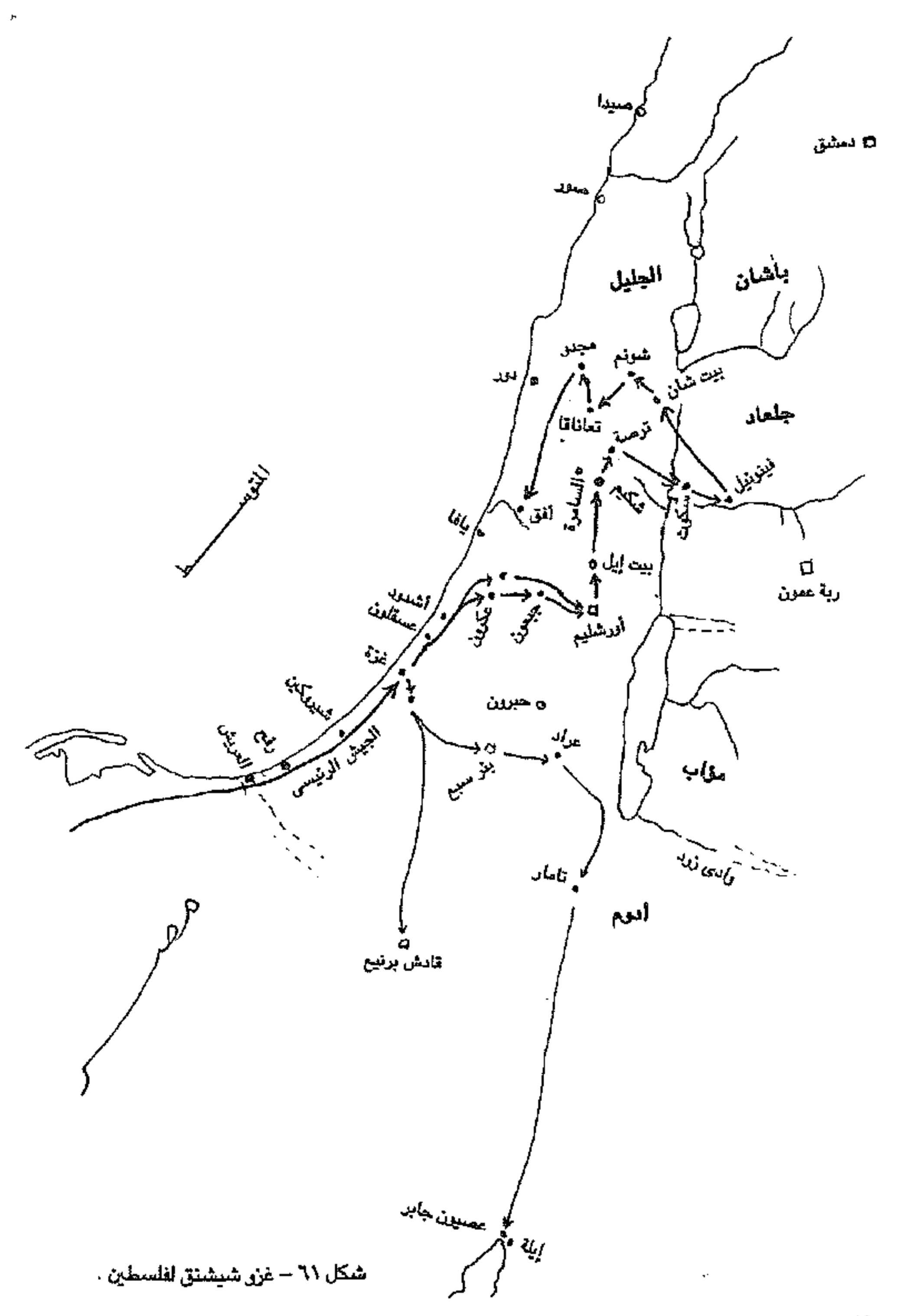


شكل ٦٠ – التحصينات والمدن التي بناها رحبعام لحماية أورشليم ويهوذا.

و ١٢٠٠ مركبة وكان يجتاح المدن فى طريقه. واستولى على المدن الحصينة التى أقامها رحبعام فى الجنوب حتى وصل إلى مشارف العاصمة أورشليم. ويوجد على جدران معبد آمون وصف تفصيلى لغزو شيشنق لفلسطين يقول: سار شيشنق فى السهل الساحلى ماراً برفح واستولى على غزة ثم أرسل جزءا صغيرا من الجيش ليستولى على مدن الجنوب: بير سبع – قادش برنيع – عراد – تامار فى أدوم ثم عصيون جابر على خليج العقبة. أما الجزء الرئيسى من الجيش فقد استمر فى سيره شمالا فاستولى على عكرون وجبعون وجازر وحاصر أورشليم (شكل٦١).

تذكر التوراة أن رحبعام فى السنوات الثلاث الأولى من حكمه اتبع طريق الرب وتمسك بشريعته ولكنه بدأ يتراخى فى تنفيذ الشريعة بعد ذلك ولم تنته السنة الرابعة إلا وكان قد بَعُدَ عن الطريق المستقيم فأقام مرتفعات لآلهة أخرى. ولا ندرى دوافع هذا الانحراف إن كان قد حدث فعلا أم أن ذلك كان مجرد تخيل من كاتبى التوراة لتبرير غزو شيشنق ليهوذا. إذ تقول التوراة إنه لما حاصر شيشنق أورشليم جاء شمعيا النبى إلى رحبعام ورؤساء يهوذا الذين اجتمعوا فى أورشليم وقال لهم (٢ أخبار ١٢:٥) «هكذا قال الرب. أنتم تركتمونى وأنا أيضا تركتكم ليد شيشنق. فتذلل رؤساء يهوذا والملك وقالوا: بارٌ هو الرب. فلما رأى الرب أنهم تذللوا كان كلام الرب إلى شمعيا قائلا: قد تذللوا فلا أهلكهم بل أعطيهم قليلا من النجاة ولا ينصبُّ غضبى على أورشليم بيد شيشنق لكنهم يكونون له عبيدا (أى يدفعون الجزية). فصعد شيشنق ملك مصر على أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ أتراس الذهب التى عملها سليمان. فعمل الملك رحبعام عوضا عنها أتراس نحاس».

وهكذا فإن شيشنق لم يقتل أحدا من الشعب. كذلك لم يدمّر أيًّا من المدن التى استولى عليها. وحتى عندما دخل أورشليم لم يدمرها واكتفى بأخذ مابها من ذهب وفضة فى الهيكل وفى قصور الملك وفرض الجزية على شعب يهوذا. وتروى الكتابات المصرية أنه اتجه شمالا إلى بيت إيل واخترق المملكة الشمالية واستولى على شكيم ثم بيت شان فى الجليل ومجدو ثم سكوث وفنوئيل فى شرق الأردن وفى الغالب أن هذا الجزء الأخير عن غزو المملكة الشمالية هو مجرد مبالغة من المبالغات المشهورة عن الفراعين عند تسجيل أعمالهم الحربية إذ كان شيشنق صديقا ليربعام. فلابد أنها كانت زيارة وديّه للمملكة الشمالية قبل أن يعود إلى مصر. وفى بوابة أقيمت فى الكرنك سجّل شيشنق هذا الانتصار وظهر «آتون رع» يقود خمسة صفوف من أسرى الحرب تتلوه الإلهة «موت» تجر خمسة صفوف أخرى. وكل أسير يمثل قرية أو مدينة وقعت فى قبضة الملك فى حملته هذه. وقد أفادت هذه الحملة مصر اقتصاديا بالغنائم من الذهب والفضة وكذلك بالجزية السنوية التى فرضت على يهوذا وخاصة أن الحالة الاقتصادية فى مصر فى ذلك الوقت كانت متردية.



شكل ٦١ – غزو شيشنق لفلسطين.

وتوفى رحبعام بعد أن حكم يهوذا ١٨ سنه وخلفه ابنه أبيًا.

النبى شمعيا

واسم شمعيا معناه «يهوه يسمع» وتُنطق شَمْعِيا أو شَمَعْيَا. وهو نبى ظهر فى يهوذا فى أيام رحبعام وانحصرت نبوته فى مهمتين:

١ - حينما أعد رحبعام جيشا من ١٨٠,٠٠٠ مقاتل ليخضع الأسباط الشمالية لحكمه بالقوة فإن النبى شمعيا نصحه بعدم مهاجمة إخوانهم فى الشمال.

٢ - حينما حاصر شيشنق أورشليم أخبرهم شمعيا أن ذلك كان عقابا من الله لأنهم حادوا عن الطريق الصحيح.

٢ - أبيًا بن رحبعام

تولى أبيًا الملك فى يهوذا بعد وفاة والده وحكم ٣ سنوات وقلد والده فى كثرة الزوجات والأبناء فقد كانت له ١٤ زوجة و٢٢ ابنا و ١٦ بنتا.

وقد حاول أبيًا استعادة الأسباط الشمالية فسار على رأس جيش من ٤٠٠,٠٠٠ مقاتل وقابله يربعام على رأس جيش من ٨٠٠,٠٠٠ مقاتل. وتقابل الجيشان عند جبل أفرايم وهناك ألقى أبيًا خطبة على يربعام والجيش الذى معه دافع فيها عن شرعية مملكته وأنها تستند إلى أسس دينية وتسير فى طريق الرب أمَّا المتمردون فهم أعداء الله (٢ أخبار ٤:١٣) فقال: «اسمعونى يايربعام وكل إسرائيل. أمَا لكم أن تعرفوا أن الرب إله إسرائيل أعطى الملك على إسرائيل لداود إلى الأبد ولبنيه بعهد مِلح. فقام يربعام بن نباط عبد سليمان بن داود وعصى سيده فاجتمع إليه بطالون وتشددوا على رحبعام. والآن أنتم تقولون أنكم تثبتون أمام مملكة الرب وأنتم جمهور كثير ومعكم عجول ذهب قد عملها يربعام لكم آلهة. أمَا طردتم كهنة الرب بنى هارون واللاويين وعملتم لأنفسكم كهنة كشعوب الأراضى. كل من أتى ليملأ يده بثور ابن بقر وسبعة كباش (أى قدَّمها رشوة) صار كاهنا للذين ليسوا آلهة. وأمَّا نحن فالرب إلهنا ولم نتركه. والكهنة الخادمون للرب هم بنو هارون واللاويون. نحن حارسون حراسة الرب إلهنا وأما أنتم فقد تركتموه وهو ذا الله معنا رئيسا وكهنة وأبواق الهتاف للهتاف عليكم. فيا بنى إسرائيل لا تحاربوا الرب إله آبائكم لأنكم لا تفلحون».

ولكن يربعام لجأ إلى الحيلة (٢ أخبار ١٣:١٣) إذ جعل جزءا من جيشه يدور ويأتى من خلف جيش رحبعام. ولما رأى جنود يهوذا أنهم أصبحوا محاصرين من الأمام ومن الخلف «فصرخوا

إلى الرب. وبوّق الكهنة بالأبواق وهتف رجال يهوذا. ولما هتف رجال يهوذا ضرب الله يربعام وكل إسرائيل أمام أبيا ويهوذا. فانهزم بنو إسرائيل من أمام يهوذا ودفعهم الله ليدهم وضربهم أبيًا ضربة عظيمة. فسقط قتلى من إسرائيل ٥٠٠,٠٠٠ ! وتشجّع بنو يهوذا لأنهم اتكلوا على الرب إله آبائهم وطارد أبيا يربعام وأخذ منه مدن بيت إيل وقراها. ويشانا وقراها. وعقرون وقراها».

ثم مات أبيا ودفن فى مدينة داود وملك ابنه «أسا» بعده.

٣ - أسا بن أبيًا Asa .

ملك «أسا» بعد وفاة والده وحكم لمدة ٤١ عاما وتميزت فترة حكمه بالآتى :

١ - الاصلاح الدينى بتوجيه من النبى عزريا .

٢ - تقوية الجيش .

٣ - الحرب مع الكوشيين .

٤ - الحرب مع إسرائيل .

١ - النبى عَزَرْيا بن عوديد والإصلاح الدينى :

تقول التوراة : (٢ أخبار ١٥ : ١) «وكان روح الله على عزريا بن عوديد (أى نزل عليه الوحى فصار نبيا) فخرج للقاء أسا وقال له: اسمعوا يا أسا وجميع يهوذا وبنيامين. الرب معكم ماكنتم معه. وإن طلبتموه يوجد لكم وإن تركتموه يترككم. ولإسرائيل أيام كثيرة بلا إله حق (أى اتجهوا إلى آلهة باطلة) وبلا كاهن معلم وبلا شريعة ولكن لما رجعوا إلى الرب وطلبوه وُجِد لهم. وفى تلك الأزمان (أوقات الضلال) لم يكن أمان للخارج ولا للداخل ،لأن اضطرابات كثيرة كانت على كل سكان الأراضى. فأُفنيت أمّة بأمة. ومدينة بمدينة. فتشدّدوا أنتم ولا ترتخ أيديكم لأن لعملكم أجرًا. فلما سمع «أسا» هذا الكلام ونبوءة عزريا النبى تشدّد ونزع الرجاسات من كل أرض يهوذا وبنيامين وعمل «أسا» ماهو صالح ومستقيم فى عينى الرب إلهه. ونزع المذابح الغريبة والمرتفعات وكسّر التماثيل وقطّع السوارى وقال ليهوذا أن يطلبوا الرب إله آبائهم وأن يعملوا حسب الشريعة والوصية ونزع من كل مدن يهوذا المرتفعات وتماثيل الشمس وخلع عن أمه لقب «الملكة الأم» لأنها عملت تمثالا وكانت تؤيد الوثنية فقطع التمثال الذى صنعته وأحرقه. وزوّد بيت الرب فى أورشليم بأقداس وآنية من ذهب ومن فضة».

٢ - تقوية الجيش :

بالرغم من أنه لم تكن هناك حرب في السنوات العشر الأولى من حكمه إلا أنّ «أسا» لم يهمل تحصين البلاد وجدّد أسوار المدن وأبوابها وقوّى الحصون وزوّدها بالأتراس والرماح واحتفظ بجيش كبير: ٣٠٠,٠٠٠ رجل من يهوذا و ٢٨٠,٠٠٠ من بنيامين. ومن المؤكد أن هذا الجيش الضخم قد أثار مخاوف الدول المجاورة وجعله هو نفسه يطمع في إعادة السيطرة على طرق التجارة كما كانت أيام سليمان عليه السلام لما تُدره من أموال. ومن المؤكد أيضا أن حكام مصر كانوا يعارضون هذا الاتجاه ولعلهم كانوا يطمعون في استعادة نفوذهم في فلسطين لذلك أزمعوا محاربة «أسا» ملك يهوذا. وبالرغم من أن التوراة تذكر اسم «الكوشيين» إلا أن «كوش» تعني بلاد النوبة، ومصر كانت تحكمها الأسرة ٢٢ الليبية. فمن المؤكد أن «تكرتي الأول» فرعون مصر الليبي قد استعان بجنود من النوبة. لذلك جاء في توبيخ «حناني الرائي» لأسا قوله: «ألم يكن الكوشيون واللوبيون جيشا كثيرا بمركبات وفرسان...».

٣ - الحرب مع الكوشيين واللوبيين :

تقول التوراة (٢ أخبار ١٤:٩) «فخرج إليهم زارح الكوشي (تكرتي الأول) بجيش ألف ألف (المقصود جيش كبير وليس مليونا من الجند) وبمركبات ٣٠٠ وأتى إلى مريشة (مدينة في يهوذا حصّنها رحبعام ٢٠ كم شمال غرب حبرون). وخرج «أسا» للقائه واصطفوا للقتال عند مريشة (شكل ٦٢). ودعا «أسا» الرب إلهه وقال: أيها الرب. ليس فرقا عندك أن تساعد الكثيرين ومن ليس لهم قوة. فساعدنا أيها الرب إلهنا لأننا عليك اتكلنا. وباسمك قدمنا على هذا الجيش. أيها الرب أنت إلهنا. لا يقوى عليك إنسان. فضرب الرب الكوشيين أمام «أسا» وأمام يهوذا فهرب الكوشيون. وطردهم «أسا» والشعب الذي معه إلى «جرار» وغنموا غنيمة كثيرة جدا. ثم رجعوا إلى أورشليم. واجتمع الكل هناك وذبحوا للرب من الغنائم التي أخذوها في الحرب ٧٠٠ من البقر و ٧٠٠ من الغنم. ودخلوا في عهد (أي عاهدوا الله) أن يطلبوا الرب إله آبائهم بكل قلوبهم وكل أنفسهم حتى إن كل من لا يطلب الرب يُقتل من الصغير إلى الكبير ومن الرجال والنساء. وحلفوا للرب بصوت عظيم وهتاف وبأبواق وقرون».

٤ - الحرب مع إسرائيل :

تقع مدينة الرامة ٨ كم شمال أورشليم قرب الحدود بين يهوذا وإسرائيل (شكل ٦٣). وهي أصلا تقع في أرض بنيامين ولكن - كما ذكرنا سابقا ص ٢٥١ - كان «بعشا» ملك إسرائيل قد حصّنها ووضع فيها حامية مهمتها أن تمنع من يريد من سكان إسرائيل الذهاب إلى أورشليم ليتعبد للرب الإله. وبالطبع فإن هذا العمل أثار مخاوف «أسا» ملك يهوذا من أن تكون هذه نقطة انطلاق لغزو بلاده وخاصة لقربها من العاصمة أورشليم. هنا قرر «أسا» الضغط على إسرائيل

فتحالف مع بنهدد الأول ملك دمشق. وكان هذا ذنبا ارتكبه أسا لأنه لم يعتمد على الرب إلهه وتحالف مع ملك وثني. وزاد من الجرم أنه أخذ آنية الفضة والذهب من بيت الرب وأرسلها هدية إلى بنهدد ليتحالف معه. تقول التوراة (٢ أخبار ١٦:٢): «وأخرج أسا فضة وذهبا من خزائن بيت الرب وبيت الملك وأرسل إلى بنهدد ملك أرام الساكن فى دمشق قائلا: إن بينى وبينك وبين أبى وأبيك عهدا . هو ذا قد أرسلت لك فضة وذهبا فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك إسرائيل فيصعد عنى (أى يخف ضغطه علىّ – أو كما نقول بالعامية «يحل عني»). فسمع بنهدد الملك أسا وأرسل رؤساء الجيوش التى له على مدن إسرائيل فضربوا «عيون» و«دان» و«أبل بيت معكة» وجميع مخازن مدن نفتالى (شكل ٦٤) . فلما سمع بعشا كفّ عن بناء الرامة».. وهكذا أفلح الضغط الذى مارسه بنهدد بتحريض من أسا ملك يهوذا – وهدد فيه بالاستيلاء على شمال إسرائيل – أن يوقف خطط بعشا الرامية إلى زيادة استحكامات مدينة الرامة. بل إن أسا انتهز الفرصة وأرسل رجاله فاستولوا على الحجارة والأخشاب التى كان بعشا قد أعدّها وبنى هو بها حصونا فى «جبع» و «المصفاة» لتكون خط دفاع عن أورشليم ضد أى غزو من ناحية إسرائيل.

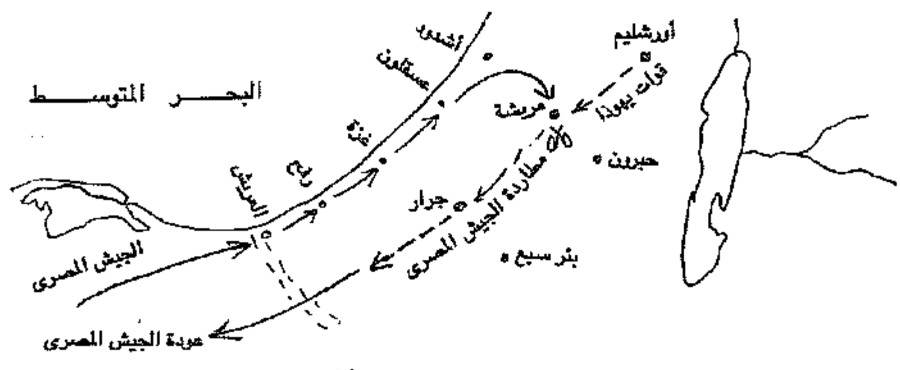
وذهب «حنانى الرائى» ووبّخ أسا لطلبه المعونة من بنهدد ضد بعشا . تقول التوراة (٢ أخبار ١٦ : ٧): «وفى ذلك الزمان جاء حنانى الرائى إلى أسا ملك يهوذا وقال له: من أجل أنك استندت على ملك أرام ولم تستند على الرب إلهك لذلك قد نجا جيش ملك أرام من يدك. ألم يكن الكوشيون واللوبيون جيشا كثيرا بمركبات وفرسان كثيرة جدا؟ فمن أجل أنك استندت على الرب إلهك دفعهم ليدك لأن عينى الرب تجولان فى كل الأرض ليتشدّد مع الذين قلوبهم كاملة نحوه. فقد حَمِقت فى هذا حتى إنه من الآن تكون عليك حروب. فغضب أسا على الرائى ووضعه فى السجن».

وارتكب أسا خطأ ثالثا فى حق الرب. إذ فى أواخر أيامه أصابه مرض فى رجليه. ولما اشتد عليه المرض لم يطلب الشفاء من الرب. بل أرسل فى طلب السحرة والعرافين وكهنة الأصنام ليشفوه من مرضه.

ومات أسا بعد أن حكم يهوذا ٤١ سنة وخلفه ابنه يهوشافاط.

٤ – يهوشافاط بن أسا .

«يهوشافاط» اسم عبرى معناه «يهوه قضى». وقد اشترك مع والده فى الحكم فى أخريات أيامه وحكم منفردا ٢٤ سنة (٨٧٣ – ٨٤٩ ق.م.). وفى إسرائيل كان أخاب بن عمرى قد تولى الحكم فى عام ٨٧٤ ق.م. أى قبل عام واحد من تولى يهوشافاط الحكم فى يهوذا ويمكن تلخيص أهم أعمال يهوشافاط فى الآتى :



شكل ٦٢ – الحرب بين أسا ملك يهوذا وتكرتي الأول فرعون مصر

يشانا
عفرة
بيت إيل
جبل زماريام
عاران
جازر
بيت حورون السفلى
بيت حورون العليا
مصفاة
مخماس
أريحا
جبعا
الرامة
جبعون
جبعة
كريات يعازيم
أورشليم

شكل ٦٣ – الحرب بين أسا ملك يهوذا وبعشا ملك إسرائيل.

. – . – . – . الحدود بين المملكتين . ——— جيش أبيا .

دمشق
عيون
دان
آبل بيت معكة
البحـــر
المتوســـط
عكا
حاصور
حيفا
بحر الجليل
جبل الكرمل
دور

شكل ٦٤ – استيلاء بنهدد على مدن شمال إسرائيل بتحريض من أسا ملك يهوذا .

١ - تنظيم الجهاز القضائى :

عين يهوشافاط قضاة فى كل المدن للفصل فى المنازعات وقال للقضاة (٢ أخبار ٦:١٩): «انظروا ما أنتم فاعلون لأنكم لا تقضون للإنسان بل للرب وهو معكم فى أمر القضاء. والآن لتكن هيبة الرب عليكم. احذروا وافعلوا لأنه ليس عند الرب إلهنا ظلم ولا محاباة ولا ارتشاء».

٢ - الناحية الدينية :

سار يهوشافاط فى طريق أبيه إذ عمل المستقيم فى عينى الرب. كما وضع على رأس القضاء الكاهن الأكبر «أمريا» ووضع الإجراءات الكفيلة بنشر سفر شريعة الرب بين الناس فى كل مكان من مدن يهوذا. تقول التوراة (٢ أخبار ٧:١٧): «وفى السنة الثالثة لمُلكه أرسل إلى رؤسائه أن يقوموا ومعهم اللاويون والكاهنان الأكبران بتعليم شريعة الرب فى يهوذا. وجالوا فى جميع مدن يهوذا وعلّموا الشعب. وكانت هيبة الرب على كل ممالك الأراضى التى حول يهوذا فلم يحاربوا يهوشافاط. وبعض الفلسطينيين أتوا يهوشافاط بهدايا وحمل فضة. والعُربان أيضا (العرب الأبناط) أتوه بغنم من الكباش ٧٧٠٠ ومن التيوس ٧٧٠٠».

٣ - تحصين البلاد :

لم يهمل يهوشافاط تحصين البلاد فبنى حصونا ومخازن للمؤن. وتذكر التوراة (٢ أخبار ١٤:١٧) أن تعداد جيشه بلغ ٩٦٠,٠٠٠ جنديا بالإضافة إلى ٢٠٠,٠٠٠ رامى بالسهام.

٤ - العلاقة مع إسرائيل :

أهم ما يميز عهد يهوشافاط هو تلك العلاقة الودية بين يهوذا وإسرائيل وإن كانت إسرائيل هى الطرف الأقوى. فقد تزوج يهورام - ولى عهد يهوذا - من عثليا ابنة أخاب ملك إسرائيل من زوجته إيزابل. وإيزابل هى ابنة أثبعل ملك صور. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢) أنها هى التى أدخلت عبادة البعل إلى إسرائيل. وعن طريق هذه المصاهرة بين أخاب ويهوشافاط بدأت عبادة البعل تتسلل إلى يهوذا وإن لم تبلغ مبلغ الانتشار الذى وصلته فى إسرائيل الشمالية.

٥ - محاولة إحياء الأسطول البحرى :

حاول يهوشافاط إحياء النفوذ البحرى ليهوذا كما عمل سليمان عليه السلام فقام ببناء السفن فى ميناء عصيون جابر. ولم يستَعِن بالفينيقيين كمل فعل سليمان بل اعتمد على نفسه. وحينما عرض عليه أخزيا ملك إسرائيل الاشتراك معه فى بناء الأسطول وفى عائد رحلاته رفض. غير أن عمال يهوذا لم يكونوا على دراية تامه ببناء السفن ولا بتسييرها لذلك فإن السفن تحطمت وهى لاتزال فى الميناء وفشل المشروع.

٦ - الحرب مع الآراميين :

بعد سنتين من المصاهرة مع إسرائيل قام يهوشافاط بزيارة ودية لصهره أخاب. وقام هذا الأخير بذبح أغنام كثيرة وبقر بهذه المناسبة وانتهزها فرصة فأغوى يهوشافاط بالإنضام إليه في حربه لاسترداد أرض جلعاد من الآراميين وهو ما سبق ذكره (ص ٢٦٤) وقلنا إن النبي ميخا حذرهما من أن نتيجة المعركة لن تكون فى صالحهما وذكرنا أن أخاب جرح فى المعركة ومات ونقلت جثته إلى السامرة. ورجع يهوشافاط إلى بيته فى أورشليم. وتقول التوراة (٢ أخبار ١٩:١) إن «ياهو بن حنانى» الرائى خرج للقائه وقال له: أتساعد الشرير وتحب مبغضى الرب. فلذلك الغضب عليك من قبل الرب غير أنه وُجدَ فيك أمور صالحة لأنك نزعت السوارى من الأرض وهيأت قلبك لطلب الله.

٧ - تحالف ثلاثي ضد يهوذا :

تحالف ملوك مؤاب وبنى عمون وأدوم ضد يهوذا. واجتمعت جيوشهم فى تامار ٣٥كم جنوب غرب الطرف الجنوبى للبحر الميت (شكل ٦٥). وتقول التوراة (٢ أخبار ٢٠ : ٦) «فخاف يهوشافاط وجعل وجهه ليطلب الرب ونادى بصوم فى كل يهوذا. واجتمع يهوذا ليسألوا الرب فوقف يهوشافاط فى جماعة يهوذا وأورشليم فى بيت الرب أمام الدار الجديدة وقال: يارب إله آبائنا. أما أنت هو الله فى السماء وأنت المتسلط على جميع ممالك الأرض وبيدك قوة وجبروت وليس من يقف أمامك. ألست أنت إلهنا الذى طردت سكان هذه الأرض من أمام شعبك إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد فسكنوا فيها وبنوا لك فيها مقدسا لاسمك قائلين: إذا جاء علينا شرٌ. سيف قضاء أو جاء جوع ووقفنا أمام هذا البيت وأمامك لأن اسمك فى هذا البيت وصرخنا إليك من ضيقنا فإنك تسمع وتُخلِّص. والآن هوذا بنو عمون ومؤاب وجبل سعير (أدوم) الذين لم تدع إسرائيل يدخلون إليهم حين جاءوا من أرض مصر بل مالوا عنهم ولم يهلكوهم. فهو ذا هم يكافئوننا بمجيئهم لطردنا من مُلكك الذى ملَّكتنا إياه. يا إلهنا أما تقضى عليهم لأنه ليس فينا قوة أمام هذا الجمهور الكثير الآتى علينا ونحن لا نعلم ماذا نعمل. ولكن نحوك أعيننا. وكان كل يهوذا واقفين أمام الرب فى أطفالهم ونسائهم وبنيهم».

وكان فى المدينة أحد اللاويين اسمه «يحزئيل بن زكريا» نزل عليه الوحى يأمره بأن يشجِّع الشعب ويعدهم بتأييد الرب (٢ أخبار ٢٠ : ١٥) فقال: «اصغوا يا جميع يهوذا وسكان أورشليم وأيها الملك يهوشافاط. هكذا قال الرب لكم: لا تخافوا ولا ترتاعوا بسبب هذا الجمهور لأن الحرب ليست لكم بل لله. ليس عليكم أن تحاربوا. قفوا واثبتوا وانظروا خلاص الرب. فخرَّ يهوشافاط ساجدا على الأرض وكل يهوذا وسكان أورشليم سقطوا سجودا أمام الرب وقام اللاويون ليسبِّحوا للرب بصوت عظيم جدا. ووقف يهوشافاط وقال: اسمعوا يايهوذا وسكان

أورشليم. آمنوا بالرب إلهكم فتأمنوا. آمنوا بأنبيائه فتُفلحوا. وأقام مغنيين للرب ومسبِّحين وبدأوا في الغناء والتسبيح».

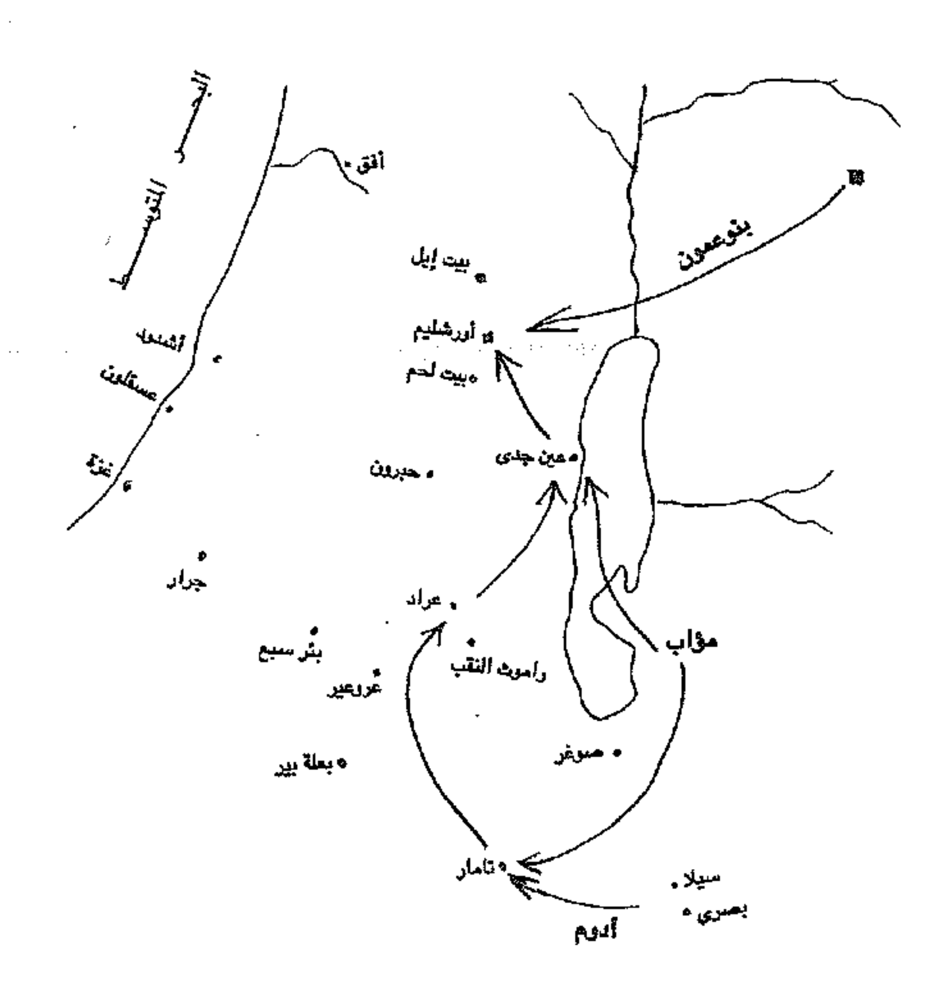
وكان بعض الجنود من مؤاب قد أتوا بقوارب عبر البحر الميت. بينما الآخرون مع أدوم اجتمعوا في تامار ثم تقدموا برا ناحية عين جدي حيث حدَّدوها مكانا للتجمع قبل الهجوم على أورشليم. وألقى الرب الخبال في صفوف الجيوش المهاجمة وبدأت فرقة تقاتل بعضها البعض ظنا منهم أنهم بنو يهوذا. فقام بنوعمون ومؤاب على الأدوميين. ثم اقتتل بنوعمون والمؤابيون. ولما جاء جنود يهوذا إلى أرض المعركة وجدوا جثثا ساقطة وكفاهم الله شر القتال وبدأوا في جمع الغنائم وكانت من الكثرة بحيث أمضوا ثلاثة أيام في جمعها. وفي اليوم الرابع عادوا ودخلوا أورشليم بالرباب والعيدان والأبواق. وفرض الجزية على الدول الثلاث.

وتوفي يهوشافاط بعد أن حكم ٢٦ سنة (٨٧٥ – ٨٤٩ ق.م.) وملك بعده ابنه يهورام.

٥ – يهورام بن يهوشافاط

خَلَفَ يهورام والده وحكم ٨ سنوات. وكان قد تزوج – كما سبق أن ذكرنا من «عثليا» بنت أخاب ملك إسرائيل من زوجته إيزابل ابنة أثبعل ملك صور. وكانت عثليا تتصف بصفات أمها السيئة ومتشبعة بعبادة البعل وقاسية وتحب الشر وتبطش بالأبرياء. وعلى ما يبدو كان يهورام ضعيفا أمامها فجاراها أو لعلها هي التي كانت تملي عليه السياسة التي تريدها. فما إن تولى الحكم حتى قتل إخوته الستة بالسيف إلا أن ابنا صغيرا هو «أخزيا» نجا من القتل. كما قتل يهورام بعض النبلاء ورجال البلاط. وفي عهده دخلت عبادة البعل إلى يهوذا بل إنه عمل على تثبيتها كديانة رسمية للبلاد.

وأرسل له النبي إلياس عليه السلام (إيليا) يوبِّخه على هذا الضلال (٢ أخبار ٢١:١٢): «وأتت إليه كتابة من إيليا النبي تقول: هكذا قال الرب إله داود أبيك، من أجل أنك لم تسلك في طريق يهوشافاط أبيك وطرق أسا ملوك يهوذا بل سلكت في طرق ملوك إسرائيل وجعلت يهوذا وسكان أورشليم يضلُّون كبيت أخاب. وقتلت أيضا إخوتك من بيت أبيك الذين هم أفضل منك. هوذا يضرب الرب بيتك ونساءك وكل مالك ضربة عظيمة وإياك بأمراض كثيرة. بداء أمعائك حتى تخرج أمعاؤك بسبب المرض يوما فيوم. وأهاج الرب على يهورام الفلسطينيين والعرب (النبط في شمال الجزيرة العربية) فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضا ولم يبق له إلا أصغر بنيه. بعد هذا كله ضربه الرب في أمعائه بمرض ليس له شفاء ظل يتعذب منه باقي أيام حياته». وسلَّط الله عليه الفلسطينيين فأغاروا على المدن الواقعة في الجزء الغربي من يهوذا ونهبوها. وانتهزت أدوم الفرصة وأطاحت بولائها ليهوذا



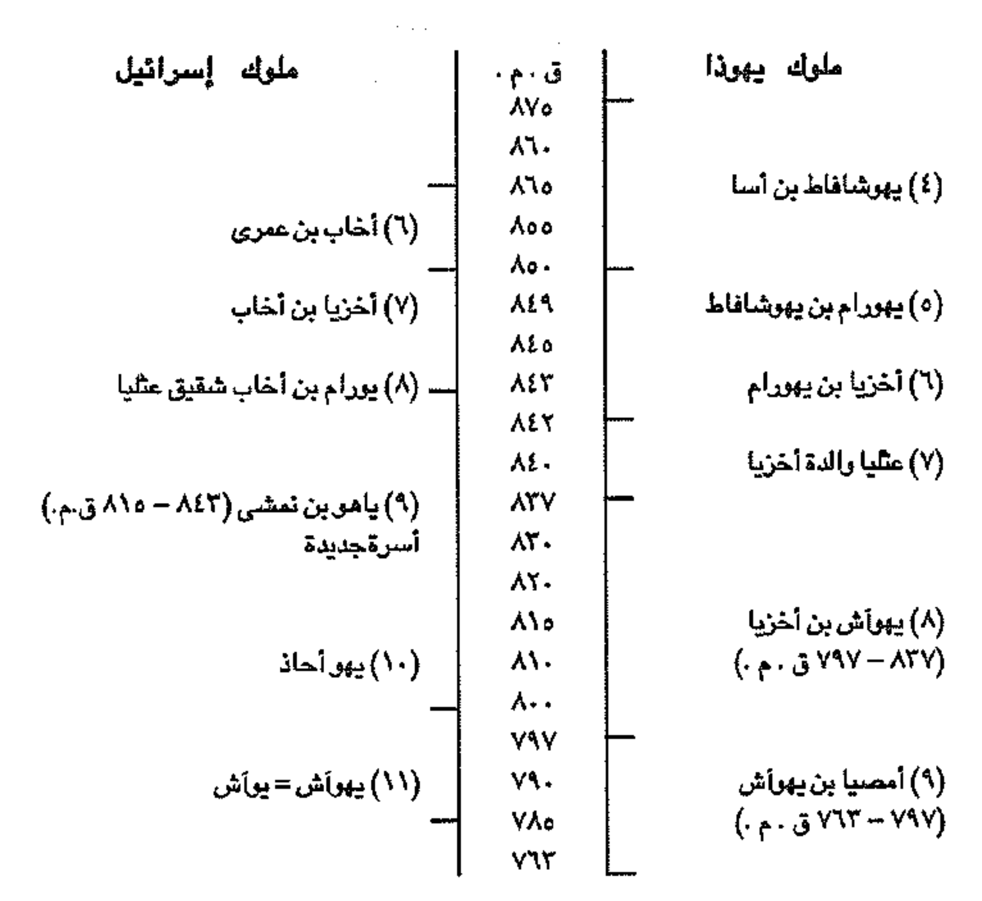
شكل ٦٥ – تحالف مؤاب وأدوم وبنى عمون ضد يهوذا .

وامتنعت عن دفع الجزية. وحاول استعادة نفوذه فى أدوم بحملة عسكرية فشلت. كما هاجمت القبائل العربية الساكنة فى سيناء مدن النقب وجنوب المملكة ونهبوها. وتوفى يهورام بعد أن أفقر البلاد اقتصاديا وأضاع هيبتها السياسية وتوفى غير مأسوف عليه ودُفِنَ فى مدينة داود ولكن ليس فى قبور الملوك.

وتولى الحكم بعده ابنه «أخزيا».

٦ - أخزيا بن يهورام

بعد وفاة يهورام نادى سكان أورشليم بابنه «أخزيا» ملكا مكانه. ولا بأس من إدراج جزء من شجرة النسب فى كلا المملكتين حتى لا يلتبس الأمر على القارىء بين أخزيا بن يهورام سادس ملوك يهوذا وأخزيا بن أخاب سابع ملوك إسرائيل وبين يهوآش ثامن ملوك يهوذا ويهوآش الملك رقم ١١ فى سلسلة ملوك إسرائيل.



وحكم أخزيا سنة واحدة. وكان فيها خاضعا لمشورة والدته عثليا ومستشاريها فسار فى طريق الشر وعبادة البعل. وقد ذكرنا سابقا (ص ٢٦٧) تحالفه مع خاله يورام بن أخاب لمحاربة أرام. وكيف أن يورام ملك إسرائيل جرح فى المعركة ولما عاد إلى يزرعيل ليستشفى دخل عليه ياهو بن نمشى وقتله . وطارد أخزيا ملك يهوذا حتى لحقه عند مجدو وقتله هو ومن معه من أسرته وبطانته.

٧ - عثليا والدة أخزيا

ما إن وصلت الأخبار إلى أورشليم وتعلم عثليا بمقتل ابنها أخزيا - وقد كانت شديدة الرغبة فى العرش - حتى قامت بقتل كل أبناء الأسرة المالكة الذين لهم حق ولاية العرش وأعلنت نفسها ملكة على يهوذا . وأعلنت عبادة «بعل» إله صور ديانة رسمية. ولم ينج من مذبحة عثليا للبيت المالك سوى ابن صغير لأخزيا من زوجة أخرى غير عثليا - كان رضيعا واسمه «يهوآش» واختصاراً «يوآش». خبأته امرأة الكاهن فى بيت الله ٦ سنوات تقول التوراة: (٢ أخبار ١٢:٢٢): «وأما يهوشبعة فأخذت يوآش ابن أخزيا وسرقته من وسط بنى الملك الذين قتلوا وجعلته هو ومرضعته فى مخدع السرير فلم تقتله عثليا وكان معهم فى بيت الله مختبئا ٦ سنين». وفى السنة السابعة أظهرته عمته وحملته إلى الهيكل وعمل الكاهن الأكبر «يهو دا ع» - زوج يهوشبعة - على مبايعة «يهوآش» ملكا على البلاد. وأُخذت البيعة له من رؤساء المئات وقواد الجيش. فتملك عثليا الغضب وخشيت أن يضيع العرش من يدها فأسرعت إلى الهيكل واتهمت يهوداع بتدبير مؤامرة ضدها مستغلا يوآش فيها. فأمر الكاهن قواد الجيش «وقال لهم أخرجوها إلى خارج الصفوف والذى يتبعها اقتلوه بالسيف لأن الكاهن قال لا تُقتل فى بيت الرب. فأخذوها إلى بيت الملك وقتلت هناك (٢ ملوك ١١:١٥). وقطع الكاهن عهدا بين الرب وبين الملك والشعب ليكونوا شعبا للرب. ودخل جميع الشعب إلى بيت البعل وهدموا مذابحه وكسروا تماثيله تماما وقتلوا كاهن البعل أمام المذبح وهكذا انتهت فتنة البعل وكهنته وقُتلت عثليا بعد أن حكمت يهوذا ست سنوات. وأنزلوا الملك الصغير من بيت الرب وأجلسوه على كرسى العرش وأعلنوه ملكا على يهوذا وعمره ٧ سنوات».

٨ - يهوآش = يوآش بن أخزيا

نجح الكاهن يهوداع فى إجلاس يوآش بن أخزيا ملكا على عرش يهوذا وبذلك عاد الحكم لبيت داود. واستمر الكاهن يهوداع يباشر وصايته على العرش ويباشر نفوذه الدينى وربما السياسى كذلك. فظلت الدولة متماسكة ومتمسكة بأوامر الرب. إلا أنه بعد وفاة الكاهن يهوداع تغيّرت الأمور وعادت عبادة البعل مرة ثانية وعبدوا السوارى والأصنام وكان الملك صغير السن

غير متمرِّس على السياسة فلم يستطع مقاومة هذا التيار. وتقول التوراة: (٢ أخبار ٢٤:٢٠) «فأرسل الرب إليهم أنبياء لإرجاعهم إلى الرب فلم يُصغوا لهم. ولبس روح الله «زكريا بن يهوداع الكاهن» (أى نزل عليه الوحى وصار نبيا) فوقف فوق الشعب وقال لهم: هكذا يقول الله: لماذا تتعدّون وصايا الرب فلا تفلحون؟ لأنكم تركتم الرب فقد ترككم. ففتنوا عليه (أى قاموا عليه بفتنة ومؤامرة) ورجموه بحجارة بأمر الملك فى دار بيت الرب وقتله». وهكذا فإن يوآش لم يرد الجميل الذى صنعه معه الكاهن يهوداع الذى حماه من القتل وربّاه فى بيت الرب وأجلسه على العرش، بل قتل ابنه زكريا. كما أن يوآش – نظرا لسوء الحالة الاقتصادية فى البلاد – وكانت إصلاحات بيت الرب يتكفَّل بها الملك وتدفع من خزانة القصر – إلا أن يوآش جعلها تدفع من تقدمات الأفراد ومن مخصصات المعبد مما أغضب الكهنة.

وحدث أمر آخر – ذلك أن حزائيل ملك دمشق قام بغزو يهوذا واقترب من أورشليم نفسها فقدم له يوآش كل الذهب الموجود فى خزائن بيت الرب وبيت الملك. فاكتفى حزائيل بهذه الغنيمة ولم يهاجم أورشليم وعاد إلى بلده. ولكن هذا التصرف أغضب رجال الدين والشعب إذ عدُّوه ضعفا وتهاونا واعتداء على المقدسات. فقام عليه بنو يهوداع الكاهن وقتلوه بدم زكريا أخيهم بعد أن حكم ٣٧ عاما. ودفن فى مدينة داود فى أورشليم ولكن ليس فى قبور الملوك. وملّك ابنه أمصيا بدلا منه.

٩ – أمصيا بن يوآش Amazieh

فور توليه الحكم قام أمصيا بقتل قاتلى والده. وأما بنوهم فلم يقتلهم عملا بشريعة موسى حيث أمر الرب: «لا تموت الآباء لأجل البنين ولا البنون يموتون لأجل الآباء. بل كل واحد يموت لأجل خطيئته» (٢ أخبار ٢٥:٤). ثم بدأ فى تقوية البلاد فأعاد تنظيم بيوت الآباء والرؤساء (رؤساء العشائر) وعمل إحصاء للشعب وكوّن جيشا قويا بلغ ٣٠٠,٠٠٠ جنديا.

الحرب مع أدوم :

كانت أدوم (سعير) دائما تابعة ليهوذا. وقد ذكرنا سابقا (ص ٣٢٦) كيف أنها امتنعت عن دفع الجزية فى أواخر حكم جده يهورام مما كان له أثر سيىء على أحوال يهوذا الاقتصادية. فضلا عن فقدان يهوذا سيطرتها على طرق تجارة بلاد العرب وجنوب العراق المارة عبر سيناء إلى مصر. فانتوى أمصيا الحرب مع سعير. ورغبة فى زيادة قدرته الهجومية فإنه استأجر ١٠٠,٠٠٠ من جنود إسرائيل الشمالية من سبط أفرايم بمائة وزنة من الفضة (وزنة الفضة ٦٠ شاقل – والشاقل ١١,٤جم – فيكون المبلغ كله ٦٨,٤ كيلو جراما من الفضة). وجاء إليه

رجل الله (أحد الأنبياء الصغار ولم تذكر التوراة اسمه) قائلا (٢ أخبار ٧:٢٥) «أيها الملك، لا يأتى معك جيش إسرائيل لإن الرب ليس مع إسرائيل» ثم أمره أن يذهب ويحارب وحده ويتشجع وسيكون الرب معه. فقال أمصيا لرجل الله: فماذا يُعمل لأجل المائة وزنة التى أعطيتها لجنود إسرائيل؟ فقال رجل الله: إن الرب قادر على أن يعطيك أكثر منها. فأفرز أمصيا الجنود الأجراء الذين جاءوا إليه من أفرايم وأمرهم بعدم الاشتراك فى الحرب والعودة لبلادهم. وقاد أمصيا جيشه وحارب بنى سعير (أدوم) وقتل منهم ١٠٠,٠٠٠ وأسر ١٠٠,٠٠٠ ساقهم أحياء إلى مدينة البتراء المبنية على صخرة عالية جداً وأمر جنوده بطرح الأسرى من فوقها فماتوا جميعا. أما الجنود الذين كان قد استأجرهم من أفرايم فإنهم غضبوا لمنعهم من الاشتراك فى الحرب وبالتالى حرمانهم من الغنائم. لذلك فإنهم – فى طريق عودتهم إلى بلادهم – اقتحموا عدة مدن فى يهوذا وقتلوا ٣٠٠٠ فردا ونهبوا نهبا كثيرا.

تقول التوراة (٢ أخبار ١٤:٢٥) إن أمصيا بعد عودته من حرب سعير أتى بآلهة بنى سعير وسجد لها وقدم لها القرابين. فأرسل الله له نبيا يوبخه على فعله هذا ويبين له أن هذه الآلهة لو كان بيدها شيىء لساعدت أهل سعير الذين كانوا يعبدونها. فقاطعه أمصيا وأمره بالسكوت وهدَّده بالقتل. فقال له النبى: «قد علمتُ أن الله قد قضى بهلاكك لأنك عملت هذا ولم تسمع مشورتى». وينفى بعض مفسِّرى أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس – جاميسون وفاوست – جـ ٢ ص ٣٢٣) أن يكون أمصيا قد ضل هذا الضلال. ويرون أنه كانت عنده فكره مشوَّشه عن الإله. وهو يدرك أن يهوه هو إله إسرائيل. ومع ذلك كان يرى أن لكل شعب إلهه. فأراد أن يحرم أهل سعير من آلهتهم فأحضرها معه ووضعها – احتراما لها – فى المعبد. أما الأتقياء من شعبه فكانوا يرون الرب «يهوه» هو الإله الواحد لا سواه. ووضع أى آلهة أخرى بجانبه – أو حتى تحت إمرته – هى خطية كبرى.

الحرب مع إسرائيل :

قرر أمصيا حرب إسرائيل جزاء على ما فعله الجنود الأجراء أثناء عودتهم لبلادهم – وربما طمعا فى أن يستطيع استرداد الفضة التى دفعها لاستئجارهم. ولما علم يوآش الذى كان ملكا على إسرائيل فى ذلك الوقت أرسل له يحذِّره من أن يغتر بقوَّته بعد أن هزم الأدوميين وقال له: «فالآن أقم فى بيتك. لماذا تهجم على الشر فتسقط أنت ويهوذا معك؟» فلم يسمع أمصيا له إذ أعماه الله عن الصواب. ولعل ذلك كان عقابا له من الله جزاء ما فعله من تبجيل آلهة أخرى. وجاء يوآش ملك إسرائيل بجيشه ودارت المعركة عند مدينة «بيت شميس Beth Shemesh» ٢٥كم غربى أورشليم وانهزم أمصيا وأسره يوآش. ثم تقدم إلى أورشليم وهدم جزاء كبيرا من سورها وأخذ كل الذهب والفضة وكل الآنية الموجودة فى بيت الله وخزائن بيت الملك ورجع إلى السامرة بعد أن أطلق سراح أمصيا وتركه حاكما ليهوذا وربما كتابع له.

انخفضت شعبية أمصيا كثيرا بعد هذه المعركة الفاشلة وبسبب انغماسه فى عبادة الأصنام، فثار عليه الشعب فى أورشليم فهرب إلى لخيش فى مدن الفلسطينيين فأرسلوا وراءه جندا قبضوا عليه وقتلوه هناك وأحضروا جثته ودفنوها فى مدينة داود فى أورشليم وكان قد حكم ٣٤ سنة (٧٩٧ – ٧٦٣ ق . م .) وملك بعده ابنه عُزيا .

١٠ – عُزِّيًا بن أمصيا Uzziah

ملك عُزِّيًا على يهوذا بعد مقتل والده أمصيا . وكان تقيا يتبع تعاليم الرب وكان فى زمانه نبى اسمه زكريا (وهو غير زكريا بن يهوداع الذى قتله يهوآش جده) وكان يتبع توجيهاته فأنجح الله أعماله. ويمكن تلخيص أعماله فى:

١ – تحصين البلاد :

بنى ما كان قد تهدم من أسوار أورشليم وبنى أبراجا عند أبوابها وحصَّنها وكان له جيش بلغ ٣٠٧,٥٠٠ مقاتل وهيأ له الدروع والرماح والخوذ والقِسِيّ. وعمل فى أورشليم منجنيقات لتكون على الأبراج والزوايا لترمى الحجارة العظيمة.

٢ – الاهتمام بالزراعة :

اهتم كذلك بالزراعة فحفر آبارا كثيرة وأقام خزانات لمياه الأمطار وحمى قطعانه فى البرية من غارات البدو فبنى أبراجا لاتزال آثارها باقية إلى اليوم ويمكن معرفتها بقطع الخزف الملونة التى يرجع تاريخها إلى عصره.

٣ – العلاقة مع إسرائيل :

قام عُزِّيا بإصلاح الصدع السياسى بين إسرائيل ويهوذا ونتج عن ذلك انصرافهما إلى التجارة مما عاد بالنفع عليهما وبدأ الرخاء يتسلل إلى الحياة العامة.

٤ – حربه مع الفلسطينيين :

هاجم مدينتى جت وأشدود. وهما من مدن الفلسطينيين الخمس الكبرى وكذلك هاجم مدينة «يبنة» قرب ميناء يافا. وقد اشتهرت مدينة جت بكونها مسكنا لبقية العناقيين الجبابرة طوال القامة وتقع ٤٠ كم جنوب ميناء يافا.

٥ – حربه مع القبائل العربية :

حارب عزيا القبائل العربية التى كانت فى مدينة «جور بعل» والتى يظن أنها البتراء، وكذلك قبائل المعينيين الذين كانوا يقطنون فى شمال غرب الجزيرة العربية. وإن كان بعض علماء التاريخ ينسبها إلى مدينة «معان» فى أرض أدوم. وتابع فتوحاته الجنوبية فى شمال سيناء حتى حدود مصر.

٦ – بنى عمون :

حارب بنى عمون وقدموا له هدايا وفرض عليهم الجزية .

وقد قويت مملكة يهوذا أيام عُزيا وسادها الرخاء وهو مالم تشهده منذ أيام سليمان عليه السلام.

نهاية عزِّيا :

لما قويت المملكة وساد الرخاء نسى عزِّيا الرب ونسى تعاليم الشريعة فدخل هيكل الرب ليوقد على مذبح البخور فمنعه عزريا Azariah رئيس الكهنة ومعه ٨٠ من الكهنة وقالوا له: ليس لك ياعزِّيا أن توقد للرب. بل للكهنة بنى هارون المقدسين للإيقاد. اخرج من المقدس لأنك خنت وليس لك من كرامة عند الرب الإله (٢ أخبار ٢٦ : ١٧) فحنق عزيا. وبينما لاتزال مجمرة البخور فى يده ضربه الرب بالبَرَص فبادر إلى الخروج من المقدس واعتزل الناس وأقام فى مايمكن تسميته بمكان عزل المرضى وتولى ابنه يوثام تصريف أمور المملكة إلى أن توفى فملك بعده.

١١ – يوثام بن عزيا

ملك «يوثام بن عزيا» على أورشليم ٤ سنوات (٧٤٠ – ٧٣٦ ق . م .). وسار على طريق الرب. كما استكمل التحصينات التى بدأها والده فأعاد بناء الباب الأعلى فى بيت الرب. وبنى مدنا فى جبل يهوذا وبنى قلاعا وأبراجا فى الغابات وعلى طرق القوافل. مما يدل على أن المملكة كانت فى فترة رخاء نسبى. كذلك فإن الصراع بين أشور الصاعدة والدويلات الأرامية حوَّل عنه الخطر الذى كان دائما يتهدد يهوذا من الأراميين مما أتاح له فرصة الهجوم على بنى عمون وفرض عليهم الجزية ظلوا يدفعونها له لمدة ٣ سنوات وكانت تتكون من ١٠٠ وزنة من الفضة و ١٠,٠٠٠ شوال قمح و ١٠,٠٠٠ شوال شعير. ثم توفى يوثام وملك ابنك أحاز بدلا منه.

١٢– آحاز بن يوثام

كان آحاز فى العشرين من عمره حين ملك على يهوذا . ولكنه سار فى طريق الضلال فصنع تماثيل للبعل وأوقد على المرتفعات فكان أن سلَّط الله عليه الأعداء من كل جانب :

١ – هاجمه ملك أرام دمشق وسبى منه سبيا كثيرا أتى بهم إلى دمشق. وزاد آحاز ضلالاً بأن ضحَّى لآلهة دمشق وطلب عونها إذ اعتقد أنها الآلهة الأقوى ولذلك انتصرت دمشق عليه. بل إنه شيد مذبحا فى معبد أورشليم على النمط الذى رآه فى دمشق وقدم عليه القرابين.

٢ – هاجمه ملك إسرائيل «فقح بن رمليا» وهو ما سبق ذكره (ص ٣٠٢) وضربه ضربة عظيمة وقتل ١٢٠,٠٠٠ في يوم واحد. كما قتلوا ابن الملك ورئيس البيت وسبى إسرائيل ٢٠٠,٠٠٠ من النساء والبنين والبنات ونهبوا أيضا غنيمة وافرة وعادوا بالسبي والغنائم إلى السامرة. وخرج النبي عوديد للقاء جيش إسرائيل المنتصر والعائد إلى السامرة وأخبرهم أن الله سلّطهم على يهوذا ليعاقبهم على ضلالهم. ولكن قسوتهم في معاملة إخوانهم قد أغضبت السماء وندد بما فعلوه من قتل وسبي وذكّرهم بأنهم أيضا لهم خطاياهم ونصحهم بإطلاق سراح الأسرى. واستمع له رجال إسرائيل وأطلقوا سراح الأسرى وألبسوهم كسوة وأطعموهم وسقوهم وحملوهم على حمير وأتوا بهم إلى أريحا وتركوهم ليعودوا إلى يهوذا وعادوا هم إلى السامرة كما سبق ذكره.

٣ – التحالف مع أشور :

كان النبي إشعياء معاصرا لآحاز وجاء إليه ونصحه بعدم معاداة أشور. وقاد النبي إشعياء الحركة ضد الحلف المعادي لأشور. وكان يرى أن الأمر في حقيقته نزاع بين أشور ومصر وأن يهوذا يجب أن تقف موقف الحياد ومن ثم بدأ يدعو الملك والشعب إلى البعد عن الأحلاف وأن يضعوا ثقتهم في ربهم «يهوه». وحدث أن دمشق وإسرائيل بدأتا في تكوين حلف ضد أشور. ورأوا أن لا يكون يهوذا شوكة في ظهرهم وذلك بأن يغزوه ويخضعوه لنفوذهم. فتحالف «رصين» ملك دمشق و«فقح بن رمليا» ملك إسرائيل ضد يهوذا. وعلم آحاز بذلك «فوجف قلبه وقلوب شعبه. فقال الرب لأشعياء (أشعياء ٧:١) اخرج لملاقاة آحاز وقل له اهدأ لا تخف ولا يضعف قلبك لأن أرام تآمرت عليك بشرٍ مع ابن رمليا قائلة نصعد على يهوذا ونستفتحها لأنفسنا. هكذا يقول السيد الرب. هذا لن يكون. لأن رأس أرام دمشق ورأس ابن رمليا والسامرة ينكسر».

ولكن آحاز لم يكن إيمانه بالله صادقا ولم يتوكل على الله ورأى أن الوسيلة لحفظ ملكه هي بالتحالف مع ملك أشور. فأرسل أحاز رسلا إلى تغلات بلاسر ملك أشور قائلا: أنا عبدك وابنك. اصعد وخلصني من يد ملك أرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين عليّ (وقد سبق ذكر ذلك ص ٣٠٢ عند الكلام على فقح بن رمليا ملك إسرائيل). وأخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك أشور هدية. فسمع له ملك أشور وصعد إلى دمشق وأخذها وسبى أهلها وقتل رصين ملك دمشق وبذلك انتهت دولة دمشق الأرامية وأنقذ أورشليم من السقوط. وفي المقابل فرض على آحاز دفع الجزية لأشور. وفي نقش لتجلات بلاسر الأشوري نجد اسم آحاز مذكورا فيمن كانوا يدفعون الجزية لأشور ضمن آخرين مثل ملوك حماة وأرفاد ومؤاب وغزة وعسقلون وأدوم و ... وغيرهم. وكانت الجزية المقررة على يهوذا تتكون من ذهب وفضة ورصاص وحديد وقصدير وملابس صوفية زاهية الألوان وكتان وجميع المنتجات الثمينة في بلاده وأحصنة وبغال.

ولكن الأخطر من هذا كله أن آحاز تأثر بالمعتقدات الأشورية فأدخل في يهوذا طقوس التضحية بالطفل التي كان يمارسها الأشوريون. حتى إنه قدَّم ابنه الوحيد لنيران «مردوخ» إله الأشوريين. وفي نفس الوقت أدخل في المعبد تماثيل للخيول المقدسة كتعبير عن الولاء لمعبودات أشور إرضاء لملك أشور.

٤ – **نقض الأدوميون** ولاءهم ليهوذا واستولوا على ميناء إيلات.

٥ – **الفلسطينيون** : تقول التوراة (٢ أخبار ٢٨ : ١٦) «وسلط الله عليه (على آحاز) الفلسطينيين وأخذوا بيت شميس وأيلون وجديروث وسوكو وتمنة وجمزو. (شكل ٦٦) واضطر سكان يهوذا إلى التراجع والسكنى في منطقة جبال يهوذا وخاصة في أورشليم وما حولها. وزاد من ازدحام أورشليم أن كثيرين من سكان إسرائيل الشمالية أتوا إلى يهوذا هربا من قسوة تجلات بلاسر الأشوري.

زيادة ضلال آحاز :

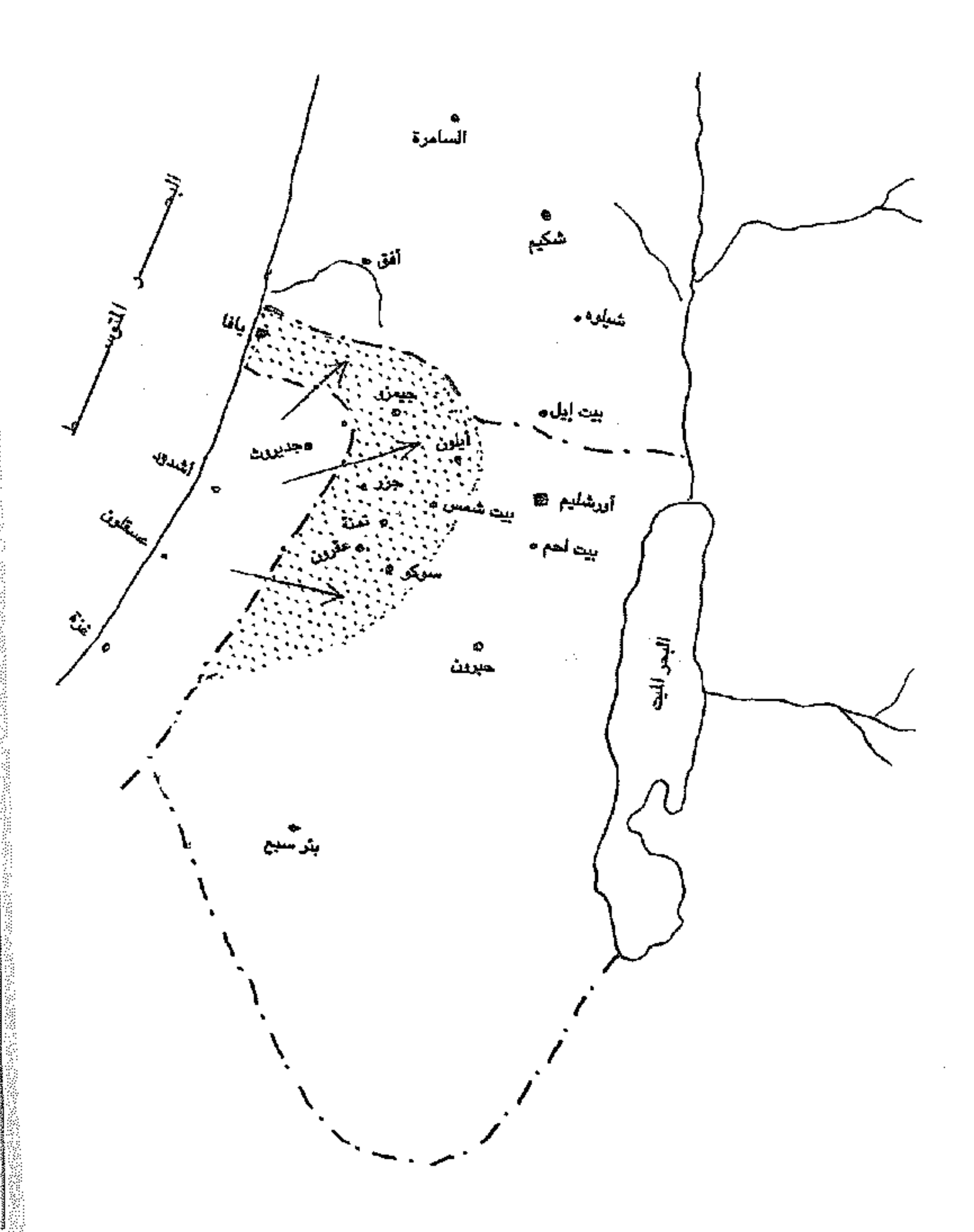
(٢ أخبار ٢٨ : ٢٢) «وفي ضيقه زاد آحاز خيانة للرب وذبح لآلهة دمشق وقال لأن آلهة ملوك أرام تساعدهم أنا أذبح لهم فيساعدونني. وجمع آحاز آنية بيت الرب وقطعها وأغلق أبواب بيت الرب وعمل لنفسه مذابح في كل زاوية في أورشليم. وفي كل مدينة في يهوذا عمل مرتفعات للإيقاد لآلهة أخرى. وأسخط الرب إله آبائه». وقامت ثورة من بعض من أغضبهم ضلال آحاز قُتِلَ فيها ابنه ورئيس وزرائه ولكن آحاز نفسه نجا من القتل. وظل يحكم يهوذا وأخيرا مات غير مأسوف عليه عام ٧٢٥ ق . م . بعد أن حكم لمدة ١٠ سنوات .

١٣ – الملك حزقيا بن آحاز Hezekiah

حَزَقيا أو حِزْقيا اسم عبري معناه «الرب قد قوّى» أو «الرب قوة» وهو ابن آحاز ملك يهوذا وحكم لمدة ٢٨ سنة (٧٢٥ – ٦٩٧ ق.م.) ويمكن تلخيص أهم أعماله في الآتي:

١ – السير في طريق الرب المستقيم :

في السنة الأولى من حكمه فتح حزقيا أبواب بيت الرب ورمَّمها وأرجع الكهنة اللاويين وجمعهم وأمرهم أن يُقدِّسوا بيت الرب وأن يخرجوا النجاسة منه وذكر لهم ما كان من ضلال آحاز فكان أن أسلمه الرب إلى أعدائه (٢ أخبار ٢٩ : ٢٥) «وقال لهم: اسمعوا لي أيها اللاويون. تقدَّسوا الآن وقدِّسوا بيت الرب إله آبائكم وأخرجوا النجاسة من القدس لأن آباءنا خانوا وعملوا الشر في عيني الرب إلهنا. وتركوا وحوَّلوا وجوههم عن مسكن الرب وأغلقوا أبواب الرواق وأطفأوا السُرُج ولم يوقدوا بخورا ولم يصعدوا محرقة في القدس لإله إسرائيل فكان



شكل ٦٦ – المنطقة التي استولى عليها الفلسطينيون من أرض يهوذا أيام الملك أحاز بن يوثام .

غضب الرب على يهوذا وأورشليم وأسلمهم للعدى. وهوذا قد سقط آباؤنا بالسيف وبنونا وبناتنا ونساؤنا فى السبى لأجل هذا. والآن فى قلبى أن أقطع عهدا مع الرب إله إسرائيل فيرد عنا حمو غضبه. يابَنِيّ. لا تضلوا الآن لأن الرب اختاركم لكى تقفوا أمامه وتخدموه وتكونوا خادمين وموقدين له. فقام الكهنة وطهَّروا الهيكل من النجاسة التى كان آحاز قد أدخلها فيه. وأعادوا الآنية التى كان آحاز قد طرحها. وقدَّم الكهنة ذبائح خطية حسب الشريعة عن كل إسرائيل وبعد أن سبَّحوا سجدوا للرب».

وأرسل حزقيا رسلا إلى جميع إسرائيل ويهوذا ومنسى (شرق الأردن) كى يأتوا إلى بيت الرب فى أورشليم ليعملوا فصحا للرب. وكان هذا العيد قد أوقف منذ زمن طويل. وكان معظم الشعب يهزأ بالرسل. ولكن بعض الشعب آمن وأتى إلى أورشليم وعملوا عيد الفصح وعيد الفطير. وقدَّم حزقيا ذبائح سلامة ١٠٠٠ ثور و ٧٠٠٠ من الضأن. والرؤساء قدموا ١٠٠٠ ثور و ١٠,٠٠٠ من الضأن. وكان فرح عظيم فى أورشليم لأنه من أيام سليمان بن داود لم يكن كهذا فى أورشليم (٢ أخبار ٣٠:٢٥). وقام الكهنة اللاويون وباركوا الشعب. وخرج الشعب وكسَّروا الأنصاب وقطعوا السوارى وهدموا المرتفعات والمذابح فى كل مدن يهوذا وبنيامين وأفرايم ومنسَّى. وجاء بنو إسرائيل وبنو يهوذا بالزكاة المفروضة على أوائل الحنطة والزيت والعسل ومن كل غلة الحقل وهى العشر. وعشر البقر والضأن والغنم.

لاشك أن سرجون الثانى ملك أشور قد استاء من دبلوماسية حزقيا ومحاولته التقريب بين يهوذا وإسرائيل إذ أن تحالفا كهذا يمكن أن يشكل قوه تستطيع الوقوف فى وجه أطماعه. من هنا كان إسراعه باستكمال ما بدأه سلفه شلمناصر الخامس من الاستيلاء على إسرائيل الشمالية إلى أن سقطت السامرة فى عام ٧٢٢ ق.م. ولاشك أن سقوط السامرة فى يد الأشوريين وتهجير أهلها إلى الفرات الأعلى فى السنة السادسة من حكم حزقيا كان له دوىّ عالٍ فى يهوذا. صحيح أنه كان هناك تنافسا – وصل إلى حد العداء أحيانا – بين المملكتين إلا أن سقوط الشقيقة جعل يهوذا تتوقع نفس المصير. وخاصة أنها كانت قد بدأت تسير فى نفس طريق الضلال بعبادة الأصنام التى أدخلتها عثليا أيام أخزيا بن يهودام وأصبح للأوثان حزب قوى فى البلاد وفى البلاط الملكى أيضا. ولعل الآية التى تنطبق على ذلك الحال هى قوله تعالى:

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» . (١٦ – الإسراء).

«ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون» . (١٣١ – الأنعام).

فكانت إرادة الله أن يتولى الأمر فى يهوذا ملوك يسيرون فى الضلال ويفسقوا فيها فيحق عليها القول وتنال جزاءها. ولقد حاول حزقيا جهده فى تجنب مصير كمصير المملكة الشمالية.

فسار فى طريق الرب واهتم بتحصين البلاد وخاصة العاصمة أورشليم واستمع إلى تعليمات النبى إشعياء واتبعها. ولكن خلفاءه لم يسيروا على منواله بل ساروا فى طريق الضلال فحق عليهم القول ودُمِّرت أورشليم وسُبِىَ أهلها كما سيجىء فيما بعد.

٢ - تأمين مصدر مياه لأورشليم :

ومن أعمال حزقيا المجيدة هو تأمين مصدر مياه عذبة لمدينة أورشليم، حتى يمكنها أن تقاوم أى حصار لمدة طويلة. فقد كانت أورشليم تعتمد على مياه الشرب التى تصلها من «عين جيحون» والتى كانت توجد تحت سفح جبل صهيون (شكل ٣٤ ص ١٢٢) وهى بهذا كانت معرضة لهجوم الأعداء، فإذا تم لهم الاستيلاء عليها أمكنهم قطع المياه عن أورشليم فلا تستطيع أن تصمد للحصار طويلا. لذلك قام حزقيا بتغطية هذه العين تماما وجعل مياهها تسير فى قناة طولها ١٧٧٧ قدما محفورة فى الصخر لتصب في خزان كبير داخل أسوار المدينة يُسمَّى بركة سلوام Siloam Reservoir وكانت أبعاده ٢٠×٣٠ قدما. وتقول التوراة: (٢ أخبار ٣٢:٣٠) «وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود». وتقول أيضا (٢ ملوك ٢٠:٢٠) «وعمل البركة والقناة وأدخل المياه إلى المدينة». وقد اكتشف فى عام ١٨٨٠ «لوح سيلوم» وهو عبارة عن لوحة تذكارية مكتوب عليها ٦ أسطر تصف كيف حفر العمال هذا النفق من الناحيتين حتى التقيا فى المنتصف وتدفقت المياه لتملأ الخزان.

٣ - التحصينات الحربية :

أقام حزقيا حاميات فى المدن الاستراتيجية فى جبال يهوذا والشفيلة (الجزء المجاور للسهل الساحلى، انظر ص ٨) وزودها بالضباط والجنود والأسلحة والدروع والمؤن. وفى الحفريات التى أجريت فى فلسطين وُجدت جرار نبيذ يرجع تاريخها إلى هذه الفترة ومختومة بختم مكتوب عليه: «من الملك من مدينة حبرون» أو «من الملك إلى مدينة سوكو» أو إلى «زف» والمعنى أنها كانت من مدن بها ضياع كروم تابعة للملك ومنها تشحن جرار النبيذ إلى الحاميات فى المدن المختلفة.

٤ - استعادة بعض المدن من الفلسطينيين :

كانت وفاة سرجون الثانى (٧٠٥ ق . م .) حافزا لكثير من دول الشرق الأدنى القديم للتمرد على الحكم الأشورى ومحاولة الاستقلال. وقد انتهز حزقيا الفرصة وقام بمهاجمة الفلسطينيين واسترجع المنطقة التى كانوا قد استولوا عليها أيام آحاز (شكل ٦٦). وقام بعزل أمير عكرون (عقرون) الموالى لأشور وأخذه أسيرا إلى أورشليم وعين بدلاً منه واليا موالٍ له. وأدرك سنحاريب - الذى خلف سرجون الثانى على عرش آشور - خطورة تطلعات حزقيا وخاصة أن ملك بابل - مردوخ بلادن الثانى - كان يشجع هذا الاتجاه الاستقلالى للأقاليم الخاضعة لأشور لإضعاف أشور نفسها وانتهز فرصة مرض حزقيا وأرسل مندوبا متظاهرا بعيادته فى مرضه وفى

الحقيقة ليشجعه في اتجاهاته ضد أشور . كذلك فإن مصر لابد شجعت حزقيا للتشدد إزاء أشور.

٥ – مرض حزقيا وإطالة عمره وعيادة ملك بابل :

مرض حزقيا مرضا شديداً ظن أنه مرض الموت ولم يكن له في ذلك الوقت ابن ليرثه لذلك اغتم غماً شديداً إذ يخرج ملك يهوذا من ذريته. وتمنى على الله أن يطيل في عمره حتى ينجب ابنا يرثه. وعاده إشعياء النبي. وتوجَّه حزقيا بقلبه إلى الله وصلَّى بخشوع. فكان كلام الرب إلى إشعياء: ارجع وقل لحزقيا هكذا قال الرب: قد سمعتُ صلاتك. قد رأيتُ دموعك. هانذا أشفيك. في اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب. وأزيد على أيامك ١٥ سنة. وأنقذك من يد ملك أشور مع هذه المدينة. وأعطاه إشعياء قرص تين أكله فبرىء من مرضه. هنا طلب حزقيا من إشعياء آية من الرب على صدق ما يقول عن إطالة عمره. وكان في فناء القصر ما يمكن أن نسميه مزولة شمسية ومن امتداد ظل عامود في وسطها على درجات مرسومة على الأرض يمكن معرفة الوقت. فأخبره إشعياء أن الرب هو الذي يُسَيِّر الشمس فيكون للأشياء ظل. ودعا إشعياء الرب ليرجع الشمس فيقصر ظل الأشياء. وإستجاب الرب لدعاء إشعياء وأرجع الظل ١٠ درجات إلى الوراء (٢ ملوك ٢٠:٩). وقد قام الفلكي البروفيسور إيري Airey بعمل حسابات وأثبت وقوع كسوف كلي للشمس في ذلك الوقت وهو ١١ يناير عام ٦٩٠ ق.م. وأنه حدث حوالي الساعة ١١ صباحا. وقام فلكي آخر بتحديد وقت المعجزة بالساعة العاشرة صباحا!! بينما يرى آخرون أن سحابة هي التي تسبب في انكسار أشعة الشمس ونتج عنه قصر ظل الأشياء. ولكن من المؤكد أن قصر الظل كان معجزة من الله سبحانه وتعالى نتج عن تأخر الشمس لفترة محدودة ثم عاد الظل إلى طبيعته ثانية. بعض المفسرين يرى وقوع كاتبي التوراة في خطأ عند ذكر عدد درجات التأخر وأنها لابد كانت ١٥ درجة لتتفق مع تأخر الموت عن حزقيا ١٥ سنة أي بكل درجة سنة. وإن كان ذلك الافتراض معقولا إلا أنه ليس بلازم لأنها كانت مجرد آية من الله ليتأكد من أن كلام إشعياء هو من وحي الله له.

وتقول التوراة (٢ ملوك ٢٠:١٢): «في ذلك الوقت علم ملك بابل – مردوخ بلادان – بمرض حزقيا فأرسل رسله بهدايا فاستقبلهم حزقيا استقبالا حسنا وأراهم كل بيت ذخائره والفضة والذهب والأطياب والزيت الطيب وكل بيت أسلحته وكل ما وجد في خزائنه. لم يكن شيىء لم يرهم إياه حزقيا في بيته وفي بيت سلطنته». فجاء إشعياء النبي إلى الملك حزقيا وسأله عن هؤلاء الرجال. فأخبره أنهم من قِبَلِ ملك بابل وأنه أراهم كل شيىء في بيته. «فقال إشعياء لحزقيا. اسمع قول الرب. هوذا تأتي أيام يُحمل فيها كل ما في بيتك وما ذخره آباؤك إلى هذا اليوم إلى بابل. لا يترك شيىء. يقول الرب. ويؤخذ من بنيك الذين يخرجون منك فيكونون خصيانا في

قصر ملك بابل فقال حزقيا لإشعياء: جيد هو قول الرب الذى تكلمت به ثم قال، فكيف لا إن يكن سلام وأمان فى أيامى». أى أن سلاما وصداقة مع بابل فى أيامه تكفيه.

كانت بابل فى ذلك الوقت مقاطعة خاضعة لأشور. إلا أن مردوخ حاكمها كان له استقلال ذاتى بحيث يمكنه أن يراسل رؤساء الدول الأخرى دون الرجوع إلى أشور فحقٌ له أن يرسل رسله إلى حزقيا. وقد انتهز مردوخ حاكم بابل فرصة انشغال أشور فى الحرب فى شمال إسرائيل وتضامن هو وحاكم ميديا (بلاد فارس) وأعلنا استقلالهما عن أشور. كل بمقاطعته. ومن هنا كان اهتمام حزقيا برسل ملك بابل على أمل أن يكون سندا له ضد أشور وهذا يدل على عدم توكُّل كامل على الله ولهذا كان توبيخ النبى إشعياء له وإخباره بأن بابل هذه التى يود صداقتها ستكون حربا عليه فى المستقبل.

٦ – بين أشور ويهوذا :

لاشك أن سنحاريب ملك أشور تضايق من سياسة التقارب بين بابل ويهوذا وأدرك أنه لو انضمت مصر لتحالف كهذا لأصبح الأمر خطيرا. من هنا فإنه بدأ بمهاجمة يهوذا واحتل المدن المجاورة للحدود الشمالية. هنا تشاور حزقيا مع رؤساء الشعب فيما يمكن عمله لحماية البلاد وحماية أورشليم بالذات. فقاموا بطمر جميع آبار المياه والعيون والجداول ماعدا موارد المياه لأورشليم وما حولها. وبنى ماكان قد تهدم من سور المدينة ورمَّم الأبراج وحصَّن القلاع التى تدافع عن المدينة ثم جمع الشعب وقال لهم (٢ أخبار ٣٢ : ١٠): «تشدَّدوا وتشجَّعوا. لا تخافوا ولا ترتاعوا من ملك أشور ومن كل الجمهور الذى معه لأن معنا أكثر مما معه. معه ذراع بشر ومعنا الرب إلهنا ليساعدنا ويحارب حروبنا. وأرسل سنحاريب رسله إلى أورشليم قائلا: إن حزقيا يغويكم ليدفعكم للموت بالجوع والعطش. أليس حزقيا هو الذى أزال مرتفعاته ومذابحه وكلم يهوذا وأورشليم قائلا أمام مذبح واحد تسجدون وعليه توقدون (يندد بسياسة التقارب التى اتبعها حزقيا تجاه إسرائيل قبل سقوطها). أما تعلمون ما فعلتُه أنا وآبائى بجميع شعوب الأرض؟ فهل قدرت آلهه أمم الأرض أن تنقذ أرضها من يدى؟ مَنْ مِنْ جميع آلهة هؤلاء الأمم استطاع أن ينقذ شعبه من يدى حتى يستطيع إلهكم أن ينقذكم من يدى؟ والآن لا يخدعنكم حزقيا ولا يغويكم ولا تصدقوه. والآن هوذا قد اتكلتم على هذه القصبة المرضوضة (كما نقول فى العامية: استند على حيطة مائلة) على مصر التى إذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفه وثقبتها. هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه».

فلما سمع الملك حزقيا تهديدات سنحاريب مزَّق ثيابه وتغطى بمسوح وأرسل إلى إشعياء النبى وأخبره بالشدة التى نزلت بهم وتهديد ملك أشور فطمأنهم إشعياء وطلب منهم ألا يخافوا من كلام ملك أشور لأن الله سيرد كيده عنهم ويجعله يعود إلى أرضه وسيقتل هناك. فصلى حزقيا الملك وإشعياء النبى وصرخا إلى السماء فأرسل الرب ملاكا فأباد كل جبار بأس ورئيس

وقائد في محلة آشور. فرجع بخزي الوجه إلى أرضه بعد أن فرض الجزية على يهوذا ٣٠٠ وزنة من الفضة و ٣٠ وزنة من الذهب. فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. واضطر حزقيا للوفاء بالجزية إلى تقشير الذهب عن أبواب الهيكل والدعائم التي كانت مغشاة بالذهب».

كان هذا هو وصف المعركة كما وردت في التوراة وقد اهتمت بنتيجتها التي كانت في صالح يهوذا ولم تهتم بخطواتها التفصيلية التي وردت في كتب التاريخ والتي تذكر أن سنحاريب أراد تأمين الجبهة الجنوبية قبل أن يبدأ حملته في سوريا وفلسطين. وكانت بابل تسعى للإنسلاخ عن أشور في محاولات متعددة وإن لم يكتب لها النجاح حتى الآن.. وكانت «دولة العرب» – وهم من نسل قيدار بن إسماعيل عليه السلام وعاصمتها «دومة الجندل» – تساند بابل في محاولاتها الانفصالية لإضعاف أشور درءا للخطر عن نفسها. ولكن كُتِبَ للعاهل الأشوري نجاح كبير في القضاء على تمرد البابليين. ثم اتجه بعد ذلك إلى دومة الجندل وفرض عليها الحصار (جواد علي. تاريخ العرب. جـ١ ، ص ٥٩٢) ثم استولى عليها. وكذلك أخضع عرب البادية المجاورين لها وفرض نفوذه عليهم مما دعا هيرودوت أن يطلق عليه «ملك العرب والأشوريين» (محمد بيومي مهران – دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم. إسرائيل. ص ٩٧٣).

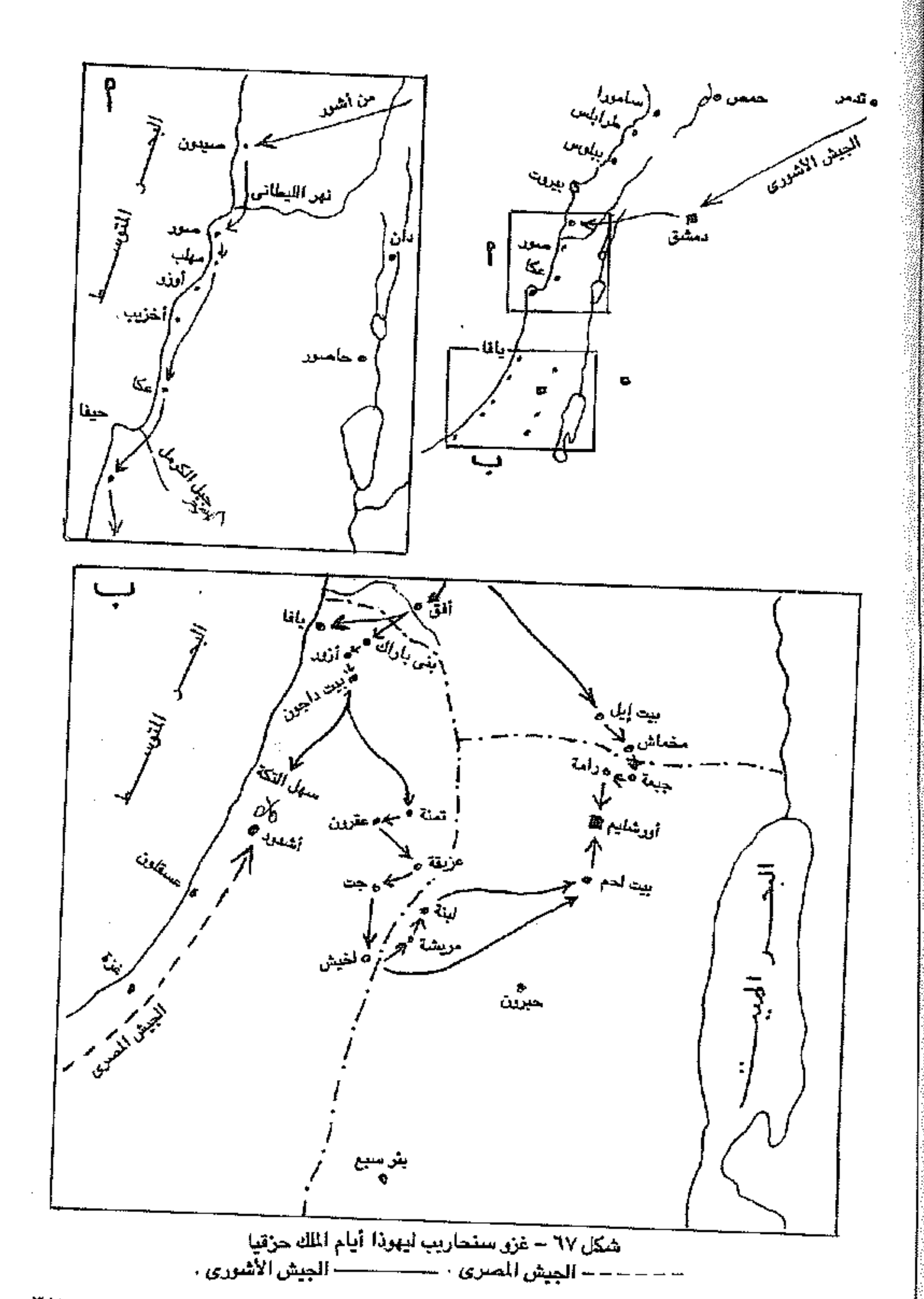
غزو سنحاريب لفلسطين ويهوذا :

وتفاصيل هذه الحملة مستقاة من الوصف الأشوري الموجود على ما يسمى بـ «منشور سنحاريب Prism of Sennacherib». وهو يصف الغزوة بالتفصيل ويكمل الوصف ما وُجد مؤخرا على هيئة «خطاب إلى الآلهة» من سنحاريب. وكذلك ما وجد من كتابات في حجرة العرش في آثار مدينة نينوى. وهي تكمل بعضها بعضا وتصف الحملة ضد يهوذا هكذا (شكل ٦٧):

سار سنحاريب بجيشه غربا حتى وصل ساحل البحر المتوسط. ثم اتجه جنوبا في الساحل الفينيقي وعزل ملك صيدون المتمرد وعين آخر موالٍ له. وكذلك فعل في باقي مدن الساحل: صور. مهلب . أوز . أكزيب . عكا . ثم سار جنوبا وقبض على ملك «سهل دور» ورحّله هو وحاشيته وآلهته إلى آشور واستمر في غزو الساحل الفلسطيني فاستولى على يافا وبني باراك وأزور وبيت داجون. ثم تلاقت قواته مع القوات المصرية في «سهل التكة» وانهزمت القوات المصرية (كانت مصر في ذلك الوقت تحكمها الأسرة ٢٥ النوبية وكان الملك شباكا الموالي لأشور قد توفي وتولى بعده شباتاكا وكان معاديا لأشور وأرسل جيشه لمساندة حزقيا). وبعد أن انهزمت القوات المصرية سَهُل على سنحاريب الاستيلاء على بقية مدن الفلسطينيين وخاصة مدينة عقرون وأعيد ملكها الموالي لأشور إلى مكانه بعد أن كان حزقيا قد عزله. ثم اتجه سنحاريب جنوبا واستولى على «عزيقة» ثم «جت» ثم اتجه إلى المدينة الحصينة في الجنوب وهي «لخيش» واستولى عليها. وكان الاستيلاء على هذه المدينة مُهمًا لسنحاريب بحيث سجّله على

جدران قصره في نينوى. وقد أثبتت الحفريات التى أجرتها جامعة تل أبيب تحت إشراف عالم الآثار داود أوسشكين أن الطبقة الثالثة من حفريات المدينة تتطابق مع الدمار الذى أحدثه سنحاريب. وقد وجد في بعض المناطق تراب ورماد حريق بسمك ٦ - ١٠ أقدام. ومن لخيش أرسل فرقة للاستيلاء على مريشة ثم لبنة ثم بيت لحم حيث تلاقت مع فرقة سارت من لخيش مباشرة وهكذا تجمع الجيش الذى غزا الجنوب فى بيت لحم. وكان النصف الثانى للجيش قد تقدم من الشمال واستولى على بيت إيل ثم مخماش ثم جبعة ثم الرامة. وهكذا أصبحت أورشليم مهددة بالقوات الأشورية من الشمال ومن الجنوب (ب شكل ٦٧). وأرسل سنحاريب ٣ من قواد الجيش الكبار إلى أورشليم يطلب من حزقيا الاستسلام. وتكلموا بالعبرية إلى الشعب يحثونهم على الاستسلام قائلين إن حصارا سيُفرض على أورشليم حتى ليضطر الرجال المدافعون عنها لأكل فضلاتهم ويشربوا بولهم! واستمروا قائلين (٢ ملوك ١٨ : ١٨): «اسمعوا كلام الملك العظيم ملك أشور. هكذا يقول الملك. لا يخدعنكم حزقيا لأنه لا يقدر أن ينقذكم من يدى ولا يجعلكم حزقيا تتكلون على الرب قائلا إنقاذا ينقذنا الرب ولا تُدفع هذه المدينة إلى يد ملك أشور (كما قال النبى إشعياء). لا تسمعوا لحزقيا. اعقدوا معى صلحا واخرجوا إلىَّ. وكلوا كل واحد من جفنته وكل واحد من تينته واشربوا كل واحد من بئره حتى آتى وآخذكم إلى أرض كأرضكم (أى ينقلهم سبيا). أرض حنطة وخمر. أرض خبز وكروم. أرض زيتون وعسل. واحيوا ولا تموتوا. ولا تسمعوا لحزقيا لأنه يَغُرُّكم قائلا الرب ينقذنا هل أنقذ آلهة الأمم كل واحد أرضه من يد ملك أشور؟ أين آلهة حماة وأرفاد؟ أين آلهة غيرها من المدن؟ هل أنقذوا السامرة من يدى؟ مَن من كل آلهة الأراضى أنقذوا أرضهم من يدى حتى ينقذ الرب أورشليم من يدى؟ فسكت الشعب ولم يجيبوه بكلمة لأن أمر الملك كان قائلا لا تجيبوه».

وأرسل حزقيا إلى إشعياء النبى (٢ ملوك ١٩:٣) فقالوا له: «هكذا يقول حزقيا. هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة. لعل الرب إلهك يسمع جميع كلام الرسول الذى أرسله ملك أشور ليُعيِّر الإله الحى. فارفع صلاة من أجل البقية الموجودة. فقال إشعياء: هكذا تقولون لسيدكم. هكذا قال الرب: لا تخف بسبب الكلام الذى سمعته الذى جَدَّف علىَّ به غلمان ملك أشور. هأنذا أجعل فيه روحا فيسمع خبرا ويرجع إلى أرضه وأسقطه بالسيف فى أرضه. وصلَّى حزقيا أمام الرب وقال: أيها الرب إله إسرائيل. أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض. أنت صنعت السماء والأرض. أمِل يارب أذنك واسمع. افتح عينيك وانظر. واسمع كلام سنحاريب الذى أرسله ليُعَيِّر اللهَ الحى. والآن أيها الرب خلِّصنا من يده فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب الإله وحدك. وقال إشعياء هكذا قال الرب عن ملك أشور: لا يدخل هذه المدينة ولا يرمى هناك سهما ولا يتقدم عليها بترس ولا يقيم عليها مترسة. فى الطريق الذى جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل يقول الرب وأحامى عن هذه المدينة لأخلِّصها».



شكل ٦٧ – غزو سنحاريب ليهوذا أيام الملك حزقيا

– – – – – الجيش المصرى . ———— الجيش الأشورى .

وفعلا تذكر كتب التاريخ أن سنحاريب عاد إلى نينوى دون أن يستولي على أورشليم. واختلفت الآراء في السبب الذى دعا سنحاريب إلى العودة المفاجئة إلى بلاده. فهناك من يرجعها إلى اضطرابات خطيرة في نينوى هددت العرش. ومنهم من يقول إن حجافل من الفئران أكلت قسيّ الغزاة (جمع قوس) وجعابهم (جمع جعبة وهى كنانة السهام) وحمائل دروعهم. فكانت النتيجة أنهم أصبحوا لا يستطيعون رمى السهام ولا حتى حمل الدروع لحماية أنفسهم فآثر سنحاريت العودة. فإذا كان الأمر كذلك فهى معجزة من السماء: «وما يعلم جنود ربك إلا هو» .
(٣١ – المدثر).

وتقول التوراة (٢ ملوك ١٩:٣٥) إن ملاك الرب (أى جبريل) قد خرج وضرب من جيش أشور ١٨٥،٠٠٠ بوباء غامض تفشّى فيهم. فلما رأى سنحاريب جثث جنوده عاد بالبقية إلى نينوى. وبعد أن عاد سنحاريب إلى نينوى وبينما هو يتعبّد لإلهه قام عليه ابنان له فضرباه بالسيف وقتلاه. وعلى ما يبدو كانا يطمعان فى حكم البلاد. وكان «أسرحدون» يقود الجيش فى إحدى الغزوات على الحدود الشرقية. فلما سمع بذلك عاد مسرعا إلى نينوى فهرب القاتلان إلى أرمينيا فتولى «أسرحدون» الحكم. ولعله كان قد ضاق بكثرة حروب سنحاريب ولذلك سنرى أنه اتخذ سياسة أكثر سلما ومهادنة مع الدول المجاورة. ولكى ينفى عن نفسه أى ضعف فإنه يفخر بنفسه فى إحدى كتاباته فيقول فيها: أنا قوى. أنا قوى جداً. أنا بطل. أنا ضخم. أنا كبير. أنا أقوى من ملك مصر ولقد قتلت عشرات من جنوده. ولقد ضربت بحربتى خمس مرات ضربات ولم يكن بعدها شفاء. أما ممفيس مدينته الملكية فقد قمت فى نصف نهار بحصارها وحفر أنفاق تحت أسوارها واعتليت قلاعها واستوليت عليها وحطّمتها وأحرقتها بالنار (چيمس پرتشارد. نصوص مخطوطات الشرق الأدنى القديم. ص ٢٨٩ – ٢٩٤).

وفاة حزقيا :

بعد أن زاد الله فى عمر حزقيا ١٥ سنة أنجب خلالها الولد الذى تمناه ليرث عرش يهوذا مات حزقيا بعد أن ملك ٢٨ سنة (٧٢٥ – ٦٩٧ ق . م .).

١٤ – منسّى بن حزقيا Manassah

كان عمر منسّى حين ملك على يهوذا ١٢ سنة وحكم ٥٥ سنة (٦٩٧ – ٦٤٢ ق . م .) ولم يسر فى طريق الهداية كوالده بل سار فى طريق الشر. ويمكن تفسير هذا الاتجاه بأن البلاط الملكى كان لايزال به فريق متأثر بالمعتقدات الدينية التى كان يسير عليها آحاز والجد الأكبر أخزيا وما أدخلته زوجته عثليا من عبادة البعل فى البلاد. فلاشك أن منسى – لصغر سنه – وقع تحت تأثير هذا الفريق ثم أصبح هو نفسه أحد المتحمسين لعبادة الأصنام. لذلك فإنه بنى المرتفعات

التى تعبد فيها الأوثان والتى كان أبوه حزقيا قد هدمها، وأقام مذابح للبعل وعشتاروث، وسجد للشمس والقمر والكواكب وبنى لها مذابح فى بيت الرب ووضع تماثيل لها فى الهيكل. ثم بدأ يحث الناس على اتباع تقديس هذه الآلهة. كما أنه استخدم الجان وتوابعه لتحقيق أغراض شريرة. ولما عارضه إشعياء النبى أمر بقتله بنشر جسمه بالمنشار للتخلص منه. كما أنه أدخل طقوس الديانات الوثنية والتضحية بالأبناء قربانا للآلهة حتى إنه ضحَّى بابنه قربانا لأصنامه. وتكلم الرب (٢ ملوك ٢١:١٠) لعدد من الأنبياء كانوا معاصرين لمنسى (إشعياء وأنبياء غيره) قائلا: «من أجل أن منسَّى ملك يهوذا قد عمل هذه الأرجاس وأساء أكثر من جميع من كانوا قبله وجعل أيضا يهوذا يخطىء ويعبد الأصنام. لذلك قال الرب إله إسرائيل: هأنذا أجلب شراً على أورشليم ويهوذا حتى أن كل من يسمع به تطن أذناه. وأمد على أورشليم خيط السامرة (أى يصبح مصيرها مثلها) وأمسح أورشليم كما يمسح واحد الصحن ويقلبه على وجهه. وأدفعهم إلى أيدى أعدائهم فيكونون غنيمة ونهبا لجميع أعدائهم لأنهم عملوا الشر فى عينى الرب. فسلَّط الله على منسى أشور بانيبال ملك أشور».

الحرب بين يهوذا وأشور :

حدث فى أثناء حكم أشور بانيبال أن قام عصيان وتمرد ضده لصالح أخيه. وانتهز ملك مصر - طهراقا النوبى - الفرصة لإعادة بعض النفوذ المصرى فى فلسطين فأرسل حملة إلى الشام بهدف ظاهرى وهو مساندة دُوَلِه فى الوقوف ضد أشور. وفى نفس الوقت قام منسَّى ملك يهوذا بالعصيان على أشور وامتنع عن دفع الجزية ولما كان جيشه أضعف من أن يقف وحده فقد تحالف مع مصر وانضم كثير من اليهود إلى جيش مصر كجنود مرتزقة. وقاد أشور بانيبال جيشه وقمع الفتنة فى بلاده ثم سار إلى الساحل الفينيقى فأخضع مدنه الثائرة. ثم عاد إلى أورشليم ودخلها وقبض على منسَّى وقيده بالسلاسل ووضعوا خزامة فى أنفه وسيق إلى بابل وألقى فى السجن. وتقول التوراة (٢ أخبار ٣٣:١١) «ولما تضايق منسى طلب وجه الرب إلهه وتواضع جدا أمام إله آبائه وصلى إليه فاستجاب له وسمع تضرُّعه وردَّه إلى أورشليم إلى مملكته. فعلم منسى أن الرب هو الله. وأزال الآلهة الغريبة والأشياء من بيت الرب وجميع المذابح التى بناها فى جبل بيت الرب وفى أورشليم وطرحها خارج المدينة وأمر يهوذا أن يعبدوا الرب إله إسرائيل». إلا أن كثيرا من المفسِّرين يشككون فى صحة هذه الفقرة الأخيرة إذ يرون أن إدخال الآلهة الغريبة كان رمزا لخضوعه لأشور. ولابد بعد الأسر والسجن أنه أصبح أكثر خضوعا لأشور لأنه أعيد بوصفه حاكما من قِبل أشور فليست له الحرية الكاملة فى التصرف. وفى المقابل فمن المحتمل أن ملك أشور قد ترك ليهوذا بعض الحرية الدينية تهدئة لمشاعرهم ومنعا لثورتهم.

بابل تصبح عاصمة أشور :

رأى أشور بانيبال أن العاصمة نينوى فى الشمال الشرقى من المملكة بعيدة عن سوريا وفلسطين وأن بابل كانت دائما مثار القلاقل له لذلك قرر نقل العاصمة إلى بابل. وفى كتابات له على الآثار يقول: «لقد وجدت أن قصر مدينة نينوى الذى بناه آبائى الملوك الذين كانوا قبلى قد أصبح صغيرا جدا ولا يفى بمتطلباتى وتطلعاتى لذلك فقد هدمته بالكامل وبنيت قصرا فى بابل واستدعيت البنائين وأهل بابل كلهم وجعلتهم يحملون الحجارة وقمت ببناء بابل من جديد ووسعتها ورفعت شأنها وجعلتها مدينة عظيمة.

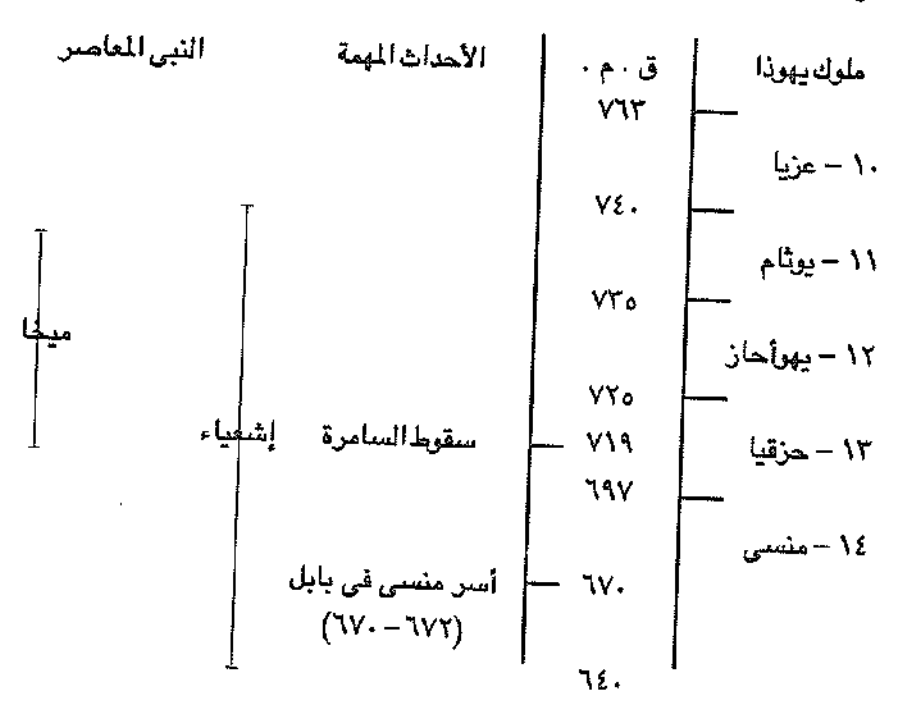
ظل منسى فى الأسر سنتين قبل أن يطلق سراحه ويعاد إلى أورشليم حاكما تابعا لأشور وظل يحكم بعد ذلك لمدة ٣٠ عاما .

كانت نهاية يهوذا وأورشليم قد اقتربت وتتابع أنبياء من قبل الرب يُحذِّرون الناس من قرب النهاية ويحثونهم على فعل الخير والعودة إلى طريق الرب علَّ الله يلطف بهم فيما ستجرى به المقادير. ولنترك الملوك جانبا ونذكر اثنين من الأنبياء الذين ظهروا فى هذه الفترة وعاصروا سقوط السامرة بالسبى الأشورى وراحوا يحذرون أهل يهوذا من نفس المصير إن هم ساروا فى طريق الضلال.

الفصل الخامس عشر

نبيان فى يهوذا عاصرا سقوط السامرة

ظهر فى يهوذا نبيان عاصرا سقوط السامرة : أحدهما من الأنبياء الكبار هو إشعياء والثانى من الأنبياء الصغار هو ميخا .



إشعياء النبى Isaiah

هو إشعياء بن آموص ولا يُعرف إلى أى سبط كان ينتمى. ومعنى «إشعياء» هو «الرب يُخلِّصنى». وهو من الأنبياء الكبار. وقد عاش فى أورشليم وعاصر خمسة من ملوك يهوذا: عُزِّيا (آخر سنة من حكمه) ثم يوثام وآحاز وحزقيا ومنسَّى (٢٥ سنة من حكمه أى إلى مابعد عودته من الأسر). وامتدت نبوءة إشعياء ما يزيد عن ٦٠ عاما وزاد عمره عن الثمانين. ويقول التقليد العبرى إن آموص والده كان أخا لأمصيا ملك يهوذا والد عزيا. ولعل هذا يفسر لماذا كان يَسهُل عليه الدخول إلى ملوك يهوذا.

بدء نبوّة إشعياء :

تصف التوراة كيفية اصطفاء إشعياء للنبوة وبداية نزول الوحى عليه وصفا التبس الأمر فيه على كاتبى التوراة بحيث لم يدركوا الفرق بين جبريل عليه السلام - ملاك الرب - وبين ذات الله. إذ جاء في سفر إشعياء (٦:١) وعلى لسانه: «وفى سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد جالسا على كرسى عالٍ ومرتفع. وأذياله تملأ الهيكل. والسرافيم (الكائنات النورانية التى تخدم عرش الرب أى الملائكة) واقفون. لكل واحد ستة أجنحة. باثنين يغطى وجهه وباثنين يغطى رجليه وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال: قدوس قدوس قدوس رب الجنود. مجده ملء الأرض. فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخانا. ثم سمعت صوت السيد قائلا: من أرسل ومن يذهب من أجلنا؟ فقلت هأنذا أرسلنى. فقال اذهب وقل لهذا الشعب...».

ووصف السرافيم أو الملائكة الذى ورد فى هذه الفقرة يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم: «**الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شيىء قدير**» (١ - فاطر). ويزيد الله فى عدد أجنحة الملائكة ما يشاء فيصل إلى ستة كما ذكرت التوراة أما ما يدعيه البعض من أن إشعياء رأى ذات الله فهذا يتعارض مع فقرة وردت فى التوراة تقرر أن «الله لم يره أحد».

ثم تمضى التوراة فى ذكر ما أُوحى به من الله سبحانه وتعالى لإشعياء: «فقال اذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعا ولا تفهموا وأبصروا إبصارا ولا تعرفوا. غلِّظ قلب هذا الشعب وثقّل أذنيه واطمس عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع ويشفى. فقلت إلى متى أيها السيد. فقال إلى أن تصبح المدن خربة بلا ساكن والبيوت بلا إنسان وتخرب الأرض وتقفر ويُبعد الربُّ الإنسان ويكثر الخراب فى وسط الأرض». والمعنى كما نراه هو أن يقوم إشعياء بدعوة الشعب إلى الله وإلى الإقلاع عن الفساد والخطايا. ولكن الشعب لن يسمع له ولن يطيعه بل سيكون أكثر انغماسا فى مفاسده فيحق عليه العذاب. فكأن إشعياء قد غلَّظ قلب الشعب وطمس عينيه.

بعد هذه الرؤيا التى أعلنت لإشعياء بدء نبوته راح يُبلِّغ الناس ما يوحى إليه من ربه :

وكان أول ما أوحى إلى إشعياء هو (إشعياء ١:٢): «اسمعى أيتها السموات واصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم. ربَّيتُ بنين ونشَّأتهم أمَّا هم فعصوا علىَّ. الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه. أما إسرائيل فلا يعرف. شعبى لا يفهم. ويل للأمة الخاطئة. للشعب الثقيل الإثم. نسل فاعلى الشر. أولاد مفسدين. تركوا الرب. استهانوا بقدُّوس إسرائيل. ارتدُّوا إلى الوراء. ازدادوا زيغانا. كل الرأس مريض. وكل القلب سقيم من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة. بل جرح وإحباط. وضربة طرية لم تُعصر ولم تُعصب. بلادكم خربة. مدنكم محرقة بالنار.

أرضكم تأكلها غرباء قدامكم. فبَقِيت ابنة صهيون (أورشليم) كمظلة فى كرم. كمدينة محاصرة لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة».

فى هذه الفقرة ينعى الرب على إسرائيل زيغهم عن طريق الحق وبالطبع فإن الكلام يعتبر تحذيرا ليهوذا من الانسياق فى طريق الضلال وإلا سيكون نفس المصير ويبين إشعياء لإسرائيل ويهوذا أنَّ نِعَم الله عليهم كثيرة. وكان الواجب عليهم أن يعرفوا الله ويتَّقوه. وضرب أمثلة من البيئة التى كانت موجودة فى ذلك الوقت. فالثور والحمار وهما حيوانان أعجمان ولكنهما بالغريزة يعرفان صاحبهما الذى له فضل عليهما. وكان الأحرى بالإنسان – بإسرائيل ويهوذا – أن يعرفوا ربهم. ثم يذكر أن الفساد كثر فيهم وازدادوا زيغا حتى أصبح جسد الأمة كله مريضًا. واستحقوا أن ينزل بهم عذاب من دمار وغزو وسبى. وقد حدثت فى وقت إشعياء ٣ غزوات على الأقل لأرض يهوذا: واحدة قامت بها قوات التحالف الثلاثى المكون من مؤاب وبنى عمون وأدوم أيام يهوشافاط (ص ٣٢٣). ثم غزو الفلسطينيين لأرض يهوذا واستيلائهم على الجزء الشمالى الغربى أيام الملك آحاز (ص ٣٣٣). والثالثة بقيادة سنحاريب الأشورى (ص ٣٣٩) أيام الملك حزقيا. ونتج عن هذه الغزوات خراب الأرض وأصبحت قصور أورشليم الفاخرة ومساكنها الفخمة كأنها تشبه المظلة التى تنصب فى الحقول إبان الحصاد كمأوى بدائى. ثم إنه – لولا فضل من الله على يهوذا – لكان مصيرها مثل مصير سدوم وعمورة حين قلبت بهم الأرض وأصبح عاليها سافلها وقتل أهلها جميعا.

ويمكن تلخيص رسالة إشعياء فى نقاط ثلاث :

أ – توبيخ بنى إسرائيل (إسرائيل ويهوذا) على الشرور المنتشرة فيهم مع شرح لبعض هذه الشرور والمفاسد.

ب – توبيخ لأشور وعفو عن بنى إسرائيل.

جـ – نبوءات إشعياء.

أ – توبيخ بنى إسرائيل :

قام إشعياء بتوبيخ بنى إسرائيل على الشرور والمفاسد المنتشرة بينهم فى ذلك الوقت وذكر أهمها مثل :

١ – العبادات شكلية والظلم منتشر :

وهذه العبادات التى لا تصدر من القلب لا يقبلها الرب. فيقول لهم (إشعياء ١:٦): «اسمعوا اسمعوا كلام الرب. اسمعوا إلى شريعة إلهنا. لماذا لى كثرة ذبائحكم. يأتون بتقدمة باطلة. البخور هو مكرهة لى. لست أطيق الإثم والاعتكاف. رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى.

فحين تبسطون أيديكم أستر عينيَّ عنكم. وإن كثَّرتم الصلاة لا أسمع. كيف صارت القرية الأمينة التى كان العدل يبيت فيها وأما الآن فالقاتلون يملأونها. صارت زَغَلا (الزغل الغش). وخمرك مغشوشة بماء. رؤساؤك متمردون ولصوص. كل واحد منهم يحب الرشوة. ويتبع الهدايا. لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم. لذلك يقول الرب. إنى أنتقم من أعدائى. (إش ٣) فإنه هو ذا السيد الرب ينزع من أورشليم ومن يهوذا كل سند خبز وكل سند ماء. قد انتصب الرب للمخاصمة وهو قائم لدينونة الشعوب. الرب يدخل فى المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم. وأنتم قد أكلتم الكرم. سَلَبُ البائس فى بيوتكم. مالكم تسحقون شعبى وتطحنون وجوه البائسين».

٢ - فساد النساء (إش ٣ : ١٦) :

وقال الرب «من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بأرجلهن (مثل قوله تعالى «ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن». ٣١ - النور) ينزع السيد فى ذلك اليوم (يوم الانتقام) زينة الجلاجل والضفائر والأهلَّة والحلق والأساور والبراقع والعصائب والسلاسل والمناطق والخواتم وخزائم الأنف والثياب المزخرفة. فيكون عوض الطيب عفونة. وعوض المنطقة حبل. وعوض الجدائل قَرَعَة. وعوض الجمَال كى. رجالك يسقطون بالسيف وأبطالك فى الحرب فتئنُّ وتنوح أبوابها».

٣ - فى الخمر (إش ٥ : ١١) :

«ويل للمبكِّرين صباحا يتبعون المسكر. للمتأخرين فى العتمة تلهبهم الخمر. وصار العود والرباب والدف والناى ولائمهم. وإلى أفعال الرب لا ينظرون. وعمل يديه لا يرون. لذلك يُسْبَى شعبى لعدم المعرفة. ويصير شرفاؤه رجال جوع وعامته يابسين من العطش».

٤ - فعل الشر عامة (إش ٥ : ٢٠) :

«ويل للقائلين للشر خيرا وللخير شرا. الجاعلين الظلام نورا والنور ظلاما. الجاعلين المُرَّ حلوا والحلو مُرًّا. ويل للأبطال فى شرب الخمر. ولذوى القدرة على مزج المسكر. الذين يُبَرِّرون الشر من أجل الرشوة وأما حق الصدِّيقين فينزعونه منهم. لذلك كما يأكل لهيب النار القش يكون أصلهم كالعفونه. ويصعد زهرهم كالغبار لأنهم رذلوا شريعة الرب واستهانوا بكلام قُدُّوس إسرائيل. من أجل ذلك حَمِيَ غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضربه حتى ارتعدت الجبال. وصارت جثثهم فى الأزقة».

٥ - انحراف القضاة :

«ويل للذين يقضون أقضية الباطل وللكتبة الذين يُسجِّلون جورا ليصدُّوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسى شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم وينهبوا الأيتام».

ب – توبيخ لأشور وعفو عن بنى إسرائيل :

(إش ١٠ : ٢): «ويل لأشور قضيب غضبي. والعصا في يدهم هي سَخَطي. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطي أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة. أما هو فلا يفتكر هكذا ولا يحسب قلبه هكذا. بل في قلبه أن يُبيد ويَقْرض أمما ليست بقليلة. فإنه يقول أليست السامرة مثل دمشق. كما أصابت يدي ممالك الأوثان وأصنامها المنحوته هي أكثر من التي لأورشليم وللسامرة. أفليس كما صنعتُ بالسامرة وبأوثانها أصنع بأورشليم وأصنامها؟»

هذا توبيخ لأشور لأنهم لم يفهموا أنهم أداة عقاب سلَّطها الرب لينتقم من بنى إسرائيل لتركهم عبادة الله ولعبادتهم الأصنام. وأنه بعد أن يتم مراد الله في تأديب بنى إسرائيل سيكون الانتقام أيضا من أشور نفسها. تطبيقا لقوله تعالى: «**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**». (٢٥١ – البقرة).

وتوضِّح الفقرة التالية الانتقام الذى سيحل بأشور نفسها: «فيكون متى أكمل السيد الرب كل عمله بجبل صهيون وبأورشليم أنى أعاقب ثمر عَظَمَةِ قلب ملك أشور وفخر رفعة عينيه. لأنه قال بقدرة يدى صنعت وبحكمتى لأنى فهيم. ونقلت تخوم شعوب ونهبت ذخائرهم. وحططت الملوك كبطل. فأصابت يدى ثروة الشعوب كعُشٍّ. وكما يجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض! هل تفتخر الفأس على القاطع بها؟ أو يتكبَّر المنشار على مُرَدِّده؟» وأيضا في هذه الفقرة تأكيد على أن أشور لم تكن إلا أداة في يد الرب لتأديب شعبه الذى أخطأ ولكن أشور ظنت أنها فعلت ذلك بقدرتها هي وقُوَّتها.

ويعود إشعياء لإحياء الأمل في نفوس الشعب والرجاء في عفو الله حتى يرفع عنهم سخطه. فيقول إشعياء (إش ١٠ : ٢٤): «ولكن هكذا يقول السيد رب الجنود: لا تخف من أشور ياشعبى الساكن في صهيون. يضربك الرب بالقضيب ويرفع عصاه عليك على أسلوب مصر. لأنه بعد قليل جداً يتم السخط ويكون في ذلك اليوم أن حمله سيزول عن كتفك ونيره عن عنقك. ويكون في ذلك اليوم أيضا أن بقية إسرائيل يتوكلون على الرب قدوس إسرائيل بالحق. وتقول في ذلك اليوم أحمدك يارب لأنه إذا غضبت عليَّ ارتد غضبك فتعزِّينى. هوذا الله خلاصى فأطمئن ولا أرتعب لأن يهوه قوَّتى وترنيمى. وتقولون في ذلك اليوم: احمدوا الرب. ادعوا باسمه. عرِّفوا بين الشعوب بأفعاله وذكِّروا بأن اسمه قد تعالى. رنِّموا للرب».

جـ – نبوءات إشعياء :

هذه النبوءات كان بعضها وحيا من الله سبحانه وتعالى إلى النبى إشعياء. والبعض الآخر

تذكر التوراة أن إشعياء قد عُرِجَ به إلى السماء ليتلقَّاه. وهذه النبوءات تختص بالدول المجاورة. والهدف منها هو حثُّ بني إسرائيل على التوكل على الله دائما وأبداً إذ توضح لهم أنهم لو فكَّروا في الاحتماء بالدول فإن هذه الدول نفسها سيصيبها الدمار ولن تستطيع حمايتهم. كما تهدف أيضا هذه النبوءات إلى تحذير الشعوب المجاورة حتى لا تتمادى في شرورها وخطاياها. وكان يتم تبليغ الدول المعنيَّة بهذه النبوءات إمَّا بمبعوثين أو برسائل مكتوبة ترسل إلى ملوكها. وقد شملت هذه النبوءات أشور وبابل ومؤاب ودمشق ومصر وبلاد العرب وصور. كما اختص بعضها بيهوذا نفسها.

١ - نبوءة ضد أشور (إش ١٤ : ٢٤) :

«قد حلف رب الجنود قائلا: إنه كما قصدتُ يصير وكما نويتُ يثبت. أن أُحطِّم أشور في أرضي وأدوسه على جبالي فيزول عنهم نيره ويزول عن كتفهم حمله. هذا هو القضاء المقضي به على كل الأرض. وهذه هي اليد الممدودة على كل الأمم. فإن رب الجنود قد قضى فمن يُبطِّل؟ ويده هي الممدودة فمن يردَّها؟». وقد حدث هذا فعلا فقد سلَّط الله بابل على أشور فقضت عليها.

٢ - نبوءة ضد بابل (إش ١٣) :

كانت بابل - كما سبق أن ذكرنا ص ٣٣٨ - خاضعة لأشور ويحكمها «مردوخ بلادان» ويدفع الجزية السنوية ولكن كان له شبه حكم ذاتي. فلما مات شلمناصر الخامس أعلن مردوخ بلادان عدم تبعيته لأشور ورفض دفع الجزية. وسانده ملك عيلام (غرب إيران وشرق العراق) ولم ينضم الفرس إلى هذا التحالف ولعلهم كانوا يهدفون إلى ادخار قوتهم حتى إذا ضعفت هذه الدول بالحرب مع أشور انقضوا هم على الكل وملكوا المنطقة. وفي هذا الوقت ظن ملك يهوذا أن بابل تستطيع حمايته وفكَّر في التحالف معها ولكن إشعياء حذَّره من ذلك وأخبره أن أشور ستخمد هذا التمرد. وحتى في المستقبل حينما تستقل بابل وتصبح هي سيدة المنطقة سيسلط الله عليها الفرس (الماديون). وقال في النبوءة:

«وحي من جهة بابل رآه إشعياء بن آموص: ولولوا لأن يوم الرب قريب. قادم كخراب من القادر على كل شيء. لذلك ترتخي كل الأيادي. ويذوب كل قلب إنسان فيرتاعون. تأخذهم أوجاعٌ ومخاض يتلوون كوالدة. يبهتون بعضهم إلى بعض. هوذا يوم الرب قادم قاسيا بسخط وحموٍ غضب ليجعل الأرض خرابا ويبيد منها خطاتها. فإن نجوم السماء لا تُبرِز نورَها. تظلم الشمس عند طلوعها والقمر لا يلمع بضوءه». وهذا يشبه قوله تعالى: **«إذا الشمس كوِّرت وإذا النجوم انكدرت»** (١ - ٢ - التكوير). وهذا يحدث يوم القيامة. فكأن غضب الله على بابل يشبه في شدته يوم القيامة فتنكسف الشمس ويخسف القمر. ويستكمل إشعياء النبوءة فيقول: «هأنذا أهيِّج عليهم الماديين (الفرس) الذين لا يعتدُّون بالفضة ولا يُسَرُّون بالذهب. ولا

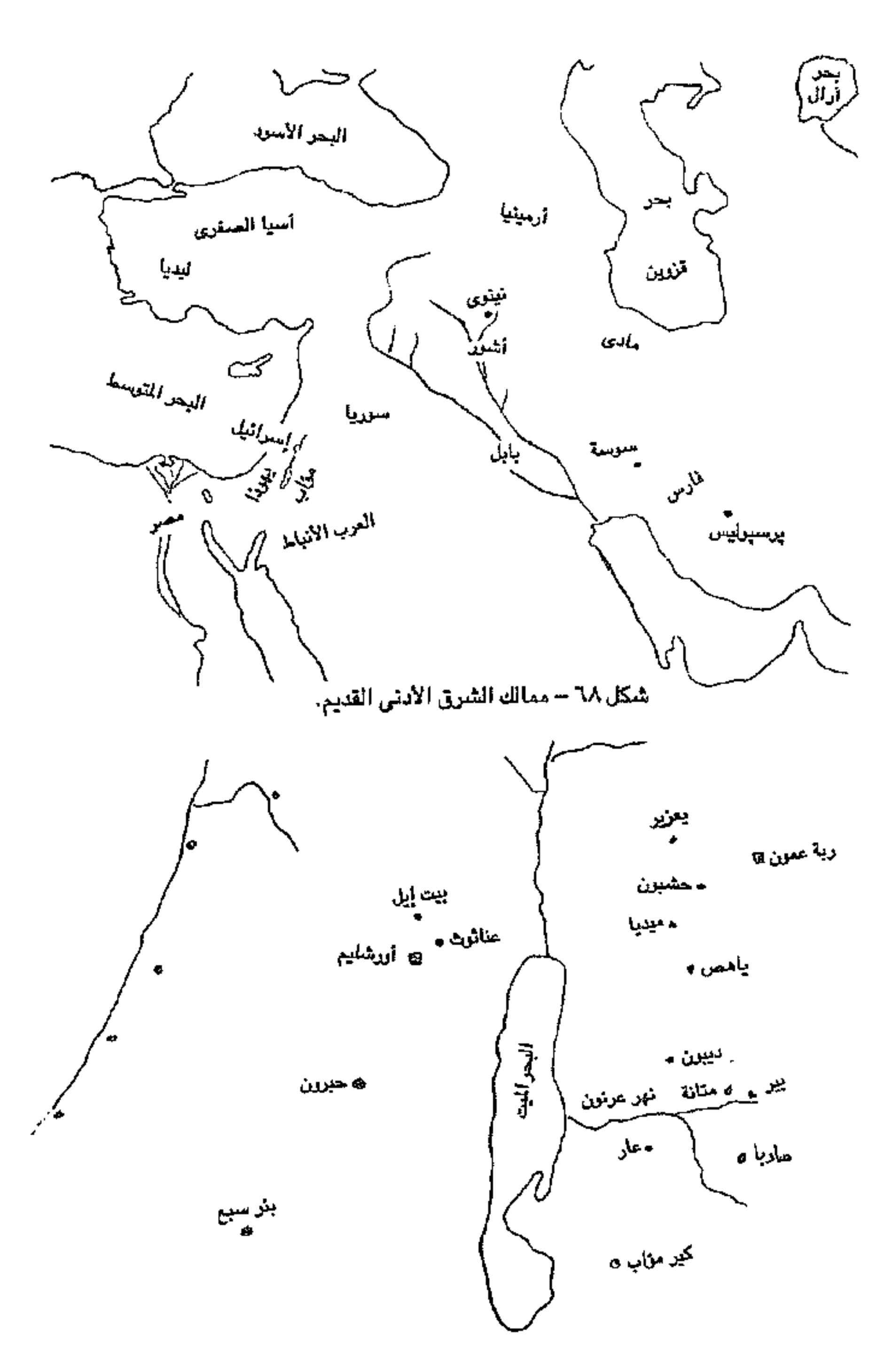
يرحمون ثمرة البطن ولا تشفق عيونهم على الأولاد وتصير بابلُ بهاءُ الممالك وزينةُ فخر الكلدانيين (إشارة إلى حدائق بابل المعلقة المشهورة والمعدودة من عجائب الدنيا السبع) كتقليب الله سدوم وعمورة لا تُعْمر إلى الأبد ولا تُسكن على مدار الأيام. ولا يُخيم هناك أعرابى. ولا يربض هناك رعاة (أى تصير خرابا بحيث لا تصلح للرعاة ولا حتى لإقامة خيام البدو الرحل). بل تربض هناك وحوش القفر ويملأ البوم بيوتهم وتسكن هناك معز الوحش. وتصيح بنات آوى فى قصورهم والذئاب فى هياكل التنعيم. ووقتها قريب المجىء وأيامها لا تطول». ثم يعلن: «سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض». وقد تحقق هذا فعلا بعد حوالى ٢٣٠ سنة حينما اجتاح كيروش الثانى ملك الفرس بابل عام ٥٣٩ ق.م. وأنهى وجود بابل كدولة من دول الشرق الأدنى القديم.

٣ – نبوءة ضد مؤاب (إش ١٥ : ١٦) :

مقدمة تاريخية لفهم النبوءة: عند انقسام المملكة بعد موت سليمان عليه السلام صار ولاء مؤاب إلى إسرائيل (الشمالية) وكانوا يدفعون لها الجزية إلا أنه بعد موت آخاب وأثناء حكم يورام ابنه (ص ٢٦٧) شق المؤابيون عصا الطاعة ورفضوا دفع الجزية. بل وبدأوا فى الاستيلاء على مدن إسرائيلية فى شرق الأردن. فما كان من يورام بن آخاب إلا أن شنَّ الحرب على مؤاب. يؤازره يهوشافاط ملك يهوذا – وصهره – وتم لهما الاستيلاء على مدينة «عار» العاصمة وتدمير «قير» ثانى المدن الرئيسية. وقد ذكرنا أيضا كيف أنه لما أشتد الخناق على مؤاب قدَّم ملكهم ابنه ذبيحة على سور المدينة قربانا للإله «كموش». واقشعر بنو إسرائيل من هذا المنظر ورفعوا الحصار عن المدينة ورجعوا إلى أرضهم. ولحماية نفسها تحالفت مؤاب مع أشور وأصبحت تشعر بأمان وقوة وكبرياء وهو ما أُخذَ عليها. فقال إشعياء (إش ١٦ : ٦): «قد سمعنا بكبرياء مؤاب. المتكبِّرة جدا. عظمتها وكبرياؤها وصلفها وبُطلِ افتخارها» وتستمر النبوءة فتذكر خراب المدن الرئيسية فى مؤاب (شكل ٦٩): «وحى من جهةِ مؤاب. إنه فى ليلة خربت «عار» مؤاب وهلكت. إنه فى ليلة خربت «قير» مؤاب وهلكت. تولول مؤاب على «ميدبا» (ثالث مدن مؤاب الكبرى). فى كل رأسٍ لحية مجزورة وتصرخ «حشبون» ويسمع صوتها إلى «ياهص» (رابع وخامس مدن مؤاب الكبرى). ويستمر وصف الخراب الذى سيحدث. ثم يحث مؤاب على الخضوع ليهوذا ودفع الجزية فيقول: «أرسلوا خرفان حاكم الأرض من مؤاب إلى جبل صهيون» (أى إلى الهيكل فى أورشليم لتكون قربانا) ثم بعد ذلك دعوة إلى يهوذا بإيواء مشردى مؤاب فيقول ليهوذا: «اصنعى إنصافا. اجعلى ظلَّك كالليل فى وسط الظهيرة. استُرى المطرودين لا تطردى الهاربين. ليتغرَّب عندك مطرودو مؤاب. كونى سترا لهم. لأن الظالم يبيد ويفنى عن الأرض».

٤ – نبوءة ضد دمشق (إش ١٧) :

فى ذلك الوقت كانت إسرائيل متحالفة مع أشور وخاف ملك يهوذا من هذا التحالف وحاول



شكل ٦٨ – ممالك الشرق الأدنى القديم.

شكل ٦٩ – المدن الرئيسية فى مؤاب .

استمالة دمشق لتقف معه ولكن إشعياء النبى أخبره أن دمشق نفسها ستخرب، وتقول النبوءة: «هوذا دمشق تُزال من بين المدن وتكون رُجمة ردم. تكون للقطعان فتربض وليس من يخيف ويزول المُلكُ من دمشق وبقية أرام. فى ذلك اليوم تصير مدنه الحصينة كالردم فى الغاب».

٥ - نبوءة ضد مصر (إش ١٩ : ٢٠) :

الخلفية التاريخية: كانت أشور فى صعود مستمر. ولذلك وجَّه ملوك يهوذا أنظارهم وقلوبهم إلى مصر للتحالف معها درءا للخطر عن أنفسهم بالرغم من أن مصر وثنية. وكان الواجب على يهوذا التوكل على الله وحده ليحميهم من أعدائهم. وقد عارض إشعياء فكرة التحالف مع مصر وأوضح أن مصر سيصيبها قحط وستمزقها حروب أهلية. تقول النبوءة: «وحى من جهة مصر. هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه. ويذوب قلب مصر داخلها. وأُهيِّج مصريين على مصريين فيحارب كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه. مدينة تحارب مدينة وتراق دماء مصر داخلها وأفنى مشورتها. فيسألون الأوثان والعارفين وأصحاب التوابع والعرَّافين. وأُغلق على المصريين فى يد مولى قاسٍ فيتسلط عليهم ملك عزيز. يقول السيد رب الجنود. وتنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس. وتنتن الأنهار وتجف سواقى مصر ويتلف القصب. وكل روض أو مزرعة على النيل تيبس. والصيادون يئنون. وكل الذين يلقون شصا فى النيل يتوجَّعون. والذين يبسطون شبكة على وجه المياه يحزنون. ويخزى الذين يعملون فى الكتان الممشط والذين يحيكون الأنسجة البيضاء وكل العاملين بالأجرة مكتئبى النفس».

فى أثناء حكم الليبيين لمصر غادر أشراف طيبة وكهنة وأتباع عقيدة أمون مصر إلى النوبة وأقاموا فيها مملكة مستقلة عاصمتها «نباتا» عند الشلال الرابع وانتشرت عبادة الآلهة المصرية فى النوبة. وفى أواخر الحكم الليبى أصاب البلاد قحط شديد ووقعت مصر فى فوضى شديدة وانقسمت إلى عدة دويلات صغيرة دب بين أمرائها الشقاق وجاءت الأسرة ٢٣ و ٢٤ وتقهقرت مصر أكثر واضمحلَّت. وهنا تقدم النوبيون يقودهم «بعنخى» واستولى على الصعيد. وكانت الدلتا موزعة بين ثلاثة بيوتات. بيت فى تانيس. وثان فى بوبسطة وثالث فى صا الحجر فى غرب الدلتا قرب فرع رشيد. وبينهما تنافس وتناحر. فكان هذا مصداقا للنبوءة «وأهيِّج مصريين على مصريين. فيحارب رجل أخاه ورجل صاحبه...». وظل التناحر بين الدويلات إلى أن نجح أمير صا الحجر فى إعادة الاستقرار إلى الدلتا ومصر الوسطى. ولكن قوة ملوك نباتا كانت قد تعاظمت ومدت نفوذها شمالا حتى نجح شباكا من بسط نفوذه على مصر كلها مؤسسا الأسرة ٢٥. وبعد وفاة سرجون الثانى انفجر الشرق الأدنى (الشام وفلسطين) فى ثورة عارمة ضد الاحتلال الأشورى وكان ممن تطلَّعوا إلى عون مصر دولة يهوذا وملكها حزقيا. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٣٣٥) أن حزقيا كان قد سار فى طريق الرب وبدأ محاولة للإصلاح الدينى فى يهوذا. ولكن إشعياء النبى أعلن أن وقت الإصلاح الدينى قد فات وأن غضب الرب قادم لا محالة

ولتقليل الخسائر عن الشعب اليهودى ما أمكن فعليهم التباعد عن محالفة مصر الوثنية لأن مصر ستنال جزاءها ولكن حزقيا لم يسمع له. وذكرنا أيضا (ص ٣٣٩ – ٣٤٢) غزو سنحاريب لفلسطين وحصار أورشليم ثم اضطراره لرفع الحصار والعودة لبلاده. ورأى خلفه أسرحدون أن مصر هى آخر قوة منافسة فى الشرق الأدنى القديم وهى التى تشجع كل دوله على الوقوف ضده. فقرر الاستيلاء على مصر نفسها. فتقدم الجيش الأشورى بإزاء ساحل البحر المتوسط واستولى على أشدود. ورغب ملك يهوذا فى التحالف مع مصر فأراد الله أن يلفت نظره إلى أن واجبه التوكل على الله وحده. فكان الأمر إلى إشعياء بأن يتجوَّل ٣ سنوات حافيا وبملابس بسيطة فى شوارع أورشليم. وكانت حالته الزرية إشارة إلى ماهو مُقدَّر أن يصيب مصر فى أعقاب انتصار أشور عليها. تقول التوراة (إش ٢٠:٢): «فى ذلك الوقت تكلم الرب عن يد إشعياء بن آموص قائلا: اذهب وحُلَّ المسح عن حقويك (وسطك) واخلع حذاءك عن رجليك. ففعل هكذا ومشى معرًى حافيا. فقال الرب: كما مشى عبدى إشعياء معرًى وحافيا ٣ سنوات آية وأعجوبة على مصر وعلى كوش (بلاد النوبة) هكذا يسوق ملك أشور سبى مصر وجلاء كوش الفتيات والشيوخ عراة وحفاة خزيا لمصر. ويقول ساكنو هذا الساحل (الفلسطينيون ويهوذا) فى ذلك اليوم. هكذا ملجؤنا الذى هربنا إليه للمعونة لننجو من ملك أشور فكيف نسلم نحن؟».

استيلاء أشور على مصر :

وبعد استيلاء أسرحدون على الساحل الفلسطينى تقدم نحو مصر فى عام ٦٧٤ ق.م. ولكنه هُزم فى معركة على الحدود المصرية قرب رفح. ثم أعاد الهجوم بعد ٣ سنوات (٦٧١ ق.م.). وبالرغم من مقاومة المصريين المستبسلة والمشقة التى لاقاها من نقص المياه إلا أن أسرحدون نجح فى دخول البلاد ودمَّر مبانيها ومعابدها. ثم عين الأمراء الإقليميين عمَّالا له لإدارة البلاد واستولى على كنوز القصر الملكى وطمع فى الاستفادة من مهارة الحرفيين المصريين فأمر بترحيل جماعات من الصاغة والكتبة والموسيقيين والسحرة وصانعى الجعة والخبازين إلى بلاده وعيَّن «نخاو» أمير مدينة «سايس» (صا الحجر – مركز كفر الزيات) حاكما من قبله على مصر. ولكن ما إن عاد أسرحدون إلى نينوى حتى قامت فى مصر ثورة ضد الحكم الأشورى. وبدأ أسرحدون يُعدُّ لحملة ثالثة ولكنه مات فى عام ٦٦٨ ق . م. وتولى آشوربانيبال بدله فقاد الحملة واستولى مرة ثانية على الوجه البحرى واستولى كذلك على الوجه القبلى وطرد الملوك النوبيين واستولى على طيبة. وقَتَل جنودُه وأسروا كثيرا من أبنائها ثم نهبوا كل ما فى معابدها من ذهب وتماثيل بديعة وأثاث جميل وأدوات غالية ونُقلت كلها إلى عاصمة أشور. وعيَّن بسماتيك بن نخاو حاكما من قبله على الوجه البحرى ومنف وأبقى بقية الدلتا (غربها) والوجه القبلى مقسما بين الأمراء إذ حرص الأشوريون على أن تبقى مصر مسرحا للمنازعات ويظل التنافس بين الأمراء قائما حتى تظل مصر ممزَّقة ضعيفة فلا تتحد ضدهم.

أما وقد وصلت مصر إلى هذه الحال فيقول إشعياء لمن أرادوا الاحتماء بها (إش ٣٠:١):
«ويل للبنين المتمردين – يقول الرب– حتى أنهم يُجرون رأيا وليس منى. الذين يذهبون لينزلوا إلى مصر ولم يسألوا فمى ليلتجئوا إلى حصن فرعون ويحتموا بظل مصر فيصير لكم حصن فرعون خجلا. والاحتماء بظل مصر خزيا. قد خجل الجميع من شعب لا ينفعهم».

٦ – نبوءة ضد بلاد العرب :

قيدار هو ثاني أبناء إسماعيل عليه السلام وظلت القبيلة تسكن مكة وما حولها إلاّ أن فرعا من القيداريين نزحوا إلى شمال غرب الجزيرة العربية وسكنوا المنطقة شرقى أدوم وكوّنوا شبه دولة يلجأ إليها الفارون من الدول المجاورة فى أثناء الحروب طلبا الماء والقوت كما أنهم كانوا رجالا أشداء ومحاربين متمرسين ويمكنهم المساندة عند طلبها. وفكّر ملك يهوذا فى طلب العون منهم ولكن إشعياء نهاه وقال له: «قال لى السيد الرب. فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار».

٧ – نبوءة ضد صور وصيدا (إش ٢٣) :

لقد رأينا ملك صور صديقا لسليمان عليه السلام. وساعد بأخشاب الأرز في بناء الهيكل فى أورشليم. وكانت صور مدينة منيعة يصعب على العدو الاستيلاء عليها. وقد فكّر ملك يهوذا أن يتحالف مع الصوريين ناسيا أن إيزابل ابنة ملكهم أثبعل والتى تزوجها أخاب هى التى أدخلت عبادة البعل فى إسرائيل (ص ٢٥٣) وأن ابنتها عثليا التى تزوجها يهورام ملك يهوذا هى التى أدخلت عبادة البعل إلى يهوذا (ص ٣٢٤). لذلك نهاه إشعياء عن التحالف مع صور وقال: «وحى من جهة صور. وَلْوِلى لأنها خربت حتى ليس بيت. حتى ليس مدخل. اخجلى ياصيدون لأن صور خربت. من قضى بهذا على صور المتوّجة التى تُجّارها رؤساء. رب الجنود قضى أن تُخرَّب حصونها ويكون من بعد ٧٠ سنة أن الرب يتعهد صور فتعود إلى أجرتها مع كل ممالك البلاد. وتكون تجارتها وأجرتها قدسا للرب. وتكون تجارتها للمقيمين أمام الرب لأكل الشبع وللباس فاخر». وفى هذا إشارة إلى أن صور ستقوم فى المستقبل بتقديم أموالها وأخشابها لبناء الهيكل مرة ثانية بعد تدميره. ويوضّح أكثر فيقول: «واعطوا فضة للنحاتين والنجارين ومأكلاً ومشربا وزيتا للصيدونيين والصوريين ليأتوا بخشب أرز من لبنان إلى بحر يافا حسب إذن قورش ملك فارس لهم». وقورش هو الذى سمح بعودة السبى إلى يهوذا وإعادة بناء الهيكل فى أورشليم كما سيجيء فيما بعد.

٨ – نبوءة بخراب يهوذا نفسها (إش ٢٢) :

«وحى من جهة وادى الرؤيا (أورشليم) يا ملآنة من الجلبة. المدينة العجّاجة. القرية المفتخرة. قتلاك ليس هم قتلى السيف ولا موتى الحرب. جميع رؤسائك هربوا معا. كل الموجودين بك أسروا معا». ثم ينعى عليهم أنهم نسوا الله واعتمدوا على قوّتهم الذاتية. والأسلحة الموجودة فى

حصون المدينة وخزان المياه الذى عمله لتأمين احتياجات المدينة من الشرب أثناء حصارها. وأن أسوار المدينة متينة. فيقول «ورأيتم شقوق مدينة داود (أورشليم) أنها صارت كثيرة (فرممتموها) وجمعتم مياه البركة السفلى. وهدمتم البيوت لتحصين السور وصنعتم خندقا بين السورين لمياه البركة العتيقة. لكن لم تنظروا إلى صانعه (أى الله) ولم تروا مُصَوِّره من قديم». أى أنهم اتخذوا كل الاستعدادات المادية ولكنهم لم يطلبوا المعونة من الله الذى يهب النصر. وظنوا أن الاستعدادات وحدها هى صانعة النصر وكان هذا إثما وخطيئة تضاف إلى سابق خطاياهم التى تستوجب عقابا. «ودعا السيد رب الجنود فى ذلك اليوم إلى البكاء والنوح وأعلن فى أذنى لا يغفرنَّ لكم هذا الإثم».

ثم يوجه الرب الكلام إلى إشعياء (إش ٣٠ : ٨) «تعال الآن. اكتب هذا عندهم على لوح وارسمه فى سفر ليكون لزمن آت للأبد إلى الدهور لأنه شعب متمرد. أولاد كَذَبة. لم يشاءوا أن يسمعوا شريعة الرب. الذين يقولون للرائين لا تروا. حيدوا عن الطريق. ميلوا عن السبيل. اعزلوا من أمامنا قدوس إسرائيل. لذلك هكذا يقول قدوس إسرائيل: لأنكم رفضتم هذا القول وتوكلتم على الظلم والاعوجاج واستندتم عليهما لذلك لكم هذا الإثم كصدع منقض ناتىء فى جدار مرتفع ينهدم بغتة فى لحظة. لأنه هكذا قال السيد الرب قدوس إسرائيل. بالرجوع والسكون تَخلُصون. بالتقوى والإيمان تكون قوتكم».

ثم يخبرهم بعد ذلك برأفة الله ورحمته بهم: «ولذلك ينتظر الرب ليتراءف عليكم ويرحمكم لأن الرب إله حق. طوبى لجميع منتظريه. يتراءف عليك عند صوت صراخك. حينما يسمع يستجيب لك ويعطيكم السيد خبزا فى الضيق وماء فى الشدة. ثم يعطى مطر زرعك الذى تزرع الأرض به. وخبز غلة الأرض فيكون دسما وسمنا وترعى ماشيتك فى ذلك اليوم فى مرعى واسع».

ثم يعود فيندد بمن يطلبون المعونة من مصر (إش ٣١:١): «ويل للذين ينزلون إلى مصر للمعونة ويستندون على الخيل ويتوكلون على المركبات لأنها كثيرة وعلى الفرسان لأنهم أقوياء جدا. ولا ينظرون إلى قدوس إسرائيل ولا يطلبون الرب. وأما المصريون فهم أناس لا آلهة لهم. وخيلهم جسد لا روح. والرب يمد يده فيعثر المعين ويسقط المُعان ويفنيان كلاهما معا».

٩ – نبوءة عن السبى البابلى ليهوذا :

سبق أن ذكرنا (ص ٣٣٧) أن الملك حزقيا رحَّب برسل بابل الذين جاءوا لعيادته فى مرضه وأراهم كل نفائس بيت الرب وكنوز قصره. فوبخه إشعياء النبى وأخبره أن بابل – التى يود صداقتها – هى نفسها التى ستقوم بسبيه وسبى أهل بيته وشعبه فقال له: «اسمع قول الرب: هوذا تأتى أيام يحمل فيها كل ما فى بيتك وما ذخره آباؤك إلى هذا اليوم إلى بابل لا يُترك شيىء. يقول الرب ويؤخذ من بنيك الذين منك الذين تلدهم فيكونون عبيدا فى قصر ملك بابل».

وقد تحقق هذا فعلا بعد حوالى ٨٠ عاما إذ هاجم بنوخذ نصر ملك بابل يهوذا عام ٥٩٧ ق.م. واستولى على أورشليم وسبى أهلها كلهم بما فيهم الملك يهوياكين والبيت المالك وعددا كبيرا من الشعب كما سيجيء فيما بعد.

١٠ – نبوءة عن سقوط بابل وعودة السبى لفلسطين : (إش ٤٠ – ٤٧) :

قضى المسبيون من يهوذا حوالى ٥٠ عاما فى الأسر البابلى. وفى هذه المدة كانت قلوبهم قد تطهَّرت وعلموا أن الله هو الحق وراحوا يتلمَّسون الشريعة ليطبقوها. فسخَّر الله كورش (قورش) ملك الفرس لتحطيم بابل. وإذ تم ذلك سمح قورش للسبى من يهوذا بالعودة إلى فلسطين وسمح لهم كذلك ببناء هيكل أورشليم مرة ثانية. وقد تنبأ إشعياء النبى بكل هذا قبل حدوثه بحوالى ١٤٠ عاما. يقول إشعياء: «عزُّوا شعبى. يقول إلهكم. طيِّبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمُل (أى استوفت نصيبها من العقاب) إن إثمها قد عُفِىَ عنه. أنها قد قَبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها (أى أنها قد نالت من العذاب ما تستحقه وزيادة). وأما أنت يا إسرائيل عبدى يايعقوب. لا تخف لأنى معك. لا تتلفَّت لأنى إلهك. قد أيدتك وأعنتك وعضَّدتك بيمين برِّى. هكذا يقول الرب: أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى».

ثم يوضح أن كورش ملك فارس هو أداة الرب لتأديب بابل فيقول: «هكذا يقول لكورش الذى أمسكتُ بيمينه لأدوس أمامه أمما وملوكا. أفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق. أنا أسير قدامه. والهضاب أمهِّد لأجل عبدى يعقوب وإسرائيل مختارى. دعوتك باسمك. لقيتك وأنت لست تعرفنى. أنا الرب وليس آخر. لا إله سواى. أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها. يداى أنا نشرتا السموات وكل جندها. أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرقه أُسهِّل». وهذه الفقرة توضح أن كل انتصارات الفرس كان الله هو المدبِّر لها بالرغم من أن الفرس لا يعرفون الرب إله السموات والأرض. وقد أثار بعض المفسِّرين من أهل الكتاب مسألة ورود اسم «كورش» هكذا صريحة فى النبوءة. ويرى معظم المفسرين أن الوحى ذكر كورش بالإسم حتى يعلم بنو إسرائيل المسبيون فى بابل أنه حالما يأتى كورش فقد انتهت أيام سبيهم وجاء خلاصهم. ويرى آخرون أن هناك قصداً آخر وهو أنه حينما يأتى كورش ويعلم أن اسمه قد ذُكر فى وحى لبنى إسرائيل سيكون ذلك حافزا له ليتجاوب مع هذا القصد السماوى ويعمل على تحقيقه بأن يرد المسبيين إلى فلسطين.

ثم يوضح كيف تذل بابل لأنها تمادت فى ظلم بنى إسرائيل: (إش ٤٧): «انزلى واجلسى على التراب أيتها العذراء ابنة بابل. اجلسى على الأرض بلا كرسى يا ابنة الكلدانيين لأنك لا تعودين تدعين ناعمة ومترفهة. خذى الرحى واطحنى دقيقا. اكشفى نقابك. شمِّرى الأيدى. اكشفى الساق. اعبرى الأنهار. آخذ نقمة ولا أصالح أحداً. اجلسى صامتة وادخلى فى الظلام يا ابنة الكلدانيين لأنك لا تعودين تُدعين سيدة الممالك. غضبتُ على شعبى ودفعتهم إلى يدك. لم

تصنعى لهم رحمة. على الشيخ ثقّلت نيرك جدا. وقلت إلى الأبد أكون سيدة. حتى هذه لم تضعى في قلبك. لم تذكرى آخرتها وأنت اطمأننت فى شرك فيأتى عليك شر لا تعرفين فجره. وتقع عليك مصيبة لا تقدرين أن تصدّيها ويأتى عليك بغته تهلكة لا تعرفين بها».

ثم يتوجه الخطاب إلى بنى إسرائيل ليعودا إلى فلسطين (إش ٤٨): «اخرجوا من بابل. اهربوا من أرض الكلدانيين بصوت الترنم أخبروا. نادوا بهذا وأشيعوه إلى أقصى الأرض. قولوا قد فدى الرب عبده يعقوب. فى وقت القبول استجبتك وفى يوم الخلاص أعنتك فأحفظك قائلا للأسرى اخرجوا. للذين فى الظلام اظهروا. ترنّمى أيتها السموات. وابتهجى أيتها الأرض. لتَشُدْ الجبال بالترنم لأن الرب قد عفا عن شعبه وعلى بائسيه يترحّم. انتفضى من التراب. قومى اجلسى يا أورشليم. انحلّى من أربطة عنقك أيتها المسبيّة. اطلبوا الرب مادام يوجد. ادعوه وهو قريب هكذا قال الرب. احفظوا الحق وأجروا العدل لأنة قريب مجىء خلاصى. طوبى للإنسان الذى يعمل هذا. الحافظ السبت. والحافظ يده من كل عمل شر. هكذا قال الرب. السموات كرسىّ والأرض موطىء قدمىّ. أين البيت الذى تبنون لى. افرحوا مع أورشليم وابتهجوا معها ياجميع محبّيها».

وفاة إشعياء :

المشهور أن منسى ملك يهوذا اختلف مع إشعياء وأمر بقتله نشرا بالمناشير.

ميخا النبى Micah

«ميخا» كلمة عبرية تعنى «من كيهوه» ويسمى أيضا «ميخا المورشتى» نسبة إلى مورشة أو مريشة مسقط رأسه وهى قرية قرب جت ١٠كم شمال شرق لخيش (شكل ١٠٥). وقد عاصر ميخا النبى إشعياء كما عاصر ثلاثة من ملوك يهوذا هم: يوثام وآحاز وحزقيا. وهو غير النبى ميخايا (ويُختصر إلى ميخا) والذى ظهر فى المملكة الشمالية أيام الملك آخاب وقد سبق ذكره (ص ٢٥٥). ويتضمّن سفر ميخا عدة نبوءات:

١ – نبوءة بخراب السامرة : (مى ١) :

قيلت هذه النبوءة فى أوائل سنى نبوّته حوالى عام ٧٣٥ ق.م. أى قبل سقوط السامرة بما يقرب من ١٥ عاما. «قول الرب الذى صار إلى ميخا المورشتى الذى رآه على السامرة وأورشليم. اسمعوا أيها الشعوب جميعكم. اصغى أيتها الأرض وملؤها. وليكن السيد الرب شاهدا عليكم. السيد من هيكل قدسه فإنه هوذا الرب يخرج من مكانه وينزل على شوامخ الأرض فتذوب

الجبال تحته وتنشقُّ الوديان كالشمع قدام النار. كل هذا من أجل خطيئة بيت إسرائيل. ماهو ذنب يعقوب؟ أليس هو السامرة؟ وما هي مرتفعات يهوذا؟ أليست هي أورشليم! فأجعل السامرة خربة في البرية وألقي حجارتها إلى الوادي وأكشف أسسها. وجميع تماثيلها المنحوته تحطَّم وكل بيوتها تحرق بالنار وجميع أصنامها أجعلها خرابا».

٢ – الفساد المنتشر هو سبب الخراب القادم : (مى ٢) :

«ويل للمفتكرين بالباطل والصانعين الشر على مضاجعهم. في نور الصباح يفعلونه لأنه في قدرة يدهم. فإنهم يشتهون الحقول ويغتصبونها. والبيوت ويأخذونها. ويظلمون الرجل وبيته والإنسان وميراثه لذلك هكذا قال الرب: هأنذا أفتكر على هذه العشيرة بِشَرٍّ لا تزيلون منه أعناقكم. في ذلك اليوم يُقال خربنا خرابا. اسمعوا يامن تكرهون الحق ويعوِّجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يُعلِّمون بالأجرة وأنبياؤها يُعرِّفون بالفضة قائلين أليس الرب في وسطنا وهو لا يأتي علينا بشرٍّ. لذلك بسببكم تُفلَح صيون كحقل وتصير أورشليم خرابا».

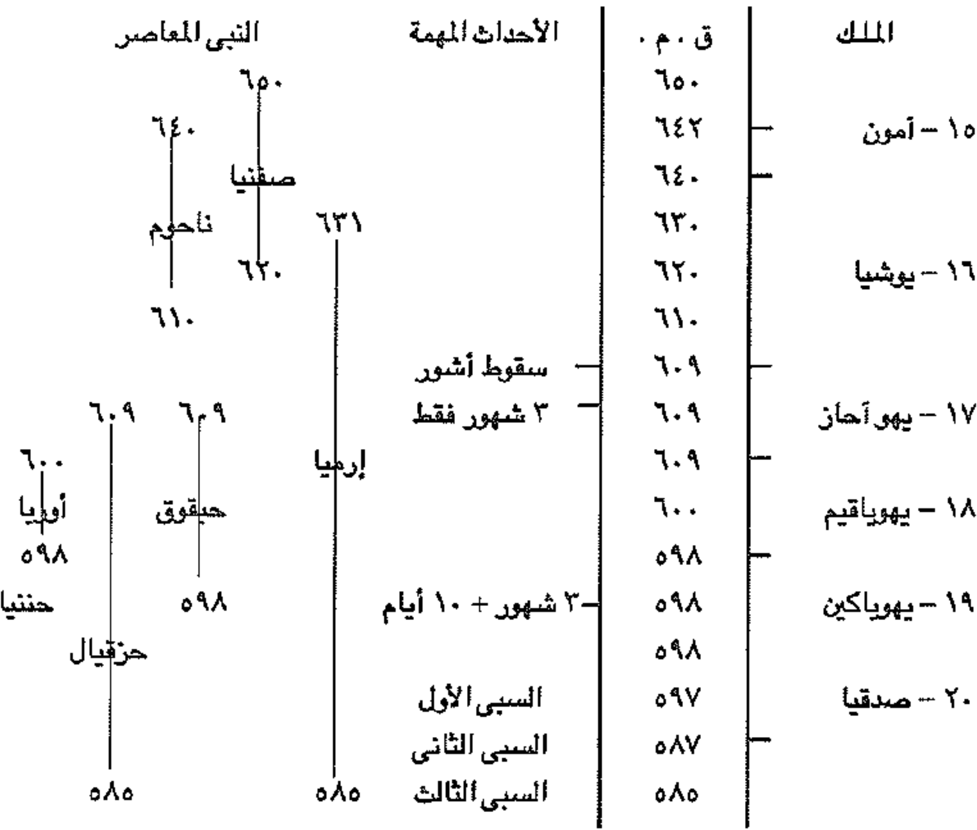
٣ – نبوءة بمقدم المسيح عليه السلام : (مى ٥) :

«أما أنت يا بيت لحم أفراته. وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنكِ يخرج الذي يكون متسلِّطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم. منذ أيام الأزل ويقف ويرعى بقدرة الرب. بعظمة اسم الرب إلهه».

٤ – ترنيمة عفو الرب ومغفرته : (مى ٧ : ١٨) :

«مَنْ إله مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب لبقية ميراثه. لا يحفظ إلى الأبد غضبه. فإنه يُسَرُّ بالرأفة. يعود يرحمنا. يدوس آثامنا. وتطرح في أعماق البحر جميع خطايانا».

ملوك وأنبياء فترة ماقبل وحتى سقوط يهوذا



هذه الفترة تشمل الخمسين سنة التى سبقت سقوط يهوذا والسبى البابلى وتبدأ من عهد الملك أمون الذى حكم عامين (٦٤٢ – ٦٤٠ ق.م.) وخلفه ابنه يوشيا الذى حكم ٣٠ سنة (٦٣٩ – ٦٠٩ ق.م.) ثم يهو أحاز وملك ٣ شهور فقط. ثم خلفه أخوه يهوياقيم وحكم ١١ سنة (٦٠٩ – ٥٩٨ ق.م.) ثم خلفه يهوياكين وحكم ٣ شهور وعشرة أيام ثم خلفه صدقيا الذى حكم ١١ سنة (٥٩٨ – ٥٨٧ ق.م.) وفى عهده حدث السبى الأول عام ٥٩٧ ثم السبى الثانى أو السبى الكبير عام ٥٨٧ وتلاه سقوط أورشليم وانتهاء مملكة يهوذا. وظهر فى هذه الفترة خمسة أنبياء: اثنان كبار هم: إرميا وحزقيال، وثلاثة صغار هم: صفنيا وناحوم وحبقوق.

١٥ – الملك أمون Amon

حكم الملك أمون بعد والده منسى بن حزقيا (ص٣٤٢) وكان عمره ٢٢ سنة عند توليه الحكم. وسار على منهاج والده فى عمل الشر وعبادة الأصنام. فذبح لجميع التماثيل التى عملها منسى أبوه وعبدها (٢ أخبار ٢١:٣٣). وقد تآمر عليه جماعة من البلاط وقتلوه ولم يحكم إلا سنتين. وقد انتقم الشعب من المتآمرين فقتلوهم وملّكوا ابنه يوشيا مكانه.

١٦ – يوشيا Josiah

تولى يوشيا الملك وهو ابن ٨ سنوات وحكم ٣٠ سنة. ولما كان عمره ١٥ سنة أى فى السنة السابعة من حكمه ظهر إرميا النبى وكان لهذا تأثير كبير على سلوك يوشيا إذ سار فى طريق الرب (٢ أخبار ٢:٣٤). فبدأ يُطهِّر يهوذا وأورشليم من المرتفعات والسوارى والتماثيل والمسبوكات. وهدم مذابح البلعيم وتماثيل الشمس. وقتل كهنة الأوثان وكذلك عُبَّادها. ولم تقتصر حملة التطهير على يهوذا بل امتدت إلى الجزء المجاور من إسرائيل التى كانت خاضعة لأشور خضوعا مباشرا بعد سقوط السامرة. وفى السنة ١٨ من حكمه بدأ يوشيا فى ترميم بيت الرب فى أورشليم. وفى أثناء عملية الترميم وجد الكاهن حلقيا سفر شريعة الرب المكتوبة بيد موسى فسلَّمه إلى الملك. ولما قرأه الملك يوشيا هاله ما وجده مكتوبا فيه من شدة غضب الرب على مخالفيه. وجمع يوشيا جميع شيوخ يهوذا فى أورشليم والكهنة والشعب وقرأ كلام الله المكتوب فى السفر وقطع عهدا أمام الرب لحفظ وصاياه وفرائضه. وأمر يوشيا بعمل فصح للرب وأعطى من ماله الخاص ٣٠,٠٠٠ من الحملان والجدى و ٣٠٠٠ من البقر. وقدم رؤساء الشعب ٢٦٠٠ من الحملان و ٣٠٠ من البقر وقدم الكهنة واللاويون ٥٠٠٠ من الغنم و ٥٠٠ من البقر. ولما اكتملت التقدمة (٣٧,٦٠٠ من الغنم و ٣٨٠٠ من البقر) تم ذبحها حسب الشريعة وتسويتها على المحرقة ووُزِّعت على العشائر بحسب عدد البيوتات فيها وعدد الأفراد. وكان الاحتفال بعيد الفصح احتفالا عظيما عمَّ يهوذا كلها. ولعل يوشيا أراد بهذا الاحتفال وهذه الذبائح التكفير عن خطايا بنى إسرائيل وأن يدرأ عنهم غضب الله الذى تنبأ به الأنبياء.

أشور ومصر :

ذكرنا سابقا (ص ٣٥٤) أن أسرحدون نجح فى دخول مصر واستولى على الدلتا ووصل إلى منف ثم ذكرنا أن أشور بانيبال – خلفه – استولى على طيبة عام ٦٥٩ ق.م. ودمرها وأمر بنقل كنوزها إلى بلاده ومنها مسلتين كانتا مُغشَّيتين بالذهب و ٣٥ تمثالا من تماثيل الملوك المصريين. وقد وجدت كلها فى «تل النبى يونس» فى شمال العراق. وكان لسقوط طيبة دوى كبير إذ كانت

من أقوى العواصم السياسية والدينية طيلة عدة قرون فى العالم القديم. وقد عبَّر عن ذلك النبى ناحوم وهو ينذر نينوى عاصمة أشور – التى سقطت عام ٦٠٩ ق.م. أى بعد ٥٠ سنة من سقوط طيبة – بأنها لن تكون أعز من «نوآمون» أى طيبة. ويصف سقوطها (ناحوم ٣:٨) فيقول: «هل أنت أفضل من «نوآمون» الجالسة بين الأنهار حولها المياه التى هى حصن البحر سورها. كوش (النوبة) مع مصر وليست نهاية (أى كانت تظن أنها باقية إلى الأبد وليس لها نهاية). لوبيم (الليبيون) كانوا معونتك. هى (طيبة) أيضا قد مضت إلى المنفى بالسبى وأطفالها حُطِّمت فى رأس جميع الأزقة. وعلى أشرافها ألقوا قرعة (فيمن يقتل أوَّلا) وجميع عظمائها تقيَّدوا بالقيود».

ثم تولى حكم مصر بسماتيك الأول مؤسسا الأسرة ٢٦ تحت الحكم الأشورى ويدفع الجزية لأشور ولكنه بدأ يمسك بزمام الأمور فى يده واستمال كهنة طيبة ثم ضم إلى جانبه أمراء مصر الوسطى. ويقول هيرودوت إنه أيضا استعان بجنود مرتزقة من الإغريق ومن الليبيين. وكانت أشور مشغولة بنزاعاتها مع عيلام فى الشرق وبابل فى الجنوب وبثورات قامت ضدها فى بلاد الشام كما أنها اشتبكت فى حروب مع ليديا فى آسيا الصغرى. فانتهز بسماتيك الأول الفرصة للتخلص من النفوذ الأشورى وأعلن استقلاله عن أشور وعمل على تأمين حدوده الشمالية من ناحية فلسطين.فاستولى على جزء كبير من الساحل الفلسطينى ومن جنوب يهوذا. ولما بدأت أشور تضعف تعاظم الخطر البابلى وبدا أنها سترث الأشوريين فى امبراطوريتهم. وهنا بدأت مصر تمد العون لأشور لاتقاء الخطر البابلى المتنامى. ويقول إرميا (أر ١٤:٢): «أعبدٌ إسرائيل أو مولود البيت هو؟ لماذا صار غنيمة؟ زمجرت عليه الأشبال. أطلقت صوتها وجعلت أرضه خربة. أُحرقت مدنه فلا ساكن. وبنو نوف وتحفنيس (أى المصريون) قد شجُّوا هامتك. أمَا صنعت هذا بنفسك إذ تركتِ الرب إلهك حينما كان مسيِّرك فى الطريق. والآن مالكِ وطريق مصر لشربِ مياه شيحور (أى بحيرة حورس كناية عن نهر النيل).»

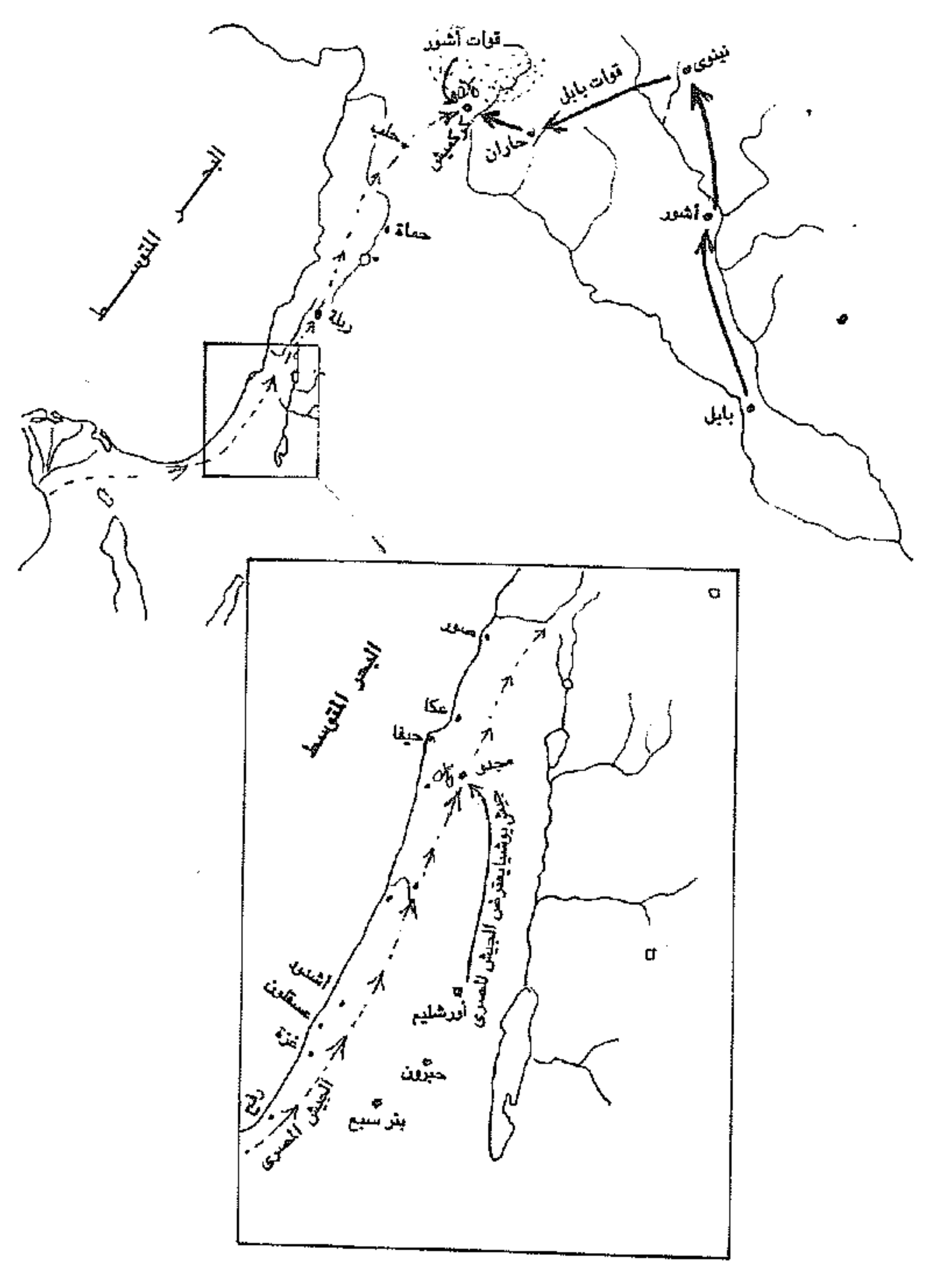
بداية النهاية لأشور :

بعد موت أشور بانيبال (سنة ٦٢٦ ق.م. فى السنة ١٤ من حكم يوشيا ملك يهوذا) حدث صراع على العرش انتهى لصالح الملك «أشور أو بليط». وانتهزت بابل فرصة الصراع هذه وانسلخت عن أشور وقام القائد الكلدانى «بنو آبل أوصر» بتأسيس الأسرة البابلية الجديدة وكانت دولته تشمل بابل فقط. ثم أخذ يزيد مساحتها حتى شملت جنوب العراق كله. وبدأ يتطلع إلى توسيع مملكته على حساب أشور نفسها. وفى عام ٦١٦ ق.م قام بسماتيك الأول ملك مصر بإرسال جيش لمعاونة أشور على صد تطلعات بابل. ولكن بابل تحالفت مع الميديين (الفرس) فى شمال إيران الذين كانت لهم أطماع فى الجزء المجاور لهم من أرض أشور. ثم فى عام ٦١٠ ق.م. حاول آخر ملوك أشور مع حليفه المصرى نخاو الثانى الهجوم على بابل والفرس المتحالفين معها. فلم يكتب لهما النجاح. وسقطت نينوى فى أيدى البابليين.

سقوط نينوى :

كان لسقوط مدينة نينوى دوى كبير فى أنحاء العالم المعروف آنذاك إذ اعتبرته دول الشرق الأدنى القديم رمزا لسقوط الظلم والشر. وفجرا جديداً للشعوب التى غُلبت على أمرها وطالما رزحت تحت نير أشور التى لم ترعَ أضأل مبادىء الإنسانية فى معاملة الشعوب المغلوبة على أمرها والتى قُدِّر لها أن تحكمها بالحديد والنار (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. الشرق الأدنى القديم. جـ٣. ص ٣٠٩). ولذلك غضب الرب «يهوه» على أشور. وقد دُمِّرت مدينة نينوى عقب سقوطها ونهبت بيوتها ثم أحرقت بالنار وهرب الملك إلى حران مستمسكا بجزء المملكة الواقع على أعالى الفرات. وقد ذكرنا آنفا أن آخر ملوك أشور وهو «أشور أو بليط» قام بمحاولة أخيرة لاسترجاع أرضه وطلب من مصر إرسال جيش لمساعدته. واستجاب نخاو الثانى ملك مصر وقاد الجيش بنفسه. كانت جميع الدويلات الخاضعة لأشور قد تمرّدت على الحكام الأشوريين إلا أن يوشيا ملك يهوذا خشى إن انتصر تحالف مصر وأشور أن تستعيد مصر نفوذها فى فلسطين ويفقد عرشه. لذلك فإنه اعترض الجيش المصرى فأرسل نخاو له رسالة يقول فيها (٢ أخبار ٣٥:٢١): «مالى ولك ياملك يهوذا. لستُ عليك أنت اليوم ولكن على بيت حربى والله أمر بإسراعى فكُفَّ عن الله الذى معى فلا يُهلكك...» ونصحه النبى إرميا بالوقوف على الحياد وخاصة أن المصريين قد وعدوا بعدم إلحاق ضرر بيهوذا. ولم يستمع يوشيا إلى نصح إرميا. وكان المصريون قد استولوا على غزة وعسقلون. وسار الجيش المصرى شمالا لنجدة أشور فى الفرات الأعلى ولكن يوشيا اعترضه بجيش عند مجدّو (شكل ٧٠). وأصيب الملك بجرح ونقل إلى أورشليم حيث مات (عام ٦١٠ ق.م.) وتابع نخاو سيره شمالا. فى ذلك الوقت كان بنوخذ نصر - ولى عهد بابل وقائد الجيش - قد استولى على حاران ودارت المعركة بين بابل وبين نخاو ملك مصر وفلول أشور الهاربة - عند كركميش. وكانت هذه المعركة هى المسمار الأخير فى نعش أشور إذ زالت دولتهم من الوجود بعد هذه المعركة. أما الجيش المصرى فإنه تراجع جنوبا فى حين تقدم الجيش البابلى واستولى على شمال سوريا وكانت الحدود بينهما هى منطقة «ربلة» فى أرض حماة. وفى الأعوام الثلاثة التالية حاول الجيش المصرى استعادة بعض النفوذ فى سوريا ولكن بنوخذ نصر انتصر عليه واستولى على كل الساحل الفلسطينى وأصبح وادى العريش هو الحد الشمالى لمصر. وهنا وجدت يهوذا نفسها مضطرةً للخضوع لبابل ودفع الجزية لها. وبعد أن دخلت يهوذا فى عداد الدول الخاضعة لبابل ولضمان استمرار خضوعها له فإن بنوخذ نصر أخذ عددا من كبار القوم والصناع المهرة أسرى إلى بابل.

واضطر نبوخذنصر إلى العودة إلى بابل لوفاة والده عام ٦٠٥ ق.م. وتولى هو الملك بعده وظل محتفظا بقيادة الجيش أيضا وهو يعتبر من أبرز ملوك بابل. وفور توليه الحكم اهتم بمدينة بابل التى كان الأشوريون قد أهملوها ودمّروها. فجدَّد جميع معابدها وزرع حدائق وجنات فى



شكل ٧٠ – نهاية أشور برغم مساعدة الجيش المصرى .

مصاطب. كل مصطبة تعلو الأخرى وكلها مزروعة بأشجار مختلفة فسميت «**حدائق بابل المعلقة**» ويضعها البعض فى عداد عجائب العالم.

النبى صَفَنْيا بن كوشى

واسم صفنيا Zephaniah – معناه «يهوه قد حفظ» أى أنه قد حُفظ من القتل. وقد ولد صفنيا فى أورشليم أثناء حكم الملك منسّى (ص ٣٤٣) الذى قتل كثيرا من الأبرياء. وتقول التوراة إن صفنيا كان أحد الأحفاد الصغار للملك حزقيا ولذلك كان يسهل عليه الدخول على الملوك. وقد تنبأ فى عصر الملك يوشيا وكان شابا لم يجاوز الخامسة والعشرين عندما بدأ مهمته النبوية. وقد كانت الظروف التى دُعِىَ فيها صفنيا للعمل النبوى محفوفة بالمخاطر. فخلال ملك منسّى الطويل – ٥٥ سنة – تدهورت الحالة الأخلاقية والدينية فى يهوذا تدهورا خطيرا إذ ناهض الصحوة الدينية التى بدأها أبوه حزقيا – فبنى المذابح للبعل وعبد الكواكب فكان الابن الشرير للملك الصالح حزقيا. وقد كان شباب وفتوة صفنيا لازمين للاضطلاع بأعباء النبوة والدعوة للاصلاح الدينى التى وجدت استجابة لدى الملك الشاب يوشيا الذى تحمّس لدعوة صَفَنيا فى محاولة لمنع يهوذا من المصير المؤلم الذى سبق أن أحاق بالمملكة الشمالية.

ويتميز أسلوب صفنيا بالصراحة والعنف والوضوح. وأهم أقواله هى:

١ – التنبؤ بحركة الاصلاح التي قادها يوشيا :

«كلمة الرب التى صارت إلى صفنيا. يقول الرب. أمدُّ يدى على يهوذا وعلى كل سكان أورشليم وأقطع من هذا المكان بقية البعل مع الكهنة والساجدين الحالفين بملكوم. والمرتدين من وراء الرب والذين لم يطلبوا الرب ولا سألوا عنه».

٢ – إنذار الخطاة بقرب يوم الدينونة (صف ١ : ٧) :

«اسكت قدام الرب لأن يوم الرب قريب. ويكون فى ذلك اليوم أنى أعاقب الرؤساء وجميع اللابسين لباسا غريبا (يتشبهون فى لباسهم بالطبقة الأرستقراطية الكافرة). الذين يقفزون من فوق العتبة (إشارة إلى كهنة الإله داجون الذين يتحاشون أن يدوسوا عتبة هيكله لأن صنمه وقع عليها فصارت مقدسة) وأعاقب الرجال القائلين فى قلوبهم إن الرب لا يُحسِن ولا يُسىء. فتكون ثروتهم غنيمة وبيوتهم خرابا. قريب يوم الرب العظيم».

٣ – نبوءة بخراب بعض الأمم الأجنبية

مثل غزة وأشدود وأسقلون وهى من مدن الفلسطينيين. وكذلك خراب مدن مؤاب وبنى عمون وأشور. «ويمد الرب يده على الشمال ويبيد أشور ويجعل نينوى خرابا كالقفر».

٤ - نبوءة على أورشليم :

يُحذِّر المدينة من العصيان والتعجرف تجاه الأنبياء واللامبالاة بالله ويصف الرؤساء بالعنف والقسوة والقضاة بالجشع والغدر والكهنة بأنهم متفاخرون ومبذرون ومكابرون وغير أمناء فيما يختص بتطبيق الشريعة «لذلك فانتظروني لأصب عليهم سخطي».

٥ - وعد بالغفران والعودة من السبي :

بعد عقوبات الله التأديبية تأتي الرحمة على البقية الباقية. فليس عقاب الله غاية بذاتها وهو لا يعاقب بلا مسوِّغ. فعقابه دائما عادل. فالبقية الباقية التي تواضعت للرب ستعود من الأسر البابلي «لأني حينئذ أنزع من وسطك مبتهجي كبريائك ولن تعودي بعد إلى التكبر في جبل قدسي وأبقي في وسطك شعبا متواضعا فيتوكلون على اسم الرب. بقية إسرائيل لا يفعلون إثما ولا يتكلمون بالكذب ولا يوجد في أفواههم لسان غش. ترنَّمي يا ابنة صهيون. اهتف يا إسرائيل. افرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة أورشليم. قد نزع الرب الأقضية عليك. أزال عدوك. في ذلك اليوم يقال لأورشليم لا تخافي. الرب إلهك في وسطك جبار يُخلِّص. أردُّ مسبييكم قدام أعينكم. قال الرب».

بقية ملوك يهوذا :

١٧ - يهوأحاز بن يوشيا = شلوم

بعد موت يوشيا (٦٠٩ ق.م.) مسح الشعب في أورشليم ابنه يهوأحاز Jehoahaz - ويدعى أيضا شلوم - مقدمينه على أخيه الأكبر إلياقيم. وفي ذلك الوقت كان الجيش المصري عائدا إلى بلاده بعد هزيمته في كركميش وشعر نخاو بميل يهوأحاز إلى بابل فعزله وهو لم يمض إلا ٣ شهور في الحكم وولى مكانه إلياقيم ملكا على أورشليم وتسمى باسم يهوياقيم. ولكن ظلت يهوذا تابعة لبابل وتدفع لها الجزية وحتى لا يثير يهوأحاز اضطرابات ضد مصر فإن نخاو سجنه مقيدا بالسلاسل الحديدية في حماة. وعند انسحاب الجيش المصري الكامل من الساحل الفينيقي والساحل الفلسطيني فإن نخاو حمل معه يهوأحاز إلى مصر التي ظل بها إلى أن مات.

وقد أشارت نبوءات إرميا إلى ذلك (إرميا ٢٢ : ١٠) إذ تقول: «لا تبكوا ميتا ولا تندبوه. ابكوا ابكوا من يمضي لأنه لا يرجع بعدُ فيرى أرض بلاده لأنه هكذا قال الرب عن شلوم (الاسم الثاني ليهوأحاز) ملك يهوذا المالك عوضا عن يوشيا أبيه. الذي خرج من هذا الموضع لا يرجع إليه بعدُ. بل في الموضع الذي سبوه إليه يموت وهذه الأرض لا يراها بعده».

١٨ - يهوياقيم بن يوشيا Jehoiakim

قلنا آنفا إن اسمه الأصلى هو إلياقيم وهو اسم عبرى معناه «من يثبته الله». ولما أصبح ملكا على يهوذا ضمَّن اسمه لفظ الإله «يهوه» فأصبح «يهوياقيم». وهو الابن الأكبر للملك يوشيا وحكم ١١ سنة (٦٠٩ - ٥٩٨ ق.م.) وكما تقول التوراة «وعمل الشر فى عينى الرب إلهه وعبد الأوثان». وراح النبى إرميا يحذِّر من أن غضب الله آت لا محالة متمثلا فى الاستعباد لملك بابل وراح يحض الدول المجاورة على الخضوع لبابل (إرميا ٢٧:١): «فى ابتداء ملك يهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا صار هذا الكلام إلى إرميا من قِبَلِ الرب قائلا: هكذا قال الرب لى: اجعل لنفسك أنيارا واجعلها على عنقك (أنيار جمع نير وهو الخشبة المعترضة فوق رقبة الثور لجرِّ المحراث) وأرسلها إلى ملك أدوم وإلى ملك مؤاب وإلى ملك بنى عمون وإلى ملك صور وإلى ملك صيدون بيد الرسل القادمين إلى أورشليم إلى ملك يهوذا وأوصهم إلى سادتهم قائلا: هكذا قال الرب إله إسرائيل: إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوتى العظيمة وبذراعى الممدودة وأعطيتها لمن حَسُنَ فى عينىَّ. والآن قد دفعت كل هذه الأراضى لنبوخذنصر ملك بابل عبدى وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليخدمه. فتخدمه كل الشعوب». وتضايق يهوياقيم من ذلك القول الذى يدعو للخضوع لبابل فى حين أنه كان يُمنِّى نفسه بالاستقلال الكامل عن بابل. وليمنع إرميا من مخاطبة الشعب بمثل هذه الأقوال فإنه حبسه فى إحدى غرف القصر.

وفى السنة الرابعة لحكم يهوياقيم أمر الله إرميا بتدوين أقواله وما يوحى إليه فى درج لحفظها (الدرج قطعة طويلة من قماش الكتان أو ورق البردى عرضها حوالى ٣٠سم وطولها يختلف حسب المطلوب كتابته عليها وعند كل طرف قضيب من الخشب يلَف الدرج عليه كما تلف الخرائط الجغرافية اليوم). فاستدعى إرميا معاونه باروخ وأملى عليه الكلام فدوَّنه على لسانه وطلب منه أن ينوب عنه فى إبلاغ محتوياته للشعب عسى أن تتوب يهوذا عن فعل الشر قبل أن ينزل بهم عذاب الرب. وذات عيد قرأ باروخ كلام الدرج على الناس. وأحدث ذلك ذعرا كبيرا لما فيه من نبوءة عن خراب أورشليم وسبى أهلها. واستُدعى باروخ للمثول أمام الرؤساء فقال إنه كتبه بأمر إرميا النبى وهو الذى كان يملى الكلام عليه. وعلم الملك يهوياقيم بالأمر وقرئت عليه بضعة أسطر من الدرج فأخذته سورة غضب ومزَّق الدرج وألقاه فى النار. ثم أمر بالقبض على باروخ وانتوى قتله هو وإرميا ولكن أمكنهما الفرار والاختباء منه. وأمر الله إرميا أن يعيد كتابة الدرج وأن يتوعد يهوياقيم بأنه سيُقتل وتكون جثته مطروحة للحر نهارا وللبرد ليلا وأن الله سيعاقبه هو وعبيده على إثمهم.

فشلت كل محاولات مصر للإبقاء على الامبراطورية الأشورية المنهارة كحاجز بين مصر

وبابل – وبذلك أصبح الصراع مباشرا بين بابل ومصر ورأى نبوخذنصر أنه لابد من القضاء على مصر، وفي عام ٦٠١ ق.م، قاد جيشه إلى مصر، ولكنه لم يستطع دخول مصر بل وتم إجلاؤه عن الجزء الجنوبي من الساحل الفلسطيني، كانت يهوذا حتى هذه اللحظة خاضعة لبابل وتدفع لها الجزية، إلا أن الحزب الموالى لمصر فاز وثار يهوياقيم على تبعيته لبابل رغم تحذيرات النبي إرميا، وتراخى نبوخذنصر بعض الوقت على اعتبار أنها مجرد ثورة محلية صغيرة ولكنه خشي من امتداد عدواها إلى الساحل الفينيقي وسوريا لذلك أسرع بقيادة جيشه لإخمادها، وبينما كان في الطريق مات يهوياقيم وخلفه ابنه يهوياكين.

١٩ – يهوياكين بن يهوياقيم

خلف يهوياكين والده على عرش يهوذا وكان عمره عند توليه الحكم ١٨ سنة ولم يملك إلا ٣ أشهر و١٠ أيام، «وعمل الشر في عيني الرب» ومن أول حكمه أظهر عداء للنبي إرميا، وكان نبوخذنصر قد واصل تقدمه لإخماد تمرد يهوذا فحاصر أورشليم، ولم يقاوم يهوياكين، ودخل نبوخذنصر المدينة واستولى على جميع ما في خزائن بيت الرب وبيت الملك من فضة وذهب وكل آنية الذهب التي كان سليمان عليه السلام قد وضعها في الهيكل، وسبى كل الرؤساء وجميع العظماء من سكان أورشليم حوالى ١٠,٠٠٠ سبي كما سبى جميع الصناع ولم يترك إلا المساكين الذين يعملون في الأرض، وسبى يهوياكين وأمه ونساءه كلهم إلى بابل، ومعظم السبي كان من أورشليم نفسها، وهذا ما يسمى بـ «**السبي الأول**»، وكان فيه تصديق لنبوءة إشعياء النبي حينما أطلع الملك حزقيا رسل بابل على جميع كنوز بيت الرب وكنوز قصره (ص ٣٣٧)، فقال له إشعياء: «اسمع قول الرب، هوذا تأتي أيام يحمل فيها كل ما في بيتك وما ذخره آباؤك إلى هذا اليوم إلى بابل، لا يترك شيء، يقول الرب ويؤخذ من بنيك الذين تلدهم فيكونون عبيدا في قصر ملك بابل».

بعد ذلك قام نبوخذنصر بتعيين «متانيا» عم يهوياكين ملكا على أورشليم ويهوذا وغيَّر اسمه إلى «صدقيا» وظل يهوياكين سجينا في بابل إلى أن توفي نبوخذنصر فمنحه خلفه بعض الحرية نظرا لسابق مركزه.

ولقد كان تسليم يهوياكين للمدينة إنقاذا لها من دمار محقق وهو أمر أشاد به المؤرخون ويمكن تشبيهه في عصرنا الحالي – في الحرب العالمية الثانية – باستسلام فرنسا وإعلان باريس مدينة مفتوحة، الأمر الذي حماها من التدمير بواسطة الجيش النازي، وكان من ثمرة استسلام يهوياكين أن بنوخذنصر عامل المدينة برفق نسبي فلم يدمِّر أيًا من مبانيها أو يحرقها، أما عن عدد السبي ففيه اختلاف فهو مرة ١٠,٠٠٠ ومرة ٨,٠٠٠ ومرة ثالثة يزيدونه إلى ٢٣,٠٠٠.

٢٠ - صدقيا . Zedekiah

هو عم الملك يهوياكين وبالتالى فهو أخو أحاز وابن الملك يوشيا . وعُين ملكا على أورشليم من قبل نبوخذنصر ملك بابل. وفى ذلك الوقت كان فى يهوذا حزبان رئيسيان: حزب يتزعمه إرميا النبى ويعلن أن نبوخذ نصر هو «خادم يهوه» و«أداة الرب» و«القبضة الحديدية التى لن تتمزق»، وأن بابل هى «سوط عذاب فى يد الرب» وأن مشيئة الرب هى عقاب يهوذا على الفساد المستشرى والظلم السائد فى أركانها . وأنه لتقليل الخسائر ما أمكن ينصح بالاستسلام لنبوخذ نصر. وحزب آخر يتزعمه «حننيا بن عزور» وهو نبى كاذب يحض على المقاومة وعدم الخضوع للغزاة البابليين وسيجىء تفصيل الصراع بين ملوك يهوذا وبين إرميا فيما بعد (ص ٣٨٣).

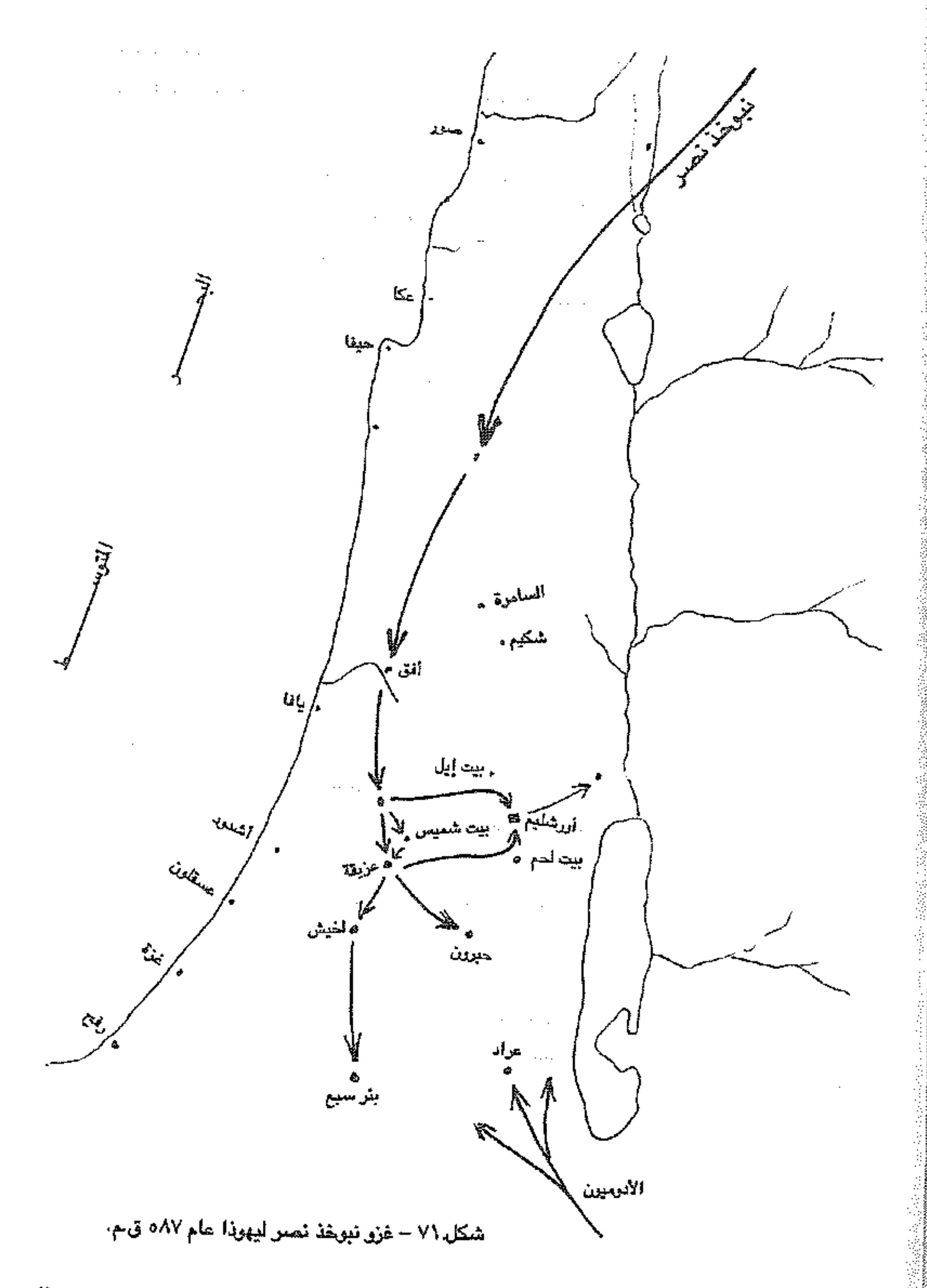
وإعلانا عن مذهبه سار إرميا وهو يحمل نيرا من خشب على كتفه مشيرا بذلك إلى أن نير بابل سيظل على كواهل الشعب بأمر يهوه الرب وأن محاولة التخلص منه عبث لا طائل وراءه. وأنذر بأن الرب يقول (إرميا ٢٧ : ٦) «دفعتُ كل هذه الأراضى ليد نبوخذ نصر ملك بابل عبدى وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليخدمه فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه. ويكون أن الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء. يقول الرب - حتى أفنيها بيده. فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميكم وعائفيكم وسَحَرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل. لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب لكى يبعدوكم من أرضكم ولأطردكم فتهلكوا . والأمة التى تُدخل عنقها تحت نير ملك بابل وتخدمه أجعلها تستقر فى أرضها . يقول الرب. وتسكن بها». ويستمر إرميا فى تحذيراته قائلا: «وكلّمت صدقيا ملك يهوذا بكل هذا الكلام قائلاً: أدخِلوا أعناقكم تحت نير ملك بابل واخدموا شعبه واحيوا . لماذا تموتون أنت وشعبك بالسيف والجوع والوباء كما تكلم الرب عن الأمة التى لا تخدم ملك بابل. فلا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم بالكذب لأنى لم أرسلهم يقول الرب. بل هم يتنبأون باسمى بالكذب لكى أطردكم فتهلكوا».

وظلت مصر متمسكة بالسلام مع بابل وإن كانت تستقبل اللاجئين بها من أهل الشام واليهود الفارين من وجه البابليين. ولكن التوسع البابلى فى الشام أثّر على تجارة مصر الخارجية وأضرّ بمصالحها . وأراد ملك مصر «واح إيب رع» والمسمّى «إبريس» استعادة بعض النفوذ فى فلسطين والشام لتأمين تجارته الخارجية فقاد حملة واستولى على صور وصيدا . وشجعت التحركات المصرية الدول الأخرى على الثورة على بابل. وراحت مصر تبذل كل جهدها لاستمالة يهوذا إلى جانبها وبثّت الموالين لها بين الشعب وقوّاده. وحذّر الأنبياء وعلى رأسهم إرميا - الشعب من الانسياق وراء ما تدعو إليه مصر. ولكن صدقيا بدأ يميل إلى الحزب المشايع لمصر وفى النهاية أعلن تمرده على بابل. إزاء ذلك وجد نبوخذ نصر نفسه مضطرا إلى القيام بحملة

ثانية إلى فلسطين ويبدأ يحتل مدن يهوذا مدينة تلو الأخرى قادما من الساحل الفينيقى (شكل ٧١). فاستولى على مدن الحدود: بيت شمس وعزيقة. ثم سار جنوبا واستولى على المدينة الحصينة لخيش. وتشير حفريات أجريت فى الفترة ١٩٦١ - ١٩٦٧ إلى تدمير كامل للمدينة يرجع تاريخه إلى عام ٥٨٨ ق .م. ويعلوها ٨ أقدام من رديم الأنقاض المحترق مما يدل على إشعال الحرائق فى كل مكان. كما دُمِّرت قلعة القصر تماما. ووجدت خارج المدينة ما يمكن اعتباره مقبرة جماعية لألف من الجثث. ثم أرسل نبوخذ نصر فرقة صغيرة استولت على بئر سبع وبذلك دان له جنوب يهوذا كله.

حصار أورشليم وسقوطها :

بعد ذلك ركز نبوخذ نصر جهوده كلها تجاه أورشليم وفرض عليها الحصار لمدة سنتين. وخرج جيش مصر بقيادة الفرعون «نخاو» بقصد مساعدة يهوذا . فلما سمع الجيش المحاصِر لأورشليم بذلك خفَّفوا قبضتهم عن أورشليم وراودت الآمال الناسَ بأن المحنة قد زالت. ولكن النبى إرميا حذَّرهم من هذا الأمل الكاذب. (إر ٣٧:٧) «وصارت كلمة الرب لإرميا: إن جيش فرعون الخارج إليكم لمساعدتكم يرجع إلى أرضه مصر ويرجع الكلدانيون (البابليون) ويحاربون هذه المدينة ويأخذونها ويحرقونها بالنار. هكذا قال الرب. لا تخدعوا أنفسكم قائلين إن الكلدانيين سيذهبون عنا». وفى الفترة التى خف فيها الحصار عن أورشليم خرج إرميا من المدينة قاصدا أرض بنيامين لينساب من هناك فى وسط الشعب ويعلن نبوءاته. وقبض ناظر الحراس على إرميا وأتى به إلى الرؤساء الذين كانوا غاضبين عليه لأنه كان يدعو إلى الاستسلام ووضعوه فى السجن وأشاروا على الملك بقتله. فأسلمه إليهم. ولعلهم تحرَّجوا من قتله بالسيف فأدلوه في بئر ليس به إلا قليل من الماء فغاص فى الوحل مؤملين أن يموت ببطء. ولكن رق له أحد العبيد وأشار على الملك بإنقاذه قبل أن يموت فأخرجوه من البئر ووضعوه فى السجن. ولما اشتد الحصار على أورشليم أرسل صدقيا الملك رسولا إلى إرميا وأخرجه من السجن وسأله أن يصدقه الخبر فيما سيحدث للمدينة وله. فطلب منه إرميا الأمان.. فقال إرميا (إر ٣٨:١٧): هكذا قال الرب إله الجنود إله إسرائيل. إن كنت تخرج خروجا إلى رؤساء ملك بابل تحيا نفسك ولا تحرق هذه المدينة بالنار بل تحيا أنت وبيتك. ولكن إن كنت لا تخرج (مستسلما) تُدفع هذه المدينة ليد الكلدانيين فيحرقونها بالنار وأنت لا تفلت من يدهم». هنا قدم له النبى الخيارين. إما الاستسلام لبابل أو مقاساة ما هو أسوأ عند سقوط المدينة وإحراقها. ويجيب صدقيا مُعبِّرا عن خوفه من الأزدراء الذى سيحلُّ عليه من بنى إسرائيل إن هو استسلم. وهكذا فإنه وضع كرامته الشخصية فوق الاستماع إلى صوت النبى الذى هو من عند الرب. وفوق إنقاذ المدينة من الدمار وللشعب من القتل بالرغم من أن إرميا قد قال له: «وهذه المدينة تحرقها أنت بالنار» أى تكون أنت بتصرُّفك - سببا فى إحراقها بالنار. ولن يفلت هو ولا أهل



شكل ٧١ – غزو نبوخذ نصر ليهوذا عام ٥٨٧ ق.م.

بيته. وطلب الملك صدقيا من إرميا أن لا يخبر أحداً بما دار بينهما. وجاء الرؤساء وسألوا إرميا عما طلب الملك منه فقال إنه هو الذى تضرع إلى الملك حتى لا يعيده إلى البئر ثانية. وبهذا حافظ إرميا على وعده للملك بأن لا يفشى حقيقة مادار بينهما. وأعيد إرميا إلى السجن ثانية.

واستمر حصار المدينة واشتد الجوع. وأخيرا قرر صدقيا الهرب ليلا حتى لا يقع فى أيدى الجنود البابليين فقام أعوانه بعمل ثغرة فى سور المدينة وهرب منها صدقيا مع حرسه وأهل بيته واتجه إلى الشرق عبر بريه يهوذا وأسِرَ وهو يعبر وادى الأردن قرب أريحا وأُخذ إلى نبوخذ نصر الذى اتخذ من «ربلة» مركز قيادة له ولجيشه. وأُتِىَ بأبناء صدقيا وذُبِحوا أمام عينيه. وبعد ذلك سُمِلت عيناه وقُيِّد بالسلاسل واقتيد إلى بابل وبقى هناك إلى أن مات. ونهب الغزاة أورشليم وأشعلوا النيران فى كل مبانيها وأحرقوا القصر الملكى وهدموا المعبد وأشعلوا النيران فيه فأتت على جميع محتوياته بما فيها تابوت الرب وما به من نسخة التوراة التى كتبها موسى بنفسه قبل وفاته. وجاء قائد شرطة بابل وأحرق كل بيوت العظماء بالنار.

السبى البابلى أو السبى الكبير :

تقول التوراة (٢ ملوك ٢٥:١١): «وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط. ولكنه أبقى من مساكين الأرض كرامين (عمال مزارع الكرم أى العنب) وفلاحين. واقتاد الكهنة وحراس بيت الرب ورجال البلاط وكاتب رئيس الجند وستين رجلا من الرؤساء الموجودين بالمدينة وسار بهم إلى ملك بابل فى ربلة. فضربهم ملك بابل وقتلهم». أما عن التدمير الذى حدث فى أورشليم فتقول التوراة: «وأعمدة النحاس التى فى بيت الرب والقواعد فقد كسرها الكلدانيون وحملوا نحاسها إلى بابل والقدور والرقوش والمقاص والصحون وجميع آنية النحاس التى كانوا يخدمون بها أخذوها. والمجامر والمناضح ماكان من ذهب وما كان من فضة أخذوها» وكل النحاس أو الذهب الذى غُشيت به الأبواب والأعمدة وتيجان الأعمدة كلها نزعوها وأخذوها. وهكذا نهب بيت الرب ونهبت المدينة وقصورها ثم أحرق الكل بالنار فدُمِّرت تدميرا شديدا بعد أن أفرغت المدينة من سكانها بالسبى أو القتل. وكان عدد المسبيين أحياء إلى بابل حوالى ٤٠,٠٠٠ وفى تقدير آخر ٥٠,٠٠٠ وهو ما يسمى بالسبى الكبير أو الأسر البابلى الثانى وقد حدث عام ٥٨٧ ق.م. ولما دخل جنود بابل القصر وجدوا إرميا مسجونا فى إحدى غرفه فأخذوه مع الأسرى. إلا أن قائد الجيش – طبقا لتوجيهات من نبوخذ نصر نفسه – أطلق سراحه وسمح له بالعودة إلى أورشليم تقديرا له ولنبوءاته التى كانت تحث على عدم مقاومة بابل.

الباقون فى أورشليم :

لم يبق فى أورشليم بعد السبى إلا بعض المساكين من الشعب مثل الفلاحين وعمال مزارع العنب وبعض الصناع. ورأى نبوخذنصر أن يترك الإدارة المحلية لواحد من اليهود. فعين

جَدَلْيا – وهو ابن موظف كبير – حاكما على يهوذا. ولما كانت أورشليم قد أحرقت تماما. فإنه اتخذ من مدينة «المصفاة Mizpeh» – على بعد ٨كم شرقى أورشليم – عاصمة له ولم تكن قد تعرضت للتدمير مثل باقى مدن يهوذا. وكان إرميا أحد كبار مستشاريه. وتغلبت سياسة المهادنة على الجماعات التى كانت تنادى بالمقاومة وحرب العصابات. ومع ذلك فإن بعض أفراد البيت المالك داعبتهم الآمال فى التمرد على بابل فقاموا بقتل جدليا أثناء وليمة عامة ثم قتلوا بعضا من القوات البابلية نفسها التى كانت فى المصفاة. واستطاع أحد اليهود الموالين لبابل إحباط المؤامرة. وخاف الشعب من انتقام نبوخذ نصر لقتل الحاكم الذى عينه ومقتل بعض جنوده. واعتُبِرَ أهل يهوذا هذا اليوم كارثة قومية واعتُبِرَ من أيام الصيام الرئيسية. وكان فى هذا اعتذار كاف لنبوخذ نصر فلم يقم بأى إجراء انتقامى من أهل المصفاة. إلا أن المتآمرين خافوا وكان الهروب إلى مصر هو سبيل النجاة الوحيد أمامهم وهرب معهم من كان رافضا للحكم البابلى.

الفارون إلى مصر :

ولكن كثيرا من أفراد الشعب فى يهوذا ظل متخوِّفا من انتقام نبوخذ نصر فى وقت لاحق أو عند وقوع أى حادث ولو بسيط لأى فرد من قواته – لذلك لجأوا إلى إرميا النبى يسألونه العون من الرب ويشير عليهم بما يفعلون (إذ ٤٢ : ٣) فقال لهم: «هكذا قال الرب إله إسرائيل: إن كنتم تسكنون فى هذه الأرض فإنى أبنيكم ولا أنقضكم وأغرسكم ولا أقتلعكم. لا تخافوا ملك بابل لأنى أنا معكم لأخلّصكم وأنقذكم من يده. وأعطيكم نعمة فيرحمكم ويردكم إلى أرضكم. وإن قلتم لا نسكن فى هذه الأرض. بل إلى أرض مصر نذهب حيث لا نرى حربا ولا نجوع للخبز وهناك نسكن فإن كلمة الرب يا بقية يهوذا: إن كنتم تجعلون وجوهكم للدخول إلى مصر وتذهبون لتتغرّبوا هناك يحدث أن السيف الذى أنتم خائفون منه يدركك هناك فى أرض مصر والجوع الذى أنتم فيه خائفون يلحقكم هناك فى مصر فتموتون هناك بالجوع والوباء لأنه هكذا قال الرب. كما انسكب غضبى على سكان أورشليم هكذا ينسكب غضبى عليكم عند دخولكم إلى مصر. قد تكلم الرب عليكم يابقية يهوذا. لا تدخلوا مصر».

ولكن بعض الرؤساء وكبار القوم اتهموا إرميا بالكذب قائلين (إر ٤٣:٢): «أنت متكلم بالكذب. لم يرسلك الرب إلهنا لتقول لا تذهبوا إلى مصر لتتغرّبوا هناك» واتهموه بأنه يريد أن يدفعهم إلى أيدى البابليين ليقتلوهم أو يسبوهم إلى بابل. وكان جزء كبير من الشعب قد فر من نبوخذ نصر إلى الدول المجاورة ليهوذا. ولمّا استقرت الأوضاع بدأوا فى العودة إلى يهوذا ولكنهم خافوا من ملاحقة جنود بابل لهم فقرروا الهجرة إلى مصر مع أهل يهوذا الرافضين للحكم البابلى وحمل الجميع معهم إرميا قسراً وأتوا إلى «تحفيس» وهى مدينة فى شرق الدلتا على الفرع البيلوزى وتقع ١٥ كم غرب القنطرة.

إرميا يتنبأ بغزو بابل لمصر (إر ٤٣ : ٨) :

ثم صارت كلمة الرب إلى إرميا في تحفنيس مبينا له أن نبوخذنصر سيأتي «ويضرب أرض مصر، الذي للموت فللموت، والذي للسبي فللسبي، والذي للسيف فللسيف، ويوقد نارا في بيوت آلهة مصر فيحرقها ويكسر أيضا بيت شمس التي في أرض مصر (مدينة أون، عين شمس الحالية) ويحرق بيوت آلهة مصر بالنار» ونعى على الفارين إلى مصر أنهم سيضطرون إلى تقديم البخور لآلهة مصر.

وكرر إرميا التحذير من أن مصر نفسها ستخضع لبابل فقال (إر ٤٦:١٢): «الكلمة التي تكلم بها الرب إلى إرميا النبي في مجيء نبوخذ نصر ملك بابل ليضرب أرض مصر: أخبروا في مصر واسمعوا في مجدل (جنوبي الفرما أو شرق الاسماعيلية) واسمعوا في نوف (منف أي ممفيس) وفي تحفنيس، قولوا انتصب وتهيأ لأن السيف يأكل حواليك. لماذا انطرح مقتدروك. لا يقفون لأن الرب قد طرحهم. كثَّر العاثرين حتى يسقط الواحد على صاحبه ويقولوا قوموا فنرجع إلى شعبنا وإلى أرض ميلادنا من وجه السيف الصارم. قد نادوا هناك. فرعون مصر هالك. قد فات الميعاد. حي أنا يقول الرب. اصنعي لنفسك أُهبة جلاء أيتها الساكنة مصر لأن نوف تصير خربة وتحرق أيضا. يرتدون، يهربون. لم يقفوا لأن يوم هلاكهم أتى عليهم وقت عقابهم. قد أُخْزيت مصر ودُفعت ليد شعب الشمال (بابل) قال الرب هأنذا أعاقب آمون نو مصر (طيبة) وآلهتها والمتوكلين عليه. وأدفعهم ليد نبوخذنصر ملك بابل وليد عبيده».

وقد تحققت نبوءة إرميا وخدمت الظروف بابل في احتلالها لمصر. ذلك أن مصر كانت تجابه بعض المشاكل على حدودها الغربية مع الليبيين. ودفع «واح إيب رع» أي «أبريس» بجيش لقتالهم ولكن الجيش هُزم وقتل أغلب أفراده. فعاد الباقون ثائرين على أبريس. فندب قائد جيشه «أمازيس» للتفاوض معهم. فاستمالوه إلى جانبهم ونصَّبوه زعيما لهم فعاد وهاجم الفرعون واستولى على الحكم. ويرى بعض علماء التاريخ (أميلي كورت، الشرق الأدنى القديم، جـ ٢ ص ٦٤٤) أن أبريس بعد طرده من الحكم لجأ إلى البلاط البابلي وحرَّض نبوخذ نصر أن ينتهز فرصة النزاعات الداخلية في مصر لشن حملة على مصر ليضمها إلى أملاكه ويعيد أبريس ملكا. وتقدم نبوخذ نصر نحو مصر التي كانت قد تلقت عونا من أمير «سيرين» وهي مقاطعة برقة الليبية. ودارت معركة شرسة على الحدود الشرقية قتل فيها أبريس. واختلف المؤرخون حول نتيجة المعركة إذ يقول يوسيفوس إن نبوخذ نصر انتصر ودخل بيت شمس (هليوبوليس) ودمرها. بينما يرى آخرون أن أمازيس صالح نبوخذ نصر ورضي بالتبعية لبابل ودفع الجزية لها ومنذ عام ٥٧٠ ق.م. أصبحت مصر تدين بالولاء لبابل. وفريق ثالث يرى أن قوة الفرس المتنامية اضطرت الجانبين إلى «التحالف» لمجابهة هذا الخطر الجديد ولذلك فإن العلاقة بين بابل ومصر لم تكن علاقة تابع بمتبوع بل حلفاء على قدم المساواة وبقي أمازيس حاكما على مصر وإن كان

قد سمح لبابل بأسر اليهود المقيمين فى شرق الدلتا وهليوبوليس وسبيهم إلى بابل وهو ما يعرف بالسبى الثالث. إلا أن أعدادا كبيرة من اليهود الفارين إلى مصر كانوا قد هربوا إلى مصر العليا وأسوان فأصبحوا بعيدين عن يد بابل وبقوا هناك وتكاثروا وكونوا الجالية اليهودية فى جزيرة إلفانتين والتى سيجىء ذكرها بالتفصيل فيما بعد (ص ٤٣٨).

مصير سبى يهوذا :

قاد نبوزرادان – قائد شرط بابل – السبى من أورشليم ويهوذا إلى ربلة التى اتخذها نبوخذ نصر مركز قيادة له أثناء حروبه فى الشام وفلسطين. ثم بعد ذلك قادهم إلى حماة ثم حلب ثم رزف على الفرات ويحتمل أنها مدينة الرصافة الحالية ٤٠كم جنوب بلدة الرقة على الفرات الأعلى فى سوريا. ثم ساروا على الشاطىء الغربى للفرات باتجاه جنوب شرق حتى وصلوا إلى بابل (شكل ٧٢). وأُسكِن السبى فى بابل وما حولها وعلى نهر كيبار حتى مدينة نيبور قرب نهر دجلة. ولم يعامل البابليون أفراد السبى من اليهود كعبيد بل عاملوهم على أنهم شعب منفى إجباريا حتى لا يثير قلاقل فى فلسطين. وهكذا كان لليهود فى المنفى حرية نسبية لممارسة المهن التى يرغبونها وممارسة الحياة التى كانوا يحيونها فى بلادهم. وأدرك أهل السبى أن ما حل بهم كان نقمة من الإله الرب الذى لم ينل منهم التوقير اللازم. وأرسل لهم إرميا النبى – قبل أن يؤخذ إلى مصر – رسالة يحثهم فيها على الاستقرار وعدم إثارة المتاعب فى أرض بابل وأن يعيشوا فى سلام مع أهلها ويندمجوا معهم. وسيجىء ذكر ذلك فيما بعد (ص ٣٩٠). وهكذا كيَّف اليهود أنفسهم وكانت لهم الحرية فى اختيار المكان الذى يقطنونه والمهن التى يحترفونها وتكوَّن منهم مجتمع يهودى مترابط يسَّر لهم إقامة شعائرهم الدينية فحافظوا عليها. واليهود كما هو معروف عنهم ماهرون فى التجارة. فقد كانوا تجارا منذ القدم واكتسبوا مهارة أكثر فى عهد سليمان عليه السلام إذ كانت أورشليم من أنشط المراكز التجارية فى منطقة الشرق الأدنى القديم. وزادت خبرتهم فى التجارة أثناء إقامتهم فى بابل لما هو معروف عن البابليين من مهارة فى التجارة. وبدأ يهود المنفى يكدسون الثروات. وبدأوا يقرضون النقود بالربا إلى أهل البلاد وإن كان التعامل بالربا مُحرمًا فيما بين اليهود حسب الشريعة «لا تقرض أخاك بربا. ربا فضة أو ربا طعام أو أى شيىء مما يُقرض بربا. للأجنبى تقرض بربا» (تثنية ٢٣:١٩). وأظهروا تفانيا وإخلاصا فى عملهم حتى أوكل نبوخذ نصر إلى بعضهم مراكز هامة فى إدارة البلاد وعُيِّن منهم موظفون فى القصر الملكى. وعلى العموم فإن اليهود فى بابل أصبحوا فى أحسن حال وراقت لهم الحياة. وبنوا بيوتا وغرسوا حدائق. ولم يكونوا مجبرين على اتباع ديانة بابل بل تركت لهم الحرية فى عبادة الرب «يهوه» إلا أن بعضا منهم بدأوا يتعبدون للآلهة البابلية فكان لابد من أنبياء يحثونهم على التمسك بعبادة الإله الواحد. وبدأ التفكير فى إقامة معبد مؤقت فى أرض المنفى لحين الرجوع إلى أرض الوطن الذى لم ينسوه أبداً وكانوا يذكرونه فى أدبهم

شكل ٧٢ – السبي البابلي والطريق من أورشليم إلى بابل .

ويتمنون العودة إليه. تقول التوراة على لسانهم (مزمور ١٣٧): «على أنهار بابل هناك جلسنا. بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون. على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا. لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة. ومعذّبونا سألونا فرحا قائلين: رنّموا لنا من ترنيمات صهيون. كيف نُرنِّم ترنيمة الرب فى أرض غريبة. إن نسيتك يا أورشليم تُنسى يمينى. ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك. إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى». وفى فترة السبى كثر الأنبياء بينهم يحثونهم على التمسك بتعاليم الشريعة. والصبر إلى أن يأتى خلاص الرب فيعودوا إلى أرضهم. إلا أن كثيرا منهم كان من مُدَّعى النبوة وحذّر الأنبياء الحق منهم: «ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئا (أى لم يوح إليهم ولم يروا رؤيا). أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب فى الخَرِب القائلون وحى الرب والرب لم يرسلهم» (حزقيال ١٣:٣).

الباقون فى يهوذا :

لم يفعل البابليون كما فعل الأشوريون فلم يستقدموا سكانا لإسكانهم فى أرض يهوذا. ولكن قلة الكثافة السكانية فى أرض يهوذا أدت إلى نزوح بعض الأدوميين إليها وخاصة أن بلادهم كانت تتعرض لضغط عرب شمال الجزيرة العربية. كذلك حضرت جاليات من الكلدان وسكنوا مكان العائلات التى تم سبيها. وهؤلاء أحضروا معهم آلهتهم. واحتجّ إرميا النبى على عبادة ملكة السماء أى عشتار وكذلك احتجّ حزقيال على مشاركة النساء اليهوديات فى طقوس عبادة «تموز» الذى تجلس عنده النسوة ويبكين. ولما كان هناك حزب موالٍ لمصر فقد كانت عبادة الآلهة المصرية تمارس أيضا. إلا أن عددا كبيراً من الأفراد كان لايزال على الشريعة الصحيحة. بل إن المؤمنين من أهل ماكان يعرف بالمملكة الشمالية كانوا يَقدُمون من شكيم وشيلوه والسامرة كحجّاج إلى أورشليم ويقدمون القرابين والذبائح إلى بيت يهوه الذى خُرِّب (إر ٤١ : ٤).

لقد تكلمنا كثيرا عن إرميا النبى ونبوءاته، فى سياق الكلام عن ملوك يهوذا الذين حكموا فى الفترة التى سبقت السبى البابلى. ويقى أن نتكلم عن هذا النبى بشيىء من التفصيل وخاصة أنه – حسب تصنيف أهل الكتاب – من «الأنبياء الكبار».

النبى إرميا Jeremiah

هو إرميا بن حلقيا الكاهن من بلدة عناثوث فى أرض بنيامين وهى تقع ٥كم شمال شرق أورشليم (انظر شكل ١٠٥) وقد اختاره الرب للقيام بالعمل النبوى فى رؤيا رآها وهو بعدُ حدث. وشعر وقتها بأنه لايزال قليل الخبرة وغير كفؤ للقيام بهذا العمل العظيم ومخاطبة الرجال الذين يكبرونه سنا وخبرة ومركزا. ويقول إرميا عن ذلك: (إر ١:٥) «فكانت كلمة الرب إلىَّ قائلا: قبلما صوّرتك فى البطن عرفتك. وقبلما خرجت من الرحم قدّستك. جعلتك نبيا للشعوب. فقلت آه

ياسيد الرب. إني لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد. فقال الرب لى لا تقل إنى ولد لأنى إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به. لا تخف من وجوههم لأنى أنا معك لأنقذك يقول الرب. ومد الرب يده فلمس فمي وقال لى الرب: ها قد جعلت كلامي في فمك. انظر. قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتَهدم وتُهلك وتنقض وتبنى وتغرس».

وبدأت نبوّة إرميا فى السنة ١٣ من حكم يوشيا بن آمون ملك يهوذا ولما كان يوشيا قد حكم ٣١ سنة يكون إرميا قد عاصره لمدة ١٨ سنة – ثم عاصر يهوياقيم بن يوشيا طوال مدة حكمه (١١ سنة) وطوال مدة حكم صدقيا (١١ سنة) حتى سبى أورشليم وبذلك تكون جملة مدة عمله كنبى ٤٠ أو ٤١ سنة (قاموس الكتاب المقدس، ص ٥٢).

ثم أخبره الرب بمضمون رسالته وهو تحذير يهوذا وشعبها من شر قادم (إر ١:١٣) «ثم صارت كلمة الرب إلىّ ثانية فقال الرب لى: من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الأرض. لأنى هأنذا داعٍ كل عشائر ممالك الشمال فيأتون ويضعون كل واحد كرسيه فى مدخل أبواب أورشليم وعلى كل أسوارها حواليها وعلى كل مدن يهوذا. وأقيم دعواى على كل شرِّهم لأنهم تركونى وبخَّروا لآلهة أخرى وسجدوا لأعمال أيديهم. أمَّا أنت فقم كلِّمهم بكل ما آمرك به. لا ترتع من وجوههم لئلا أريعك أمامهم. هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة لملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض. فيحاربونك ولا يقدرون عليك لأنى أنا معك – يقول الرب – لأنقذك».

وقد كانت رسالة إرميا هى إخبار شعب يهوذا بما قضاه الرب عليهم جزاء للشرور التى ارتكبها آباؤهم ولا يزالون يفعلونها هم أيضا. ومن أثقل المهام أن تجابه الناس بأخطائهم. لذلك فقد جلب هذا عليه مقت مواطنيه وبغضهم. واضطره ثقل تبليغ الرسالة أن يتوجَّع بمرارة فى بعض الأوقات ولكنه بقى أمينا لرسالته وللمهمة التى ألقيت على عاتقه. واضطُهِدَ وافتُرِيَ عليه. ووضع فى السجن وقاسى عذابه وحاولوا التخلص منه ولكن الله أنقذه. ولما لم يستمع قومه له ويستجيبوا لتحذيراته وقع بهم عذاب الرب. واستولى نبوخذنصر ملك بابل على يهوذا ودمَّر أورشليم وسبى أهلها إلى بابل كما سبق أن ذكرنا.

الفترة الأولى من نبوّة إرميا :

قلنا إن إرميا بدأ نبوّته فى السنة الثالثة عشرة من حكم الملك يوشيا. وكما سبق أيضا أن ذكرنا (ص ٣٦١) أنه فى السنة الثامنة عشرة من حكم يوشيا – وفى أثناء إجراء بعض الترميمات فى الهيكل – عُثِرَ على سفر شريعة الرب الذى كتبه موسى بيده قبل وفاته. وكان لكلمات هذا السفر ولكلمات إرميا أثر قوى فى قلب الملك فقام بحرب شعواء على العبادة الوثنية. ومن كلمات إرميا توبيخه للناس على تركهم عبادة الرب. قال (إر ٢:٤): «اسمعوا كلمة الرب يابيت يعقوب وكل عشائر بيت إسرائيل هكذا قال الرب: ماذا وجد فىَّ آباؤكم من جور حتى

ابتعدوا عني وساروا وراء الباطل وصاروا باطلاً». ثم ذكَّرهم بأن الرب هو الذى أخرجهم من العبودية فى مصر وأتى بهم إلى «أرض بساتين لتأكلوا ثمرها وخيرها. فأتيتم ونجَّستم أرضى وجعلتم ميراثى رجساً. الكهنة لم يقولوا أين هو الرب، وأهل الشريعة لم يعرفونى والرعاة عصوا علىَّ، والأنبياء تنبأوا ببعل وذهبوا وراء مالا ينفع. لذلك أخاصمكم بعدُ، يقول الرب، وبنى بنيكم أخاصم».

ثم ذكرهم بما حدث للمملكة الشمالية – إسرائيل – من أنها قد عبدت البعل والأصنام وأن يهوذا هى الأخرى قد خانت العهد وضلَّت الطريق وعبدت الأصنام فحذَّرهم من نفس المصير الذى صار إليه أشقاؤهم فى الشمال (إر ٣ : ٦) فقال: «هكذا خنتمونى يابيت إسرائيل، يقول الرب، سمع صوت على الهضاب، بكاء تضرعات بنى إسرائيل لأنهم عوَّجوا طريقهم. نسوا الرب إلههم. ارجعوا أيها البنون العصاة فأشفى عصيانكم». ثم يُشهدهم على أنفسهم أن الظلم قد ملأ يهوذا هى الأخرى (إر ٥): «طوفوا فى شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتِّشوا فى ساحاتها هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها؟ كيف أصفح؟ بنوك تركونى وحلفوا بما ليست آلهة. أما أعاقب على هذا؟ يقول الرب، أوَمَا تنتقم نفسى من أمة كهذه؟» ثم يوجه خطاباً إلى بابل لتكون أداة الرب لعقاب بنى إسرائيل العصاة. «اصعدوا على أسوارها واخربوا ولكن لا تفنوها. انزعوا أفنانها لأنها ليست للرب لأنه خيانة خاننى بيت إسرائيل وبيت يهوذا، يقول الرب. جحدوا الرب وقالوا ليس هو ولا يأتى علينا شر ولا نرى سيفاً ولا جوعاً. لذلك قال الرب، من أجل أنكم تتكلَّمون بهذه الكلمة هأنذا جاعل كلامى فى فمك ناراً، وهذا الشعب حطباً فتأكلهم. هأنذا أجلب عليكم أمة من بُعد. أمة قوية. أمة لا تعرف لسانها ولا تفهم ما تتكلم به. كلهم جبابرة. فيأكلون حصادك وخبزك. يأكلون غنمك وبقرك. يُهلكون بالسيف مدنك الحصينة التى أنت متَّكل عليها ويكون حين تقولون لماذا صنع الرب إلهنا بنا كل هذه تقول لهم، كما أنكم تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم هكذا تعبدون الغرباء فى أرض ليست لكم. اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم. الذين لهم أعين ولا يبصرون. لهم آذان ولا يسمعون. أإيَّاى لا تخشون؟ يقول الرب. أوَلاَ ترتعدون من وجهى؟ وصار لهذا الشعب قلب عاصٍ ومتمردٌ. عصوا ومضوا ولم يقولوا بقلوبهم لنَخَفْ الرب إلهنا. أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً وتبخِّرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم يعرفوها ثم تأتون وتقفون أمامى فى هذا البيت الذى دُعىَ باسمى عليه؟ هل صار هذا البيت الذى دُعِىَ باسمى عليه مغارة لصوص فى أعينكم؟».

وقال الرب لى (إر ١١:٩) «توجد فتنة بين رجال يهوذا وسكان أورشليم. قد رجعوا إلى آثام آبائهم الأولين الذين أبوا أن يسمعوا كلامى، وقد ذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها. قد نقض بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدى الذى قطعته مع آبائهم. لذلك قال الرب: هأنذا جالب عليهم شراً لا

يستطيعون أن يخرجوا منه ويصرخون إلىَّ فلا أسمع لهم. فينطلق مدن يهوذا وسكان أورشليم ويصرخون إلى الآلهة التى يبخِّرون لها فلن تخلِّصهم فى وقت بليَّتهم. هكذا قال الرب. هكذا أفسد كبرياء يهوذا وكبرياء أورشليم العظيمة. هذا الشعب الشرير الذى يأبى أن يسمع كلامى. الذى يسلك فى عناد قلبه ويسير وراء آلهة أخرى ليعبدها ويسجد لها».

القحط :

ثم إن الله أصابهم ببعض السنين الجدباء حتى يتعظوا (إر ١٤): «كلمة الرب التى صارت إلى إرميا من جهة القحط. ناحت يهوذا وأبوابها. ذبلت. حزنت إلى الأرض وصعد عويل أورشليم». ثم يرسم صورة بليغة لآثار القحط فيقول: «وأشرافهم أرسلوا أصاغرهم للماء. أتوا إلى الأجباب (جمع جب وهو البئر الواسعة. وتجمع أيضا جباب وجببة. المعجم الوسيط . جـ ١ . ص ١٠٤) فلم يجدوا ماء ورجعوا بآنيتهم فارغة. خزوا وخجلوا وغطوا رؤوسهم من أن الأرض قد تشققت لأنه لم يكن مطر على الأرض. خزى الفلاحون. غطوا رؤوسهم».

بعض الخطايا :

ثم ينتقل إرميا فيوضح أن البلاء والقحط كان بسبب الآثام والخطايا التى كانوا يرتكبونها فراح يُندِّد بها ويحثهم على الاقلاع عنها وركَّز على خطيئتين:

١ – **عدم تقديس يوم السبت** (إر ١٩:١٧): هكذا قال الرب لى. اذهب وقف فى باب بنى الشعب الذى يدخل منه ملوك يهوذا ويخرجون منه وفى كل أبواب أورشليم وقل لهم: اسمعوا كلمة الرب ياملوك يهوذا وكل يهوذا وكل سكان أورشليم. تحفَّظوا بأنفسكم ولا تَحملوا حِملا يوم السبت ولا تُدخلوه فى أبواب أورشليم (إدخال أحمال البضائع من أبواب المدينة معناه ممارسة التجارة). ولا تُخرجوا حِملا من بيوتكم يوم السبت. ولا تعملوا شغلا ما. بل قدِّسوا يوم السبت كما أمرت آباءكم فلم يسمعوا أو يميلوا أذنهم. بل قسُّوا أعناقهم لئلا يسمعوا ولئلا يقبلوا تأديبا. وإن لم تسمعوا لى وتقدِّسوا يوم السبت فإنى أشعل نارا فى أبوابها فتأكل قصور أورشليم ولا تنطفىء».

٢ – **عبادة الأوثان** : كانت هذه هى الخطيئة الثانية التى نهاهم عنها. وكانوا يمارسون العادات الوثنية بتقديم الأبناء قرابين للآلهة. فراح إرميا ينتقل بين المدن المختلفة ينذر أهلها بشرٍ قادم يقع بهم إن لم يرتدُّوا عن هذه الممارسات. فذهب إلى «وادى هنوم». وهو وادى يمر جنوب غرب أورشليم. (شكل ٣٤ ص ١٢٢) وجزء من هذا الوادى يسمى «توفة» ومعناها بالأرامية مكان الحريق. وقد اعتادت الشعوب الوثنية فى تلك الأيام أن يحرقوا هناك أولادهم وبناتهم فى النار تقدمه للإله «مولوك» وكان فى «توفة» جحر عميق واسع يُجمع فيه الخشب وتشعل فيه النار ويلقى فيه الأطفال. فقال الرب لإرميا (إر ١:١٩): «اخرج إلى وادى ابن هنوم

وقل اسمعوا كلمة الرب ياملوك يهوذا وسكان أورشليم. هكذا قال الرب: هأنذا جالب على هذا الموضع شراً من أجل أنهم تركوني وبخَّروا فيه لآلهة أخرى وملأوا هذا الموضع من دم الأزكياء. وبنوا مرتفعات للبعل ليحرقوا أولادهم بالنار محرقات للبعل. لذلك ها أيام تأتي – يقول الرب – ولا يُدعى بعدُ هذا الموضع «توفة» ولا «وادي ابن هنوم» بل «وادي القتل» وأجعل يهوذا وأورشليم يسقطون بالسيف أمام أعدائهم وبيد طالبي نفوسهم. وأجعل جثثهم أكلا لطيور السماء ولوحوش الأرض». وسمع يوشيا لكلام إرميا ومنع الاقتراب من «توفة» و«وادي هنوم» لكي لا يرمي أحد ابنه أو ابنته في النار لـ «مولك». وسرت في البلاد نهضة دينية كما سبق أن ذكرنا (ص ٣٦١). إلا أن هذه النهضة ما لبثت أن خبت تحت وطأة الظروف السياسية. ذلك أن التهديد البابلي جعل يهوذا تركن إلى مصر لمساعدتها. وقَوِيَ الحزب الممالىء لمصر والمتشيع بعبادة آلهة المصريين. فعاد الفساد ثانية إلى البلاد وانتشرت عبادة الأوثان. فكان كلام الرب إلى إرميا (إر ١١:٣) «اذهب وناد بهذه الكلمات نحو الشمال. وقل ارجعي أيتها العاصية يقول الرب. لا أوقع غضبي بكم لأني رؤوف . يقول الرب. لا أحقد إلى الأبد. اعرفي فقط إثمك أنك إلى الرب إلهك أذنبت ولصوتي لم تسمعوا . يقول الرب. ارجعوا أيها البنون العصاة . يقول الرب . إن رجعت إليَّ يا إسرائيل وإن نزعتِ مكرهاتك من أمامي فلا يحدث لك اضطراب. شعبي أحمق. إياي لم يعرفوا. هم بنون جاهلون وهم غير فاهمين. هم حكماء في عمل الشر ولعمل الصالح لا يفهمون. كيف أصفح لكِ عن هذه؟ بنوك تركوني وحلفوا لما ليست آلهة. أمَا أُعاقب على هذا؟ يقول الرب. أوَ ما تنتقم نفسي من أمة كهذة؟». ثم يوضح إرميا نوع هذا العقاب وماهية ذلك الانتقام فيقول (إر ٥) «هأنذا أجلب عليكم أمة من بُعد يا بيت إسرائيل. أمة قوية. أمة لا تعرف لسانها ولا تفهم ما تتكلم به. كلهم جبابرة فيأكلون حصادك وخبزك الذي يأكله بنوك وبناتك. يأكلون غنمك وبقرك. يهلكون بالسيف مدنك الحصينة التي أنت متّكل عليها».

المؤامرة الأولى على حياة إرميا:

كانت «عناثوث» مقر إقامة إرميا. ومقر إقامة «أبياثار» الذي كان كاهنا أكبر في أورشليم وعزله سليمان عليه السلام وعين «صادوق» – الجد الأكبر لإرميا – مكانه. لذلك كان آل أبياثار يشعرون بمرارة تجاه أي شخص من بيت صادوق. ولما رأى أن إرميا يدعو إلى عدم الركون إلى المساعدة المصرية وعدم الوقوف ضد بابل وبالتالي فهي دعوة للتعاطف مع العدو وهي تعتبر جريمة «خيانة عظمى». فراح يؤجج نار الغضب في قلوب أهل عناثوث مما جعلهم يتآمرون على إرميا. هنا لجأ إرميا إلى الله يطلب عونه (إر ١٨: ١٩): «اصغ لي يارب. اذكر وقوفي أمامك لأتكلم عنهم بالخير لأرد غضبك عنهم». ثم هو بعد ذلك يستمطر عليهم غضب الرب ولعناته لما تآمروا به عليه فيقول: «لذلك سلِّم بنيهم للجوع وادفعهم ليد السيف فتصير نساؤهم ثكالى وشبانهم مضروبي السيف في الحرب لأنهم حفروا حفرة ليمسكوني وطمروا فخاخا لرجليَّ. وأنت

ياربِ عرفت كل مشورتهم عليٌ للموت، لا تصفح عن إثمهم، ولا تمحُ خطيَّتهم من أمامك. في وقت غضبك عاملهم»، ولا يفوتنا أن نقارن هذا بمسلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فمهما آذاه قومه كان يدعو لهم بالهداية قائلا: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. ولما اشتد أذاهم نزل إليه جبريل عليه السلام يخبره أن الله قد بعث له ملَك الجبال وقال له إن شئت تطبق عليهم الأخشبين (جبلي مكة) فقال صلى الله عليه وسلم: أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا.

تعذيب إرميا :

لما سمع «فشحور» الكاهن (فشحور بالعبرية تعني رئيس) – وكان رئيس كهنة الهيكل – بكلمات إرميا الداعية إلى الخضوع لبابل ، ضرب إرميا وحبسه في المقطرة وهي أداة تعذيب خشبية ذات ثقوب كانت تقيد فيها رِجلا (أو رجلا ويدا) الشخص المراد تعذيبه . إذ كان فشحور من الحزب المؤمن بأن أورشليم – بما لها من تحصينات قوية – في أمان. وحتى لو هاجمتهم بابل وحاصرت أورشليم فإن مساعدات مصر ستضطر البابليين لرفع الحصار. ولهذا كان من رأيه عدم الالتفات إلى أقوال إرميا. وفي الليل أعاد فشحور التفكير في موقفه من إرميا مما جعله يطلق سراحه أملا في أن يجعله ذلك يُغيِّر أقواله أو يلطِّف منها. ولكن إرميا ظل ثابتا على آرائه وأقواله. وليسخر من فشحور أطلق عليه اسما تهكُّميا هو «مجور مِسَّابيب» أي «هوْلاً من كل جهة» والمعنى أنه عندما يثبت النصر لبابل فإن فشحور يتحمَّل كل ما يصيب أورشليم وأهلها من أهوال (إر ٢٠: ٤) «لأنه هكذا قال الرب. هأنذا أجعلك خوفا لنفسك ولكل مجيبيك فيسقطون بسيف أعدائهم وعيناك تنظران. وأدفع كل يهوذا ليد ملك بابل فيسبيهم إلى بابل ويضربهم بالسيف. وأدفع كل ثروة هذه المدينة وكل تعبها وكل مثمَّناتها وكل خزائن ملوكها أدفعها ليد أعدائهم. وأنت يافشحور وكل سكان بيتك تذهبون في السبي وتأتي إلى بابل وهناك تموت وهناك تُدفن أنت وكل مجيبيك الذين تنبأت لهم بالكذب».

إرميا يشتكي إلى الله :

ثم يتوجه إرميا إلى الله شاكيا ما يلاقيه بسبب قيامه بأعباء النبوَّة وتبليغ كلمات الرب المعارضة للمفاهيم السياسية السائدة في يهوذا في ذلك الوقت. فيقول (إر ٢٠ : ٧) «قد أقنعتني يارب فاقتنعت. كل واحد استهزأ بي. لأني كلما تكلمتُ صرخت. لأني سمعت مذمَّة من كثيرين يقولون اشتكوا (للمسئولين والرؤساء) فنشتكي عليه وننتقم منه. ولكن الرب معي كجبار قدير. من أجل ذلك يعثر مضطهديَّ ولا يقدرون. فيارب الجنود مختبر الصدِّيق ناظر الكُلَى والقلب. دعني أرى نقمتك منهم لأني لك كشفت دعواي. رنِّموا للرب. سبِّحوا الرب لأنه قد أنقذ المسكين من يد الأشرار».

إرميا ويهوأحاز بن يوشيا :

سبق أن ذكرنا (ص ٣٦٣) أن يوشيا جرح في معركة مجدو حينما اعترض الجيش المصري بقيادة «نخاو» والذي كان ذاهبا لنجدة أشور عند هجوم نبوخذ نصر ملك بابل عليها. وحُمل يوشيا إلى أورشليم حيث مات. وكانت وفاته ضربة عظيمة لحركة الإصلاح الديني التي بدأها. وأوضح لهم إرميا أن يوشيا قد مات في أرضه وبين أهله. أما الذي يستحق البكاء عليه والندب فهو ابنه شلوم (= يهوأحاز) الذي ملك بعده. فقد تنبأ له إرميا بأنه سيسبى إلى مصر ويموت في أرض الغربة (كما سبق ذكره ص ٣٦٦): «لا تبكوا ميتا ولا تندبوه. ابكوا ابكوا من يمضي لأنه لا يرجع بعدُ فيرى أرض ميلاده لأنه هكذا قال الرب عن شلوم بن يوشيا ملك يهوذا المالك عوضا عن يوشيا أبيه. الذي خرج من هذا الموضع لا يرجع إليه بعدُ. بل في الموضع الذي سبوه إليه يموت وهذه الأرض لا يراها بعدُ».

إرميا ويهوياقيم :

استمر إرميا يذيع نبوءاته في عهد يهوياقيم بن يوشيا ويخبر عن العدو البابلي القادم من الشرق والدمار الذي سيحدثه بيهوذا وبمدينة أورشليم وخراب بيت الرب والهيكل. وعظم الأمر على الرؤساء والكهنة واجتمعوا ليتشاوروا بشأن إرميا. تقول التوراة (إر ٢٦ : ١) «فصعدوا من بيت الملك إلى بيت الرب وجلسوا في مدخل بيت الرب الجديد. فتكلم الكهنة والأنبياء مع الرؤساء وكل الشعوب قائلين: حق الموت على هذا الرجل لأنه قد تنبأ على هذه المدينة كما سمعتم بآذانكم. فكلَّم إرميا كل الرؤساء وكل الشعب قائلا: الرب أرسلني لأتنبأ على هذا البيت وعلى هذه المدينة بكل الكلام الذي سمعتموه. فالآن أصلحوا طرقكم وأعمالكم واسمعوا لصوت الرب إلهكم فيرفع الرب الشر الذي تكلم به عليكم. أمَّا أنا فهأنذا بيدكم اصنعوا بي كما هو حسن ومستقيم في أعينكم. لكن اعلموا علما أنكم إن قتلتموني تجعلون دما زكيا على أنفسكم وعلى هذه المدينة وعلى سكانها لأنه حقا قد أرسلني الرب إليكم لأتكلم في آذانكم بهذا الكلام. فقال الرؤساء وكل الشعب الكهنة والأنبياء: ليس على هذا الرجل حق الموت لأنه كلَّمنا باسم الرب إلهنا. فقام أناس من شيوخ الأرض وكلَّموا كل جماعة الشعب قائلين إن ميخا المورشتي تنبأ في أيام حزقيا ملك يهوذا وكلَّم كل شعب يهوذا قائلا: هكذا قال رب الجنود: إن صهيون تفلح كحقل وتصير أورشليم خربا وجبل البيت شوامخ وعر. هل قتلا قتله حزقيا ملك يهوذا؟ ألم يَخَفْ الرب وطلب وجه الرب فرفع الرب الشر الذي تكلم به عليهم؟ فنحن عاملون شرا عظيما ضد أنفسنا (إن قتلنا إرميا)». وهكذا نجا إرميا بفضل تدخل الشيوخ العقلاء نافذي البصيرة.

النبى أوريا بن شمعيا .

ظهر فى قرية كريات يعاريم Kiriath - Jearim وهى مدينة تابعة ليهوذا وتقع ١٥كم غرب أورشليم (شكل ١٠٥) – رجل تنبأ باسم الرب هو أوريا بن شمعيا Uriah son of Shemaiah. فتنبأ على يهوذا وأورشليم بكل الكلام الذى قاله إرميا. ولما سمع الملك يهوياقيم وكل الرؤساء قرروا قتل أوريا فهرب إلى مصر. ولكن حسن العلاقات السياسية مع مصر أتاحت ليهوياقيم أن يرسل رسلا إلى مصر فأحضروا أوريا مقبوضا عليه وقتله بالرغم من دفاع إرميا عنه. ودفنت جثته فى مقابر عامة الشعب.

حننيا بن عزور (نبى كاذب) .

فى بداية عهد الملك صدقيا جاء حننيا بن عزور Hananiah son Azur من بلدة جبعون (١٠ كم شمال غرب أورشليم) وكلَّم إرميا فى بيت الرب أمام الكهنة وكل الشعب قائلا: «هكذا تكلم رب الجنود إله إسرائيل قائلا: قد كسرت نير ملك بابل. فى سنة من الزمان أردُّ إلى هذا الموضع كل آنية بيت الرب التى أخذها نبوخذ نصر ملك بابل من هذا الموضع وذهب بها إلى بابل وأرد إلى هذا الموضع يكنيا بن يهوياقيم ملك يهوذا (وهو نفسه يهوياكين – ص ٣٦٨ – والذى تم سبيه إلى بابل). وهنا نلمس صراعا بين نبى صادق هو إرميا ونبى كاذب هو حننيا بن عزور قال إن الرب تكلم له بعكس ما يقول إرميا. ولكى يدلل على صدق روايته فإنه قام بكسر النير عن عنق إرميا. وعن هذا تقول التوراة (إر ٢٨: ١٠): «ثم أخذ حننيا النّير عن عنق إرميا النبى وكسره وتكلم حننيا أمام كل الشعب قائلا: هكذا قال الرب: هكذا أكسر نير نبوخذ نصر ملك بابل فى سنتين من الزمان عن عنق كل الشعوب». نلاحظ هنا أن حننيا تكلم الكلام الذى يحبه السياسيون وهو المقاومة وعدم الاستسلام لبابل لأن بابل ستنكسر قريبا – فى مدة عام أو عامين – وأورشليم بما لها من استحكامات وتأمين مصدر المياه – يمكنها الصمود. وغاب عنه أن المقاومة ستحفز العدو على الانتقام فيما لو استولى على المدينة – بتدميرها وسبى أهلها فى حين أن الاستسلام – كما حدث أيام يهوياكين فى السبى الأول – سيجنب المدينة الدمار ويجنب أهلها ويلات الحصار. «ثم صار كلام الرب إلى إرميا النبى بعد ما كسر حننيا النبى النير عن عنق إرميا النبى قائلا. اذهب وكلِّم حننيا قائلا: هكذا قال الرب. قد كسرت أنيار الخشب وعملتَ عوضا عنها أنيارا من حديد لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: قد جعلت نيرا من حديد على عنق كل هؤلاء الشعوب ليخدموا نبوخذنصر ملك بابل فيخدمونه. فقال إرميا. اسمع ياحننيا. إن الرب لم يرسلك وأنت قد جعلت هذا الشعب يتكل على الكذب. لذلك هكذا قال الرب: هأنذا طاردك عن وجه الأرض. هذه السنة تموت لأنك تكلمت بعصيان على الرب. فمات حننيا فى تلك السنة فى الشهر السابع» (إر ٢٨:١٢).

إرميا ويهوياكين :

قلنا سابقا (ص ٣٦٨) إن يهوياكين عمل الشر فى عينى الرب ومن أول أيام حكمه أظهر عداء للنبى إرميا. وبالرغم من أنه لم يقاوم نبوخذ نصر إلا أن ذلك لم يكن عن إيمان أو إطاعة لكلام إرميا بل كان تسليما المدينة كي ينقذ نفسه ولذلك قال إرميا عنه (إر ٢٢:٢٤): «حى أنا، يقول الرب، ولو كان يهوياكين بن يهو ياقيم ملك يهوذا خاتما على يدى اليمنى فإنى من هناك أنزعك وأسلمك ليد طالبى نفسك وليد الذين تخاف منهم وليد نبوخذ نصر ملك بابل، وأطرحك وأمك التى ولدتك إلى أرض أخرى لم تولدوا فيها وهناك تموتان». وقد حدث هذا فعلا إذ أُخِذ يهوياكين وأمه فى السبى الأول إلى بابل وماتا هناك.

إرميا وصدقيا :

لما بدأ نبوخذ نصر حصاره لأورشليم أرسل صدقيا إلى إرميا يطلب منه أن يتوسل إلى الله ليخلِّصهم ويفك حصارهم. ولكن إرميا أجابه أن الرب قد شاء أن تكون بابل أداته لينفِّذ قضاءه فى أورشليم، وأن الملك وحاشيته والشعب وجميع الذين يبقون أحياء بعد هول الحصار وما يصاحبه من مجاعة وأوبئة – هؤلاء يُدفعون ليد نبوخذ نصر ليسبيهم وسيكون الموت مصير الذين لا يستسلمون. أما أورشليم فسوف تحرق وتدمَّر عن آخرها.

والحقيقة أن إرميا كان فى موقف لا يحسد عليه فقد أطلعه الله سبحانه وتعالى على ما سيحدث فى المستقبل القريب من استيلاء نبوخذ نصر على أورشليم وتدميره لها. ولخوفه على بنى قومه ولرغبته فى تجنيبهم ويلات الحرب فإنه دعا إلى تقبل الأمر وعدم المقاومة لأن تلك هى مشيئة الرب. ولكن رجال السياسة اعتبروا ذلك انحيازا لجانب العدو وخيانة للوطن وفتًّا فى عضد المحاربين. ويثور السؤال: هل كان على إرميا أن يجارى السياسيين فيما تهواه أنفسهم فيجنِّب نفسه غضبهم أو على الأقل أكان عليه أن يصمت؟ أوَلاَ يكون ذلك إخلالا بواجب النبوة وكتمانا لما أُمِر أن يُبلِّغه؟ وقرر إرميا أن يجهر بما أوحى إليه من ربه مهما ناله من تكذيب وتعذيب. وإلى هذا يشير القرآن الكريم:

«أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقا كذبتم، وفريقا تقتلون» . (٨٧ – البقرة).

«كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم، فريقا كذَّبوا وفريقا يقتلون». (٧٠ – المائدة).

واستمر إرميا فى تبليغ رسالته (إر ٢١): «هكذا قال الرب إله إسرائيل: هأنذا أرد أدوات الحرب التى بيدكم التى أنتم محاربون بها ملك بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج السور وأجمعهم فى وسط هذه المدينة وأنا أحاربكم بيد ممدودة وبذراع شديدة وبغضب وحمو وغيظ عظيم، وأضرب سكان هذه المدينة، الناس والبهائم معا بوباء عظيم فيموتون. ثم بعد ذلك قال

الرب. أدفع صدقيا ملك يهوذا وعبيده والشعب والباقين فى هذه المدينة من الوباء والسيف والجوع ليد نبوخذ نصر ملك بابل وليد أعدائهم وليد طالبى نفوسهم فيضربهم بحد السيف لا يترأف عليهم ولا يشفق ولا يرحم. وتقول لهذا الشعب: هكذا قال الرب: هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت: الذى يقيم فى هذه المدينة يموت بالسيف والجوع والوباء والذى يخرج ويسقط (أى يستسلم) إلى الكلدانيين الذين يحاصرونكم يحيا وتصير نفسه له غنيمة لأنى قد جعلت وجهى على هذه المدينة للشر لا للخير. يقول الرب. ليد ملك بابل تُدفع فيحرقها بالنار».

هذا أبلغ تطبيق عملى لقوله تعالى : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» (٢٥١ - البقرة). فالله يدفع فساد بنى إسرائيل بتسليط البابليين عليهم لإبادة هذه الفئة الباغية الفاسدة والمفسدة من سكان يهوذا وأورشليم حتى ترتدع البقية وينصلح حالها. ولعل هذا كان من أصعب المواقف على إرميا أن يجد نفسه مضطرا لدعوة بنى قومه للاستسلام للعدو. فاتُّهم بأنه خائن للوطن وعميل للعدو البابلى ولم يكن السياسيون راضيين عن أقواله. وراح الكهنة الخاضعون لنفوذهم يعارضون دعوة إرميا. وليقنعوا الناس بأقوالهم ادّعوا كذبا أنهم أنبياء وأن ما يقولونه هو وحى من الرب. فراح إرميا يفضح حقيقة ادعاءاتهم فأُوحى إليه أن يقول (إر ٢١:٢٣): «لم أرسل الأنبياء بل هم جروا. لم أتكلَّم معهم بل هم تنبأوا. ولو وقفوا فى مجلسى لأخبروا شعبى بكلامى. قد سمعت ما قالته الأنبياء الذين تنبأوا باسمى بالكذب قائلين حلمت حلمت (أى رأوا رؤيا من الرب) حتى متى يوجد فى قلب الأنبياء المتنبئين بالكذب. بل هم أنبياء خداع قلوبهم». ويقول أيضا: «هأنذا على الأنبياء يقول الرب. الذين يأخذون لسانهم ويقولون قال (أى يدعون أن الرب قال لهم). هأنذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة . يقول الرب. الذين يقصونها ويُضلون شعبى بأكاذيبهم ومفاخراتهم وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم. إنى أرفضكم فالنبى أو الكاهن الذى يقول وحى الرب أعاقب ذلك الرجل وبيته».

لماذا كان السبى ؟

هذا هو السؤال الذى لابد أن يقفز إلى الأذهان. والجواب يتمثل فى نقطتين.

١ - أن هذا المصير كان عقابا على الشرور والمفاسد التى ارتكبها بنو إسرائيل وذلك ما نعاه عليهم عديد من أنبيائهم. ويلّغهم إرميا تحذير الرب: «شعبى أحمق. إياى لم يعرفوا. هم بنون جاهلون وهم غير فاهمين. هم حكماء فى عمل الشر ولعمل الصالح لا يفهمون. كيف أصفح لكِ عن هذه؟ بنوك تركونى وحلفوا (وعبدوا) لما ليست آلهة. أمَا أعاقب على هذا؟ يقول الرب. أوَمَا تنتقم نفسى من أمة كهذه؟». فالهدف هو إفناء الطغمة الباغية الفاسدة حتى ترتدع الفئة الباقية فتعود أكثر التصاقا بالرب وتعاليم شريعته. ويشرح إرميا ذلك بضرب مثال عملى فيقول (إر ١:٢٤): إن الله أراه سلتين موضوعتين أمام هيكل الرب. فى إحداهما تين

جيد جدا وفى السلة الأخرى تين ردىء جدا لا يؤكل من رداءته. ثم صار كلام الرب إلى إرميا قائلا: «هكذا قال الرب إله إسرائيل. كهذا التين الجيد هكذا أنظر إلى سبى يهوذا الذى أرسلته من هذا الموضع إلى أرض الكلدانيين للخير وأجعل عينىَّ عليهم للخير وأرجعهم إلى هذه الأرض وأبنيهم ولا أهدمهم. وأغرسهم ولا أقلعهم وأعطيهم قلبا ليعرفونى. أنى أنا الرب. فيكونوا لى شعبا وأنا أكون لهم إلها لأنهم يرجعون إلىَّ بكل قلبهم. وكالتين الردىء الذى لا يؤكل من رداءته. هكذا قال الرب. أجعل صدقيا ملك يهوذا ورؤساءه وبقية أورشليم الباقية فى هذه الأرض والساكنة فى أرض مصر. وأسلمهم للقلق والشر فى جميع ممالك الأرض عارا ومثُلا وهزأة ولعنة فى جميع المواضع التى أطردهم إليها فأرسل عليهم السيف والجوع والوباء حتى يفنوا عن وجه الأرض.

٢ – أما **الحكمة الثانية** الكامنة وراء القضاء السماوى على بنى إسرائيل بالسبى فتذكرها التوراة بإيجاز وإبهام فى قول إرميا (إر ٢٣: ٢٠) «لا يرتد غضب الرب حتى يجرى ويقيم مقاصده. **فى آخر الأيام تفهمون فهما**». فما هو هذا الفهم الذى لن يُفهم إلا فى آخر الأيام؟ **وما نراه فى الإجابة على هذا السؤال** هو أن بنى إسرائيل – وقد أنجاهم الله من الذل الذى كانوا يُسامونه فى مصر. وأغرق فرعون أمام أعينهم. ثم أدخلهم الأرض التى وعدها لهم ثم كان الملك العظيم لسليمان عليه السلام – لكل هذا شعر بنو إسرائيل أنهم «شعب الله المختار» وأن غيرهم من الشعوب ماخلقوا إلا ليكونوا لهم تابعا. لذلك فإنهم انغلقوا على أنفسهم وعلى حضارتهم وظنوا أن لا حضارة غيرها. وكانوا يأنفون من مخالطة الآخرين وإن اضطروا إلى ذلك فمن منطلق أنه أمر مؤقت. فكانت إرادة الله أن ينزع من نفوسهم هذه النظرة المتعالية ويجبرهم – بالسبى – على الاختلاط بغيرهم من الشعوب ليأخذوا من حضاراتهم. وليؤمنوا بأن التفاعل بين الحضارات ينتج عنه نضج وترقى. كذلك لتوسيع الدائرة التى يعملون فيها لتشمل دولا أخرى دون أن تكون هذه الدول «خاضعة» لهم ولتوسيع دائرة تعاملهم لتشمل الشعوب فى الدول المجاورة بدلاً من التقوقع فى مكان واحد هو «الأرض الموعودة» ولجعلهم يدركون أن الانتشار فى الأرض يجعلهم أقدر على التحكُّم فى شعوبها وتوجيه سياسة قادتها. تلك هى – فى نظرنا – الحكمة الثانية من السبى. وقد حدث هذا فعلا. وسنرى فيما بعد كيف كان تسلل اليهود إلى البلاط الفارسى فأصبحوا عاملا مؤثرا فى اتخاذ قرارات سياسية خطيرة أفادت اليهود فائدة كبيرة منها العودة للأرض وبناء الهيكل. ولما تزوجت «أستير» اليهودية الملك وأصبحت ملكة فارس قامت بحماية اليهود من حملة كانت تُدبَّر لإبادتهم والاستيلاء على أموالهم وممتلكاتهم.

إلا أن الأذهان فى ذلك الوقت – وقت حصار أورشليم – كانت منصرفة إلى النجاة من ويلات الحرب ولم تجعل لدى الساسة وقتا للتفكير العميق فى مقاصد الرب ولا لقبول ما قضى به عليهم

ورأوا أن إرميا بتنبؤاته هذه يفت في عضد المقاومة فقبضوا عليه – وكما سبق أن ذكرنا (ص ٣٧٠) أنزلوه في بئر مملوء بالوحل بُغية موت غير مباشر وبطيء. ثم خُفِّف عنه وسُجن في إحدى غرف القصر. ولكن السجن لم يمنعه من إبلاغ رسالته. فقد كان يكتب نبوءاته ويحملها عبيد القصر الموالين له ويذيعونها على الشعب.

نبوءات إرميا

لم يترك إرميا الناس في وحدة اليأس بل أعطى أملا وتعزية متمثلين في أن الأمة التي ستسبيهم ستكون نهايتها أيضا إلى خراب فيقول إرميا (إر ٢٥:١٢) «ويكون عند تمام السبعين سنة أني أعاقب ملك بابل وتلك الأمة . يقول الرب. على إثمهم وأرض الكلدانيين أجعلها خربا أبدية». ففي هلاك المعتدي تعزية حتى لو كان هذا الهلاك مؤجلاً لما بعد سبعين سنة.

كذلك مما يعزي النفس أن يشعر المصاب أن المصيبة ليست خاصة به وحده بل شملت آخرين. من هنا كانت نبوءات إرميا بأن بابل ستُحكم قبضتها – ليس على يهوذا أو أورشليم وحدها – بل على كل دول المنطقة أيضا . وكل دولة سينالها نصيب من الخراب والدمار.

١ – نبوءة إرميا على مصر (إر ٤٦) :

بدأ إرميا بمصر لأن المصريين استمالوا بني إسرائيل إلى جانبهم وشجعوهم على معاداة أشور وبابل ثم لم يستطيعوا حمايتهم من غضبة هاتين الامبراطوريتين. وكانت هزيمة المصريين في معركة كركميش (ص ٣٦٣) مؤشرا على فقدان الجيش المصري كفاءته القديمة المشهورة عنه منذ أيام تحتمس الثالث ومُنبِّها إلى أن مصر لم تعد تستطيع مساندة غيرها أو حتى الدفاع عن نفسها. وقد صدّقت الأحداث هذه النبوءة إذ استولى نبوخذ نصر على مصر كما سبق أن ذكرنا ص ٣٧٤ وكما قال إرميا (إر ٤٦:١٣): «الكلمة التي تكلم بها الرب إلى إرميا النبي في مجيء نبوخذ نصر ملك بابل ليضرب أرض مصر. أخبروا في مصر وأسمِعوا في مجدل وأسمِعوا في نوف (منف).. نادوا هناك. فرعون ملك مصر هالك... اصنعي لنفسك أهبة جلاء أيتها البنت الساكنة مصر لأن نوف تصير خربة وتحرق فلا ساكن. الهلاك من الشمال جاء».

٢ – نبوءة على الفلسطينيين (إر ٤٧) :

كان الفلسطينيون دائما أعداء إسرائيل الألداء. وقد تنبأ إرميا باكتساح بابل للساحل الفينيقي والساحل الفلسطيني فقال: «هكذا قال الرب. ها مياه تصعد من الشمال ويكون سيلا جارفا فتغشى الأرض. المدينة والساكنين فيها . فيصرخ الناس ويولول كل سكان الأرض من صوت قرع حوافر أقويائه. من صرير مركباته وصريف بكراته (بكرات عجلات المركبات

الحربية). لا تلتفت الآباء إلى البنين بسبب اليوم الآتى لهلاك كل الفلسطينيين. لينقرض من صور وصيدون كل بقية لأن الرب يهلك الفلسطينيين. أتى الصلع على غزة (يشبه غزة بامرأة قصت شعرها فصارت صلعاء). أُهلكت أشقلون».

٣ - نبوءة على مؤاب (إر ٤٨):

سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع ص ١٠٩١) أن موسى عليه السلام حارب الأموريين واستولى على المنطقة شرق البحر الميت شمال نهر عرنون والتى كانت قديما من أملاك مؤاب ولكن الأموريين استولوا عليها. وخُصِّصت هذه المنطقة لرأوبين. وكانت دائما مثار نزاع بين مؤاب وإسرائيل لرغبة مؤاب فى استردادها. وكان إله مؤاب هو «كموش». وعن مؤاب قال إرميا: «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: ويل لمؤاب لأنها خربت خزيت وأُخذت وارتعبت. ليس موجودا بعدُ فخر مؤاب. قد حُطِّمت مؤاب وأُسمع صغارها صراخا. فمن أجل اتكالك على أعمالك وعلى خزائنك ستؤخذين أنت أيضا ويخرج «كموش» إلى السبى كهنته ورؤساؤه معا. ويأتى المهلك إلى كل مدينة فلا تفلت مدينة وتصير مدنها خربة بلا ساكن فيها».

٤ - نبوءة على عمون (إر ٤٩):

كان بنو عمون دائمى الإغارة على أرض سبط «جاد» لنهبها. ويقول إرميا: «لذلك ها أيام تأتى. يقول الرب. وأُسمِعُ فى ربة عمون (العاصمة وهى عمان الحالية) جلبة حرب وتصير تلا خربا وتحرق بناتها بالنار».

٥ - نبوءة على أدوم (إر ٤٩ : ٧):

كان الأدوميون (نسل عيسو أخى يعقوب عليه السلام) العدو التقليدى لإسرائيل فقد رفضوا طلب موسى عليه السلام المرور فى أرضهم عند محاولة امتلاك الأرض كما سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع ص ١٠٨٨). وقال إرميا عن أدوم: «هكذا قال رب الجنود. ألا حكمة بعدُ فى تيمان؟ هل بادت المشورة من الفهماء؟ هل فرغت حكمتهم؟ إن بصرة (ثانى المدن الرئيسية فى أدوم) تكون دَهَشًا وعاراً وخرابا ولعنة. وكل مدنها تكون خربا أبدية».

٦ - نبوءة على دمشق (إر ٤٩: ٢٢):

وتذكر النبوءة أن دمشق وحماة وأرفاد ستكون مسرحا للحرب وطعما للنيران «لذلك تسقط شُبَّانها فى شوارعها وتهلك كل رجال الحرب فى ذلك اليوم. يقول الرب. وأشعل نارا فى سور دمشق فتأكل قصور بنهدد (ملكها)».

٧ - نبوءة على عرب البادية - قيدار (إر ٤٩ : ٢٨):

كانت قيدار قبيلة إسماعيلية تسكن شمال شبة الجزيرة العربية بين العراق فى الشرق والبحر

الميت وخليج العقبة غربا وكانت المنطقة فى ذلك الوقت غنية بالمراعى وقطعان الماشية. تقول النبوءة: «هكذا قال الرب، قوموا اصعدوا إلى قيدار. اضربوا بني المشرق. يأخذون خيامهم وغنمهم ويأخذون كل آنيتهم وجمالهم».

٨ – نبوءة على عيلام (إر ٤٩ : ٣٤) :

تقع عيلام شرق العراق. «كلمة الرب التى صارت لإرميا النبى على عيلام. هكذا قال رب الجنود. هأنذا أحطِّم قوس عيلام ولا تكون أمة وأبيد من هناك الملك والرؤساء». وكان استيلاء بابل على عيلام هو أقصى توسع لها من جهة الشرق فكانت الإمبراطورية البابلية فى أقصى توسع لها كما فى شكل ٧٣ وانتهت عيلام كدولة منذ استيلاء بابل عليها.

٩ – نبوءة بمعاقبة بابل نفسها (إر ٥١ : ٣٤) :

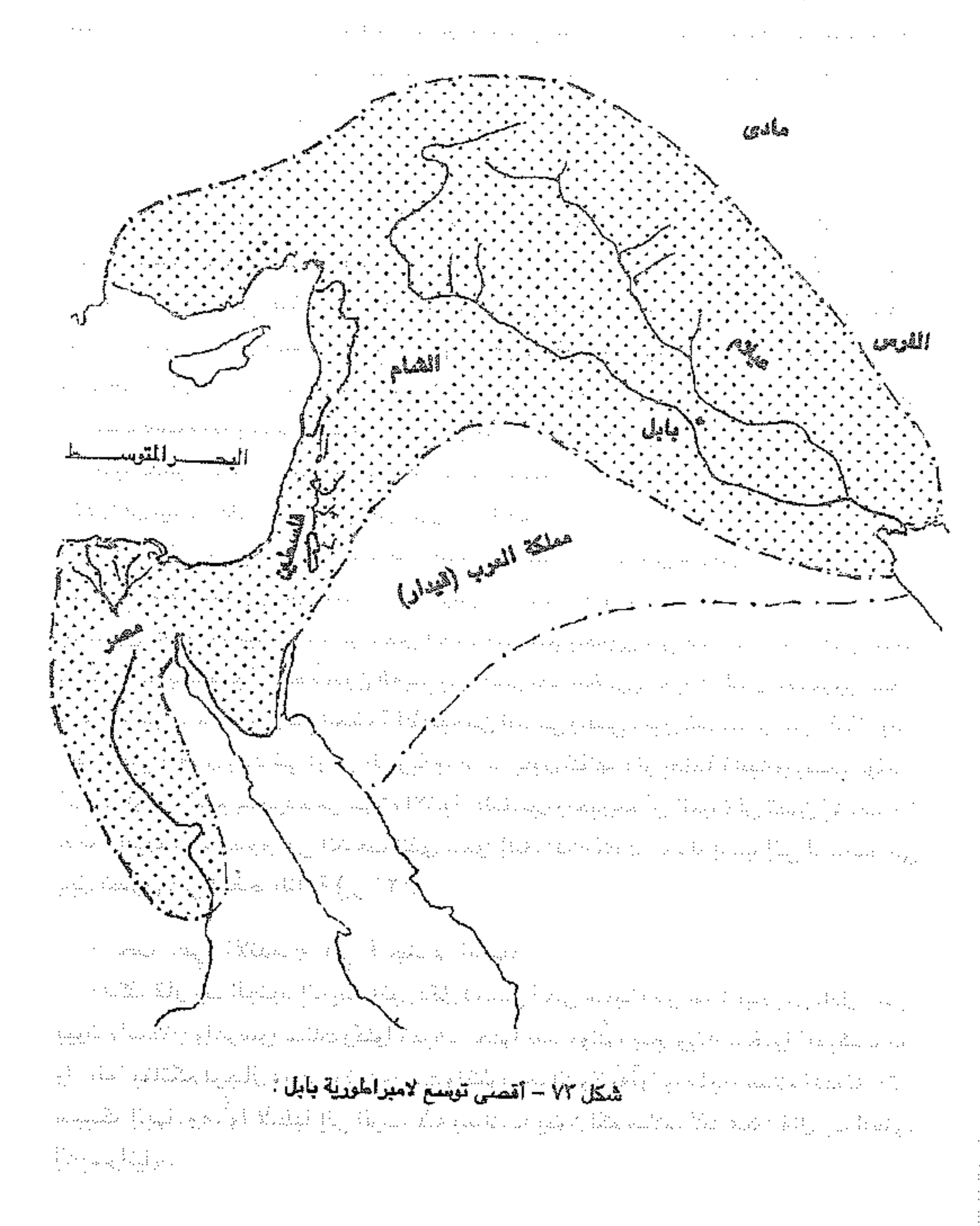
تبدأ النبوءة ببيان الظلم الشديد الذى مارسته بابل ضد بني إسرائيل فتقول: «أكل أفنانى نبوخذ نصر ملك بابل. جعلنى إناء فارغا. ابتلعنى كتنين وملأ جوفه من نعمى. طوحنى. ظُلْمى ولحمى على بابل. دمى على سكان أرض الكلدانيين تقول أورشليم». ثم تأتى النبوءة بهلاك بابل نفسها: «لذلك هكذا قال الرب. هأنذا أُخاصم خصومتك وأنتقم نقمتك. وأُنشِّف بحرها وأُجفِّف ينبوعها وتكون بابل كوما ومأوى بنات آوى». وقد تحقق هذا فعلا. فبعد أن بلغت امبراطورية بابل أقصى توسع لها بالاستيلاء على مصر عام ٥٧٠ ق.م لم تمض سوى ٣١ سنة حتى قام الفرس بتحطيم بابل عام ٥٣٩ ق.م.

١٠ – نبوءة بالعودة (إر ٥٠ : ١٧) :

ولعل هذه النبوءة قد طيبت خاطر بنى إسرائيل ورفعت روحهم المعنوية إذ يدركون أنهم فى يوم ما – قَرُب أم بَعُدَ – سيعودون إلى الأرض التى سبوا منها. تقول التوراة: «إسرائيل غنم متبددة قد طردته السباع. أولاً أكله ملك أشور ثم هذا الأخير نبوخذ نصر ملك بابل هرس عظامه. لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هأنذا أعاقب ملك بابل وأرضه كما عاقبت ملك أشور. وأرد إسرائيل إلى مسكنه فيرعى «كَرْمَلْ» و«باشان» . وفى جبل أفرايم وجلعاد حتى تشبع نفسه فى تلك الأيام وفى ذلك الزمان . يقول الرب. وخطيةُ يهوذا لا توجد لأنى أغفر لمن أُبقيه».

وقد تنبأ إشعيا أيضا بذلك (إشعياء ٤٠ : ١): «عزُّوا شعبى. يقول إلهكم طيِّبوا قلب أورشليم ونادوا بأن جهادها (أى عقابها) قد كمل. إن اثمها قد عُفى عنه. أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها» وقد سبق ذكر ذلك (ص ٣٥٧).

ثم كانت نبوءة ثانية بالعودة : «ثم صارت كلمة الرب إلى إرميا ثانية وهو محبوس بعد فى دار السجن قائلة: هكذا قال الرب: ادعنى فأجيبك وأخبرك بأمور عظيمة وعويصة لم تعرفها



شكل ٧٢ – أقصى توسع لامبراطورية بابل :

لأنه هكذا قال الرب عن بيوت هذه المدينة وعن بيوت ملوك يهوذا التي هدمت. هأنذا أضع عليها علاجا وأشفيهم وأرد سبي يهوذا وسبي إسرائيل. وأبنيهم كالأول وأطهِّرهم من كل إثمهم الذي أخطأوا به إليَّ وأغفر كل ذنوبهم التي عصوا بها عليَّ. هكذا قال الرب. سيُسمع في مدن يهوذا وشوارع أورشليم الخربة صوت الطرب وصوت الفرح. صوت القائلين احمدوا رب الجنود لأن الرب صالح. لأن إلى الأبد رحمته».

رسالة إرميا إلى المسبيين في بابل :

لما استولى نبوخذ نصر علي أورشليم كان إرميا سجينا في سجن بالقصر الملكي فأخذه رئيس الشرطة مع غيره من الأسرى إلى الرامة مركز إقامة نبوخذ نصر الذي كان قد علم بنبوءاته التي كانت في صالح بابل وعلم بما قاسى من تعذيب واضطهاد من قومه بسببها فأطلق سراحه وخيَّره في أن يذهب إلى بابل أو يبقى في وطنه. فآثر إرميا أن يبقى. فأعطاه رئيس الشرطة زادا وهدية وأطلقه فسار حتى أتى إلى جدليا الذي تولى الحكم في يهوذا واتخذ من المصفاة عاصمة له وأصبح أحد مستشاريه وأقام في وسط الشعب الباقين في الأرض. وسيقت إلى بابل جموع الشعب الذين تم سبيهم وقد بلغ عددهم ٤٠,٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠ وكان من بينهم الملك وأهل بيته ورجال البلاط وكثير من الرؤساء والكهنة.

ووصلت إلى إرميا في المصفاة أنباء تفيد أن بعض الأشخاص من بين المسبيين قد ادَّعوا النبوة وراحوا يتنبأون بعودة قريبة إلى أرض فلسطين. وإذا كان هذا الأمر يجعل المسبيين يتحملون الغربة بصبر إلا أنه في نفس الوقت يجعلهم ينظرون إلى بابل على أنها «دار إقامة مؤقته» مما يجعلهم لا يتحمَّسون للقيام بأي عمل بها فيظلون أغرابا قلقين منتظرين لحظة العودة وهو ما يتعارض مع الحكمة الثانية من السبي والتي سبق ذكرها في ص ٣٨٧. وهو الحث على العمل بجد في أرض الغربة واعتبار بابل كأنها دار إقامة ثانية وليست مؤقتة. فأرسل إرميا إليهم يحذِّرهم من هؤلاء الأنبياء الكاذبين وأخبرهم أن العودة لن تكون إلا بعد ٧٠ عاماً وعليهم أن يندمجوا في الشعب الذي سبوا إليه. لذلك كانت رسالة إرميا إلى المسبيين في بابل تحتوي على النقاط التالية (إر ٢٩):

١ - حث علي الاندماج في المجتمع الجديد :

«هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل: ابنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. خذوا نساء ولِدُوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تَقلُّوا واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها. وصلُّوا لأجلها إلى الرب. لأنه بسلامها يكون لكم سلام. لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل».

٢ - تحذير من الأنبياء الكاذبين :

«لا يغشكم أنبياؤكم الذين فى وسطكم وعرّافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التى تتحلّمونها لأنهم إنما يتنبأون لكم باسمى بالكذب، أنا لم أرسلهم. يقول الرب». وكان هناك ثلاثة أنبياء كاذبين هم: آخاب بن قولايا وصدقيا بن معيسيا وشمعيا النحلامى. فتوعّدهم إرميا بأن الله سيسلط عليهم نبوخذ نصر فيقتلهم.

٣ - وعد برد السبي :

«لأنه هكذا قال الرب، إنى عند تمام ٧٠ سنة لبابل أتعهدكم وأردكم إلى هذا الموضع (إر ٢٩ : ١٠). هكذا تكلم الرب قائلا: ها أيام تأتى وأرد سبى شعبى إسرائيل ويهوذا وأرجعهم إلى الأرض (إر ٣٠ :٢). ويكون فى ذلك اليوم أنى أكسر نيره عن عنقك وأقطع قيدك ولا يستعبدك الغرباء. أما أنت فلا تخف، يقول الرب، ولا ترتعب يا إسرائيل لأنى هأنذا أخلّصك من بعيد ونسلك من أرض سبيه فيرجع ويطمئن ويستريح ولا مُزعج. لأنى أنا معك، يقول الرب لأخلّصك. هكذا قال الرب، هأنذا أرد سبى إسرائيل وأرحم مساكنه وتُبنى المدينة على تلّها والقصر يُسكن على عادته ويخرج منه الحمد» (٣٠ : ١٨) .

الفصل السابع عشر

أنبياء السبى

ظهر فى اليهود المسبيين إلى بابل نبيان هما :

١ – النبى حزقيال . وقد أُخذ إلى بابل فى السبى الأول ١١ عاما قبل سقوط أورشليم.

٢ – النبى دانيال . وكان هو أيضا أحد أفراد السبى الأول .

١ – النبى حزقيال .

هو حزقيال بن بوزى – أحد الأنبياء الكبار . وقد أخذ أسيرا إلى بابل فى السبى الأول عند أسر يهوياكين (انظر ص ٣٦٨). وكان ضمن مجموعة الأسرى الذين أُسكنوا على ضفاف نهر «شيبر» – وهو نهر فى بابل شرقى نهر الفرات. وفى هذا المكان بدأت نبوته فى السنة الخامسة لسبى يهوياكين. أى ست سنوات قبل السبى الكبير ليهوذا . وكان دائم التجوال بين الأماكن التى وضع فيها سبى يهوذا قرب بابل. وكذلك الأماكن التى كان فيها سبى إسرائيل (المملكة الشمالية) فى الفرات الأعلى على نهر الخابور. ينطق بنبوءاته. كما كان شيوخ الشعب يلجأون إليه طالبين النصيحة.

بدء نبوّة حزقيال (حز ١ ، ٢) :

يقول حزقيال إن أول عهده بالنبوّة كان رؤيا استهلالية ظهر له فيها مجد الرب على هيئة سحابة عاصفة لما رآها خر على وجهه ساجداً ثم سمع صوت متكلم يقول: «يا ابن آدم. قم على قدميك فأتكلم معك. فدخل فىَّ روح لما تكلم معى وأقامنى على قدمىَّ وقال لى يا ابن آدم أنا مرسلك إلى بنى إسرائيل. إلى أمة متمردّة قد تمردّت علىَّ. هم وآباؤهم عصوا علىَّ إلى ذات هذا اليوم. أما أنت فلا تخف منهم ومن كلامهم ومن وجوههم لا ترتعب. وتتكلم معهم بكلامى إن سمعوا وإن امتنعوا لأنهم متمردون». ثم يذكر أن الرب أعطاه كتابا نشره أمامه وهو مكتوب على وجهى صفحاته. ثم يذكر أن الرب أمره أن «يهضم» أى يتفهّم جيدا كل ما يجده فى هذا الكتاب. ثم أمره أن يذهب إلى بيت إسرائيل المسبيين عند نهر الخابور ويبلغهم كلام الرب.

ويمكن تلخيص رسالة حزقيال فى النقاط التالية :

١ – إزالة المرارة من نفوس المسبيين :

لاشك أن أفراد السبى الأول من يهوذا وكذلك المسبيين من إسرائيل كانوا يشعرون بمرارة أن أُخذوا هم للسبى بينما باقى الشعب – كما اعتقدوا – آمن فى وطنه. فكان على حزقيال أن لا يوجه لهم توبيخا أو لَومًا على شعورهم هذا. وكانوا كثيرا ما يسألون عن سبب هذه التفرقة فلا يدرى بم يجيب وكانت إرادة الله أن يتريث فى الإجابة عدة أيام فأمره الله أن يلزم بيته ولا يخرج منه لأن بَكَمًا سيحل به فلا يستطيع إجابة من يسأله. وهذا يشبه ما حلَّ بزكريا عليه السلام حينما بُشِّر بيحيى «قال رب اجعل لى آية. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا» (١٠ – مريم). ولكن فترة البكم الذى حل بحزقيال كانت سبعة أيام. ويقول حزقيال (حز ١٦:٣) «وكان عند تمام السبعة أيام أن كلمة الرب صارت إلىَّ قائلة: يا ابن آدم. قد جعلتك رقيبا لبيت إسرائيل. فاسمع الكلمة من فمي وأنذرهم من قبلِى». ثم أطلعه الله على أنه فى المستقبل القريب سيتم حصار أورشليم حتى تصير مجاعة شديدة وأوبئة وعلى ذلك فلا يجب أن يسخطوا أو يقنطوا لسبيهم لأن الباقين فى الأرض سيكونون أسوأ حالا (حز ٥ : ١٢) «ثلث يموت بالوباء والجوع يفنون فى وسطك. وثلث يسقط بالسيف من حولك وثلث أذرِّيه فى كل ريح وأستل سيفا وراءهم. وإذا تم غضبى وأحللت سخطى عليهم يعلمون أنى أنا الرب تكلمت فى غيرتى إذا أتممت سخطى فيهم. وأجعلكِ (الخطاب لأورشليم) خرابا وعارا بين الأمم التى حواليك أمام عينى كل عابر. فتكونين عارا ولعنة وتأديبا ودَهَشًا للأمم التى حواليك. أنا الرب تكلمت».

وقد يتساءل البعض: لماذا يعاقب الله إسرائيل وحدها مع أن الأمم المجاورة كلها وثنية وترتكب نفس الرجاسات والشرور؟ والرد هو أن بنى إسرائيل – بما حباهم الله من امتياز بصفتهم شعب الرب وبينهم وبين الله ميثاق أن لا يعبدوا إلا إيَّاه – فإن خطيئتهم تكون أعظم وذنبهم يكون أكبر ويستوجب عقابا. وفى هذا يقول القرآن الكريم: «فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم» (١٣ – المائدة). وكما قيل: يعظم من العالم مالا يعظم من الجاهل.

«هكذا قال السيد الرب لأرض إسرائيل. قد جاءت النهاية عليك وأرسل غضبى عليك فلا تشفق عليك عينى ولا أعفو. ها هو ذا اليوم قد جاء. دارت الدائرة. فلا يفرحنَّ الشارى ولا يحزننَّ البائع لأن الغضب على كل جمهورها. السيف من خارج والوباء والجوع من داخل. الذى فى الحقل يموت بالسيف والذى فى المدينة يأكله الجوع والوباء». ويستمر حزقيال فى سرد ما سيحدث من أهوال فيقول «ستأتى مصيبة على مصيبة. ويكون خبر على خبر. والشريعة تباد عن الكاهن. والمشورة تباد عن الشيوخ. الملك ينوح. والرئيس تلبسه حيرة. وأيدى شعب الأرض ترتجف. كطريقهم أصنع بهم وكأحكامهم أحكم عليهم. فيعلمون أنى أنا الرب». ولكن الشعب لا يصدق ما يقول به حزقيال إذ كانت الأخبار ترد مُؤكَّدة أن مصر ستقف مع أورشليم ضد أى غزو من جانب بابل.

٢ - الإسراء بحزقيال إلى أورشليم (حز ١:٨) :

يروى حزقيال كيف أسرى به من بابل إلى أورشليم ليريه الله فساد الشعب هناك فيقول إنه في السنة السادسة بعد السبى الأول (٥ سنوات قبل السبى الكبير) «وأنا جالس فى بيتى ومشايخ يهوذا جالسون أمامى أن يد السيد الرب وقعت علىَّ هناك. ومد شبه يد وأخذنى بناصية رأسى ورفعنى روح بين الأرض والسماء وأتى بى فى رؤى الله إلى أورشليم» ويذكر حزقيال أنه أُخِذَ إلى الهيكل ليرى الممارسات الوثنية الجارية فيه على قدم وساق. فعند الباب المتجه إلى الشمال كان منسًى قد نصب عموداً يسمى «تمثال الغيرة». ثم أُخِذ إلى باب الدار حيث وجد أصناما على شكل حيوانات وواقف قدامها ٧٠ رجلا من شيوخ بيت إسرائيل يبخِّرون أمامها. ثم أُخذ إلى باب بيت الرب من جهة الشمال حيث وجد نسوة جالسات يبكين على «تموز». وتموز إله بابلى وكان يعتبر إله الخصب وقد جرت العادة أن تقام المناحات السنوية على موته فى زمن اشتداد الحر. وأن يُحتفل بعيد انبعاثه فى الربيع. ثم أُخِذ إلى باب الهيكل فوجد بين الرواق والمذبح نحو ٢٥ رجلا ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس. ثم أمر الله ملائكة بأن تمر فى وسط أورشليم وتضع علامة على جبهة كل الرجال الذين يعارضون هذه الممارسات الوثنية. وأمر ملائكة آخرين بأن يهلكوا كل من لا يحمل هذه العلامة سواء كان شيخا أو شابا أو طفلا أو امرأة أو عذراء. وراح حزقيال يتضرع إلى الرب حتى لا يهلك كل الشعب. ثم ينتهى الإسراء ويقول حزقيال: «وحملنى روحٌ وجاء بى فى الرؤيا بروح الله إلى أرض الكلدانيين إلى المسبيين فصَعِدَت عنى الرؤيا التى رأيتها. فكلمت المسبيين بكل كلام الرب الذى أرانى إياه». ولاشك أن هذه الصورة التى نقلها لهم حزقيال جعلت المسبيين يؤمنون بعدل الله وأن عقابه لن يكون من فراغ.

٣ - نبوءات حزقيال على الأمم المجاورة (حز ٢٥) :

أعلن حزقيال نبوءاته هذه فى فترة الحصار وقبل سقوط أورشليم. ولعلها كانت تهدف إلى منع هذه الدول من الشماتة بيهوذا لأن مصيرا مثله أو أسوأ منه ينتظرهم.

أ - نبوءة على بنى عمون : ذلك أن العمونيين انتهزوا فرصة حصار أورشليم وقاموا بالاستيلاء على بعض مدن إسرائيل. كما أنهم هم الذين حرَّضوا على قتل «جدليا» الذى عيَّنه ملك بابل حاكما على اليهود.

ب - تنديد بمؤاب لمحاولتهم الاستيلاء على الجزء شمال نهر عرنون.

جـ - أطلع حزقيال قومه على غدر أدوم واستيلائهم على أجزاء من أرض يهوذا .

د - نبوءة بأن الرب سينتقم من الفلسطينيين لعداوتهم لبنى إسرائيل.

هـ - نبوءة ضد صور لأنها كانت تتمنى أن تنكسر إسرائيل ويهوذا حتى تكون تجارة المنطقة من نصيبها وحدها فتمتلىء خزائنها بالمال. وتنبأ حزقيال أن البابليين سيهاجمونها ويهدمون أبراجها ويخربون أسوارها.

و – نبوءة ضد صيدون : أنذرهم حزقيا بأن الرب سيرسل عليهم «وباء ودما إلى أزقتها ويسقط الجرحى فى سطها بالسيف الذى عليها من كل جانب فيعلمون أنى أنا الرب».

ز – نبوءة ضد مصر : وقد قيلت فى السنة الأولى لحصار أورشليم. وكان أهل أورشليم متأكدين أن مصر ستخف إلى نجدتهم وفك الحصار عنهم فكانت النبوءة أن مصر ستنهزم وينزل الخراب بمدنها وسينزل بها قحط وتجف الآبار (حز ٢٩:١) «كان كلام الرب إلى حزقيال قائلا: يا ابن آدم اجعل وجهك نحو فرعون ملك مصر وتنبأ عليه وعلى مصر كلها. تكلّم وقل هكذا قال السيد الرب. هأنذا عليك يا فرعون ملك مصر التمساح الكبير الرابض فى وسط أنهاره الذى قال نهرى لى وأنا عملته بنفسى.. لذلك هكذا قال السيد الرب: هأنذا أجلب عليك سيفا واستأصل منك الإنسان والحيوان. وتكون أرض مصر مقفرة وخربة فيعلمون أنى أنا الرب لأنه قال النهر لى وأنا عملته. لذلك هأنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل أرض مصر خربة مقفرة من مجدل (القنطرة) إلى تخم كوش (أى حدود النوبة)».

٤ – النبوءة بسقوط أورشليم :

كان أفظع من سقوط المدينة ذاتها هو حالة الجوع الذى عمَّ أهلها من جراء الحصار الذى استمر ٣ سنوات وصاحبه انتشار الأوبئة فمات عدد كبير من السكان. ثم أمكن للبابليين فى النهاية اقتحام أسوار المدينة ودخولها وقاموا بقتل عدد كبير من المدافعين عنها ومن الأهالى العزل شيوخا ونساء وأطفالا. ولاشك أن الإفاضة فى وصف الويلات التى يقاسيها أهل أورشليم جعلت أهل السبى الأول يدركون أن الله كان أرحم بهم من إخوتهم. كذلك كانت هذه النبوءة تهيئة لهم لاستقبال الفوج الثانى من السبى وهو «السبى الكبير» الذى وصل عدد أفراده إلى ٤٠,٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠. واستمر حزقيال فى ذكر ما أطلعه الله عليه مما هو وشيك الحدوث فى أورشليم (حز ١٢:١٢): «قل لهم. هكذا قال السيد الرب. قل هذا هو الرئيس فى أورشليم وكل بيت إسرائيل والذين هم فى وسطهم. قل أنا آية لكم. هكذا يُصنع بهم. إلى الجلاء إلى السبى يذهبون. والرئيس الذى فى وسطهم يُحمل على الكتف فى العتمة ويخرج. ينقبون فى الحائط ليخرجوا منه (وقد سبق أن ذكرنا ص ٢٧٢ أن صدقيا قام بعمل ثغرة فى سور المدينة وهرب منها ولكنه أُسر) يُغطّى وجهه لئلا ينظر إلى الأرض بعينيه. وأبسط شبكتى عليه فيؤخذ فى شَرَكى وآتى به إلى بابل إلى أرض الكدانيين ولكن لا يراها (لأن الكلدانيين سيسملون عينيه) وهناك يموت!!.

كل هذا أخبرهم به حزقيال. وبالطبع لم يصدقوه لأن استحكامات المدينة كانت قوية وأسوارها محصنّة بالأبراج ومصدر المياه مؤمن. وتقول التوراة: «وكان فى السنة الثانية عشرة من سبينا (السبى الأول أى فى السنة الأولى بعد السبى الكبير) أنه جاء إلى بابل هارب من أورشليم فقال خربت المدينة...». ووصف الأحداث التى وقعت عند دخول الجنود البابليين المدينة

و – نبوءة ضد صيدون : أنذرهم حزقيا بأن الرب سيرسل عليهم «وباء ودما إلى أزقتها ويسقط الجرحى فى سطها بالسيف الذى عليها من كل جانب فيعلمون أنى أنا الرب».

ز – نبوءة ضد مصر : وقد قيلت فى السنة الأولى لحصار أورشليم. وكان أهل أورشليم متأكدين أن مصر ستخف إلى نجدتهم وفك الحصار عنهم فكانت النبوءة أن مصر ستنهزم وينزل الخراب بمدنها وسينزل بها قحط وتجف الآبار (حز ١:٢٩) «كان كلام الرب إلى حزقيال قائلا: يا ابن آدم اجعل وجهك نحو فرعون ملك مصر وتنبأ عليه وعلى مصر كلها. تكلَّم وقل هكذا قال السيد الرب. هأنذا عليك يا فرعون ملك مصر التمساح الكبير الرابض فى وسط أنهاره الذى قال نهرى لى وأنا عملته بنفسى.. لذلك هكذا قال السيد الرب: هأنذا أجلب عليك سيفا واستأصل منك الإنسان والحيوان. وتكون أرض مصر مقفرة وخربة فيعلمون أنى أنا الرب لأنه قال النهر لى وأنا عملته. لذلك هأنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل أرض مصر خربة مقفرة من مجدل (القنطرة) إلى تخم كوش (أى حدود النوبة)».

٤ – النبوءة بسقوط أورشليم :

كان أفظع من سقوط المدينة ذاتها هو حالة الجوع الذى عمَّ أهلها من جراء الحصار الذى استمر ٣ سنوات وصاحبه انتشار الأوبئة فمات عدد كبير من السكان. ثم أمكن للبابليين فى النهاية اقتحام أسوار المدينة ودخولها وقاموا بقتل عدد كبير من المدافعين عنها ومن الأهالى العزل شيوخا ونساء وأطفالا. ولاشك أن الإفاضة فى وصف الويلات التى يقاسيها أهل أورشليم جعلت أهل السبى الأول يدركون أن الله كان أرحم بهم من إخوتهم. كذلك كانت هذه النبوءة تهيئة لهم لاستقبال الفوج الثانى من السبى وهو «السبى الكبير» الذى وصل عدد أفراده إلى ٤٠,٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠. واستمر حزقيال فى ذكر ما أطلعه الله عليه مما هو وشيك الحدوث فى أورشليم (حز ١٢:١٢): «قل لهم. هكذا قال السيد الرب. قل هذا هو الرئيس فى أورشليم وكل بيت إسرائيل والذين هم فى وسطهم. قل أنا آية لكم. هكذا يُصنع بهم. إلى الجلاء إلى السبى يذهبون. والرئيس الذى فى وسطهم يُحمل على الكتف فى العتمة ويخرج. ينقبون فى الحائط ليخرجوا منه (وقد سبق أن ذكرنا ص ٣٧٢ أن صدقيا قام بعمل ثغرة فى سور المدينة وهرب منها ولكنه أُسر) يُغطِّى وجهه لئلا ينظر إلى الأرض بعينيه. وأبسط شبكتى عليه فيؤخذ فى شَرَكى وآتى به إلى بابل إلى أرض الكدانيين ولكن لا يراها (لأن الكلدانيين سيسملون عينيه) وهناك يموت!!.

كل هذا أخبرهم به حزقيال. وبالطبع لم يصدقوه لأن استحكامات المدينة كانت قوية وأسوارها محصَّنة بالأبراج ومصدر المياه مؤمن. وتقول التوراة: «وكان فى السنة الثانية عشرة من سبينا (السبى الأول أى فى السنة الأولى بعد السبى الكبير) أنه جاء إلى بابل هارب من أورشليم فقال خربت المدينة...». ووصف الأحداث التى وقعت عند دخول الجنود البابليين المدينة

والفظائع التي ارتكبوها والمجازر التي قاموا بها. تماما كما أخبر حزقيال قبل وقوعها بسنة كاملة: ثلث السكان ماتوا بالوباء والجوع، وثلث قتلوا بسيوف جنود بابل وعدد كبير سيق خارج البلدة إلى الرامة حيث يقيم نبوخذ نصر وقتلوا هناك، وثلث تم تجميعهم في معسكرات تمهيدا لترحيلهم سبيا إلى بابل. وكان أن آمن أهل السبي الأول الموجودين في بابل والذين لم يُصدِّقوا حزقيال، أن آمنوا بصدق نبوَّته وحزن أهل السبي على ما صار إليه حال إخوانهم في يهوذا واقترح بعض الشيوخ إعلان «الحداد العام» ولكن كان الوحي لحزقيال بالأمر التالي:

٥ – النهي عن إعلان الحداد :

أخبر حزقيال أن زوجته ستموت: «هـأنذا آخذ عنك شهوة عينيك بضربة فلا تَنُحْ ولا تبكِ ولا تنزل دموعك. تنهَّد ساكتا. لا تعمل مناحة على أموات. لف عصابتك عليك واجعل نعليك في رجليك ولا تغطِّ شاربك». وماتت زوجة حزقيال. ولم يبك عليها كما أمر الرب ولا عمل مناحة. وفي اليوم التالي لموت زوجته زاول أعماله المعتادة. وكان هذا التصرف غير عادي. فسألوه عن ذلك فقال إن أورشليم وهيكلها عزيزان عندهم شأن الزوجة عند زوجها وأنهم يجب عليهم عند سماعهم بخرابها وفقدان أقاربهم أن لا ينوحوا أو يبكوا. بل يجب عليهم أن يتقبلوا قضاء الله العادل بصمت وصبر وقبول تام لحُكمِه وحكمته.

٦ – تنديد بالأنبياء الزائفين والنبيات الزائفات (حز ١٣) :

يقول حزقيال. وكان إليَّ كلام الرب قائلا: «يا ابن آدم، ويل للذين يتنبأون. وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اسمعوا كلمة الرب. ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئا. رأوا باطلا وعرافة كاذبة. القائلون وحي الرب والرب لم يرسلهم وأنا لم أتكلم. لذلك هكذا قال السيد الرب: لأنكم تكلمتم بالباطل ورأيتم كذبا لذلك تكون يدي عليهم. وأنت يا ابن آدم، فاجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتي يتنبأن من تلقاء ذواتهن». وكانت النبيات الكاذبات يُخطن عصائب أحجبة توضع على معاصم الأيدي. وهو نوع من السحر المنهي عنه وكن يفعلن ذلك «لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز». ثم توعَّد الأنبياء الزائفين والنبيات الزائفات بعقاب من الرب.

٧ – نبوءة بانتهاء السبي والعودة للوطن (حز ٣٧) :

توحي الصيغة التي كتبت بها هذه النبوءة أنها كانت عن طريق إسراء إلى أرض في مكان ما إذ تقول: «كانت عليَّ يد الرب فأخرجني بروح الرب وأنزلني في وسط بقعة وهي ملآنة عظاما وجعلني أمرُّ من حولها وعليها. وإذا العظام كثيرة جدا على وجه البقعة وإذا هي يابسة جدا. فقال لي: يا ابن آدم أتحيا هذه العظام؟ فقلت يا سيد الرب أنت تعلم. فقال لي: تكلم إلى هذه العظام وقل لها. أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. هأنذا أُدخِل فيكم روحا فتحيون وأضع عليكم عصبا وأكسيكم لحما وأبسط عليكم جلدا وأجعل

فيكم روحا فتحيون وتعلمون أنى أنا الرب. فتكلمت . وبينما أنا أتكلم كان صوت، فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمة. ونظرتُ وإذا بالعصب واللحم كساها وبُسِط الجلد عليها من فوق ثم دخل فيها الروح فحيُوا وقاموا على أقدامهم. ثم قال لى يا ابن آدم. هذه العظام هى كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا. قل لهم هكذا قال السيد الرب. هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبور ياشعبى وآتى بكم إلى أرض إسرائيل فتعلمون أنى أنا الرب تكلمتُ وأفعلُ، يقول الرب. هأنذا آخذ بنى إسرائيل مـن بين الأمم التى ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتى بهم إلى أرضهم وأصيرهُم أمة واحد فـى الأرض على جبال إسرائيل . وملك واحد يكون ملكا عليهم كلهم ولا يكونون بعدُ أمتين ولا ينقسمون بعدُ إلى مملكتين. وأخلِّصهم من كل مساكنهم التى فيها أخطأوا وأُطهِّرهم فيكونون لى شعبا وأنا أكون لهم إلها».

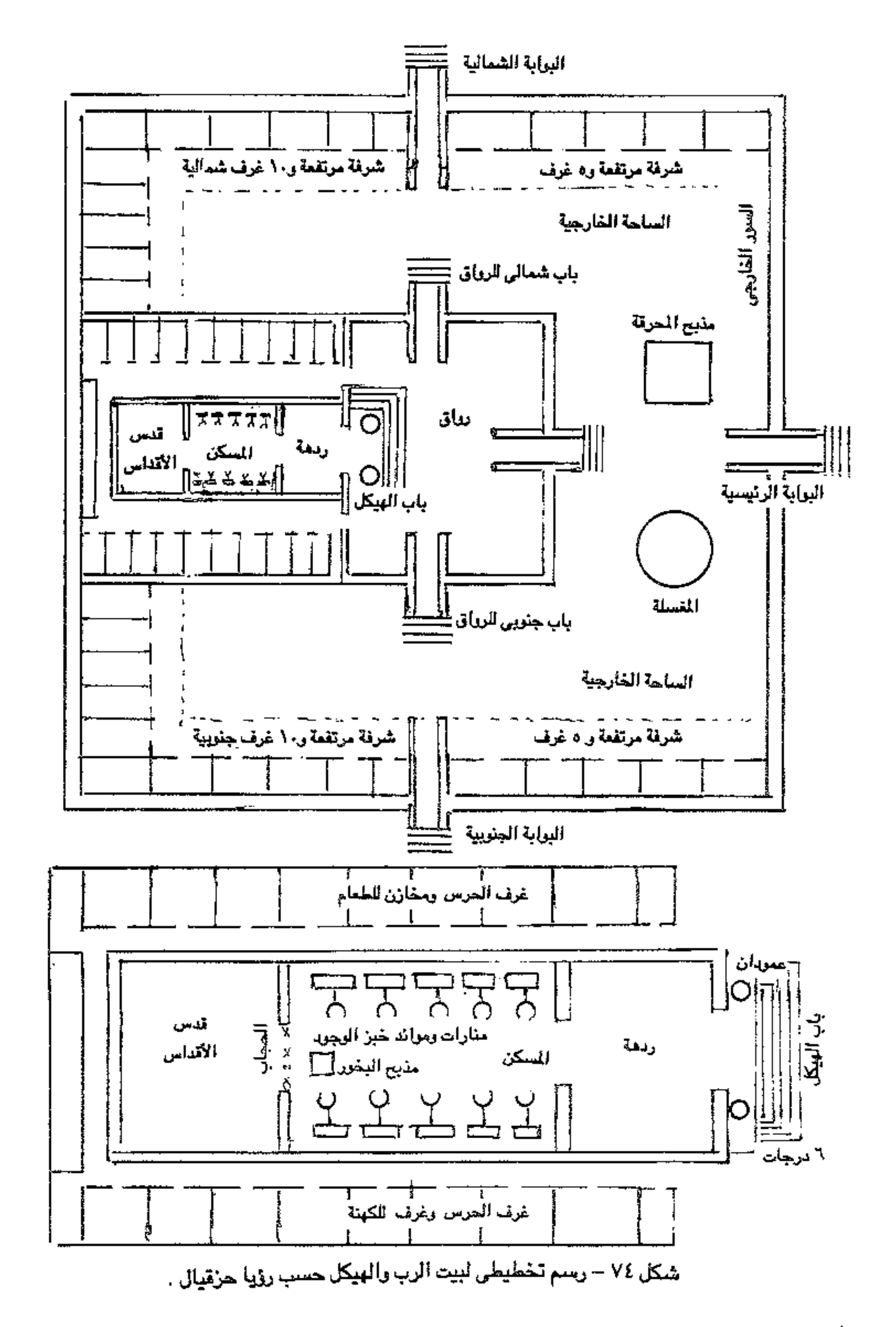
ووصف طريقة إحياء العظام التى جاءت هنا تشبه ما جاء عنها مختصرا فى القرآن الكريم.

«وانظر إلى العظام كيف نُنشزها ثم نكسوها لحما» . (من الآية ٢٥٩ - البقرة).

كان اليهود فى أقصى درجات اليأس، فقد كان الأنبياء الكاذبون يمنونهم بعودة قريبة ولكن ماهى كارثة أكبر تقع وسبى آخر أكثر عددا يقدمُ عليهم ولم تكن هناك أى بادرة أمل فى عودتهم إلى أرضهم فكانت هذه النبوءة بصيصا من نور فى وسط الظلام المحيط بهم. فكما أن الله قادر على أن يحيى العظام بعد أن تبلى وتيبس، كذلك هو قادر أن يحيى الأمة التى قتل ثلثها فى الحرب ومات ثلث بالوباء وسبى الثلث الأخير. بل وسيجعلها أمة واحدة ولا تكون مملكتين كما كانت فى الماضى، وسيسخِّر الله لهم أمما أو أمة تحقق لهم هذا الهدف.

٨ - نبوءة ببناء الهيكل من جديد (حز ٤٠) :

وتوحى الصيغة التى كتبت بها هذه النبوءة أنها أيضا كانت إسراءً ثالثا. إذ يقول: «فى السنة الخامسة والعشرين من سبينا (من السبى الأول أى السنة ١٤ بعد سقوط أورشليم) كانت علىَّ يد الرب وأتى بى إلى هناك. فى رؤى الله أتى بى إلى أرض إسرائيل. ووضعنى على جبل عالٍ جداً عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب. ولما أتى بى إلى هناك إذا برجل منظره كمنظر النحاس وبيده خيط كتان وقصبة القياس وهو واقف بالباب. فقال لى الرجل. يا ابن آدم انظر بعينيك واسمع بأذنيك واجعل قلبك إلى كل ما أُريكَه لأنه لأجل إراءتك أُتِىَ بك إلى هنا. أَخبرْ بيت إسرائيل بكل ما ترى». ثم يشرح كيف أراه ذلك الرجل كيف يكون بناء البيت وأبعاده بالتفصيل، وكذلك المقدس وقدس الأقداس. وسنكتفى بشكل ٧٤ مع شرح بسيط. فللبيت أو الهيكل سور خارجى، وفى السور بوابة ضخمة من الجهة الشرقية هى البوابة الرئيسية وبوابتان أصغر قليلا واحدة فى الجهة الشمالية والثانية فى الجهة الجنوبية، وتؤدى البوابات إلى الساحة الخارجية، وفى الجهات الشمالية والغربية والجنوبية توجد شرفة مرتفعة قليلا عن أرض الساحة. وفى كل



شكل ٧٤ – رسم تخطيطي لبيت الرب والهيكل حسب رؤيا حزقيال .

جانب ١٠ غرف أى أن الشرفة بها ٣٠ غرفة. ثم مبنى الهيكل نفسه وهو مرتفع قليلا إذ يُصعد إليه بعدة درجات. وفى منتصف المسافة إلى الهيكل يوجد مذبح المحرقة. وباب الهيكل يتجه ناحية الشرق ويفضى إلى ممر على جانبيه غرف للحرس ثم باب آخر يفضى إلى الرواق. وللرواق أيضا بابان إضافيان واحد فى الشمال والثانى فى الجنوب. بعد الرواق يجىء المقدس الذى يبدأ بردهة صغيرة يليها المسكن وبه الأدوات المعتادة وهى المنارات وموائد خبز الوجوه ثم الحجاب ثم قدس الأقداس. هذا بالإضافة إلى حجرات الخدمات وتشمل مطابخ ومخازن للطعام والنبيذ وحجرات الكهنة والحرس. وهؤلاء يجب أن يكونوا من اللاويين. وأوحى إلى حزقيال أيضا بواجباتهم وكيفية إعالتهم.

وبالطبع فإن حزقيال دوّن كل هذه التفاصيل فى درج وطلب من الكهنة حفظه حتى يحين وقت العودة وبناء الهيكل.

النبى دانيال Daniel

هو ثانى الأنبياء الكبار فى فترة السبى البابلى وهو من عائلة شريفة. ولد فى أورشليم وكان ضمن السبى الأول الذى حدث فى أيام الملك يهوياكين عام ٥٩٧ ق.م. مثله فى ذلك مثل النبى حزقيال. وكان ضمن أربعة فتيان اختارهم الملك نبوخذنصر لشرفهم فى قومهم ولحسن منظرهم ولِمَا اشتُهِر عنهم من حكمة وفهم فى العلم. فخصص لهم من يعلّمهم اللغة الكلدانية فتعلموها وأجادوها فى ٣ سنوات ثم ضمّهم إلى البلاط الملكى. وقد وصل هؤلاء الأربعة إلى مراكز عليا فى القصر وخاصة دانيال الذى أصبح فى المرتبة الثالثة فى المملكة بعد الملك وابنه. وقد أعطاه الله حكمة عالية ومقدرة على تفسير الرؤى والأحلام (مثل يوسف عليه السلام). وكان بنوخذ نصر قد أمر أن يحظى هؤلاء الأربعة برعاية خاصة وأن يقدم لهم أطايب الطعام والشراب. ولكن دانيال ورفاقه الثلاثة زهدوا عن هذا الطعام وطلبوا أن يأكلوا ما كانوا يأكلونه فى أورشليم من الحبوب والبقول مثل الفول والعدس.

دانيال يفسِّر حلم الملك :

ذات ليلة – حلم الملك حلما انزعج منه وطار عنه النوم بسببه فأمر أن يُستدعى المجوس والسحرة والعرافون الكلدانيون ليفسِّروا له الحلم. فلما حضروا أراد أن يمتحنهم أكثر فلم يخبرهم بالحلم وطلب منهم معرفة الحلم ثم تفسيره فلم يستطيعوا فأمر بقتلهم. وعلم دانيال بالأمر فصلى إلى الله ثم دخل على الملك وقال له (دا ٢ :٢٧): «السر الذى طلبه الملك لا يقدر الحكماء ولا السحرة ولا المجوس ولا المنجمون أن يُبيِّنوه للملك. ولكن يوجد إله فى السموات كاشف الأسرار وقد عرَّف الملك نبوخذ نصر ما يكون فى الأيام الأخيرة». وأخبر دانيال الملكَ أنه

رأى فى الحلم تمثالا عظيما منظره هائل رأسه من ذهب وذراعاه من فضة وبطنه وفخذاه من نحاس وساقاه من حديد وقدم من حديد وقدم من خزف. ثم جاء حجر وضرب التمثال فانسحق وصار رماداً حملته الريح. ثم فسَّر له الحلم: الرأس الذى هو من ذهب هو نبوخذ نصر نفسه وبعده تقوم مملكة أخرى أصغر منه ومملكة ثالثة يرمز لها بالنحاس الذى يلى الذهب والفضة ثم تكون مملكة رابعة من حديد. ويقول المفسرون إن المملكة الثانية هى فارس والثالثة هى دولة الإسكندر الأكبر والرابعة هى انقسام امبراطورية الإسكندر إلى الممالك الأربعة فى عهد خلفائه. بينما يرى آخرون أن الرأس يرمز إلى بابل وهى المكلة الأولى والمملكة الثانية هى فارس والثالثة اليونان والرابعة روما. المهم أن الملك سُرَّ وأثنى على دانيال وإلهه وأعطاه هدايا كثيرة وعيَّنه حاكما على ولاية بابل. ولكن دانيال طلب من الملك أن يولى زملاءه الثلاثة ولاية بابل ويظل هو مرافقا للملك فتم له ذلك.

إلقاء زملاء دانيال فى النار :

لاشك أن المراكز التى وصل إليها هؤلاء الأربعة من اليهود المسبيين أثارت غيرة رجال البلاط الملكى البابليين فرأو أن يكيدوا لهم. فأوعزوا إلى نبوخذ نصر أن يصنع تمثالا ضخما من الذهب وأن يأمر الجميع أن يسجدوا أمامه ويتعبدوا له. ولكن الفتية الثلاثة زملاء دانيال رفضوا. فأمر الملك بإلقائهم فى وسط أتون نار متَّقدة. فقالوا له (دا ٣ : ١٧) «هوذا يوجد إلهنا الذى نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار وأن ينقذنا من يدك أيها الملك. وإلا فليكن معلوما لك أيها الملك أننا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذى نصبته». فحموا النار وألقوا فيها الثلاث فتية موثقين بالحبال. ونظر الملك فرآهم يتمشون وسط النار ويرافقهم رابع (ولعله جبريل عليه السلام أو أحد الملائكة). وخرجوا من النار لم تحترق شعرة من رأسهم ولا احترقت ملابسهم. واعترف الملك بقوة إلههم وترك لهم الحرية الدينية وأمر كل الشعب باحترام إله اليهود وأصدر نشرة يقول فيها (دا ٤ : ١): «من نبوخذ نصر الملك إلى كل الشعوب والأمم والألسنة الساكنين فى الأرض كلها. ليكثر سلامكم. الآيات والعجائب التى صنعها معى الله حسنٌ عندى أن أخبر بها. آياته ما أعظمها وعجائبه ما أقواها. ملكوته ملكوت أبدى وسلطانه دائم على مدار الأيام». وهى كلمات تدل على أنه آمن بالإله الرب وإن لم يعبر عن ذلك بصراحة. وسنرى أن ابنه أيضا قد تبعه فى هذا الإيمان.

حلم ثانٍ للملك (دا ٤ : ١) :

حلم نبوخذ نصر أن شجرة كبيرة جدا ارتفعت كثيرا فى السماء وأكل من ثمرها الجميع. وإذا بصوت آت من السماء يأمر بقطع الشجرة ويتركوا ساقها. وفشل الحكماء والمجوس والعرافون فى معرفة تفسير الحلم. وجاء دانيال وأخبر الملك «أن الشجرة العظيمة إنما هى أنت أيها الملك الذى كبُرت وعظمتك قد زادت وبلغت إلى السماء وسلطانك إلى أقصى الأرض». وأن

قضاء الله سيأتى عليه فيُطرد من الملك. ولم يصدِّق الملك هذا التفسير. ولكن بعد سنة وفيما هو يتمشى فى قصره أصابه الغرور وقال: أليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها بقوة اقتدارى ولجلال مجدى! وإذا بصوت من السماء يخبره أن الملك سيزول عنه ويخرج من بابل وتكون سكناه مع حيوان البر وتمضى عليه سبعة أزمنة حتى يعلم أن الله العلى بيده مقاليد الأمور يعطى مُلكه من يشاء وينزع الملك عمَّن يشاء. ولما تكتمل الأيام المحدَّدة لعقابه يعود إلى مُلكه ثانية. وتقول المراجع التاريخية أن نبوخذ نصر كان قد بنى لنفسه فى تيماء فى شمال الصحراء العربية قصرا يشبه قصره فى بابل وكان يلجأ إليه بين الحين للآخر للاستجمام والصيد. وفى إحدى هذه المرات ضلَّ الطريق وهام فى البرية يسكن الكهوف مع حيوان البر ويقتات من العشب سبعة أيام حتى زال عنه كبرياؤه. ثم اهتدى إلى الطريق فعاد إلى قصره وإلى مُلكه.

حكمة دانيال وسوسنة العفيفة :

كانت سوسنة Susanna فتاة من أسرة غنية لها قصور ومزارع واسعة ولها من الخدم والعبيد الكثير وهى متمسكة بوصايا الرب تسير على طريقه وتحافظ على شرائعه. وكانت متزوجه من رجل من بنى يهوذا اسمه يواقيم. وكان هناك قاضيان يقضيان للناس فيما ينشأ بينهم من منازعات. وعلى ما يبدو كان يواقيم قد أجَّر للدولة جزءا من داره ليكون مكانا للقضاء. ولمح القاضيان سوسنة وهى تتمشى فى حديقة الدار وأعجبا بجمالها. وفى أحد الأيام هجما عليها محاولين اغتصابها فلم تمكنهما من نفسها وصرخت فاجتمع الخدم والعبيد. ولتبرئة نفسيهما ادَّعى القاضيان بأنه كان معها شاب. وفى اليوم التالى أقيمت المحاكمة واجتمع الشعب وزوج سوسنة وأولادها الأربعة ووالدها وهم يشعرون بالخزى من هذا الموقف. وقام القاضيان بوضع أيديهما على رأسها – كعادة تلك الأيام – وأقسما بصحة ما ادَّعياه عليها فحُكِمَ عليها بالموت. فرفعت سوسنة عينيها إلى السماء وهى باكية وقالت : أيها الإله الأزلى البصير بالخفايا. العالم بكل شيىء قبل أن يكون. أنت تعلم أنهما شهدا علىَّ بالزور. ها أنا أموت ولم أصنع شيئا مما افتريا علىَّ هذان. واستجاب الله دعاءها وساق دانيال النبى. فسأل كل واحد منهما على حدة عن المكان الذى رآها فيه مع الشاب فاختلفت إجابتهما . فعلم كذبهما وظهرت براءتها . فقام الشعب ورجم القاضيان حتى ماتا ونجت سوسنة بفضل دعائها إلى الله وعَظُم دانيال عند الشعب.

نهاية بابل

يتعين علينا أولا أن نذكر نبذة قصيرة عن خلفاء نبوخذ نصر :

١ – ساد الاضطراب بابل عقب وفاة نبوخذ نصر . وخلفه على العرش ابنه «**أويل مردوك**»

الذى أظهر رحمة واضحة تجاه الملك صدقيا فعامله معاملة حسنة. إلا أن رجال الدين البابليين كانوا يعتبرون أويل مردوك مارقا عن الدين البابلى لما أظهره من تسامح أو تعاطف مع ديانة اليهود فأباحوا دمه وقُتل.

٢ – خلفه على العرش زوج أخته «**نرجال شار أوصر**» لمدة ٤ سنوات ثم مات.

٣ – ملك بعده ابنه «**لياشى مردوك**» وكان طفلا وقتله رجال الدين ولما يمضى فى الحكم سوى ٩ شهور.

٤ – ملك بعده «**نبونيد**» وقد اختلفت الأقوال فى نسبه وكيفية وصوله إلى الحكم – والمرجَّح – كما يرى الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم (الشرق الأدنى القديم. جـ ٢ ص ٣٢٦) أن نبونيد كان ابن أحد الأشراف. وكانت أمه كاهنة تقية ورعة. وانعكس ذلك على نبونيد فكان تقيا ورعا هو الآخر. ولما قتل لياشى مردوك بويع نبونيد ملكا للبلاد باعتبار أنه أصلح من يتولى الحكم. وقد وجدت لوحة مسمارية تذكر موت «نرجال شار أوصر» وانتقال العرش إلى ابنه الأصغر «لياشى مردوك» الذى جلس على العرش ضد الرغبة الإلهية وضد رغبة الكهنة فتم اغتياله. ويستمر النص يقول على لسان نبونيد: جاءوا بى إلى وسط القصر وألقوا بأنفسهم جميعا على قدمىَّ وقبلُوا قدمى وقدَّموا الخضوع لذاتى الملكية. وبناء على أمر مردوك رُفعت إلى مركز السلطان وهم يُهلِّلون: «إنه أب للبلاد. إنه لا مثيل له». وللتقرب لرجال البلاط والكهنة وتثبيتا لمركزه فإنه اتخذ من «بيلشاصر» حفيد نبوخذ نصر مستشارا له ورجلا ثانيا فى المملكة. وكان المشهور عن بيلشاصر أنه لا يكن احتراما للديانة اليهودية. وكان نبونيد كثيرا ما يذهب إلى القصر الملكى فى تيماء ويقضى فيه فترات طويلة للراحة والتأمل ويترك بيلشاصر يُصرِّف أمور المملكة.

وليمة بيلشاصر والكتابة الغامضة : ذات يوم صنع بيلشاصر وليمة كبيرة وشرب كثيرا من الخمر فأمر بإحضار آنية الذهب والفضة المقدسة التى أخذها نبوخذ نصر من الهيكل فى أورشليم ليشرب بها هو وعظماؤه وزوجاته وسراريه. ولعله بذلك أراد أن يُمالىء رجال الدين البابليين بإظهار عدم احترام لمشاعر اليهود وعدم إحترام لديانتهم. فها هو يشرب الخمر فى آنية بيت ربهم المقدسة. حينئذ ظهرت أصابع يد إنسان وكتبت على طبقة الجص الموجود على حائط القاعة كتابة غامضة. وخاف الملك. ولم يستطع الحكماء ولا العرافون فك رموزها ومعرفة معناها. وأشارت الملكة الأم باستدعاء دانيال وذكَّرت بيلشاصر بأن جده كان قد اتخذ دانيال مستشارا له حيث وجد فيه فطنة وحكمة كحكمة الآلهة ولمس فيه روحا فاضلة ومعرفة بتعبير الأحلام. وكان بيلشاصر قد تعهد بأن من يستطيع حل رموز هذه الكلمات سيعطيه حلة أرجوانية وقلادة من ذهب ويتسلَّط ثالثا فى المملكة (بعد نبونيد الملك وبيلشاصر نائبه). فلما جاء دانيال قال للملك: «لتكن عطاياك لنفسك وهَبْ هباتك لغيرى لكنى أقرأ الكتابة للملك وأعرِّفه بالتفسير». ثم أخبره بأنه تعاظم جدا على الرب وتجبَّر قلبه حتى إنه شرب الخمر فى آنية بيت الرب وأن

الرب قد قضى بأن مُلكَهُ قد انتهى وأن تعطى مملكة بابل للفرس. ولعل جواسيس فارس كانوا قد علموا منذ فترة بموعد هذه الوليمة وأن الملك وقواد جيشه وعظماء المملكة سيكونون مدعوين إلى الوليمة ويكون الجند والناس فى حالة استرخاء تام. فحدد «داريوس» ملك الفرس هذه الليلة بالذات للهجوم على بابل. واقتحمت قواته القصر وقتلت بيلشاصر كما أخبر دانيال. وكانت قوة قد اتجهت إلى تيماء فاعتقلت نبونيد. ولم يُبدِ الجيش أى مقاومة. ويُرجع المؤرخون ذلك إلى أن قائد الجيش رأى أن الأمل الوحيد فى إنقاذ بلاده من الدمار هو سرعة الاستسلام لعدم جدوى المقاومة. كما أن جميع طبقات الشعب رحبت بالفرس وخاصة الكهنة والنبلاء ذلك أن نبونيد فى أول سنى حكمه حاول توحيد الآلهة فجمع كل تماثيل المعبودات من الأقاليم وجاء بها إلى العاصمة وبذلك أغضب الكهنة فاعتبروا دخول الفرس تحريرا لهم فرحبوا بهم (الشرق الأدنى القديم - د. نجيب ميخائيل إبراهيم جـ ٣ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥).

دانيال فى جب الأسود :

بعد أن أتم داريوس الاستيلاء على بابل وأخضع جميع مدنها واستتب له الأمر. وكان قد سمع عن حكمة دانيال فطمع فى الاستفادة منه كما فعل ملوك بابل. ولكن الوزراء وعظماء فارس كبُرَعليهم أن يصل دانيال إلى هذه المكانة من نفس الملك فعملوا على الإيقاع بينهما. فأوحوا إلى الملك بأن يصدر أمرا يُلزم كل أفراد الشعب بأن يتعبَّدوا له. ولما علم دانيال بذلك لزم بيته يصلِّى فيه لربِّ السموات والأرض. ووشى به الوشاة إلى الملك فأمر بإلقائه فى جب الأسود. وفى الصباح أسرع داريوس إلى الجب ليرى ما حل بدانيال فنادى عليه وهو يتوقع أنه لن يجد إجابة لظنه أن الأسود لابد قد التهمته. وصاح بأعلى صوته: هل إلهك الذى تعبده قدر أن ينجيك من الأسود؟ فرد عليه دانيال: إلهى أرسل ملائكة فسدَّ أفواه الأسود ولم يضرنى لأنى برىء. فأصدر الملك أمرا بأن يحترم الشعب ديانة «يهوه» وأن يتركوا اليهود يعبدون ربهم وإلههم كما يشاءون. كما أنزل دانيال منزلة كبيرة فى بلاط القصر. وكما سيأتى ذكره فيما بعد فإن كيروش الذى خَلَف داريوس سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين ولكن سن دانيال المتقدم لم تسمح له بمصاحبتهم فاكتفى برؤية اليهود يعودون إلى أورشليم وظل هو فى بابل يحوطه ملوك فارس برعايتهم إلى أن مات.

دانيال وكهنة الإله بيل :

كان فى مدينة بابل صنم اسمه «بيل» يتعبد له الملك داريوس. ولما سأل الملكُ دانيال النبى لماذا لا يتعبد له قال (دا ١٤) «لأنى لا أعبد أصناما صنَعَته الأيدى بل أعبد الإله الحى خالق السموات والأرض الذى له السلطان على كل ذى جسد». فقال الملك كيف ذلك والصنم حىٌّ لأنه يأكل كل يوم ١٢ مكيالا من السميد وأربعين كبشا ويشرب ستة أقداح من الخمر. فقال دانيال

إنه صنم وأما داخله فهو طين فكيف يأكل ويشرب. فرأى الملك أن يفحص الأمر بنفسه فأمر بوضع المأكولات والمشروبات وقفل الباب وختم عليه بخاتمه. وفى اليوم التالى قصد المعبد وفتح الباب فلم يجد شيئا من المأكولات والمشروبات. إلا أن دانيال كان قد فرش بواسطة غلمانه أرض المعبد برماد ناعم أظهر أثر أقدام أشخاص دخلوا ليلا وأخذوا الأغذية. حينئذ قبض الملك على كهنة بيل السبعين وعذّبهم حتى كشفوا له عن الباب السرى الذى كانوا يدخلون منه ويأخذون المأكولات والمشروبات ويدّعون أن الصنم حى وأكلها. فقتلهم الملك جميعا مع نسائهم وبنيهم ودفع الصنم إلى دانيال فسحقه وهدم مذبحه (أطلس الكتاب المقدس - عدلى اسكندر - ص ٣٣١).

دانيال النبى والتنين (دا ١٤) :

كان فى مدينة بابل تنين عظيم وكان البابليون يعبدونه. فقال الملك داريوس لدانيال: أتقول عن هذا أيضا إنه نحاس. ها إنه حى يأكل ويشرب ولا تستطيع أن تقول إنه ليس إلها. فقال دانيال إنما أسجد للرب إلهى لأنه هو رب السموات والأرض. ولو تركتنى فإنى أقتل التنين بلا سيف ولا عصا. فأخذ دانيال زفتا وشحما وشعرا وطبخها معا وصنع أقراصا ووضعها أمام التنين فأكلها. فانشق ومات. فقال دانيال. انظروا إلهكم! فغضب أهل بابل وقالوا عن الملك إنه يهودى (أطلس المقدس. عدلى اسكندر . ص ٣٣١).

رؤى النبى دانيال

فى أخريات أيامه رأى دانيال النبى رؤى أربعة أخبر بها ولم يشأ أن يفسرها تفسيرا واضحا لذلك اجتهد المفسرون فى بيان المقصود بها وأسماء الدول التى ترمز إليها. ونختصر هذه الرؤى فيما يلى:

١ - **الرؤيا الأولى** (دا ٧) :

وقد حدثت فى عهد نبوخذ نصر. وملخصها أن أربعة حيوانات صعدت من البحر. الحيوان الأول كالأسد وله جناحا نسر وهو يرمز إلى بابل. والحيوان الثانى شبيه بالدب وهو يرمز إلى فارس. والثالث مثل النمر له أربعة أجنحة وهو يرمز إلى الإسكندر الأكبر وقواده الأربعة الذين ملكوا بعده. ثم خرج قرن قوى داس الباقين ودخل الهيكل وخرّبه وهو يرمز إلى أنطيوخوس الذى هدم الهيكل وحارب القديسين فى مملكة يهوذا مما أدى إلى قيام ثورة المكابيين.

٢ - **الرؤيا الثانية** :

بعد سنتين من الرؤيا الأولى رأى دانيال كبشا وله قرنان وهو يمثل مملكة مادى والفرس. ثم

جاء تيس انتصر على الكبش، والتيس يمثل الإسكندر الأكبر. ثم انكسر قرن التيس وظهر بدله أربعة قرون (انقسام امبراطورية الإسكندر بعد وفاته إلى أربع ممالك) ثم طلع قرن صغير وكبر حتى صار عظيما. وهى إشارة إلى مملكة السلوقيين وما فعله أنطيوخوس من إبطال المحرقة وذبح الخنزير على المذبح فنجسه ثم قام بهدم المذبح المقدس والمسكن فقامت الثورة المكابية.

٣ - **الرؤيا الثالثة :**

جاءت استجابة لصلاة التضرع التى صلاها دانيال (دا ٩ : ٤) وقال فيها: «أيها الرب الإله العظيم المهوب حافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظى وصاياه. أخطأنا وأثمنا وعملنا الشر وتمردنا وحدنا عن وصاياك وعن أحكامك». واستمر دانيال فى تضرعاته. وأخيرا جاءه جبريل عليه السلام بالرسالة: «سبعون أسبوعا قُضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لكفارة الإثم وليؤتى بالبر الأبدى ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين. فاعلم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعا يعود ويبنى وبعد ١٢ أسبوعا يُقطع المسيح. وليس له شعب». ويرى مفسرو أهل الكتاب أن هذه الرؤيا فيها بشارة بمقدم المسيح عليه السلام وأن ٧٠ أسبوعا × ٧ أيام = ٤٩٠. أى بعد ٤٩٠ سنة يأتى المسيح عليه السلام آخر أنبياء بنى إسرائيل. ولما كان اليهود قد عادوا مع عزرا إلى فلسطين عام ٤٨٠ ق.م. وبُنى الهيكل ثانية يكون المسيح قد ظهر بعد ٤٨٠ سنة بفارق ١٠ سنوات وهو فارق بسيط يمكن التجاوز عنه. كما أن الرؤيا أشارت إلى صلبه إذ قال «ويُقطع المسيح».

٤ - **الرؤيا الرابعة** (دا ١٠) :

وقد حدثت فى السنة الثالثة لملك كورش ملك الفرس. يذكر دانيال أنه كان قد صام عن أكل اللحم وشرب الخمر والدهن بالطيب ٣ أسابيع وفى نهايتها جاءه جبريل عليه السلام فى هيئة رجل مهيب عليه لباس من كتان. فلما رآه سجد دانيال إلى الأرض. فقال له الرجل: «يا دانيال، أيها الرجل المحبوب. إنى أرسلت إليك. لا تخف لأن إلهك سمع كلامك وأنا أتيت لأجل أن أخبرك أنه يقوم فى فارس ثلاثة ملوك. والرابع يَستغنى بقوته ويُهيّج الجميع على مملكة اليونان. ويقوم ملك جبار ويتسلط تسلطا عظيما ثم تنكسر مملكته وتنقسم إلى رياح السماء الأربع». وتفسير هذا الجزء من الرؤيا هو أن الملوك الثلاثة هم قمبيز ودارا الأول وإكزركسيس والرابع الذى يستغنى بقوته هو أنتاكزركسس الثانى والملك الجبار هو الإسكندر الأكبر ورياح السماء الأربع هى الممالك الأربع التى انقسمت إليها امبراطوريته. ثم تستمر الرؤيا فتصف الصراع بين ملك الجنوب (ملك البطالمة فى مصر) وملك الشمال (ملك السلوقيين فى سوريا) وهو الصراع الذى استمر حتى قامت روما بالاستيلاء على المنطقة كلها بما فيها فلسطين وأورشليم.

الفصل الثامن عشر

بنو إسرائيل والفرس

نبوءات بسقوط بابل :

كانت امبراطورية بابل من أقصر الامبراطوريات عمراً. بدأت الأسرة البابلية الحديثة عام ٦٢٦ ق.م. وفي عام ٦٠٩ قضت على أشور وأقامت الامبراطورية البابلية التي انتهت على يد الفرس عام ٥٣٩ ق.م. أي أنها لم تُعمِّر سوى ٧٠ عاما (٦٠٩ – ٥٣٩ ق.م.). وبينما كانت بابل في أوج عزها ولا يتوقع أحد قرب سقوطها تنبأ عدد من أنبياء بني إسرائيل بزوالها:

١ – (إشعياء ٤٨ : ٢٠): «اخرجوا من بابل. اهربوا من أرض الكلدانيين». فهذه دعوة لبني إسرائيل بالخروج من الأرض التي سباهم إليها البابليون ولا يكون ذلك إلا بعد انكسار بابل.

٢ – (إرميا ٢٥:١٢) «ويكون عند تمام السبعين سنة أني أعاقب ملك بابل وتلك الأمة على إثمهم. وأرض الكلدانيين أجعلها خربا أبدياً».

٣ – (إرميا ٥٠:٩): «لأني هكذا أوقظ وأُصعد على بابل جمهور شعوب عظيمة من أرض الشمال فيصطفُّون عليها. من هناك تؤخذ. نبالهم كبطل مُهلِك لا يرجع فارغا. وتكون أرض الكلدانيين غنيمة. كل مغتنميها يشبعون. اصطفُّوا على بابل حواليها. ياجميع الذين ينزعون في القوس ارموا عليها. لا توفِّروا السهام لأنها قد أخطأت إلى الرب. اهتفوا عليها حواليها. قد أعطت يدها. سقطت أسسها. نُقِضت أسوارها. لأنها نقمة الرب هي فانتقموا منها. كما فعلت افعلوا بها. اقطعوا الزارع من بابل وماسك المنجل في وقت الحصاد».

٤ – (إرميا ٥٠ : ٤١): «هوذا شعب مقبل من الشمال وأمة عظيمة ويُوقَظ ملوك كثيرون من أقاصي الأرض يمسكون القوس والرمح. هم قساة لا يرحمون. صوتهم يعج كبحر وعلى خيل يركبون. مصطفِّين كرجل واحد لمحاربتك يابنت بابل. سمع ملك بابل خبرهم فارتخت يداه. لذلك اسمعوا مشورة الرب التي قضى بها على بابل. إنه يخرب مسكنهم عليهم».

٥ – (إرميا ٥٠ : ٤٥): «لذلك اسمعوا مشورة الرب التي قضى بها على بابل وأفكاره التي افتكر بها على أرض الكلدانيين. إن صغار الغنم تسحبهم. إنه يخرب مسكنهم. من القول (أي فتصبح مثلا) أُخِذت بابل. رجعت الأرض وسُمِع صراخ في الشعوب».

٦ – (إرميا ٥٠:٥١): «هكذا قال الرب. هأنذا أوقظ على بابل وعلى الساكنين فيها ريحا

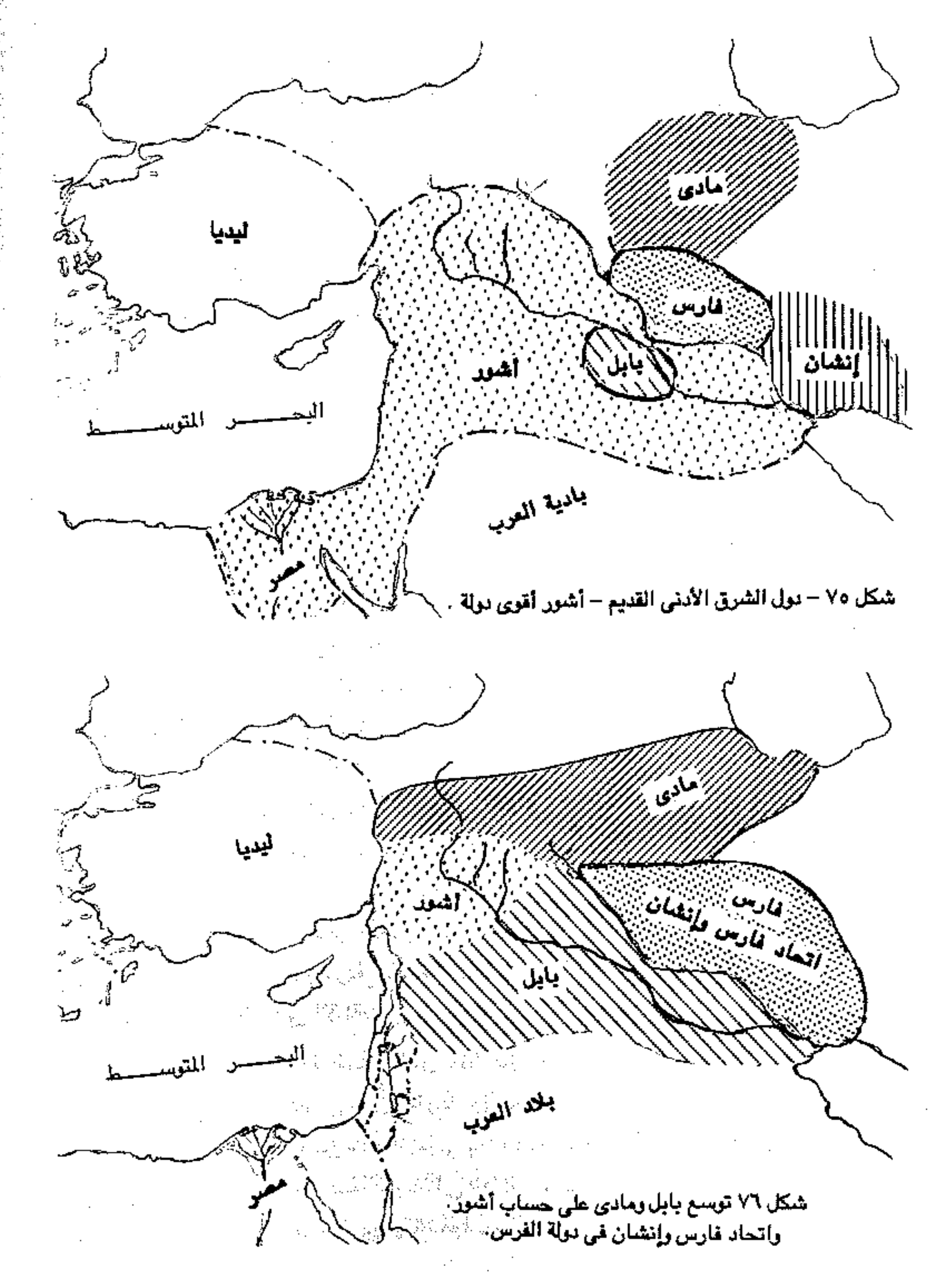
مهلكة. وأرسل إلى بابل مُذَرِّين فيذرُّونها ويُفرِّغون أرضها لأنهم يكونون عليها من كل جهة فى يوم الشر. اهربوا من وسط بابل وانجوا كل واحد بنفسه. سقطت بابل وتحطَّمت. وَلوِلُوا عليها. خذوا بلسانا لجرحها لعلها تشفى. داوينا بابل فلم تُشفَ. قد أيقظ الرب روح ملوك مادى لأن قصده على بابل أن يهلكها. لأن الرب قد قصد وأيضا فعل ما تكلم به على سكان بابل. أيتها الساكنة على مياه كثيرة. الوافرة الخزائن. قد أتت آخرتك».

ومعظم هذه النبوءات جاء على لسان إرميا وكان يرسلها مع «سرايا» أحد رجال البلاط الذين يسهرون على راحة الملك صدقيا ملك يهوذا الذى أخذ أسيرا إلى بابل فى السبى الكبير. ومما لاشك فيه أن البابليين سمعوا هذه النبوءات. ولكنهم لم يأخذوها مأخذ الجد واعتبروها مجرد أمانٍ كاذبة لشعب مقهور وتنفيس عما يشعر به فى قرارة نفسه من مرارة لهزيمته وسبيه. كانت بابل فى ذلك الوقت فى أوج عزِّها وقوتها تظن أنها باقية إلى الأبد فى حين كان القدر يخبىء لها ما تضمَّنته النبوءات من زوال.

ظهور الفرس :

كانت هناك ثلاث ممالك فى الهضبة الإيرانية (شكل ٧٥) : « مادى أو ميديا » فى الشمال و«إنشان» فى الجنوب الشرقى و «فارس» فى الجنوب الغربى. وكانت الأخيرتان تابعتين لمادى فى الشمال. وثار الصراع بين مادى وأشور وانتهى بأن استولت مادى على الجزر المجاور لها من شمال العراق. واستولت بابل على جنوب العراق كله وعلى أجزاء كبيرة من أشور. وتقلصت أشور إلى قطعة صغيرة على الفرات الأعلى حول حاران. وأصبحت بابل هى القوة الأولى فى المنطقة (شكل ٧٦). ولكن مادى بعد أن استولت على الأجزاء الشمالية والشرقية من أشور اتجهت غربا ومدَّت نفوذها فى آسيا الصغرى وهناك اصطدمت بدولة «ليديا». وانحازت بابل إلى مادى – جارتها – ولكن أثناء المعركة حدث كسوف كلى للشمس اعتبره الفريقان نذيرا من السماء فتوقفا عن الحرب وانتهى الأمر بصلح ومصاهرة بين البيتين المالكين فى مادى وليديا. وبدأت بابل تتوجَّس خيفة من دولة الماديين الصاعدة وتوالت النزاعات بينهما. كل يريد الفوز بأكبر نصيب من مملكة أشور الآفلة.

انتهز **كيروش** – حاكم مقاطعة إنشان. انشغال ميديا وبابل فى حروبهما فاستقل بإمارة إنشان وضم إليها منطقة فارس وكوَّن منهما دولة مستقلة هى **دولة الفرس**. كان كيروش الأول أو قورش ملك فارس محبوبا من شعبه. وتولى بعده ابنه «قمبيز الأول» ثم تلاه «قورش الثانى» أو «كيروش الأكبر». وكان يمت بصلة نسب إلى العائلة المالكة فى «مادى» فى شمال إيران. فلجأ إليه المتضرِّرون من قسوة ملك مادى. ولما تخوفت بابل من تحالف مادى وليديا. فإنها تحالفت مع



شكل ٧٥ – دول الشرق الأدنى القديم – أشور أقوى دولة .

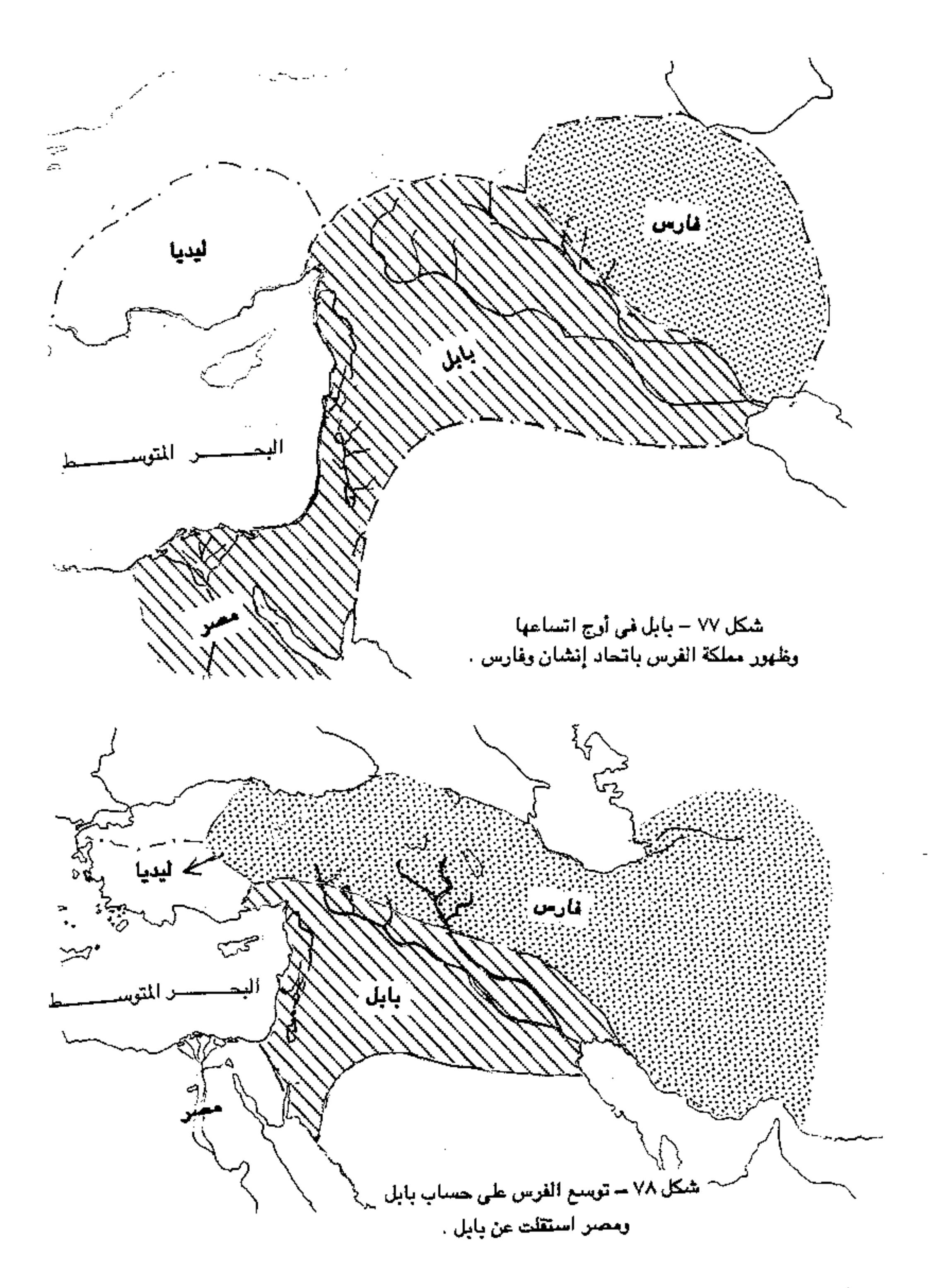
شكل ٧٦ توسع بابل ومادى على حساب أشور.
واتحاد فارس وإنشان فى دولة الفرس.

كيروش الثاني ملك فارس ضد مادى التى كانت الحروب قد أنهكتها فضلا عن أن ملوكها انغمسوا فى الترف وزينوا الخيل بالذهب وركبوا العربات الفاخرة. وكان آخر ملوكهم طاغية وظالما. فقد غضب يوما على أحد قواده فقتل ابنه وأمره أن يأكل لحمه. وانتقم القائد لنفسه فيما بعد بأن أعان قورش ملك فارس على خلع ملك مادى وضم مملكته إلى مملكة فارس وبذلك توحدت الهضبة الإيرانية كلها فى مملكة واحدة هى مملكة فارس (شكل ٧٧) التى قُدِّر لها أن تسود العالم القديم لفترة تزيد عن قرنين من الزمان.

نهاية بابل :

رأت بابل المملكة الفارسية تظهر قوية على حدودها الشرقية وبدأت تستشعر الخطر وعقدت حلفا مكونا من بابل وليديا فى آسيا الصغرى ومصر وبعض الشعوب الإغريقية فى الساحل الغربى لآسيا الصغرى – للوقوف ضد الفرس. وكان ملك ليديا هو البادىء بمهاجمة الفرس ودارت المعركة وانهزمت ليديا وسقطت عاصمتها وانتهت ليديا من الوجود كدولة. وكان نبونيد ملك بابل يتدخل فى الشئون الدينية فى بلاده. بل إنه – كما يقول الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم (الشرق الأدنى القديم . جـ ٣ ص ٣٣٥) فكَّر فى توحيد المعبودات فجمع كل تماثيل المعبودات المحلية من الأقاليم وجاء بها إلى العاصمة. فلم تتسع لها معابدها فوضعت فى المخازن وبذلك أغضب الكهنة الذين كانوا يقومون على خدمة هذه الآلهة لفقدانهم مورد رزق من القرابين التى كانت تقدم إليها. وقلنا أيضا (ص ٤٠٤) إنه كان يقضى فترات طويلة فى قصره الذى بناه فى تيمان ويترك الحكم لـ «بيلشاصر» وإن كان بعض المؤرخين يرون أن ذلك كان «إبعادا» له عن التدخل فى سياسة البلاد وكان عدم استقرار الحكم قد أدى بالإدارة إلى الفساد وكثُرت المظالم وبدأ الشعب يتطلع إلى تغيير ما.

وسبق أن ذكرنا (ص ٤٠٤) الوليمة التى أقامها بيلشاصر. وبدأ كورش هجومه على بابل فى ذات الليلة فاستولى عليها بدون مقاومة تذكر (عام ٥٣٩ ق.م.). وكان الضابط البابلى الذى أجبره نبونيد على أكل لحم ابنه قد هرب من بابل وعمل فى خدمة كيروش. فقاد الجيش الفارسى ودلَّه على أماكن ضعف الاستحكامات فى المدينة فسقطت مدينة بابل دون معركة. ورحَّب به كهنة مردوك ورحب به الشعب أيضا ولم تبدِ أى مدينة مقاومة وبذلك خضعت لفارس كل بلاد النهرين واعترفت سوريا وفلسطين بالغازى الجديد. وكان كيروش من الذكاء بحيث أعاد المعبودات إلى المدن والمعابد التى كانت فيها من قبل وبذلك اكتسب شعبية ضخمة. وفى إحدى النصوص التى وجدت فى مدينة الوركاء (إحدى المدن فى جنوب العراق القديم) جاء: «فى شهر مارشزقان فى اليوم الثالث دخل كيروش إلى بابل وساد السلام المدينة. وأمر كيروش بأن يكون السلام فى كل بابل. ومن شهر «كسليف» حتى شهر «آزار» أعيد الآلهة الذين كان قد أحضرهم نبونيد إلى مدنهم».


فارس
ليديا
بابل
البحـــــر المتوســـــط
مصر
شكل ٧٧ – بابل في أوج اتساعها
وظهور مملكة الفرس باتحاد إنشان وفارس .
ليديا
فارس
البحـــــر المتوســـــط
بابل
مصر
شكل ٧٨ ـ توسع الفرس على حساب بابل
ومصر استقلت عن بابل .

كان الاحتلال الفارسى للبلدان يختلف عن الاحتلال الأشورى أو البابلى. فقد كان الفرس يتركون القوميات على حالها ويتركون للبلاد التى يغزونها ممارسة حريتهم الدينية والاحتفاظ بعباداتهم ويتركون للسكان حرية ممارسة نشاطاتهم التجارية ولا يزيدون الضرائب إلا قليلا لذلك كانت الشعوب لا تشعر بتغيير كبير بعد الاحتلال إلا فى اسم الملك ولقبه. ولكن هذه السياسة السلمية شجعت بعض أفراد الأسرة المالكة البابلية على الثورة ومحاولة استعادة نفوذهم الضائع فما كان من داريوس (الذى خلف كيروش الأول) إلا أن حاصر بابل ودمَّر مبانيها. وفى عهد إكزركسيس قامت ثورة أخرى فلم يجد الفرس بُدًّا من هدم أسوار المدينة وتخريب مبانيها الجميلة وحدائقها وهدم معابدها.

كيروش Cyrus :

من العقائد اليهودية الراسخة أن مسيحا سيأتى ليعيد لهم دولتهم فى فلسطين. ومن هذه العقيدة كانت نظرة التبجيل إلى كيروش ملك الفرس لَماَّ سمح لهم بالعودة إلى فلسطين وسمح لهم بإعادة بناء الهيكل. وكان كيروش – بعد استيلائه على بابل – واعترافا بفضل النبى دانيال ونبوءاته التى كان لها أثر كبير فى انتصاراته قد عين واحدا من سبط يهوذا – اسمه «زربابل» وهو اسم عبرى معناه «زرع بابل» أى «المولود فى بابل» – عيَّنه واليا على اليهود وكان قائدا لأول فوج من اليهود العائدين إلى أورشليم. كما عين يهوشع بن صادوق رئيسا للكهنة.

ولم يكن دانيال وحده هو الذى تنبأ بالعودة على يد كيروش بل إن إشعياء النبى ذكر ذلك أيضا (إشعياء ٤٥): «هكذا يقول الرب لمسيحه. لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك (أحقاء جمع حقو وهو الخصر) لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق. أنا أسير قدامك والهضاب أُمهِّد. أكسر مصراعى النحاس ومغاليق الحديد أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء لكى تعرف أنى أنا الرب. الذى يدعوك باسمك. إله إسرائيل. دعوتك باسمك وأنت لست تعرفنى. أنا الرب وليس آخر. لا إله سواى. نطَّفتك (خلقتك من نطفة) وأنت لم تعرفنى. لكى يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيرى أنا الرب وليس آخر. مصوِّر النور وخالق الظلمة. صانع السلام وخالق الشر أنا الرب صانع كل هذه. أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها. يداى أنا نشرتا السموات وكل جندها أنا أمرت. أنا قد أنهضته بالنصر. وكل طرقه أُسهِّل. هو يبنى مدينتى ويطلق سبيى لا بثمن ولا بهديَّة. هكذا قال الرب».

فى هذه الفقرة **دعوة لكيروش للإيمان بإله إسرائيل**. تبدأ بتوضيح أن كل هذه الانتصارات التى أحرزها كيروش كانت بفضل الله فهو الذى أمسك بيمينه ويفتح أمامه الأبواب المغلقة ويمهِّد الطريق. وكأنه سبحانه وتعالى يقول له «**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**». ثم القول «لكى تعرف أنى أنا الرب الذى يدعوك باسمك وأنت لست تعرفنى». يتبع ذلك

بيان قدرة الله وأنه هو الذى خلقه من نطفة وأن الله هو خالق الليل والنهار وخالق الأرض والإنسان والسموات. ولا نستطيع الجزم ما إذا كان كيروش قد استجاب لدعوة الإيمان هذه أم لا. غير أن أفعاله بعد ذلك تدل على توقير كامل لإله إسرائيل. فالسماح لليهود بالعودة إلى فلسطين والسماح لهم ببناء الهيكل وتقديم الذهب والفضة مساهمة منه فى نفقات البناء كل ذلك يدل على إيمانه بالإله «يهوه» وإن لم يتلفظ بذلك.

وأعلن إشعياء نبوءة ثانية عن انتصارات كيروش (إشعياء ٤١): «انصتى إلىَّ أيتها الجزائر (يعنى أرض ما بين النهرين لأنها كالجزيرة. والخطاب يشمل أيضا كل المدن الساحلية). مَنْ أنهض من المشرق الذى يلاقيه النصر عن رجليه (المقصود هو كيروش) دفع الرب أمامه أمما وعلى ملوك سلَّطه. جعلهم كالتراب بسيفه وكالقش المنذَّرى بقوسه. طردهم. مرَّ سالما فى طريق لم يسلكه برجله. من فعل وصنع داعيا الأجيال من البدء. أنا الرب الأول. ومع الآخرين أنا هو».

وتنبأ إشعياء بهجوم الفرس المباغت على بابل وقت وليمة بيلشاصر فيقول مخاطبا بابل: «فيأتى عليكِ شر لا تعرفين فجره وتقع عليك مصيبة لا تقدرين أن تصدَّيها. وتأتى عليك بغتة تهلكة لا تعرفين بها» – وفى فقرة أخرى يقول: «تاه قلبى. بغتنى رعب. ليلة لذَّتى جعلها لى رعدة. يُرتِّبون المائدة. يحرسون الحراسة. يأكلون. يشربون. قوموا أيها الرؤساء امسحوا المِجنّ».

العودة وبدء بناء البيت

ما إن استولى كيروش على بابل – وبالطبع على كل ممتلكاتها فى سوريا وفلسطين – حتى سمح لليهود المسبيين فى بابل بالعودة إلى فلسطين. وهذه تسمى «**العودة الأولى**» وكان يقودهم «**زربَّابل**» والذى ذكرنا فى الصفحة السابقة أنه أحد اليهود المولودين فى بابل. ومن سبط يهوذا – وعينه كيروش واليا على اليهود. ورافقه يهوشع كاهنا أكبر و ٢٢ من الكهنة. تقول التوراة (٢ أخبار ٢٢:٣٦): «وفى السنة الأولى لكورش ملك فارس لأجل تكميل كلام الرب بفم إرميا نبَّه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته وكذا بالكتابة قائلا: هكذا قال كورش ملك فارس إن الرب إله السماء قد أعطانى جميع ممالك الأرض وهو أوصانى أن أبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا. مَن منكم مِن جميع شعبه الرب إلهه معه وليصعد». وفى عزرا ١:١: تأتى نفس هذه الفقرة ويزداد عليها: «ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التى فى يهوذا فيبنى بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله الذى فى أورشليم. وكل من بقى فى أحد الأماكن حيث هو متغرِّب فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرع لبيت الرب الذى فى أورشليم. فقام رؤساء آباء يهوذا وبنيامين والكهنة واللاويون مع كل من نبَّه الله روحه ليصعدوا

ليبنوا بيت الرب الذى فى أورشليم. وكل الذين حولهم أعانوهم بآنية فضة وبذهب وبأمتعة وببهائم وتحف فضلا عن كل ما تبرع به. والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التى أخرجها نبوخذ نصر من أورشليم وجعلها فى بيت آلهته أخرجها كورش ملك فارس من المخازن وسلَّمها إلى أحد رؤساء يهوذا (واسمه شيشبصَّر، وهو اسم بابلى معناه «يا إله الشمس والسماء احفظ الابن») وكانت الآنية كالآتى : (عزرا ١:٩):

٣٠ طستا من ذهب .

١٠٠٠ طستا من الفضة .

٢٩ سكينا .

٣٠ قدحا من ذهب .

٤١٠ قدحا فضة من الرتبة الثانية .

١٠,٠٠٠ قطعة من آنية أخرى .

ثم عدَّدت التوراة أعداد العائدين بحسب بيوت آبائهم وبحسب البلدان التى سُبوا منها فبلغوا ٤٢,٣٦٠ فردا ومن الكهنة ٤٤٨٧ ومن اللاويين ٧٤ ومن المغنيين ١٢٨ فضلا عن عبيدهم وإمائهم الذين بلغوا ٧٣٣٧ أى أن الجميع بلغ حوالى ٥٠,٠٠٠. ومن الخيل ٧٣٦. ومن البغال ٢٤٥، والجمال ٤٣٥ والحمير ٦٧٢٠. وعند مجيئهم إلى بيت الرب فى أورشليم تبرع رؤساء البيوت بـ ٦١,٠٠٠ درهما من الذهب و ٥٠٠٠ منًّا من الفضة و ١٠٠ قميصا للكهنة. ويرى بعض المؤرخين (فيليب حتى ص ٢٤٣) أن العدد المذكور للعائدين - ٤٢,٣٦٠ أو ٥٠,٠٠٠ - فيه مبالغة حيث أن السبى كله كان ٤٠,٠٠٠ أو ٥٨,٠٠٠. وعدد كبير فضَّل البقاء فى بابل. إلاَّ أن ذلك يُرَدُّ عليه بأن الإقامة الآمنة فى بابل - حيث لا حروب ولا مجاعات ولا أوبئة - لاشك قد أدت إلى زيادة كبيرة فى عدد اليهود وحتى لو بقى عدد فى بابل فإن العدد المذكور للعائدين يبدو معقولا.

ولعل السبب فى إصدار كورش أمره بالسماح للمنفيين من اليهود بالعودة إلى ديارهم هو الاعتراف بالدور الذى قام به اليهود فى تحطيم بابل من الداخل بالفتِّ فى عضد محاربيهم بالنبوءات التى أذاعها أنبياؤهم عن قرب زوال مُلك بابل وأن تلك هى مشيئة الرب فرأى كثير من المحاربين تقبل الأمر الواقع ولم يعد لديهم حماس لحرب فارس. ولقد رأينا كيف سقطت بابل نفسها بدون مقاومة تقريبا وكذلك كان الحال فى باقى المدن. كما أنه من المؤكد أن كورش قد قدَّر أن اليهود العائدين سيحملون له امتنانا وشكرا وسيزداد ولاؤهم له بعد بناء مدينتهم أورشليم وبناء معبدهم فيكونون حزبا مواليا له فى مقابل الحزب الموالى لمصر. سبب ثالث لا بأس من افتراضه وهو أن كورش قد آمن بإله إسرائيل. يتضح ذلك من صيغة الأمر الذى أصدره

بالسماح لليهود بالعودة وأصبح هو نفسه متحمسًا مثلهم لبناء المدينة أورشليم وبناء الهيكل وبيت الرب.

وبالرغم من السماح بالعودة فإن عددا كبيرا من اليهود فضل البقاء فى بابل إذ تأقلموا فيها وكانوا قد امتلكوا حقولا وضياعا وكانت لهم تجارة رابحة. وهكذا فإن أغنياء اليهود فضلُوا البقاء فى بابل وشاركوا بمساعدات مالية وتقدمات عينيه لبناء المدينة والمعبد. ولكنهم لم يندمجوا بالسكان المحليين أو يذوبوا وسطهم بل كوَّنوا ما عرف باسم «اليهود المقيمون خارج فلسطين» أو «**يهود الشتات**» أو «**الدياسپورا** Diaspora». وهذا يماثل ما حدث فى عصرنا الحالى عند إنشاء دولة إسرائيل والدعوة إلى العودة إلى «أرض الميعاد» فإن أغنياء اليهود فى أمريكا لم يهاجروا إلى إسرائيل ولكنهم شاركوا بالأموال الوفيرة التى تبرعوا، ولا زالوا يتبرَّعون. بها والتى لولاها لما تمكنت إسرائيل من البقاء.

يذكر ول ديورانت (تاريخ الحضارة ص ٣٦٥) أن العائدين من السبى لاقوا صعوبة فى إيجاد مكان لهم فى الأرض إذ أن حقولهم وبيوتهم - على مدى السبعين سنة فترة السبى - قد سكنها أفراد من العائلات التى لم يتم سبيهم أو عائلات جاءت مما كان يسمى إسرائيل الشمالية أو حتى من الدول المجاورة. إلاَّ أنَّ مساندة الفرس لهم ساعدتهم فى استرداد بيوت آبائهم وحقولهم.

الشروع فى بناء بيت الرب :

فور العودة - عام ٥٣٨ ق.م. - بدأ اليهود فى البحث بين أنقاض المدينة عن مكان المعبد القديم. وبنوا مذبحا فى نفس مكان المعبد القديم حتى يتمكنوا من تقديم القرابين اليومية وتقدمات الأعياد. ثم بدأوا فى إقامة أساسات المعبد الجديد مكان المعبد القديم وتم وضع الأساس فى السنة الثانية بعد العودة وسط هتافات الكهنة بالأبواق وبمنتهى الاحترام والتقديس.

توقف البناء :

رأى سكان السامرة (ما كان يعرف بإسرائيل الشمالية) أن بناء البيت شرف لا يجب أن يفوتهم فطلبوا المشاركة فى البناء مع يهوذا ولكن طلبهم رُفض من سكان يهوذا ولما رفض طلبهم لجأوا إلى رفع قضايا ضد بيت يهوذا وتوقف بناء المعبد مؤقتا. كما أن السامرين - إمعانا فى الكيد ليهوذا - أرسلوا رسالة إلى ملك فارس يحذِّرونه من أنه إذا بنيت المدينة وأسوارها فإن يهوذا ستخرج عن طوع الملك ولن يؤدوا الجزية. فأرسل الملك خطابا إلى صاحب القضاء فى فلسطين يأمره بإيقاف البناء. وهذه هى الرسالة التى أرسلوها إلى الملك كما ذكرتها التوراة (عزرا ٤ : ١١): «من عبيدك القوم الذين فى عبر النهر. ليعلم الملك أن اليهود الذين صعدوا من عندك إلينا قد أتوا إلى أورشليم ويبنون المدينة العاصية الرديَّة. وقد أكملوا أسوارها

ورمموا أسسها. ليكن الآن معلوما لدى الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يؤدون الجزية ولا خراجا ولا خفارة فأخيرا تضر الملوك. والآن بما أننا نأكل ملح دار الملك ولا يليق بنا أن نرى ضرر الملك لذلك أرسلنا فأعلمنا الملك. فأرسل الملك جوابا إلى صاحب القضاء في السامرة: سلام إلى آخره. الرسالة التى أرسلتموها إلينا قد قرئت بوضوح أمامى وعلمنا أن هذه المدينة منذ الأيام القديمة قد جرى فيها تمرد وعصيان. فالآن أصدروا أمرا بتوقيف أولئك الرجال فلا تبنى هذه المدينة حتى يصدر منى أمر. فاحذروا أن تَقْصُروا عن عمل ذلك».

ولما توقف البناء انصرف العائدون إلى بناء بيوت يسكنون فيها حتى يمكنهم الاستقرار وزراعة الأرض أو ممارسة التجارة أو الصناعة حسب حِرَفهم. كما وجَّهوا اهتمامهم لبناء المدن الأخرى التى تهدَّمت. وظل بناء المعبد متوقفا طوال ١٧ عاما مات أثناءها كورش وهو يحارب على حدوده الشمالية والشرقية وملَك بعده قمبيز الثانى. ولم يكن متحمسا لبناء المعبد فى أورشليم وتخوَّف من أن بناء المعبد سيجعل قلوب اليهود جميعهم تلتف حوله ويبعث فيهم شعورا وطنيا يجعلهم يحاولون الاستقلال لذلك فإنه خفَّض المساعدة المالية التى كانت مخصصة سنويا إلى حد أن أصبحت مجرد رمز لموافقة والده السابقة. كما أن قمبيز الثانى انشغل فى تأمين مُلكه ضد اضطرابات داخلية قامت ضده. ومات قمبيز الثانى وهو يحارب فى سوريا بعد أن حكم ٨ سنوات وخلفه شقيقه «برديا» ولكنه لم يمكث فى الحكم إلا مدة قصيرة إذ قام عليه «دارا» بمعاونة بعض النبلاء وقضوا عليه وتولى «دارا» الملك فى فارس عام ٥٢٢ ق.م وعادت آمال اليهود من جديد فى استكمال بناء الهيكل لِمَا توسَّموا فى دارا من سماحة. وبدأ النبى حجَّى فى عام ٥٢٠ ق.م. يتكلم عن إعادة بناء الهيكل. وفى عام ٥١٩ ق.م. بدأ كذلك النبى زكريا يتحدث عن رؤياه بهذا الخصوص. وبدأ النبيان يوبِّخان الشعب على تراخيهم فى بناء بيت الرب وانشغالهم فى بناء بيوتهم مفضِّلينها على بيت الرب. وكان حجَّى وزكريا هما النبيان اللذين ظهرا فى أورشليم بعد العودة من السبى.

١ – حجَّى النبى Haggai

هو أول الأنبياء الذين ظهروا فى أورشليم بعد عودة السبى من بابل. وحجَّى اسم عبرى معناه «عيد» أى «مولود يوم عيد». وكان حجر الأساس قد وضع لبناء الهيكل ثم توقف البناء كما سبق أن ذكرنا فجاء حجَّى ليوبِّخ اليهود على تراخيهم فى بناء بيت الرب (حجَّى ١:٣): «فكانت كلمة الرب عن يد حجَّى النبى قائلا: هل الوقت لكم أنتم أن تسكنوا بيوتكم المغشاة (المزخرفة) وهذا البيت خراب؟ والآن فهكذا قال الرب . اجعلوا قلبكم على طرقكم. زرعتم كثيرا ودخَّلتم قليلا. تأكلون وليس إلى الشبع. تشربون ولا ترتوون. تكتسون ولا تدفأون. والآخذ أجرة يأخذ

أجرة لكيس مثقوب»، وكل هذا معناه أن ما تفعلونه قد نزع الله منه البركة «هكذا قال رب الجنود. اصعدوا إلى الجبل واتوا بخشب وابنوا البيت فأرضى عليه وأتمجَّد. لماذا يقول الرب لأجل بيتي الذي هو خراب وأنتم راكضون كل إنسان إلى بيته. لذلك مَنَعت السموات من فوقكم الندى، ومنعت الأرضُ غلَّتها». حينئذ سمع الحاكم زربابل ويهوشع الكاهن الأعظم وكل بقية الشعب هذا الكلام. ثم بدأ يشجِّعهم على العمل المتواصل وينزع عنهم الحزن ويُوجِّه أنظارهم إلى أن بناء البيت والهيكل فيه مرضاة الرب وحثَّهم على مواصلة البناء حجرا على حجر حتى يتم البناء. وكانت الفترة التي مارس فيها حجَّي نبوته قصيرة لم تزد عن أربعة أشهر. ثم تلاه في النبوة زكريا.

٢ - زكريا النبي Zechariah

هو زكريا بن برخيا بن عِدُّو - وهو غير زكريا والد يحيي اللذين عاصرا مريم والدة المسيح عليه السلام - ولد في بابل أثناء السبي وعاد مع زربابل قائد الفوج ويهوشع الكاهن أثناء حكم كورش العظيم. ثم عاصر خلفه قمبيز ثم دارا الأول وبدأت نبوته في السنة الثانية من حكم دارا أو داريوس. وقد اشترك مع حجَّي في تشجيع اليهود على بناء الهيكل واستمر في مهمته النبوية لمدة سنتين. وكان من أهم واجباته أن يقوِّي عزائم الشعب ويستنهض هممهم ليتمُّوا بناء الهيكل. ويبدأ يروي عن رؤى رآها بلغت ثماني رؤى. وكلها تهدف في معناها إلى الحث على بناء الهيكل وتبشِّر بالدور الذي ستلعبه إسرائيل في المستقبل وكذلك طالب الشعب بأن يتوب إلى الله. ووعدهم بالغفران والمباركة للتائبين. ثم بشر بمجيء المسيح عليه السلام وتكذيبه وصلبه ثم بشارة ثانية بعودته وقبوله قرب آخر الزمان. ونختصر الرؤى فيما يلي:

١ - الرؤيا الأولى :

رأى زكريا في الليل رجلا راكبا على فرس أحمر والرجل واقف في وادٍ خفيض به أيكة وخلفه ثلة من الفرسان على خيل حمر وشقر وبيضاء وملاك والنبي زكريا نفسه. ويرى المفسرون أن الرجل الراكب على الفرس الأحمر هو ملاك الرب (جبريل عليه السلام) بينما يرى المسيحيون أنه يرمز إلى المسيح عليه السلام. ويسأله زكريا في الحلم عن هؤلاء الفرسان فأجابه القائد أن أتباعه هؤلاء قد جالوا في أنحاء الأرض ووجدوها مستريحة وساكنة. وهو يطابق الأوضاع السياسية في ذلك الوقت فقد كان العالم القديم في فترة هدوء وسكون ليس فيها حروب. وكان هذا الوضع في مصلحة اليهود إذ أتاح لهم الفرصة لبناء الهيكل. ثم أخبره الفارس القائد أن الرب أبلغه أن يخبر اليهود بأن غضب الرب عليهم قد زال وأن الهيكل سيعاد بناؤه وأورشليم تُبنى وتُجدَّد ومدن يهوذا تكون عامرة.

٢ – الرؤيا الثانية :

رأى زكريا أربعة قرون فسأل الملاك عنها فأخبره أنها القرون التي بدّدت يهوذا وإسرائيل وأورشليم – ثم جاء أربعة صنّاع فبردوا القرون بالمبارد. ويرى بعض المفسرين أن القرون ترمز إلى القوى التي استذلّت إسرائيل وهي مصر وأشور وبابل ومادى (الفرس) بينما يرى آخرون أنها أعم وأشمل من ذلك إذ تشير إلى الجهات الأربع أى الأعداء من أى جهة طلعوا. أما الصنّاع الأربعة فترمز إلى القوى التي أتم الله بها انتقامه من أعداء إسرائيل.

٣ – الرؤيا الثالثة :

رأى زكريا رجلا بيده حبل قياس فسأله عما سيفعل فأخبره أنه ذاهب لقياس أورشليم ليرى كم طولها وكم عرضها. وأخبره أنه ينبغي أن تبنى أورشليم بدون أسوار لأن مواطنين كثيرين سيخفقون فى الحصول على مساكن داخل حدود المدينة القديمة وسيضطرون إلى البناء خارج الأسوار لكنهم سيكونون أيضا فى أمان تام لأن الرب هو الحارس وهو الحصن. ثم يختم بدعوة اليهود المقيمين ببابل إلى العودة لفلسطين.

٤ – الرؤيا الرابعة :

رأى زكريا يهوشع – الذى عُيِّن كاهنا أعظم فى أورشليم – لابسا ثيابا قذرة وواقفا أمام ملاك الرب. والثياب القذرة ترمز إلى خطيّة الشعب الذى يمثله. ثم نزعت عنه الثياب القذرة وأُلبس ثيابا نظيفة ووُضعت على رأسه عمامة رئاسة الكهنة. وهى إشارة إلى أنه سيتولى الرئاسة الكهنوتية ليس فى أورشليم وحدها بل فى كل يهوذا.

٥ – الرؤيا الخامسة :

وفيها رأى زكريا منارة كلها من ذهب ولها سبعة سُرُج وسبع أنابيب للسرج لضخ الزيت. ورأى زيتونتان واحدة عن يمين المنارة والثانية عن يسارها. ولما سأل عن معنى الرؤيا أخبر أن موارد القوة والقدرة كانت تنقص زربّابل ومعاونيه لبناء بيت الرب ولكن مدد الزيت سيأتى من عند الرب ليتم البناء. والزيتونتان ترمزان إلى زربابل وزكريا. والعمل سيجرى على قدم وساق تحت مراقبة الرب وعنايته وسيتم إنجاز المهمة بفرح.

٦ – الرؤيا السادسة :

وفيها رأى زكريا فيما يرى النائم دَرَجًا (أى كتابا) ضخما طوله ٢٠ ذراعا وعرضه عشرة أذرع طائرا فى الهواء وهو مفتوح. مما يعنى أن الرسالة التى فيه سيتيسّر للجميع أن يراها ومضمونها التمسك بالشريعة والتنديد بخطيّتين كانتا متفشيتين فى يهوذا فى ذلك الوقت: السرقة وشهادة الزور. وأن اللعنة ستلحق مرتكبيها ومرتكبى باقى الخطايا المذكورة فى الشريعة.

«فتدخل اللعنة بيت السارق وبيت الحالف باسمى زورا وتبيت فى وسط بيته وتفنيه مع خشبه وحجارته».

٧ - الرؤيا السابعة :

رأى زكريا إيفة (مثل زلعة كبيرة سعتها ٣٢,٥ لترا كانت تستعمل قديما كمكيال) وفوهتها مسدودة بغطاء من الرصاص. ولما رفع الغطاء ظهرت امرأة جالسة داخلها (وهى ترمز إلى الشر) ثم خرج من الزلعة امرأتان لهما أجنحة وطارتا وأخذتا معهما الإيفة (الزلعة). وسأل زكريا عن وجهتهما فأجيب بأنهما طارتا إلى أرض بابل لتبنيا لهما بيتا هناك وتستقران فيه. ويرى بعض المفسرين أن روح الشر ستُطرد من داخل إسرائيل إلى البلدان المجاورة بينما يرى آخرون أن المعنى أن اليهود سيتم تشتيتهم إلى بابل بيد الرومان.

٨ - الرؤيا الثامنة :

وفيها رأى زكريا أربع مركبات خارجات من بين جبلين. والجبلان من نحاس (وهما يرمزان إلى جبل الموريا وجبل صهيون وتقع أورشليم بينهما). وبيّن له ملاك الرب أن هذه المركبات الأربع هى رياح السماء الأربع خارجة من قِبَل الرب كخدام لتنفيذ مشيئته وأوامره. وكانت الجياد ذات ألوان مختلفة: الأولى حمراء والثانية سوداء والثالثة بيضاء والرابعة مُرقَّطة شقراء. وقد خرجت المركبة التى تجرها الجياد السود فى اتجاه الشمال. وتبعتها مركبة الخيول البيضاء. ويرى المفسرون أن فارس وبابل هما أرض الشمال وأن الجياد الحمر هى فارس التى كبحت جماح الكلدانيين. أما العربة ذات الجياد المرقطة فخرجت فى اتجاه الجنوب. وهو اتجاه مصر وبلاد العرب وهى ترمز إلى أن حياة اليهود فى هذين البلدين ستكون أفضل من الحياة فى بابل ولكنها لا تُغنى عن العودة إلى أرض الوطن. أما الخيل البيض فقد خرجت لتتمشى فى الأرض وهو رمز للسلام الذى سيعم الأرض بعودة أورشليم لسابق مجدها.

التتويج الرمزى ليهوشع :

بعد انتهاء سلسلة الرؤى السابقة أمر الله النبى زكريا أن يقوم بعمل رمزى توكيداً لمضمون الرؤى. فأمره الرب أن يجتمع برؤساء أهل السبى العائدين ويأخذ منهم الفضة والذهب التى أرسلها اليهود الذين مازالوا فى أرض الغربة لإعادة بناء الهيكل وأن يصنع منها تاجا يضعه على رأس يهوشع باعتباره الكاهن الأعظم. وأنه عند إتمام عمله الكهنوتى سينال مكافأة عظيمة من الرب. وبعد إتمام هذا التتويج صدر الأمر بإحياء ذكرى هذه الحادثة باستمرار كل عام من قِبَل شهودها وبإيداع التاج فى الهيكل تذكارا. كما يرى المفسِّرون المسيحيون فى هذا العمل وعداً إلهيا بمجىء الذى يجمع وقار الكهنوت وجلاله وهو المسيح عليه السلام.

وفد بيت إيل :

كان اليهود فى المنفى قد فرضوا على أنفسهم صوم الشهر الخامس من السنة وهو الشهر الذى سقطت فيه أورشليم وخُرِّب الهيكل. وبعد سنتين من العودة جاءوا إلى زكريا يسألونه إن كان من الجائز إبطال هذا الصوم الآن. وكان الجواب أن صومهم هذا الشهر فى السبى لم يكن خالصا لوجه الله ولذلك لم يكن مقبولا عند الرب. وهذا يعنى أن صيامهم هذا الشهر ليس بلازم ولا ثواب عليه فأبطلوه. ثم أوحى إلى زكريا أن يُشجِّع على بناء الهيكل وبعد تمامه. يجعلون أيام الصيام هذه أيام عيد.

النبوءات الأخيرة :

– ثم أوحى إلى زكريا بقرب عقاب الأمم التى أساءت إلى اليهود مثل أرام وصور وأن الفلسطينيين سيتم اندماجهم مع اليهود.

– ثم أوحيت له نبوءة عن خراب أورشليم على أيدى جيوش الرومان.

– ثم نبوءة بمقدم المسيح كمخلِّص لليهود من خطاياهم.

بنـــاء المعبــد

قلنا إن الفوج العائد من بابل برئاسة زربابل قام فى الشهر السابع بعد العودة بإقامة مذبح لتقديم التقدمات المطلوبة. وفى العام الثانى وُضع أساس المعبد ولكن العمل توقف بعد ذلك لمدة ١٧ عاما. وكافح حجّى النبى روح الحزن والتشاؤم لدى المسنين من اليهود الذين عاصروا المعبد القديم وما ناله من تدمير منذ ٦٧ عاما. ويرى د. نجيب ميخائيل إبراهيم (الشرق الأدنى القديم. جـ٥ ص ٣١٣) أن ما حفز النبيين حجّى وزكريا إلى الحث بالإسراع فى بناء المعبد والهيكل هو ما لمساه من اضطراب داخلى بدأت تظهر بوادره فى الامبراطورية الفارسية جعلهما لا يطمئنان إلى من يعقب دارا. وتقول التوراة (حجّى ٢: ٢٠) «وصارت كلمة الرب ثانية إلى حجّى فى الرابع والعشرين من الشهر قائلا. كلِّم زربابل والى يهوذا قائلا إنى أزلزل السموات والأرض وأقلب كرسى الممالك وأبيد قوة ممالك الأمم وأقلب المركبات والراكبين فيها وينحط الخيل وراكبوها كل منهما بسيف أخيه». ثم كانت الفقرة التالية تقول: «فى ذلك اليوم. يقول رب الجنود. آخذك يازربابل عبدى وأجعلك كخاتم لأنى قد اخترتك. يقول رب الجنود». وفى هذه الفقرة وعد جميل لزربابل «كخاتم». وقد كان خاتم التوقيع يعنى العزة ورمزا للسلطة وهو وعد بإعادة زربابل إلى العرش باعتباره من سلالة داود عليه السلام. ولعل هذا الوعد لزربابل قد أقلق السلطات الفارسية إذ معناه انسلاخ فلسطين عن سلطانها. ويرى المؤرخون أن زربابل اختفى فجأة بعد هذه النبوءة لأن السلطات الفارسية كانت لا تمانع فى بناء العبد أما إقامة عرش جديد فأمر

يستوجب المقاومة. ومن المحتمل أنهم دبّروا اغتيال زربابل بوسيلة ما. وقام حاكم سوريا الفارسى بزيارة أورشليم ليقدم تقريرا عن المبنى الجديد وأطلع داريوس على ما تم فيه فعزّز الأمر السابق ببناء المعبد وأمر بالإسهام فى نفقات البناء واكتمل بناء المعبد فى عام ٥١٦ ق.م. وتم إحياء عيد الفصح به بعد ذلك مباشرة.

تقول التوراة (عزرا ٦:١): «حينئذ أمر داريوس الملك ففتّشوا فى مكتبة القصر فوجدوا الكتاب الذى كان قد أصدره كيروش بالإذن ببناء المعبد هذا نصه: فى السنة الأولى لكورش الملك. أمْر كورش الملك من جهة بيت الله فى أورشليم: لِيُبْنَ البيت المكان الذى يذبحون به ذبائح ولْتوضع أسسه. ارتفاعه ٦٠ ذراعا وعرضه ٦٠ ذراعا بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصف من خشب جديد. ولْتُعط النفقة من بيت الملك. وأيضا آنية بيت الله التى من ذهب وفضة التى أخرجها نبوخذنصر من الهيكل الذى فى أورشليم وأتى بها إلى بابل فلتُردّ وترجع إلى الهيكل الذى فى أورشليم إلى مكانها وتوضع فى بيت الله». كذلك أمر داريوس واليه وعُمّاله بعدم المعارضة فى بناء البيت فأصدر مرسوما يقول: «اتركوا عمل بيت الله هذا. أما والى اليهود وشيوخ اليهود فليبنوا بيت الله فى مكانه. وقد صدر منى أمر بما تعملون مع شيوخ اليهود هؤلاء فى بناء بيت الله هذا. فمن مال الملك من جزية عبر النهر تُعطَ النفقة عاجلا لهؤلاء الرجال حتى لا يتوقفوا. وما يحتاجون إليه من الثيران والكباش والخراف محرقة لإله السماء وحنطة وملح وخمر وزيت حسب قول الكهنة الذين فى أورشليم لِتُعطَ لهم يوما بيوم حتى لا يتوقفوا عن تقريب ذبائح لإله السماء والصلاة لأجل حياة الملك وبنيه. وقد صدر منى أمر أن كل إنسان يُغيِّر هذا الكلام تسحب خشبة من بيته ويُعلَّق مصلوبا عليها. والله الذى أسكَنَ اسمَه هناك يُهلك كل ملك وشعب يمد يده لتغيير أو لهدم بيت الله هذا الذى فى أورشليم. أنا داريوس قد أمرت. فليُفعل عاجلاً». حينئذ أخذ أعوان الملك الخطاب إلى أورشليم وبدأ اليهود فى بناء البيت وكمل البناء فى ٣ آذار من السنة السادسة من مُلك راديوس (أى سنة ٥١٦ ق.م.).

الهيكل الثانى أو هيكل زربابل :

لا توجد فى التوراة تفاصيل كثيرة عن هذا الهيكل تعين على وضع تصوُّر لما كان عليه فى ذلك الوقت. وعلى العموم فقد كان – كما تخيله الرسامون (شكل ٧٩) – أكبر من هيكل سليمان عليه السلام بمقدار الثلث تقريبا ولكنه أقل فخامة. كما أن قدس الأقداس كان خاليا لأن التابوت كان قد فُقِد. وقد بقى هذا الهيكل قائما مدة خمسة قرون إلى أن جدّده هيرودس عام ٢٠ ق.م. فصار يعرف باسم « **هيكل هيرودس** » وقد وُسعت مساحته فأصبحت ضِعف ما كان عليه قبلا وأصبح ارتفاعه ١,٥ مرة ارتفاع معبد سليمان وسيأتى تفصيل ذلك فى الجزء السادس إن شاء الله.

غرب

الهيكل

البوابة الجنوبية

القدس

مذبح المحرقة

الرواق

البوابة الشمالية

جنوب

الباب الجنوبي

الباب الشمالي

شمال

الباب الشرقي

الساحة الخارجية

السور الخارجي

البوابة الرئيسية

شرق

شكل ٧٩ – تصوُّر لما كان عليه «الهيكل الثاني».

ويرى أونجر (قاموس الكتاب المقدس . ص ١٢٦١) أن هيكل زربابل كان سوره الخارجي يحيط بمساحة كبيرة ١٦٥ مترا طولا × ٤٥ مترا عرضا . أما الهيكل نفسه فكانت أبعاده ٤٥×٢٧ مترا . ومن خارج يوجد رواق أو شرفة مرتفعة بها حجرات وفي الوسط يوجد المسكن ذاته. وكان مذبح المحرقة مربعا ٩ مترا × ٩ مترا والمغسلة (المرحضة) مستديرة. وكانا موضوعين في الفناء الخارجي.

وتقول التوراة (عزرا ٣ : ١٠): «ولما أسس البناءون هيكل الرب أقاموا الكهنة بملابسهم بأبواق واللاويين بالصنوج لتسبيح الرب وغنوا بالتسبيح والحمد للرب لأن إلى الأبد رحمته على إسرائيل. وكل الشعب هتفوا هتافا عظيما بالتسبيح للرب لأجل تأسيس بيت الرب. وكثيرون من الكهنة واللاويين ورؤساء الآباء الشيوخ الذين رأوا البيت الأول بكوا بصوت عظيم عند تأسيس هذا البيت أمام أعينهم وكثيرون كانوا يرفعون أصواتهم بالهتاف بفرح».

الفصل التاسع عشر

التغلغل اليهودى فى فارس

قبل أن نشرح كيف نجح اليهود فى الوصول إلى مركز صنع القرار فى فارس وهو القصر الملكى – بحيث أصبح «مردخاى» اليهودى المستشار الأول للملك الفارسى وأصبحت ابنة عمه «أستير» هى ملكة فارس – علينا أن نلم إلمامة سريعة بتاريخ الفرس لنرى مهارة اليهود الفائقة فى استغلال الظروف لصالحهم.

ذكرنا سابقا (ص ٤٠٩) أن تاريخ الفرس يبدأ بـ «كورش الأول = كيروش = قورش» الذى كان حاكما لإقليم إنشان فى جنوب شرق إيران ثم ضم إليه إقليم فارس المجاور له غربا. ثم استطاع أن يضم إلى مُلكِه سلميا مملكة مادى فى شمال إيران وكوَّن من الجميع مملكة قوية هى «مملكة فارس» . وتوفى كيروش الأول عام ٦٠٠ ق.م.

تولى قمبيز **الأول** الحكم فى فارس بعد وفاة والده كورش. وكان نبوخذنصر ملك بابل وخلفه أبل مردوك معاصرين له.

بعد وفاة قمبيز الأول تولى الحكم فى فارس «**كيروش الثانى**» أو «قورش العظيم» الذى انتصر على ليديا واستولى على كل آسيا الصغرى وأصبح الصدام بين فارس وبابل حتميا. وقد حدثت مناوشات متفرقة بين القوتين ولعلها كانت لجس النبض – ولكن الحوليات البابلية تذكر معركة كبيرة دارت فى «أوپيس Opis » شرقى نهر دجلة للاستيلاء على مقاطعة عيلام وانهزم نبونيد ملك بابل . ولم يبق أمام كيروش إلا الاستيلاء على بابل نفسها. وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٠٤ ، ٤١١) وليمة بيلشاصر ونهاية بابل بدخول قورش العظيم بابل فى ذات ليلة الوليمة عام ٥٣٩ ق.م. وذكرنا (ص ٤١٤) كيف سمح كيروش بعودة الفوج الأول من يهود السبى إلى أورشليم يقودهم زربابل ومعه يهوشع كاهنا أكبر وسمح ببناء المعبد وكيف وُضِع الأساس ثم توقف البناء لمدة ١٧ سنة. وكان كيروش يحلم بفتح مصر ولكنه انشغل بتأمين حدوده الشرقية ولقى حتفه عام ٥٢٩ ق.م. فى إحدى الغزوات وخلفه ابنه قمبيز الثانى.

قمبيز الثانى وفتح مصر :

بعد تولِّيه الحكم مباشرة بدأ قمبيز الثانى يعد العدة **لفتح مصر**. وكانت مصر تابعة لبابل منذ قيام نبوخذنصر بغزوها عام ٥٦٨ ق.م. وأصبح أمازيس حاكما تابعا لبابل إلا أن «عحموزة سانيت» ويسمى أيضا «أحمس» استطاع فى عام ٥٥٠ ق.م. أن يحرر مصر من التبعية لبابل

وخلفه بسمتيك الثالث عام ٥٢٥ ق.م. ولم يحكم إلا بضعة شهور. كان الجيش المصرى قد أضعفه التنافس بين الجنود المصريين والجنود المرتزقة. وساعدت الظروف قمبيز فى فتح مصر إذ يقول المؤرخون إن أحد قواد فرقة من جيش مصر كان من المرتزقة الإغريق وانحاز بجنده الإغريق إلى جيش قمبيز. كذلك كان بدو الصحراء يدلُّون الجيش الغازى على الدروب عبر التلال والوديان وعلى عيون الماء الموجودة فيها. كما أن اليهود الذين فروا إلى مصر حينما استولى نبوخذ نصر على أورشليم (ص ٣٧٣) كانوا يعتبرون «كيروش العظيم» - والد قمبيز - مسيحهم المنتظر - بعد أن سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين وبدأوا فى بناء المعبد - فلاشك أنهم قدَّموا مساعدات مستترة لقمبيز. ودارت معركة عنيفة على حدود مصر الشمالية الشرقية عند بلوزيوم (الفرما) عام ٥٢٥ ق.م. وكانت معركة ضارية كما وصفها هيرودوت بعد أن رأى آثارها عند زيارته لمصر. وانهزم الجيش المصرى وتراجع إلى العاصمة منف. ولكنها سقطت هى الأخرى وأُسِر بسمتيك الثالث. ويبدو أن قمبيز أطلق سراحه بشرط ألا يثير المتاعب. ولكن بسمتيك قام بمحاولة لاسترداد عرشه ولما فشلت انتحر وخضعت مصر تماما للفرس وأصبح اتساع الامبراطورية الفارسية كما فى شكل ٨٠.

وفى أول فترة من الاحتلال تعرضت مصر - كما يحدث دائما لأى بلد مغلوب - للتخريب والنهب والغرامات ونهب ثروات المعابد وتدمير بعضها. ثم هدأت هذه الموجة وبدأ قمبيز يفكر فى جعل مصر نقطة للوثوب إلى ما بعدها غربا. فأرسل حملة لغزو **قرطاجنة** ذات الشهرة التجارية (تونس حاليا). ولم يكن له أسطول ليحكم الحصار والغزو من ناحية البحر أيضا. وفشل فى الحصول على معاونة من الأسطول الفينيقى لما لقرطاجنة من أصول فينيقية. فلم يفلح فى حملته. فأرسل حملة ثانية لاحتلال **واحة سيوة** وهى أحد المراكز الكبرى لعبادة الإله آمون. ولعله كان يرمى إلى التقدم بعد ذلك لغزو قرطاجنة من ناحية الجنوب بعيدا عن الطريق الساحلى قوى الاستحكامات. ولكن العواصف الرملية أهلكت الجيش بأكمله. وقاد حملة ثالثة فى الجنوب إلى نباتا طمعا فى ذهب **النوبة** وليفتح بها طريقا إلى السودان ولكن الحملة فشلت لقلة الزاد وحرارة الجو ووعورة الطريق ومقاومة النوبيين. ورأى المصريون فى فشل الحملات الثلاث انتقاما من آلهتهم لما أصاب المعابد من دمار على أيدى الفرس. ويروى هيرودوت (جـ ٣ ص ١٣) أن قمبيز لما رجع إلى مصر بعد فشل حملة النوبة وجد أهلها يحتفلون بمولد عجل أبيس جديد. فظنَّ الاحتفال شماتة فى فشله. وحمله الغضب على قتل عدد من كبار المصريين وطعن العجل أبيس فى فخذه بخنجره. ثم سمع بنبأ مؤامرة فى فارس للاستيلاء على عرشه فأسرع عائدا إلى بلاده بعد أن أمضى بمصر ٣ سنوات. وفى أثناء سفره فى سوريا حدث أن أصيب بجرح عارض من سلاحه فى فخذه فى موضع مماثل للموضع الذى طعن فيه عجل أبيس المقدس ومات متأثرا بتسمم جرحه قبل أن يصل إلى «سوسة» العاصمة فخلفه فى الحال «دارا الميدى» عام ٥٢١ ق.م. وهو ابن أحد كبار مستشارى كيروش والده.

البحر الأسود
بحر قزوين
البحر المتوسط
١ - إلى قرطاجنة
٢ - إلى سيوة
٣ - إلى النوبة

شكل ٨٠ - امبراطورية فارس فى أواخر عهد قمبيز (عام ٥٢٢ ق.م.)،
وحملات قمبيز الثلاث :

دارا الأول أو الملك العظيم Darius I :

فور توليه الحكم (٥٢١ ق.م.) عمل دارا أو داريوس على توسيع امبراطوريته فأصبحت أعظم من الامبراطوريات السابقة (شكل ٨١) إذ ضم إليه كل آسيا الصغرى وكل الدول التى كانت تابعة لبابل مثل سوريا وفلسطين والساحل الفينيقي. وأكَّد سلطانه في مصر والنوبة وتوسع شمالا في بلاد القوقاز وإقليم قزوين واتجه شرقا فاستولى على أجزاء من شمال غرب الهند حيث منبع نهر السند. وأقام على كل هذه البلاد حكاما إقليميين وفرض عليها الجزية. ومهَّد الطرق التي تصل الولايات بعضها ببعض ورتب نظاما للبريد. وفى مصر قام بحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر حتى تستطيع سفنه الإبحار من فارس إلى البحر المتوسط. وفيما عدا دفع الجزية فإن الحكومات المحلية كانت تتمتَّع بقدر كبير من الحرية. ثم قرر دارا أن الوقت قد حان لغزو بلاد اليونان حيث أنها الوحيدة فى العالم القديم – وما وراءها من جنوب أوربا – التى لم تخضع له.

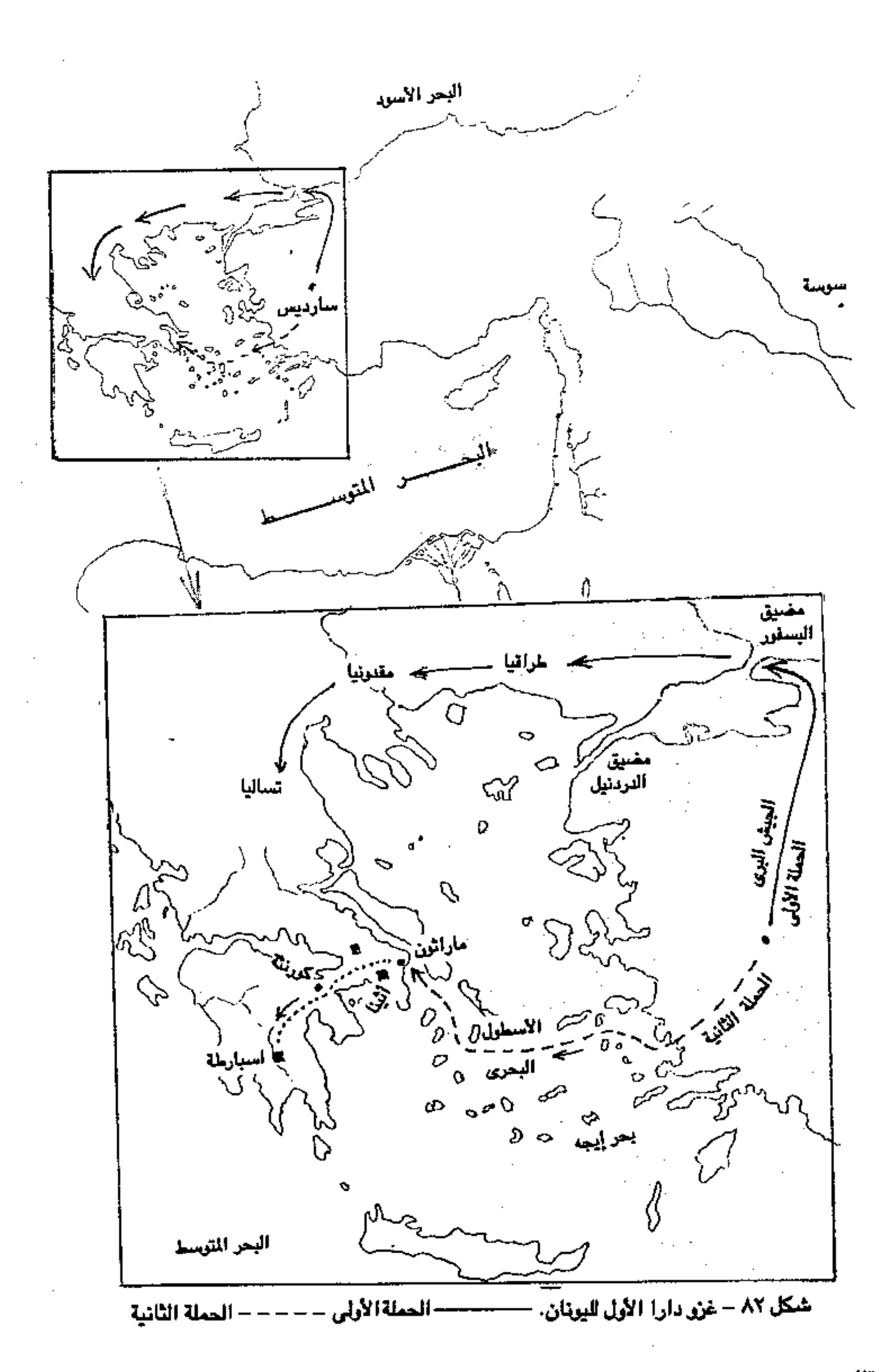
غزو اليونان :

قام دارا الأول عام ٤٩٢ ق.م. **بأول هجوم** له على بلاد اليونان (شكل ٨٢) فزحف نحو طراقيا ومقدونيا عبر مضيق البسفور. لكن أسطوله الذى دعم به حملته البرية تحطَّم لعدم دراية بحَّارته بالممرات البحرية بين آلاف الجزر المنتشرة فى بحر إيجه. فلم يتمكن من مهاجمة اليونان نفسها وعاد إلى بلاده ليجهز لحملة أخرى. وبعد سنتين أى عام ٤٩٠ ق.م. قام **بالحملة الثانية** وكانت حملة بحرية فى أساسها إذ هجم بأسطول زُوِّد بأماكن للخيل والمشاة. ونزلت هذه الحملة العسكرية على الساحل الشرقى لليونان قرب بلدة «**ماراثون**» التى تقع حوالى ٢٠كم شرقى أثينا. وتمكَّن عدَّاءٌ أن ينطلق من أثينا إلى اسبرطة لطلب المعونة وقطع المسافة وهى قرابة ١٠٠ ميل أى ١٧٠ كيلو مترا فى ٤٨ ساعة ومن هنا جاء اسم «**سباق الماراثون**» الشهير. على أنه قبل وصول المعونة من اسبرطة كان الفريقان قد التحما وأنزل الأثينيون بالفرس هزيمة ساحقة إذ فقد الفرس ٦٤٠٠ جنديا مقابل ٢٠٠ فقط من الإغريق. وحضر الاسبرطيون وشاهدوا جثث الفرس فى ساحة المعركة فأثنوا على الأثينيين وعادوا إلى بلادهم. وبعد هذه الهزيمة المرة ترامت الأنباء إلى دارا بنشوب ثورة فى مصر ضد الحكم الفارسى فعاد إلى سوسة العاصمة ليجهِّز جيشا ضد مصر ولكنه توفى قبل أن يحقق ذلك وخلفه ابنه إكزركسيس الأول.

إكزركسيس الأول Xerxes I

خلف والده دارا على عرش فارس عام ٤٨٦ ق.م. وأول ما فعل هو أن أخضع الثورة التى

شكل ٨١ – أقصى توسع للإمبراطورية الفارسية فى عهد داريوس (عام ٤٩٠ ق.م).



شكل ٨٢ – غزو دارا الأول لليونان. ——— الحملة الأولى - - - - الحملة الثانية

قامت فى مصر . ولما تم له ذلك عيَّن عليها واليا فارسيا وعاد إلى بلاده واستمر ٤ سنوات يعد العدة للهجوم على بلاد الإغريق. وبعد أن تجهَّز الجيش أولم الملك وليمة للشعب ليشهد الاستعدادات التى عملت للحملة ليكون راضيا عنها وعمًّا دفع من ضرائب لتجهيزها . وهذا يشبه الاستعراضات العسكرية التى تُعمل فى أيامنا هذه وتعرض فيها مختلف وحدات الجيش أنواع الأسلحة الحديثة التى تسلَّحت بها حتى يشعر المواطن أن ما دفعه من ضرائب يعود عليه فى صورة أمن للوطن وأمن للمواطنين. واستمرت الاحتفالات فى سوسة عاصمة الفرس سبعة أيام وكان الجميع يشرب الخمر مجانا وبلا حساب.

غضب إكزركسيس على الملكة «وشتى» :

تقول التوراة (أستير ١ : ١٠) «ولما طاب قلب الملك بالخمر أمر الخصيان السبعة المشرفين على قصر الحريم بأن يأتوا بالملكة «وشتى» («وشتى» اسم فارسى معناه بالفارسية القديمة «محبوبة» وبالفارسية الحديثة «جميلة» أو «بديعة» – قاموس الكتاب المقدس. ص ١٠٢٨) أمام الملك وضيوفه ليرى الشعب والرؤساء جمالها لأنها كانت حسنة المنظر. فأبت الملكة وشتى أن تأتى حسب أمر الملك فاغتاظ الملك جدا واشتعل غضبه فيه».

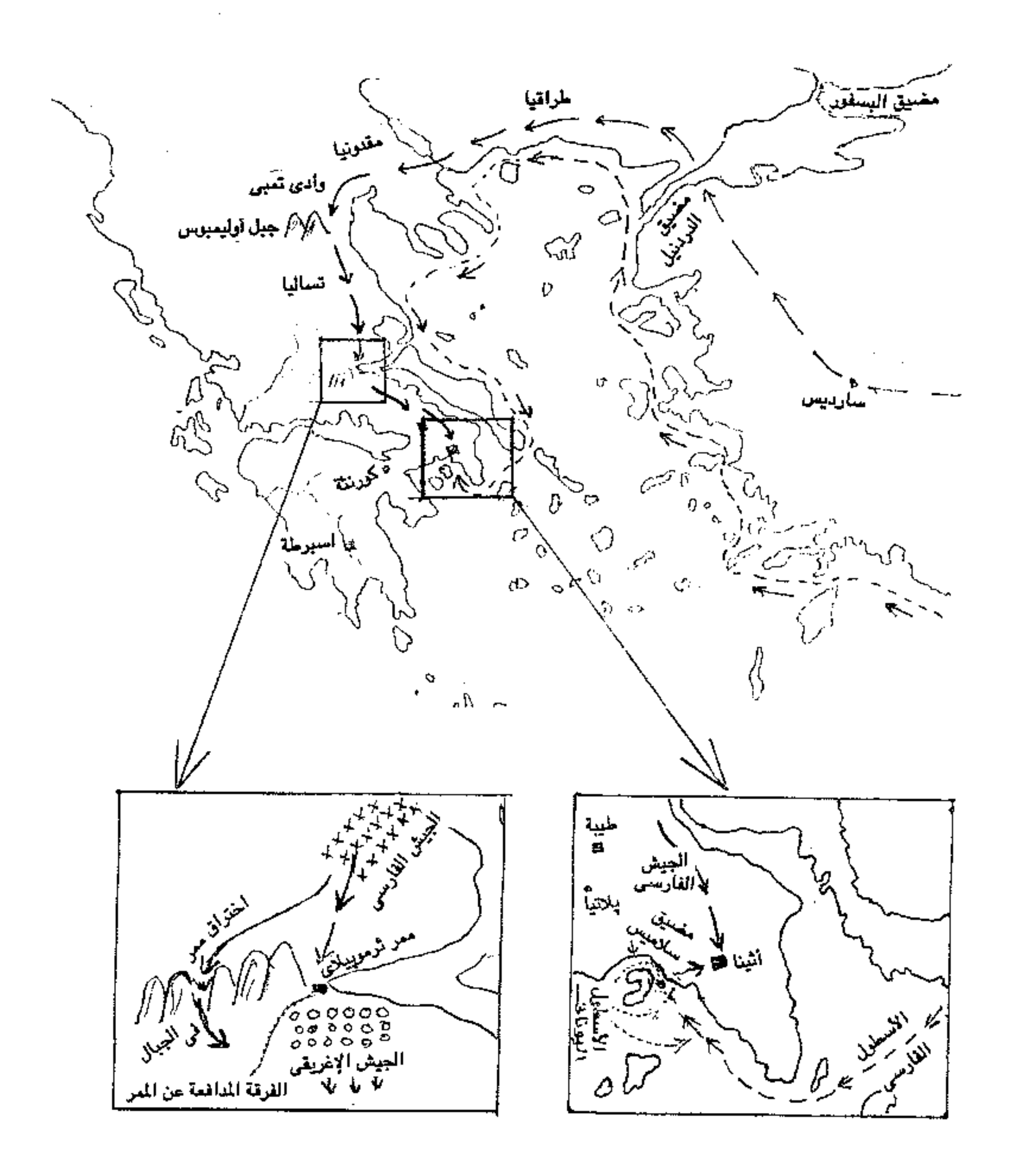
وكانت العادة الفارسية أن تحضر الزوجات فى ولائم الشرب التى يقيمونها . فكان رفض «وشتى» الحضور إهانة للملك. وكان فى فارس ٧ عائلات عريقة كان رؤساؤها هم المشيرون الأول للملك وكانت العادة أن يختار الملك – أو ولى العهد – زوجته – والتى ستصبح ملكة البلاد – من بين فتيات هذه العائلات السبع . ولم تكن «وشتى» من بين هذه العائلات السبع لأنه تزوجها – كما تقول التوراة – ٣ سنوات قبل أن يصبح ملكا . ولعله أيضا لم يكن وقتذاك وليا للعهد. المهم أن رفض وشتى الحضور كان فرصة للمشيرين لإزاحتها علَّ أحدهم يصبح صهرا للملك عند اختيار ملكة جديدة. لذلك اتحدوا جميعا ضد «وشتى» وحرَّضوا الملك عليها «فقال أحدهم: ليس إلى الملك وحده أذنبت وشتى الملكة بل إلى جميع الرؤساء وجميع الشعوب الذين فى كل بلدان الملك لأنه سوف يبلغ خبر ما فعلته الملكة إلى جميع النساء حتى يُحتقر أزواجهن فى أعينهن عندما يقال إن الملك إكزركسيس أمر بأن يؤتى بوشتى أمامه فلم تأت. ومثل ذلك احتقار وغضب. فإذا حَسُنَ عند الملك فليخرج أمرٌ ملكى من عنده أن لا تأتى وشتى إلى أمام الملك وليعط الملك مُلكها لمن هى أحسن منها . فيُسمع أمر الملك الذى يخرجه فى كل مملكته فتعطى جميع النساء الوقار لأزواجهن من الكبير إلى الصغير». أى أنهم صوَّروا له الأمر كأن رفض وشتى أمر الملك بالحضور أمامه وأمام ضيوفه هو دعوة لكل النساء للتطاول على أزواجهن إذا لم يؤخذ إجراء حازم فى هذا الأمر. فأمر الملك بعزل «وشتى». وحتى لا يعود الملك فى أمره حرَّضوه على أن يكون عزلها (أى طلاقها) بأمر ملكى يُسجَّل فى السجلات الملكية الأمر الذى يجعله غير قابل للتغيير أو فعل ما يتعارض معه. «وأرسل كتبا إلى كل بلدان الملك إلى كل بلاد حسب لغتها وإلى كل شعب حسب لسانه ليكون كل رجل متسلط فى بيته».

حملة إكزركسيس الأول فى اليونان :

قد يظن البعض أن هذه تفاصيل تاريخية كان يجمل التجاوز عنها. ولكن القارىء سيدرك الارتباط الوثيق بين نتائج هذه الحملة ومستقبل اليهود فى بلاد فارس وكيف استغل اليهود الموقف لصالحهم كما سيأتى تفصيله فيما بعد.

كان الجيش قد تجهّز. وكان جيشا عظيما كما وصفه هيرودوت إذ يقول: «فأى شعب لم يخرج به إكزركسيس من آسيا على اليونان؟ وأى ماء لم ينضب حين ينهال عليه جيشه شربا اللهم إلا الأنهار العظيمة دون سواها! لقد كان بعض هذه الشعوب يزوده بالسفن. كما كان بعضها مكلّفا بالخدمة فى الجيش البرى، وكان على بعضها أن يقدم سفنا تحمل الخيل، وأَمَر آخرين بتقديم سفن حربية للجسور، وأمر آخرين بتقديم سفن محملة بالمؤن. وكثيرون أُمِروا بالاشتغال فى الحملة نفسها. ويرى هيرودوت أن الجيش كان يتألف من ١,٧٠٠,٠٠٠ جنديا. لكن كثيرا من المؤرخين يفضلون حذف صفر من اليمين. وحتى بعد هذا فإن جيشا من ١٧٠,٠٠٠ جنديا – فى ذلك الوقت – لهو جيش ضخم جدا.

كانت الحملة (شكل ٨٣) برية وبحرية. فسار بجيشه إلى الدردنيل فى حين أن مضيق البسفور أقل اتساعًا وأسهل فى عبوره ولكن إكزركسيس اختار **مضيق الدردنيل** لأن العدو لا يتوقع العبور عنده ولذلك فإن دفاعاته أقل تحصينا. وليتمكن هذا الجيش الكبير من عبور المضيق أمر الملك بإقامة جسرين أحدهما مؤلف من ٣٦٠ سفينة مشدودة بعضها إلى بعض والثانى من ٣١٤ سفينة وقد وضعت مراسيها على نحو بارع لكى تقاوم الرياح وتيارات المياه ومُدّت فوقها العوارض الخشبية. واستطاع الجيش والخيل العبور إلى الضفة الأخرى. وكان الأسطول يسير بحذاء الساحل من رأس إلى رأس إلا أن عاصفة هوجاء أغرقت ٤٠٠ سفينة بينها الكثير من حاملات المؤن. فعاقب إكزركسيس البحر بجلد مياهه ٣٠٠ جلدة وبإلقاء زوج من الأغلال فيه واستمر فى سيره. وكان الإغريق قد توحّدوا فى جيش واحد وينتظرون فى وادى تمبى شمال جبل أوليمبوس. ولكنهم بعد ذلك قرروا التراجع إلى ما وراء سهل تساليا حيث توجد هناك هضبة مرتفعة لا تترك إلا ممرا ضيقا بينها وبين الشاطىء لا يتسع إلا لمركبة واحدة ويسمى **ممر ثرموبلاى** Thermopylae. وسقط **سهل تساليا** فى أيدى الفرس بدون أى مقاومة. إلا أن الإغريق المتحكمين فى الممر استطاعوا مجابهة جيش الفرس وتعويقه ٣ أيام كاملة وأنزلوا به خسائر فادحة. ولكن أحد رجال الجبال الخونة دلّ الجيش الفارسى على طريق فوق الجبل عبرته كتيبة فارسية فأصبحوا فى مؤخرة جيش الإغريق. وهنا تجلت شجاعة فرقة مكونة من ٣٠٠ من الاسبرطيين و ٧٠٠ من التسبيين و ٤٠٠ من الطيبيين تمكنوا من تعويق تقدم الجيش الفارسى ليوم كامل تمكن فيه جيش الإغريق من التقهقر بكامل سلاحه. وأبدى أفراد هذه الفرقة ضروبا خارقة من الشجاعة إذ كان الفرس يهاجمونهم من الأمام ومن الخلف ولكنهم



شكل ٨٣ – حملة إكزركسيس في بلاد اليونان.

ظلوا متشبثين بالممر يعوقون تقدم الجزء الأكبر من جيش الفرس حتى أبيدوا عن آخرهم. عندئذ أخذت مركبات وفرسان الجيش الفارسى فى التقدم ببطء عبر الممر متقدمة نحو أثينا. وفى نفس الوقت كانت تدور فى البحر معركة بحرية. وبالرغم مما أصاب الأسطول الفارسى من خسائر نتيجة جهل بحارته بالصخور البحرية المنتشرة فى الخلجان اليونانية إلا أن كثرة عدد سفنه أجبرت الأسطول اليونانى على التراجع. وتقدم الأسطول الفارسى فى مضيق **سلاميس** صوب أثينا ليطبق عليها من البحر بينما يتجه نحوها الجيش ليطبق عليها من البر. ولجأ الإغريق إلى أسلوب التصادم. فكانت سفنهم تعمد إلى الاصطدام بالسفن الفارسية بكل قوة فتثقبها وتغرقها أو تكسر المجاديف فى إحدى جوانبها فتصبح السفينة بعد ذلك فريسه سهلة لا تقوى على المناورة أو الهرب. وحوصر الأسطول الفارسى واصطكّت سفنه بعضها ببعض مما زاد الخسائر. وكانت الريح تدفع السفن فتصطدم بالصخور لجهل بحارتها بجغرافية المنطقة. كان إكزركسيس يقف فوق جبل عالٍ يشرف على الخليج ليتابع المعركة ورأى سفن أسطوله بين غارقة أو هاربة. بينما الأسطول الإغريقى يتماسك ويقوم بالهجمة تلو الهجمة. واستطاع ما تبقى من الأسطول الفارسى التراجع إلى تساليا. وتراجع الجيش البرى أيضا إذ لم يجد المساعدة المتوقعة من الأسطول والذى كان مفروضا أن جنوده ستطبق على أثينا من الجنوب. وخشى إكزركسيس أن يلجأ الإغريق إلى تدمير جسر القوارب المقام عبر مضيق الدردنيل فترك معظم جيشه فى تساليا يقوده أحد الضباط وأسرع هو إلى الدردنيل. وكانت الرياح قد أطاحت بجزء كبير من الجسر فحملته السفن هو ومن معه من الجنود إلى البر الشرقى ثم تابع سيره إلى سارديس. وظل الجزء الأكبر من الجيش فى تساليا سنة كاملة يدافع عن نفسه ويساندهم ماتبقى من الأسطول. ثم دارت معركة كبيرة هُزِم فيها الفرس شر هزيمة وتراجعوا محاولين عبور المضيق سباحة أو على ظهر السفن. وعاد من نجحوا فى عبور المضيق إلى ساريس فى آسيا الصغرى ثم إلى سوسة العاصمة وانتهت الحملة بالفشل الذريع إذ لم يضم أى أرض جديدة. بل وتحررت المدن الإغريقية الموجودة على الساحل الغربى لآسيا الصغرى. ومما يعتبر تعزية للفرس هو أن الإغريق حاولوا الاستيلاء على قبرص فلم يفلحوا. كما أنهم ساندوا ثورة شبت فى مصر ضد الحكم الفارسى ولكنهم فشلوا أيضا. واستمرت قبرص ومصر تحت الحكم الفارسى.

اليهود يستغلون الظروف لصالحهم

عاد إكزركسيس إلى عاصمة مُلكه وكان عنده مشكلتان :

١ - **فراغ عاطفى** . إذ هو قد طلَّق الملكة «وشتى» قبل البدء فى حملة اليونان وقد انتهت هذه المشكلة بأن أصبحت أستير اليهودية ملكة لفارس.

٢ – **خواء الخزانة من النقود** : بسبب تكاليف هذه الحملة ونتج عن ذلك أن دبَّر الوزير هامان مؤامرة لإعدام اليهود ومصادرة أموالهم ليسد عجز ميزانية الدولة ولكنهم ردُّوا كيده وتسببوا في إعدامه هو وكل من تآمر عليهم.

١ – أستير Esther :

يبدو أن إكزركسيس بدأ يفكر في إعادة «وشتى» كزوجة وملكة ولكن مستشاريه الذين أفتوا بعزلها خافوا من انتقامها لو عادت. لذلك اقترحوا بأن يأتوا إلى الملك بفتيات عذارى حسناوات من أى مكان في المملكة والتى تنال القبول لديه يتزوجها ويجعلها ملكة بصرف النظر عن عائلتها. وكان في القصر رجل يهودى اسمه «مردخاى Mordecai» من أفراد السبى البابلى وكان في حجره ابنة عم صغيرة تولى تربيتها بعد وفاة والديها واسمها «أستير» وكانت جميلة جدا تأسر قلب كل من ينظر إليها. فأدخلها ضمن الفتيات اللائى سيستعرضهن الملك بعد أن أخفى صلته بها ونبَّه عليها بعدم إعلان جنسيتها اليهودية. ولما أدخلت على الملك أعجب بها جداً وكما تقول التوراة (أستير ١٧:٢): «ووضع تاج المُلك على رأسها وملَّكها مكان «وشتى» وعمل الملك وليمة عظيمة لجميع رؤسائه وعبيده وأعطى الشعب عطلة ووزع العطايا والهدايا».

ولأمر ما غضب الملك على اثنين من حراسه الخصوصيين وخافا انتقام الملك منهما فجلسا يرتبان مؤامرة لقتل الملك وتصادف أن كان مردخاى في حجرة قريبة فسمع بمؤامرتهما دون أن يشعرا فأخبر أستير لتُحذِّر الملك. مما يدبِّران. فأخبرت أستير الملك بالمؤامرة كما أخبرته بأن مردخاى – الموظف في القصر – هو الذى اكتشف المؤامرة. وفحص الملك الأمر وتحقق من صحته وصلب الحارسان جزاءً على خيانتهما وكتب ذلك في سجلات القصر الملكية. وبالطبع زادت مكانة أستير لدى الملك. وكذلك زاد تقديره لمردخاى وخاصة أنه لم يطلب أى مقابل نظير كشف المؤامرة.

٢ – العجز المالى للدولة :

تكبدت الحملة على اليونان أموالا طائلة ولم تأت بغنائم – كما كان مأمولا – تعوِّض ما أنفق عليها فحدث عجز مالى في خزانة الدولة. وهنا تفتق ذهن «هامان» رئيس الوزراء عن وسيلة يسد بها هذا العجز. وكانت الوسيلة هى إعدام جميع اليهود الموجودين في المملكة ومصادرة أموالهم. وكانت كراهية هامان لليهود تنبع من أنه لاحظ نشاطهم في التجارة ومهارتهم في اكتساب ثقة الناس وبالتالى نجاحهم في جمع النقود حتى أصبحوا يملكون الضياع والقصور. سبب آخر. هو أن هامان كان عنده نزعة تعالٍ ففرض على جميع من يعملون في القصر السجود له عند مقابلته. ولكن مردخاى لم يسجد له ولما سُئل أجاب بأنه يهودى ولا يسجد إلا ليهوه إلهه وإله إسرائيل. هنا استشاط هامان غضبا وفكر في الانتقام من جميع اليهود في المملكة فراح

يحرِّض الملك ضدهم ويغريه بأنه يتعهد بأن يقدم له ١٠,٠٠٠ وزنة من الفضة (الوزنة = ٤٥ كيلو جراما) من مصادرة ممتلكات اليهود بعد إبادتهم وهو مبلغ كفيل بإصلاح العجز في الميزانية. وتقول التوراة (أستير ٣:١١) «فنزع الملك خاتمه من يده وأعطاه لهامان عدو اليهود. وقال الملك لهامان: الفضة قد أعطيت لك (لخزانة الدولة) والشعب أيضا لتفعل به ما يحسن في عينيك. فحضر الكُتَّاب وأملى عليهم هامان أوامر إلى الولاة في كل أنحاء المملكة لإهلاك وقتل وإبادة جميع اليهود من الغلام إلى الشيخ والأطفال والنساء في يوم واحد وأن يُسلبوا غنيمتهم». وحُدِّد ذلك اليوم بعد سنة من تاريخ صدور الأمر ليكون مُوحَّدًا في جميع أنحاء المملكة. وكانت الأوامر سرية بلِّغت إلى الولاة وأمروا بإبقائها في طي الكتمان حتى يوم التنفيذ. إلا أن اليهود علموا بها وكانت مناحة عظيمة عند اليهود وصوم وبكاء ونحيب. وأعلن مردخاي الحداد بأن لبس مسحا. ولما علمت أستير بالأمر اغتمَّت غمًّا شديدا وأرسل إليها مردخاي صورة من الأمر وطلب منها أن تبذل قصارى جهدها لدى الملك لإبطاله إنقاذا لليهود. وعملت أستير وليمة عظيمة بمناسبة عيد الفصح. وبالطبع كان الملك على رأس الوليمة ودعت إليها الأمراء وأعيان المملكة وكذلك هامان الذي كان إلى هذه اللحظة يجهل أن أستير يهودية. وظن أن دعوته تكريم له لحسن تدبيره في تصريف الأمور المالية للمملكة.

ولاحظ الملك على أستير مسحة من الحزن فسألها عما بها. وكعادة الملوك قال لها: «ماهو سؤلك فيُعطى لك. وما هي طلبتك. إلى نصف المملكة تُقضى!» فأخبرته أنها تؤجل سؤلها إلى اليوم التالي.

وفي اليوم السابق للوليمة جاء هامان إلى القصر ومرَّ بمردخاي الذي لم يقم له ولا سجد له كما يفعل غيره من موظفي القصر. فعاد هامان إلى بيته وطلب من عبيده أن يعملوا خشبة وأخبرهم أنه سيطلب من الملك أن يُصلب مردخاي عليها. وعلمت أستير بما يدبره هامان لمردخاي وأرادت أن تؤكد للملك إخلاص مردخاي فأمرت بأن يؤتى بسجلات القصر الملكية ولما راجعها الملك وجد مكتوبا فيها المؤامرة التي كان الحارسان قد دبَّراها لقتله وأن مردخاي هو الذي كشف المؤامرة وأنه لم يطلب شيئا مقابل كشف المؤامرة. كما أن رئيس الوزراء لم يكافئه بشيء. عندئذ أدرك الملك تحامل هامان على مردخاي بدون وجه حق وقرر أن يسخر قليلا من هامان وأن يُكرِهه على تكريم مردخاي. وقبل الوليمة استدعى الملك هامان وسأله: ماذا يُعمل لرجل يُسَرُّ الملك بأن يكرمه؟ وظن هامان أن الملك يقصده هو نفسه بهذا السؤال فقال: إنهم يأتون باللباس السلطاني الذي يلبسه الملك وبالفرس الذي يركبه الملك وبتاج الملك الذي يوضع على رأسه فيلبس لباس الملك ويركب فرس الملك ويسيرون به في ساحة المدينة والمنادون قدامه. فقال الملك لهامان: أسرع وخذ اللباس والفرس كما تكلمت وافعل هكذا لمردخاي اليهودي الجالس في باب الملك. لا يسقط شيء من جميع ما قُلتَهُ.

وفى أثناء الوليمة التى عملتها أستير – وكان هامان ضمن من دُعُوا من رجال الدولة – سألها الملك مرة ثانية: «ما هو سؤلك يا أستير الملكة فيعطى لك. وما هى طلبتك ولو إلى نصف المملكة تُقضى!» فأطلعته على الأمر الصادر من هامان بإبادة شعبها – اليهود – كلهم ومصادرة أموالهم ومختوم بخاتم الملك. وتملَّك الغيظ الملك. وراح هامان يتوسل للملك ولأستير أن يعفُوَا عنه. وأُخبر الملك أن هامان كان قد أعدَّ فى بيته خشبه لصلب مردخاى عليها. فأمر الملك بإحضار الخشبة وصلب هامان عليها. بقى بعد ذلك تخليص اليهود من أمر الإبادة السابق صدوره من هامان وعليه خاتم الملك. ولما كان أى أمر ممهور بخاتم الملك لا يمكن نقضه أو إلغاؤه فقد سلَّم الملك خاتمه – الذى كان عند هامان – إلى مردخاى ليتصرَّف. وتفتَّق ذهن مردخاى عن وسيلة ينقذ بها قومه دون أن ينقض الأمر الملكى السابق. فأصدر أمرا يسمح لليهود أن يدافعوا عن أنفسهم ويهلكوا أعداءهم وختم الأمر بخاتم الملك وأرسله إلى جميع الولاة وحكام الأقاليم الذين شعروا أن اليهود الآن أصبحت لهم حظوة لدى القصر وأن مردخاى نفسه قد أصبح قوة يحسب لها حساب. وتقول التوراة إن ٥٠٠ من رجال القصر الذين كانوا موالين لهامان قد قتلوا. وفى أنحاء المملكة تمكن اليهود من قتل ١٥,٠٠٠ من المشهورين بعدائهم لليهود وإن كان الرقم يختلف من ترجمة إلى أخرى بين ١٠,١٠٧ و ٧٥,٠٠٠. إلاَّ أنهم لم يستولوا على أموالهم بل كانت تؤول إلى خزانة الدولة واحتفل اليهود فى جميع أنحاء المملكة بنجاتهم بأن جعلوا من ١٤ آذار عيدا يسمى «عيد الفوريم» يُقرأ فيه سفر أستير فى الصباح فى حضور النساء والرجال وتُقدم فيه الهدايا.

الجالية اليهودية فى مصر القديمة

كانت مصر - المشهورة بخصبها وغناها واستقرارها السياسى، ولقربها من فلسطين - ملجأ لمن تضيق بهم الحال من اليهود يهاجرون إليها طلبا للأمن والأمان. كما أن مصر كانت دائما تتطلع إلى استعادة نفوذها فى فلسطين إلى ما كان عليه أيام الأسرة ١٨ ، ١٩. لذلك فإن الفراعين كانوا ينتهزون أى فرصة تلوح فى الأفق فيرسلون جيوشهم إلى فلسطين - أو غيرها - لتأييد ملكها أو للوقوف معه أو مع دولة حليفة فى المنطقة ضد عدو مشترك. وفى جميع هذه الحالات كان بعض اليهود ينضمون للجيش المصرى - وخاصة إذا كان قد جاء لنجدتهم - ليحاربوا فى صفوفه - كحلفاء أو كجنود مرتزقة - وكان كثير منهم - بعد انتهاء المعارك - يعودون مع الجيش المصرى إلى مصر فرارا من الأوضاع غير المستقرة فى بلادهم. هذا فضلا عن نزوح بعض الأفراد المدنيين للسبب ذاته. بعضها يكون على شكل هجرة مجموعة صغيرة - وإن كان تكررها يجعل عدد أفرادها فى النهاية كبيرا - والبعض الآخر يأخذ شكل هجرة جماعية فتنزح أعداد كبيرة مرة واحدة. وتكونت من الجميع جالية يهودية فى مصر لعبت فى بعض الأوقات دورا مؤثرا فى سياسة الدولة. ويمكننا إيجاز المراحل التى تمت بها هجرة اليهود إلى مصر - بتسلسلها التاريخى - كما يلى :

١ - **عند استيلاء سرجون الثانى على مملكة إسرائيل الشمالية** عام ٧١٩ ق.م وعقب سقوط السامرة (ص ٣٠٦) والسبى الأشورى لأهلها إلى شمال الفرات فضَّل بعضٌ من بنى إسرائيل الهجرة إلى مصر خوفا من بطش أشور واختاروا مكانا أبعد ما يكون فى جنوب مصر - عند أسوان فى جزيرة إلفانتين - كما تشير إلى ذلك بعض برديات عُثِر عليها هناك فى أوائل القرن الحالى. كما عثر فى تونا الجبل عام ١٩٥٠ على مجموعة أخرى من البرديات تشير إلى وجود جالية يهودية فى الأشمونين ترتبط بجالية إلفانتين بصلة القرابة والنسب.

٢ - يرى البعض أن **منسَّى حين ملك على يهوذا** عام ٦٩٧ ق.م. وبدأ يحيد عن طريق الرب ويعبد الأصنام والكواكب، وحين عارضه إشعياء النبى أمر بقتله (ص ٣٤٢) وقتل أتباعه ففر كثير من المؤمنين بـ «يهوه» وهربوا إلى مصر.

٣ - سبق أن ذكرنا (ص ٣٤٣) كيف انتهزت دول الشرق الأدنى القديم قيام **ثورة داخلية على أشور بانيبال** اضطرته للعودة بجيشه إلى بابل لإخمادها فرفعت راية العصيان على

أشور وانتهز طهراقا – ملك مصر النوبي – الفرصة وأرسل جيشا بغرض مناصرة الدول التى ثارت على أشور بالإضافة إلى استعادة بعض النفوذ فى فلسطين. وانضم ملك يهوذا إلى هذا التمرد. ولكن سرعان ماعاد جيش أشور وأخضع سوريا وصيدا وباقى مدن الساحل الفينيقى. وانسحب جيش مصر آخذا معه مَن كانوا قد انضموا إليه من اليهود كفرقة متحالفة أو كجنود مرتزقة ودخل جيش أشور أورشليم وقُبِض على منسى وسيق أسيرا إلى بابل وهرب كثير من أعوانه إلى مصر .

٤ – **حينما قام أشور بانيبال بفتح مصر** (عام ٦٧٠ ق.م.) جاء ضمن جيشه بعض الجنود المرتزقة من اليهود. ورأى أشوربانيبال عدم عودتهم إلى فلسطين فأسكنهم مع إخوانهم فى أسوان.

٥ – عُيِّن **بسمتيك الأول** حاكما على الدلتا ومنف من قِبَل أشور بانيبال بينما ظلت باقى مقاطعات مصر يحكمها حكام يتناحرون فيما بينهم – وذلك ما أراده الأشوريون ليظلوا تحت نفوذهم. ولكن بسمتيك عنى بإنشاء جيش قوى اعتمد فى إنشائه على الجنود المرتزقة من الأجانب من يونانيين وليبيين وسوريين وبعض من بنى إسرائيل. وقد أنزل هؤلاء المرتزقة فى معسكرات خاصة بهم أقيمت على الحدود: فى مدينة «ماريا» جنوبى رشيد لتحمى مصر من الغرب وفى مدينة تحفنيس – ٢٠ كم غربى القنطرة – للحماية من الشرق. وفى جزيرة إلفانتين عند أسوان كى تحمى مصر من الجنوب. وكان من حسن تدبير بسمتيك أن جعل الجنود المرتزقة اليهود فى أقصى الجنوب فى إلفانتين إذ أن مصر كانت دائما تتوق إلى استعادة نفوذها فى فلسطين. ولاشك أن وجود جنود يهود فى حامية القنطرة (تحفنيس) قد يجعلهم يقاومون عودة الجيش المصرى إلى فلسطين أو أنهم قد ينضمون إلى إخوتهم فى فلسطين فيكونون قوة تمنع عودة السيطرة المصرية. وكان اختيار جزيرة وسط النيل – جزيرة إلفانتين – لإسكانهم. زيادة فى الحيطة إذ أن انتقالهم إلى الوادى لابد أن يتم بواسطة مراكب وهذا أمر يمكن السيطرة عليه بحيث يمكن التأكد من أن تحركاتهم لن تخرج عما يرسمه الفراعنة لهم. ولاشك أن وجود هؤلاء الجنود فى إلفانتين جعل المدنيين من اليهود اللاجئين إلى مصر يفضلون أسوان على غيرها من المدن لشعورهم بأمان أكثر بجوار جنود من بنى جلدتهم وأصبح اليهود يمتلكون المنازل فى أسوان وإلفانتين ويمارسون التجارة بنشاطهم المعهود وأصبحوا من الأثرياء. وتذكر إحدى الوثائق الأرامية أن أحد أفراد الجالية اليهودية فى أسوان كان يعمل فى خدمته عدد من العمال المصريين.

٦ – لما مات بسمتيك الأول خلفه ابنه نخاو الثانى وقاد حملة لمساندة الأشوريين (ص ٣٦٣) انخرط بعض اليهود فى الجيش المصرى. ووقعت **معركة «كركميش»** الشهيرة وانهزم الجيش المصرى وعاد إلى بلاده وعاد معه اليهود الذين انخرطوا فى صفوفه وعدد كبير من المدنيين أيضا تخوفا من هجوم بابل المتوقع على بلادهم.

٧ – ذكرنا (ص ٣٦٨) تمرد يهوذا أيام **يهوياكين** على النفوذ البابلى على وعد بالمؤازرة من مصر. وسار نبوخذنصر وحاصر أورشليم عام ٥٩٧ ق.م. حتى سقطت وتم سبى عدد كبير من اليهود وهو ما يعرف بالسبى الأول. وفر عدد كبير من اليهود إلى مصر.

٨ – فى عام ٥٨٧ ق.م. ثارت يهوذا على بابل بتحريض من أبريس ملك مصر (وهو حفرع فى التوراة) إلاَّ أن مصر كانت فى حالة تفكك وضعف فلم تستطع أن تقدم أى مساعدة لصدقيا ملك يهوذا فقام نبوخذ نصر بحصار أورشليم (ص ٣٧٠) ودخلها بعد أن دمَّر أسوارها وخرب المدينة ودمَّر الهيكل تدميرا تاما وسبى سبيا كثيرا وهى ما يسمى **بالسبى الكبير**. وفتح أبريس صدره لليهود الذين نجوا من السبى البابلى. وكانت تلك الموجه الجديدة هى أكبر الهجرات عددا وجاء ذكرها فى سفر إرميا وفى وثائق إلفانتين الأرامية.

٩ – **بعد قتل جدليا** – الذى عينه نبوخذ نصر واليا على يهوذا (ص ٣٧٣) خاف عدد كبير من اليهود من انتقام البابليين وهربوا إلى مصر. وقالت التوراة عن ذلك (٢ ملوك ٢٥:٢٦) «فخاف جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين».

١٠ – يرى البعض أنه فى **عهد الملك بسمتيك الثانى** وخلال حملة على منطقة «خارو» فى جنوب الشام انضم إليه بعض اليهود وعادوا معه إلى مصر ورافقوه فى حملته على حدود دولة نباتا فى الجنوب ثم استقروا مع إخوانهم فى أسوان.

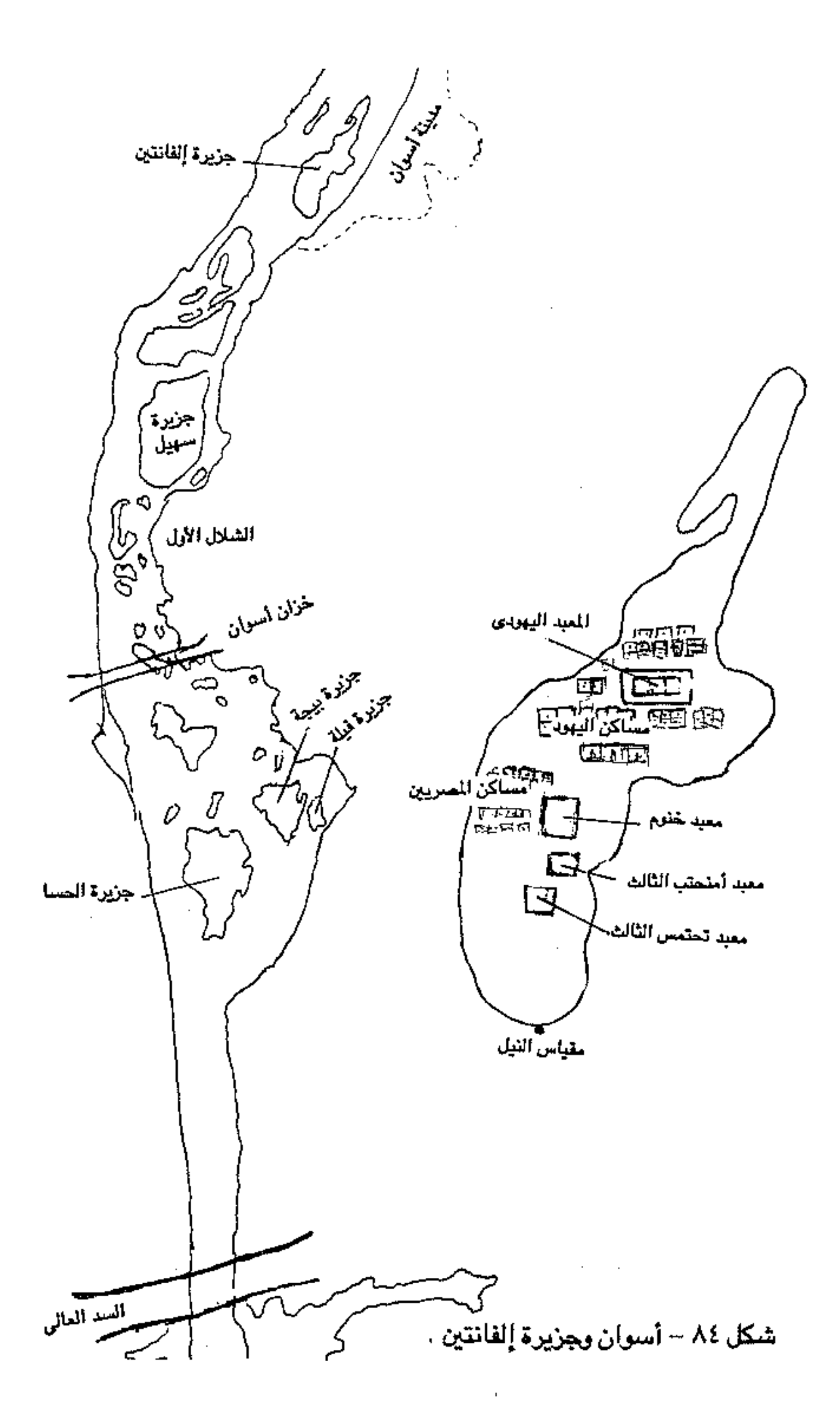
١١ – **فى أواخر عهد خلفه إبريس** كانت حرب مع الليبيين لم يُحسِن التخطيط لها فهُزِم المصريون (ص ٣٧٤) وثار الجنود والتفوا حول قائد هو أمازيس أو أحمس فسار بالجنود – ومعظمهم من المرتزقة الإغريق – إلى الدلتا لقتال أبريس واستولى على الحكم وأعطى الجنود الإغريق امتيازات تجارية كبيرة وأراضى فى منطقة غرب الدلتا إذ كان يحكم من صا الحجر. وظلت الجالية اليهودية والمرتزقة اليهود فى أسوان وجزيرة إلفانتين وصارت لهم اليد العليا بعد أن ارتحل الإغريق إلى الدلتا.

١٢ – عقب **استيلاء الفرس على أورشليم**. وبرغم تحذير إرميا النبى لليهود من الهرب إلى مصر فإن عددا كبيرا من اليهود نزحوا إلى مصر. وجاء فى التوراة (إرميا ٤٤:١) «الكلمة التى صارت إلى إرميا من جهة كل اليهود الساكنين فى أرض مصر. الساكنين فى مجدل (على الحدود الشمالية الشرقية) وتحفنيس (غرب القنطرة) وفى نوف (منف) وفى أرض فتروس (مصر العليا)». وهذا معناه أن الجالية اليهودية كانت منتشرة فى أقاليم كثيرة مع تركيز أكثر فى جزيرة إلفانتين. وحذَّر إرميا اليهود فى أورشليم ويهوذا من النزوح إلى مصر إذ أنهم سيضطرون إلى مجاراة المصريين فى عباداتهم الوثنية وأنهم فى مصر قد يتعرضون – على

المدى الطويل – لخطر الذوبان فى أهل مصر. وأنهم بهجرتهم هذه سيثيرون غضب الرب. قال إرميا (إر ٤٤:٨) «إذ تبخّرون لآلهة أخرى فى أرض مصر. لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل. هأنذا أجعل وجهى عليكم وآخذ بقية يهوذا الذين جعلوا وجوههم للدخول إلى أرض مصر ليتغرّبوا هناك فيفنون كلهم فى أرض مصر». ولكن اليهود لم يسمعوا لتحذيرات إرميا وزادت أعداد المهاجرين منهم إلى أرض مصر وتركزت إقامتهم في إلفانتين. وقد سبق أن ذكرنا أنهم كانوا يُجِلُّون كيروش باعتباره «مسيح الرب» الذى أعاد إخوانهم – المسبيين فى بابل – إلى يهوذا وسمح لهم ببناء المعبد والهيكل وقدّم مساعدات مالية وعينية. وبناء على هذا الشعور فإنهم ساعدوا قمبيز – ابنه – عند فتحة لمصر. وكان جزاء ذلك أن قمبيز هدم كثيرا من معابد الآلهة المصرية ولكنه لم يُصب المعبد اليهودى فى جزيرة إلفانتين بسوء (د. عبد العزيز صالح. الشرق الأدنى القديم. ص ٢٤٣). واستمرت سياسة تقرب اليهود فى مصر من الفرس في عهد خلفاء قمبيز بحيث أنهم كانوا يعتزون باحتفاظهم بنسخة من تاريخ الملك دارا الأول وعندما بليت كتبوا لأنفسهم نسخة أخرى!

معبد إلفانتين :

كطائفة تعتمد أساسا على رابطة الدين فإن اليهود فى مصر طلبوا من السلطات المصرية السماح لهم بإقامة معبد ليقيموا فيه شعائرهم الدينية وسُمِحَ لهم بإقامة معبد في الجزء الشمالى من جزيرة إلفانتين غير بعيد من معبد «خنوم» الإله المصرى الرسمى لهذه المنطقة (شكل ٨٤). وجمع اليهود المعونات من أثريائهم وفرضوا له تبرعات على رجالهم ونسائهم وجعلوه صورة متواضعة من معبد أورشليم. ووصفوا الإله «يهوه» بأنه «الرب الموجود فى آبو الحصن» أي حصن إلفانتين. ولكن بعض اليهود المتزمتين كانوا يرون فى ذلك مخالفة للشريعة التى لا تعترف إلا بمعبد أورشليم. وبعد بناء المعبد صدرت أوامر فارسية (مسجّلة فى بردية بالمتحف البريطانى) إلى حاكم إلفانتين بالسماح لليهود بإحياء عيد الفصح والاحتفال به. وقد تجمعت منازل اليهود حول هذا المعبد فنشأ حى خاص باليهود أخذ يتسع تدريجيا حتى بلغت حدوده مشارف الحى المصرى الذى كان يقع جنوبى معبد اليهود. ومع مرور الوقت قامت علاقات اجتماعية وعلاقات زواج بين اليهود والمصريين. وعُثِر على برديات تحكى عن منازعات عائلية ومنازعات تجارية ولكن لم يحدث أى صدام بين الفريقين. ولم يكن اليهود هم العنصر الأجنبى الوحيد فى إلفانتين وأسوان. إذ كان الجنود المرتزقة من الإغريق موجودين مع بعض الليبيين وكل طائفة لها إلهها (اليهود فى مصر – مصطفى كمال عبد العليم – ص ٩). ولكن الإغريق كما سبق أن ذكرنا فضلوا الإقامة فى غرب الدلتا فانتقلوا إليها وبقى اليهود يعيشون بجوار المصريين فى إلفانتين. ولكن فى عهد الحكم الفارسى حدث الصدام بين الفريقين. ذلك أن الفرس أولوا اليهود عناية خاصة مقابل المساعدة التى قدموها عند فتح مصر ومسارعتهم إلى



شكل ٨٤ - أسوان وجزيرة إلفانتين .

تقديم فروض الولاء للملك الفارسى. وقد وجد الفرس فيهم أداة طيِّعة يمكنهم استخدامها في السيطرة على مصر التى كانت بعيدة عن عاصمة الامبراطورية الفارسية كما أن لديها شعور بذاتية وحضارة عريقة تجعلها تتوق إلى استرجاع استقلالها. ولعل اليهود – وهم فى حماية الفرس – تجاهلوا مشاعر المصريين فقدموا علنا الأضاحى من الكباش وهو رمز مقدس للإله خنوم فى أسوان مما أثار سخط المصريين وإن كتموا ذلك فى نفوسهم. وعندما تعاقبت ثورات المصريين ضد الاحتلال الفارسى لم يشترك فيها اليهود مما أثار حفيظة المصريين عليهم. وحين ثار المصريون على الفرس عقب اعتلاء دارا الثانى العرش (٤٢٤ ق.م.) بقى اليهود على ولائهم للفرس وساهم بعض جنودهم فى إخماد الثورة. وفى عام ٤١٠ ق.م. اندلعت ثورة أخرى ضد الفرس واستُدعِىَ والى مصر الفارسى لمقابلة الملك دارا الثانى فى العاصمة «سوسة» وانتهز المصريون غياب الحاكم الفارسى وقاموا بتدمير المعبد اليهودى فى إلفانتين والذى كان شمالى معبد الإله «خنوم» ولكن الجالية اليهودية لم ينلهم أذى أو اعتداء. ومما هو جدير بالذكر أن الحاكم المحلِّى للإقليم – وهو من الفرس – اشترك مع المصريين فى تدمير المعبد. إذ وجدت بردية بها رسالة منه إلى ابنه يأمره بأن يدمِّر المعبد. ويرى المؤرخون أن المصريين لابد قد استمالوه إلى جانبهم بالهدايا والوعود. ويرى فريق آخر أن بعضا من اليهود المتزمتين قد حرَّضوه من جانب دينى إذ كانوا – كما سبق أن ذكرنا – يؤمنون بأن أى معبد غير معبد أورشليم يعتبر غير قانونى. فكان أن تلاقت الرغبات وتم تدمير المعبد تماما. ومما يساند هذا الافتراض الأخير أنه عندما فزع أحبار معبد إلفانتين إلى الحبر الأعظم فى أورشليم طالبين توسُّطه لدى السلطات الفارسية فى مصر لتأمر بإعادة تشييد المعبد فإنه آثر الصمت ولعله لم يشأ أن يتوسط لإعادة بناء تُحرِّمه الشريعة. فاضطروا إلى الكتابة إلى الحاكم الفارسى ليهوذا وكذلك إلى حاكم السامرة يلتمسون منهما بذل المساعى الحميدة لدى والى مصر الفارسى ليسمح بإعادة بناء المعبد. وقد حمل وفد يهود إلفانتين عند عودتهم رداً من حاكم السامرة الفارسى إلى والى مصر الفارسى عبارة عن رسالة تتضمَّن النقاط التالية:

١ – أنه لما كان المعبد قد أنشىء قبل قدوم قمبيز إلى مصر فإن المصريين لا يستطيعون الزعم بأن الفرس هم الذين سمحوا بإقامته.

٢ – يُعتبر الحاكم المحلى الفارسى هو المسئول عن تدمير المعبد حيث كان موجودا ولم يتخذ إجراء لحمايته.

٣ – ضرورة إعادة بناء المعبد.

٤ – عند إعادة بناء المعبد يُكتفى بتقديم البخور وعدم ذبح الحيوانات التى يقدسها المصريون من كباش وأغنام وثيران.

وقد عُرِض على اليهود بناء المعبد فى مكان آخر بعيداً عن معبد خنوم ولكن اليهود رفضوا وأصرُّوا على بنائه فى نفس المكان.

وبعد وفاة دارا الثانى تولى الحكم أرتاكزركسيس الثانى وكانت الثورة ضد الحكم الفارسى لاتزال قائمة وحصل اليهود على وعد ثان بإقامة المعبد مقابل المساعدة فى إخماد الثورة فأسرعوا بإعادة بناء المعبد بصورة جزئية. إلا أن الثورة استمرت وتمكنت مصر من تحرير نفسها من حكم الفرس عام ٤٠٤ ق.م. وكوَّن «آمون حر» أحد مواطنى «سايس - صا الحجر» الأسرة ٢٨ ودام حكمه ست سنوات (٤٠٤ - ٣٩٨ ق.م.) ولكن حكمه لم يمتد ليشمل مصر العليا. وكانت الجالية اليهودية لاتزال تعترف بالحكم الفارسى معلِّلين النفس بأن الفرس سرعان ما يخمدوا الثورة. ولكن ذلك لم يحدث واضطر اليهود آخر الأمر لإظهار ولائهم للملك المصرى.

ثم تربع على عرش مصر الملك «نايف عارور الأول = نفريتس الأول» مؤسسا الأسرة ٢٩ وأصله من منديس (تل الربع - شرق الدلتا. جنوب المنصورة). وكانت منديس هى مركز عبادة الإله الكبش. وكان طبيعيا أن تُولى هذه الأسرة اهتمامها إلى الإله الكبش «خنوم» فى إلفانتين مما أكسب كهنته قوة ونفوذا كانا نذيرا بخطر جسيم على اليهود إذ تُرك اليهود تحت رحمة المصريين. وراح كهنة خنوم يُنفِّسون عن غضبهم على اليهود فتم تدمير ماكان قد بُدِئَ بناؤه من المعبد. وبدأ اليهود يهاجرون من أسوان وإلفانتين. وعندما تولت حكم مصر الأسرة ٣٠ السمنودية (عام ٣٧٨ ق.م.) استمر قلق الجالية اليهودية. ولما أعاد ملوك فارس فتح مصر عام ٣٤٢ ق.م. راود الجالية اليهودية الأمل فى بعض الاستقرار ولكن حكم الفرس لمصر لم يدم طويلا إذ سرعان ماجاء الإسكندر الأكبر وفتح مصر عام ٣٣٠ ق.م. وبقيت الجالية اليهودية مشتتة ومستكينة إلى أن استعادوا بعض كيانهم فى عصر البطالمة.

والآن لنترك الجالية اليهودية فى مصر ونعود إلى اليهود الباقين فى بابل والمدن الأخرى فى فارس بعد عودة الفوج الأول من السبى إلى يهوذا وأورشليم بقيادة زربابل (ص ٤١٤). وكنا قد توقفنا - ص ٤٩٣ - عند إنقاذ إستير لليهود من المؤامرة التى كان هامان قد دبرها لإبادتهم ومصادرة أموالهم.

الفصل الحادى والعشرون :

عودة الفوج الثانى وأنبياؤه ونهاية الفرس

فى ظل وجود إستيراليهودية زوجة لإكزركسيس وملكة لفارس. ووجودمردخاى مستشارا للملك وحامل ختم الدولة شعر اليهود بالإطمئنان ونزح كثير منهم إلى العاصمة «سوسة» ومارسوا التجارة على نطاق واسع وبدا أنهم أصبحوا يسيطرون على فارس سياسيا واقتصاديا. ولم يعجب الأمراء ورجال البلاط الفارسي هذا الوضع وقُتِل إكزركسيس فى قصره (عام ٤٦٦ ق.م.) وتولى بعده أرتاكزركسيس. واستشعراليهود أن الظروف السياسية قد بدأت تتغير فى غير صالحهم فكانت عودة الفوج الثانى من اليهود إلى فلسطين يقودهم «عزرا» الكاهن. ورحب الملك الفارسي الجديد ورجال البلاط بهذه العودة وشجعوها.

عَـزْرَا Ezra .

ذكرت التوراة (عزرا ٧ : ١) نسب عزرا الكاهن وأنه ينتهى إلى فينحاس بن ألعازار بن هارون عليه السلام وقالت عنه أيضا: «وهو كاتب ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الرب إله إسرائيل. لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها وليعلِّم إسرائيل فريضة وقضاء». وقد نقل عنهم مفسرو القرآن الكريم (تفسير القرطبى للآية ٣٠ من سورة التوبة) فذكروا أنه كان أحفظ الناس لتوراة موسى يتلوها عن ظهر قلب أيام سبيهم فى بابل. فلما عاد بهم إلى أورشليم طابقوا كتابته على نسخة عثروا عليها تحت أطلال الهيكل الذى خرَّبه البابليون فوجدوا كتابته مطابقة لتلك النسخة فافتتنوا به. ليس فى التوراة ما يفيد أن اليهود فى ذلك الوقت زادوا عن وصفه بأنه «أحفظ الناس لتوراة موسى» ولكن يهود الجزيرة العربية فيما بعد – تمثلا بما قاله النصارى من أن المسيح ابن الله – ادعوا بأن عزرا أو عزير ابن الله. وقد نعى القرآن الكريم عليهم هذين الإدعاءين: **«وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله»** (٣٠–التوبة).

عزرا أم عُزير ؟

«عزرا» اسم عبرى معناه «عون» وهو اختصار لاسم «عزريا» (قاموس الكتاب المقدس ص ٦٢١). وقد استنكر المستشرقون ورود اسمه فى القرآن الكريم «عُزير» ظانين أنها بصيغة

التصغير لاسم عزْرا. ويرد الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم، جـ ٢ ، ص ٢٠٩) مصححًا فيقول إن اسم الفاعل من فعل «عزر» هو «عُزير» مضمومة العين مكسورة الزاى بعدها ياء إمالة وعلى هذا النحو كان ينطقها يهود يثرب فجاء القرآن الكريم باسم «عُزَيْر» تعريبا لاسم «عُزير» بياء الإمالة وليس تصغيرا لعزرا كما يدَّعى المستشرقون.

عودة الفوج الثانى من السبى :

أصدر أرتاكزركسيس أمرا هذا نصه (عزرا ٧ : ١٢): «من أرتحشتا (أرتاكزركسيس) ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل إلى آخره. قد صدر منى أمر أن كل من أراد فى ملكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع من أجل أنك مُرسل من قِبَل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة الرب إلهك التى بيدك ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيريه لإله إسرائيل. وكل الذهب والفضة من تبرعات الشعب والكهنة المتبرعون لبيت إلههم لكى تشترى بهذه الفضة والذهب ثيرانا وكباشا وخرافا وتقربها على المذبح. ومهما حَسُنَ عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقى الفضة والذهب فحسب إرادة إلهكم تعملونه. ومنى أنا أرتحشتا الملك صدر أمر إلى كل الخزنة الذين فى عبر النهر (أى فى فلسطين) أن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء فليُعمل بسرعة إلى ١٠٠ وزنة من الفضة و ١٠٠ كر من الحنطة و ١٠٠ بث من الخمر و ١٠٠ بث من الزيت (البث = ٢٢,٩٩ لترا والكر ١٠ أبثاث أى شوال كبير تقريبا)، والملح من دون تقييد. كل ما أمر به إله السماء فليعمل باجتهاد لبيت إله السماء لأنه لماذا يكون غضب على مُلك المَلِك وبنيه. ونعلمكم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنيين وخدام بيت الله هذا لا يؤذن أن يُلقى عليهم جزية أو خراج».

كان «عزرا» أو «عزير» موظفا فى بلاط فارس أيام الملك أرتاكزركسيس ومستشارا لشئون الطائفة اليهودية. وقد تمكن – لثقة الملك فيه – من أخذ موافقته على عودة الفوج الثانى من يهود السبى إلى أورشليم حاملين معهم ما شاءوا من مال. وأمرا إلى الوالى هناك بتقديم معونة باسم الملك للمساهمة فى بناء البيت. ويلاحظ أن أمر الملك يشير إلى إله بنى إسرائيل بكل توقير وتعظيم وأنه «إله السماء» وهو يخشى غضبه مما يكاد يصل إلى حد الإيمان به وإن لم يعلنه صراحة. وتمكن عزرا أيضا من أخذ موافقة الملك على السماح لليهود بما يشبه الحكم الذاتى فى مقاطعة «يهوديا» فى فلسطين حتى يمكنهم إقامة مجتمعهم على التقاليد العبرانية أما فى علاقاتهم الخارجية والسياسة فهم يخضعون للفرس ويقدمون الجزية. وكانت عودة الفوج الثانى عام ٤٥٩ ق.م. وبلغ عدد العائدين ١٤٩٦ أو ١٦٩٠ فردا منهم عدد من الكهنة و ٣٨ لاويًا و ٢٢٠ من خُدَّام المعبد. وحمل عزرا معه مالا وكنوزا وفيرة ومجوهرات من اليهود

الذين بقوا فى سوسة وبابل. وحمل معه هدايا مقدمة من رجال البلاط الفارسى مشاركة فى تأثيث بيت الرب فى أورشليم وعُيِّن عزرا قاضيا لأورشليم ومقاطعة يهوديا (شكل ٨٥) كما صُرِّح له بأن يعين فيهما من يشاء من القضاة للحكم فى المنازعات.

وجه عزرا بعد عودته اهتماما خاصا للشئون الدينية وتطبيق شريعة الرب وعمل على محاربة زواج اليهود من أجنبيات إذ تقدم إليه الرؤساء يشكون من تفشِّى هذا الأمر وكما قالوا (عزرا ٩:٣) «واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى» حتى أن بعض الرؤساء والولاة كانوا متزوجين من أجنبيات. وكعادة تلك الأيام فى التعبير عن الحزن الشديد فإن عزرا مزَّق ثيابه ورداءه ولم يكتف بحلق رأسه وذقنه بل تقول التوراة إنه «نتفهما!». فاجتمع إليه الرؤساء فذكرهم بتعاليم الشريعة القائلة: «والآن لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم». ودعا عزرا جميع الشعب إلى اجتماع عام فى ساحة أورشليم وعملوا حصرا لأسماء المتزوجين من أجنبيات ثم أمرهم بتطليقهن وتقريب كباش وغنم تكفيرا عن خطيتهم. ففعلوا كما أمرهم.

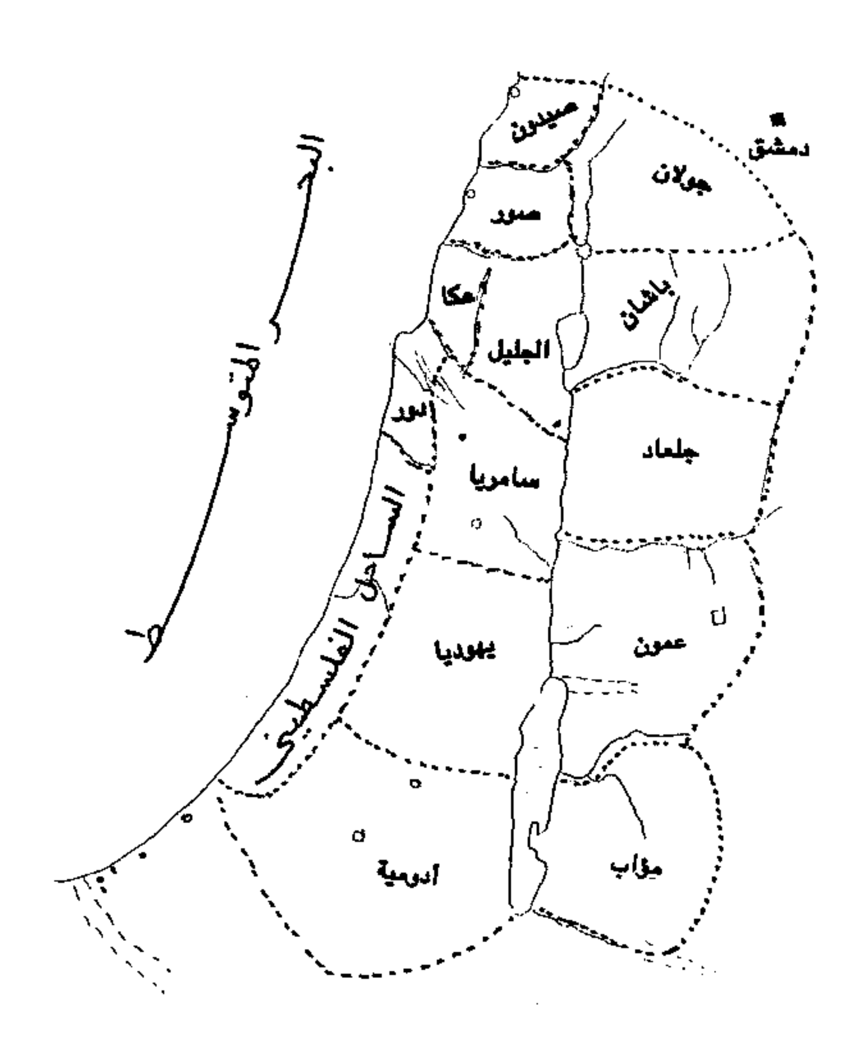
أنبياء عادوا مع الفوج الثانى :

ظهر فى اليهود وهم فى أرض فارس نبيان وعادا معهم إلى أورشليم. هذان النبيان هما: «نحميا» و «ملاخى».

النبى نحميا Nehmiah

هو نحميا بن حكليا . ونحميا اسم عبرى معناه «تحنَّن يهوه». وهو من يهود السبى ولد فى بابل ونزح إلى «سوسة» عاصمة الفرس واختاره الملك أرتاكزركسيس ساقيا له وهى ظيفة عظيمة لا يُختار لها إلا الموثوق فيهم والمعروف إخلاصهم. واهتم بأمر اليهود وخاصة من بقى منهم فى فلسطين. يقول (نحميا ١ :٢): «جاء إلىَّ «حنانى» واحد من أصحابى ورجال من يهوذا فسألتهم عن اليهود الذين بقوا من السبى وعن أورشليم. فقالوا لى إن الباقين الذين بقوا من السبى هناك فى البلاد فى شر عظيم وعار. وسور أورشليم منهدم وأبوابها محروقة بالنار». فلما سمع نحميا هذا الكلام بكى وصام وصلَّى لله وأخذ يتضرَّع إلى الله وختم ضراعته بقوله: «يا سيد. لتكن أذنك مصغية إلى صلاة عبدك وصلاة عبيدك الذين يريدون مخافة اسمك. وأعطِ النجاح اليوم لعبدك وامنحه رحمة أمام هذا الرجل. لأنى كنت ساقيا للملك».

ولاحظ الملك أرتاكزركسيس حزن نحميا واكتئابه فسأله عن السبب فأخبره ما علمه من سوء حالة أورشليم. ورجا الملك أن يرسله إلى أورشليم لكى يعيد بناءها . فوافق الملك. فطلب



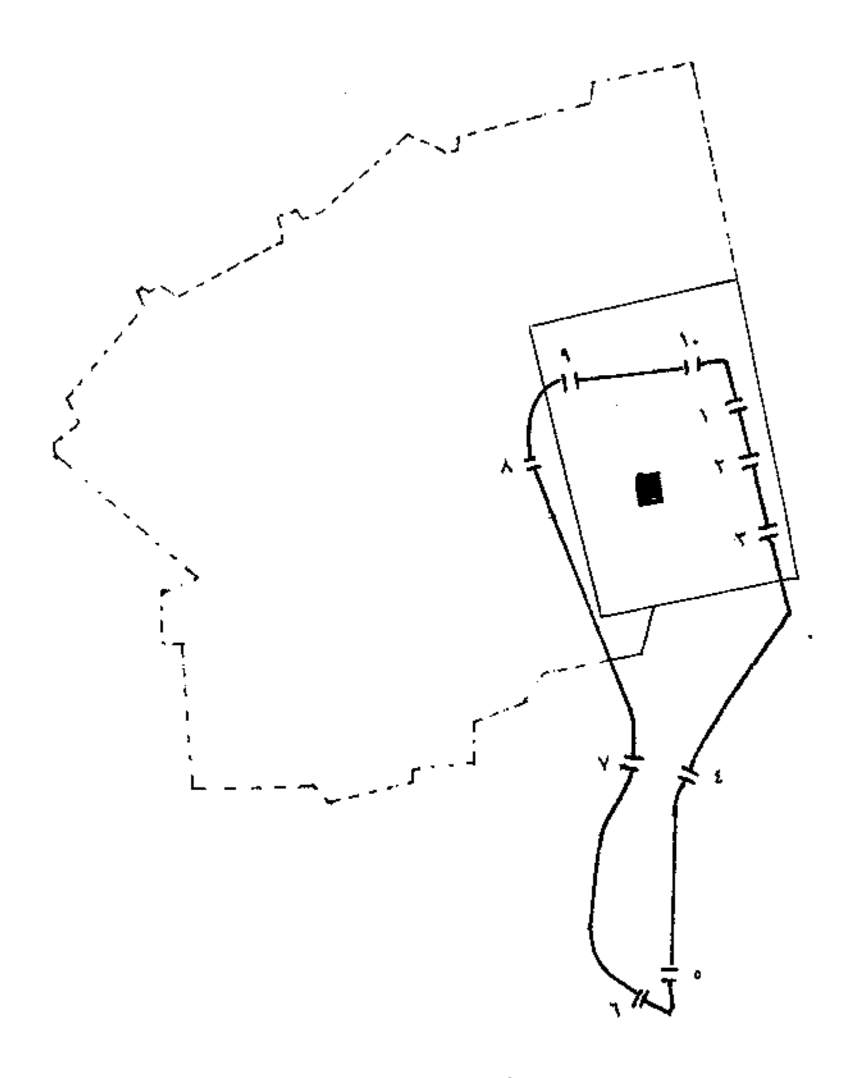
شكل ٨٥ – الأقسام الإدارية لفلسطين أثناء الحكم الفارسى .

منه نحميا أن يرسل معه كتابا إلى الولاة فى الولايات التى سيعبرها حتى يُسهِّلوا له الطريق إلى أن يصل إلى يهوديا. وكتابا آخر إلى نائب الملك فى يهوديا حتى يعطيه الأخشاب اللازمة لسقف البيت ولسور المدينة. فأعطاه الملك ما طلب من رسائل وعيَّنه واليا على مقاطعة «يهوديا» فى فلسطين. ولما وصل إلى أورشليم قام وحده ليلا بتفقد سور المدينة وأبوابه لمعرفة ما يلزم لإعماره. ولعله لم يشأ أن يحيط مَقْدَمه بهالة كبيرة حتى لا يثير سخط الحاسدين.

وكان فى أورشيلم شخص عظيم النفوذ هو «سنبلط الحوروني» نسبة إلى بلدة «بيت حورون» لا يريد الخير لأورشليم. وضمَّ إليه شخصا آخر هو «طوبيا» وهو عبد عموني. فتعاونا معا لمقاومة إعادة بناء أسوار أورشليم. وكان طوبيا متزوجا من أسرة ذات جاه فصار رئيس جماعة قوية وكان على صلة ببعض نبلاء اليهود الذين لم يعجبهم أن يعيِّن نحميا واليا على «يهوديا» وعليهم. وكان طوبيا يقيم فى إحدى غرف الهيكل مع أنه ليس بكاهن ولا هو من اللاويين فقام نحميا بطرده منها. وهكذا اجتمع الحاقدان وعشيرتاهما وبعض من نبلاء اليهود للعمل معا ضد نحميا ومشاريعه التى يريد بها إعادة إزدهار أورشليم. تقول التوراة (نحميا ٢:١٠): «ولما سمع سنبلَّط الحوروني وطوبيا العبد العموني ساءهما إساءة عظيمة لأنه جاء رجل يطلب خيرا لبني إسرائيل». وخوفا من دسائسهما فقد رأى نحميا أن ينجز بناء سور أورشليم فى أسرع وقت. فقسَّم السور إلى ٥٠ جزءا وأعطى جزءا لكل بيت من بيوتات اليهود ليبنيه. واشترك الجميع فى البناء: الصناع والتجار والزراع. وشارك اللاويون والكهنة أيضا فى البناء وبذلك تم بناء السور فى وقت قياسي – ٥٢ يوما كما ذكرت التوراة – وأثناء بناء السور وتحديد مكان الأبواب كان سنبلَّط وطوبيا وعدد من أهل السامرة يهزأون بمن يبنون ويوهنون فى عزائمهم بقولهم «إن ما يبنونه إذا صعد ثعلب عليه فإنه يهدم حجارة حائطهم!». فدعا نحميا الله قائلا: «اسمع يا إلهنا لأننا قد صرنا احتقارا وردَّ تعييرهم على رؤوسهم واجعلهم نَهَباً فى الأرض. ولا تستر ذنوبهم ولا تمح خطيتهم من أمامك لأنهم أغضبوك أمام البنائين». وكان نحميا يشرف بنفسه على البناء وتوزيع العمل ولم يأبه بسخرية سنبلط وطوبيا. وأقام من وراء البنائين حراسا ومعهم رماح ودروع ليلا ونهارا لحمايتهم أثناء البناء وحتى لا يهدم المعارضون ليلا ما يبنونه نهاراً. واكتمل السور وكان له عشرة أبواب (شكل ٨٦) منها أبواب كبيرة وهذه عليها حراسة من الجنود تمنع دخول العدو أو من يشتبه فى كونهم جواسيس للعدو. وأبواب صغيرة لتسهيل مرور الناس دخولا للمدينة أو خروجا منها لقضاء مصالحهم.

المكائد ضد نحميا :

١ – لما اكتمل بناء السور وإن كانت الأبواب لم تركَّب بعد. تكاتف أعداء نحميا لمحاولة النَّيل منه فأرسلوا له رسالة يطلبون منه أن يلاقيهم عند بلدة «أونو» وهى تقع ٣٢كم شمال



شكل ٨٦ – أورشليم القديمة .

——— سور أورشليم الذى بناه نحميا .

– – – – حدود القدس القديمة .

١ – باب التفتيش .	٦ – باب القمامة .
٢ – البوابة الشرقية .	٧ – بوابة الوادى .
٣ – باب الأحصنة .	٨ – الباب القديم .
٤ – باب المياه .	٩ – باب السمك .
٥ – باب النافورة .	١٠ – باب الغنم .

أورشليم وكان السبب الذى أبدوه هو الرغبة فى التفاهم والتصالح. وكان يمكن أن يُقتل نحميا أو يُخطف لو أنه ابتعد مسافة كهذه عن أورشليم التى بها أعوانه وحراسه. وفهم نحميا هدفهم فرفض طلبهم مع أنهم كرَّروه أربع مرات.

٢ – بعد ذلك اتهموه بأنه يريد من بناء السور تحصين المدينة ثم يجعل الشعب ينادى به ملكا على أورشليم. وكان غرضهم الوقيعة بينه وبين السلطات فى فارس. واضطر لأن يسافر إلى سوسة العاصمة لدفع هذه التهمة عن نفسه وشَرَح الأسباب التى جعلت أعداءه يطلقون هذه الإشاعة ويختلقون هذه الفرية. ثم عاد إلى أورشليم.

٣ – ثم أراد أعداء نحميا أن يوقعوه فى عمل يجرِّمه أمام الشعب فيحق لهم قتله. فاستأجروا شخصا لإرهاب نحميا بنبوءات كاذبة والإيهام بأن هناك مؤامرة لقتله. ونصحه بأن يدخل إلى الهيكل ويغلقه على نفسه حرصا على حياته. وفهم نحميا الخدعة وقال (نحميا ١١:٦): «أرَجُل مثلى يدخل الهيكل فيحيا؟ لا أدخل. وتحقَّقتُ وهو ذا لم يرسله الله لأنه تكلم بالنبوءة علىَّ. وطوبيا وسنبلط قد استأجراه لكى أخاف وأفعل هكذا وأخطىء فيكون لهما خبر ردىء لكى يعيِّرانى». إذ لم يكن يحق لنحميا دخول الهيكل لأنه ليس من اللاويين. ولو فعل ذلك يُعيِّراه بهذه الخطيَّة ويعزلوه من الولاية أو يقتلوه.

نحميا يقوم بإصلاح دينى :

ويمكن تلخيص ما قام به نحميا من حركة الإصلاح الدينى فى النقاط التالية :

١ – كان الشعب يصرخ من **سيطرة الغنى على الفقير** وخاصة فى موضوع الإقراض بالربا بين اليهود أنفسهم ومن لا يقدر على رد دينه يؤخذ ابنه أو ابنته عبداً أو أمة لمن أقرضه. تقول التوراة (نحميا ٥ :١): «وكان صراخ الشعب ونسائهم عظيما على إخوتهم اليهود. وكان من يقول بنونا وبناتنا نحن كثيرون. دعنا نأخذ قمحا فنأكل ونحيا. وكان من يقول حقولنا وكرومنا نحن راهنوها حتى نأخذ قمحا فى الجوع. وكان من يقول قد استقرضنا فضة لخراج الملك على حقولنا وكرومنا. والآن لحمنا كلحم إخوتنا وبنونا كبنيهم. وها نحن نُخضِع بنينا وبناتنا عبيدا ويوجد من بناتنا مستعبدات وليس شيىء فى طاقة يدنا. وحقولنا وكرومنا للآخرين». هنا غضب نحميا وأخذ يوبخ العظماء والولاة على أنهم يأخذون الربا من إخوتهم اليهود وبيِّن لهم خطأ ما يفعلون. وطلب منهم أن يردُّوا على إخوتهم ما أخذوه منهم. وحذَّرهم من غضب الله: ففعلوا كما أمرهم.

٢ – دعا نحميا إلى **التخفيف عن الشعب وعدم إرهاقه**. وأوضح لهم أنه – بالرغم من أنه معَيَّن واليا على «يهوديا» إلا أنه لم يفعل فعِل الولاة الذين سبقوه. الذين كانوا يفرضون على الشعب شبه إتاوة يسمونها «خبز الوالى» تتكون من خبز وخمر وفضة. واشترى الولاة من وراء

ذلك حقولا. أما هو - نحميا - فلم يفعل من ذلك شيئا. بل وكان يشارك فى بناء السور مثلهم. وجميع غلمانه كانوا يشاركون فى العمل وكانت مائدته مفتوحة كل يوم لـ ١٥٠ من اليهود، وحتى للعاملين من الأمم الأخرى، وأنه كان يذبح كل يوم من ماله الخاص ثورا واحدا و ٦ خراف ممتازة وطيورا بلا عدد وكان يوزع خمورا بكثرة.

٣ - وفى الشهر السابع دعا نحميا كل الشعب إلى اجتماع فى ساحة المدينة. وطلب من عزرا (عزير) الكاتب أن يأتى **بسفر شريعة موسى**. ووقف عزرا على منبر من الخشب صنعوه له. ووقف على يمينه ويساره أشراف أورشليم ورؤساء العشائر وقرأ عزير شريعة موسى «وبارك عزرا الرب الإله العظيم وأجاب جميع الشعب آمين رافعين أيديهم وخرُّوا سُجَّدا للرب». واستمر عزرا فى قراءة شريعة موسى وقرأ فيها كيفية الاحتفال بعيد المظال الذى كان موعده قد حل. وظل يقرأ لهم الشريعة سبعة أيام أى طوال أيام الاحتفال بالعيد. وفى اليوم الثامن اعتكاف حسب الشريعة وصوم وانفصال عن جميع الغرباء ووقفوا جميعا واعترفوا بخطاياهم وقاموا بصلاة جماعية. وقام نحميا بكتابة ميثاق بين الله والشعب ووقَّع عليه نحميا وختمه بخاتمه واشترك معه فى التوقيع ٢٢ كاهنا و ١٧ لاويا و ٤٤ من رؤساء العشائر وتعهَّدوا جميعا أمام الرب بترك الشر وعدم عصيان الرب وحفظ أيامه وعدم الزواج من الأجنبيات الوثنيات.

٤ - **تصحيح عقيدة السامريين** : سبق أن ذكرنا (ص ٣٠٦) أن من بقوا من بنى إسرائيل فى السامرة بعد السبى الأشورى امتزجوا بالسكان الذين وفدوا عليهم من بابل وحماة وبادية الشام وتكوَّن من الجميع جماعة «السامريين» وكان اليهود السامريون لا يعترفون إلا بالأسفار الخمسة الأولى من شريعة موسى وشاب عقيدتهم بعض الممارسات الوثنية التى أدخلها الوافدون. وكان السامريون فى نزاع دائم مع باقى اليهود وخاصة القادة الدينيين الذين جاءتهم النبوة فى بابل لذلك فإنهم لم يَضُمُّوا لأسفارهم الخمسة تلك التعاليم التى أنزلت فى بابل. فقام عزرا بتصحيح عقيدتهم وتنقيتها مما يخالف شريعة موسى. ولكن السامريين مع ذلك ظلوا جماعة دينية سياسية مستقلة.

٥ - **التأكيد على حرمة العمل يوم السبت** : كان للتجار الصوريين (تجار مدينة صور) الذين يتاجرون فى السمك المجفف وسلع أخرى، مراكز رئيسية فى أورشليم. وكان الناس يكسرون قداسة يوم السبت بالشراء منهم فى هذا اليوم. فكان على نحميا والكهنة أن يوقفوا هذه التجارة. فأمروا الحراس الواقفين على الأبواب الكبيرة لأورشليم بمنع دخول التجار الصوريين فى أيام السبت. فلجأ التجار إلى الدخول من الأبواب الصغيرة وهى كثيرة ولم يكن عليها حراسة من الجنود. فأقام نحميا عليها أفرادا من اللاويين لمنع دخول التجار فى أيام السبت.

٦ - **جمع الزكاة** : وكَّل نحميا أناسا لجمع الزكاة وهى تشمل الأوائل (أوائل الثمار)

والأعشار (زكاة العُشر) فيقومون بجمعها من المزارع والحقول لأنها أنصبة خصصتها الشريعة للكنهة واللاويين.

٧ - **منع الزواج من الأجنبيات** : يبدو أن هذا الزواج كان متفشيا لدرجة كبيرة وكان أهل الشريعة ينظرون إليه على أنه يهدِّد نقاء العنصر اليهودى. وقد رأينا كيف أن عزرا (ص ٤٤٧) قام بتطليق الزوجات الأجنبيات من أزواجهن اليهود. وجاء أيضا نحميا يعيب على الشعب الزواج بالأجنبيات ويوضح لهم مساوىء هذا الزواج فقال (نحميا ١٣:٢٢): «في تلك الأيام رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات ومؤابيات ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودى ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودى بل بلسان شعب وشعب فخاصمتُهم ولعنتُهم وضربتُ منهم أناسا ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلا: لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم». وكان أخو رئيس الكهنة فى أورشليم متزوجا من أجنبية ولم يشأ أن يطلقها فطرده نحميا من الكهنوت ومن أورشليم.

٨ - ترتيبات لحراسة المدينة : أحسَّ نحميا أن بعض الشعب يتآمرون سرا مع العدو . فأقام حراسا على أبواب المدينة فى نوبات مستمرة ليلا ونهارا . وكانت أورشليم - قبل بناء السور - مدينة لا يقبل أحد على السكنى بها لعدم توافر الأمان . أما بعد اكتمال السور فقد بدأ الناس يعودون للسكنى بها . وأراد نحميا أن يتأكد أن لا يأتى إلى أورشليم للإقامة الدائمة بها إلاَّ اليهود الأقحاح فلجأ إلى السجلات القديمة واتخذها أساسا لقبول الراغبين فى السكنى بالمدينة.

وهكذا نجح نحميا فى خلال الاثنى عشر عاما التى قضاها واليا على أورشليم ومقاطعة «يهوديا » من بناء السور وإعادة الأمن إلى أورشليم وقام بحركة إصلاح دينى كبيرة وأعاد العمل بشريعة موسى عليه السلام.

النبى ملاخى Malachi

«ملاخى» اسم عبرى معناه «رسول». وهو آخر أنبياء العهد القديم. وعاصر النبى نحميا فترة من الزمن.

كان اليهود قد عادوا من السبى، وبنوا الهيكل من جديد. ومرت السنون. ولم تزدهر إسرائيل وباتت الحياة صعبة فخابت آمال اليهود. ومرت عليهم سنون كثيرة من القحط وقاسوا من قلة الغلال. فبدأو يشكُّون فى عدالة حكم السماء. «وقالوا إن فاعل الشر صالح فى نظر الرب وأن لا فائدة تُجنَى من إطاعة الله والعمل بوصاياه. وأن الشرير والمتكل على نفسه هو الذى ينجح». وقد نعى عليهم الرب هذا القول (ملاخى ٣:١٣): «أقوالكم اشتدَّت علىَّ . قال

الرب. قلتم عبادة الله باطلة. وما المنفعة من أننا حفظنا شعائره وأننا سلكنا بالتقوى والوقار أمام رب الجنود وفاعلو الشر يبنون». فبادر النبى ملاخى بالرد عليهم موضحا لهم أن هذه النزعة التشكيكية مبنية على خطأ فى الفهم. وما أصابهم كان بسبب أن عبادتهم شكلية وفاسدة. وأن الكهنة كانوا قدوة سيئة لباقى الشعب فى مظهرية العبادة فكانوا يأتون بالتقدمات المعيبة وكل ذلك فيه عدم توقير للرب. فنعى عليهم ملاخى هذه التصرفات (ملاخى ١:٦): «يقول الرب. الابن يكرم أباه. والعبد يكرم سيده. فإن كنتُ أنا أبًا فأين كرامتى؟ وإن كنتُ سيدا. فأين هيبتى؟ قال لكم رب الجنود. أيها الكهنة المحتقرون اسمى. تُقرِّبون خبزا بخسا على مذبحى وتقولون بِمَ نجّسناك؟ وإن قربتم قرّبتم الأعمى ذبيحة. أفليس ذلك شرًا؟ وإن قرّبتم الأعرج والسقيم أفليس ذلك شرا؟ بل لا توقدون على مذبحى مجانا. ليست لى مسرةٌ بكم. قال رب الجنود ولا أقبل تقدمة من يدكم. ملعون الماكر الذى يَنْذُرُ ويذبح للرب عائبا. والآن إليكم هذه الوصية أيها الكهنة. إن كنتم لا تسمعون ولا تجعلون فى القلب لتعطوا مجداً لاسمى فإنى أرسل عليكم اللعن وألعن بركاتكم». ثم يوضح لهم أنهم إن اتقوا الله حق تقاته (ملاخى ٣:١١): «أفتح لكم كوى السموات وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع. ولا يفسد لكم ثمر الأرض ولا يعقر لكم الكرم فى الحقل. قال رب الجنود».

وهذا يشبه قوله تعالى فى القرآن الكريم :

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات فى السماء والأرض» . (٩٦-الأعراف).

«ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» . (٦٦ - المائدة).

ودعا ملاخى الشعب إلى التوبة وأن يطهّروا أنفسهم من الخطايا وأن يُقدّموا العشور كاملة وتكون الذبائح خالية من العيوب. وبَشّر المتقين بأنهم سيظهرون على الأشرار (ملاخى ٤:٢) «ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها فتخرجون وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رمادا تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود. اذكروا شريعة موسى عبدى التى أمرته بها فى حوريب (جبل موسى) على كل إسرائيل الفرائض والأحكام». وكان ملاخى آخر أنبياء هذه الفترة من تاريخ بنى إسرائيل إلى أن جاء يحيى المعمدان مبشرا بمقدم المسيح عليهما السلام.

بقيت بعض النقاط المهمة التى يجب ذكرها. ذلك أننا شرحنا كيف ظهرت فارس والخدمات الجليلة التى قدمتها لليهود. وجاءت رؤى النبى دانيال - الأولى والثانية (ص ٤٠٦) - تتنبأ بزوال دولة الفرس وقيام مملكة الاسكندر الأكبر. ثم انقسامها إلى أربع ممالك بعد وفاته فلزم أن نبين كيف تحققت هذه النبوءات. ونختم بفصل عن حال اليهود تحت حكم الإغريق.

نهاية الامبراطورية الفارسية

لقد رأينا كيف كانت فارس أداة الرب لتأديب بابل التى كانت قاسية فى معاملتها لليهود وكيف سمح ملوك فارس بعودة السبى إلى أورشليم وسمحت لهم وساعدتهم فى بناء الهيكل. ولكن دوام الحال من المحال كما يقال. وبدأت امبراطورية فارس تدخل فى دور الشيخوخة والاضمحلال. أنهكتها الحروب وأرهقتها المعارك فى مختلف الميادين والثورات التى قامت ضدها فى معظم البلدان التابعة لها. وكَثُرت الصراعات والاقتتال حول العرش. وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٤٥) مقتل إكزركسيس (٤٦٦ ق.م). وتولى بعده أرتاكزركسيس الأول (٤٦٦ – ٤٢٤ ق.م.) ثم تولى بعده دارا الثانى (٤٢٤ – ٤٠٤) وكان عابدا للنار متعصبا لمعتقداته ثم تولى بعده أرتاكزركسيس الثانى Artaxerxes II بعد أن تغلَّب على أخيه وحكم لمدة ٦٣ عاما (٤٠٤ – ٣٤١ ق.م) وقامت فى أوائل سنى حكمه ثورة فى مصر ضد الحكم الفارسى:

ثورة مصر (٤٠٤ ق.م.) :

قام «أميرتى» أو «أميرتايوس» حاكم «صا الحجر» (فى غرب الدلتا قرب دسوق) بالثورة على التبعية لفارس وأيده أمراء كثيرون ثم أعلنوه فرعونا ابنا للإله رع. وبه بدأت **الأسرة ٢٨** . واستطاع أن يستولى على كل الدلتا ويحررها من فارس وأصبح الوالى الفارسى محاصرا فى منف ومعه بعض جنوده. وثار كذلك الأمير «إنياروس» حاكم مقاطعة مريوط واتصل بأثينا طالبا مساعدتها فأمدته بأسطول مكون من ٣٠٠ سفينة. وتقدم الأسطول من البحر المتوسط فى فرع النيل الغربى حتى وصل منف واحتل الجنود اليونانيون أجزاء منها ولكن أرتاكزكسيس كان قد أرسل نجدة فارسية مكونة من ٣٠٠,٠٠ مقاتل. وشعر اليونانيون بضعف موقفهم فانسحبوا إلى الشمال من منف. ولكن الفرس أحرقوا السفن اليونانية وقتلوا الجند وأخذوا «إنياروس» أسيرا إلى سوسة عاصمة الفرس وصُلِب هناك. وظل «أميرتايوس» زعيما للحركة الوطنية ومحتفظا باستقلال الدلتا. وأرسل إلى أثينا يطلب معاونتها لطرد الفرس كلية من البلاد فأرسلت له أسطولا مكونا من ٦٠ سفينة ولكنها عادت قبل أن تصل إلى مصر لوفاة ملك أثينا ولعقد هدنة بين فارس وأثينا فكانت فترة قصيرة من السلم. ورأى أرتاكزركسيس الثانى أن يسحب الوالى الفارسى من مصر وعيَّن حكاما مصريين للأقاليم. وفى هذه الفترة زار مصر عدد من أعلام اليونان مثل «**هيرودوت**» «أبو التاريخ» الذى تجوَّل فى كل مكان وقيَّد كل ملاحظة وتحدث إلى كل من لاقاه. وشهد أعياد مصر فى سايس وبوبسطة ورأى مواكب إيزيس. وسجَّل ذلك كله فى كتاباته الخالدة.

الأسرة ٢٩ :

قام « **نف عاورور الأول**» أو « نفريتس » بقتل أمير تايوس فانتهت الأسرة ٢٨ وأسس

الأسرة ٢٩ وكان «نف عاورور» من «منديس» (تل الربع ٢٠كم جنوب المنصورة) واتبع سياسة الاستعانة بالإغريق ضد الفرس. وكانت اسبرطة تحارب الفرس فأرسل «نف عاورور» أسطولا من ١٠٠ سفينة عليها ٨٠٠,٠٠٠ مكيال من القمح وذخيرة حرب (سهام ودروع) لمعاونة اسبرطة. ولكن الأسطول الفارسى اعترضها عند جزيرة رودس فعادت إلى مصر.

ثم جاء بعده «**أكوريس**» (٣٩٣ - ٣٨٠ ق.م) وتحالف مع أثينا ضد الفرس وأرسل ٥٠ سفينة حربية ومددا من القمح والمال ولكن فارس استطاعت بالسياسة أن تفضً هذا التحالف فوضع أكوريس همه فى الإصلاح الداخلى وإقرار الأمن فى البلاد وترميم الآثار طوال باقى مدة حكمه. وخلفه «نف عاورور الثانى» الذى لم يحكم سوى أربعة أشهر إذ قام عليه «نختانبو الأول» وقتله وتولى الحكم مؤسسا الأسرة الثلاثين.

الأسرة ٣٠ السمنودية :

كانت فترة سلم نسبى بين فارس واليونان حينما تولى «**نختانبو الأول**» حكم مصر. وركزت فارس جهدها للانتقام من مصر وجمعت جيشا فى عكا قوامه ٢٢٠,٠٠٠ مقاتلا وهاجم الفرس من ناحية البحر عند مصبات الأنهار فى حين كان جيشهم البرى يتقدم من ناحية بلوزيوم. ولكن الجيش المصرى استطاع أن يرد الفرس ونعمت مصر بـ ٣٠ عاما أخرى من الاستقلال زارها أثناءها بعض من مشاهير العلماء اليونان مثل «أفلاطون».

وبعد نختانبو حكم «تيوس» وجهّز جيشا ضخما من ٨٠,٠٠٠ مصرى و ١٠,٠٠٠ مرتزقة من أثينا وألف متطوع من اسبرطة وما بين ٢٠٠ - ٣٠٠ سفينة. وكان هدفه استعادة النفوذ المصرى فى فلسطين وسوريا. وللإنفاق على تجهيز الحملة ولدفع أجور الجنود المرتزقة اضطر إلى فرض ضرائب أثقلت كاهل المصريين وحض الكهنة على التنازل عن جانب من أملاكهم واستولى على معظم المخصصات المرصودة للمعابد مما أدًى إلى حالة تذمر وعدم رضا فى البلاد. وعندما خرج الجيش إلى بلاد الشام لضرب الفرس فيها انقلب أخو «تيوس» فى مصر عليه وأرسل يستدعى ابنه وكان يقود فرقة من الجنود المصريين فى جيش عمه - فعاد وقاد الانقلاب وانضم إليه الجنود الاسبرطيون. ولما رأى الجنود المرتزقة الباقين هذه الفُرقة انسحب الأثينيون، وفشلت الحملة. وتولى الحكم فى مصر «نختانبو الثانى» (بدلا من عمه) وأرضى الكهنة وأعاد للمعابد مخصصاتها.

إعادة الفرس فتح مصر :

رأى أرتاكزركسيس الثالث (٣٤١ - ٣٣٥ ق.م.) أنه لابد من إعادة فتح مصر فقاد جيشا قوامه ٣٠٠,٠٠٠ جندى يسانده أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة واتجه نحو مصر وكان الجيش المصرى لا يزيد عن ١٠٠,٠٠ جندى بالإضافة إلى عدة آلاف من المرتزقة الإغريق. ووقعت

المعركة عند بلوزيوم (الفرما) وقاومت القوات المصرية مقاومة مستبسلة ولكن لما رأى الإغريق أن كفة الفرس هى الراجحة انضموا إليهم وهُزم الجيش المصرى وتراجع إلى منف. ومع تقدم الفرس تراجع إلى أقصى الصعيد حيث احتفظ ببعض النفوذ لمدة عامين إلى أن أعاد الفرس سيطرتهم على كل البلاد عام ٣٤١ ق.م ولكن هذه الفترة من الاحتلال الفارسى لم تدم أكثر من ١١ عاما (إذ دخل الاسكندر الأكبر مصر فاتحا عام ٣٣٠ ق.م.) إلا أنها كانت أسوأ فترة إذ بدأها الفرس بانتقام عنيف. وأمر أرتاكزركسيس الثالث بتدمير أسوار المدن الرئيسية ونهب كنوز المعابد وامتهن ديانة المصريين وأمر بنقل تماثيلها الثمينة إلى فارس. وعيَّن واليا فارسيا على مصر وعاد بجيشه إلى سوسة عاصمة ملكه. ولكنه مات مسموما بعد وقت قصير من عودته وخلفه ولده الذى مات مسمومًا أيضا.

نهاية امبراطورية الفرس:

قامت فى مصر ثورة ثانية. واعترف كهنة منف وبعض أمراء الصعيد بزعيمها فرعونا للبلاد. ولم يهبّ الفرس لإخماد هذه الثورة إذ كانوا مشغولين بدرء الخطر القادم من الغرب متمثلا فى جيش اسكندر ابن فيليب المقدونى الذى كان قد عبر الدردنيل مهدِّداً فارس نفسها. وكان قد تولى حكم فارس - بعد أرتاكزركسيس الثالث - أرسيس (٣٣٨ - ٣٣٥ ق.م) ثم داريوس الثالث (٣٣٥ - ٣٣١ ق.م.) وكان اسكندر الأكبر قد تقدم واستولى على الشام وفلسطين وأخيرا مصر عام ٣٣١ ق.م. فأنهى حكم الفرس وأصبحت كل هذه البلاد ولايات يونانية. ثم تابع فتوحاته فأخضع العراق وفارس كما سيأتى فى الفصل التالى.

الفصل الثانى والعشرون :

اليهود فى ظل الإغريق

فى هذا الفصل والفصل التالى سنتكلم عن :

أ - الاسكندر الأكبر .

ب - خلفاء الاسكندر .

جـ - الثورة اليهودية المكابية .

الاسكندر الأكبر

ذكرنا سابقا (ص ٤٣٤) حملة إكزركسيس الأول على اليونان وكيف انتهت بهزيمته وبالكاد استطاع عبور الدردنيل والنجاة بنفسه وبجزء من جيشه. ولكن المقاطعات اليونانية على الساحل الغربى لآسيا الصغرى حررت نفسها من الحكم الفارسى. وشعرت الدويلات الإغريقية بفائدة اتحادها بدلا من تطاحنها وظهرت المقولة «اسبرطة تملك أحسن الجيوش وأثينا تملك أحسن الأساطيل». ومرت عدة مراحل من الحروب المحلية حتى استطاع فيليب المقدونى من توحيدها جميعا تحت إمرته إذ كان الجيش المقدونى هو الأكثر عددا والأكثر تدريبا ونظاما. وبدأ فيليب يعد العدة لغزو الفرس فى عقر دارهم ولكنه اغتيل فى عام ٣٣٦ ق.م. وخلفه ابنه الاسكندر والذى كان يبلغ من العمر ٢١ عاما - وقد قُدِّر له أن يقضى على امبراطورية الفرس وينشىء أكبر امبراطورية عرفها التاريخ فى ذلك الوقت ولذلك سمى «اسكندر الأكبر Alexander the Great».

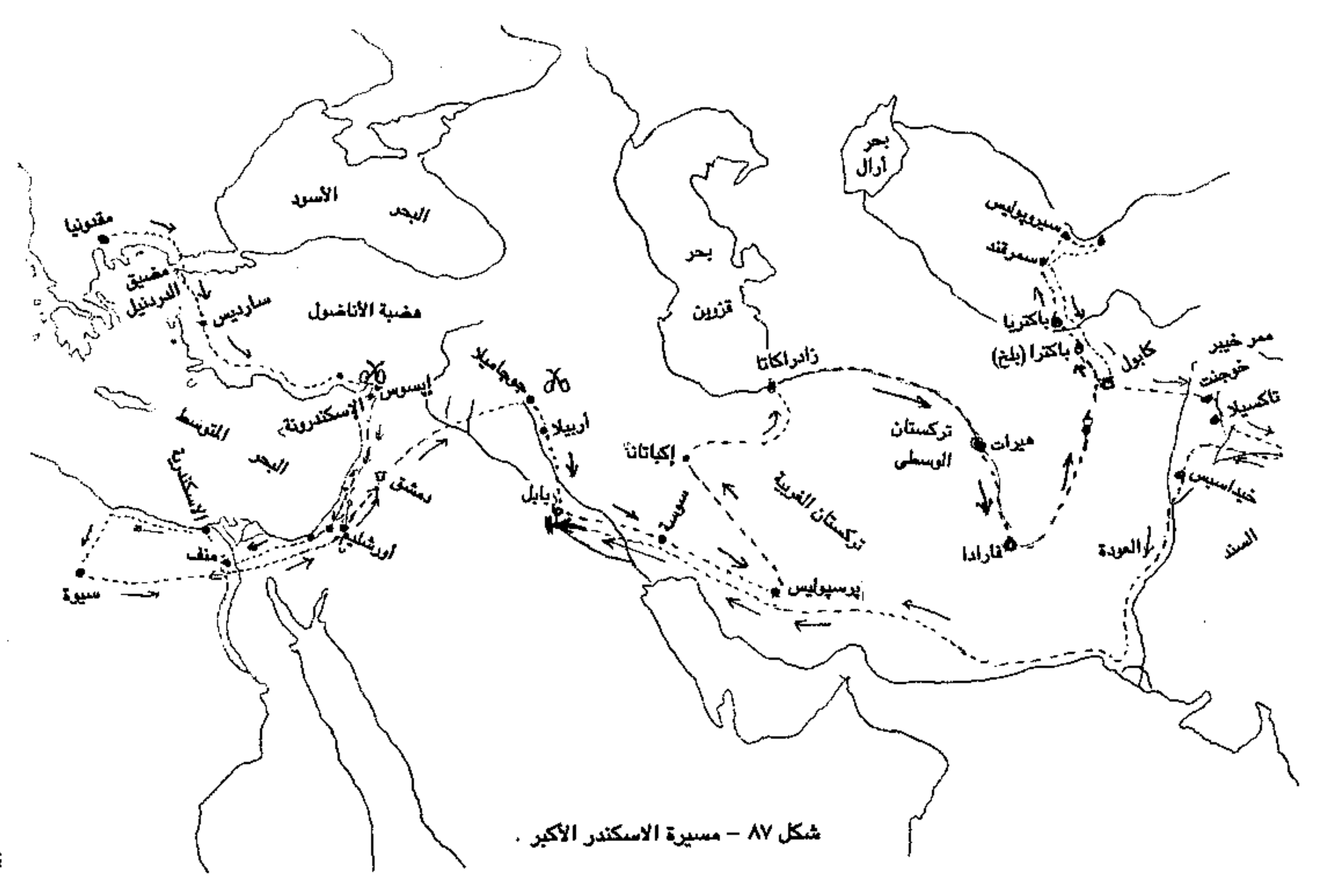
بدأ اسكندر حملته فى عام ٣٣٤ ق.م. فعبر مضيق الدردنيل وتقابل مع الجيش الفارسى فى ساردبس وهزمه. وتقدم فى آسيا الصغرى وقابل الفرس فى معركة ثانية عند إيسوس (قرب الاسكندرونة الحالية) وهزمهم. فتراجع الفرس إلى شمال العراق. لم يطارد الإسكندر الفرس فى شمال العراق بل سار جنوبا واستولى على مدن الساحل الفينيقى ثم استولى على فلسطين ويهوديا حتى وصل إلى أورشليم وقوبل بالترحاب وخاصة من رئيس الكهنة اليهودى وذكر له نبوءات النبى دانيال التى تنبأ بها على فارس وزوال ملكها. وسُرَّ الاسكندر الأكبر سرورا عظيما بهذه النبوءات. كان الوقت هو صيف عام ٣٣٢ ق.م. وتابع سيره جنوبا وجرح

فى معركة فى غزة فقضى فيها عدة أشهر حتى برىء من جرحه ولم يستأنف المسيرة إلا فى ديسمبر. واتجه نحو مصر. واستولى على بلوزيوم. ولم يلاق أى مقاومة فوصل بعد أيام قليلة إلى منف وهربت حامية الفرس وباركه المصريون ورحَّب به الكهنة. وأدخله كهنة بتاح إلى قدس الأقداس فى المعبد ومنحه الكاهن الأكبر «مملكة رع وجلال حور» وطلب منه أن يقدم ذبيحة فى ضريح أوزير. وبهذا التكريس أصبح الاسكندر فرعونا وابنا لأمون وإلها لمصر العليا والسفلى.

ثم ارتحل الاسكندر إلى الشمال وأمام جزيرة «فاروس» وجد قرية صغيرة ورأى بثاقب بصره أنها من الممكن أن تصبح ميناء ومركزيا تجاريا فردم الجزء الفاصل بين الجزيرة والشاطىء وخطط الشوارع وأماكن سكنى المقدونيين والمصريين واليهود وهكذا نشأت مدينة الإسكندرية. ثم سار غربا إلى مكان مرسى مطروح الحالية وانحدر جنوبا إلى واحة سيوة فوصلها بعد ١٠ أيام. واتجه صوب معبد آمون. ورحَّب به كبير الكهنة وقاده إلى قدس الأقداس. وأعلن أن وحى السماء قد أعلن أن العالم من شرقه إلى غربه مِلكُ الاسكندر عن طريق الحق الإلهى. ومكث الاسكندر فى مصر ٦ شهور. ثم عبر النيل شرقا فى عام ٣٣٠ ق.م. واتخذ طريقه إلى فلسطين فاستولى على بقيتها ثم اتجه إلى دمشق. وواصل سيره إلى شمال العراق.

كان دارا الثالث ملك الفرس قد جمع جيشا كبيرا للدفاع عن بلده ووقعت المعركة الفاصلة فى عام ٣٣١ ق.م. فى مدينة «جوجا ميلا» أو «أربيلا» وهى على نهر دجلة قرب مدينة نينوى. وانهزم الفرس شر هزيمة وسار الإسكندر إلى «سوسة» العاصمة الفارسية واستولى عليها ثم إلى «برسبوليس» - العاصمة الثانية - واستولى عليها وأحرق قصر الملك وأعلن أن هذا رد على إحراق إكزركسيس لأثينا. ثم أمضى الاسكندر السبع سنوات التالية فى تجوال حول الهضبة الإيرانية ووصل إلى شواطىء بحر قزوين. ثم اتجه شرقا عبر التركستان الغربية وسار شمالا حتى وصل إلى جبال تركستان الوسطى ثم اخترق ممر خيبر حتى وصل إلى إقليم السند فى الهند (شكل ٨٧).

وكان يريد الاستمرار فى سيره شرقا إلا أن جنوده أبوا مواصلة السير فاضطر إلى الاتجاه جنوبا حتى وصل إلى مصب نهر السند وسار غربا بمحاذاة الشاطىء فى أرض قاحلة حتى وصل إلى الخليج الفارسى وقاسى الجيش فى طريقه متاعب كثيرة وعانى الجنود من الجوع والعطش ومات الكثيرون وعاد إلى سوسة فى عام ٣٢٤ ق.م وكان الاضطراب يعم الامبراطورية. ووصلت الأنباء باضطرابات فى مقدونيا نفسها. فأخذ يشق طريقه إلى بلاد الإغريق بيد أنه فى حفل صاخب فى بابل أكثر من الشرب وألَمَّت به حمى مباغتة ومات وهو فى الثالثة والثلاثين من العمر عام ٣٢٣ ق.م.



شكل ٨٧ – مسيرة الاسكندر الأكبر .

خلفاء الاسكندر الأكبر

فور موت الاسكندر الأكبر فى صيف عام ٣٢٣ ق.م. عقد قواده مؤتمرا فى بابل لبحث مشكلة حكم الامبراطورية المترامية الأطراف. وكان الموت قد فاجأ الاسكندر دون أن يترك وصية أو يرشح خلفا له ودون أن يترك وريثا للعرش يخلفه وإن كان قد ترك زوجة فارسية هى «روكسانا Roxana » حاملا فى الشهر السادس كما ترك أخا غير شرعى ومصابا بتخلف عقلى. وكان لكل قائد مطامعه الشخصية ولكنهم جمحوها حفاظا على وحدة الامبراطورية لذلك اتفقوا على أن يتولى شقيق الاسكندر الحكم كسلطة مركزية تحت وصاية القائد «برديكاس» فى حين يتولى قواد الجيش حكم الولايات. ولكن راح كل قائد يحاول توسيع نفوذه على حساب غيره ونشبت حروب كثيرة بينهم وبين الوصى على العرش الذى أراد أن تكون له الكلمة العليا. فاجتمع القواد مرة ثانية فى سوريا لإعادة تقسيم ولايات الامبراطورية ونتج عن هذا المؤتمر تقليص سلطات الوصى على العرش إلى مجرد سلطة اسمية وتم الاعتراف بشبه استقلالية للأقاليم الأربعة الكبار (شكل ٨٨):

١ – مصر من نصيب بطليموس Ptolemy.

٢ – بابل من نصيب سلوقس Seleucus.

٣ – آسيا الصغرى وشمال سوريا من نصيب أنتيجونس Antigonus.

٤ – بلاد الإغريق تبقى جمهورياتها خاضعة لمقدونيا ويحكمها أنتيباتروس .

وهكذا تحققت رؤى النبى دانيال (ص ٤٠٦) بانقسام امبراطورية الاسكندر إلى ممالك أربع.

كان أنتيجونس هو الوحيد الذى يرغب فى إعادة توحيد الامبراطورية. ولكن الآخرين عارضوا هذه الفكرة. ولعل معارضتهم كانت تنبع من أن آسيا الصغرى تعتبر فى مركز الوسط من الإمبراطورية مما قد يعنى وضعا متميزا له بحيث يصبح هو السلطة المركزية لذلك تحالف الجميع ضده وقامت مملكة مقدونيا بغزو آسيا الصغرى فى محاولة لتقسيمها بين الأسرة السلوقية فى الشرق والبيت الحاكم فى مقدونيا من جهة الغرب. ولكن قبائل من البدو الرحَّل من الكلت Celts أغارت من منطقة الدانوب الأوسط على بلاد اليونان وأحالتها إلى فوضى عارمة وانتهز أنتيجونس الثانى الفرصة وقام بغزو مقدونيا واستولى على العرش فيها وبذلك عوَّض ما استولى عليه السلوقيين من النصف الشرقى لآسيا الصغرى وبذلك أصبحت الممالك ثلاث فقط (شكل ٨٩):

١ – مصر ويحكمها بطليموس الثانى .

شكل ٨٨ – امبراطورية الإسكندر الأكبر وانقسامها إلى أربع ممالك.

٢ – المملكة السلوقية (بابل وسوريا وشرق آسيا الصغرى) ويحكمها أنطيوخس.

٣ – مقدونيا وغرب آسيا الصغرى ويحكمها أنتيجونس.

كان هذا تبسيطا لما دار من صراعات بين قواد الإسكندر الأكبر عقب وفاته. إلا أن الأمر كان أعقد من ذلك بكثير . ومن يريد التوسع يمكنه الرجوع إلى كتب التاريخ المختصة بهذه الفترة . وقد كان لهذه الصراعات انعكاس على فلسطين – التى تقع فى الوسط بين القوى المتصارعة – وبالتالى على اليهود. ونبدأ بموجز عن بعض هذه القوى:

أ – بطليموس فى مصر :

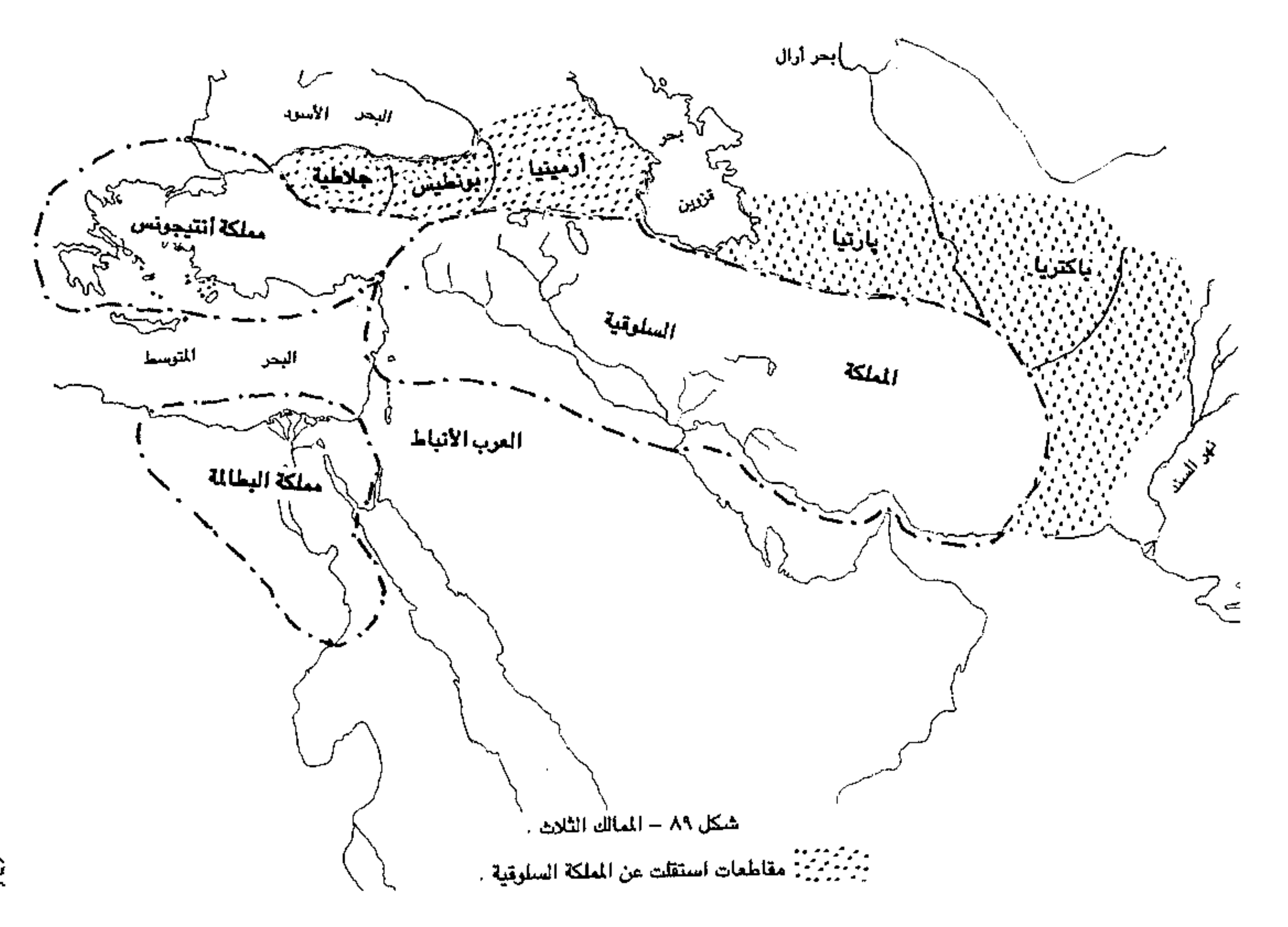
كانت مصر من أغنى الأقاليم كما كان من السهل الدفاع عنها. وكان تدمير ميناء صور والقضاء على البحرية الفينيقية وإنشاء مدينة الإسكندرية وبناء أسطول قوي فيها قد أتاح لمصر السيادة فى شرق البحر المتوسط والسيطرة على الموانىء الجنوبية لآسيا الصغرى. ونافست مصر قرطاجنة التي كانت تسيطر على الجزء الغربى من البحر المتوسط.

ووجد المصريون فى حكام البطالمة حكومة أشد عطفا وأكثر تسامحا من أى حكم أجنبى نزل بهم سابقا. ويقول المؤرخون إن المقدونيين ليسوا هم الذين سادوا مصر وحكموها. بل إن مصر هى التى غلبت البطالمة ومصّرتهم فضمّتهم إليها. إذ أن الذى حدث كان عودة إلى الحضارة المصرية أكثر منه محاولة لصبغ البلاد بصبغة إغريقية وأصبح بطليموس هو الفرعون الملك الإله. وكان بطليموس أحد الشبان الذين أحاطوا بالإسكندر فى مقدونيا وتشبّع بالأفكار التى أوحاها وبثّها «أرسطو» فى بلاط فيليب المقدونى. وكان بطليموس قد أوتى مواهب عقلية خارقة يجمع بين تنظيم المعرفة وقوة الابتكار. فما إن أتيحت له الفرصة بالانفراد بحكم مصر حتى ظهرت مواهبه فى ملامح رئيسية كان هو المبتكر الأول لبعضها وفى البعض الآخر كان عاملا أساسيا فى إنجاحها:

١ – أقام بطليموس المتحف Museum والذى كان فى جوهره كلية من علماء يُعنون بصفة خاصة بالبحث العلمى مثل إقليدس وأرشميدس.

٢ – اللغة: لم تصمد اللغة الهيروغليفية – لصعوبتها – أمام اللغة الإغريقية وأصبحت اللغة اليونانية هى اللغة الشائعة بين طبقة المتعلمين.

٣ – مكتبة الاسكندرية: عمل بطليموس على تنظيم المعرفة فكان أن أنشأ مكتبة الإسكندرية الشهيرة والأولى من نوعها فى العالم. إذ كانت ذات طابع موسوعى تهدف إلى الإحاطة الشاملة بكل شيىء. فلو أحضر أى شخص غريب إلى مصر كتابا كان لزاما عليه أن يقدّمه ليقوم الكتبة بكتابة نسخة منه لحفظها فى المكتبة. وكان تنظيم ما يتجمع من الكتب وترتيبها وكتابة الفهارس يتم بغاية الدقة (معالم تاريخ الإنسانية. هـ . ج ويلز . جـ ٢. ص ٤٥٧).



شكل ٨٩ – الممالك الثلاث .

مقاطعات استقلت عن المملكة السلوقية .

٤ – كان يلذ لبطليموس صحبة العلماء والأدباء وفطن إلى أن رعاية العلوم والفنون هى أنجح وسيلة تكسبه وسلالته المجد والخلود. لذلك فإنه دعا إلى الإسكندرية كثيرا من شعراء الإغريق وأدبائهم وفلاسفتهم وفنانيهم.

٥ – فلسفة الإسكندرية الدينية: سرعات ما تحولت الاسكندرية إلى مركز نشاط عقلى تنافس فى ذلك أثينا ذاتها وأصبحت الإسكندرية مركزا لا يُضاهى للفلسفة الدينية وكان من نتائجها اتحاد الآلهة. فقد تم توحيد «أوزريس» مع العجل المقدس «أبيس» تحت أسم «سيرابيس» ثم تم توحيده مع «چوپيتر» الإله الإغريقى فى «چوپيتر سيرابيس» رب الاسكندرية الهيلينية. بعد ذلك تم إحياء الثالوث المقدس المكون من :

أ – الرب «سيرابيس» المكون من اتحاد أوزريس مع أبيس .

ب – الربة «إيزيس» وهى «هاتور» الربة البقرة مع القمر .

جـ – الرب الطفل «حورس» وهو أيضا إله الشمس.

فهى ثلاثة آلهة ولكنها أيضا عبارة عن إله واحد. وقد عارض اليهود هذه الفلسفة إذ كانت عقيدتهم تؤمن بإله واحد هو «يهوه» رب السموات والأرض.

٦ – السياسة الخارجية: فطن بطليموس إلى أن القوة العسكرية هى التى تضمن بقاءه فى الحكم. ولما كانت ثروة مصر تعتمد – بجانب الزراعة – على تجارتها الخارجية واتساع نطاقها فإن السيطرة على الطرق البحرية تضمن له الاستقلال السياسى والقوة الاقتصادية. لذلك وجّه بطليموس جهده لبناء أسطول قوى. وكان السبيل للحصول على الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول هو الاستيلاء على الأقاليم الغنية بالأخشاب مثل سوريا والساحل الفينيقي وقبرص. وهكذا كان للبطالمة تطلعات سياسية لمد نفوذهم خارج مصر.

٧ – اليهود فى عصر البطالمة: عند مجيء الاسكندر الأكبر لمصر رحب به اليهود. وعند بناء الاسكندرية سكنوا فى حى من أحيائها وبلغ من كِبَر هذا الحى أن أصبحت مدينة الاسكندرية تضم أكبر تجمّع سكانى يهودى فى ذلك الوقت. وبها من اليهود عددا يوازى أو يفوق عددهم فى أورشليم ذاتها. إذ قدم إليها عدد كبير من يهود فلسطين. ولما كانت اللغة الإغريقية قد أصبحت هى لغة العلوم والمتعلمين فقد وجدت الجالية اليهودية فى الإسكندرية لزاما عليها أن تترجم التوراة إلى اللغة اليونانية إذ لم يعد كثير من اليهود قادرين على فهم اللغة العبرانية.

ب – المملكة السلوقية :

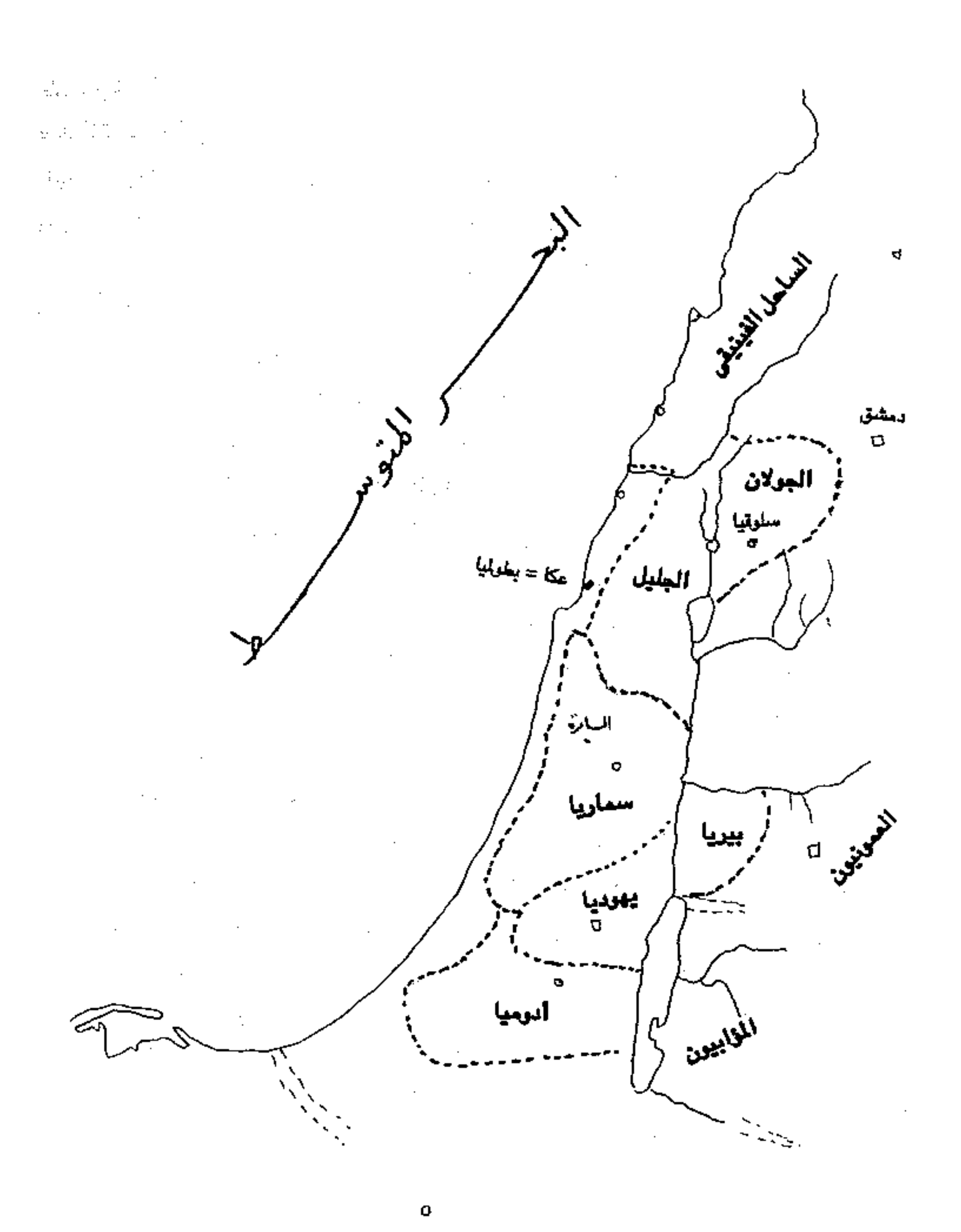
كانت هذه المملكة من أكبر أجزاء امبراطورية الاسكندر اتساعا. إذ تمتد من نهر السند شرقا حتى آسيا الصغرى غربا. وتضم أقواما وقوميات كثيرة. وكان من الصعب السيطرة عليها بواسطة الجنود الإغريق الذين تحت إمرة سلوقس. كما أن بعدها عن اليونان يجعل من الصعوبة طلب النجدة عند احتياجها فضلا عن وصولها فى الوقت المناسب. وقد لمس سلوقس

ونجله أنطيوخس هذه الصعوبات وعملا جهدهما لحلها. وتمثل الحل فى تشجيع الهجرة من اليونان. وللتشجيع على ذلك بدأ سلوقس ببناء مدن كثيرة على الطراز الإغريقى. وكانت مدينتان من هذه المدن كبيرتين نوعا ما : الأولى «أنتيوخ» في سوريا والثانية «سلوقيا» على نهر دجلة. وقد نمتا بحيث اتسعت كل واحدة لـ ٧٥,٠٠٠ نسمة وأصبحتا العاصمة الغربية والشرقية للدولة. أما المدن الأخرى فكانت الواحدة تسع من ٥ - ١٥ ألف نسمة. واستقدم سلوقس حوالى ١٠٠,٠٠٠ عائلة من اليونان لسكنى هذه المدن وليكونوا النواة لإبقاء هذه البلاد المترامية تحت سيطرته. وبالرغم من هذا فإن الأقاليم فى أقصى الشرق وأقصى الشمال لم يمكن السيطرة الفعلية عليها وأصبحت شبه مستقلة. لذلك فإن سلوقس ونجله أنطيوخس ركزا على الجزء الغربى من المملكة وخاصة سوريا وما جاورها من العراق شرقا ومن آسيا الصغرى غربا وحاولا أن يصبغا البلاد بالصبغة الإغريقية بنشر الثقافة وعبادة الآلهة اليونانية وإجبار الشعوب على التقاليد الإغريقية.

فلسطين فى ظل الحكم الإغريقى :

كانت فلسطين وجنوب سوريا نقطة التقاء بين الدول الثلاث: الدولة البطلمية فى مصر والدولة السلوقية فى الشرق وأنتيجونس فى اليونان وآسيا الصغرى. وظلت فلسطين يتنازعها بطليموس وأنتيجونس. ففى أول الأمر تطلع بطليموس إلى الاستيلاء على فلسطين ليؤمِّن سلطانه فى مصر. فقام بطليموس الأول بغزو سوريا فى عام ٣٢٠ ق.م. واستولى على أورشليم فى عام ٣١٩ ق.م. ولكن أنتيجونس انتزعها منه. إلا أن بطليموس سرعان ما عاد إليها بعد انتصاره العظيم على ديمتريوس ابن أنتيجونس فى موقعة غزة عام ٣١٢ ق.م. ثم تابع تقدمه واستولى على فلسطين والساحل الفينيقى. ولكن ديمتريوس عاد فانتصر على بطليموس فى شمال سوريا فى العام التالى ٣١١ ق.م. فانسحب بطليموس من فلسطين مرة أخرى. ولكنه عاد إليها فى عام ٣٠٢ ق.م. منتهزا فرصة إنشغال ديمتريوس فى حروب فى آسيا الصغرى. واستقر الأمر لبطليموس فى فلسطين ويهوديا فترة من الوقت. ثم بدأت المنطقة تشهد صراعا بين الأسرتين البطلمية والسلوقية وتكررت الحروب بينهما للسيطرة على فلسطين وسوريا وتبادل فيها الجانبان النصر والهزيمة عدة مرات ثم استقر الأمر للبطالمة وظلوا يحكمون فلسطين لمدة ١٠٢ سنة متعاقبة هى طوال مدة حكم بطليموس الأول (ماعدا السنوات العشر الأولى) ثم بطليموس الثانى والثالث والرابع. وكان التقسيم الإدارى لفلسطين فى عصر البطالمة كما فى شكل ٩٠. وقسمت إسرائيل إلى ٥ مناطق رئيسية: الجولان والجليل وسماريا ويهوذا أو يهوديا وأدوميا.

قلنا إن بطليموس الأول استولى على أورشليم عام ٣١٩ ق.م. وكان طبيعيا أن يحمل معه



شكل ٩٠ – أقسام فلسطين الإدارية تحت حكم البطالمة .

(٣١١ – ١٩٨ ق . م .)

عند عودته إلى مصر أسرى من اليهود الذين كانوا يعارضون السلطة البطلمية وتكرر الأمر عند انتصاره فى معركة غزة وإعادة استيلائه على فلسطيم عام ٣١٢ ق.م. ويبالغ المؤرخون اليهود كثيرا عندما يتعرضون لتحديد عددا الأسرى الذين جلبهم بطليموس الأول إلى مصر – وإن كان ابنه بطليموس الثانى قد حرر غالبيتهم – فيقول بعض مؤرخيهم إنهم بلغوا ١٠٠,٠٠٠. ولكن معظم المؤرخين يرون أنهم كانوا أقل من ذلك بكثير ويذكرون عددا مساويا للذين أجلاهم نبوخذنصر فى السبى البابلى أى ٣٠ أو ٤٠ ألفا. وإلى جانب هؤلاء الأسرى جاء كثير من اليهود بمحض إرادتهم إذ استشعروا سماحة بطليموس الأول وسمعوا عن معاملته الطيبة. كذلك فإن الملك أدرك فائدة استخدام اليهود فى جيشه كجنود مرتزقة فمنحهم أراضى ليستقروا فى مصر. فاستقروا وخاصة فى مدينة الإسكندرية حتى أصبحت الجالية اليهودية فيها من أكبر الجاليات كما سبق أن ذكرنا.

وظلت فلسطين تابعة لمصر إلى أن قام أنطيوخس الثالث أو أنطيوخس الكبير ملك السلوقيين بالاستيلاء على سوريا وفلسطين وزحف على مصر فوقعت معركة عند رفح عام ٢١٧ ق.م. استرد فيها بطليموس الرابع النصف الجنوبى من فلسطين – أدوميا ويهوذا – وقام بزيارة هيكل أورشليم دعما لليهود الموالين للبطالمة. ولكن فى عام ١٩٩ ق.م. قاد أنطيوخس الثالث جيشا إلى المنطقة وانهزم البطالمة بقيادة بطليموس الخامس فى معركة «بانيون أو بانياس» واستولى السلوقيون على سوريا وفلسطين. ثم اتجه إلى آسيا الصغرى عام ١٩٧ ق.م. فاستولى على المدن التى كانت قد خضعت للحكم البطلمى. وكان البطالمة قد بنوا فى هذا الجزء مدينة «الإسكندرونه» تصغيرا لاسم «الاسكندرية» وبعد استيلاء السلوقيين على فلسطين أعادوا التقسيم الإدارى فأصبح كما فى شكل ٩١. وأكثروا من تسمية المدن بأسمائهم فغيَّروا ميناء بطولميا (عكا) إلى «أنطيوخينيس». وحتى أورشليم نفسها أطلقوا عليها اسم «أنطيوخيا» ومدن أخرى سُميت «أنطيوخيا» أو «سلوقيا» رغبة منهم فى طمس الهوية اليهودية مما كان له رد فعل سيىء فى نفوس اليهود. وفى هذه الفترة ظهر فى فلسطين حزبان: الحزب السلوقى والحزب البطلمى وأخذا يتناحران. وفى فترة سيطرة السلوقيين فر كثير من اليهود من أنصار البطالمة وجاءوا إلى مصر. وحاول السلوقيون فرض الأغرقة على اليهود فى فلسطين بالقوة ولكن الغالبية آثرت التمسك بتقاليدها ودينها. وفئة صغيرة هى التى تقبلت الحضارة الإغريقية وتشبهت بها. وهؤلاء كانوا غالبا من الأُسَر الأرستقراطية وإن كان بعض رجال الدين قد شاطروهم هذا الاتجاه حتى إن «ياسون» أو «جاسون» شقيق الحبر الأعظم «أونياس الثالث» ذهب فى تحمسه للحضارة الإغريقية إلى حد أنه أصبح زعيما للحزب الإغريقى فى أورشليم وطمع فى انتزاع منصب الحبر الأعظم من أخيه بمساعدة السلوقيين. وفعلا تم له ذلك بعد مصرع أخيه «أونياس الثالث». وعندئذ هرب ابنه «أونياس الرابع» من أورشليم وجاء إلى مصر

شكل ٩١ – تقسيم فلسطين الإدارى تحت الحكم السلوقى .

(١٩٨ – ١٤٢ ق.م.)

ومعه جمع غفير من أنصاره . وسمح لهم بطليموس السادس بالإقامة فى مكان شرقى شبين القناطر.

ولما اغتيل أنطيوخس الثالث عادت مصر فاستولت على فلسطين عام ١٧٤ ق.م. واستولت على قبرص كذلك. ولكن أنطيوخس الرابع قام فور توليه الحكم بالاستيلاء على قبرص وفلسطين وغزا مصر وأسر الملك بطليموس السادس وكان غلاما صغير السن وقام بإعلان أخيه ملكا على مصر. ولكن روما تدخلت وأجبرت أنطيوخس الرابع على الانسحاب من مصر وإعادة بطليموس السادس إلى العرش. ولكى يكسب تأييد اليهود المقيمين بمصر وفلسطين فإن بطليموس السادس أغدق على اليهود المقيمين بمصر الأموال والمناصب. كما أعطى أونياس الرابع قطعة أرض وسمح له بإقامة معبد لليهود فى «ليونتوبوليس» ولاتزال بقاياه موجودة فى المكان المسمى «تل اليهودية» ٢كم شرقى شبين القناطر (انظر الجزء الرابع ص ٧٢٦).

بعد انسحاب أنطيوخس الرابع من مصر بأمر من روما فإنه عاد إلى فلسطين وصبَّ جام غضبه على أورشليم وعلى اليهود. ويقال إنه قتل ٤٠,٠٠٠ من سكانها وإن كان يبدو أن هذا الرقم فيه بعض المبالغة. تقول التوراة (مكابيين أول ١:٢١): «فعاد إلى فلسطين وصعد إلى أورشليم بجيش كثيف ودخل القدس بتجبُّر وأخذ مذابح الذهب ومنارة النور مع جميع أدواتها ومنضدة التنضيد ومجامر الذهب والحجاب والأكاليل والحلية الذهبية التى كانت على وجه الهيكل وحطَّمها جميعا وأخذ الذهب والفضة والآنية النفيسة. وأخذ ما وجد من الكنوز المكنونة وأخذ الجميع وانصرف إلى أرضه. وأكثر من القتل وتكلم بتجبُّر عظيم. فكانت مناحة عظيمة فى إسرائيل فى كل أرضهم وانتحب الرؤساء والشيوخ والفتيات والنساء. وكل عروس اتخذت مرثاة. والجالسة فى الحجلة عقدت مناحة. فارتجَّت الأرض على سكانها وجميع بنى إسرائيل لبسوا الخزى. وبعد سنتين أرسل الملك رئيس الجزية إلى مدن يهوذا فوفد على أورشليم فى جيش كثيف وخاطبهم سلام مكر فوثقوا به. ثم هجم على المدينة فجاة وضربها ضربة عظيمة وأهلك شعبا كثيرا من نسل إسرائيل وسلب غنائم المدينة وأحرقها بالنار وهدم بيوتها وأسوارها من حولها. وسبوا النساء والأولاد واستولوا على المواشى. وبنوا على مدينة داود سورا عظيما متينا وبروجا حصينة فصارت قلعة لهم. وجعلوا هناك أمة أثيمة منافقين فتحصنوا فيها ووضعوا فيها السلاح والطعام وجمعوا غنائم أورشليم ووضعوها هناك».

وكان أنطيوخس الرابع يهدف إلى دمج الشعوب التابعة له فى وحدة اجتماعية وثقافية لذلك (مكابيين أول ١:٤٢) «كتب الملك أنطيوكس إلى مملكته كلها بأن تكون جميعا شعبا واحدا. فأذعنت الأمم بأسرها لكلام الملك ماعدا اليهود». وقد حاول الملك تحويل اليهود عن تقاليدهم الدينية والاجتماعية إلى التقاليد اليونانية. وتجاوبت معه - كما سبق أن ذكرنا - بعض الأسر الأرستقراطية والأغنياء ثم سار أنطيوخس إلى أبعد من هذا. فأصدر إلى الوالى المعيَّن من

قبله لحكم اليهود أمرا بأن يُنصب تمثال للإله «زفس» أو «زيوس» في معبد أورشليم وكذلك إقامة مذبح له داخل المعبد. وأمر كذلك بأن يُدعى اليهود إلى المشاركة في الطقوس الدينية السلوقية وأن يشتد على المخالفين أو المعارضين. ورضخ كثير من اليهود لهذه الأوامر. وكما تقول التوراة (مكابيين أول ١:٤٥): «وارتضوا دينه وذبحوا للأصنام ودنّسوا السبت. وأنفذ الملك كتبا على أيدي رسل إلى أورشليم ومدن يهوذا أن يتبعوا سنن الأجانب في الأرض ويمتنعوا عن المحرقات والذبيحة في المقدس ويذبحوا الخنازير والحيوانات النجسة حتى ينسوا الشريعة. ومن لم يعمل بكلام الملك يُقتل. وكتب بمثل هذا الكلام كله إلى مملكته بأسرها وأقام رقباء على جميع الشعب». وكما سبق أن ذكرنا فإن بعض اليهود امتثل لهذه الأوامر خوفا من بطش السلوقيين. إلا أن فريقا آخر رفضها وقرر التمسك بالتقاليد الموسوية ووشى الفريق الأول بالفريق الثاني مما نتج عنه التنكيل الشديد بالمتمسكين بالدين. وكان النبي دانيال قد تنبأ بهذا في رؤياه الثانية (دانيال ٨:٨): «ولما اعتزّ انكسر القرن العظيم (الاسكندر) وطلع عوضا عنه أربعة قرون معتبرة نحو رياح السماء الأربع (الممالك الأربع) ومن واحد منها خرج قرن صغير (سلوقس) وعَظُم جدا نحو الجنوب ونحو الشرق ونحو فخر الأراضي (أورشليم) وتعظَّم حتى إلى جند السموات وطرح بعضا من الجند والنجوم إلى الأرض وداسهم. وأُبطلت المحرقة الدائمة وهدم مسكن قدسه وجعل جندا على المحرقة بالمعصية فطرح الحق أرضا».

وكان هذا فوق احتال اليهود فكانت «الثورة المكابية».

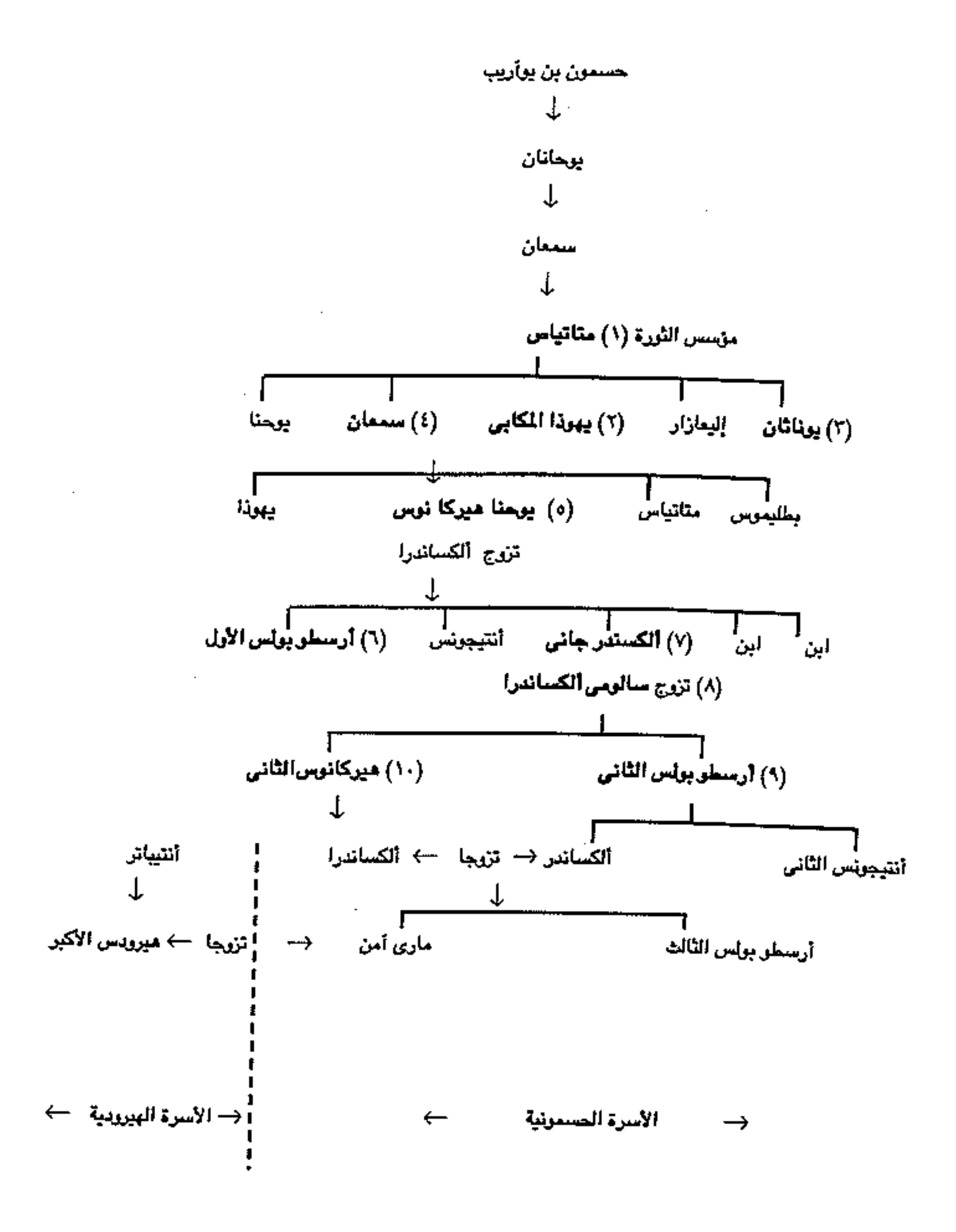
الفصل الثالث والعشرون :

الثورة المكابية

كانت الإعدامات بالجملة التى أمر بها أنطيوخس الرابع فى محاولة لإجبار اليهود على اتباع الديانة والتقاليد الإغريقية ومحاولة صرفهم عن تعاليم الشريعة الموسوية هى السبب الرئيسى لانفجار ثورة اليهود فى فلسطين عام ١٦٨ ق.م. والتى عُرِفت باسم «الثورة المكابية». وقد ساعد على اندلاعها رغبة الحزب الهيلينى من اليهود - المؤيِّد للأغرقة - فرض سيطرته على اليهود كلهم وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٦٨) كيف آزاح «ياسون» - وهو من الحزب الهيلينى - أخاه «أونياس الثالث» الحبر الأعظم فى أورشليم من منصبه. وبعد ٣ سنوات أزاح الكاهن «منلاوس» «ياسون» برشوة كبيرة إلى المسئولين. فسقط مركز الكاهن الأعظم فى أورشليم فى أعين الناس إذ شعروا أن الوظيفة أصبحت تباع لمن يدفع رشوة أكبر. وكل هذه العوامل ولَّدت شعورا بالغيظ وعدم الرضا عن المحتل السلوقى وعن أعوانه من اليهود فقامت الثورة المكابية بزعامة كاهن تقى ورع هو «متاتياس بن يوحنا» وتتابع من بعده على زعامة الثورة أبناؤه وأحفاده. وعند سردنا لتاريخ هذه الفترة سنلمس كثرة الصراعات التى كانت تجرى فى هذه الأوقات حول العروش. فقد كان عرش سلوقيا - فى معظم الأوقات - يتنازعة اثنان. كلٌ يدَّعى أحقيته بالمُلك. ولترامى أطراف المملكة السلوقية فقد كانت تتسع لكليهما. كلٌ له جيشه وكلٌ يعمل على الإطاحة بمنافسه ويتلمَّس قوة إضافية - ولو ضئيلة - تعينه على تحقيق رغبته. وهذه القوة الضئيلة كانت الثورة المكابية الوليدة. وأصبحت الثورة فى موقف حرج إذ تجد نفسها مجبرة على الانحياز لطرف ضد الآخر. إن استقلت عن كليهما فقد يتحدان ضدها. وإن انحازت لهذا الطرف أو ذاك فقد تكون العاقبة وخيمة إذا خسر الطرف الذى انحازت إليه. وسنحاول فى الصفحات القليلة التالية متابعة الثورة بشيىء من الإيجاز حتى لا نتوه فى خضم التفصيلات.

١ - الكاهن متاتياس بن يوحنا :

يوضح شكل ٩٢ شجرة نسب الأسرة الحسمونية . فالجد الأكبر «حسمون بن يوآريب هو جد يوحنا أبو متاتياس الذى فجَّر الثورة. ومتاتياس هو الكاهن لأعز بيوتات اليهود وأكرمها. ولما كان متقدما فى السن فقد اعتزل العمل الدينى وقعد فى بلدة «مودين» Modin التى تقع غرب أورشليم بمسافة قصيرة. وجاء إليه أحد الضباط السلوقيين وأمره بتقديم التقدمات



شكل ٩٢ – شجرة نسب الأسرة الحسمونية والمكابيين .

(الأرقام تبين ترتيب قادة الثورة) .

لإلههم الوثني. فأخذ الحماس متاتياس وضربه فقتله وفر هو وأولاده إلى البرية. واقتدى بهم عدد كبير من المؤمنين في أنحاء كثيرة من البلاد قاموا بنبذ العبادة الوثنية وبدأوا بإعادة تطبيق العادات والطقوس الشرعية. وانضم عدد كبير إلى متاتياس وبنيه في البرية. وقد نظم الثوار عصابات متفرقة انتشرت في التلال واتجهت في أول الأمر ضد الطبقة الأرستقراطية من اليهود لصرفهم عن تأييد المحتل وحثهم على التمسك بأحكام الشريعة. وتجنَّب الثوار الاشتباك مع القوات الحكومية النظامية. وعُرِف عن الثوار تمسُّكهم بحرمة يوم السبت فكانت القوات السلوقية تهاجمهم فيه وتقتل منهم أعدادا كبيرة فاضطر الثوار إلى إباحة حمل السلاح والقتال يوم السبت دفاعا عن أنفسهم. ولما اشتد ساعد الثوار بدأوا في مهاجمة القوات السلوقية وكانوا يقتلون منهم أعدادا كبيرة ثم يتراجعون إلى مراكزهم في الجبال دون أن يفقدوا أحدا من رجالهم. إثر ذلك تشجَّع الثوار وطافوا بمدن اليهودية وقاموا بهدم المعابد الوثنية وحثوا الأهالي على ختن الأولاد الغلف.

كان متاتياس هو قائد الثوار يعيش معهم في الجبال وهو الذي يضع الخطط لهجماتهم. ولم يتحمل هذا المجهود المضني فمات بعد سنتين من بدء الثورة أي في عام ١٦٦ ق.م. وكان قد عين ولده يهوذا لقيادة الثورة من بعده.

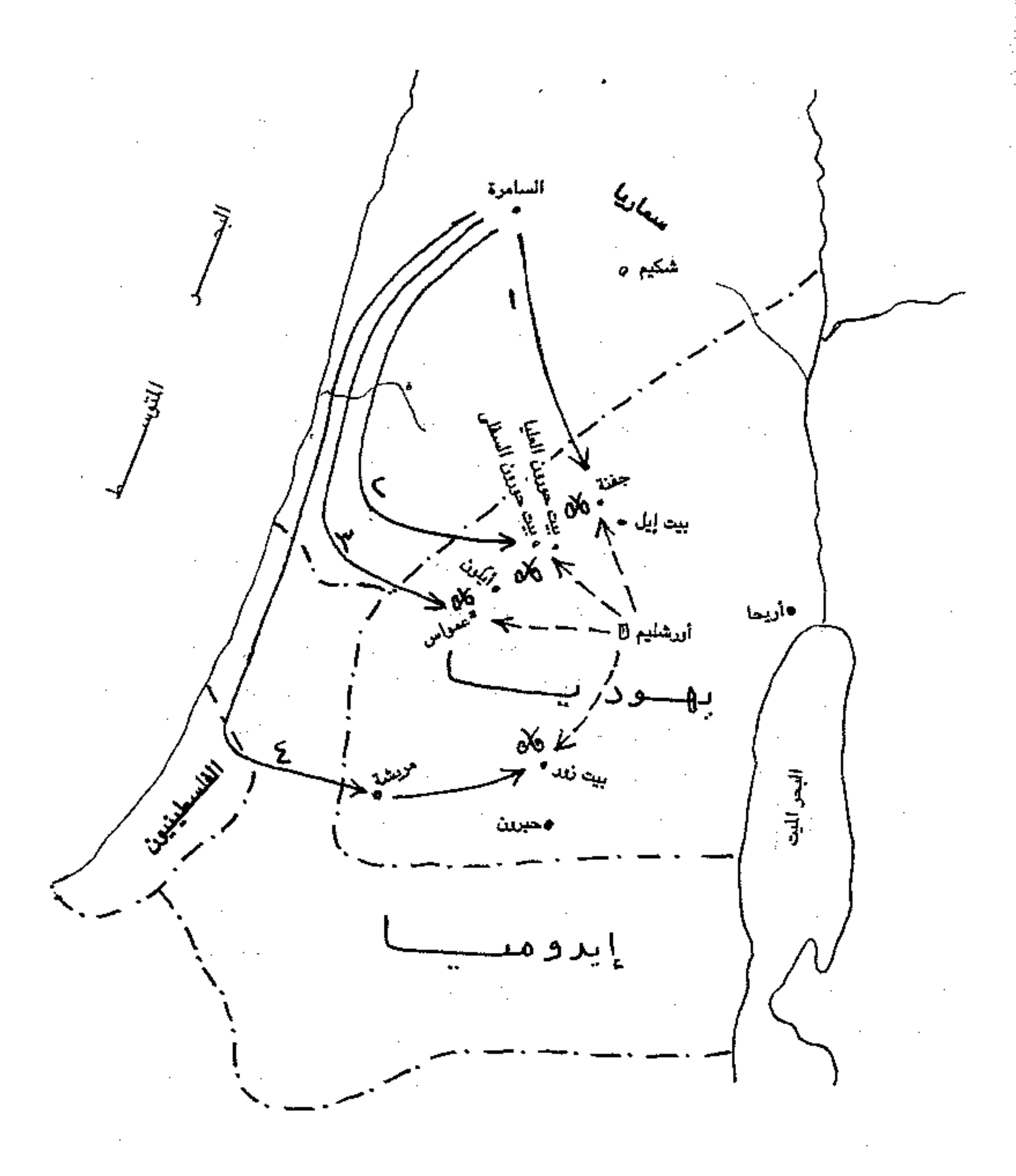
٢ - يهوذا المكابي :

هو ابن متاتياس. وقد تولى قيادة الثورة بعد وفاة والده. وكان نشطا متحمسا ولقبه «مكابيوس» ولذلك سُمِّيت الثورة على اسمه «الثورة المكابية». وكان يعتمد على الهجمات الليلية والانقضاضات السريعة الخاطفة. وكان ينطلق هو ورجاله من قواعد متغيرة في جبال يهوذا حول أورشليم. وقام الملك السلوقي بعدة محاولات لإخماد الثورة (شكل ٩٣):

١ - كانت أولى المحاولات لإخماد الثورة تلك التي قام بها «أبوللونيوس Apollonius» حاكم منطقة سماريا (السامرة) وقائد الحامية السلوقية بها إذ سار بجنوده لمحاربة يهوذا ولكنه هزم وقتل في المعركة عند جفنة Gophna.

٢ - بعد ذلك أرسل الملك أحد القواد الكبار وهو «سيرون» بفرقة أكبر. وسار في الطريق الساحلي حتى يافا ثم اتجه شرقا وكان يهوذا قد علم بخط سيره فخرج مع رجاله لملاقاته وتم الإيقاع به وبجنوده عند «بيت حورون».

٣ - كلَّف الملك بعد ذلك أحد القواد العظام هو «ليسياس Lysias » بإخماد الثورة فأعدَّ جيشا قوامه ٤٠,٠٠٠ جندي و ٧٠٠ فارس وأمَّر عليه أربعة من الضباط الكبار. وسار الجيش في الطريق الساحلي واتَّجه جنوبا حتى وصل إلى مدينة «عمواس Emmaus» ومنها يبدأ طريق يتجه شرقا إلى أورشليم صاعدا هضبة يهوديا. ولما رأى الثوار حجم القوات السلوقية صاموا



شكل ٩٣ – حروب أنطيوخس الرابع ضد يهوذا المكابى .

١ – حملة أبوللونيوس .

٢ – حملة سيرون .

٣ – حملة ليسياس بقيادة أربعة من ضباطه .

٤ – حملة بقيادة ليسياس نفسه .

وتطهَّروا وتضرَّعوا إلى الله. وكان نصف الجيش السلوقى قد صعدوا إلى الجبال فى مهمة يسميها العسكريون «فتِّش واقتل». فانتهزها يهوذا فرصة ونزل إلى «وادى أيلون» وانقض على معسكر الجيش فى عمواس وكانت مفاجأة فانهزم الجنود السلوقيين وقُتِل منهم الكثيرون. وكمن رجال يهوذا حتى عاد نصف الجيش الآخر فهجموا عليهم وقتلوهم.

٤ – بعد هذه الهزائم الثلاث قاد ليسياس بنفسه جيشا آخر فى محاولة رابعة ضد المكابيين وسار أيضا جنوبا فى السهل الساحلى حتى بلدة عسقلون ثم شرقا إلى بلدة «مريسا أو مريشة» وفى نيته مهاجمة قواعد الثوار حول أورشليم من جهة الجنوب. وتقع مريشه خارج حدود يهوديا وكانت تشايع السلوقيين ويسكنها أغلبية من الأدوميين. وعلم الثوار بخط سيره فاتجهوا نحوه وتم الايقاع بالجيش وسط الجبال عند «بيت زور» وحوصر ليسياس نفسه وكاد أن يُقتل ولكنه أفلت وتراجع بما بقى من قواته.

وابتهج اليهود بهذه الانتصارات وازداد إيمانهم بعدالة ثورتهم وأن الله يؤيدهم وكذلك أيقن الشعب أن الله فى جانب المكابيين فازدادت الأعداد التى انضمت للثوار. وبعد أن نجح يهوذا فى صدِّ الغزوات السلوقية أصبح الطريق إلى أورشليم مفتوحا فاتجه بقواته إليها حتى وصلها واستولى عليها وإن ظلت بعض القوات السلوقية محاصرة فى أحد حصونها (حصن أكرا). وطهَّر المكابيون الهيكل من الأصنام التى نصبها السلوقيون فيه. وأعيدت الذبائح اليومية. وأقيم «عيد التكريس Feast of Dedication » الذى مازال يُحتفل به سنويا بتخليد ذكرى دخول المكابيين أورشليم. وبنوا على أورشليم أسوارا عالية وبروجا حصينة وأقاموا أفرادا للحراسة. فضلا عن تحصين مدينة «بيت زور» فى الجنوب لتكون خط دفاع أول ضد أى غزو من ناحية «أدوميا».

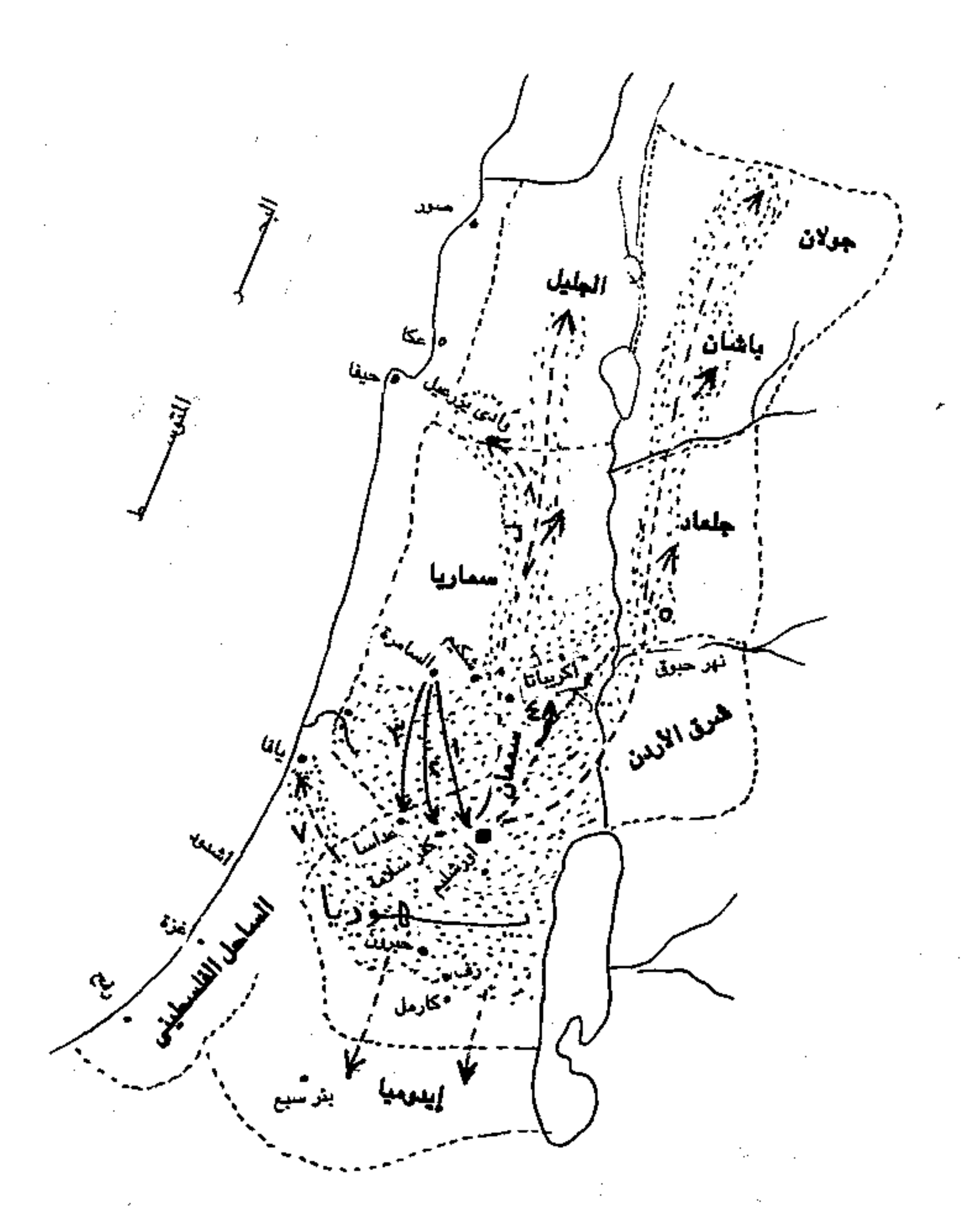
وتوفى أنطيوخس الرابع فى عام ١٦٤ ق.م. وتولى عرش سلوقيا الملك الطفل «أنطيوخس الخامس». ولكن السلطة الفعلية كان يتنازعها ليسياس قائد الجيش وفيليب أحد أفراد العائلة المالكة كل منهما يدَّعى أنه هو الأحق بالوصاية على الملك الطفل. وانتهز يهوذا الفرصة وأمكنه توسيع المنطقة التى يسيطر عليها باقتطاع الأجزاء المجاورة لـ «يهوديا» (شكل ٩٤) فأصبح يسيطر على جزء كبير من جنوب سماريا أيضا.

ويبدو أن انتصارات الثورة المكابية قد أثارت مخاوف الدول المجاورة مما جعلهم يُغيرون على أطراف مقاطعة «يهوديا» ويقتلون من أفراد الشعب عددا كبيرا مما اضطر يهوذا إلى محاربتهم. فبدأ بالأدوميين فى مقاطعة «أدوميا» فى الجنوب وحارب العمونيين فى الشرق وهزمهم. فتحالفت جميع الدول المجاورة وقررت الهجوم فى جبهتين فى آن واحد. واحدة فى الشرق عند جلعاد. والثانية فى الجليل. فقسم يهوذا قواته قسمين قاد هو نصف القوات إلى جلعاد. وأسند قيادة النصف الثانى إلى أخيه سمعان وسيَّره إلى الجليل. وانتصر الجيشان

وقتلوا كثيرا من الأعداء وسلبوا غنائم كثيرة. وهكذا بدأت الثورة المكابية حركة دينية فى أول الأمر إلاّ أنها تطوَّرت إلى حركة سياسية هدفها تحرير البلاد من الحكم الأجنبى وحركة تطهير داخلى ضد أنصار الثقافة الإغريقية أو الحزب الهيلينى. وعلى الرغم من كل هذه الانتصارات كان وضع الحركة لايزال فى مهب الريح. ففى عام ١٦٣ ق.م. حاصر ليسياس – القائد السلوقى – أورشليم ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها وعاد إلى بلاده فأرسل الملك السلوقى جيشا بقيادة «نيكانور Nicanor» هُزِم فى «كفر سلامة» ١٢ كم شمال غرب أورشليم. وفى معركة ثانية عند بلدة «عداسا Adasa» قرب بيت حورون انهزم السلوقيون وقُتِل قائد الجيش. وجُرِّدت حملة ثالثة بقوة أكبر تفوق المكابيين عدة مرات. ولكن إيمان وشجاعة اليهود مكنتهم من الصمود. وقام يهوذا بتحرير اليهود المضطهدين فى أكرباتا (١٢ كم جنوب شرق شكيم) وكذلك الجزء الشمالى من سماريا والجزء المجاور من ولاية الجليل جنوبى بحر الجليل ومناطق فى جلعاد والجولان شرق النهر. وبينما كان يهوذا يحارب ويضم هذه المناطق كان أخوه سمعان يحارب فى سهل شارون ووادى يزرعيل وغرب الجليل ويضمها إلى المناطق المحرَّرة. ثم إن يهوذا – بعد استيلائه على الشمال – استدار واتجه نحو الجنوب فاستولى على حبرون وتقدم غربا واستولى على ميناء يافا. ولكن لقلة قواته فإنه لم يستطع السيطرة على هذه المناطق واضطر للانسحاب من منطقة الساحل.

وبالرغم من هذه الانتصارات فإن عددا غير قليل من اليهود كانت قد استهوتهم الحياة الإغريقية ويفضلون علاقات أوثق مع السلوقيين. فقام أفراد هذا الحزب الإغريقى بطلب المساعدة من أنطيوخس الخامس الذى أرسل قائده ليسياس مرة أخرى إلى يهوديا بجيش كبير واتبع الطريق السابق فاتجه جنوبا فى السهل الساحلى ثم شرقا فشمالا واستولى على حبرون وتقابل مع يهوذا فى معركة عند «بيت زكريا» ١٢ كم جنوب غرب بيت لحم (شكل ٩٥). وفى هذه المعركة قتل إليعازار شقيق يهوذا وانتصر ليسياس وشق طريقه إلى أورشليم بينما فر يهوذا ورجاله إلى المناطق الجبلية البعيدة. وبينما كان ليسياس يحاصر أورشليم جاءته الأنباء بأن فيليب (الوصى الثانى على العرش السلوقى) فى سبيله لإعلان نفسه ملكا على سلوقيا. فاضطر ليسياس لمهادنة يهوذا مانحا يهوديا الحرية الدينية وعدم التدخل فى عبادة اليهود على ألاّ يُرمَّم ما تهدَّم من أسوار أورشليم. وعاد ليسياس إلى سوريا وهَزَم فيليب وأصبح هو الرجل الأول فى المملكة السلوقية. ولكن هذا لم يطل. إذ أن ديمتريوس ابن سلوقس الرابع – وكان رهينة فى روما – هرب بحرا ونزل فى طرابلس فنادى به الشعب ملكا شرعيا لسلوقيا فقام بالقبض على ليسياس والملك الطفل أنيوخس الخامس وأعدمهما.

أما فى «يهوديا» فبعد أن تحقق ما كانت الثورة قد قامت من أجله – وهو الحرية الدينية – فقد فتر الحماس الثورى وبدأ أنصار يهوذا ينفضون من حوله وخاصة أن ديمتريوس كان قد



شكل ٩٤ – توسيع يهوذا المكابي للمناطق تحت سيطرته في عهد أنطيوخس الخامس والحروب ضده .

١ – حملة ليسياس وحصار أورشليم . ٢ – حملة نيكانور كفر سلامة . ٣ – معركة عداسا .

٤ – تحرير يهوذا لأكربياتا . ٥ – استيلاء يهوذا على جلعاد وباشان وجولان .

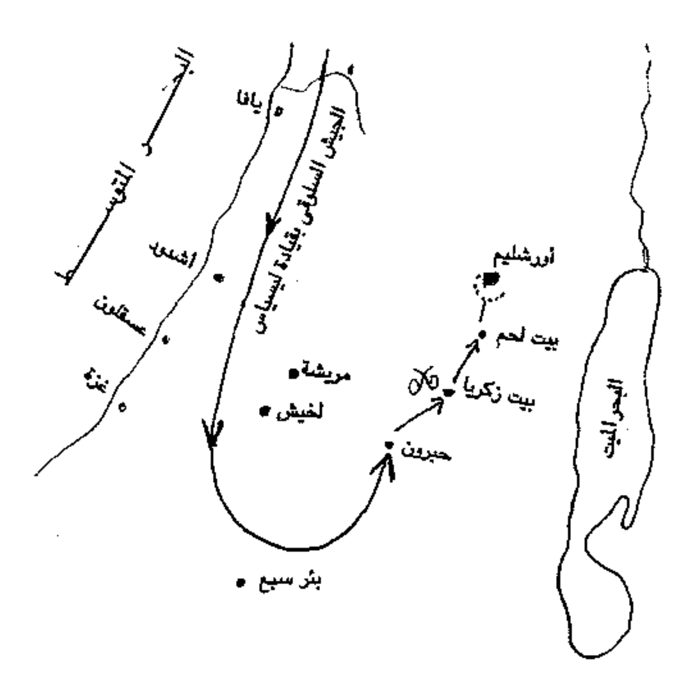
٦ – استيلاء سمعان على سماريا ووادى يزعيل والجليل . ٧ – استيلاء يهوذا على يافا .

عيّن ألكيموس Alcimus كاهنا أعظم. الأمر الذى وافق هوى رجال الثورة باعتباره من نسل هارون ووافق عليه أيضا الحزب الإغريقى لأنه كان من دعاة التعاون مع السلوقيين. ولكن ألكيموس مالبث أن ظهر على حقيقته بإعدامه ٦٠ من الأتقياء. كما أن قائد الجيش السلوقى أعدم عددا كبيرا من اليهود. فعاد أنصار يهوذا للإلتفاف حوله ثانية وبدأوا يتحفزّون لمعاودة نشاطهم الثورى. وخوفا من محاصرته فى حصنه حاول القائد نيكانور الذى يرأس الحامية السلوقية فى أورشليم الخروج بجنده من المدينة وسار غربا فى الطريق الموصِّل إلى السهل الساحلى ولكن الثوار لحقوا به عند بلدة «عداسا Adasa» وقتلوه (شكل ٩٦ أ). ويحتفل اليهود بـ «يوم نيكانور» ذكرى هذا الانتصار وقتل الضابط نيكانور. ولكن قائد عام الجيش السلوقى «باخيدس Bacchides» جاء بقوة أكبر للانتقام لمقتل ضابطه وجنوده ووقعت المعركة عند بلدة «إلياسا Eleasa» (شكل ٩٦ ب). وهُزِم المكابيون وقُتِل يهوذا وفر الأحياء من الثوار إلى الجبال. وتولى قيادة الثورة يوناثان شقيق يهوذا.

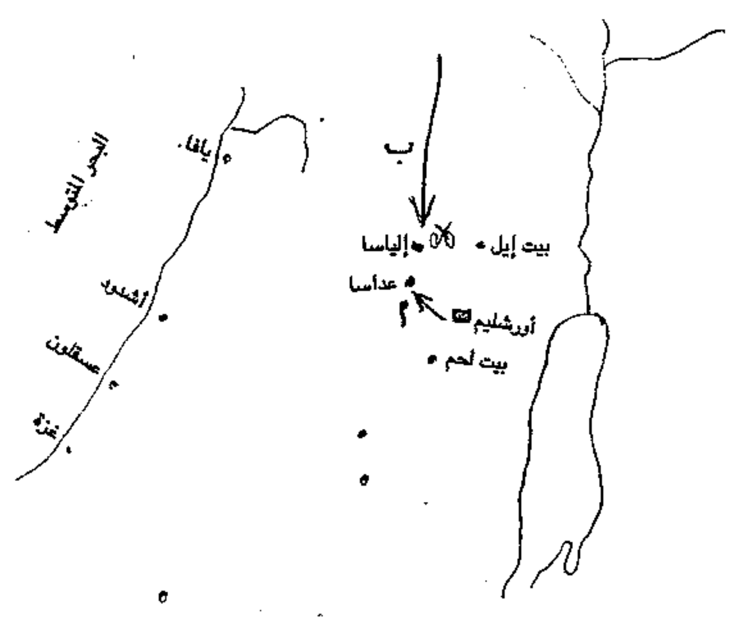
٣ - يوناثان :

هو الابن الأصغر للكاهن متاتياس. وشقيق يهوذا. وهو الذى تولى قيادة الثورة بعده. ولجأ إلى جبال الأردن وجبال يهوذا احتماء بها من بطش باخيدس قائد الجيش السلوقى. ولحماية أورشليم من استيلاء الثوار عليها ولحماية ما بها من اليهود المشايعين للحكم السلوقى أقام باخيدس حصونا فى مدن تشكل دائرة حول أورشليم (شكل ٩٧) وترك بكل منها حامية من الجنود السلوقيين وبذلك ظن أن قد ضَمِنَ استتباب الأوضاع فعاد إلى أنتيوخ فى سوريا (شكل ٩٨) والتى كانت مركز قيادة الجزء الغربى من المملكة السلوقية. ولكن يوناثان سرعان ما جمع أنصار الثورة واستأنف نشاطاته وهاجم «بيت باسى Beth Basi» (٢ كم جنوب شرق بيت لحم) واستولى عليها بينما كان سمعان أخوه يجمع أنصارا للثورة من مختلف المناطق وبدأ الاثنان فى مهاجمة الحصون فى مختلف المدن من مختلف الاتجاهات وحرقها ثم الاختفاء. وعاد القائد باخيدس إلى المنطقة ورأى أنه من المستحسن الوصول إلى حل وسط مع الثوار. فسمح لهم بالوجود فى «مكماش» و «بيت باسى» و «بيت لحم» على أن يبقى اليهود الموالين لسلوقيا فى أورشليم وبيت زور وهدأت الأحوال على هذا الوضع ٤ سنوات.

بعد ذلك ظهر لديمتريوس (ابن سلوقس الرابع) منافس على عرش سلوقيا هو ألكساندر بالاس على أنه ابن ثان لأنطيوخس الرابع وبدأ الصراع بين المتنافسين على العرش السلوقى. ولما كان رجال الثورة الكابية فى يهوديا قد أصبحوا قوة لا يستهان بها فقد أراد كل جانب أن يضمن وقوفهم فى صَفِّه فى هذا الصراع وهو ما تحوَّل إلى مزايدة استفادت منها الثورة المكابية كثيرا فقد أطلق ديمتريوس جميع الأسرى اليهود لديه وسمح ليوناثان بالدخول إلى



شكل ٩٥ – معركة بيت زكريا ومقتل إليعازار

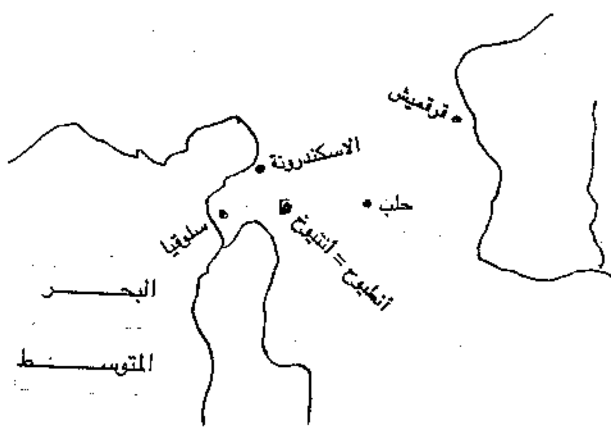


شكل ٩٦ – أ – معركة عداسا ومقتل نيكانور .

ب – معركة إلياسا ومقتل يهوذا .

شكل ٩٧ – القلاع التى أقامها «باخيدس» حول أورشليم لحمياتها من الثوار

⊙مدن القلاع السلوقية × مدن تحت سيطرة الثوار



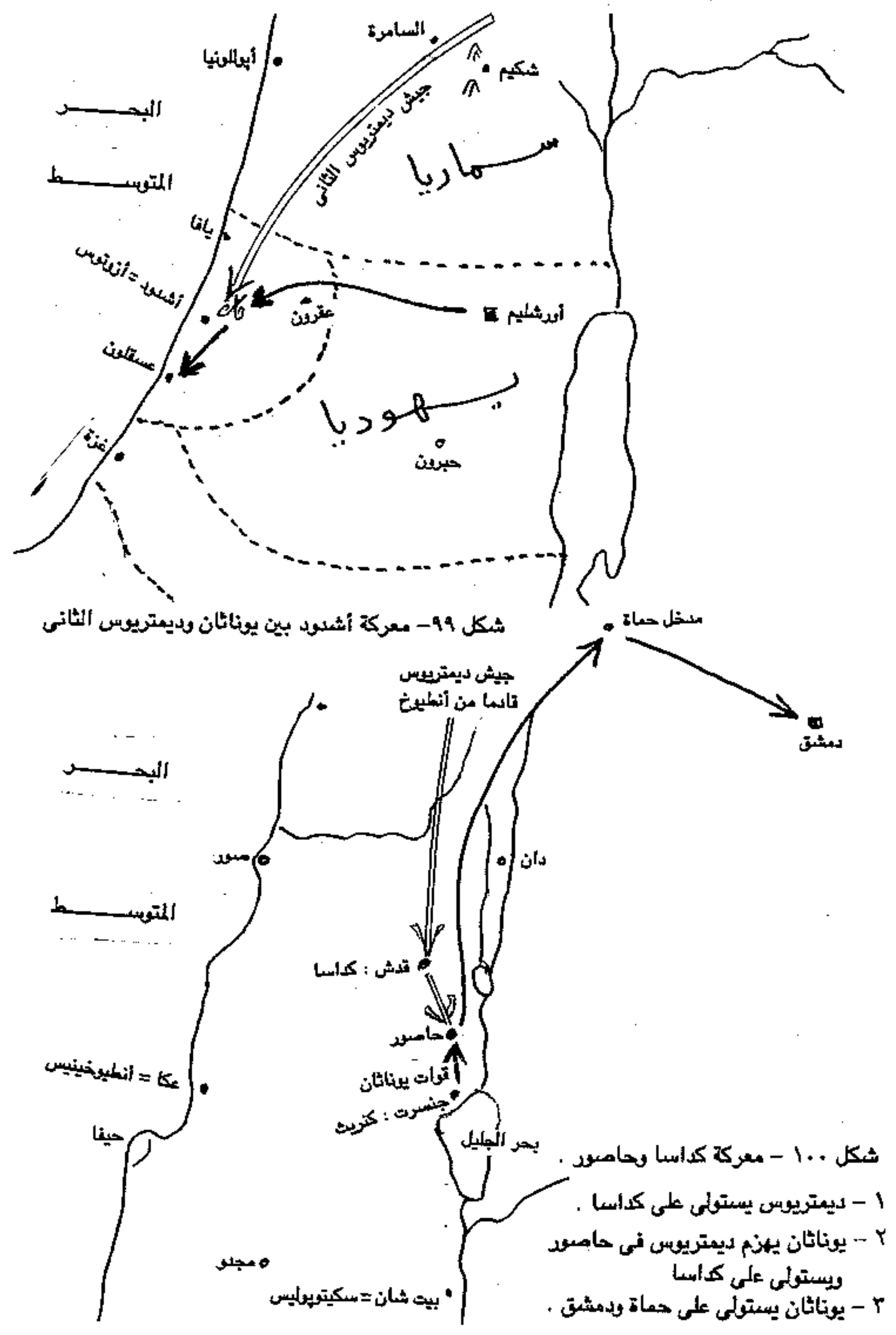
شكل ٩٨– «أنطيوخ» العاصمة الغربية للمملكة السلوقية

أورشليم. وردَّ ألكسندر بالاس على ذلك بأن عيَّن يوناثان «كاهنا أعظم». وأعطاه لقب «صديق الملك» وأرسل له الروب الأحمر وتاجا من القماش مرصعا بالجواهر رمزا لهذه الصداقة. ورد ديمتريوس على ذلك بأن عرض على يوناثان ورجاله الإعفاء من الضرائب وخروج الحامية السلوقية من حصن أكرا فى أورشليم وتوسيع منطقة يهوديا بإلحاق ثلاث مقاطعات إدارية من السامرة بها لتكون تحت سيطرته وإعانات مالية لرجاله وللمعبد ومخصصات مالية لإعادة بناء أسوار أورشليم. وبهذه التنازلات قوى مركز يوناثان كثيرا إذ اعترف به الجانبان كقوة رئيسية فى يهوديا وليس فقط كرئيس ثوار بل شبه حاكم ولاية فضلا عن كونه كاهنا أعظم وهو أكبر مركز دينى عند اليهود. وفى عام ١٥٢ ق.م. لبس يوناثان لباس الكاهن الأعظم وأقام الاحتفال بعيد الفصح فى أورشليم وبدا أن الأمور بدأت تستقر لصالحه.

كان يوناثان قد انحاز إلى جانب ألكساندر بالاس الذى انتصر على ديمتريوس الأول وقتله وتولى عرش سلوقيا. ولكن هذا لم يطل إذ فى عام ١٤٧ ق.م. ظهر **ديمتريوس الثانى** – الذى كان مقيما فى اليونان – مطالبا بعرش والده. ونجح فى الاستيلاء على العرش وعيَّن قائدا جديدا للجيش للمنطقة الغربية وكلَّفه بمحاربة يوناثان الذى كان يناصر خصمه وسار الجيش جنوبا ووقعت المعركة جنوبى يافا التى كان يوناثان يسيطر عليها. وانتصر يوناثان وفر قائد الجيش إلى **أزوتوس** (وهو الاسم اليونانى لميناء أشدود) ولكن يوناثان تعقبه إلى هناك وقبض عليه واستولى على المدينة ثم واصل تقدمه جنوبا واستولى على عسقلون (شكل ٩٩) التى كانت فى حوزة السلوقيين. وإزاء هذه الانتصارات لم يجد ديمتريوس الثانى بدا من الاعتراف بالأمر الواقع وضم مقاطعة عكرون Accaron بأكملها إلى يهوديا.

ثم ظهرت منازعة أخرى على عرش سلوقيا إذ ظهر «ترايفون Tryphon» وكان قائدا فى جيش ألكساندر بالاس ومعه **أنطيوخس السادس** الذى كان لاجئا فى دولة الأنباط العربية وطالب بالعرش السلوقى. وانحاز يوناثان إلى جانب ترايفون وأنطيوخس السادس اللذين أصدرا أمرا بتوليته جميع الأمور المدنية والدينية فى يهوديا. فقام يوناثان بتعيين أخيه سمعان قائدا للجيش.

لم يكن **ديمتريوس الثانى** قد فقد مركزه الملكى ولا قوته الحربية. ورداً على انضمام يوناثان إلى أعدائه قام ديمتريوس بغزو شمال فلسطين وأقام قاعدة له فى «كداسا Cadasa» فى الجليل الأعلى (شكل ١٠٠) . وحرك يوناثان قواته من قاعدة چنسرت على الشاطىء الشمالى لبحر الجليل وتقابل الجيشان فى بلدة «حاصور» وهُزِمت قوات ديمتريوس الثانى واستولى يوناثان على القاعدة السلوقية فى كداسا. وفى السنة التالية قام يوناثان بغزوة فى الشمال فى سهل حماة وانتصر فيها على جيش ديمتريوس الثانى ودخل سوريا ودمشق وحماة منتصرا ثم عاد إلى أورشليم.



شكل ٩٩– معركة أشدود بين يوناثان وديمتريوس الثانى

شكل ١٠٠ – معركة كداسا وحاصور .

١ – ديمتريوس يستولى على كداسا .

٢ – يوناثان يهزم ديمتريوس فى حاصور ويستولى على كداسا

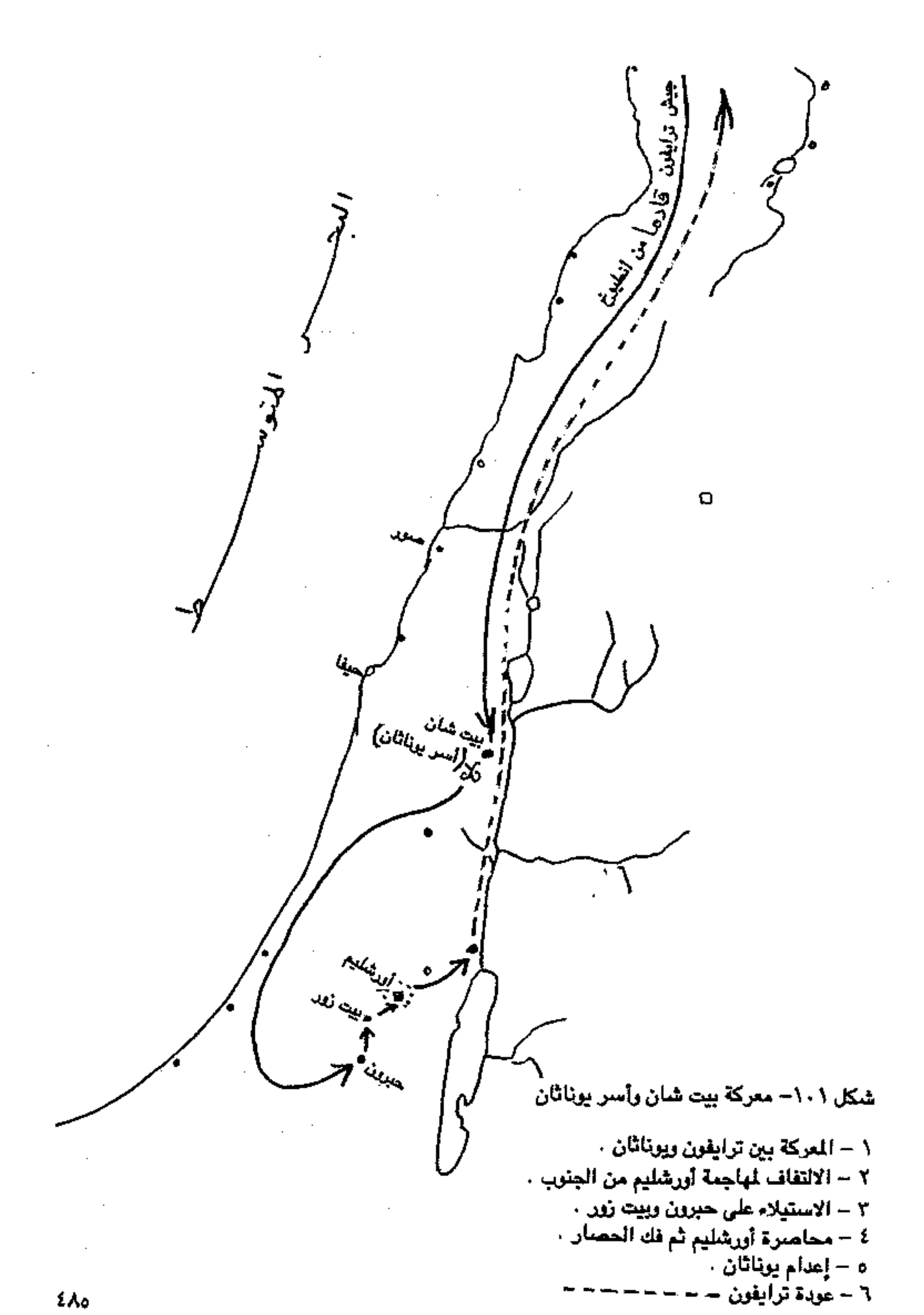
٣ – يوناثان يستولى على حماة ودمشق .

ثم انشغل ديمتريوس الثانى فى حروب لتأمين الحدود الشرقية للمملكة السلوقية مما أعطى الفرصة لخصومه – ترايفون وأنطيوخس السادس – لتقوية مركزهما واللذين شعرا أن يوناثان قد أصبح أقوى من اللازم وقد لا تقف طموحاته عند حدود فلسطين وحدها لذلك سارا (عام ١٤٣ ق.م.) بجيش إلى فلسطين لمحاربته وجهّز يوناثان جيشا كبيرا وتقابلا عند «سكيثوبوليس Scythopolis وهو الاسم اليونانى لبلدة «بيت شان» (شكل ١٠١). ولجأ ترايفون إلى الخدعة فاقترح – حقنا للدماء. أن يتقابل القائدان ومع كل قائد ١٠٠٠ فقط من جنوده فى معركة. وانخدع يوناثان وتقدم فى ١٠٠٠ من رجاله فأحاط به جيش ترايفون وأخذوه أسيرا ورهينة. وتقدم جيش أنطيوخس السادس جنوبا بحذاء الساحل ثم شرقا إلى حبرون ثم إلى بيت زور. وكان الهدف هو الفتّ فى عضد سمعان شقيق يوناثان وقائد جيشه حتى يسلِّم أورشليم. ولكن عاصفة ثلجية شديدة أجبرت أنطيوخس السادس على اللجوء إلى وادى الأردن الدافىء فعدل عن محاولة دخول أورشليم أو حصارها وأعدم يوناثان وعاد إلى أنطيوخ مركز قيادته. وأزاح ترايفون أنطيوخس السادس بوفاة تبدو طبيعية وتولى العرش بدلا منه.

٤ – **سمعان Simon** :

بعد إعدام يوناثان أصبح سمعان هو قائد الثورة المكابية. وأعلن سمعان انضمامه إلى **ديمتريوس الثانى** خصم القائد ترايفون. وجزاء له على هذا الإخلاص فإن ديمتريوس الثانى أرسل له مرسوما يؤكد فيه الاستقلال الكامل ليهوديا. وهكذا شهد عام ١٤٢ ق.م. مولد الدولة اليهودية كدولة مستقلة لأول مرة بعد احتلال دام ٤٤٤ عاما منذ السقوط البابلى عام ٥٨٦ ق.م. وفى العام الثانى تركت الحامية السلوقية حصن أكرا فى أورشليم وغادرت البلاد وبذلك أصبحت أورشليم بالكامل تحت سيطرة المكابيين. وسقط ديمتريوس الثانى فى إحدى المعارك على الحدود الشمالية وتولى بعده المُلكَ أخوه «أنطيوخس السابع» وأعلن سمعان مساندته له. وكمكافأة له سمح له بصك نقود باسمه كعلامة أخرى على استقلال يهوديا وأعلن اليهود فى فلسطين كلها مبايعة سمعان حاكما وكاهنا أعظم.

واشتد الصراع بين **أنطيوخس السابع** وترايفون. وأخيرا استطاع أنطيوخس أن يأسر ترايفون ويجبره على الانتحار. وتغلَّب كذلك على ديمتريوس الثانى وبذلك أصبح هو ملك السلوقيين لا ينازعه أحد على العرش ولكنه فى نفس الوقت بدأ يتخوف من تنامى قوة الدولة اليهودية الوليدة وطموحات سمعان حاكمها فأرسل جيشه بقيادة القائد «سنديبيوس Cendebe-us» فى حملة إلى الساحل الفلسطينى لاستعادة مناطق ادّعى أن سمعان قد استولى عليها بدون وجه حق مثل يافا وجازر (شكل ١٠٢) . فسار سنديبيوس بجيشه واتخذ من مدينة جامنيا Jamnia مركز قيادة له وبدأ فى بناء قلعة حصينة فى قدرون Kidron – بين جامنيا وجازر. وقام ولدى سمعان ومعهما رجالهما وهاجموا القوات السلوقية وهزموها وأعادوا



شكل ١٠١– معركة بيت شان وأسر يوناثان

١ – المعركة بين ترايفون ويوناثان .
٢ – الالتفاف لمهاجمة أورشليم من الجنوب .
٣ – الاستيلاء على حبرون وبيت زور .
٤ – محاصرة أورشليم ثم فك الحصار .
٥ – إعدام يوناثان .
٦ – عودة ترايفون – – – – – – – –

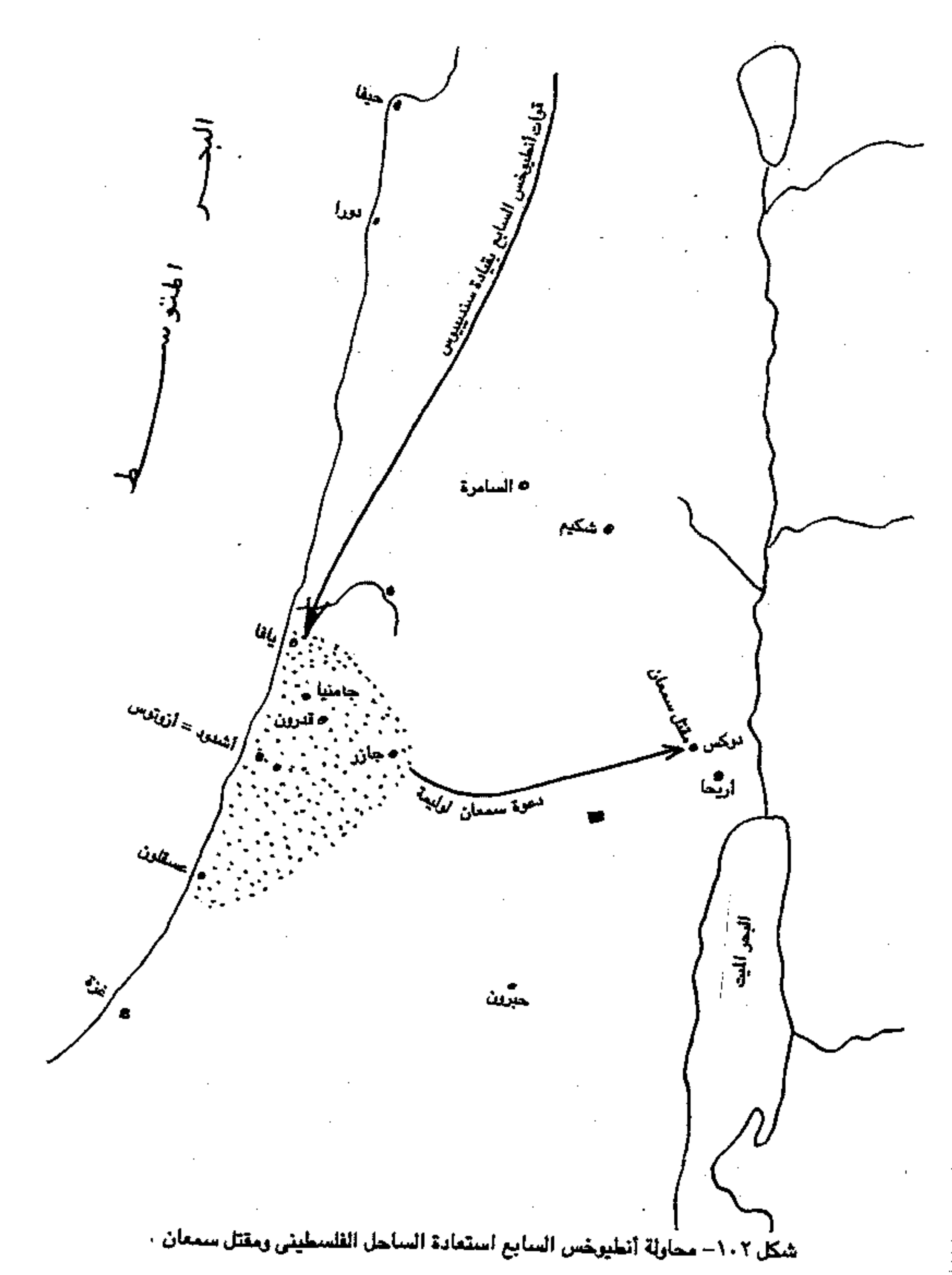
السيطرة على السهل الساحلي. وهنا لعبت الخيانة دورها. وبدأ الحزب الموالي للسلوقيين يتحرك لمساعدة أنطيوخس السابع محاولين إزاحة سمعان وإعادة إلحاق يهوديا ثانية كولاية سلوقية حتى يمكنهم استعادة نفوذهم. وكان سمعان قد عيَّن أحد أقاربه حاكما لمقاطعة أريحا. فدعا سمعان وأبناءه لحضور احتفال بأحد الأعياد في قلعة بلدة دوكس المجاورة وهناك قام بقتلهم جميعا (عام ١٣٥ ق.م.) إلا ابنا واحدا تخلف عن الوليمة هو يوحنا هيركانوس فآلت إليه قيادة الثورة.

٥ - يوحنا هيركانوس John Hyrcanus :

بعد مقتل والده وإخوته نودى بـ «يوحنا هيركانوس» كاهنا أكبر في أورشليم وحاكما على يهوديا. فسار بقواته للإنتقام لمقتل والده وأخويه ولكن الملك السلوقي (أنطيوخس السابع) كان قد احتجز والدة يوحنا رهينة وهدد بقتلها فاضطر يوحنا إلى تأجيل حصار أريحا. وبالرغم من ذلك فإن أنطيوخس السابع قام بقتل والدة هيركانوس ورجع إلى قاعدة له في شرق الأردن كانت قواته متجمعة بها فقادها وغزا يهوديا وحاصر أورشليم التي صمدت لعام كامل. وطلب يوحنا هيركانوس عقد هدنة بمناسبة عيد الفصح. ووافق أنطيوخس السابع. بل وأرسل لهم هدايا بمناسبة العيد. وكان في هذا إشارة لقبوله مبدأ التفاوض. وكانت شروطه هي اعتراف يهوديا بالتبعية لملك سلوقيا واستسلام أورشليم ودفع ٥٠٠ تالنت فضة فورا وهدم تحصينات أورشليم. (التالنت وحدة موازين تساوي ٩٣ رطلا - أطلس الكتاب المقدس - أونجر - ص ٨٤٤). ولم تكن الشروط بالغة القسوة إذ لم يتم إعدامات للشعب. وقبِل يوحنا هيركانوس الشروط وظل محتفظا بمركزه كحاكم لولاية يهوديا وكاهنا أعظم في أورشليم. وظل الوضع في يهوديا تحت سيطرة أنطيوخس السابع إلى أن قتل في عام ١٢٩ ق.م. في إحدى غزواته في شرق بحر قزوين. وبموت أنطيوخس السابع خفَّت قبضة السلوقيين عن يهوديا. فبدأ يوحنا هيركانوس غزوات توسعية فضم «ميدبا» و «سماجا» في شرق الأردن. ثم اتجه شمالا وأخضع السامريين الذين كانوا دائما يضايقون اليهود وبذلك ضم إلى نفوذه ولاية سماريا بالكامل. وقام بهدم هيكل جرزيم الذي كان السامريون قد بنوه كما سبق أن ذكرنا (ص ٣٠٦) ولكن السامريين ظلوا يقدمون قرابينهم على الجبل في المكان الذي كان به هيكلهم. وظلوا يفعلون ذلك حتى جاء المسيح عليه السلام.

ووثَّق يوحنا هيركانوس علاقته بروما التي أقرَّت استقلاله. وفي عام ١٢٥ ق.م. اتجه جنوبا وأخضع ولاية إيدوميا حتى بئر سبع واستولى على ميناء دورا Dora على ساحل البحر المتوسط (٢٢ كم جنوبي حيفا) وعلى مدينة مريشا (٢٠ كم شمال غرب حبرون) وهكذا أصبحت كل «الأرض الموعودة» - تقريبا - تحت سيطرة اليهود مرة ثانية. ماعدا أجزاء في أقصى الشمال.

ومن الأعمال المجيدة التي تذكر ليوحنا هيركانوس هو **دمج الأدوميين** في بني إسرائيل.



شكل ١٠٢ – محاولة أنطيوخس السابع استعادة الساحل الفلسطيني ومقتل سمعان .

فمعروف أن الأدوميين (ذرية عيسو شقيق يعقوب) كانوا يسكنون المنطقة الواقعة بين البحر الميت شمالا وخليج العقبة جنوبا وكانت هذه المنطقة تعرف بأرض أدوم. ولكن العرب الأنباط بدأوا في توسيع مملكتهم غربا فاستولوا على أرض أدوم وطردوا الأدوميين الذين لجأوا إلى الجزء الجنوبي من أرض يهوذا فسكنوه مجاورين اليهود وأصبح الجزء الجنوبي من يهوذا يسمى «إيدوميا». وعلى مر الأعوام تهوَّدوا جزئيا. ولما جاء يوحنا هيركانوس فإنه عمل على أن يكون تهويدهم كاملا بأن أجبرهم على الإختتان. وبذلك اندمج بنو عيسو مع بني يعقوب وأصبحوا جزءا من اليهود. وتوفي يوحنا هيركانوس عام ١٠٤ ق.م.

٦ - أرسطوبولس الأول :

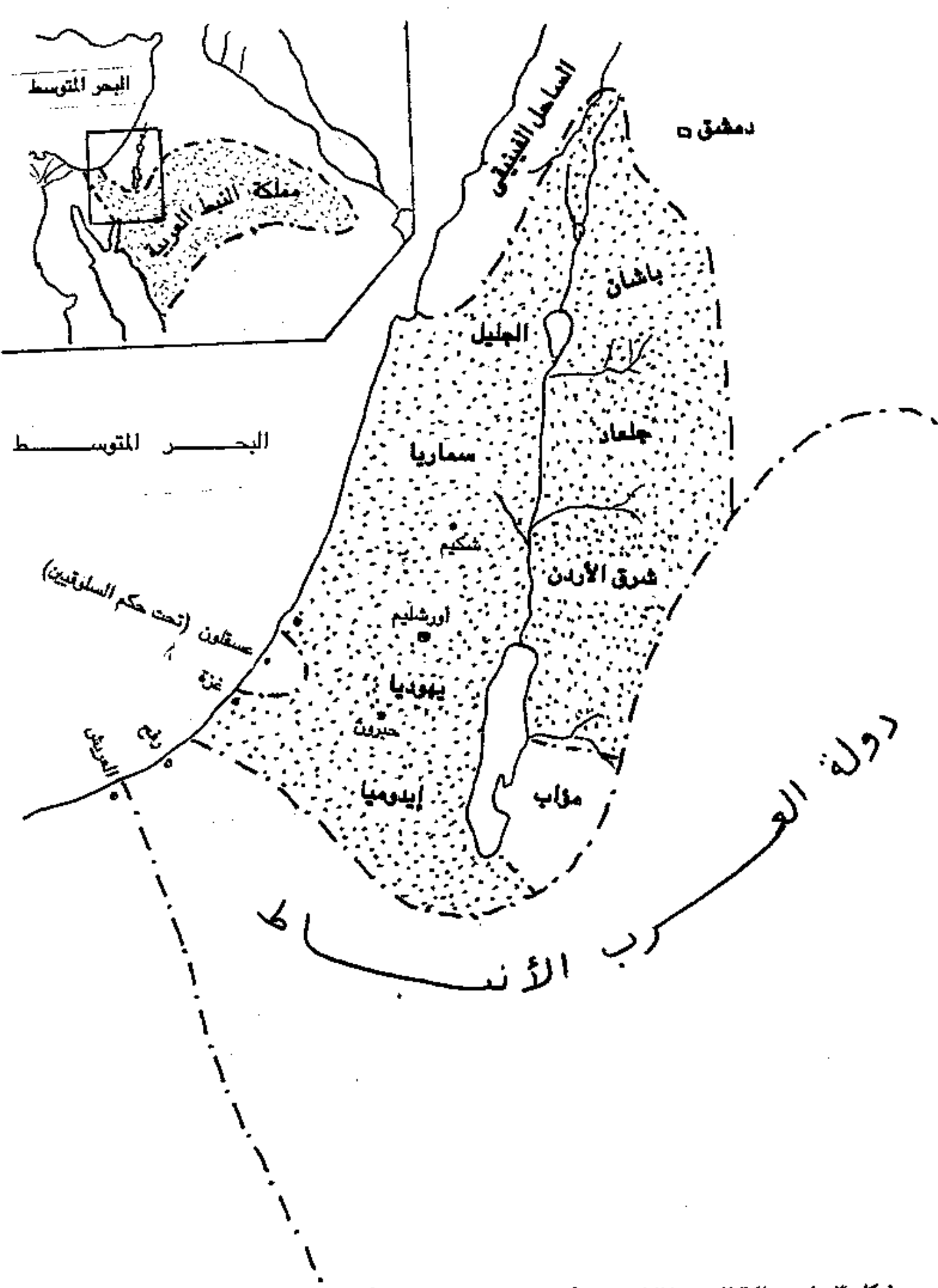
بعد وفاة يوحنا هيركانوس خلفه ابنه - أرسطوبولس الأول - في حكم يهوديا وككاهن أعظم أيضا. وهو أول من اتخذ لقب «ملك» منذ فترة الأسر. وكان قاسيا في سياسته إذ فور توليه الحكم عمل على التخلص من كل من قد ينازعه الحكم فقتل أخاه أنتيجونس وسجن إخوته الثلاثة الباقين وحبس والدته حتى ماتت جوعا وعطشا. ووسَّع مملكته ووطَّدَ ملكه في اتجاه الشمال فضم منطقة الجليل بالكامل وأجبر سكانها من غير اليهود على التهوُّد. ولم يدم حكم أرسطوبولس الأول غير سنة واحدة (١٠٤ - ١٠٣ ق.م.).

٧ - ألكساندر جاني Alexander Jannaeus :

بعد وفاة أرسطوبولس الأول قامت زوجته سالومي ألكسندرا Salome Alexandra بالإفراج عن إخوته الثلاثة المسجونين وعينت ألكساندر جاني ملكا وكاهنا أعظم وتزوجت منه بالرغم من أن القاعدة تقضي بأن لا يتزوج الكاهن الأعظم إلا من عذراء. وقد حكم ألكساندر جاني مدة طويلة بلغت ٢٧ عاما (١٠٣ - ٧٦ ق.م.) ويمكن اعتبار فترة حكمه هي ذروة قوة وقمة نجاح الثورة المكابية وإن لم تخل من شوائب. فمن محاسن فترة حكمه أنه أخضع وهوَّد السهل الساحلي من جبل الكرمل حتى غزة - ماعدا عسقلون. وكذلك مدَّ نفوذه بالكامل عبر الأردن من مدينة «دان» في الشمال حتى الطرف الجنوبي للبحر الميت (شكل ١٠٣) وهنا اصطدم بالعرب الأنباط.

العرب الأنباط :

هم نسل نبايوت ابن اسماعيل عليه السلام وكانوا يعيشون في شمال الجزيرة العربية ولكنهم بدأوا يوسعون منطقة نفوذهم في اتجاه شمال غرب فاستولوا على أرض أدوم وطردوا الأدوميين إلى جنوب يهوذا كما ذكرنا آنفا فأصبحوا يسيطرون على الطرق الرئيسية للتجارة في المنطقة وأصابوا من ذلك أموالا كثيرة. وعززت قوتهم الاقتصادية من مكانتهم السياسية. ثم توسعوا غربا فوصلوا إلى ساحل البحر المتوسط في المنطقة من جنوب غزة حتى بحيرة



شكل ١٠٣– مملكة اليهود المكابية فى أقصى توسعها فى عهد ألكساندر جانى (١٠٠ ق.م.) ومملكة النبط العربية .

البرديل. وبدأ خطر يتهدد دولة اليهود الوليدة متمثلا فى تحالف الملوك السلوقيين مع ملوك دولة النبط. فرأى ألكساندر جانى أنه من الخير له أن يكسب ود العرب الأنباط حتى يستطيع الاحتفاظ بعرشه ويضمن مرورا آمنا لتجارته. لذلك فإنه تنازل لهم عن مناطق فى شرق الأردن (جلعاد) وشرق البحر الميت (مؤاب) وإن كان بعض المؤرخين يرون أن استيلاء النبط على هذه المناطق كان نتيجة حرب انهزم فيها اليهود.

وكانت أكبر مساوىء حكم ألكساندر جانى هو اشتعال الصراع بين الصدوقيين والفريسيين بأفعاله غير المتزنة. وقبل الدخول فى هذا علينا أن نلم إلمامة سريعة بهاتين الطائفتين من طوائف اليهود مختصرة عن المراجع التالية: المذاهب والأديان (العميد عبد الرازق محمد أسود). قصة بنى إسرائيل. (عبد الرحيم محمد فودة). إسرائيل. (محمد بيومى مهران).

الصدُّوقيون :

واسمهم مشتق من اسم «صادوق» رئيس الكهنة أيام داود وسليمان عليهما السلام. وظلت رئاسة الكهنة فى أفراد من عائلة صادوق حتى عصر المكابيين. فسُمِّى خلفاؤه وأنصاره «صدُّوقيُّون». وعلى عكس اسمهم فقد عرفوا بالإنكار:

١ – فهم ينكرون البعث والحياة الآخرة والحساب والجنة والنار ويرون أن جزاء الإنسان إنما يتم فى الحياة الدنيا.

٢ – ينكرون الخلود الفردى ويذهبون إلى أن النفس تموت مع الجسد وينكرون وجود الملائكة والشياطين.

٣ – لا يؤمنون بالقضاء والقدر ويؤمنون بحرية الاختيار وأننا سبب الخير وأن الشر يحدث بسبب حماقة أفعالنا وأن لا دخل لله فى صنعنا للخير أو إعراضنا عن الشر.

٤ – ينكرون المسيح ولا يترقبونه ويقولون عزير ابن الله. وقد كان إنكارهم للبعث والحياة الآخرة سببا فى وقوع الخلاف بينهم وبين المسيح عليه السلام وعارضوه وقاوموا دعوته.

٥ – هم لا يميلون إلى العنف ويميلون إلى احترام القوانين المعمول بها فى البلد مادامت لا تمس الديانة اليهودية ويرون أن من الحكمة قبول الأمر الواقع. ولذلك كان معظم أتباع هذا المذهب من الطبقة الأرستقراطية من اليهود ولذلك اعتُبروا «حزب المحافظين» فى الشعب اليهودى. وفى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد أيام الحكم الفارسى والحكم اليونانى أخذ الكهنة – وهم من الصدوقيين – يضعون الاعتبارات السياسية فوق الاعتبارات الدينية. وفى زمن أنطيوخس الرابع كان عدد كبير من الكهنة من محبى الثقافة اليونانية. ولما تولى المكابيون رئاسة الكهنوت بجانب رئاسة الدولة نشط الصدوقيون وزجُّوا بأنفسهم فى السياسة وزادوا تقربا من الثقافة والنفوذ اليونانيين. وقد أبدى يوحنا هيركانوس ميلا إلى الصدوقيين. أما

ألكساندر جانى فقد كان منحازا بالكامل إلى الصدوقيين إلى حد التعصب وتمادى فى معاداة الفريسيين.

الفريسيون :

وفريسى كلمة أرامية معناها «المنعزل» ويمكن تشبيههم بفرقة «المعتزلة» إحدى الفرق الإسلامية. ويرى أونجر (قاموس الكتاب المقدس . ص ٩٩٧) أن البعض يرجع نشأتهم إلى وقت عودة السبى بقيادة زربابل أو مع عزرا واعتزالهم للوثنيين الذين وجدوهم يعيشون فى الأرض واعتزالهم لنجاساتهم ولكن آخرين يرون أنهم لم يعتزلوا نجاسة الوثنيين فقط بل - لتزمُّتهم الشديد - فإنهم اعتزلوا كل ما أصاب اليهود من تقاليد وممارسات يشتبه فى نجاستها. وهم إحدى الفئات اليهودية الرئيسية وكانوا مناهضين للصدوقيين. وأهم ما يميز مذهبهم هو أنهم:

١ - يؤمنون بالقدر ويجمعون بينه وبين إرادة الإنسان الحرة.

٢ - يؤمنون بخلود النفس وقيامة الجسد ووجود الأرواح ومكافأة الإنسان أو معاقبته فى الآخرة بحسب صلاح حياته الأرضية أو فسادها. غير أنهم حصروا الصلاح فى طاعة الناموس فجاءت عباداتهم ظاهرية وليست قلبية داخلية.

٣ - يؤمنون بالمسيح الذى سيجىء ليعيد ملكوت الله وأن دولة اليهود لابد أن تستعيد مكانتها.

٤ - يؤمنون بأنه إلى جانب الأسفار الخمسة من التوراة يوجد التلمود وهو روايات شفاهية ومجموعة من القواعد والوصايا والشروح والتفاسير تناقلها الحاخامات جيلا بعد جيل. أى أنها توراة شفاهية أو تقليد سماعى عن موسى تناقله الخلف عن السلف ولكن دوَّنوه خوفا عليه من الضياع وزعموا أنه معادل للشريعة أو أهم منها. ولضمان تقديس التلمود أعلنوا أن الحاخامات معصومون وأن أقوالهم صادرة عن الله تعالى وأن مخافتهم هى مخافة الرب.

٥ - كان الفريسيون عند نشأتهم من أنبل الناس خلقا وكان أكثرهم يعيشون فى تصوف وزهد ولا يتزوجون. غير أنهم على مر الزمان دخل حزبهم من كان دون ذلك ففسد جهازهم واشتُهر عن معظمهم الرياء والعُجب فتعرضوا - عن استحقاق - للانتقاد اللاذع والتوبيخ القاسى.

٦ - كانوا ينظرون إلى الأمور ليس من وجهة نظر سياسية بل من وجهة نظر دينية. وكان هدفهم هو التطبيق الحرفى للشريعة. وفقط عندما بدأت السلطات المدنية تمنعهم من تطبيق الشريعة بحذافيرها فإنهم تجمَّعوا وبدأوا يعارضون السلطات وبذلك تحولوا إلى حزب ولكنهم لا يؤمنون بالعنف. لذلك كانوا ينظرون إلى الأمور السياسية بنظرة غير مبالاة. وفى نظرهم أنه

إذا ساد الوثنيون على إسرائيل فهذه إرادة الله وأنه تأديب من الرب ويجب قبوله بنفس راضية. وأن أي حكومة قاسية أو ظالمة يجب تحملها مادام تطبيق تعاليم الشريعة لا يُمنع. وفي المقابل فإنهم يؤمنون بمبدأ أفضلية اليهود بصفتهم شعب مختار وأن أي سيادة وثنية عليهم هي ظرف شاذ ويجب مناهضته. كما أنهم يؤمنون بأن الحكم يجب أن يكون في بيت داود الذي مسحه الله.

٧ - كانوا يتجنبون الاختلاط بالوثنيين بصفتهم نجسين. ثم انسحب عدم الاختلاط كذلك على فِرَق اليهود الأخرى لأنهم في نظرهم غير طاهرين. وقد اشتركوا في الثورة المكابية ضد أنطيوخس الرابع وكان يوحنا هيركانوس من الفريسيين ولكنه تركهم والتحق بالصدوقيين وتمادى ابنه ألكساندرجاني في عداوته للفريسيين.

وكما سبق أن قلنا إن تصرفات ألكساندر جاني زادت من حدة الصراع بين الفريقين. مثال ذلك أنه في أحد الأعياد الدينية (عيد الفصح) بدلاً من أن يسكب الماء المقدس على المذبح كما تقضي بذلك التقاليد الفريسية فإنه سكبه على قدميه! فردَّ المتعبدون من الفريسيين بقذفه بالليمون. وكان رده عنيفا إذ أعدم ٦٠٠٠ من الفريسيين مستخدما في ذلك جنودا مرتزقة وقامت على إثر ذلك حرب أهلية بين الجانبين سقط فيها ٥٠,٠٠٠ معظمهم من الفريسيين الذين اضطروا إلى طلب العون من العاهل السلوقي ديمتريوس الثالث الذي سرعان ما استجاب وغزا فلسطين وهزم ألكساندر جاني في شكيم. ولكن الفريسيين أدركوا ما قد يتهدد استقلال دولة اليهودية من جراء هذا التدخل الخارجي وبدأوا يراجعون أنفسهم ورأوا أنه من الأفضل لهم أن يعيشوا تحت حكم الصدُّوقيِّين من اليهود عن أن يحكمهم السلوقيون. وبدأوا يتركون معسكر ديمتريوس الثالث الذي لمس هذا التحول في المشاعر نحوه فآثر أو اضطر إلى الانسحاب. وعاد ألكساندر جاني. ولم يعامل معارضيه بالرحمة بل إنه أمر بصلب ٨٠٠ فريسي وقتل زوجاتهم وأولادهم أمام أعينهم بينما كان هو يعربد مع محظياته.

وأصيب ألكساندرجاني بالأمراض نتيجة انغماسه في الملذات الحسيَّة. وفيما هو على فراش الموت أدرك أن الفريسيين يحظون بمساندة شعبية كبيرة فأوصى زوجته سالومي ألكساندرا بعقد صلح معهم وتوفى عام ٧٦ ق.م.

٨ - سالومي ألكساندرا :

بعد وفاة ألكساندرجاني تولت زوجته سالومي ألكساندرا الحكم وعينت نجل ألكساندر جاني المسمى هيركانوس الثاني كاهنا أعظم وكبحت جماح الابن الثاني أرسطوبولس الثاني الذي كان يتطلع إلى هذا المنصب. واتبعت سياسة المهادنة مع الفريسيين كما أوصاها زوجها

قبل وفاته. وقد تميزت فترة حكمها (٧٦ – ٦٧ ق.م.) بالهدوء. وقاد أرسطوبولس حملة إلى دمشق ولكنها منيت بالفشل ونجحت الملكة في إبعاد خطر الغزو من جانب أرمينيا في الشمال باتباع سياسة الدبلوماسية وتقديم الهدايا. كما أنها نجحت إلى حد كبير في حفظ التوازن بين حزبي الدولة الرئيسيين: وهم الصدوقيون والفريسيون.

٩ – أرسطوبولس الثاني :

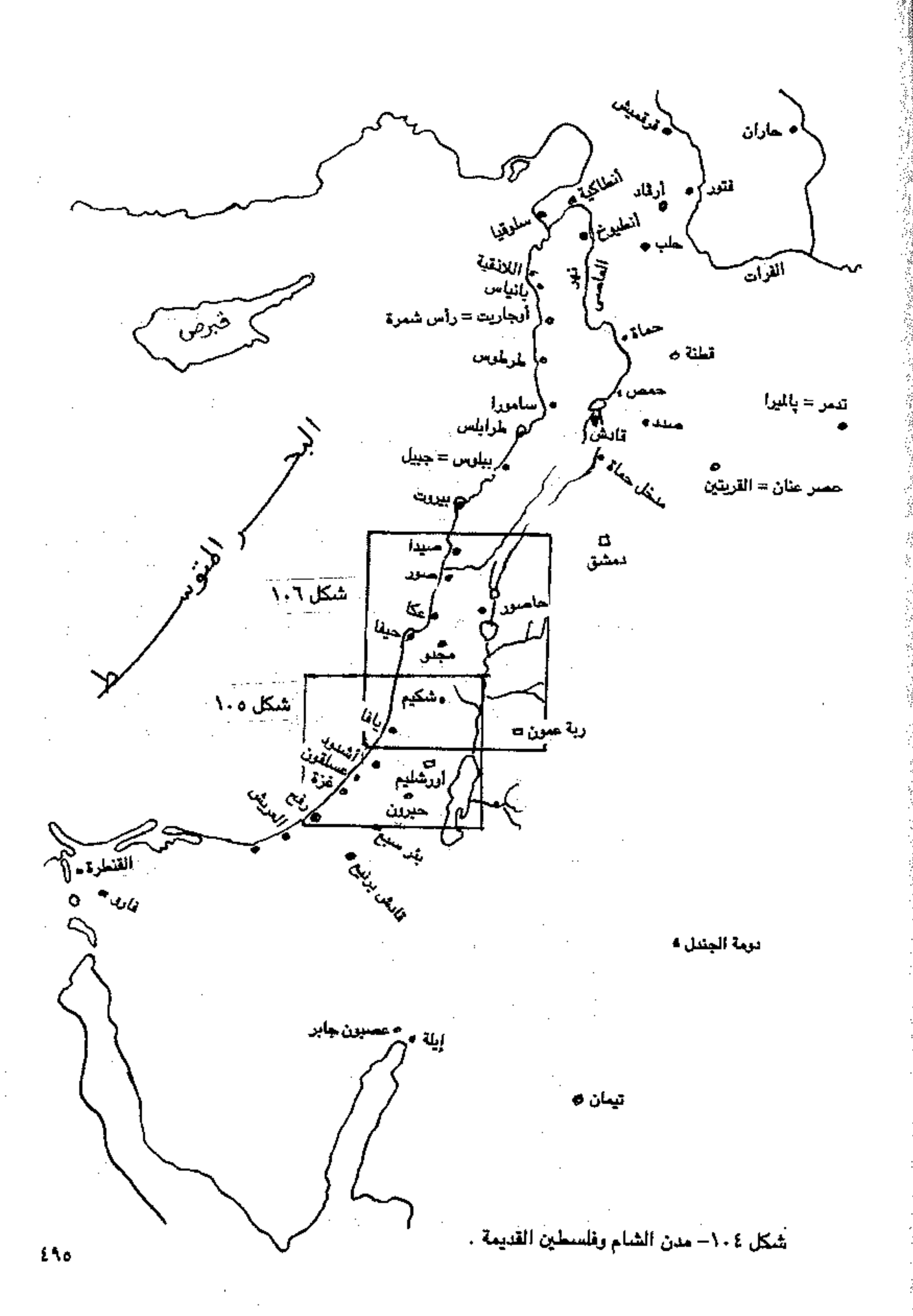
بمجرد وفاة سالومي ألكساندرا قام أرسطوبولس الثاني يسانده الجيش بحركة ضد هيركانوس الثاني – صاحب الحق الشرعي في الحكم والمعيَّن كاهنا أعظم – فأبعد عن الحكم وتولى أرسطوبولس الثاني الحكم ومنصب الكاهن الأعظم أيضا. وانسحب هيركانوس الثاني من الحياة السياسية بهدوء . ولكن «أنتيباتر» – وهو أدومي تهوَّد – وكان قد وُلِّي حاكما على مقاطعة أدوميا – رأى أن يؤجِّج الصراع بين الأخوين فأغرى هيركانوس باللجوء إلى «أريتاس» ملك النبط ليساعده في الإطاحة بأرسطوبولس واستعادة حقه في الحُكم. وقام أريتاس بغزو أورشليم. في ذلك الوقت كانت قوات روما تتقدم شرقا في آسيا الصغرى. ووصل القائد الروماني إلى دمشق عام ٦٥ ق.م. فمثل أمامه الأخوان أرسطوبولس الثاني وهيركانوس الثاني حاملين الهدايا وكلٌّ يطلب تعيينه حاكما وكاهنا أعظم لليهود. وأقر القائد الروماني بقاء أرسطوبولس الثاني في منصب الكاهن الأعظم وحاكما أيضا. وطلب من أريتاس ملك النبط سحب قواته من أورشليم. ولما وصل پومپي حاكم روما والقائد الأعلى للقوات الرومانية بنفسه إلى دمشق عام ٦٣ ق.م. مثل الأخوان الخصمان أمامه وطلبا حلاً للنزاع بينهما. ولم يبت پومپي في الحال في طلبهما إذ انشغل في حملة ضد العرب الأنباط. ولما لم يشترك أرسطوبولس في الحملة إلى جانبه فإنه بعد أن فرغ من النبط سار بقواته إلى أورشليم. وفتح أعوان هيركانوس الثاني أبواب المدينة التي تقع في ناحيتهم لقوات روما. ولكن أتباع أرسطوبولس الثاني ظلوا متمسكين ويدافعون عن جبل المعبد. وبعد حصار دام ثلاثة أشهر دخل الرومان منطقة المعبد وتم إعدام ١٢,٠٠٠ يهودي. وبعد الاستيلاء على المعبد دخل پومپي بنفسه إلى قدس الأقداس ولكنه سرعان ما أمر بأن يُنظَّف المعبد ثانية وتقدم الذبائح اليومية كما كانوا يفعلون في السابق. أما أرسطوبولس وكل أفراد أسرته فقد أخذوا أسرى إلى روما.

١٠ – هيركانوس الثاني :

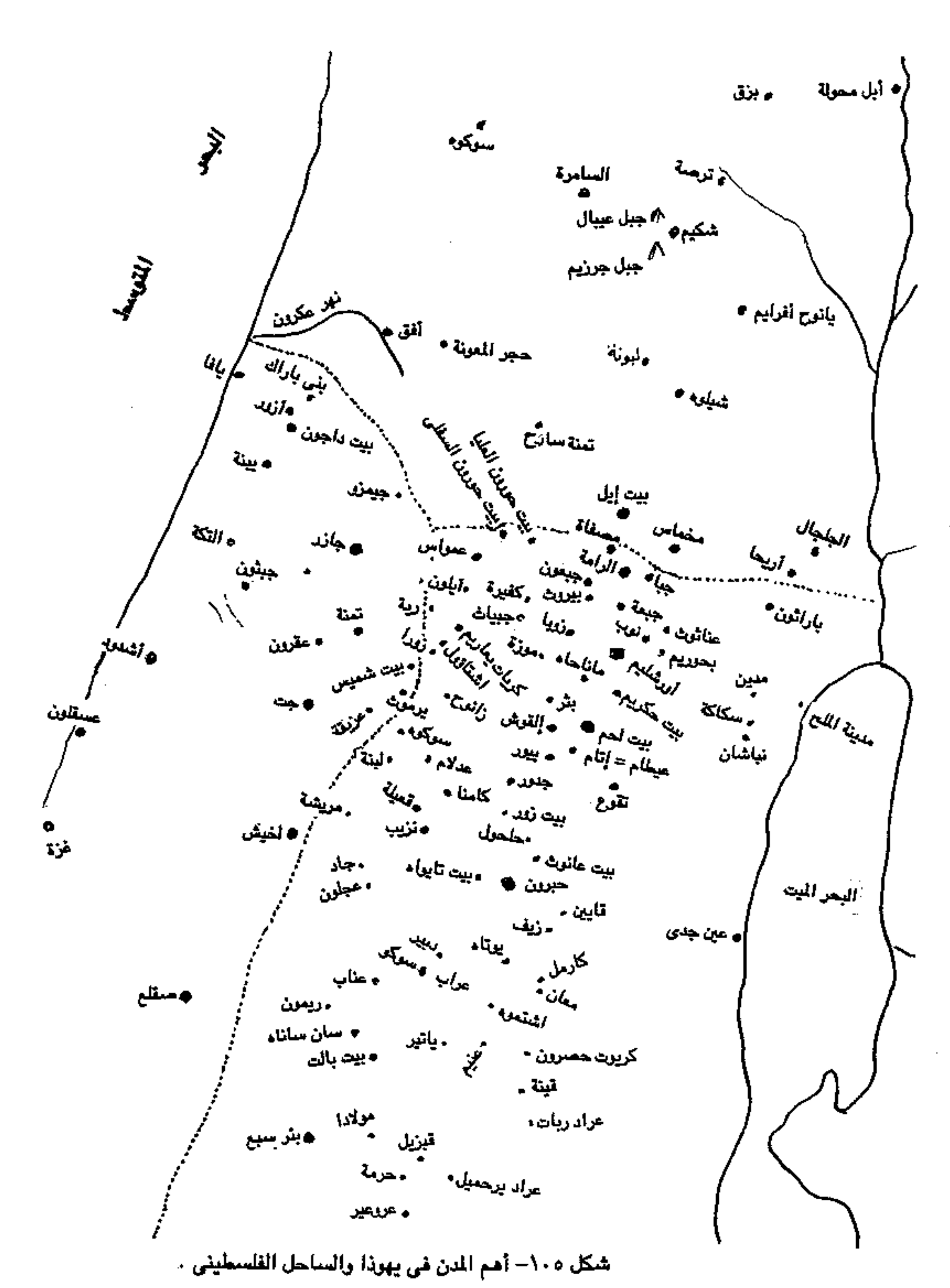
تم إعادة هيركانوس الثاني إلى منصب الكاهن الأعظم والذي كان يشغله قبل إزاحة أرسطوبولس له. ولكن هيركانوس لم تكن له أي سلطة سياسية أذ كانت يهوديا وأورشليم تحت قبضة الرومان القوية بعد أن أصبحت كل فلسطين ولاية رومانية في عام ٦٣ ق.م. وظل هيركانوس كاهنا أعظم لمدة ٣٢ سنة إذ قتل في عام ٣٠ ق.م. وكان هو آخر سلالة الأسرة الحسمونية التي حكمت يهوديا أثناء الثورة المكابية.

ختـــام :

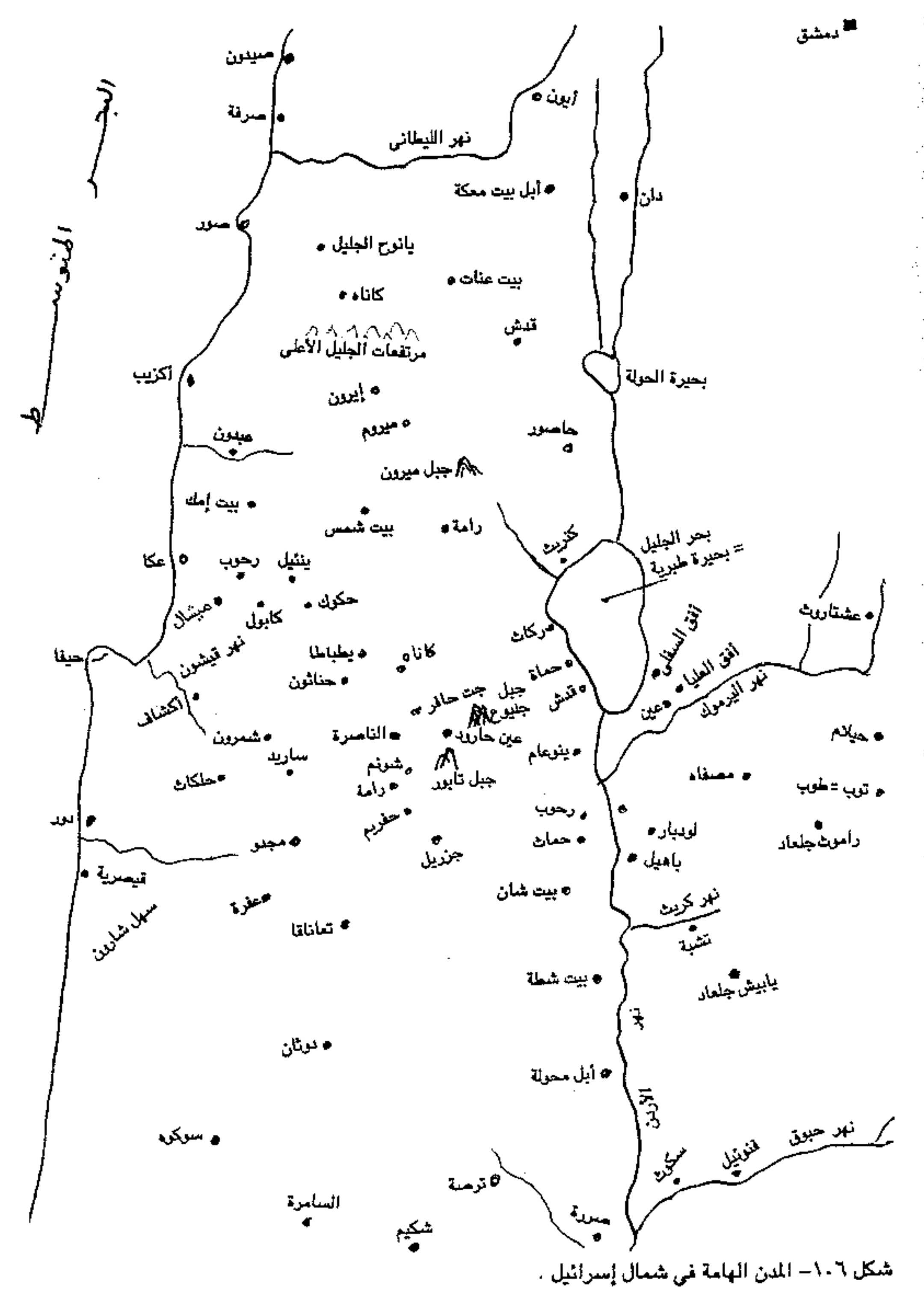
يعتز اليهود كثيرا بهذه الثورة ويعتبرونها من مفاخرهم العظمى إذ أنها حققت لهم الاستقلال الكامل بعض الوقت. وأطلق على بعض حكامها لقب «ملك» الأمر الذى لم يتمتعوا به منذ عدة قرون . منذ الاحتلال الأشورى. ولكن الاحتلال الرومانى قضى على هذا الاستقلال وإن كانت يهوديا ظلت تحتفظ بوضع خاص إذ يحكمها حاكم من أبنائها هو «حاكم اليهودية» يدير شئونها الدينية والمدنية فيما يمكن اعتباره حكما ذاتيا تحت الحكم الرومانى. ولكن اليهود ظلوا ينتظرون «المخلِّص» الذى توقعوا - حسب تفسيراتهم لنبوءات أنبيائهم - أن يخلِّصهم من الاستعمار الأجنبى ويعيد لهم استقلالهم ودولتهم بل ويصبح الآخرون خاضعين لهم. وجاء عيسى عليه السلام. ولكن مملكته كانت روحية ولم يعطِ لليهود ملكا دنيويا. لذلك رفضوه وأسلموه إلى أعدائه كما سيجىء فى الجزء السادس إن شاء الله.



شكل ١٠٤– مدن الشام وفلسطين القديمة .



شكل ١٠٥– أهم المدن فى يهوذا والساحل الفلسطينى .



شكل ٦-١٠ – المدن الهامة في شمال إسرائيل .

هـذا الكتاب

هذا هو الجزء الخامس من سلسلة « قصص الأنبياء والتاريخ» وهو يغطى فترة تمتد أحد عشر قرنا تبدأ من عام ١١٦٥ ق.م. وهو العام الذى خلف فيه يشوع النبى موسى عليه السلام فى قيادة بنى إسرائيل لدخول «الأرض» فأنشأوا دويلات متفرقة «اثنتى عشرة أسباطا أمما». ثم طلبوا من صموئيل نبيهم أن يُوحدهم فى مملكة واحدة فبعث الله لهم طالوت (شاول) ملكا. ولما تجبَّر شاول اختار الله دواود ملكا ونبيا وخلفه سليمان أيضا ملكا ونبيا. ولما توفى سليمان انقسمت مملكته إلى مملكتين: الشمالية «إسرائيل» والتى تعاقب على حكمها ١٩ ملكا. ضل معظمهم وعبدوا الأصنام. فكانت نهايتها على يد أشور إذ استولى الأشوريون عليها عام ٧٢٢ ق.م. وكان «السبى الأشورى» لأهلها. ولاقت المملكة الجنوبية «يهوذا» نفس المصير ولكن بعد حوالى مائتى عام باستيلاء بابل على أورشليم وتدمير الهيكل عام ٥١٩ ق.م. وكان «السبى البابلى». ثم جاء الفرس وقضوا على بابل. وسمح «قورش» بعودة فوج من اليهود وإعادة بناء الهيكل فى أورشليم. ثم جاء الإسكندر الأكبر وقضى على امبراطورية الفرس وخضع اليهود للحكم الإغريقى. ولكن طغيان المملكة السلوقية وسوء معاملتها لليهود فجَّرا الثورة المكابية التى حققت لليهود استقلالاً قصيرا سرعان ما قضى عليه استيلاء الرومان على الشرق الأدنى القديم عام ٦٣ ق.م.

فى هذه الأحد عشر قرنا ظهر فى بنى إسرائيل كثير من الأنبياء. نذكر فى هذا الجزء سبعة وعشرين نبيا هم: يشوع. دبورة النبية. جدعون. صموئيل. داود. سليمان. يونس (يونان). إلياس (إيليا). اليسع (أليشع). شمعيا. عزريا. يحزئيل. أليعازر. إشعياء. ميخا. صفنيا. ناحوم. إرميا. حبقوق. أوريا. حزقيال. حننيا. دانيال. نحميا. ملاخى. عزرا. حجَّى.

أرجو أن أكون فى هذا الجزء قد ألقيت الضوء على جوانب كانت خافية من قصص أنبياء بنى إسرائيل ومن تاريخهم. وفى الجزء السادس إن شاء الله سنذكر آخر أنبيائهم: زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

المؤلف